الحوار الغائب

(الجزء الثاني)

عبد الغني العمري الحسني

مقدمة

إن العقيدة، مشتقّة من فعل "عَقَد"، على صيغة اسم المفعول "فعيل"، وعلى التأنيث. ومعناها، ما ينعقد عليه قلب الفرد أو قلوب الجماعة، من تصورات للأمور في مجال مخصوص. وهي في المجال الديني، ما يعتقده الناس في الألوهة وفي النبوة وما يتفرع عنهما كالعقائد المتعلقة بالآخرة وبالجنة والنار.

وإن أول مصدر للعقائد، هو الشرائع نفسها؛ من كون الشرائع تكثيفا لمعانٍ، هي ذاتها مناطات العقائد من جهتها. ورغم أن المتديّنين، لا يفطنون كثيرا، إلى ما تحويه الشرائع من معان عقدية؛ ورغم تمييزهم في التناول، بين الشريعة والعقيدة، بما يوهم بالفصل؛ إلا أننا نُصرّ على اعتبار الشريعة أول مصادر العقيدة. ولسنا هنا نحصر معنى الشريعة في الوحي الإلهي وحده (النص)، كما قد يفهم ذلك كثيرون؛ ولكننا نعني على الخصوص صور العبادات (الشعائر)، من جهتَيْ اللفظ والهيئة والوقت؛ كما نعني صور المعاملات التي بين العبد وربه من جهة، وبين العبد ونُظرائه (العالم) من جهة أخرى. وهذا في كثيره، عائد إلى السنّة القولية والعملية بعد الكتاب. وعلى هذا، فإن أصل معنى التوحيد لدى الكتابيّين –مثلا– نجده في توحيد القبلة لدى الأمة المخصوصة منهم. فأما اليهود، فإن قبلتهم هي بيت المقدس؛ وأما النصارى، فالكاثوليك منهم قبلتهم جهة الشرق، والبروتستانت قبلتهم مُطلقة (غير محددة الجهة)؛ وأما المسلمون فقبلتهم الكعبة من البيت الحرام. وهذا المعنى، يجعل مَن كانت قبلته محددة، أدخل في معنى التوحيد ممن كانت قبلته غير محدّدة؛ لأن الإطلاق بهذا المعنى لا يفيد ولا يُنتج علما أو قربا. وهذا يعني أن الكاثوليك أكثر توحيدا من البروتستانت، من هذا الوجه الأولي؛ وإن كان الكاثوليك أنفسهم قريبين من الإطلاق، عند توجُّههم إلى جهة الشرق كلها. ومعنى الإطلاق، من جهة الحقائق، أشرف من التقييد؛ لكنه ينبغي أن يُستخرج من التقييد، ولا يُقصد بدايةً، كما نبّهنا. وهذا المعنى، هو ما يجعل القبلة لدى المسلمين، عند تعذّر تحديد موضع الكعبة بدقة، لسبب من الأسباب، تكون جهة الكعبة فحسب. وهكذا، فإنها تصير إما جهة الشرق كلها، بالنظر إلى من يوجد غرب البيت الحرام؛ وإما جهة الغرب كلها، بالنظر إلى الموجودين شرقه. وإن كان التوجه إلى القبلة وحده، يُعطي في العقائد ما ذكرنا، فما الظن بعد ذلك، بكل صور الشعائر وكل الألفاظ. كل هذا من جهة الظاهر، وما يتعلّق بالبدن؛ وأما من جهة القلب فإن الأمر أدق وأوسع.

والقلب من كل عبد، لا بد أن يتوجّه إلى قبلة تناسبه؛ ليقع التوجّه من جهة المعنى، كما وقع من جهة الحسّ، فيكمل المعنى. ولا تكون وجهة القلب إلا الأسماء الإلهية، التي يتجلّى الله بها له. ومن هذا الوجه، فإنه لا يخلو عبد من العباد، من توجّه إلى اسم ما؛ كما لا يخلو بدنه عن التوجه إلى قبلة ما، وإن كانت غير محددة في حق قوم مخصوصين كما أسلفنا الإشارة. وهذا يجعل كل الناس عابدين لربهم من جهة الظاهر، ومن جهة الباطن معا؛ وإن كانوا في العُرف والشرع ممن يُسمَّوْن كافرين أو مشركين أو ملحدين (بالمعنى الشائع). الفرق الوحيد بين المؤمن والكافر من جهة الشرع، هو أن المؤمن متبع طريقا مشروعة من قِبل الله، وأن الكافر متّبع لطريق غير مشروعة. وبما أن الطريق المشروعة لا تتعدد (وإلا فقدت معناها)، فإن الطرق غير المشروعة لا عدّ لها، وهي كثيرة جدا. وإلى هذا المعنى يُشير قول الله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: ١٥٣]. وبما أن البدن لا بد له من قبلة، والقلبَ لا بد له من وجهة، فإنه لا فرق بين مؤمن وكافر إلا بالطريق المتبوع، ظاهرا وباطنا. ونعني من قولنا ظاهرا وباطنا هنا، أن الظاهر تابع في الحكم للباطن، بحسب الاسم المتجلّي للعبد. ومن هذا الوجه يكون

توجه القلوب المهدية إلى الاسم "الهادي"، في حين يكون توجه القلوب الضالّة إلى الاسم "المُضل". والاسمان معا، هما تحت حكم الاسم "الرب" والاسم "الملك" كليهما، اللذيْن يكونان تحت حكم الاسم "الله" وخليفته الاسم "الرحمن". وهذه الحقيقة، تجعل كل الناس عابدين لله، كما ذكرنا، وإن كانت عبادتهم لا من الوجه ذاته. وهذا هو أيضا ما يجعل مآلات العباد مختلفة، بين جنة ونار؛ على ما في ذلك من تفاوت لا يحصره إلا الله. فحصل بالمجموع القصد!...

ونحن إن عُدنا إلى عقائد أهل الكتاب وعقائد المسلمين، فإننا نجدها في أصلها ناتجة عن تجلّي الاسم "الهادي"؛ وإن دخل عليها حكم "المضل" فيما بعد، إما كليّا، كما هو شأن اليهود والنصارى بعد انقضاء مدة الرسالة المعتبرة لدى الشارع؛ وإما جزئيا، كما هو حال المسلمين في عقائدهم الضالة، التي ظهرت مع الزمن في بعضهم. كل هذا الذي نقوله، من جهة الغيب على التمام، لا من جهة الشهادة. ولسنا هنا نعني بالشهادة معناها العُرفيّ المقابل للغيب، والذي يكون المطابق للحسّ؛ وإنما نعني ما يتعلق بالعقل حصرا. وهو مجال المعاني المعقولة، في حق من كان من أهل المَلَكة؛ أو المعاني المُتصوَّرة، في حق العقول الضعيفة؛ أو هما معا، بحسب المعنى المتناول والصورة المتناولة.

وفيما يخصّ العقل، فإننا نفرّق بين ضربيْن من التناول، لا بدّ من التفريق بينهما، في كل كلامنا: وهما ما نسميه: عَقْلاً (مصدر) بمعنى ما، وما نسميه تَعَقُّلاً بمعنى آخر. وما نعنيه بالعقل هو إدراك العقل للمعنى من غير تعمُّل (استقبال)؛ في مقابل التعقّل الذي هو إدراك بتعمُّل. ولو رجعنا إلى القرآن، لوجدناه يدل على معنى العقل دون التعقّل، كما في قوله سبحانه: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [البقرة: ١٦٤]. ونحن إن عدنا إلى الكلام الذي دل فيه عيسى عليه السلام الناس على أن يكونوا كالأطفال، من أجل أن يدخلوا الملكوت، فإننا سنعلم أنه إنما كان يقصد أن يعقلوا عن الله تجلياته عقلا ساذجا، بعيدا عن تعقّلهم الذي لا بد أن تتأثر فيه الصورة المعنوية بعمل العقل نفسه. وكلما كان المرء أدخل في دائرة العقلاء بالمعنى المعروف، كأن يكون فيلسوفا أو سائرا على درب الفلاسفة من حيث المنهج، فإنه يكون أبعد عن الصورة الأولى التي يكون عليها الأطفال، والسُّذج من الناس. ورغم أن الصورة التي يُدركها العقل بداهة تكون في أحيان كثيرة أقرب إلى التصوير الخيالي، وأن الصورة التي يُدركها العقل من طريق التعقّل أكثر تجرّدا؛ فإن الصورة الأولى تبقى أكمل من الثانية، بعكس ما يتوهم الناظرون. ولهذا السبب فإن الأطفال لا يفرقون بين التنزيه والتشبيه، ويميلون إلى ما يجمعهما، من دون تكلُّف.

وبما أن العقيدة الدينية في أصلها، هي عقْل للمعاني وللصور، من دون تصرُّف فيها، فإنها ستكون حتما أكثر بساطة وأشد وضوحا على كل حال. وهذا يعني، أن هذه العقيدة تُعلم ولا يُعبّر عنها؛ إلا ما يكون من الوحي نفسه من وجهيه الإلهي والنبوي. وقولنا "لا يُعبّر عنها" نريد منه أمريْن: الأول، هو أن التعبير عنها يصعب على من لم يكن ربانيّا، ناطقا في ذلك بالله؛ والثاني، هو أنه لا يُحتاج إلى التعبير عنها. وهذا كله يجعلنا نقف على معنى العقيدة لدى أصحابها من كل الملل، والذي هو مخالف للمعنى الأصلي الشرعي الأول؛ وبالتالي سيكون معنى محرَّفا ومتكلَّفا ومُصطنعا. ويدخل في هذا كل العقائد التي يظن أصحابها أنهم صائغون لها انطلاقا من الوحي؛ توراة كان هذا الوحي، أو إنجيلا أو قرآنا. وهذا هو السبب، الذي كان يجعلنا دائما نرفض ما يُسمّى "علم الكلام" لدى المسلمين، ونقول عنه إنه بدعة مستحدثة. وعلى علم الكلام الإسلامي، ينبغي أن يُقاس اللاهوت اليهودي والنصراني...

وإذا نحن عدنا إلى الأسماء وإلى حكمها على القلوب بالهداية وبالضلال، فإننا سنعلم بعد ما ذكرناه عن أثر العقول في صياغة العقائد عند تعقّلها، أن العقول -أنفسها- لا تخرج عن حكم الاسم "المضل" في الغالب؛ وذلك لأن الله أعزّ

من أن يُعلَم من هذا الطريق. وقولنا "في الغالب"، هو لاستثناء تعمّل العقول الربانية، التي يكون إمامها الاسم "الهادي" على الدوام، وتكون عالمة بما تخوض فيه من جهة الطريق كما من جهة النتيجة. ولهذا السبب المذكور هنا، كان الربانيّون يبهرون الفلاسفة بما يتوصلون إليه من براهين عقلية ومن نتائج معقولة. وهذه العملية التعقّليّة، هي ما سماه الله تفكرا؛ كما في قوله سبحانه: {كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [يونس: ٢٤]. وليُتأمّل ورود التفكر مع التفصيل، حتى يُعلم ما نشير إليه. و"التفكُّر" من ربانيّي التوجه، محمود؛ بخلاف "الفكر" الذي هو "التعقل". وهذا لأن التعقل أو الفكر، هو طريق مواز، غير منتج في مجال المعارف الإلهية على الخصوص. وسنعود في ثنايا هذا الباب، إلى الكلام عن الفكر الديني، محموده ومذمومه، من غير شك بإذن الله.

وبعد كل الذي أوردناه، فإننا سنجد العقيدة السليمة عند أهل الكتاب جميعا، هي ما كان عليه الناس في صحبة رسلهم عليهم السلام حصرا؛ وسنجد كل العقائد المصوغة بعدهم في الغالب، مخلوطة، وإن بالغ أصحابها في التنظير لها بما يُوافق المنطق العقلي. ومن قال إن التجلّي يخضع للمنطق، حتى يكون العلم الناتج عنه منطقيا؟!... وهذا عينه ما عناه عيسى بحال الطفولة؛ وهو ذاته ما نعنيه نحن بـ "الإطلاق العقلي"، الذي نتكلم عنه مرارا. وهكذا يكون معنى الإطلاق عندنا، هو ما يوافق حال الطفولة، أو يوافق طور "ما بعد الفلسفة". ولم نر أحدا -بحسب علمنا- دل بهذا الوضوح على معنى الإطلاق، كما دللنا نحن، بحمد الله. ورغم أن الطفولة هي مخالفة لما بعد الفلسفة، إلا أنهما من غير شك، على الطريق المستقيم ذاته.

وإن نحن علمنا معنى الإطلاق الموافق للتجلي الإلهي، فإننا سنعلم حتما، أن كل العقائد المصوغة لدى أهل الكتاب جميعا، هي عقائد مقيَّدة. وما كان مقيّداً، فإنه سيناسب صورة العبد (العقل) نفسه، أكثر مما يُناسب الوجود (الله). ومن هنا، كنا نقول إن العقائد هي صورٌ للعقول التي صاغتها، لا لله. ونعني من هذا، أن العقول عندما نظرت إلى الوجود (التجلّي) بنفسها (تعمّلها)، فإنها أدركت الصورة المنطبعة في المرآة لا المرآة؛ ولم تكن الصورة إلا صورتها هي ذاتها. ولولا هذا، ما كانت تختلف الصور المُدرَكة في نفسها، ولا كان يختلف الإدراك لها، ولا العبارات المُعبّرة عنها بعد ذلك. وهذا المعنى هو ما يُشير إليه قول الله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢]. والقرآن هو الوجود باعتبار تجلياته[١]. وأما الاختلاف الكثير هنا، فليس مقابلا للاختلاف القليل، بحيث يكون المعنى أن القرآن لا بد فيه من الاختلاف القليل، بالمعنى الذي تذهب إليه العقول؛ وإنما مقابله هو عدم الاختلاف الدال على معنى التوحيد؛ هذا من أحد وجهيْ المعنى. وأما الاختلاف من الوجه الثاني، فهو الاختلاف في التجلّي وبين التجلّيات؛ وهو يكون كثيرا، لكن كثرة غير الكثرة المُدركة للعقول بما هي عقول، والتي تدل على أن المشهود هو من عند غير الله، لا من عند الله. وبما أنه لا وجود إلا لله، من جهة الحقيقة، فإن كل شيء هو من القرآن، والقرآن من عند الله، لا من عند غيره. والتناقض الذي قد يبدو من كلامنا، هو من باب الحقيقة وظلّها، لا من باب الحقيقة ونقيضها؛ لأن الحقيقة لا نقيض لها حتى ينقُضها. ومن هذا الباب، كنا نُفتي بعدم قبول قول من قال من الفقهاء: إن لكلمة التوحيد "لا إله إلا الله محمد رسول الله" نواقض؛ وكنا نقول: كلمة التوحيد أقوى من أن ينقضها ناقض، هو على كل حال دونها في المرتبة. وهذا أصل من العلم، لم نجد من المتأخرين دالا يدل عليه. وإنّ جهله، كان سببا في كثير من الضرر الذي لحق الأمة وفرّق شملها. نقول هذا، لأن التوحيد حيث كان، إن كان على وجهه الأصلي، لا يُعطي إلا وحدة الأمة. وافتراق

---

١ . الوجود بالاصطلاح الفلسفي هو "الحق" بالاصطلاح الشرعي.

اليهود والنصارى والمسلمين، يدل على غياب معنى التوحيد لديهم، الذي لم يحدث إلا مع العقائد العقلية التي دخلت عليهم.

وبما أن الدين في الأزمنة التي تكون بعد انتقال الرسل عن الدنيا، لا يعود فيه الناس إلى أفضلهم تديُّنا، والذين هم السُّذّج منهم والربانيون؛ ويعودون فيه بدل ذلك، إلى أكثرهم قُدرة على التعبير وأشدّهم تمكُّنا من إخراج المعاني في القوالب اللفظية؛ فإن التحريف يقع منذ ذلك الحين، مع الرعيل الأول من المنظّرين، ويزداد استفحالا مع مرور الزمان. وذلك لأن الأجيال اللاحقة، تنظر في كل الموروث بما وصلت إليه هي في كل مسيرتها العقلية، من وسائل التحليل والنظر. وهذا هو ما يدعو المتأخرين من المسلمين –مثلا– إلى تناول النصوص بحسب "الهرمنوطيقا" والفيلولوجيا" وغير ذلك، مما لن ينتهي عن قريب أو يتناقص...

وإذا نحن جمّعنا الصورة في أذهاننا، بحسب كل المُعطيات التي أشرنا إليها، فإننا سنجد العقائد متطورة غير مستقرة. ورغم أن كل الشعوب تُدرك ذلك من تاريخها، كما هو الشأن مع حركاتها الإصلاحية والتصحيحية الخاصة بها، فإنها (الشعوب) مع ذلك، لا تفطن إلى أثر العقل في هذه المسألة على الخصوص. ولسنا نعني من "أثر العقل" ما تعلم أنه أثر له، بوصفه وسيلة منزَّهة وحيادية وهبها الله للعباد، حتى يعرفوا منه الحق كما عرفوه من الوحي؛ وإنما نعني أثر الصورة الاستعدادية التي تكون للعقل الفردي والجماعي معا، من حيث هو مخلوق لله يمتاز عن جميع نظرائه بما هو خاص به وحده. وهذا الاختلاف في الاستعداد، والمُفضي إلى الاختلاف الكثير الذي نبه إليه القرآن في الآية من سورة النساء، هو ذاته مرادنا بالمؤثِّر المحرِّف. وقد يقول قائل: إن هذا المبدأ، سيجعل المعاصرين للرسل عليهم السلام (كالصحابة عندنا) على اختلاف في نظرهم إلى ما ينظرون، وفي سمعهم إلى ما يسمعون!... هم أيضا!... فنجيب: هذا صحيح؛ ولكنّ اختلافهم ظل محصورا فيما لا قِبل لنا أو لهم بتجاوزه من اختلاف استعدادي، بالهداية النبوية المُبقية لهم ضمن الطريق الواحد غير المتفرع. وأما من جاءوا بعدهم، فإنهم سيخرجون إلى إعمال استعداداتهم في صياغة العقيدة التي كانت في بدايتها عامة ومشتركة، بما هو من قصور وجهل مُمَيِّزَيْن (أحيانا من دون أن يشعروا)، لتظهر الفروع الجانبية التي لا بد لها من الاشتراك ولو في معان جزئية، مع السبل التي نهى الله عن اتباعها في قوله سبحانه: {وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: ١٥٣]. وأما من يقول: فهذا يعني أن قليلا مِن الناس مَن سيظلون على الطريق الأصلي عندئذ، وأن الغالبية سيُصبحون كافرين. وهو ما لا يُمكن الإقرار بصحته؛ وإلا نكون حتما من المكفرّين لسواد الأمة[١]!... فإننا نجيبه: إن الكفر له معنيان: الأكبر، وهو المخرج عن الملّة؛ وهذا نحن لا نعنيه بالتأكيد. والأصغر، وهو سارٍ على من ذكرنا؛ لأنهم على قدر إعمالهم لعقولهم، يكونون عائدين إلى ظلمتهم الأصلية (أنفسهم)؛ وهذا لا بد من أن يكون كُفرا. وكل من يقول غير هذا، فهو سفسطائي، يستوي عنده أهل الحق وأهل الباطل، بالمعنييْن الكلي والجزئي. وأما المعنى الجزئي الذي قلنا به، فهو مفهومُ قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ.»[٢]. وهذا يعني أن الأمة المحمدية، ستنقسم على غرار سابقاتها، إلى طائفة أقلية تكون على الحق، كما كان الصحابة ونظراؤهم من الأمم الأخرى، وإلى طوائف أخرى تدخل في معنى مَن خذلهم مِن قومهم، وهؤلاء هم الأغلبية من كل أمة. والخذلان لطائفة الحق، هو نفسه ما عنيناه في كلامنا السابق بـ "الكفر الأصغر"؛

---

[١] . نعني هنا المسلمين، كما نعني اليهود والنصارى قبلهم.

[٢] . أخرجه مسلم عن ثوبان بن بجدد رضي الله عنه.

وهو معنى مخالفة الحق الذي تكون عليه طائفة أهل الحق، بالنظر إلى تفاصيل العقيدة لا إلى إجمالها. فلْيُحفظ هذا، فإنه نافع جدا!...

ومن تأمل طائفة أهل الحق في الأمة، فإنه سيجدها مكونة من جهة، من السّذّج من الناس الذين هم قريبون من حال الأطفال؛ ومن جهة أخرى من الربانيين الذين عادوا إلى الطفولة بعملية التزكية. والأولون يكونون على عقيدة إجمالية عامة ومشتركة، في حين يكون الآخِرون على عقيدة تفصيلية ومطلقة؛ لكن من غير اختلاف حقيقي. ويظهر من هذه الصفات أن هذه الطائفة لها أصل هم عوام المؤمنين، ولها ذروة هم الربانيون. وهي في الأمة كالنواة الصلبة، أو كالعمود الفقري الماسك لعموم الجسد.

وبما أن العقول كلما علت مرتبتها في درجات التعقُّل، كانت أميل إلى التجريد؛ فإننا سنجد العقائد تميل شيئا فشيئا مع تطوّرها إلى التنزيه؛ وقد يبلغ التنزيه بكبار العقلاء إلى التعطيل. ورغم أن للتعطيل مستندا من الحقائق، إلا أنه مُضل لأهل الدين، وحاجب لهم عن الحق الذي ينبغي أن يُدرك من الشرائع. وعلى التقابل من ذلك، فإن عقائد السُّذّج والأطفال، تكون مائلة إلى التشبيه الناتج عن التصوير الخيالي. وليس بين الحس والخيال في العقل الطفولي فرق، إلا من جهة اعتبار المقدرة على التصرف. ونعني من هذا، أن ما كان الطفل قادرا على التصرف فيه، فهو خيال وإن كان في الأصل محسوسا. ومن هذه القدرة على التصرف في المحسوسات من جهة كونها خيالا، يكون الخوف الشديد الذي يدخل عليهم، عند انفلات عملية التصوير عن تحكُّم العقل. وهذا هو ما يُسمى "الوهم" في الحقيقة.

وعلى هذا، فإن المعرفة الحق، لا ينبغي أن تخرج إلى تشبيه من غير تنزيه، ولا إلى تنزيه من غير تشبيه؛ لأن الحقيقة أبسط من أن تنقسم، وأوضح من أن تُجهل. ولكن أين هذا، مما يصل إليه أهل العقائد في عقائدهم!... وكأن أمر العقيدة صار عندهم من التعقيد، الذي هو إخراج للبسيط عن بساطته، وإخراج للواضح عن وضوحه. وسيظهر هذا الذي طفنا به في هذا الفصل جليّا، عند تناولنا عقائد اليهود والنصارى والمسلمين بالتفصيل. وهذا ما ننوي القيام به في الفصول المقبلة بإذن الله.

الباب الأول

نشوء العقائد اليهودية وتطورها

الفصل الأول

نشوء العقيدة الموسوية

إن الله عندما بعث موسى، كلفه أولا بإخراج شعب بني إسرائيل من مصر، كما أخبر سبحانه في خطابه لموسى وهارون: {فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الشعراء: ١٦، ١٧]. وإن اختيار الله لبني إسرائيل من بين الأمم، واصطفاءهم من ذرّيّة إبراهيم، هو اعتناء بهم، وإخراج لهم من الحياة البهيمية والشيطانية، التي كان قد انصرف إليها أغلب بني آدم، من بعد آدم ونوح عليهما السلام. وكما كان الطوفان في عهد نوح قيامة صُغرى، أهلكت الأصناف المرتدّة عن آدميتها، وأبقت على ثُلة ستكون بداية جديدة للبشرية؛ فإن اصطفاء إبراهيم ومن بعده إسماعيل وإسحاق ويعقوب، سيكون اصطفاء ثانيا ضمن بني آدم الباقين، من أجل تحقيق آدميتهم وفوزهم بكمالها، زيادة على ما يحوزونه منها من جهة الصورة الظاهرة. وإن اختيار الله لبني إسرائيل، كان ليظهر منهم شعب يعبد الله ويتقرب إليه، ويعي مهمته في الدنيا على أكمل وجه؛ حتى يكون في مُقابل المُعرضين الذين غيّبهم الطوفان الأول، أو الذين غيّبهم طوفان الدنيا المُغرِق لكثيرين. يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «... وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا، لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ.»[١]. وهذا يعني أن الهلاك المعنوي، لا يقل عن الهلاك المادي؛ وهو صلب الفرق بين الشرائع الإلهية والشرائع الوضعية (القوانين). ومن لم يتبيّن هذا الفرق، فإنه يكون قد تنازل عن حقيقة آدميته، وهو لا يشعر...

ورغم أن الأب الأكبر لهذا الشعب كان هو إبراهيم، إلا أن الهداية الإبراهيمية لم تجد قوابل في عصره من أقوام البابليين أو الكنعانيين أو غيرهم؛ لذلك قال الله عنه: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النحل: ١٢٠]. وبقيت صفة العبادة على التوحيد مقتصرة على بنيه وذرياتهم، ليكونوا نُخبة مهدية من بين الشعوب، تعبد الله على التوحيد، وتنوب عن سائر البشرية في الصلاة على الأرض. ولن تتحقق صفة "الشعب" لبني إسرائيل، إلا مع تكاثر الأسباط في مصر؛ ولن يصيروا أمة إلا مع موسى، عندما سيجمعهم على شريعته. لهذا، فإننا نعتبر موسى بداية جديدة بعد البداية الأولى (القريبة) الإبراهيمية. ومعنى كون موسى بداية جديدة، هو أن الشريعة الخاتمة ستبدأ معه مرحلتها الأولى المؤسّسة. والذي نريده من كلامنا هنا، هو أن قوم موسى، لم يكونوا يعلمون من الله إلا ما يجعلهم يُدركون أنه خالقهم وهاديهم ومُجازيهم؛ على وجه الإجمال لا التفصيل. ونعني من هذا، أن التديّن الذي أسّسه موسى، لم يكن يتجاوز مرتبة الإسلام الأولى، من دين الإسلام. وهذا يجعلنا نؤكّد على أن أهم ما يقوم عليه هذا الصنف من التديّن، أمران: الأول، الإيمان المجمل؛ والثاني، العمل بالجوارح. فأما الإيمان المجمل، فلأن عقول قوم موسى لم تكن لتطيق العلم بالله التفصيلي. وهذا يعني أنهم لن يعلموا من الله إلا مرتبة الألوهية وبعض الأسماء التي يكون التعلق بها ضروريا لهم في معاشهم. وأما الأسماء التفصيلية، فإنهم لم يكونوا ليعلموها أو يطيقوا علمها. ونعني على الخصوص هنا، أنهم لم يكونوا ليستوعبوا التقابل الذي يكون فيها. ولو أن أحدا كلمهم عنه، لكذّبوه وعادوا إلى عبادة الأوثان التي كانت منتشرة في أزمنتهم؛ في القرون الخمسة عشر كلها التي مرّت قبل ميلاد المسيح...

---

[١]. أخرجه ابن ماجة عن عبد الله بن مسعود.

وبما أن أمر العقيدة سيكون مجملا، فإن العناية ستتوجه إلى التشريع. والتشريع -كما ذكرنا سابقا- هو مطابق لمجال العقائد التفصيلية مطابقة عملية، وإن لم يشعر بذلك أصحابها. وسنعرض هنا لما ذكرناه بشيء من التفصيل، مكتفين بما له أصل في التوراة وحدها. أما "المشنا" فسنأخذ منها بحسب الحاجة؛ وأما التلمود، فإننا سنتركه إلى وقت لاحق، عندما نتناول دخول العقل على العقائد اليهودية. وبما أن الشعب (الأمة) موجود، وأن الدين من كونه طريقا إلى الخلاص، قد شُرِع، فإنه لم يبق إلا الأرض التي يتحقق عليها كل ذلك؛ ولم تكن إلا الأرض الموعودة "بيت المقدس" وما حوله. ولكن بلوغ الأرض المقدسة هو أيضا، كان منوطا دائما بمدى استجابة الشعب للرب؛ لذلك فإن التوجه إليها كان بين مدّ وجزر بحسب أحوال الناس من طاعة ومعصية. بل إن البقاء فيها، بعد بلوغها، كان هو أيضا منوطا بمدى طاعتهم؛ وإلا سلط الله عليهم من الأقوام من يُخرجهم منها أو يهدمها عليهم. كل هذا، ليُميّز بنو إسرائيل معنى التكليف المربوط بالعبودية، الذي كان ينطمر كل مرة تحت معنى الاصطفاء الغالب، والذي لم يُدركوه على وجهه. فلقد كانوا يخرجون بإدراكهم ذاك، كل مرة، عن مقتضيات العبودية؛ إلى ما يُقابلها من ربوبية، عندما يرون الفضل لأنفسهم على غيرهم من الشعوب الأخرى، بالمعنى العرقي العنصري، الذي لم يكن الله ليدلّهم عليه كما يزعمون. وهذه مسألة إدراكية، كما نؤكد هنا؛ متعلّقة بتمييز معنى العبودية. وبما أن الموسويّين من المرتبة الدينية الأولى، فإنهم لن يعلموا ما ذكرنا، كما سيعلمه المسيحيون والمحمديون؛ لذلك سيبقون على قصور مخل، هو سبب ما يقع بينهم وبين الأقوام الأخرى من اختلاف ومن اعتداء. وحتى لا نوغل في التحليل المبْعِد في التجريد، فإننا سنتناول ما هو من الأصول الأولى، التي سيُبنى عليها فيما بعدُ.

وأول ما سنبدأ الحديث عنه الآخرة أو ما كان يُسمّى بلغة طفولية لدى بني إسرائيل بـ "يوم الرب"؛ وذلك لأن الحساب يقتضي مُحاسِبا هو "الرب"، ويقتضي ميزانا هو الشريعة؛ زيادة على المُحاسَب، الذين هم بنو إسرائيل أنفسهم. ولقد كان بنو إسرائيل يرون يوم الحساب بعيدا جدا؛ إلى الحد الذي صاروا يسخرون معه منه. وهو ما كان يجعلهم في كل مرة ينقضون الشريعة وينصاعون لأهوائهم وكأنهم غير مكلفين. يقول "عاموس" النبي (حوالي ٧٥٩ ق.م): "وَيْلٌ لِلَّذِينَ يَشْتَهُونَ يَوْمَ الرَّبِّ! لِمَاذَا لَكُمْ يَوْمُ الرَّبِّ؟ هُوَ ظَلاَمٌ لاَ نُورٌ. كَمَا إِذَا هَرَبَ إِنْسَانٌ مِنْ أَمَامِ الأَسَدِ فَصَادَفَهُ الدُّبُّ، أَوْ دَخَلَ الْبَيْتَ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى الْحَائِطِ فَلَدَغَتْهُ الْحَيَّةُ! أَلَيْسَ يَوْمُ الرَّبِّ ظَلاَمًا لاَ نُورًا، وَقَتَامًا وَلاَ نُورَ لَهُ؟"[١]. وهذا يعني أن القوم كانوا مستهترين كما ذكرنا، ويستحقون العقوبة لا المثوبة. والسبب الأول في ذلك هو أنهم كانوا ينتظرون "يوم الرب" ليروا انتقام الله من الأمم التي ظلمتهم؛ ونسوا أنفسهم، وأنهم سيُحاسبون على أفعالهم. وستبقى هذه العقيدة مستمرة في اليهود مع كل جيل، لتحجُبهم عن كثير من الحق الذي كان ينبغي أن يكونوا عليه. ولقد أدت استهانة اليهود بـ "يوم الرب" إلى أن سموه " أحاريت هيّاميم"، ومعناه: آخرة الأيام، أو اليوم الآخر. وهذا يعني أنهم كانوا يرونه بعيدا. يقول الله عن معتقدي ذلك من كل الناس: {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا . وَنَرَاهُ قَرِيبًا} [المعارج: ٦، ٧]. والقرب والبعد هنا نسبيّان، كما لا يخفى. والنسبيّة ما كان العقل الإسرائيلي يعيها، حتى يعمل بمبدئها.

وبما أن الحكمة من الشريعة تنتفي، عندما يغيب الوعي بالحساب، فإن الله بعث النبيّ "حزقيال" ليوضّح لهم الأمر في قوله: "كَانَ إِلَيَّ كَلاَمُ الرَّبِّ قَائِلًا: «يَا ابْنَ آدَمَ، مَا هذَا الْمَثَلُ الَّذِي لَكُمْ عَلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ، الْقَائِلُ: قَدْ طَالَتِ الأَيَّامُ وَخَابَتْ كُلُّ رُؤْيَا. لِذلِكَ قُلْ لَهُمْ: هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: أُبَطِّلُ هذَا الْمَثَلَ فَلاَ يُمَثِّلُونَ بِهِ بَعْدُ فِي إِسْرَائِيلَ. بَلْ قُلْ لَهُمْ: قَدِ اقْتَرَبَتِ الأَيَّامُ وَكَلاَمُ كُلِّ رُؤْيَا. لأَنَّهُ لاَ تَكُونُ بَعْدُ رُؤْيَا بَاطِلَةٌ وَلاَ عِرَافَةٌ مَلِقَةٌ فِي وَسْطِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ. لأَنِّي أَنَا الرَّبُّ أَتَكَلَّمُ،

---

[١] . عاموس: ٥: ١٨-٢٠.

وَالْكَلِمَةُ الَّتِي أَتَكَلَّمُ بِهَا تَكُونُ. لاَ تَطُولُ بَعْدُ. لأَنِّي فِي أَيَّامِكُمْ أَيُّهَا الْبَيْتُ الْمُتَمَرِّدُ أَقُولُ الْكَلِمَةَ وَأُجْرِيهَا، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ». وَكَانَ إِلَيَّ كَلاَمُ الرَّبِّ قَائِلًا: «يَا ابْنَ آدَمَ، هُوَذَا بَيْتُ إِسْرَائِيلَ قَائِلُونَ: الرُّؤْيَا الَّتِي هُوَ رَائِيهَا هِيَ إِلَى أَيَّامٍ كَثِيرَةٍ، وَهُوَ مُتَنَبِّئٌ لأَزْمِنَةٍ بَعِيدَةٍ. لِذلِكَ قُلْ لَهُمْ: هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: لاَ يَطُولُ بَعْدُ شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِي. اَلْكَلِمَةُ الَّتِي تَكَلَّمْتُ بِهَا تَكُونُ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ».[1]. وكان هذا الكلام معيدا للموسويّين إلى سواء السبيل، ولكي ينتظم أمر دنياهم مع أمر آخرتهم. وهذا يُظهر بساطة الإدراك التي ذكرناها سابقا لهم، والتي تجعل الدنيا تُهيمن على عقولهم. وهذا الذي نقوله، لن يبقى متعلّقا بهم وحدهم؛ وإنما سيُصيب أهل الدين الواحد (الإسلام بشرائعه الثلاث)، من الذين ينزلون دائما إلى أدنى درجات مرتبته الأولى. ولنتأمل هنا ما يُسمى "الوصايا العشر" المستنبطة من "سفر الخروج" لنتبيّن الهيكل الأول للشريعة بمعناها العام المتطور:

١. "أَنَا الرَّبُّ إِلهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ. لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي."[2]. لا شك أن هذا النص يُشير إلى معنى التوحيد (لا إله إلا الله) إشارة تُناسب أدنى العقول. فهو يُذكّر بآلاء الله في صورة أكبرها في أعين الشعب، والتي هي: الإخراج من مصر، والإنقاذ من العبودية؛ عبودية العباد. ولهذا سيُطلب من الشعب الخروج من معنى العبودية التي هي عن استعباد، إلى العبودية الاختيارية عند معرفة الأحق بها (الرب). والآية الثالثة من النص المذكور، تدل على توحيد الألوهية، حتى لا يقع الإسرائيليون في الشرك وتعدّد الآلهة؛ خصوصا وأن هذه الآفات كانت شائعة في شعوب المنطقة التي يتحركون فيها. وعبارة "لا يكن لك آلهة أخرى أمامي"، لا تعني أن الآلهة الأخرى موجودة مع الله، وينبغي الانصراف عنها إليه سبحانه، كما يفهم ذلك ضعاف العقول؛ ولكنها تدعو العباد إلى نبذ توهّم تعدد الآلهة فحسب. وتوهم التعدّد دخل على العقول من شهود التقابل والتضاد بين الأسماء الإلهية، فلم يخطر لهم أنها جميعا تعود إلى اسم واحد هو "الله". وإن الخوض في مسألة التوحيد بالعقل وحده، لا تزيد الناس إلا بُعدا عنه. وأشبه طائفة من المسلمين بعوام اليهود المتسلّفة. وعلى كل حال، فإن التوحيد له بداية، هي هذه المذكورة هنا، لكن غايته أعلى من حيث المرتبة بكثير!...

٢. "لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالًا مَنْحُوتًا، وَلاَ صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ. لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ، لأَنِّي أَنَا الرَّبَّ إِلهَكَ إِلهٌ غَيُورٌ، أَفْتَقِدُ ذُنُوبَ الآبَاءِ فِي الأَبْنَاءِ فِي الْجِيلِ الثَّالِثِ وَالرَّابعِ مِنْ مُبْغِضِيَّ، وَأَصْنَعُ إِحْسَانًا إِلَى أُلُوفٍ مِنْ مُحِبِّيَّ وَحَافِظِي وَصَايَايَ."[3]. وهذه الوصية تؤكد على أن المعبود الحق، ليس تمثالا، كما كان ديدن الوثنيين والمشركين؛ وإنما هو الإله الذي لا يتقيّد في صورة سماوية أو صورة أرضية. وهذا يعني أن الله عند الإسرائيليين ينبغي أن يُعبد على التجريد، الذي كان أمرا غير مألوف للعقول الضعيفة الأخرى؛ رغم أن هذا هو الأصل الإبراهيمي الذي كان ينبغي أن لا يُنسى. وعدم السجود للصور المأمور به هنا، سيجعل السجود الشرعي في المقابل متقيّدا كما ذكرنا في "المقدمة" من جهة البدن بالقبلة ومن جهة القلب بالوجهة المعنوية. وهذا المعنى من التجريد التوحيدي، لم يكن دائما سهل المنال لبني إسرائيل، وهم من سألوا موسى نفسه أن ينزل بهم إلى المحسوس. يقول الله تعالى مخبرا عنهم: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى

---

[1] . حزقيال: ١٢: ٢١-٢٨.

[2] . الخروج: ٢٠: ٢-٣.

[3] . الخروج: ٢٠: ٤-٦.

الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ١٣٨ - ١٤٠]. وأما اتخاذ الأصنام عند أقوامها، فهو كان في البداية من أجل تقييد صفات الألوهية بها، ولكنهم سرعان ما كانوا ينسون المعنى ويبقون مع مادة الصنم. ولولا أن الأمر يطول، لكنا نذكر الأسماء التي كانت تُعبد عند الأقوام من وراء الأصنام، ليظهر أن العابدين لم يُخطئوا في المعبود، وإنما أخطأوا في العبادة.

ومباشرة بعد معنى التوحيد، نجد النص يؤسس لمعنى الحساب. وربط الحساب بصفة الغيرة الإلهية، هو من لب الأمر في الشرائع؛ لأن الغيرة من توابع المحبة، والمحبة هي ما أدّى إلى اصطفاء بني إسرائيل. والغيرة تقتضي المثوبة للمطيع، وتقتضي العقوبة للعاصي. وهذا أمر سيتأكّد مع التفسيرات العيسوية فيما بعد للشريعة، وإن كان سيغيب في خضم العناية بالتشريع لدى عوام المسلمين. ولسنا نعني إلا أصل المثوبة والعقاب، وأصل الغيرة نفسها، والذي هو المحبة. ونريد أن نقول من هذا، أن الله لو لم تكن له محبّة ما لأشرار عباده؛ ما كان اعتنى بعذابهم، كما يعتني بتنعيم الأخيار منهم، جزاء طاعتهم وإحسانهم. وإننا عندما كنا قد بدأنا الجزء الأول من هذا الكتاب، بذكر معنى البنوة الشرعي للحق، والذي يوافق معنى "العيال" الذي ورد في حديث: «الْخَلْقُ عِيَالُ اللَّهِ، فَأَحَبُّهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ!»[١]؛ فإننا كنا نقصد هذا الأصل من المحبة. ولولا أن الله كان يُحب الأشرار من عياله، كما يُحب الأخيار[٢]؛ ما تركهم ضمن مملكته (العالم)، ولأعادهم إلى العدم الذي هو أصلهم. هذا، إن لم يمنعهم من البداية من الخروج منه، بحسب ما يُعطيه علمه بهم، سبحانه. وعندما لم يقع أيٌّ من ذلك، علمنا أن المحبة الأصلية لها تعلُّق بهم من وجه باطن، هو ما جعل الإرادة تتعلق بهم من أجل أن يوجدوا؛ وهو ما جعل العقاب يتعلق بهم أيضا في دار الجزاء. وهذا يُشبه معاملة الأب (الأب هنا الاسم "الله") لأبنائه، عندما يُثني على صالحي أبنائه، وعندما يُعاقب سيّئيهم؛ وهو مع ذلك لا يفرط في أحد منهم، أو يُسلمه إلى عدوّ بعيد. وعندما يقع ذلك من أحد الناس، فإنه يكون شذوذا عن القاعدة وتأكيدا لها، لا دلالة على التفريط والإهمال، كما قد يفهم القاصرون. والعلامة على أن هذه الصور الشائعة في التاريخ وفي واقع الناس، ليست هي الأصل، هي رفض الأسوياء لها، ومعاقبة القانون الوضعيّ نفسه عليها. وأما الشريعة التي هي مبنية على الحقائق الإلهية المسماة بلسان الشرع "سنة الله"، كما في قوله سبحانه: {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} [الفتح: ٢٣]، فإنها تراعي ما ذكرنا أشد المراعاة. وإنّ ذكر الله في النص لنيل العقوبة الجيلَ الثالث والرابع من أبناء العصاة، هو للتنبيه إلى شدة الغيرة الإلهية، التي هي نفسها ناتجة عن شدة المحبة. وقد ذكر نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، هذا المعنى في قوله: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ وَاللَّهِ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي!»[٣]، وذلك عندما قال سعد: "لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفَحٍ!". ومع وضوح هذا الأصل في التشريع الإسلامي، إلا أن الفقهاء تعاموا عنه، حتى عاد المتأخرون منّا وكأنهم منكرون لأصل المحبة عينه؛ بل لقد قال بذلك بعض جهلة المسلمين، مع ورود النص صريحا به!... وهو ما أنتج أجيالا من المتديّنين، قساة غلاظا، لا يرحمون أنفسهم ولا يرحمون أحدا غيرهم. ولعلنا نعود إلى المسألة من جوانب أخرى في كل مرة من هذا الكتاب، لتتضح أكثر فأكثر...

٣. "لاَ تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلهِكَ بَاطِلًا، لأَنَّ الرَّبَّ لاَ يُبْرِئُ مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلًا."[٤]. وهذا يعني الحلف باسم الله كذبا، من أجل نيل المآرب الدنيوية، أو من أجل تفادي عقوباتها. وهذا، لأن الاسم الإلهي هو متعلَّق المخلوقين؛ بل هو معبودهم

[١] . أخرجه البزار وأبو يعلى، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

[٢] . لا نقصد هنا إلى التسوية في صنف المحبة ولا في درجاتها.

[٣] . متفق عليه، عن سعد بن عبادة رضي الله عنه.

[٤] . الخروج: ٢٠: ٧.

على الحقيقة. وقد ذكرنا سابقا، أن ما يتوهّمه العوام من عبودية للذات أو من تعلّق بها، لا يصح من جهة العلم؛ وأن كل التعلق والعبادة ينصرفان إلى المرتبة لا إلى الذات. وإن جراءة الناس من بني إسرائيل أو من غيرهم، على القسم باسم الله زورا، لم تأت إلا من تفريقهم بين "الاسم" و"المسمى" في المرتبة. وهذا المعنى، وإن كان موافقا للعلم في نفسه من وجه ما، إلا أنه لا يصح منهم، بسبب جهلهم بالمعنى الذاتي، وبكيفية نسبة الأسماء إلى الذات. وإن موسى عليه السلام بدلالتهم على هذا الأصل، كأنه كان يقول لهم، لا تُعاملوا الله بحسب ما تُدركون أنتم من معاني المعاملة؛ ولكن عاملوه كما أُعلّمكم، لأني أعلم منكم به؛ وأعلم بما ينفعكم عنده. وهذا هو لسان حال الرسل جميعا، عليهم السلام؛ لو أن أقوامهم كانوا يُصدّقونهم!... ولقد جعل الله على الحلف الزور عقابا شديدا، أشار موسى إلى صنفه عموما عند ذكره عدم تبرئة الرب للحالف، وبيّن محمد صلى الله عليه وآله وسلم ذلك بالتفصيل، عندما سئل عن الكبائر (كبائر الذنوب)، فقال: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ! قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ! قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: الْيَمِينُ الْغَمُوسُ! قُلْتُ: وَمَا الْيَمِينُ الْغَمُوسُ؟ قَالَ: الَّذِي يَقْتَطِعُ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ!»[1]. ومعنى "الغموس" أنها تغمس (تُدخل) صاحبها في النار. وإذا نظرنا إلى الترتيب الذي في الحديث للكبائر، فإننا سنجده على الترتيب الذي ذكره موسى في الوصايا: فالإشراك بالله، هو في مقابل التوحيد الواجب؛ وعقوق الوالدين، هو من مناطات الغيرة الإلهية المتتبعة للمعاصي في الأجيال؛ واليمين الغموس هي ما يتعلّق به النهي عن الحلف باسم الله زورا. وهذا يُظهر مرة أخرى الأصل الواحد للشرائع، بخلاف ما تذهب إليه العقول القاصرة من جميع الملل والأقوام.

٤. أُذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ. سِتَّةَ أَيَّامٍ تَعْمَلُ وَتَصْنَعُ جَمِيعَ عَمَلِكَ، وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابعُ فَفِيهِ سَبْتٌ لِلرَّبِّ إِلهِكَ. لاَ تَصْنَعْ عَمَلًا مَا أَنْتَ وَابْنُكَ وَابْنَتُكَ وَعَبْدُكَ وَأَمَتُكَ وَبَهِيمَتُكَ وَنَزِيلُكَ الَّذِي دَاخِلَ أَبْوَابِكَ. لأَنْ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ صَنَعَ الرَّبُّ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَكُلَّ مَا فِيهَا، وَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ. لِذلِكَ بَارَكَ الرَّبُّ يَوْمَ السَّبْتِ وَقَدَّسَهُ."[2]. وأما "السبت" فهو اليوم الذي شرع الله للموسويين التفرغ فيه إلى عبادته. ومعنى فراغ الله من الخلق في اليوم السابع صحيح، بشرط أن يُنزَّه الله فيه عن معنى الاستراحة المستلزمة لسبق التعب. وهذا المعنى، هو ما يدل عليه قول الله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} [ق: ٣٨]. واللغوب: هو التعب الشديد والإعياء. وكيف يمس اللغوب، من إذا أراد شيئا قال له كن فيكون!... ولكن هذه العقيدة الفاسدة -كغيرها- دخلت من جهة قياس الحق على الخلق، وهو أمر محفوف بالمخاطر، يتطلّب علما خاصا، لا بد أن نذكر بعض مبادئه في هذا الكتاب بإذن الله. ولقد تغير يوم العبادة الأسبوعية، من السبت إلى الأحد بالنظر إلى المسيحيين، ثم إلى يوم الجمعة فيما يخص المسلمين؛ لاعتبارات مخصوصة. ولعلنا سنعرض لعلة ذلك من جهة الحقائق، في موضع آخر من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى؛ ويكفي هنا أن نشير إلى أن السبت: فيه اعتبار للعمل من جهة الله ومن جهة العباد؛ وأن الأحد: فيه اعتبار لصفة الذات، ولترتيبها قبل الصفات المعلومات. وهو معنى جمعي، لن يبلغ النهاية إلا في التشريع المحمدي، الذي يجعل العبادة الأسبوعية يوم الجمعة؛ وهو معنى واحدي لا أحدي. لذلك أعطى الله للأمة المحمدية من العلم به، ما لم تُدركه أمة أخرى. ولقد عمل على مبدأ السبت من أمتنا أفراد منهم: أحمد السبتي، الابن البكر لهارون الرشيد، والذي نال بذلك مرتبة قطب زمانه. ولقد كان رضي الله عنه، يعبد الله طيلة أيام الأسبوع، ويتفرغ لعمل معاشه يوم السبت وحده. وهو (العمل) من باب الأدب مع الله، ومقابلة إنعامه بالشكر الواجب له سبحانه، مع مراعاة المناسبة بين الإقبال من الجانبيْن الإلهي

[1] . أخرجه البخاري، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

[2] . الخروج: ٢٠: ٨-١١.

والعبْدي. وعلم المناسبة علم جليل، سبق أن أشرنا إليه في الجزء الأول من هذا الكتاب. ولا شك أن موسى عليه السلام، كان من الأئمة فيه، ليعتبره في تشريعه لقومه.

٥. "أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ."[1]. وإكرام الوالديْن، هو فرع شكر الله؛ لأن الله هو الخالق، والوالديْن هما سبب الخروج إلى الدنيا. لهذا يربط الله بين شكره وشكر الوالدين في قوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} [لقمان: ١٤]. وأما فيما يعود إلى مجازاة الله على بر الوالدين في الدنيا بإطالة عمر البار، فهو أيضا من مبدأ المناسبة. ونعني كما أن الوالديْن كانا سببا في دخول الابن إلى الدنيا من جهة بداية عمره، فإن الجزاء المتعلّق ببرهما، جعله الله متعلّقا بآخر عمره عند مباركته (معنى البركة الزيادة)؛ فلهذا يكون العامل بهذه الوصية طويل العمر (بالنظر إلى عمره المُثبَت في العلم). يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ.»[2]. ومعنى "وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ": يُبارَك له في عمره. وأما صلة الرحم، فإن أول ما تتعلق به الوالدان، لقربهما من الولد؛ ولا خفاء في هذا. غير أنه لا بد من حصر معنى بر الوالدين في المعنى الشرعي وحده، لئلا ينقلب الحكم في هذه المسألة كما انقلب في غيرها، عند دخول الأهواء وحدوث الضلالات في مجتمعات المؤمنين. والمعيار الثابت في هذا كله، هو أن لا يُسبق بر الوالدين وطاعتهما، على طاعة الله ورسوله. وهذا هو معنى قوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [العنكبوت: ٨]. وإنباء الله للوالدين وللأولاد جميعا بحكمه فيما كانوا عليه، سيكون عند الرجوع إليه سبحانه؛ لأن هذه المسألة مما لا يثبت فيها من الناس إلا قلّة. وإن لم يكن العبد على نور من ربه فيها، فإن الشيطان يلبس عليه، لكونها من أكبر ما يتعلق به إضلاله. وإلى أصلها، كان يُشير عيسى عليه السلام بقوله: "مَنْ أَحَبَّ أَبًا أَوْ أُمًّا أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي، وَمَنْ أَحَبَّ ابْنًا أَوِ ابْنَةً أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي."[3]. وهو أيضا ما دل عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا؛ وَحَتَّى (يكون أن) يُقْذَفَ فِي النَّارِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ نَجَّاهُ اللَّهُ مِنْهُ؛ وَلَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ.»[4]. ولقد تعمّدنا الإشارة إلى ما ينقض هذه الوصية من جهة حقيقتها، لأننا نرى كثيرا من المسلمين، يقدمون آباءهم وأمهاتهم في الاعتبار على الله ورسوله، من دون أن يتنبّهوا؛ بل وهم مطمئنون إلى أن ذلك مما يجلب عليهم مرضاة ربهم؛ وهيهات!... ويُساعد في تثبيت هذه الضلالات، كون جل الآباء والأمهات على الهوى في أمورهم لا على شريعة؛ ويزيد المسألة سوءا تأكيد الفقهاء لها من غير تمحيص، من باب الهوى أيضا. وذلك لأنهم لا يريدون أن يتثبت الناس في أمورهم هم أيضا، حتى لا يتفطنوا إلى انحرافاتهم الكبيرة في جميع الأمور، التي منها ما هو متعلِّق بالفقهاء أنفسهم. وهذا من باب سدّهم للذريعة -بحسب مبدئهم- إلى علم هذه المسألة المركّبة والمتشعّبة والفاضحة. بل إن الحكام والسلاطين، هم أيضا، استغلّوا الجهل بهذه المسألة، واستغلوا تحريف الفقهاء لها، ليُخضعوا جيل الأبناء لسلطتهم عن طريق جيل الآباء. فزادت بهذا مسألة بر الوالديْن انطماسا، وصار العمل بعكس أصلها مما لا يختلف فيه اثنان. وحتى نبيّن ما يتفرع عنها، نشير إشارة خاطفة إلى مناط تحقيقها، الذي يكون في أصله

---

[1]. الخروج: "٢٠: ١٢.

[2]. متفق عليه، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

[3]. متى: ١٠: ٣٧.

[4], أخرجه أحمد، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

الله ورسوله، من جهة الأوامر الواردة في الكتاب والسنة، ومن جهة شخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ بحيث لو لقي العبد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في عالم اليقظة أو في عالم المشاهدة أو في عالم الرؤيا، وأمره بأمر خاص، وخالفه إلى قول فقيه أو إمام مع ذلك، فإنه يكون ممن ينتفي عنه الإيمان بحسب نص الحديث. ثم يتفرع عن هذه المسألة حكم من يكون في صحبة رباني، نائبٍ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تزكية الناس، ووارثٍ له في علم نبوته، ثم يترك توجيهه إلى ما يُوافق والديْه أو أحدا من علماء رسوم الشريعة. ونعني بهذا، أنه يكون ممن ينتفي عنهم الإيمان بالله ورسوله أيضا. ولقد غلط في هذه الأحكام كثير من الناس، وظنوا أنهم في منأى عن نيل حكم الحديث لهم، لا لشيء، إلا لأنهم لم يُعاصروا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يعاشروه؛ وبذلك هم يتوهمون أنهم لا يُمكن أن يكونوا ممن يفضّل عليه في شخصه من جهة المحبة أحدا، أو في أمره من جهة الأحكام رأي أحد أبدا. وهذا غلط بيّن، منوط بإحسان ظن بالنفس، هو في غير محلّه!... وذلك لأن الناس يُمتحنون –كما سبق أن أخبرنا– في النبي صلى الله عليه وآله وسلم امتحان الصحابة عينه، لكن في مظاهر الوارثين لا في المظهر الأصلي من جهة العيان. ولولا هذا، لكان الصحابة على شريعة، وكان من جاء بعدهم من الناس بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، على شريعة أخرى؛ وهذا لا يقول به أحد من المسلمين. وإلى هذا المعنى يُشير قول الله تعالى: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} [الجمعة: ٣]؛ أي لم يلحقوا بهم بعد؛ وهم كل الأجيال اللاحقة، من زمنهم، إلى قيام الساعة. وقد جاء ذلك بعد قوله سبحانه: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الجمعة: ٢]، المثبِت لمعاملة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكل أتباعه، ولمعاملتهم له. ورغم قطعية هذا النص في الثبوت وفي الدلالة، فإنه من أشد النصوص غيابا عن التداول العلمي، وعن العمل التطبيقي. وإن لم يكن ذلك من أدلة استحكام الأهواء في الأمة، ومن أدلة الانحراف عن الجادة لديها، فما بقي دليل يوثق به!...

٦. "لاَ تَقْتُلْ."[١]. القتل معصية كبيرة، لأن المقتول نظير لنفس القاتل؛ فكأن القاتل يقتل نفسه بذلك. ولذلك كانت عقوبة القتل في الشرائع القتل قصاصا. وقد قال الله تعالى في هذا: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} [المائدة: ٣٢]. ومعنى النظير الذي ذكرناه آنفا، هو المُشار إليه بعبارة "الناس جميعا"، ليكون قاتل النفس كأنما قتل الناس جميعا، ويكون محييها (مُبقيها حية) كمن أحيا الناس جميعا. والمقصود من النظراء، الحقيقة الواحدة الجامعة لهم؛ وهي هنا الصورة الإلهية من جهة الظاهر. أما من جهة الباطن فلا تكون الصورة إلا لمن تحقق بربه، في حين يكون غيره من الناس عليها بالقوة لا بالفعل. لكن الصورة معتبرة على كل حال، لشرف من خُلقت على صورته.

٧. "لاَ تَزْنِ."[٢]. والزنى عمل يتم بمقتضاه التقاء صورتين إحداهما آدمية والأخرى حوّائية من دون إذن إلهي؛ لأن الأصل في هذا الإذن إنتاج الذريّة، وإخراجها من العدم إلى الوجود بحسب الترتيب الإلهي. وهذا المنهي عنه، من أكبر الذنوب التي ينبغي أن يتنزه عنها المؤمنون. والأجدر من هذا، تنزيه الأنبياء عليهم السلام عنها؛ الذين هم أعلم بالله وأقرب إليه على كل حال. وهذا ما لم يفعله بنو إسرائيل، عندما نسبوا بعض أنبيائهم (داود عليه السلام) إلى الفاحشة. وإذا كان ارتكاب الزنى إثما كبيرا عند الله، فإن نسبته إلى الأنبياء تكون أكبر من ذلك بكثير، من غير شك!... ولسنا نتكلم هنا عن البهتان والزور المتعلّقين بالقول، بل عن صورة الذنب وحدها المنسوبة إلى النبيّ.

---

[١]. الخروج: ٢٠: ١٣.

[٢]. الخروج: ٢٠: ١٤.

٨. "لاَ تَسْرِقْ."[١]. والسرقة هي أخذ مال الغير غصبا ومن غير إذن. وهي تشبه الزور في الأقوال، لأن الزور ينسب ما لا يصح قولا، والسرقة تنسب ما لا يصح فعلا؛ وهما معا إخلال بحكمة الله في الأشياء، بالمعنى الأولي البسيط. ونعني من هذا أن السرقة إذا وقعت، فإنها لا تخرج عن الحكمة الإلهية حقيقة؛ بسبب الإحاطة الإلهية.

٩. "لاَ تَشْهَدْ عَلَى قَرِيبِكَ شَهَادَةَ زُورٍ."[٢]. ولقد ذُكر الزور إلى جانب السرقة، للمناسبة التي ذكرناها. والزور هو نسبة فعل ما إلى شخص ما بغير حق؛ كأن يشهد امرؤ على أخيه بالسرقة وهو لم يفعل. والزنا والسرقة وشهادة الزور، ذُكرت بعد القتل، لأنها من القتل المعنوي، إما جزئيا وإما كليا. والقتل المعنوي لم يكن معروفا في القرون الغابرة، كما هو معروف في الأزمنة المتأخرة؛ لذلك وجب تجنّب القتل المعنوي، كما يُتجنّب القتل الحسّيّ؛ والقتل قتلٌ حيث كان!...

١٠. "لاَ تَشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ. لاَ تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ، وَلاَ عَبْدَهُ، وَلاَ أَمَتَهُ، وَلاَ ثَوْرَهُ، وَلاَ حِمَارَهُ، وَلاَ شَيْئًا مِمَّا لِقَرِيبِكَ."[٣]. هذا معنى الحسد، لأن الحاسد ينظر إلى النعمة التي أنعم بها الله على الناس، ويتمنى زوالها عنهم وحصولها له. وهو من أسباب جل المعاصي المرتكبة؛ فإن لم يخرج إلى العلَنِ على صورة معصية من المعاصي الناشئة عنه، فإنه يبقى في صدر صاحبه يُحرقه بناره. وهو من هذه الجهة وحدها، يكون إثما كبيرا؛ ويكفي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول عنه: «إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ. أَوْ قَالَ: الْعُشْبَ»[٤].

وإن هذه المعاصي التي يظهر أن بعضها مُرتكب في حق الله، وبعضها الآخر مرتكب في حق العباد، هي في الحقيقة مرتكبة كلها في حق الله؛ لأنه لولا الجهل بالله، وتوهّم أن الزيادة في الرزق ممكنة خارج ما هو مقدّر، ما كانت سرقة؛ ولولا أنّ ظن نيل المرغوب من خارج القدَر لازمَ عقلا غيابَ شخص بعينه، ما كان قتْل؛ إلى غير ذلك من كلّ ما ذُكر. لكننا نؤكد على أن المعاصي نفسها، وإن ظن أصحابها أنهم يراوغون الأقدار، لا تخرج عن القدر نفسه؛ لذلك ما يجني أصحابها إلا الخسران بحسب سوء النية وسوء الفعل فحسب. ونحن نقول بعدم خروجها عن القدر، ومِن قبله عن العلم، لأنه يستحيل أن يقع شيء في العالم، صغيرا كان أو كبيرا، من دون إرادة الله له؛ وبالتالي فإن معاصي العباد تكون مرادة لله، ولا بد. لكن ينبغي هنا التفريق بين أمر الله وإرادته، لتكون النتيجة أن الله لم يأمر بالمعاصي، لكنه أرادها. وما مؤاخذة العباد عليها، إلا لأنهم خالفوا بها أمره سبحانه؛ لا لأنهم أرادوها بإرادة مستقلة. وذلك لأنه لا إرادة في الوجود تستقل عن إرادة الله، كما يتوهم ذلك القاصرون من "رجال الدين". وعلى هذا، فإن إرادة العبد للمعصية، هي من إرادة الله؛ ولكن تعلّق العقوبة بها، لا يكون إلا بعد خروجها إلى الفعل. وليس ذلك، لأن الفعل يكون للعبد (مِن خلْقه) بعكس الإرادة؛ وإنما الفعل لله أيضا كما هي الإرادة. ولكن كونه محلا لذلك الفعل، وكونه محجوبا عن نسبة الفعل إلى الله بنسبته إليه هو، هما ما يجعلانه محلاًّ للمؤاخذة. وقد يطول بنا الكلام في هذه المسألة هنا، من دون أن نبلغ الغاية فيها؛ لأنها منوطة بمراتب دينية أعلى. والمرتبة الغالبة على الموسويين، هي -كما قلنا- المرتبة الأولى التي تُعنى بالظاهر، في جل ما يتعلق بها. لذلك، فلن نزيد على هذا هنا؛ وسنترك باقي الكلام إلى حين ورود ما يستدعيه إن شاء الله.

---

[١] . الخروج: ٢٠: ١٥.

[٢] . الخروج: ٢٠: ١٦.

[٣] . الخروج: ٢٠: ١٧.

[٤] . أخرجه أبو داود، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الفصل الثاني

الشعائر اليهودية: الصلاة (١)

إن العبادة في الزمن الأول، كانت تقديم القرابين، من أجل التقرّب أو الشكر. جاء في سفر التكوين: "وَحَدَثَ مِنْ بَعْدِ أَيَّامٍ أَنَّ قَايِينَ قَدَّمَ مِنْ أَثْمَارِ الأَرْضِ قُرْبَانًا لِلرَّبِّ، وَقَدَّمَ هَابِيلُ أَيْضًا مِنْ أَبْكَارِ غَنَمِهِ وَمِنْ سِمَانِهَا. فَنَظَرَ الرَّبُّ إِلَى هَابِيلَ وَقُرْبَانِهِ، وَلكِنْ إِلَى قَايِينَ وَقُرْبَانِهِ لَمْ يَنْظُرْ."[١]. وكانت الصلاة دعاء بحسب الحاجة، وصارت تتخذ صورتها النظامية شيئا فشيئا مع الزمان. وهذا الأصل قد بقي لدى الموسويين، وأدى إلى تطور عبادتهم بعد إرساء موسى لقواعدها، مع القرون. وصارت القرابين تُقدّم على يد الكهنة في أماكن مخصوصة، كما نصّت على ذلك أسفار: التكوين، والخروج، ويوشع، وصموئيل الأول، والملوك الأول، ويوئيل، والملوك الثاني، ودانيال، وعزرا، ونحميا... ولقد كان خراب الهيكل الأول، وسبي بني إسرائيل إلى بابل، إيذانا بنهاية التقدمات والقرابين (على عهد عزرا)، وحلول الصلوات بدلها إلى الآن. وقد ذُكر في "المشنا" (البركات) أن الصلاة أفضل من القرابين؛ وذلك لأن الصلاة من الإنسان تكون بقلبه وبدنه، بينما القرابين هي من ماله وممتلكاته؛ وما هو من الإنسان نفسه، فهو أعلى قدرا من غير شك. وقد بيّن الرب حكمه في أفضلية التوبة على التقدمات، على لسان أنبيائه، كما في إشعياء: "لِمَاذَا لِي كَثْرَةُ ذَبَائِحِكُمْ، يَقُولُ الرَّبُّ. اتَّخَمْتُ مِنْ مُحْرَقَاتِ كِبَاشٍ وَشَحْمِ مُسَمَّنَاتٍ، وَبِدَمِ عُجُول وَخِرْفَانٍ وَتُيُوسٍ مَا أُسَرُّ. حِينَمَا تَأْتُونَ لِتَظْهَرُوا أَمَامِي، مَنْ طَلَبَ هذَا مِنْ أَيْدِيكُمْ أَنْ تَدُوسُوا دُورِي؟ لاَ تَعُودُوا تَأْتُونَ بِتَقْدِمَةٍ بَاطِلَةٍ. الْبَخُورُ هُوَ مَكْرَهَةٌ لِي. رَأْسُ الشَّهْرِ وَالسَّبْتُ وَنِدَاءُ الْمَحْفَلِ. لَسْتُ أُطِيقُ الإِثْمَ وَالاعْتِكَافَ. رُؤُوسُ شُهُورِكُمْ وَأَعْيَادُكُمْ بَغَضَتْهَا نَفْسِي. صَارَتْ عَلَيَّ ثِقْلًا. مَلِلْتُ حَمْلَهَا. فَحِينَ تَبْسُطُونَ أَيْدِيَكُمْ أَسْتُرُ عَيْنَيَّ عَنْكُمْ، وَإِنْ كَثَّرْتُمُ الصَّلاَةَ لاَ أَسْمَعُ. أَيْدِيكُمْ مَلآنَةٌ دَمًا. اِغْتَسِلُوا. تَنَقَّوْا. اعْزِلُوا شَرَّ أَفْعَالِكُمْ مِنْ أَمَامِ عَيْنَيَّ. كُفُّوا عَنْ فِعْلِ الشَّرِّ. تَعَلَّمُوا فَعْلَ الْخَيْرِ. اطْلُبُوا الْحَقَّ. انْصِفُوا الْمَظْلُومَ. اقْضُوا لِلْيَتِيمِ. حَامُوا عَنِ الأَرْمَلَةِ."[٢]، وكما في هوشع: " اِرْجِعْ يَا إِسْرَائِيلُ إِلَى الرَّبِّ إِلهِكَ، لأَنَّكَ قَدْ تَعَثَّرْتَ بِإِثْمِكَ. خُذُوا مَعَكُمْ كَلاَمًا وَارْجِعُوا إِلَى الرَّبِّ. قُولُوا لَهُ: ارْفَعْ كُلَّ إِثْمٍ وَاقْبَلْ حَسَنًا، فَنُقَدِّمَ عُجُولَ شِفَاهِنَا."[٣].

والصلاة لدى الموسويين إما فردية وإما جماعية. فالصلاة الفردية هي دعاء مرتجل بحسب الحاجة، تأسيّا بفعل إبراهيم، ومِن بعده بفعل موسى، وغيرهما من الأنبياء والرسل عليهم السلام. والصلاة الجماعية، هي شعيرة مشتركة تكون تحت إشراف الكهنة ورؤساء الدين، في أماكن مخصوصة؛ ولم يكن ذلك إلا بعد تأسيس خيمة الاجتماع والهيكل. وكانت الصلاة في الغالب مركبة من النثر والنظم، وشيئا فشيئا صارت تُستعمل فيها آلات موسيقية قانونية، ويُعيّن لها مغنّون.

والصلاة فريضة على النساء وعلى الرجال، يؤدونها وقوفا وجلوسا، رُكّعا وسُجّدا، مع البكاء في تضرعاتهم واعترافاتهم. وفي أيام الشدة يلبسون خيشا ويذرون ترابا ورمادا على رؤوسهم، وقد يُمزقون ثيابهم ويحلقون شعورهم. وعند وقوفهم يضعون أيديهم على صدورهم، ويَحْنون رؤوسهم، كهيئة وقوف الخادم بين يدي سيّده. ويُستعدّ للصلاة بالنظافة والتزيّن وبجمع

---

[١]. تكوين: ٤: ٣-٥.

[٢]. إشعياء: ١: ١١-١٧.

[٣]. هوشع: ١٤: ١-٢.

القلب، ولا يتخذ الإسرائيليون بينهم وبين الرب وسيطا، كما قد يفعل غيرهم؛ بل يحرصون على التوجّه إليه مباشرة. هذا في العموم، وعلى خلاف ما يرى بعض علماء القبالا من وساطةِ بعض الملائكة. والتوحيد الذي قد يبدو فيه الموسويّون هنا فيه أقرب من المسيحيّين بحسب الظاهر، ليس إلا توحيدا ظاهريا، يُشبه توحيد التيميّين الوهابية لدى المسلمين. وهذا، لأن التوحيد ليس توجها أوليّا كله، كما قد يُدرك العامة؛ ولكن هو علم منوط بمرتبة العبد الدينيّة ذاتها. ونحن قد سبق لنا القول بأن الموسويّين في زمانهم، لا يتجاوزون المرتبة الأولى من الدين، والتي هي في الغالب ظاهرية.

وأهم أقسام الصلاة "الشِّماع" (أو الشِّمع)، وهو قد وُضع منذ عهد "عزرا" بعد خراب الهيكل الأول، على أيدي رجال الكنيسة الكبرى، ولم يتغير منذ ذلك الحين من حيث الألفاظ إلا قليلا. ورغم أن الصلوات، قد جُعلت في البداية باللغة العبرانية، إلا أنها تُرجمت بعد ذلك إلى الكلدانية، ثم إلى سائر اللغات بعد الجيل السادس عشر. ومعنى كلمة "شماع" هو: اِسمع. وهي أول كلمة من آية التوحيد الواردة في سفر التثنية، هكذا: "اِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ."[١]. ويظهر من اللفظ أن المقصود هو توحيد الألوهية، الذي كان غير مُدرَك للوثنيّين الذين لا يعقلون معاني الأسماء الإلهية إلا متباينة. ورغم أن الإسرائيليين، لا قِبل لهم بتمييز معنى الذات؛ إلا أنهم سيكونون على معرفة أولية بمعنى المرتبة (الواحدية)، وهو كاف لأن يُعدّ المرء معه من أهل التوحيد. بل إن الخوض في معنى الذات –كما سيفعل ذلك المتكلمون من المسلمين فيما بعد، ظنا منهم أنهم يزدادون بذلك توحيدا– هو من المحرمات على أهل المرتبة الأولى والثانية من الدين؛ لأنه يُدخل صاحبه في الشرك من دون أن يشعر. وهكذا، يظهر جليّا، أن التوحيد الشرعي، هو اتباع في الحقيقة وتقليد، أكثر مما هو علم تفصيلي؛ بعكس ما يظن المشتغلون باللاهوت والكلام. وينبغي أن نذكر أن الموسويّين الأولين، كانوا ملتزمين بآداب الاتباع، وامتنعوا عن تكلف الكلام في تفاصيل التوحيد، واكتفوا بالتوجُّه إلى الله (الرب) بحسب ما تُعطيه الحاجة من أحوالهم في معيشتهم اليومية؛ وهذا من أفضل ما يكون من العبادة في هذه المرتبة، لو أن الناس كانوا يعلمون.

والشماع في الحقيقة مجموع من ثلاثة أقسام:

القسم الأول، مأخوذ من سفر التثنية (٦: ٤–٩): يبتدئ بآية التوحيد، ثم يذكر وجوب محبة الله من كل القلب ومن كل النفس ومن كل القوة، ووجوب حفظ الوصايا وتعليمها للأولاد، ووجوب التكلم عنها دائما، وربطها آية على الأيدي وعصابة على الأعين وكتابة على قوائم الأبواب.

والقسم الثاني، مأخوذ من سفر التثنية (١١: ١٣–٢١): ويذكر وعد الله بمكافأة عباده بإطالة العمر وتكثير النعم والبركات، إن هم عملوا بالوصايا؛ وبالعقوبة إن هم خالفوا.

والقسم الثالث، مأخوذ من سفر العدد (١٥: ٣٧-٤١): ويذكر وصية الأهداب، حتى تُذكِّر بوجوب طاعة الرب عند رؤيتها، وبوجوب الانصراف عن اتباع الأهواء. ويُذكّر هذا القسم بالخروج من مصر قديما، حتى يبقى ماثلا أمام أعين كل أجيال بني إسرائيل.

ولولا أن "عزرا" كان نبيّا مجددا للتوراة وللتشريع الموسوي، ما كنّا لنعتبر الشعائر اليهودية قط، لأنها إحداث لما لم يكن عليه موسى عليه السلام. وسيأتي الكلام في محلّه عن الصلاة لدى المسلمين، وعن سورة الفاتحة خصوصا، لنبيّن الفرق بين الصلاتيْن من وجه كونهما استمرارا للمعاني ذاتها، عند تطوّر صورتهما في التشريع داخل الدين الواحد. وإنّ كل من يرى من الكتابيّين أن التزامه بصورة التشريع لديه، هو غاية ما يُطلب منه في باب التديّن اليوم، يكون جاهلا بالدين من أساسه؛ كما أن المسلمين –في المقابل– الذين يرون شريعتهم منفصلة عن الشرائع السابقة انفصالا تاما، هم جاهلون

---

[١] . تثنية: ٦: ٤.

بتطوُّر الدين، المواكب لتطور كل جوانب الحياة البشرية الأخرى على الأرض. ومن هنا سيظهر لنا، مدى تأثير "رجال الدين" على الناس من جميع الملل، من أجل إبقائهم داخل "الحظيرة" الدينية التي يُشرفون على استثمارها وإخضاع من فيها للبيع والشراء، في سوق الدنيا الزائلة رغم رواجها.

وإن نحن نظرنا إلى البركات التي تُتلى في الصلوات الإسرائيلية، التي كانت في الأصل ثمان عشرة "شيمونة عسرة"، فإننا نجدها من وضع عزرا ورجال الكنيسة الكبرى أيضا، ثم قام بإعادة ترتيبها "شمعون الباقولي" و"ربان جمليل" فيما بعد؛ وأضاف إليها البركة الثانية عشرة لاحقا "شموئيل الفاطان". ومع أن البركات تُسمّى على عددها الأول ثمان عشرة، إلا أنها قد أُضيفت إليها أخرى ليُصبح عددها تسع عشرة. وقد كان ذلك في القرن الثاني، وضد الهرطقة، التي كان يُقصد من ورائها "الكفار" المسيحيون، في نظر اليهود.

وقد وردت أكثر عبارات البركات وألفاظها في "الكتاب المقدس"، وبعضها الآخر في "المشنا". وتنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: "شِباحيم": أي التسابيح؛ ويشمل البركات الثلاث الأولى (ريشونوت). وهو قسم مخصوص بتعظيم الله والثناء عليه.

الثاني: "بقاشوت": أي الطلبات والتوسلات؛ ويشمل البركات الثلاث عشر المتوسطة (إمصاعُيوت). وهو قسم يُدعى فيه بقضاء حوائج الأفراد والجماعة.

الثالث: "هوداؤوت": أي التشكرات؛ ويشمل البركات الثلاث الأخيرة (أحرونوت). وهو قسم مخصوص بالشكر على النعم.

والقسم الأول والثاني، لا يتغيران أبدا، بينما القسم الثالث تُراعى فيه المناسبات، كالسبوت والمواسم والأعياد.

وإذا نحن عدنا إلى المعاني التي تدور حولها البركات، فإننا نجدها على عمومها وإجمالها، لا تخرج عن معاني الصفات الإلهية والأفعال. وهذا يعني أن بني إسرائيل في مرتبتهم التشريعية الأولى، المناسبة لأول أطوار الدين، لم يكونوا يعلمون من الله إلا ما يُلبّي حاجاتهم الضرورية؛ فهي مناط ثنائهم، ومناط تضرعهم ودعائهم. وهذا الوجه البارز في المعاملة بين الله وعباده، هو ما يشير إليه قول الله تعالى في القرآن من باب الامتنان على المسلمين الأُول: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} [قريش: ٣، ٤]. والإطعام من الجوع، يشمل كل ما يتعلّق بالفقر الذاتي الذي للعباد، بسبب أصلهم العدمي. ولولا أن الله يُغنيهم بما تقوم به ذواتهم (صورهم)، ما تم لهم الظهور بصفة الوجود من الأصل. والوجود نعني به هنا الغنى العام الشامل لجميع صنوف الغنى المقابلة لكل صنف من صنوف الفقر الذي للعباد. وأما الأمن من الخوف، فهو متعلق بحفظ ذوات العباد، الذي يعني إبقاء الإمداد عليهم مستمرا، حتى يستمر وجودهم. وهذان الصنفان من النعم، هما أصل كل نعمة أخرى فرعية. ومن الأسماء التي يعقلها أهل هذه المرتبة خصوصا: الرب، المنعم، الرزاق، المغني، القوي، المحيي، المانع، المنتقم، الواقي، الحافظ، المميت...

ونحن عندما ذكرنا أن الإسرائيليين، لا يعلمون من الله، إلا بقدر حاجتهم إليه؛ فإن ذلك لا يستثني العيسويين ولا المحمديين؛ خصوصا منهم الذين لا يتجاوزون المرتبة الأولى من الدين في ملّتهم؛ ولا يستثني من جهة الحقيقة أيضا كل عبد من العباد، مهما بلغت مرتبة علمه بالله، لكون العبد في الحقيقة لا يعلم من الله إلا صورة نفسه، كما ذكرنا في قول لنا سابق. ولكن مع هذا، فنحن نريد الإشارة إلى معنى لم يفتح الباب إليه إلا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو المعنى الذاتي؛ الذي يُتيح التحققُ به للعبد أن يعلم الله بالله. وهذا -كما هو جليّ- لا يتمكن اليهود من تصوُّره؛ وإن كنا سنعرف فيما بعد رائحة له عندهم، من تأثرهم بالعقائد (والمعارف) المسيحية والإسلامية تباعا. وهذا الباب من أعجب

ما يقع في مجال التلاقح التشريعي، من خارج الإذن الشرعي الذي يُلزم أهل كل شريعة باتباع الشريعة الجديدة إن هم راموا الترقّي في الدين. وهذا يعني، أن أولئك الأحبار والكهنة المعنيّين، سيتقمصون الترقّي من دون أن ينالوه. وسنتبيّن ذلك جليا بإذن الله، عندما نتناول بشيء من التفصيل نصوص المجددين في اليهودية وفي النصرانية، عند تتبع أصول التجديد فيهما في كل مرة.

والشعائر التي ذكرنا أنها لا تمت كثيرا إلى موسى عليه الصلاة والسلام بصلة، ليست الوحيدة في ذلك؛ بل الأعياد الدينية الإسرائيلية أيضا، ضعيفة الصلة بموسى؛ وهي في معظمها تعود إلى مناسبات وذكريات تاريخها متأخر جدا عن الزمن الأول. وقبل أن ندخل في تفاصيل ذلك، نرى أنه من الضروري ذكر مواقيت الصلوات اليومية؛ لنعبُر من خلالها إلى بعض ما يتعلق بذلك من معان.

والصلوات الواجبة على اليهودي ثلاث في اليوم:

١. صلاة السَّحَر (شحاريت): ووقتها منذ تبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأزرق، إلى ارتفاع عمود النهار؛ بحسب ما ورد في "المشنا".

٢. صلاة منتصف النهار أو القيلولة (مِنْحة): ووقتها من انحراف الزوال، إلى ما قبل الغروب.

٣. صلاة الغروب (عَرِبيتْ): ووقتها يبدأ من غروب الشمس إلى حلول الظلام (وقت العشاء عند المسلمين).

وهذه الأوقات، لها اعتبار في التجلّي الإلهي. وبما أن صلاتيْن من الثلاث تكونان في وقت السحر أو بعد الغروب، فإن هذا يدل على أن التجلي الإلهي بالنسبة إلى الموسويين، يغلب عليه البطون من جهة ثُلثيْه؛ في حين لا يكون الظهور متعلّقا إلا بالثلث المتبقي. والظهور والبطون اللذان نعنيهما هنا، هما متعلِّقان بالجانب العقَدي المعرفي؛ لا بالجانب التشريعي الذي كنا نذكر عنه، أن الشريعة الموسوية من جهته يغلب عليها الظاهر. وهذا الذي نذكره هنا، هو ما أخبرنا عنه في السابق من كون أتباع موسى لم يكونوا على معرفة كبيرة بربّهم (مرتبة الإسلام لدى المسلمين)؛ لأنه بالنسبة إليهم "باطن".

وتبدأ الصلاة بغسل اليدين، وبوضع الشال الصغير على الكتفين، أو بوضع الشال الكبير عندما تكون الصلاة جماعية. والشال يكون من نسيج أبيض مستطيل أو مربع، وفي كل زاوية من زواياه حلية مؤلفة من ثمانية أهداب؛ أربعة بيضاء وأربعة زرقاء. وهذا الأزرق مختلَف فيه من جهة درجة الزُّرقة، من الكحلي الداكن إلى الأخضر الكُرّاثي؛ وإن كان اليهود في مجملهم يميلون إلى اللون الأزرق السماوي (الأسمنجوني)؛ وهو اللون الذي تضعه دولة إسرائيل اليوم على علمها.

وأما اقتصار الطهارة من اليهود على غسل اليدين، بالمقارنة إلى وضوء المسلمين السابغ، فلأن جل عبادتهم هي من مرتبة الأفعال. وهذا يعني أن القسط الأكبر من شريعتهم، هو متعلق بالحلال والحرام من جهة الظاهر. وأما الطهارة القلبية، فبالرغم من ورود التنبيه إليها في "الكتاب المقدس"، إلا أنها ستبقى بعيدة من حيث الإدراك ومن حيث التناول. وهذا يعني من جهة مقابلة، أن المرتبة الأولى من الدين، لا يصح أن تكون بدنية صرفا؛ بل لا بد فيها من حد أدنى قلبي؛ لكن هذا الحد الأدنى لا يُعتبر إن قورن بالمرحلة المختصة بالقلب (الإيمان) التي ستكون محور دعوة عيسى عليه السلام، أو بالمرحلة التي فوقها. وأما الشال الأبيض، فهو دليل على التوبة من الذنوب، وعلى التفاؤل بحصول القبول من الله؛ وهو ما يُسمّى عندنا "الرجاء". وأما اختلاف الأهداب بين الأبيض والأزرق، فهو دلالة على انحصار الأفعال من جهة الأحكام التشريعية: بين طاعة (أبيض) ومعصية (أزرق). وهذا لأن الطاعة تعود إلى حكم الوجود، بينما المعصية تعود إلى حكم العدم (الظلمة). وأما عدد الأربعة من كل لون، فهو مناسب لمراتب التجليات من جهة العموم؛ وهي المذكورة في قول الله تعالى: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ} [الحديد: ٣]. وأما الزوايا الأربع من الشال، فهي رمز إلى عالم الطبيعة (رباعي العناصر) الذي يكون فيه الناس في دنياهم؛ والذي هو محل التكليف دون غيره من العوالم التي سيحلون فيها بعد

موتهم. وهذا الشال له أحكام خاصة، أهمها أن لا تلمسه النساء؛ ومعنى ذلك أن يكون العابد -على الأقل في وقت عبادته- خارجا عن أحكام نفسه؛ لأن حواء هي صورة نفس آدم من جهة الحقيقة. والمقصود بالخروج عن أحكام النفس هنا، ليس معنى التحقّق الذي يكون للربانيين منا؛ وإنما هو معنى المجاهدة لما يرد على القلب من خواطر الشر، بمدافعتها وعدم العمل بمقتضاها، لا غير. وهذا الشال، يُخصص له مكان من البيت، ليُحفظ فيه؛ ويرتديه اليهودي من بلوغه إلى وقت مماته، ليُكفّن فيه. وهذا يؤكّد ما ينبغي أن يلقى العبد ربه عليه، مما هو مناسب لحال الصلاة في المعتاد؛ وهو معنى جيد، ينبغي أن لا يغفل الناس عنه.

ومما يحرص عليه اليهود في العبادة، تغطية الرأس؛ وهو من علامات التوقير في الظاهر. أما من جهة الباطن، فهو خروج من حول العبد وقوته، إلى حول الله وقوته؛ وهو معنى "لا حول ولا قوة إلا بالله" بالعبارة المعروفة في الإسلام. وهو أيضا تأكيد لمعنى الخروج عن نسبة الأفعال إلى النفس. وهذا يعني أن الذي يرى نفسه قد أدى ما عليه من واجبات، فإنه يكون بعيدا عن التحقق بالعبادة من جهة معانيها؛ ومن يرى أن الله تفضّل عليه فأقامه في العبادة، فإنه يكون موافقا للمعاني التي وُضعت العبادة لها.

ويلبس اليهود أيضا "التفلين"، وهو علبة صغيرة من الخشب أو الجلد، بداخلها رقعة من الجلد (رق الغزال) مكتوب عليها: "قراءة السماع". ويجب وضعها عند الصلاة في وسط الجبهة بحيث يربط شريط الجلد من جهة على الرأس، ومن جهة أخرى على الكف اليسرى؛ وتكون العلبة مثبتة عند أصل الإبهام. وقد اعتمد الفقه اليهودي في فرضه لـ "التفلين" على التنزيل الظاهري الحرفي، لما جاء في سفر التثنية كما هو مذكور في محله من بداية هذا الفصل. وهذا يؤكد ما ذكرناه مرارا من أن اليهود ليس في مقدورهم مجاوزة الماديات من جهة الإدراك، إلى ما هو من المعاني والسماويات. وإن تكرار عيسى عليه السلام لعبارة "دخول الملكوت"، قد كان منه للدلالة على المعاني السماوية في مقابل المعاني الأرضية التي يُستدل عليها في الغالب من الألفاظ في أولى مراتبها. وإن تمييزنا هنا بين المعاني السماوية والمعاني الأرضية، هو للتفريق بين المعاني الدينية الوجودية، التي لا ينالها إلا أهل الدين بالترقّي عن المرتبة الأولى، وبين المعاني العقلية التي يتداولها المفكرون والفلاسفة؛ والتي لا تبلغ السماء بالمعنى الديني الرباني. ونعني من هذا أيضا، أن المعاني السماوية (بغير المعنى الاصطلاحي)، التي يبلغها الفلاسفة أو العرّافون، تكون عن أرواح الكواكب لا عن المدد النبوي الرباني. وهذا التفريق ضروري في زماننا، لأننا نرى جل أهل الدين قد انخدعوا بالمعاني العقلية عند انقطاع مددهم، وظنّوا أن المدد في ذلك واحد وأن الطريق واحد؛ والأمر بخلاف ذلك على التمام. وهذا الانقطاع عن المدد الرباني، لم يقع فيه اليهود والنصارى وحدهم، بل تعداهم إلى عموم المسلمين، الذين لم يبق لهم من النور الأصلي إلا ما يحفظ عليهم إسلامهم، إن هم حافظوا عليه؛ وإلا فإن بعضهم نراهم يدخلون ويخرجون من الإيمان إلى الكفر، في اليوم أكثر من مرة وهم لا يشعرون. وهذا الحال هو ما نبه إلى خطورته النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ؛ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا؛ أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا؛ يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا!»[١].

وأما نص قراءة السماع، والذي هو الجزء الوحيد من صلاة اليهود المأخوذ كله من التوراة بفقراته الثلاث، فهو:
[اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا، الرب واحد؛ فتحب الرب إلهك بكل قلبك، وبكل نفسك، وبكل قوتك. ولتكن هذه الكلمات التي أنا موصيك بها اليوم على قلبك، واروها لأولادك، وتلفظ بها في إقامتك ببيتك، وفي مشيك في الطريق، وحين نومك وقيامك. وثبّتها على يدك آية، ولتكن عصائب بين عينيك. واكتبها على مصاريع بيتك، وعلى بوّاباتك.

[١] . أخرجه مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فإذا سمعتم وصاياي التي أنا موصيكم اليوم سمعا، لتحبوا الرب إلهكم وتعبدوه بكل قلوبكم وكل نفوسكم، أعطيتُ مطر أرضكم المبكّر والمتأخر في أوانه، فجمعت قمحك وخمرك وزيتك؛ وأعطيت بهائمك عشبا في حقلك فتأكل أنت وتشبع. واحترسوا من أن تزيغ قلوبكم فتنحرفوا وتعبدوا آلهة أخرى وتسجدوا لها؛ فيحمى غضب الرب عليكم، ويغلق السماء فلا يكون مطر، ولا تعطي الأرض غلّتها، فتبيدون سريعا من الأرض الطيبة التي يُعطيكم الرب. فضعوا كلماتي هذه على قلوبكم ونفوسكم، وثبتوها آية على أيديكم، ولتكن عصائب بين عيونكم، وعلموها لأولادكم، متكلمين بها عند الإقامة في بيوتكم وحين المشي في الطريق ووقت منامك وقيامك. واكتبها على مصاريع بيتك وعلى بواباتك؛ لكي تكثر أيامك، وأيام أولادك على الأرض التي أقسم الرب لآبائك أن يُعطيهم، إياها طيلة أيام السماء على الأرض.

وكلم الرب موسى قائلا: حدّث بني إسرائيل وقل لهم أن يصنعوا لهم أهدابا في أطراف ثيابهم على أجيالهم، ويجعلوا على هدب كل طرف فتيلا من الأسمانجوني، فتصير لكم هدبا فترونها وتذكرون كل وصايا الرب وتنفذونها ولا تدورون وراء قلوبكم ووراء عيونكم، إذ أنتم من ورائها تفسقون؛ لكي تتذكروا وتنفذوا كل وصاياي، وتكونوا مقدّسين لإلهكم. أنا الرب إلهكم الذي أخرجكم من أرض مصر، ليصير لكم إلها. أنا الرب إلهكم.]. ولننظر الآن في معانيه:

_ "اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا، الرب واحد.": ولفظ "اسمع" هنا الذي من أجله سُمي هذا النص سماعا (شماع)، فإنه مناسب للوحي الموسوي الذي أصله من التكليم الإلهي له. وهذا السماع هنا، في مقابل الشهادة التي للمسلمين في قولهم: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله.". و"أشهد" في شهادة الإسلام، من الشهود، الذي هو من اختصاص الاسم "البصير"، كما هو السماع من اختصاص الاسم "السميع". والاسمان "السميع" و"البصير" هما من أتباع الاسم "العليم". وهذا الشهود الذي في التشريع المحمدي، هو ما كان قد سأله موسى في قوله: {رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ} [الأعراف: ١٤٣]؛ فأجابه الله: {قَالَ لَنْ تَرَانِي} [الأعراف: ١٤٣]؛ ثم أضاف سبحانه: {وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ١٤٣]. ومعنى هذا، أن الرؤية منوطة بمحمد؛ وأما أنت فلن تراني من حقيقتك، بل تراني بعد فنائك في محمد. وهذا هو مناط إيمان موسى عليه السلام، لكون الإيمان لا يتعلّق إلا بالغيب؛ وهذه الرؤية في حقه كانت ما تزال في رحم الغيب وقت سؤالها. وأما السمع والبصر عندما يكونان من "السميع البصير"، فإنهما يعطيان التوحيد. ومعنى التوحيد، هو رجوع كل المعاني الاسمية المختلفة، إلى أصل واحد، هو "الله"، الذي جاء هنا بلفظ "الرب إلهنا". وهذا يدل على أن الموسويّين، لم يكونوا يميّزون بين الألوهية والربوبية، وكانوا يعاملون الاسمين "الله" و"الرب" معاملة الاسم المركب. وهو صحيح من جهة علم الإجمال، على الوجه ذاته الذي يعلمه عوام المسلمين. أما دخول ابن تيمية فيما سمّاه توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، فهو جهل محض، وتكلف في غير محلّه.

_ "فتحب الرب إلهك بكل قلبك، وبكل نفسك، وبكل قوتك.": والفاء هنا للربط والترتيب، بمعنى أنك بعد سماعك ما يُثبت وحدانية الرب في قلبك، فأحبه بكل قلبك وبكل نفسك وبكل قوتك. وسنجد هذا التفريق بين القلب والنفس متكررا في غير هذا الموضع، ليدل على المغايرة من حيث الدلالة؛ وهو صحيح. وذلك لأن معنى القلب معنى حيادي، يقبل التلوّن بما يحل فيه من جهة علوه أو من جهة سفله؛ ولسنا نعني إلا الروح والنفس. وبما أن مرتبة بني إسرائيل، هي مرتبة الإسلام الأولى، فإن القلب يكون فيها بين معناه الأصلي "القلب"، ومعناه الحالي "النفس". والنفس على عكس معنى القلب من حيث الاستقلال عن البدن، هي ناشئة بين البدن والقلب؛ وهي متعلّق كل المعاملات الأرضية التي تكون للقلب. وهذه المرتبة من أشق المراتب من جهة المعاملة الدينية، لأن العبد يكون فيها تحت قهر أنانيته وطبيعته في جلّ أوقاته؛ وهذا يجعل القيام بالأوامر الشرعية على عكس مرغوبه. وأما وجود النشاط في العبادة الذي قد يكون عليه أصحاب

هذه المرتبة، ووجود الحلاوة، فهما على العكس من المظنون، من أثر النفس لا من أثر القلب؛ عند شهود الفعل منها. وهذا يجعل العبادة في الغالب غير مقبولة، إلا أن يتجاوز الله عن عبده.

_ "ولتكن هذه الكلمات التي أنا موصيك بها اليوم على قلبك، واروها لأولادك، وتلفظ بها في إقامتك ببيتك، وفي مشيك في الطريق، وحين نومك وقيامك": وهذا هو معنى قول الله تعالى: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران: ١٩١]. وإن ذكر الله ليس على مرتبة واحدة؛ والمرتبة الأولى يُناسبها ذكر اللسان، الذي دلت عليه هذه الفقرة من السماع؛ وهو في متناول كل إنسان. وأما الأوقات، فلا شك هي تعم كل أوقات اليقظة من ليل أو نهار. وعندما يعم الذكر جميع أوقات العبد، فإنه يُرجى له أن يعم كل أحواله أيضا؛ وهذا يجعله مؤهلا لأن يرتقي إلى المرتبة الثانية من الدين. وقد يتساءل قوم عن جدوى الذكر، وهو عبادة سارية في الأوقات، وليس كالعبادات النظامية الرسمية الفردية أو الجماعية؛ فنقول: إن الذكر هو روح الأعمال كلها، وبه تحيا صور العبادات من صلاة وصيام وحج وغير ذلك. فمن لا ذكر له، تكون عبادته جوفاء لا قيمة لها في ميزان الشريعة نفسه.

_ "وثبّتها على يدك آية، ولتكن عصائب بين عينيك. واكتبها على مصاريع بيتك، وعلى بوّاباتك.": هذه الوصية هي التي رأينا سابقا أن بني إسرائيل أخذوها على ظاهرها، بينما هي مجاز يُراد منه أن تتجسّد الوصايا في أفعال العبد التي هي ثمرة يده؛ وأن تكون مشهودة له في قلبه على الدوام، حتى لا يخرج بالغفلة إلى ما يُعاكسها؛ وأن يجعل من بيته معبدا خاصا يعبد فيه الله، ولا يكتفيَ بالمعابد المشتركة التي قد يأتيها الناس رياء، كما هي الحال في الغالب.

_ "فإذا سمعتم وصاياي التي أنا موصيكم اليوم سمعا، لتحبوا الرب إلهكم وتعبدوه بكل قلوبكم وكل نفوسكم، أعطيتُ مطر أرضكم المبكّر والمتأخر في أوانه، فجمعتَ قمحك وخمرك وزيتك؛ وأعطيتُ بهائمك عشبا في حقلك فتأكل أنت وتشبع.": تدل هذه الوصية على أن بني إسرائيل لم يكونوا يعرفون من الإخلاص إلا ما يكون منه عند التوجه (النية). وهذا هو ما يكون عليه العوام من المسلمين أيضا، الذين لا يتمكنون من عبادة الله لله. وهذا الصنف من العبادة، وإن كان له أصل في الشرع، عند مراعاة الضعفاء، فإن صاحبه يكون على خطر، إن تخلفت النتائج المرجوة في الدنيا؛ كأن يمتنع المطر رغم المواظبة في الظاهر على العبادة، أو أن يُصاب العبد في نفسه أو ماله. ونعني أن من يعبد الله لأجل قضاء المآرب، لا يخرج من جملة مَن يعبده على حرف؛ كما أخبر سبحانه عن قوم بقوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الحج: ١١]. وحتى يخرج العبد من هذه الآفة، عليه أن يتعلم عبادة الله من دون نظر إلى نتائجها؛ إلا ما يكون من أحوال القلوب، ليزداد بها تقرّبا. وأما النعم التي يتفضل الله بها على عباده، من مثل ما ذُكر هنا، فمن الأفضل أن يراها العبد نِعما جديدة، عليه أن يشكر ربه عليها هي أيضا، لا أن يراها من نتائج أعماله. كل هذا، من جهة علم التربية، لا من جهة العلم كما هو في نفسه. وقد فرّقنا مرات عديدة بين الصورتيْن، حتى ندل على ما ينفع العبد في الوقت، لا على ما يوافق العلم فحسب.

_ "واحترسوا من أن تزيغ قلوبكم فتنحرفوا وتعبدوا آلهة أخرى وتسجدوا لها؛ فيحمى غضب الرب عليكم، ويغلق السماء فلا يكون مطر، ولا تعطي الأرض غلّتها، فتبيدون سريعا من الأرض الطيبة التي يُعطيكم الرب.": التحذير من زيغ القلوب، هو تحذير من اتباع الهوى والشيطان، لأنهما وحدهما ما يجعلان القلوب تنحرف. وإذا انحرفت القلوب، فإنها تتجه إلى المعصية بدل الطاعة؛ وإن أعظم معصية هي الشرك بالله. وعبادة الآلهة الأخرى، هي من مخاطبة عقول بني إسرائيل على قدر ما تعقل؛ ما دامت الألوهية لله وحده، وما دام الشركاء لا وجود لهم من الأصل. والمقصود من الكلام،

أن يعبد الناس ربّهم في الصورة التي تجلّى لهم فيها حسّا أو معنى، شهادة أو غيبا. وهذا الذي نقوله يغيب عن علماء المسلمين قبل عوامهم، لأنهم لا علم لهم بالتجلّيات الإلهية الحسيّة رغم ورود ذكرها في القرآن والسنّة صراحة. ولكن ما دامت جل العقول من صنف عقول بني إسرائيل، فإننا نُحجم عن تفصيل القول فيما ذكرنا، ائتماما بربنا وعملا بسنة نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم. وإذا عصى العباد ربهم وأشركوا به، فإنه يغضب عليهم؛ وإذا غضب عليهم فإنه يعاقبهم. والعقوبة في الدنيا تكون بزوال النعم وبهلاك النفوس. يقول الله تعالى: {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ} [الحج: ٤٥].

_ "... لكي تكثر أيامك، وأيام أولادك على الأرض التي أقسم الرب لآبائك أن يُعطيهم، إياها طيلة أيام السماء على الأرض.": بعد تكرار الوصايا، يُذكِّر الرب بنعمته العامة على بني إسرائيل، والتي هي إطالة الأعمار للآباء وللذرّيات، على الأرض المقدسة التي كتب الله لآبائهم. ولكن بحسب استقراء التاريخ، فإنهم لم يوفوا بما أوصاهم الرب به دائما؛ فكانوا يُعاقبون زيادة على العقوبات الفردية والجماعية المعتادة، بالشتات في الأرض، وبالإخراج من الأرض المقدسة. ومعنى "طيلة أيام السماء على الأرض": طيلة الزمان؛ ونسبة الأيام إلى السماء، هو من مقتضيات التجلي؛ لأن كل ما يقع على الأرض، هو من تجليات السماء؛ أي من تجليات الرب.

_ أما الثوب والأهداب فقد سبق الكلام عنها، فلا حاجة إلى التكرار.

_ ثم يُختم السماع بـ "أنا الرب إلهكم الذي أخرجكم من أرض مصر، ليصير لكم إلها. أنا الرب إلهكم.": ومعنى الكلام، هو أنا الرب الذي اعتنى بكم، عند إنقاذكم من العبودية والرّقّ في مصر، وأنا الذي اصطفيتكم لتكونوا عبادا لي تعبدونني بعبادة أشرعها لكم من دون الناس. فاذكروا نعمتي عليكم، ولا تقابلوا إحساني بالإعراض وبالمعصية. وهذا تحذير منه سبحانه، حتى لا يخسر العباد أنفسهم ويهلكوا هلاكا أبديا. ولقد غلط بنو إسرائيل (كما غلط بعض النصارى وبعض المسلمين)، عندما ظنّوا أن الاصطفاء ذاتي لهم، بغض النظر عن أحوالهم من الطاعة والمعصية، فانقلب وعد الله لهم وعيدا، وانقلبت النعم في حقهم عذابا. وقد ذكر الله هذا في قوله سبحانه: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [المائدة: ١٨]. وهذا ليعلم العباد كلهم، أن لا نسب بين الله وعباده، إلا العبودية؛ والعبودية لها شروط وعليها تكاليف. فمن أوفى بالشروط والتكاليف، وفّى الله له بوعده؛ ومن خالف، خالف الله به. وهو سبحانه وحده صاحب الأمر، ليغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء. وهذا حتى لا يُظن أن الله ملزم –تعالى– بفعل شيء لعباده في حال طاعتهم أو في حال معصيتهم؛ وإنما هو سبحانه دائما مُختار. يقول تعالى: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [القصص: ٦٨]: أي يخلق ما يشاء فيهم من أفعال وأحوال، في الدنيا والآخرة. وأما لِمَ ذكرنا اشتراك بعض المسلمين في هذه الصفات، مع أن الآية تنص على اليهود والنصارى وحدهم؟ فجوابنا هو: لأن ورود الآية في القرآن خطاب لهم؛ والخطاب يعم كلَّ ما ذُكر، من دون استثناء. وهذا هو السبب الذي جعلنا نقول في غير هذا الموضع، إن كل الآيات القرآنية التي نزلت في أهل الكتاب، هي نازلة بالإضافة إليهم في حق من هو على صفتهم من المسلمين. وما أكثرهم في زماننا!...

الفصل الثالث

الشعائر اليهودية: الصلاة (٢)

و"العاميدة"، تبدو في صورتها النهائية كهذا:

"يَا رَبُّ افْتَحْ شَفَتَيَّ، فَيُخْبِرَ فَمِي بِتَسْبِيحِكَ."[١]: وهي بمنزلة "بسم الله الرحمن الرحيم" التي تُقال من المسلمين عند افتتاحهم القراءة.

١. [مبارك أنت يا رب إلهنا وإله آبائنا، إله إبراهيم، إله إسحاق، وإله يعقوب؛ الإله العظيم الجبار المهيب، الإله العالي، واهب الإنعامات الطيبة، مالك الكل، وذاكر فضائل الآباء، والآتي بمخلّص لبني أبنائهم، لأجل اسمه بمحبة.]. ويُضاف إليها في أيام التوبة العشرة[٢]: [اذكرنا للحياة يا أيها الملك الذي يُسرّ بالحياة. اكتبنا في سفر الحياة، لأجلك أيها الإله الحي، الملك المعين المنجي والواقي. مبارك أنت يا رب، يا مجن إبراهيم.]:

ـ "مبارك أنت يا رب إلهنا وإله آبائنا، إله إبراهيم، إله إسحاق، وإله يعقوب.": "مبارك"، بمعنى متعاظم في ذاته؛ وإن كان معنى الذات يُدرك لأهل الدين من وراء الصفات. ونعني من هذا، أن العابدين يعلمون صفات الله في الحقيقة، ويعلمون من ورائها أن هذه الصفات لا بد أن تقوم بذات غير معلومة. وهم يعلمون هذا، من قياسهم الحق على الخلق؛ فيكون هذا المعنى عندهم بَدَهيّا، لا يحتاجون فيه إلى دليل. وهذا يعني أن الله عندما خلق العقل لبني آدم، فإنه أهّله لإدراك معلومات بمنطق عام غير معلوم على وجه التفصيل. وهذا المنطق، سينبني عليه الخطاب الإلهي نفسه، ليتمكن العباد من فقهه والعمل بما جاء فيه. وربط بني إسرائيل لذكر الألوهية بإبراهيم وإسحاق ويعقوب، هو لكون إيمانهم بالله مرتبطا لديهم بآبائهم الذين أوحى الله إليهم ليعلّموهم مبادئ الدين. فهم في هذا الإيمان قائلون بالواسطة، وإن كانت مخاطبتهم لله مباشرة في ظاهرها. وهذا يعني أن بني إسرائيل لم يكونوا أهل فكر (فلسفة) كما كان اليونان، حتى يصلوا إلى معنى "وجود الله" بعقولهم؛ وإنما هم يُشبهون العرب (بني إسماعيل) الذين ما عرفوا الله إلا بتعريف النبي صلى الله عليه وآله وسلم. ولهذا ينبغي أن نعتبر الأنبياء لدى بني إسرائيل (والعرب)، بمنزلة العقل الذي يستند إليه الفلاسفة؛ مع وجوب التفريق بين الطريقين، من جهة إمكان الوصول إلى معرفة الله. ولن نستطرد في المقارنة بين الأنبياء أنفسهم، والعقل؛ حتى لا نبتعد كثيرا عن النص.

ـ "الإله العظيم الجبار المهيب، الإله العالي.": ويتضح من الأسماء الإلهية المذكورة، أن معاملة بني إسرائيل لله، كانت دائرة عليها أكثر من غيرها؛ بحسب حاجاتهم اليومية وطول أعمارهم. ف "الإله العظيم الجبار المهيب": يقصدون منه من تعود إليه الأسماء كلها، وفي مقدّمتها ما يليق بالمعبود من عظمة وجبروت وهيبة. وهم يقيسون مظاهر العظمة، على ما يكون للملوك فيهم وفي غيرهم من الأقوام؛ وإن كان العقل المؤمن لا بد أن يُضفي على صفات الإله خصوصية التفوُّق، الذي ليس إلا معنى "التبارُك" و"البركة". و"الإله العالي": لا بد أن يعتبروا فيه الآلهة الأخرى التي كانت معروفة حولهم للشعوب الوثنية، أو لتلك المؤلّهة للملوك. فصفة العلُوّ لا بد للعقل من أن يقابلها بالسّفل. والأسماء الإلهية تحتمل هذه المقارنات،

---

[١]. مزمور: ٥١: ١٥.

[٢]. أيام التوبة العشرة، تكون أول "تشرى" الذي يوافق شهر أكتوبر؛ إلى يوم الكفارة يوم "كبور"، الذي هو العاشر منه.

ما دامت مجرّدة عن معنى الذات؛ فإن أُعتبِرت الذات، فإن هذه المقارنات تُصبح من الضلالات من غير شك. وهذا التفريق بين الأسماء من حيث هي أسماء، والذات من حيث هي ذات، لم يعتن به لا اللاهوتيّون من الكتابيين، ولا المتكلمون من المسلمين. لهذا سيكون علم اللاهوت، علما مدخولا ومضطربا، مهما حرص أصحابه على إضفاء صفة القداسة عليه.

ـ "واهب الإنعامات الطيبة، مالك الكل.": وأما الاسمان: "واهب الإنعامات الطيبة" و"مالك الكل"، فواضح مدى ارتباط بني إسرائيل بهما في الحياة اليومية، وفي تصوّرهم للدنيا بأكملها؛ فهم يُعاملون هذين الاسمين، معاملة لا تنقطع.

ـ "وذاكر فضائل الآباء": هو من الأسماء التي لا تليق بالله، إن صحت الترجمة؛ لأن الله هو صاحب الفضل على الآباء وعلى الذرية. وكان الأولى الثناء عليه سبحانه بكونه مُفضلا على الآباء، لا بكونه ذاكرا لفضائلهم. وذلك لأن الآباء لا فضل لهم من ذواتهم، وإنما هو فضل ممنوح لهم من ربهم سبحانه. وهذا المقطع، يُظهر ما هم عليه اليهود، فيما يتعلّق بالدين وبالعرق؛ فهم لا ينفصل في أعينهم الدين عن العرق، ولا العرق عن الدين. ولهذا، نجد المتأخرين منهم، لا يكترثون لتديّن المرء بقدر اكتراثهم لتحقُّق نسبه فيهم. وهذا كله من الجهل بالله، ثم بالدين!... ولم يسلم من هذه الآفة -وإن اختلفت المظاهر- لا النصارى ولا المسلمون. ونعني مذاهب منهم على الخصوص، سنذكرها في حينها. وعندما نجد اليهود لا يكادون يعرفون بمن وُجد قبل إبراهيم من بني آدم، فإننا سنتفهم قصورهم في معرفة حقوق الأقوام الأخرى التي تشاطرهم التواجد على الأرض، ممن لا ينتسبون إلى أصولهم. ولكن رغم تفهّمنا لإعاقتهم الدينية والخُلقية، فإننا لن نوافقهم عليها مطلقا؛ لأن هذا هو ما جاء نبيُّنا صلى الله عليه وآله وسلم لعلاجه في الناس، عندما قال: «النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ!»[1]. وهذا يُعيد الناس كلهم -بني إسرائيل وغيرهم- إلى أصل واحد هو آدم، وآدم إلى أصله وهو التراب، فلا يبقى للعبد شيء يفخر به من جهة النسب الدموي بعد هذا البيان. وكما قضى الإسلام على التمييز العرقي، فإنه سيقضي على التمييز اللوني واللغوي وغيرهما، بحسب ما جاء في قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ؛ أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ؛ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ؛ إِلَّا بالتَّقْوَى! أَبَلَّغْتُ؟"، قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ!»[2]. وبنو إسرائيل، عليهم أن يكملوا نقصهم في هذه المسألة، بتوسيع دائرة الانتماء، وبإعادة معيار التقوى وحده إلى الواجهة؛ لأن ما هم فيه يشُدّهم إلى الوراء في مسيرة البشرية العامة، ويعزلهم عن إخوانهم ومنافسيهم فيها. والعقيدة التي يُصادمها الواقع، على الناس أن يُعيدوا النظر فيها مهما تكن؛ لأن الإيمان (المعارف الدينية) والواقع، يصدران عن جهة واحدة، هي الله (الرب). وعلى المنعزلين في العقائد الضيّقة، أن يعلموا أنهم يدخلون في الشرك، بمجرد اعتقاد ما ليس بحق؛ لأنهم بذلك سيجعلون الله لهم، ويجعلون آلهة أخرى (وإن لم تُذكر) للأقوام الأخرى. وهذا باطل!... ولقد مرت بنا نصوص من الكتاب المقدس، فهمها بنو إسرائيل على غير وجهها، إن لم يكونوا قد تعمّدوا تحريف ترجمتها، وضلوا بها ضلالا بعيدا.

ـ "والآتي بمخلّص لبني أبنائهم، لأجل اسمه بمحبة.": ونلاحظ أن هذه الفقرة تشير -على خلاف كل ما سبق- إلى المخلّص، الذي سيبعثه الله لتخليص الأبناء؛ من دون تحديد لمعنى التخليص، أو ذكر لصفات المخلّص على التعيين. وهو ما ستنشأ عنه عقائد مضطربة فيما بعد، ستبقى مستمرة إلى وقت المواجهة الأخيرة على الأرض. وتنبيهنا إلى عدم

---

[1] . أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] . أخرجه أحمد في مسنده، عمن حضر خطبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أيام التشريق.

التخصيص للمخلّص، جاء لأن الأنبياء المبعوثين في بني إسرائيل من بعد موسى، كانوا كلهم مخلِّصين بالمعنى الشرعي، الذي يُفيد العودة إلى صحيح التديُّن بعد انحراف.

_ "اذكرنا للحياة يا أيها المِلِكُ الذي يُسَرُّ بالحياة": ما يعنيه الإسرائيليون بالحياة، هو ما يعنيه غيرهم في الغالب؛ وهو الحياة الطبيعية التي يعرفونها منذ وعيهم بالدنيا. ولكن المقصود من الحياة في الحقيقة، الوجود؛ لأن الوجود هو الحياة الأولى التي تتأسس عليها الحياة الثانية (الطبيعية)، إذ لا يحيا طبيعيا إلا من كان موجودا أولا. ومسألة الدخول إلى الوجود، هي من أبعد الأشياء عن إدراك الناس، لأنهم غريبون عنها غرابة تامة، بسبب اتصافهم بالعدم من جهة الحقيقة. فهم عندما كانوا في عدمهم كانوا لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون؛ أي كانوا لا يعلمون أنفسهم؛ فلما تجلى الله عليهم بالاسم "النور"، سمعوا وأبصروا وعقلوا. لكن أحوالهم التي صارت تختلف عليهم باستمرار، علّمتهم أن ما يُدركونه من الوجود ليس لهم، وإنما هو عارية؛ وإن كان هذا العلم يبقى لدى أكثريتهم محصورا في جانب غيبهم، ولا يخرج إلى شهادتهم، ليكونوا واعين بعلمهم. وهذا ما يجعل جل الناس على حيرة من أمرهم، إلا أن يأخذ الله بأيديهم في طريقه، ويوصلهم إليه؛ وهناك فقط، تذهب كل الشكوك، وتتحقق كل الرجاءات. وحتى الفلاسفة (الأقدمون والمحدثون) الذين توسلوا عقولهم في عملية إدراك وجودهم ووجود العالم، فإنهم لم يظفروا من ذلك بشيء؛ وبقوا تحت سلطان عدمهم لا يتمكنون من الانفكاك عنه. وأما قولهم "يُسرُّ بالحياة"، فمعناه أن الله ما خلق الخلق إلا من مُنطلق محبّته؛ وهو معنى صحيح، لكن له وجهان في الفهم. وأصحّ الوجهين، ما يكون الخلق فيه مخلوقين لله؛ ليكون المعنى الثاني فرعا عنه، وهو ما يكون الخلق فيه مخلوقين (بغير المعنى الاصطلاحي) لأنفسهم. ورغم التناقض الظاهر من العبارة، إلا أن العارف يعلم حقيقة ما نتكلم فيه بغاية الوضوح. وإلى المعنى الثاني، يشير قول الله تعالى من جهة التفصيل: {وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} [النساء: ٧٩]. واقتصار نسبة السيئات على النفس، هو من أثر العدم. وأما من جهة المعنى الأصلي العام (الذاتي)، فإن الله يقول: {قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} [النساء: ٧٨].

_ "اكتبنا في سفر الحياة": هذا الدعاء بلسان كل المخلوقات، لا بلسان المصلّين وحدهم؛ لأن جميع المخلوقات وهي في عدمها (الأعيان الثابتة)، تسأل الله الخروج منه (وهناك أعيان ثابتة قد لا تسأل ذلك، فلا تخرج إلى الوجود). والسِّفر المذكور، هو ما سماه الله كتابا في مثل قوله تعالى: {وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [يونس: ٦١]. وأما التجلّي الذي كان للأرواح، والذي أخبر الله عنه في قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا} [الأعراف: ١٧٢]، فهو بعد أن خرجت الأرواح من العدم إلى الوجود، وقبل تكليفها بتدبير الأجسام الترابية؛ فهو من عالم الأرواح. وهذا يبيّن أن الإنسان في الحقيقة مخلوقان كُلّف أحدهما بركوب الثاني، وليس مخلوقا واحدا. وهذا من الازدواجية السارية في جميع الخلق، ليبقى الحق منفردا بالوحدانية دونها.

_ "لأجلك أيها الإله الحي.": أي، خلقتنا لأجلك لا لنا؛ وهو نصف المعنى الذي ذكرناه آنفا. وما علمه بنو إسرائيل على حقيقته حقا، وإنما شموا له رائحة. لكن سؤالهم الله أن يخلقهم له، هو معنى جيد؛ إن تفطنوا إليه.

_ "الملك المعين المنجي والواقي. مبارك أنت يا رب، يا مجن إبراهيم.": هذه الأسماء المذكورة واضحة دلالتها، وجليّة مكانتها في المعاملات. أما المجن، فهو الترس الذي يتقي به المحاربون الضربات. والمعنى هو أنك كما كنت يا الله واقيا لإبراهيم من الشرور، فقنا نحن أيضا؛ وهذا من التوسل بإبراهيم، وإن لم يظهر باللفظ؛ وهو أيضا من معنى التشفُّع به عليه السلام، من غير إعلان.

٢. [أنت جبار إلى الأبد يا رب!... أنت محيي الموتى، القادر على الإنقاذ. الكافل الحياة بفضله، محيي الموتى بمراحم جليلة. مقيم الساقطين، وشافي المرضى، ومُطلق الأسرى، ومقيم أمانته للنائمين في التراب. مَن مِثلك صاحب قدرات!... ومن يُشبهك ملِكا يميت ويُحيي، ويُنبت النجاة!...]. وفي أيام التوبة يُقال: [من مثلك أيها الأب الرحمن! الذاكر مخلوقاته برحمة للحياة! وإنك لأمين على إحياء الموتى! مبارك أنت يا رب يا محيي الموتى.]. وعند تكرار العاميدة يُضاف: [نقدسك ونعظمك كأنغام نطق محفل السرافيم[1] المقدس، إذ يثلثون لك التقديس. فهكذا مكتوب على يد نبيّك "وصاح هذا لهذا، وقال: قُدوس، قدوس، قدوس رب الجنود، ملأ كل الأرض مجدُه."[2]. فيقابلونهم مسبحين وقائلين: "مبارك مجد الرب في مقامه."[3]. والقول المكتوب في كلامك المقدس: "يملك الرب إلى الأبد، إلهك يا صهيون من جيل لجيل، سبِّحوا الله!"[4]].

ـــ "أنت جبار إلى الأبد يا رب": هنا بدأ العقل الإسرائيلي يدق باب الزمان، قياسا على ما يعلمه من أحواله. فهو من باب تنزيه ربه، لا بد أن يراه غير مقيّد في الزمان، وغير محصور به؛ وهو ما أشار إليه القائل بـ "الأبد". والأبد كلمة تُستعمل للدلالة على عدم انتهاء الزمان في الاستقبال؛ في مقابل "الأزل" التي يُراد بها الماضي. والأبد والأزل اعتباران في الزمان، لا حقيقة لهما إلا في العقل، وهما معنى واحد يختلف بحسب الناظر إليه فحسب: فإن كان الناظر ينظر إلى خلف، واجهه الأزل؛ وإن كان ينظر إلى أمام، واجهه الأبد. ومجموع الأزل والأبد، الذي هو معنى الزمان المطلق، هو "الدهر". والدهر هو الله، لقول الله في الحديث القدسي: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ! بِيَدِي الْأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ!»[5]. ومعنى سب ابن آدم للدهر، هو سبه ليوم أو لليلة يكون قد حصل له فيهما ما يكره؛ وهو لا يعلم أنه بسبّه المقيّد، فإنه يكون سابّا للمطلق. والله هو الزمن المطلق، الذي يجمع جميع الخلق في دهريته، وإن كانوا هم لا يرون إلا تقليبه لهم في اليوم والليلة، ومن وراء حجاب؛ إلا من كان ينظر بالله، فإنه يكون دائما مع الله في ذلك كله؛ أي في الإطلاق وفي التقييد.

ـــ "أنت محيي الموتى": الموت بالنسبة إلى العقل، عقبة كأْداء؛ لا يعلم حقيقته إلا بعد أن يحصل له. أما قبل ذلك، فهو من أسباب خوفه الكبرى، لجهله بحقيقته. وسبب الخوف من الموت في الحقيقة نفسي أولا، لأنه لا يتعلق بالروح من جهتها ولا بالجسد من جهته؛ وإنما هو متعلّق بالتركيب. لهذه العلة، كان ذوق الموت للنفوس لا لغيرها، كما أخبر ربنا عن ذلك بقوله: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [العنكبوت: ٥٧]. وسبب خوف النفس من الموت، هو خوفها من العودة إلى العدم الذي كانت فيه، بعد أن ذاقت طعما ما للوجود. وقولنا طعما ما، هو لأن المعدوم لا يمكن أن يصير موجودا حقيقة، إعمالا لمبدأ عدم انقلاب الحقائق؛ وبهذا، فإنه لن يعرف الوجودَ كما يعرف الوجودُ نفسَه. وأما خوف العامة من انقطاع النَّفَس أو من خراب الجسم، فإنه خوف متعلّق بأسباب الموت، لا بالموت نفسه؛ وهو من ضعف الإدراك. وأما العارفون، فإنهم لا يخافون الموت، وإن فرّوا من آلام سكراته؛ لأنهم عالمون به وبحقيقته. والعوام من المؤمنين، لا همَّ لهم إلا أن يُحيَوا بعد الموت؛ حتى يكونوا قد نجوا من العدم، بحسب توهُّمهم؛ وإن كانوا لا يعلمون أن

[1] . نوع من الملائكة.

[2] . إشعياء: ٦: ٣.

[3] . حزقيال: ٣: ١٢.

[4] . مزامير: ١٤٦: ١٠.

[5] . متفق عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

حياتهم بعد موتهم لن تكون كحياتهم قبله. وبهذا تكون الدنيا غير الآخرة، وإن كان الشخص هو نفسه؛ لأنه سيكون على نشأة أخرى، لا ضرورة للإطالة في ذكر تفاصيلها.

ــ "القادر على الإنقاذ": لا يُرجى الإنقاذ إلا مما يُخاف. والمخلوقات الممكنة، لا خوف لها إلا من العدم؛ لأنه يُحيط بها من كل جهة. ولولا إحاطة الله الوجودية التي اكتنفتهم من جهاتهم الست، لما وُجدوا. ولهذا المعنى العام في حياة المخلوقين، معانٍ جزئية كثيرة: فالعبد يخاف الفقر، لأن الفقر هو العدم الذي يدخل عليه من جهة المال؛ ويخاف الاعتلال، لأن المرض هو العدم الذي يدخل عليه من جهة الصحة. وهكذا، فإن لكل حال وجودي للعبد، حالا مقابلا عدميا يكون سبب خوفه؛ ولكل حال جزئي، مظاهر متعددة، لا تكاد تنتهي من جهة الحكمة. ففي النهاية، لا يخاف العبد إلا من العدم!... وليس له مخرج من العدم إلا ربه؛ ومن هنا كان فقر العبد إلى ربه فقرا مطلقا. ومن تحقق بالفقر المُطلق فإن الله يُغنيه الغنى المُطلق. وهذا معنى يخرج عن إدراك العقول المرتبة في المرتبتيْن الأوليْين للدين، فلا سبيل إلى الاستفاضة فيه الآن.

ــ "الكافل الحياة بفضله": ولقد سبق أن ذكرنا أن مقصودهم بالحياة الوجود، ولو في مرتبة دنيا. ولو أنهم كانوا متفلسفين قبل ذلك، لتكلموا عن الوجود مباشرة. وأما كفالة الحياة بالفضل، فإن العبد يعلمها من فقره أيضا (عدمه). وبعد علمه بفقره، علم أن الإغناء الذي يأتيه من ربه إلى كل جوانب حقيقته، هو من جود ربه لا من استحقاقه ولا من لزوم الحال؛ لأنه لو كان شيء من ذلك، لخرج العبد بذلك عن حقيقة الفقر، ولصار وجوداً؛ والقول بوجوديْن عند أولي الألباب محال. وقد غلط المتكلمون كثيرا عند توهمهم وجود المخلوقات، نوع وجود؛ فأدخلوا أنفسهم في متاهة لا مخرج لهم منها في الدنيا والآخرة، إلا بالتوبة. ولن ندخل في مناقشة طروحاتهم الآن، لأن جُلّها صبياني، بالنظر إلى العلم الحق. وربما سنعرض لبعضها عند ذكر الأقوال من جميع العقائد الكتابية، فهناك يُمكن أن نتناولها.

ــ "المحيي الموتى بمراحم جليلة": وسبب هذا القول، أنهم يتوهمون أن الموتى يحتاجون فضلا أكبر من الأحياء؛ لتوهمهم أن الأموات أفقر من الأحياء. ولو أنهم علموا أن الأحياء معدومون في الحقيقة، وأن الأموات مشابهون لهم من هذا الوجه، لما وجدوا بينهم فرقا؛ إلا في الحال الذي هو الموت (تحلُّل التركيب)، وفي الموطن الذي هو البرزخ والآخرة للأموات، والدنيا للأحياء.

ــ "مقيم الساقطين، وشافي المرضى، ومطلق الأسرى، ومقيم أمانته للنائمين في التراب": كل ما ذُكر هنا أعدام، ذُكرت في مقابلها وجودات مخصوصة بها. فهم لم يزيدوا في الثناء على الله على أن فصّلوا بعض ما كان مجملا لديهم فيما قبل. وتخصيصهم لإقامة الأمانة للنائمين في التراب (الموتى)، هو أكبر في نظرهم من كل ما سبق؛ لأنهم يُشاهدون افتقار الميّت إلى كل شيء، بخلاف الحي المريض –مثلا– فإنه لا يفتقر إلا إلى الصحة. والميت إلى جانب فقره الشامل، يحتاج إلى من ينوب عنه في رعاية حقوقه بين الأحياء؛ حتى لا يكون عُرضة للإهانة، أو للاحتقار، أو لسرقة المال، وغير ذلك... لهذا تكفل الله في تشريعه بتحريم شتم الميت وذكره بما لا يُحب، وتكفل هو سبحانه بتوزيع تركته على ورثته بالعدل، حماية لماله. لكن رغم تفصيل الفقر أو تفصيل الغنى المقابل له، فإن الفروع من الفقر كلها تعود إلى الفقر المطلق، والفروع من الغنى كلها تعود إلى الغنى المطلق. ومن علم هذا، فإنه سيُصبح على نور عند نظره في الأمور. ومع أن هذا هو ما كان ينبغي أن يتوافر لعلماء الدين قبل غيرهم، ليتمكنوا من دلالة غيرهم على الخير، فإنهم بعدم سلوكهم لطريق التزكية، صاروا أشد عمى من الآخرين، نسأل الله السلامة!...

ــ "مَن مِثلك صاحب قدرات": وهذا تنزيه لله على قدر المنزِّه، الذي لا يرى الله إلا قادرا بين جملة قادرين. وهذا حال العوام من أهل المرتبة الأولى. وأما من كان عالما، فإنه يرى القدرة لله وحده، ويرى جميع خلقه متصفين بالعجز التام!...

وعلم العامة بأن الله أقدر من غيره، الذي يُفيد الاشتراك في الصفة، هو علم موافق للحقيقة؛ لأن مظاهر الخلق المتصفين بالقدرة، هم مظاهر للقدرة نفسها، لكن على تفاوت. والمقارنة بين إطلاق القدرة المنسوب إلى الله، ومظاهرها الخلقية المُقيَّدة، جائز ووجيه. لكنّ هذا لا يكون إلا لأهل التوحيد الخاص، بخلاف العامة الذين يكونون على شرك في شهودهم.

ـ "ومن يُشبهك ملكا يميت ويُحيي، ويُنبت النجاة": لا يقول هذا، إلا من كان يرى الملوك يميتون ويُحيُون، ولكن يرى قدرة الله على الإحياء والإماتة أتم؛ وهذا مقام الجاهلين من أهل المرتبة الأولى، كما سبق أن ذكرنا عند صفة القدرة. أما العالمون فإنهم يرون حقيقة لا مجازا، أن الإحياء والإماتة هما بيد الله وحده. والتوفيق بين الشهوديْن لا تعطيه العبارة من نفسها، ولكن يحتاج العبد فيه، إلى ترقيق حجابه باتباع الهدي الرباني والطريقة النبوية، من أجل استمداد النور الوجودي العلمي خصوصا. غير هذا لا ينفع!...

ـ "من مثلك أيها الأب الرحمن": المقصود من إيراد صفة الأب، هو التشبيه؛ وهذا هو ما قلنا عنه سابقا "قياس الحق على الخلق". وهم يرون الله برحمته يُشبه الأب الرحمن (شديد الرحمة). وهذا حوَل منهم؛ لأنهم لو رأوا الحقيقة، لعرفوا أن الإنسان في رحمته، هو متخلق بخُلق الله؛ وأن رحمة الإنسان الراحم نفسها، هي من مدد وجودي من أمداد الله.

ـ "الذاكر مخلوقاته برحمة للحياة": هم يعون أن الرحمات كثيرة، في مقابل كل نعمة، وأن إحداها رحمة خاصة بالحياة. ومن هذا الباب قول موسى عليه السلام: {وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [يونس: ٨٦].

ـ "وإنك لأمين على إحياء الموتى. مبارك أنت يا رب، يا محيي الموتى!": ولو لم يكونوا يستعظمون إحياء الموتى، ويرونه أبلغ في القدرة على الخلق بدءاً، لما قالوا ما قالوا. والمسألة في الحقيقة على وجه واحد، هو هيّن على الله؛ بخلاف ما تعطيه القياسات العقلية. يقول الله تعالى: {فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الإسراء: ٥١]. ولكن الله اعتبر نظر العباد إلى الأمور، فخاطبهم بما يُدركون؛ لذلك هو يقول سبحانه: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [فصلت: ٣٩].

ـ " نقدسك ونعظمك كأنغام نطق محفل السرافيم المقدس، إذ يثلثون لك التقديس.": يظهر من هذا النص أن بني إسرائيل كان لهم علم بالملائكة، من جهة الإجمال، ويعلمون منه أنهم يُقدسون الله. وهذا المعنى هو الوارد في قوله تعالى: {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} [الزمر: ٧٥]. وهذا المشهد، هو في إدراك عوام المسلمين، كما هو في إدراك بني إسرائيل؛ ونعني أنهم يتصورون جسما إلهيا جالسا على العرش كما يجلس الملوك، والملائكة يطوفون به كما يطوف الخدم والغلمان بهم. وهذه الصورة ليست متحققة إلا في عالم الخيال، أما في الحقيقة فإن المقصود من العرش الفلك المحيط بالسماوات (والأرض)؛ وعلى هذا، فإن الملائكة، الذين هم من عالم النور، يحفون بالعرش حفّ المكلّف بتدبير شؤون المملكة الإلهية كلها. وتسبيح الملائكة يتخيّله بنو إسرائيل تسبيحا صوتيا، بالقياس إلى ما يرونه من البشر؛ وهو في الحقيقة تسبيح ذاتي، على ما يُناسب خِلقة الملائكة ومرتبتهم في الوجود وفي العلم. ولكن تشبيه تقديس الناس بتقديس الملائكة وتسبيحهم، هو صحيح من حيث المعنى، وإن اختلفت الصورة لاختلاف العالميْن. وأما التثليث المشار إليه، فلِسرّ التثليث الذي ذكرناه في الباب الأول من الجزء الأول من هذا الكتاب. وقد ظهر ذلك التثليث في اللفظ من الناطقين، عند قولهم: "قدوس، قدوس، قدوس". وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لهذا السر، يُعيد اللفظ ثلاثا. أخبر أنس عنه صلى الله عليه وآله وسلم: "أَنَّهُ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ، أَعَادَهَا ثَلَاثًا حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ؛ وَإِذَا أَتَى عَلَى قَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، سَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثَلَاثًا."[1].

---

[1] . أخرجه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

ـ "قُدوس، قدوس، قدوس رب الجنود، ملأ كل الأرض مجدُه": تخصيص الأرض هنا، هو في مقابلة السماء حيث الملائكة يُسبّحون. ومعنى ملأ الأرضَ مجدُه، هو أن عظمته سبحانه لا يخلو منها شيء من الأرضيات؛ وإن كان العقل بحسب العادة يجعل السماء لعُلويات المعاني، ويجعل الأرض للسفليات. وهذه الإشارة في أنه لا يخرج عن تجلي الله شيء من الأرض والسماء، جيّدة؛ وهي تؤسِّس لما سيأتي بعدُ في التشريعات العيسوية ثم المحمدية. وأما الاسم "رب الجنود"، فهو لإبراز الحاجة إلى الانتصار على الأعداء، وهو بمعنى "النصير" المعلوم للمسلمين، والوارد في قوله سبحانه: {وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [الحج: ٧٨].

ـ "فيقابلونهم مسبحين وقائلين: "مبارك مجد الرب في مقامه.": والمعنى هو أن العباد يُقابلون الملائكة مسبحين، وهي مقابلة بين الأرضي والسماوي. وأما عبارة "مبارك مجد الرب في مقامه"، فهي بخلاف ما ظن الجاهلون من دلالتها على التحيّز المكاني[1]. ومعنى "مقام الرب"، مرتبته؛ وليست إلا الألوهية. ولقد جاء القرآن نفسه بهذا المعنى في قوله تعالى: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن: ٤٦]؛ أي: لمن عرف لربه مرتبته. ومعرفة المرتبة لها آثار عملية، لا بد منها؛ هي كل مُقتضيات العبودية. ولسنا هنا بصدد تفصيل القول فيها.

ـ "يملك الرب إلى الأبد، إلهك يا صهيون من جيل لجيل": وصهيون، هو أحد التّلّيْن اللذين كانت تقوم عليهما القدس القديمة. وهذا يعني أن اليهود كما هم يربطون الدين (معاملة الله) بالعرق، فإنهم يربطونه بالمكان (بيت المقدس). وهذا لا يضر من جهة الظاهر وإقامة الشعائر، ولكن عندما يصير الأمر عقديّا بالمعنى التشبيهي، فإنه يخرج بصاحبه إلى الضلال من غير شك. وأما ذكر الأبد، فقد جاء كما أشرنا سابقا لتنزيه الله على قدر العلم؛ ليُخالف مخلوقاته التي يجري عليها الموت. والموت، وإن لم يكن نهاية في نفسه، إلا أن العامة يرونه كذلك، وإن نطقوا إيمانا بما يُخالف. والسبب في هذا، هو أن العباد من مُنطلق أحكام العدم المحيطة بهم، يرون أن ربهم لا بد أن يكون على غير ما هم عليه، ليصح استنادهم في أمورهم إليه. فهذا من الضرورات العقلية، التي أصبح الجَهَلة من متأخِّري المتعالمين يعيدون النظر فيها. ولهذا كنا نحن نقول لمن يسمع منا، إنه ليس من الضروري أن يكون المتأخرون أعلم من المتقدمين ولا أعقل؛ وإن كان التطور التِّقاني يوحي بذلك!...

٣. [أنت قدوس، واسمك قدوس، والمقدِّسون في كل يوم يُسبِّحونك "سِلاه"[2]؛ لأنك إله ملك عظيم ومقدَّس. مبارك أنت أيها الرب الإله.]:

ـ "أنت قدوس، واسمك قدوس.": القداسة في اللغة هي الطهارة، وفي العقائد هي التنزُّه عن مشابهة المخلوقات؛ بل هي في بعض المراتب، التنزُّه عن الخلق من الأصل. وكلمة "أنت" المقصود منها الذات في متخيَّل المخاطِبين؛ وإن كان الخطاب لا يتعلّق إلا بالمرتبة، كما ذكرنا مرارا. وأما معنى "اسمك قدوس"، فهو تابع لمعنى الذات في خيالهم؛ ويقصدون منه أنه كما هو سبحانه مخالف لخلقه من حيث الذات، فهو مخالف لهم من حيث الاسم أيضا، دلالة ولفظا. وهذا كله من التنزيه العقلي، الذي يكون على قدر إدراك العقول، لا على ما يوافق الحقيقة. وإلى هذا المعنى يُشير قول الله تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ} [الصافات: ١٨٠]؛ أي هو سبحانه فوق تنزيه المنزِّهين. ولو تنبَّه المنزهون إلى معنى التنزيه الذي ينطقون به، لوجدوه لا يليق إلا بهم؛ وكأن كل منزِّه، من هذا الوجه، لا يعتقد الربوبية إلا في نفسه، من جهة غيبه، ومن دون أن يشعر. وهذه الحقيقة متعلِّقة بسر من أسرار الألوهية، لا يجوز الكلام فيه.

---

[1] . في بعض نُسخ سفر حزقيال، تأتي كلمة "مكانه" بدل "مقامه".

[2] . هو نوع من الملائكة عند بني إسرائيل، والاسم هو مشتق من النار.

ـ "والمقدِّسون في كل يوم يُسبِّحونك سلاه.": ويقصدون من إتيانهم على ذكر تسبيح الملائكة، أنهم على نهجهم عاملون. وهذا المعنى يُشبه ما يدل عليه قول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: ٥٦]. والذي معناه: صلّوا اقتداء بالله واقتداء بالملائكة. وبنو إسرائيل يعنون من وراء كلامهم، أنهم يُقدسون الله كما تُقدسه الملائكة، وإن لم يبلغوا في ذلك درجتهم؛ لأجل الفرق لديهم بين المعاينة التي هي ثابتة للملائكة، والسمع (الإيمان) الذي لا يعرفون هم طريقا غيره. وهذا التفريق جيّد، ومناسب، حتى يُتَّخذ وسيلة إلى الله؛ وهو لا شك من توفيق الله.

ـ "لأنك إله ملك عظيم ومقدَّس.": أي، إن الملائكة يُقدِّسونك، ونحن تبعا لهم نُقدِّسُك، لا لأن القداسة تكون منا لك؛ وإنما لأنك أنت عظيم ومقدس في نفسك. وهذا المعنى جيد جدا، نرى أن أهل الدين قد ابتعدوا عنه كثيرا مع مرور الزمان. ولو أن بني إسرائيل بقوا على هذا الأصل، لكان سهُل عليهم اتباع عيسى واتباع محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيما بعد؛ لأن أهم عائق حال دونهم وذلك، هو رجوعهم إلى "تقديسهم" وغفلتهم عن "قداسة" الله في نفسه، التي من آثارها أنه هو المختار لطريقة عبادته وللمبلِّغين عنه. بحيث إن ما يراه قوم وفاء لله من جهة التشريع ومن جهة الصورة المبلّغة، لا يعدو أن يكون عملا نفسيّا بحتا؛ كان ينبغي لأهل الدين التنزُّه عنه. وهذا من المتناقضات الكثيرة، التي يقع فيها المتديّنون من كل أمة. ونحن سنُبرز في كل مرة ما يُناسب منها، ليعلم الناس موضعهم من الطريق...

٤. [أنت تمد بني آدم بالمعرفة، وتُعلّم الإنسان الفهم، فتكرّم علينا من لدنك بمعرفة وفهم وفطنة. مبارك أنت أيها الرب الواهب المعرفة.] (نقول نحن: آمين.):

ـ "أنت تمد بني آدم بالمعرفة.": وهذا كقول الله تعالى: {عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: ٥]. وجيّد أن يذكر بنو إسرائيل النسبة إلى آدم، لتتسع دائرة المعنيّين بالكلام؛ لأن قصْرهم كلامهم في الغالب عليهم وحدهم، يُنقص من مرتبتهم، ويحرمهم مما أمد الله به غيرهم من معارف. ونسبتهم هنا المعرفة إلى الله، دون العقل، هي من صحيح إدراكهم للمسألة. وذلك لأن العقل مخلوق، يعقل عن الله ما يتفضّل به عليه؛ ليس غير. وحتى ما يتعلّق بالاكتشافات الكونية أو بالاختراعات الصناعية والتكنولوجية، التي يتوهم القاصرون أنها من إنتاج العقل البشري، فإنها من الإمداد الرباني من وراء حجاب العقل؛ لأن العقل، حقيقته عدمية، تمنع أن يكون عنه شيء من نفسه. وهذا أيضا، مما تفوّق فيه المتقدمون على المتأخرين، رغم خداع المظاهر.

ـ "وتُعلّم الإنسان الفهم.": الفهم هو الوقوع على المعنى المراد للمتكلِّم. والإفهام لا يكون إلا من الله، لا من العقول بحسب درجة ذكائها، كما يعتقد المرتكسون من أبناء المسلمين ومن غيرهم. وإن كان هذا يصدُق على جنس الكلام كله، فإنه بكلام الله أولى وأجدر. ونعني من هذا، أن أولئك الذين يُعملون عقولهم في القرآن، ويظنون أنها وسيلة فهم معانيه، يكونون أجهل من بني إسرائيل، من غير شك. ألم يسمعوا إلى الله يقول: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ}! [الأنبياء: ٧٩].

ـ "مبارك أنت أيها الرب الواهب المعرفة.": يقصدون "العليم" و"الوهاب"، وما يتبعهما من أسماء.

٥. [أرجعنا يا أبانا لتوراتك، وقربنا يا ملكنا لعبادتك، واردنا بتوبة كاملة إلى وجهك. مبارك أنت أيها الرب القابل التوبة.]:

ـ "أرجعنا يا أبانا لتوراتك.": يسأل بنو إسرائيل الله أن يُعيدهم إلى توراته. والتوراة بالنسبة إليهم هي الوحي المُنزل من عنده، لأنهم لم يكونوا يعلمون غيرها؛ أما بعد العلم، فالأمر يختلف بالكلّيّة. ومعنى الرجوع، قد يتعلّق بالحقيقة، عند فقدهم لنص التوراة، كما حدث في التاريخ مرات، أو كما حدث مع الترجمات المختلفة عند فقد المعنى. وقد يتعلّق الرجوع بالمعنى العملي، الذي هو مطابقة أحكامها وتحكيمها في حياتهم. وهذا هو ما يُفضي إلى لاحق الكلام.

ـ "وقربنا يا ملكنا لعبادتك.": أي: بعد أن تُفهمنا مرادك من وحيك، فاجعلنا نعمل به؛ حتى نكون لك عابدين على الوجه الذي ترضى؛ وهو ما لا يتحقق إلا بالتوبة. لذلك يذكرونها بعد ذلك مباشرة.

ـ "واردنا بتوبة كاملة إلى وجهك.": والمقصود من التوبة الكاملة، التوبة الصادقة من كل وجه؛ وهي المسماة عند المسلمين "التوبة النصوح". وذلك لأن العبد قد يُخادع نفسه بظاهر التوبة، أو بتوبة جزئية، أو بتوبة وقتية؛ فلا تتحقق له العبادة ولا العبودية. وأما عبارة "إلى وجهك"، فهي تدل على معنى الإخلاص؛ لأن العبد قد يتلبّس بالعبادة من جهة الصورة والظاهر، ولا يكون معاملا لله بها، كما يقع للمرائين الذين يُحبّون أن يُحمدوا بعبادتهم؛ مع أنها في الحقيقة من فعل الله لا من فعلهم. وهذا معنى من معاني قوله تعالى في ذمّ قوم: {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران: ١٨٨].

ـ "مبارك أنت أيها الرب القابل التوبة.": يقصدون "التواب". ولولا أن الله يتوب على عباده، ما كانت التوبة تصدر منهم. وهو معنى قوله تعالى: {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة: ١١٨]. نسأل الله لنا ولإخواننا توبة نصوحا، مقبولة عنده سبحانه؛ إنه هو التواب الرحيم. آمين.

٦. [اغفر لنا يا أبانا لأننا قد أخطأنا، اصفح عنا يا ملكنا لأننا قد أذنبنا؛ فإنك رب طيب غفور. مبارك أنت يا رب يا رؤوف يا واسع المغفرة.]:

ـ "اغفر لنا يا أبانا لأننا قد أخطأنا": الأب هنا بمعنى الرب، لأنه لا تصح نسبة أبوة الله من جهة العقائد إلى أحد. وقولنا من جهة العقائد، يعني مجال الإيمان ومعاملة الرحمن، بما هو من مشتركات أهل الدين كلهم. والعقائد هنا، هي ما يُصاغ من صور عقلية، انطلاقا من نصوص الوحي، بما تُعطيه اللغة وسلامة العقل. ونستثني من هذا، ما يكون عن شهود أو عن معرفة؛ لأنهما يُعطيان ما يخرج في أحيان كثيرة عن العقيدة العامة المشتركة، وإن كانا أكثر موافقة منها للوحي. ولسنا نعني إلا ما تعطيه حضرة الإمكان، في مقابلة التجريد العقلي والتنزيه، وفي مقابل التصوّرات التي تكون للعقول الضعيفة. وإن التفريق بين هذه الحضرات، يحل كثيرا من الإشكالات العقدية بين الملل المختلفة، وبين أهل الملة الواحدة. ولكنه أمر تنبغي الإشارة إلى صعوبة الخوض فيه، من قِبل العقول المحجوبة التي تعتمد التقليد. ولعل الاختلاف الناتج عما ذكرنا، لا يُرفع إلا في الآخرة، كما أخبر الله عن ذلك في مثل قوله تعالى: {إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [المائدة: ٤٨]؛ وحتى الآخرة لا بد فيها من تفاوت في المراتب، مما يُبقي هذا الصنف من الاختلاف قائما فيها هي أيضا. وإنّ طلب مغفرة الخطايا من الله الغفور، أمر ضروري، يغفل عنه الناس كثيرا؛ إما بسبب الغفلة المعتادة، التي تكون عن نقص في التديّن؛ وإما بسبب الانشغال بالطاعة في الظاهر، إلى حد توهُّم القداسة؛ وهذا يحدث للجهلة من العُبّاد، الذين يرون أنهم قد وفّوا العبادة حقّها. وهؤلاء في الحقيقة أدنى من مرتبة عصاة المؤمنين، وهم على خطر في عبادتهم، ما لم يتداركهم ربهم بتوبة من عنده. وذلك لأنه لا أحد من العباد يخلو من معصية، وإن كان من الأنبياء والمرسلين. وكون معاصي الأنبياء دقيقة، بحيث لا يراها العامة من الناس، لا يعني أنها غير موجودة، وأن الله لا يُحاسبهم عليها إن شاء. وهنا ينبغي أن نذكر أن الاستغفار الذي يصدر عن الألسنة من باب العادة، لا يُعتبر؛ بل قد يزيد من سوء حال العبد. نقول هذا، حتى لا يستدرك علينا أحد بقوله: إن العُبّاد لا بد لهم من استغفار ضمن عبادتهم. وإذا كان الأمر على هذه الحال، فعلى العبد أن يعلم أن الله إن حاسبه، ولم يغفر له، فإنه هالك لا محالة. وهذا أدعى إلى أن يدخل العبد في زمرة المستغفرين، إن عرف بعضهم، لعل الله يقبله ضمنهم برحمته. وهو السبب الذي يجعلنا نحن نؤمّن على بعض عبارات الاستغفار والتوبة الواردة في نصوص الكتابيّين، من هذا الكتاب على الخصوص، ولو من باب الحرص على موافقة الصورة والظاهر. ومِن عِظم الاستغفار عند الله، أن جعله عديلا لوجود النبي صلى الله عليه وآله وسلم فينا؛ فقال سبحانه:

{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال: ٣٣]. وهذا يعني أن الاستغفار أمان للناس، لا يصيبهم عذاب معه ما داوموا عليه. وأما إن غفل الناس عن الاستغفار، خصوصا الاستغفار الجماعي، فليعلموا أنهم قد أصبحوا مكشوفين للبلاء النازل. ولو تأمل الناس أحوالهم في زماننا وحده، لعلموا ما نشير إليه.

ــ "اصفح عنا يا ملكنا لأننا قد أذنبنا" (نقول نحن: آمين): ما أحسن هذه العبارة، وما أنفعها لغسل القلوب من آثار الذنوب. وذلك لأن العبد إذا أذنب الذنب، فإنه يبقى من أثره على قلبه؛ فإن وُفِّق للاستغفار، فإنه يذهب بإذن الله؛ وإن بقي على غفلته ثبت. فإذا تكاثرت الآثار من غير محو، أصبح القلب معزولا عن تلقي المعاني الربانية؛ وهو ما يجعله موافقا لحال الشياطين الذين يتخذونه مأوى لهم. وقد ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذا في قوله: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ (صُقِلَ) قَلْبُهُ؛ وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.»[1]. والران وإن لم يظهر لأعيُن العامة، فإن أهل الله يرونه جليّا على وجوه أصحاب القلوب الغافلة. وإن أمر الناس عجيب، عندما يكون مدار صلاحهم على قلوبهم، ثم يُهملونها إلى الحد الذي تتراكب طبقات الران معه عليها، فتصير عازلة لها عن تلقّي النور؛ وهذا أهم أسباب التنكُّب عن سماع الوحي والوعظ الصادق. يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «... أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ!»[2]. هذا وإن كثيرا من متديّني المتأخرين، خصوصا من أتباع الجماعات الحركية وأصحاب الدعوات القشرية، يكونون من أصحاب الرُّيون وهم فرحون مستبشرون. وإن كان أمثال هؤلاء لا ينفع معهم صريح القرآن وصريح السُّنة، فما الذي بقي لينفع معهم!...

ــ "فإنك رب طيب غفور.": والاسم "الغفور" هو المختص بالمغفرة، وإيراده باللفظ جيد جدا هنا. وأما الطيبوبة المنسوبة إلى الله هنا، فهي محبته سبحانه للمغفرة. وذلك لأنه لو كان الله غافرا فحسب، من دون أن يكون مُحبّا للمغفرة، لهلك الناس. ونعني من هذا، أن محبته للمغفرة سبحانه، تجعله يمكر لعبده حتى يغفر له؛ وهذا أعظم ما يكون من الرحمة والعناية. ومن معاني قوله تعالى: {أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ} [النور: ٢٢]، أنه سبحانه يُحب أن يغفر لكم؛ وكأنه قال: ألا تحبون أن يغفر الله لكم وهو يحب ذلك؟!... وهذا يعني من جهة أخرى، أن مَن لم يُغفَر له، فإنما هو مَن أبى المغفرة من نفسه، وإن كان يجهل ذلك. وإلى هذا المعنى أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، إِلَّا مَنْ أَبَى. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى.»[3]. ومعنى "كل أمتي" هنا، هو "كل الناس"، لأن كل الناس هم أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم الكبرى. وحتى يعلم المرء المعنى الذي كنا بصدده، فعليه أن يبقى عند العبارة الأولى وحدها؛ ليعلم أن من لا يدخل الجنة، فإنه من جهة نفسه أُتي، والله أكرم من أن يمنع عبده الجنة ابتداء. فلما سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم "ومن يأبى؟" ذكر مناط هذا الحكم، والذي يتجلى في نهاية تسلسله من الغيب إلى الشهادة، في معصية أمره صلى الله عليه وآله وسلم. ومن علامات الإباية النفسية، أن أمر طاعة النبي إذا عُرض على هذا الصنف، نفر منه؛ ورأى أن هذا من تحكُّم عبد في عبد مثله، وأن الطاعة لا تكون -بزعمه إن كان يعُدّ نفسه من أهل الدين- إلا لله وحده. ومن هذا الباب -وإن خفي عن كثيرين- كنا نحن نردّ كلام ابن تيمية في توحيده المزعوم. وأما من خطر في باله قول الله تعالى في الحديث القدسي: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ حِينَ خَلَقَهُ، فَضَرَبَ كَتِفَهُ

[1] . أخرجه الترمذي وابن ماجة وابن حبان والحاكم في المستدرك، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] . متفق عليه، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

[3] . أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الْيُمْنَى، فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً بَيْضَاءَ كَأَنَّهُمُ الذَّرُّ (الأصح الدُّرّ)، وَضَرَبَ كَتِفَهُ الْيُسْرَى، فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً سَوْدَاءَ كَأَنَّهُمُ الْحُمَمُ؛ فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَمِينِهِ: إِلَى الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي! وَقَالَ لِلَّذِي فِي كَفِّهِ الْيُسْرَى: إِلَى النَّارِ وَلَا أُبَالِي!»[1]، والذي هو من شأن المشيئة، فليعلم أنه لا تناقض؛ لأن ما هو من المشيئة، هو من شؤون النفوس أيضا. وهذا باب من العلم بالذات كثير المعاطب، كثيف الظلمات. وما كل أحد يظفر منه بما يسكّن من حيرته؛ والأفضل لعوام المؤمنين فيما يعود إليه، أن يلتزموا التوجيه النبوي بحذافيره، وإن لم يعلموا مُتعلّقه؛ لأنه أضمن لهم وأسلم. ومن لم يعلم فضل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الناس، عند دلالتهم على ما لا مطمع لهم في إدراكه من وجوه الخير من جهة أنفسهم، فما علم شيئا. ولو كان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم هذا الفضل وحده علينا، لعجزنا عن أداء شكره!... يقول الله تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} [التوبة: ٥٩]؛ أي، لو أنهم قبلوا أُعطية النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إذ لم يعلموها، ورجعوا في ذلك إلى الله بحسن الظن وبصدق الرغبة إليه سبحانه، لكان خيرا لهم وأنفع، من تثبّتهم وتمحيصهم فيما لا قدم لهم فيه. ووالله لو علم الناس حقيقة ما ندلهم عليه هنا، لجعلوا تديُّنهم تديُّن الصمّ البُكم العُمي الذين لا يعقلون (بالمعنى المحمود)؛ لأن هذا وحده ما يجعلهم على السُّنّة حقيقة!... ووالله لو علم أولئك الدارسون للكلام النبوي، المتناولون له بعقولهم الكليلة، مقدار سوء أدبهم، لودّوا أن تنشق الأرض وتبتلعهم!...

ـــ "مبارك أنت يا رب يا رؤوف يا واسع المغفرة.": لله در قائل هذا الكلام!... نقول هذا، لأن المغفرة وحدها لا تكفي العباد، حتى تتصف بالسعة. ولو لم تكن مغفرة الله واسعة، لبقي شطر من ذنوب الناس العظيمة خارجها. وهذا هو عين ما يذكره الله في قوله تعالى: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: ٥٣]، وهذا هو معنى سعة المغفرة؛ لأنه لو بقي ذنب واحد خارجها، لما كانت واسعة. وأما إن استشكل هذا ضيّقو الحواصل من المتنطعين، مع ورود قول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} [النساء: ٤٨]، فإن الشيخ الأكبر قُدّس سره قد علّمنا أن الله لا يغفر الشرك، لعدم وجود الشريك. وهذا يعني أن المغفرة لا تجد ما تتعلّق به حينئذ، لا أن الله لا يريد أن يغفره. والدليل هو قول الله تعالى في عجز الآية: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا}، أي قال بما لا حقيقة له. وأما إثبات الله لما دون الشرك من الذنوب، مع نفي الشرك وهو أعظمها، فلأن الذنوب في حقيقتها من توابع النفس، بعكس الشرك الذي يُراد له من قِبل الجاهلين أن يكون من توابع الألوهية. وبين النسبتيْن فُرقان لمن كان ذا عينيْن!... ومعنى كلامنا هو أن المغفرة تتعلّق في حقيقتها بالنفس وتوابعها، لا بالحق ذاته، تعالى؛ و"الغفور" وإخوانه من أسماء المغفرة، هم من أسماء الأفعال؛ وهذه الطبقة من الأسماء تتعلّق بالخلق لا بالحق. ومقصودنا، هو أنها ليست كأسماء الذات من أمثال "العظيم" و"الجليل" و"الأحد" وغيرها...

٧. [انظر إلى ذلّنا، وأيد دعوانا، وعجل بخلاصنا خلاصا كاملا من أجل اسمك؛ لأنك رب مخلّص قوي. مبارك أنت يا رب، يا مخلّص إسرائيل!]: ما أحسن هذا الكلام!...

ـــ "انظر إلى ذلنا": هذه عبارة تذلّل، من أجود ما يُقال بين يدي الله؛ لأن المقصود من التذلّل استجلاب نظر الرحمة من الله. وهذا يعني أن الذل ليس مقصودا لذاته، وإنما هو حال يستدعي من الله الإجابة بفضله. ومعنى كلامنا هو أن المعاملة بين العبد وربه ثنائية الاتجاه: فمرة تكون المعاملة من الله، ويكون ردها من العبد؛ ومرة تكون من العبد، ويأتي ردها من الله. ولولا هذا، لم تكن المعاملة لتتسمّى بهذا الاسم بصيغة "المفاعلة" المقتضية للاشتراك. ولقد أحسن هذا القائل، عندما

---

[1] . أخرجه أحمد والبزار والطبراني، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

جعل صفة العباد الذُّل لا التذلُّل؛ لأن الذل أصيل فينا، بعكس التذلُّل الذي قد يكون من عزيز متكلِّف أو متظاهر. فنحن لم نكن قط أعزة، ثم عرض لنا الذل، إلا في وهم المتوهمين!... ومن وافق الأصل، نجحت مساعيه دائما!... وإلى هذا المعنى الفرعي، يشير القول المأثور: «ارْحَمُوا عَزِيزَ قَوْمٍ ذَلَّ!»؛ وذلك لأن العزة في العبد لو كانت أصلية لما انقلبت ذلا. ورغم أن البيهقي قد عزا القول إلى الفضيل بن عياض، في "المدخل إلى السنن الكبرى"، ورغم أن علماء الحديث قد قالوا بعدم صحة نسبته إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرفوعا، إلا أننا نكاد نشم منه رائحة النبوة، لعِظم دلالته في مجال الحقائق.

ـ "وأيد دعوانا": ومعناه، اجعل ادعاءنا الذّل بين يديك صادقا؛ وهذا عائد إلى التفريق بين الذل والتذلل المذكور آنفا. وهذا القول، لا يصدر إلا من عالم بحقيقة المعاملة بين الله وعباده؛ لأن نظره كان إلى استجابة الله السريعة للذليل بفضله، بخلاف استجابته للمتذلّل التي قد تتأخر، أو قد تُعلّق حتى يُصبح تذلل العبد عن ذل، لا عن تصنع وتكلف. وهذا لا يعني أن التكلف لا ينفع هنا، بل هو نافع جدا، لمن لم يجد من نفسه ذلا؛ لأنه يكون بالحال سائلا لله أن يُعيده إلى أصل ذلّه. وهذا من دقائق علم الأحوال. ومعنى الكلام هو: إن صدّق الله عبده في تصاغره بين يديه، فإنه يُنجيه من كل تبعات المؤاخذة برحمته؛ وهو ما يشير إليه لاحق الكلام.

ـ "وعجِّل بخلاصنا خلاصا كاملا من أجل اسمك": وما أحسن ترتيب هذه المعاني، ليكون الخلاص بعد تصديق الله لذلّ عبده. والخلاص (النجاة) هو مرغوب كل العباد، من علم منهم ومن لم يعلم؛ من آمن منهم ومن كفر؛ لأنه لا غنى للعبد عما يُنجيه من الهلاك المتربص به من كل ناحية. والخلاص الكامل الذي يسأله السائل هنا، هو الخلاص الذي لا يبقى معه ذيل من ذيول المؤاخذة؛ لأن كل مؤاخذة، تستدعي عذابا مناسبا لها؛ إلا أن يغفر الله. والإتيان بعبارة "من أجل اسمك" في هذا الموضع، هو جيد جدا؛ لرفع توهُّم الاستحقاق، الذي يقع فيه أحيانا أهل الدين، وخصوصا منهم من يكون مقيما على عبادة الظاهر. والحقيقة هي أن العبد لا ينال الخلاص من ربه، إلا من باب المنّة والفضل وحده؛ لا من باب الاستحقاق. والمنة والفضل هما من معاني الأسماء الإلهية الصفاتية المعتنية بالمخلوقات من كونها مظاهر لها، لا من كونها مجيبة فحسب. وهذا المعنى هو معنى التوجه من الأسماء، الذي هو أصل معنى طلبها للمظاهر وأصل استجابتها لمن يدعوها فيما بعد. وإناطة هذا السائل خلاصه بالأسماء، هو أدعى إلى نيله، مما لو أنه استند إلى حاله وحده. وهذا من دقائق علم المعاملة، كما أسلفنا.

ـ "لأنك رب مخلّص قوي": ومعناه، لأنك رب مخلِّص قادر على تخليصنا برحمتك. وهذا من إناطة فعل التخليص بالله، لا بحال العبد. وقد تكلمنا عنه.

ـ "مبارك أنت يا رب، يا مخلّص إسرائيل!": قد يكون المراد بخلاص إسرائيل، خلاصهم من فرعون؛ لأنه آية عظيمة تستحق الذكر في كل مرة، وتستحق الشكر؛ وقد يكون الخلاص المراد، خلاص إسرائيل في الآخرة آباء وذرية؛ وهو من الرجاء المشروع؛ غير أننا ننبه إلى أن الخلاص ينبغي أن يتسع معناه في الأذهان، كما اتسع معنى المغفرة فيما سبق من الكلام؛ لأن ذلك هو اللائق بالله من جهته سبحانه، وبغض النظر عن أحوال العباد. لذلك فإنه كان الأولى أن يُقال: يا مُخلِّص العباد!...

٨. [داونا يا رب لنشفى، أنقذنا لننجو، لأنك أنت تسبيحنا (إرميا: ١٧: ١٤). وتعطف بدواء وشفاء لكل أمراضنا، ولكل آلامنا، ولكل مصائبنا؛ لأنك رب شاف رحمن وأمين. مبارك أنت يا رب شافي مرضى شعبه إسرائيل.].

ـ "داونا يا رب لنشفى": وهذا من أصح ما قيل، لأنه لا يشفي من العلل الظاهرة والباطنة إلا الله. ولقد انحجب الناس في زمان الفتنة هذا بالأسباب، حتى صاروا يعبدونها من دون الله. وإن كان الأمر من جهة الظاهر، وفيما يتعلّق بأمراض

البدن أقرب إلى إدراك الناس، فإن ما يتعلّق بأمراض القلوب، يكاد يكون مجهولا على التمام. ولقد زاد من البعد عن علاجات القلوب، ما صار يُعرف عند المتأخرين بـ "علم النفس"؛ لأنه ليس له من العلم إلا الاسم. وهو مؤسس على أوهام من وضعوا معالمه كـ "فرويد" الذي عكس في نظرياته كل تشوهاته الخُلقية وأمراضه القلبية. ولعلنا نعود إلى هذه المسألة بالتفصيل في جزء لاحق من هذا الكتاب، إن شاء الله. وإن كان الله يشفي من الأمراض الظاهرة والباطنة، كما ذكرنا، فإن في مقدمة العلاجات الوحي؛ لأن الوحي نور، والنور هو ماحي الظلمة. وليس المرض إلا الظلمة التي تلحق العبد من جهة ظاهره ومن جهة باطنه، إن نحن عُدنا إلى ما كنا قد تكلمنا عنه من أن العدم ظلمة، وأنه محيط بالعبد من كل جهات حقيقته. وعلى هذا، فإن الدواء الذي يُؤخذ في العادة علاجا لمرض ما، كالحبوب والحقن المعلومة، لا يكون إلا صورة من صور الحكمة الساترة للنور العامل في حقيقة الإنسان. وإن نسبة الشفاء إلى الدواء المُتناوَل، هي من أثر الشرك وعمى البصيرة اللذين عند تفشيهما في الناس، صارا لا يُعرفان؛ بسبب غياب ما يُقاسان إليه من الأضداد. وإن كان أمر النور ملتبسا على من يغلب عليه شهود المادة في الظاهر، عند النظر إلى أمراض الأبدان؛ فإنه يكون أقل التباسا إن نحن اعتبرنا القلوب، بسبب المناسبة في اللطافة. والوحي الإلهي، فيه من كل الأنوار وعلى اختلاف أصنافها؛ بحيث تناسب جميع العلل القلبية الفردية والجماعية. ولكن العيب في الناس المُقبلين عليه، عندما يقدمون عقولهم في التناول، فيُمنعون بركته. وهذه آفة تكاد تكون عامة، بسبب تعليم الدين للناس تعليما منحرفا من البداية؛ بحيث يصير أمر النجاة في حقّهم أمرا استثنائيا وخارجا عن التوقُّعات.

ـــ "أنقذنا لننجو": لأنه لا نجاة إلا بإنجاء الله. وكل من كان يعتمد على نفسه في نجاته، أو يعتمد على مخلوق مثله، فإنه يكون ضالا ضلالا كبيرا؛ لأن الشيء لا يُحال على نفسه، ولا على شبيه له في العدمية. ونحن قد قلنا إن كل الأمور الوجودية العارضة للإنسان، لا بد أن يجود بها الجواد من بحر وُجوده.

ـــ "لأنك أنت تسبيحنا": وهذه من أحسن العبارات؛ لأنها تردُّ العبد إلى الأصول. ومعنى التسبيح كما سبق أن ذكرنا: التطهُّر. ولقد ألف الناس استعمال عبارة "تسبيح الله" التي يُراد منها تنزيه الله، والذي هو تطهير له سبحانه في العقل من كل ما لا يليق به. وهذه العمليّة مجازية، لأن الله متقدس في ذاته، لا يتقدس بتقديس غيره. ولولا أن الشرائع تعتبر مراتب العقول، ما كانت تسمح باستعمال مثل تلك العبارة لبُعدها عن الحقيقة. أما أن يكون الله هو تسبيح العبد (طهارته)، فهو معنى صحيح؛ لأن العبد لا يتخلّص من سوئه الذي هو عدمه، إلا بالوجود الإلهي الماحي له؛ وليس هناك دلالة أوضح على التطهير من هذه. يقول الله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب: ٣٣]. ولقد خص الله بهذه الطهارة المطلقة أهل بيت النبوة، لكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم منهم. وبما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجود كلُّه، فإن نوره يطغى على أهل بيته حتى يمحو ظلمتهم قهرا لا اختيارا. فأهل البيت عليهم السلام كالأجسام الواقعة تحت أشعة الشمس المباشرة، لا يبقى منهم محل للظل معها؛ وهذا يكون لهم ظاهرا وباطنا. فإن لم يُر عليهم، فلِعمى لدى الناظر، لا لنقص لديهم. ومن هذا الباب أوجب التشريع تعظيم قرابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من دون نظر إلى حالهم. وهذا هو ما كان العمل جاريا به في العصور التي كان يغلب على أهلها النور، فلما انقلبت الحال ووقع الكسوف، صار الناس لا يعرفون فضلا لأحد؛ وهو وجه من وجوه العدل، لكن في الظلمة.

ـــ "وتعطف بدواء وشفاء لكل أمراضنا ولكل آلامنا ولكل مصائبنا.": أي أعطنا شفاء مناسبا من نورك لكل أمراضنا التي هي أعدام في قلوبنا (سماه الشرع سوءا)، ولكل آلامنا التي هي نتائج عدمنا، ولكل مصائبنا التي هي مناطات آلامنا؛ وليست إلا مواطن العدم. فكأن السائل يسأل ربه أن يمنحه نورا في كل محل من قلبه، وكل محل من بدنه. وإلى هذا المعنى

إشارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ شِمَالِي نُورًا، وَأَمَامِي نُورًا، وَخَلْفِي نُورًا، وَفَوْقِي نُورًا، وَتَحْتِي نُورًا، وَاجْعَلْ لِي نُورًا، أَوْ قَالَ وَاجْعَلْنِي نُورًا!»[١].

ـ "لأنك رب شاف رحمن وأمين": تُذكر هنا أسماء تتعلق بالشفاء وما يدور حوله. وتعديد الأسماء وعدم الاكتفاء باسم واحد هو "الشافي"، هو لتعاون الأسماء فيما بينها إذا كانت الغاية تستدعي ذلك التعاون؛ أو لتراتب الأسماء فيما بينها كأن يُدعى الرئيس والمرؤوس منها؛ أو للتركيب، الذي يكون أساساً في الكلمات الإلهية أو في بعض أجزائها. ولن ندخل في تفاصيل تعلّق الأسماء بالمريض هنا لتشفيه، فإن ذلك يُعدّ من الأسرار الإلهية.

ـ "مبارك أنت يا رب شافي مرضى شعبه إسرائيل": سبق لنا الكلام عن معنى التبارك والبركة، الذي يورده المتكلم هنا بمعنى التسبيح. ولكن ربط شفاء المرضى في معرض الثناء على الله، بشعب بني إسرائيل -وإن كان جائزا- فإنه يضيّق دائرة الثناء ذاته؛ والأولى التوسيع دائما.

٩. وهي بركة لمحصولات السنة تقال في الصيف: [باركنا يا رب يا إلهنا في كل عمل أيدينا، وبارك سَنتنا بشآبيب الرضى والبركة والجود، فيكون آخرها حياة وشبعا وسلاما كالسنين الطيبة المباركة، لأنك أنت رب طيب ومحسن وتُبارك السنين.] وأما في الشتاء فيُقال: [بارك لنا يا رب يا إلهنا في هذه السنة، وفي كل أنواع غلتنا بالخير. وأنزل ندى ومطرا للبركة، على كل وجه الأرض. وارو وجه الثرى، وأشبع العالم كله من خيرك، واملأ أيدينا من بركتك، ومن سخاء عطايا يديك. احفظ هذه السنة، ونجها من كل أمر رديء، ومن كل أنواع الآفات، ومن كل صنوف الغضب. واجعل لها أملا طيبا ونهاية آمنة. أشفق عليها، وارأف بها، وبكل غلتها وثمارها، وباركها بأمطار الرضا والبركة والجود، فيكون آخرها حياة وشبعا وسلاما كالسنين الطيبة المباركة، لأنك أنت رب طيب ومحسن وتبارك السنين. مبارك أنت يا رب، يا من تبارك السنين.]

ـ "باركنا يا رب يا إلهنا في كل عمل أيدينا": سؤال البركة في العمل، يعود بتيسيره عند بدئه، وبرفع مشقّته أثناءه، وبإبلاغ الغاية منه في النهاية، والتي هي هنا محصول آخر السنة. والعمل عن سؤال لله، هو من أكبر الأدب مع الله؛ ويغفل عن هذا الأدب اليوم كثير من أهل الدين، فترتفع بسبب ذلك البركة من أعمالهم.

ـ "وبارك سَنتنا بشآبيب الرضى والبركة والجود": شآبيب الرضى، قياسا على شؤبوب المطر الذي هو الدُّفعة منه. والمقصود بارك سنتنا بما تُنزله من مطر على أرضنا، وبرضاك عنا، وبالبركة التي تضعها في غلتنا، بمحض جودك.

ـ "فيكون آخرها حياة وشبعا وسلاما كالسنين الطيبة المباركة": فيكون آخر السنة حياة، أي ما تكون به أسباب الحياة من قمح وزيت وفواكه... ويكون سببا للشبع من حيث الكمية الكافية من كل الغلال؛ وسلاما، لأن السلام في العادة يرافق الرخاء، بعكس الحرب التي توجد حين يُضطر الناس إلى اقتسام القليل بينهم. ويُذكّر السائل بالسنين الطيبة المباركة الماضية، ليقول ما معناه: يا رب إنك عودتنا خيرا، فلا تغير عادتك معنا. وكل هذه المعاني جيدة، ومشفوعة بالأدب اللازم.

ـ "لأنك أنت رب طيب ومحسن وتُبارك السنين": أي، افعل بنا ما طلبنا، لا لأننا نستحق ذلك؛ ولكن لأنك رب طيب؛ وقد تكلمنا سابقا عن معنى الطيبوبة المقصودة؛ ومُحسن، لأن إحسانك غامر لكل عبادك، ولولاه ما تم شيء من مراداتهم، ولا سلموا في أرزاقهم وأبدانهم. وأما عبارة "وتبارك السنين"، فإنها وردت بمعنى الاسم، وكأن القائل قال: ومبارك السنين. ليتعلّق هذا الاسم بفعل ما طُلب منه مما هو خاص بالسنة الفلاحية على معناها عند الفلاحين. وهذا جيد جدا،

---

[١]. أخرجه مسلم، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

لأن الأسماء كلما خُصِّصت، كانت أقرب إلى الإجابة. وهذا علم، لا يكون إلا للأولياء؛ وإن ظن غيرهم أنهم قد ظفروا منه بشيء.

ـ "بارك لنا يا رب يا إلهنا في هذه السنة، وفي كل أنواع غلتنا بالخير": واضح من هذه العبارة أنها تكون عند بداية السنة. وإنّ جعل استهلال العمل بسؤال البركة في السنة كلها وفي كل أنواع الغلة، هو من التوفيق؛ لأن الإجابة إن وقعت، فإن الغاية تكون قد أُدركت من البداية؛ وهذا أيضا من علم السائل. وذلك لأنه لا يتفطن إلى مواطن الدعاء، إلا الحكماء الألبّاء.

ـ "وأنزل ندى ومطرا للبركة، على كل وجه الأرض.": هذا سؤال جيد، لأنه عام. وكل سؤال عام يكون أقرب إلى الإجابة من السؤال المخصّص؛ لأن الله واسع العطاء، فيُحب من السؤال ما يُناسب سعة عطائه.

ـ "وارو وجه الثرى، وأشبع العالم كله من خيرك": هذا أيضا سؤال عام، وفيه من محبة الخير لعموم الناس، ما يجعل الله يرضى عن السائل. وقد يكون تعميم السؤال أحيانا، من أسباب إجابة الدعاء الخاص؛ ولهذا يُعمّم المعمّمون من العلماء. وقد وصفت عائشة عليها السلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَحِبُّ الْجَوَامِعَ مِنَ الدُّعَاءِ وَيَدَعُ مَا سِوَى ذَلِكَ"[1]. والجوامع قد يُراد منها ما يعمّ الناس، ويُراد منها أيضا ما يكون أجمع للمعنى كالرحمة والمغفرة وغير ذلك. وهذا كله من الأدب مع الله، مرة بعدم تخصيص النفس إلا من باب إظهار الفاقة؛ ومرة بالتعميم في اللفظ، لأن الله أعلم بما يصلح لعبده؛ وإذا خص العبد في الدعاء من جهة المدعوّ به، فربما يكون ذلك مما يضره ولا ينفعه، وهو لا يعلم.

ـ "واملأ أيدينا من بركتك، ومن سخاء عطايا يديك": يسأل السائل وكأنه باسط كلتا يديه، على هيئة المفتقر إلى رحمة ربه؛ ويسأل ملْأهما، ليتحقق الاكتفاء. ولقد كان حسنا منه أن يأتي بذكر يديْ الله في مقابل يدي السائل لتتحقق المقابلة بين العلو والسّفل؛ فإن في ذلك من البركة، ما لا خفاء فيه. وأما تثنية يدي الله، فللدلالة على أن الخير يكون فيما اختاره الله؛ فهو إن أعطى بيد العطاء كان ذلك رحمة للعبد، وإن منع بيد المنع، فإنه يكون رحمة له أيضا. وقد جاء في حديث خلق آدم: "... قَالَ: اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي، وَكِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ مُبَارَكَةٌ!"[2]. وما ذكرناه من أن الخير يكون فيما اختاره الله، هو من المعنى الوارد به الحديث عند وصف اليديْن باليمين، دلالة على اليُمن.

ـ "احفظ هذه السنة، ونجها من كل أمر رديء، ومن كل أنواع الآفات، ومن كل صنوف الغضب.": يبدأ السائل، بدفع الضرر عند الدعاء بالحفظ والإنجاء من السوء الذي هو لحوق العدم بالسنَة كلّيّا أو جزئيّا؛ وهو ما عبّر عنه بالآفات. وختم بحفظ السنة من صنوف الغضب، ليقطع مدد إهلاك الغلة وخراب المحصول. وذلك لأن الآفات أسباب، والغضبَ صِفة هي أصلها. وهذه المعاني كلها جيدة في نفسها، وحسنة الترتيب فيما بينها؛ مما يدل على أن قائلها من أهل العلم بالله، أو من الموفَّقين الذين يُوافقون ما في العلم وإن لم يكونوا من أهل الاطلاع عليه.

ـ "واجعل لها أملا طيبا ونهاية آمنة": أي اجعل للسنة أملا طيبا وفألا حسنا تنتهي إليه، واجعل نهايتها آمنة من كل ما يخرم الفرح بها أو يُكدّر صفوها؛ لأن الآفات محدقة من كل جانب قبل وبعد العمل. ومن لم يتحصّن بالله من كل جهاته، فربما قد يأتيه المكروه من حيث لا يحتسب. ومرة أخرى نقول: لا يصدر هذا السؤال إلا عن حكيم عليم.

---

[1] . أخرجه أبو داود في سننه.

[2] . أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

_ "أشفق عليها، وارأف بها، وبكل غلتها وثمارها، وباركها بأمطار الرضى والبركة والجود، فيكون آخرها حياة وشبعا وسلاما كالسنين الطيبة المباركة، لأنك أنت رب طيب ومحسن وتبارك السنين. مبارك أنت يا رب، يا من تبارك السنين.":
وهذا من أفضل ما يُختم به في مثل هذه الحال، وبعد سؤال ما يوافق مصالح العباد؛ ونعني أنه التفت الآن في سؤاله إلى ما ينفع الغلة نفسها والثمار، من كونها مخلوقات لها مطالب خاصة بها في نفسها. وهذا من أكبر العلم الذي يكون لخواص العباد. ثم يسأل للغلة البركة والرضى من عين الجود، لتكون نهاية السنة للجميع هناء ورخاء ونعمة بفضل الله ورحمته.

١٠. [انفخ في بوق كبير لأجل حرّيتنا، وارفع علَما لجميع مشتَّتينا، واجمعنا من أركان الأرض الأربعة معا إلى أرضنا. مبارك أنت يا رب، جامع مشرَّدي شعبه إسرائيل.]:

_ "انفخ في بوق كبير لأجل حرّيتنا": النفخ في البوق (الشوفار) عند اليهود، هو لإعلان أمر ما، كدخول وقت عيد، أو إنذار بحرب؛ إلى غير ذلك من المناسبات. وهو وسيلة في مقابل الأذان الذي للمسلمين، وقرع الجرس الذي للنصارى. ومعنى العبارة هنا هو: أعلن يا رب إعلانا يُسمع كل العالم بحريّتنا. وهذا يدل على أن حريّة اليهود في أغلب تاريخهم، كانت منقوصة. وقد حدث هذا معهم، في كل البلدان التي وُجدوا فيها.

_ "وارفع عَلَما لجميع مشتَّتينا": ومعنى العبارة هو: اجمع مشتتينا على أمر واحد يلتفّون حوله؛ وهذا الدعاء مخصوص بزمن الشتات (المنفى). واليهود لهم شتات متكرر في التاريخ، بدأ مع الشتات الأول الأشوري، ما بين سنة ٧٣٣ و٧٢٢ ق.م؛ ثم الشتات البابلي الذي كان على مرحلتيْن: عام ٥٩٧ ق.م، وعام ٥٨٦ ق.م؛ ثم بعد تدمير الهيكل الثاني سنة ٧٠ م، وبعد ثورة "باركوخبا" على السلطة الرومانية مرة أخرى عام ١٣٢م. ومنذ ذلك الوقت بقي اليهود مشتتين في العالم على هيئة مجموعات متفاوتة من حيث الكثافة والعدد، أهمها يهود "أشكناز"، في شمال وشرق أوروبا، ويهود "سفارديم"، في شبه الجزيرة الأيبيرية وشمال أفريقيا والشرق الأوسط. ويبدو أن الله قد رفع علم "الصهيونية" في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، ليجتمع عليه يهود العالم، ولتتأسس عليه دولة "إسرائيل". ورغم أن اليهود ليسوا كلهم في إسرائيل، إلا أنهم يعملون من أجلها بمختلف الوسائل، وحيثما كانوا في العالم؛ إلا مجموعات قليلة، لا توافق على مبدأ قيام الدولة بغير إذن رباني، يتجلى في ظهور "المخلّص" حصرا. ونحن عندما نقول إن الله قد رفع علم الصهيونية، فلسنا نعني أن الله أذن لهم في إقامة الدولة، كما قد يفهم المتعجِّلون أو المغرِضون؛ وإنما نعني أنه لم يكن ليتم لهم ذلك إلا بإرادة من الله، الذي لا تتحرك ذرة في العالم إلا بإذنه سبحانه. وهنا ينبغي التفريق مرة أخرى بين معنى الأمر (الإذن) ومعنى الإرادة. وهذا، لأن كثيرا من الالتباس الحاصل في المعاني الدينية لدى المسلمين كما الكتابيّين، هو ناتج عن عدم التفريق ذاك. ولا بد هنا من أن نؤكِّد تفهُّمنا لدوافع اليهود في إرادة الاجتماع، من حيث هم جماعة بشرية دينية؛ وإن كنّا لا نوافقهم على تفاصيل مُدرَكاتهم لصلتهم بالله، التي ينظرون هم إليها من زاوية خاصة جدا، وكأن الرب ربهم وحدهم من دون العالمين. ولا شك أننا سنعود في جزء من هذا الكتاب، إلى تفاصيل ما يتعلّق بهذه الرؤية، من جهة الأسباب ومن جهة النتائج؛ ولا بدّ أيضا من أن نبيّن حكم الله في المسألة، بما لا يدع مجالا للشك، وما لا يترك جانبا من الجوانب تحت الظل. ولا شك أن القارئ، قد تبيّن من أسلوبنا في التناول، أننا لا ننحاز إلى جهة بعينها؛ وإنما مرادنا بلوغ الحق، كما هو في نفسه؛ أي كما هو عند الله حقيقة.

_ "واجمعنا من أركان الأرض الأربعة معا إلى أرضنا": وكما سبق أن ذكرنا فنحن متفهمون جدا لهذا الدعاء، ولكن لا بد من العودة في مثل هذه الأمور إلى الأحكام الربانية، لا إلى هوى الأقوام. ونسبة اليهود الأرضَ المقدسة (فلسطين) إلى أنفسهم، بالمعنى الديني، لا ينبغي أن تختلط لديهم ولدينا بالمعنى التاريخي؛ لأن الدين منوط بالتشريع عن طريق الوحي. والتشريع أمر متغيّر، تنبغي فيه العودة إلى آخر ما أُنزل لا إلى مُطلَقِه. ومن أنكر التشريع الإلهي بعد التوراة، فعليه أن يُنكره

قبلها؛ لأنه لو أبقينا على معنى التشريع الأول ساريا، لوجب البقاء -على الأقل- مع التشريع الإبراهيمي، من حيث المبدأ؛ سواء أبَلَغَنا أم لم يبلغنا. ولقد أسلفنا الذِّكر فيما قبل من هذا الكتاب، بأن الحكمة عند الله من عدم حفظ الشرائع الأولى، هي الدلالة على اتباع المستجد منها في كل مرة. وإن آخر ما نزل من التشريع من عند الله، هو ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ سواء أقرّ الناس -واليهود من بينهم- بذلك أم لم يُقرّوا. وذلك لأن المُعتبر في هذه المسألة، هو حُكم الله (نظرُه) لا رأي الناس جميعهم؛ وإلا فلا داعي لأن يزعم مُدّعو الإيمان أن للعالم ربا وهم لا يرجعون إليه!... وسنعود إن شاء الله إلى هذه المسألة بالتفصيل، عند انتهائنا من تناول العقائد بحسب الحقب التاريخية، وباعتبار التتابع في التشريع عبر مراحله الثلاث: الموسوية والعيسوية والمحمدية.

_ "مبارك أنت يا رب، جامع مشرَّدي شعبه إسرائيل.": هذه العبارة، مما يجوز الثناء به على الله، من باب المحامد العامة، التي يُنطِق بها ألسن جميع خلقه. ولا شك أن اجتماع مشرَّدي بني إسرائيل، هو نعمة من الله عليهم ولو وقتيًا؛ لكن لا ينبغي عليهم معاملة الله وكأنه لا شعب لديه إلا شعب إسرائيل. ونحن عندما نمنع من هذا، فلا ننطلق من عصبيّة مقابلة للعصبية اليهودية؛ وإنما نُحكّم العلم الذي يشهد فيه الحسُّ قبل العقل، بأن الله رب الناس أجمعين، كما أخبر هو سبحانه عن نفسه في قوله تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ} [الناس: ١ - ٣]؛ بل إن العلم يشهد بأنه سبحانه رب العالمين (جمع عالم)، كما في قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: ٢]. وعلى هذا، فإن الله رب اليهود، والنصارى، والمسلمين، والبوذيين، والهندوس، والطاويين، والشنتُويّين، والمجوس، والبراهمة، والزردشتيين، والمانويّين، وعبدة الأوثان، وعبدة النجوم، وعبدة الأرواح من الجن ومن الإنس (الأسلاف)، وعبدة الشياطين، ومن لا دين لهم (عند أنفسهم) من الملاحدة واللاأدريين؛ بالإضافة إلى عوالم الحيوانات والنباتات والجمادات، من أصغر الميكروبات والفيروسات، إلى أكبر المجرات. ونعني من هذا، أن له سبحانه معاملة خاصة فيما بينه وبين كل صنف من العباد، بل فيما بينه وبين كل عبد فرد من العباد؛ بغض النظر عن كون الناس على طريق مشروع (مأذون) أم لا. فكيف يُمكن لأحد من الناس، مسلما أو يهوديا أو غيرهما، أن يزعم احتكار الله لنفسه أو لجماعته (أمته)؟!... إن لم يكن أحد يستطيع أن يحتكر الشمس، وهي مجرد مخلوق ضئيل من مخلوقاته، فكيف يُقال بإمكان احتكار ربها ذاته؛ ومن عمّ فضله الأكوانَ بأسرها ظاهرها وباطنها، غيبها وشهادتها، ما نعلم منها وما لا نعلم؟!...

١١. [أعد قضاتنا كما كان الأمر أولا، وناصحينا كما في البداية، وأبعد عنا الكدر والضيق والأنين، واملك عاجلا علينا أنت وحدك، يا رب برحمة وعدل وحكم. مبارك أنت يا رب، الملك المحب للعدالة والحكم.] (ويقال في أيام التوبة): [يا ملك الحكم]:

_ "أعد قضاتنا كما كان الأمر أولا": يحن اليهود إلى عهد القضاة، الذين كانوا يحكمون وفق الشريعة على الأقاليم. وقد كان ذلك بعد يشوع. وفي هذا العهد لم يكن الشعب يتبع الأنبياء، بل القُضاة، وإن جمعوا بين الصفتين. وكأن هذه الصورة البدائية للحكم النظامي، كانت صورة الدولة الإسرائيلية الأولى بعد تجربتَيْ العبودية والتيه. لهذا بقي حنين اليهود إليها، لكونها في نظرهم تجمع بين مقومات الدولة "الحديثة" والحكم بالتوراة. وهذه مسألة عزّت عليهم طيلة قرون، كما عزت على المسلمين أيضا، الذين يحنّون إلى حكم "الخلافة الراشدة" (مع الفارق) الذي كان يجمع بين الحسنييْن هو أيضا. ولكن التوجه العام للناس بعد مدة قليلة، كان يميل نحو دولة متحللة من أحكام الدين، على تفاوت بين الحكام؛ من زمن بني إسرائيل إلى يومنا هذا. ولا شك أننا سنعود إلى الكلام في سياسة الدولة الشرعية فيما بعد إن شاء الله.

_ "وناصحينا كما في البداية": يقصد المتكلم بالناصحين الأنبياء في المرتبة الأولى، لأنهم هم من كانوا يتكلمون بما يُرضي الله، ولا يلتفتون إلى أحد من الحكام أو من عامة الناس. والسائل يريد بهذا، أن تكون النصيحة من الناصح لله، ليعلمها

العامة من الشعب، ويسهل عليهم اتباعها. أما في العصور التي يختفي فيها الناصحون من هذا الصنف، فإنها تظهر طبقة المتديّنين الرسمية (الكهنوت)، الذين لا يُراعون الله في كلامهم؛ بل يبيعون الأحكام والفتاوى للحكام وللناس، في مقابل المال. وهكذا يفسد المجتمع، وهو في ظاهر أمره على الدين. ولقد بلغت أمة المسلمين هذه الحال منذ مدة، واستفحل الأمر فيها فيما بعد فترة الاستعمار، إلى الحد الذي أصبح الإسلام يُحارَب فيها جهارا، وأصبحت دعاوى الكفر يُنادى بها نهارا، من غير أن يعترض أحد؛ وكأن النسبة إلى الدين، قد أصبحت نسبة تاريخية فحسب. ونحن ذكرنا هنا حال المسلمين، لئلا يتوهم أحد منهم أنهم على خلاف بني إسرائيل من هذا الوجه. فمن أراد أن يعتبر، فلينظر إلى من سبقه في التجربة، وإلى مآله فيها؛ ومن أراد أن يتحامق، يرى نفسه فريدا، لم يسبقه مثله أحد، ولا سيأتي بعده أحد. يقول الله تعالى في هذا المعنى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران: ١٠٥]؛ ويقول سبحانه: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} [الأنفال: ٢١]؛ ويقول سبحانه أيضا: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [الحشر: ١٩]؛ ثم يقول سبحانه: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [النحل: ٩٢]. ونحن سنتكلّم في هذه الآية بما يُناسب ما نحن بصدده، من محاورة الكتابيّين، فنقول: المقصود بالتي نقضت غزلها من بعد قوة، هم بنو إسرائيل الذين خرجوا عن أحكام التوراة والإنجيل، بعدما كانوا عليها. فحال القوة عند المؤمنين، هو حال اتباع الوحي؛ وحال النقض، هو عند العودة إلى الأهواء المتدثرة بالفلسفات والأيديولجيات. وقد نهى الله المسلمين أن يفعلوا كالكتابيّين، ولكنهم وقعوا فيما وقعوا فيه ذاته، من نكث لغزلهم. والأيمان هنا التي تُناسب ما تكون عليه الأمم الثلاث، هو قسم كلٍّ منها على أنها الباقية على الحق، من دون الأخريَيْن؛ والنظر في ذلك يكون باعتبار العدد؛ وهذا هو معنى {أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ}. والمقصود من هذا، هو أن معيار الحق، أصبح العدد من غير برهان معتبر؛ مع أن العدد لا يُعطي ذلك من نفسه. ورغم أن هذا المعنى لم يتطرق إليه سابقو المفسرين، فإننا نراه الآن أقرب التفاسير إلى الواقع من الوجه الذي ذكرنا. وبعد أن أصاب أمة الإسلام داء الأمم، فإننا نقول لها، لا يكفي أن يكون عدد المسلمين في العالم أكبر من أمة اليهود -مثلا- لتحكمي بأنك على الحق؛ لأن معيار الحق لا دخل فيه للعدد. وذلك لأن المعتبر هنا، هو مدى اتباع حكم الله النازل من عنده، في الشؤون الفردية والجماعية جميعا. فإن بقي البعض مصرّين على مُعوَجِّ فهمهم، فإن الله سيُبيّن لهم يوم القيامة، بعد أن تكون فُرصة التوبة قد ضاعت عليهم، ما كانوا يجهلون من أمر دينهم. وهناك معنى آخر، يتصل بإرباء الأمم هنا، وهو اتباع أمة الإسلام لأمم الكفر، لا لشيء إلا لأنها أكثر عددا أو أكثر قوة بحسب الزعم، ظنا منها أن ذلك ينفعها في مساعيها، وأنه يكون أقرب إلى إنجاحها؛ وهيهات!... ومتى كان العميُ إذا كثُر عددهم، يُصبحون أهدى من المبصرين!... ومن نظر إلى ولاءات الدول الإسلامية وإلى تحالفاتها في زماننا، فإنه سيعلم مدى انطباق هذه الآية عليها. وعلى هذا، فمن الناحية السياسية، لا يحق للمسلمين اليوم أن يزعموا أنهم أفضل من اليهود أو النصارى؛ وعليهم أن يعودوا إلى دينهم بصدق، إن هم أرادوا أن يستجيب الله بتمكينهم من مراجعة أمورهم؛ وإلا فإنهم سيبقون عاملين على خراب بلدانهم بأيديهم، من دون أن يشعروا، كما أخبر الله عن اليهود قبلهم، وعندما سلكوا مسلكهم، فقال سبحانه: {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ} [الحشر: ٢]. وإن كان المسلمون يتوهمون أنهم شعب الله المختار، كما توهم ذلك بنو إسرائيل من قبل، فليعلموا أنهم مخالفون لأحكام الله الدالة على العبودية، وأنهم واقعون فيما وقعت فيه بنو إسرائيل ذاته. ونعني من هذا، أن المُفلح يوم القيامة هو مَن كان عبدا لله، خاضعا لحُكمه وقدره؛ لا مَن كان يتفاخر على عباد الله من الأقوام الآخرين، بما ليس له!...

_ "وأبعد عنا الكدر والضيق والأنين": يدعو المصلّي هنا بإبعاد الكدر والضيق والأنين، لكن ذلك ليس مفصولا عن الحال العام للشعب. ونعني من هذا، أن الله لن يرفع الضيق عمن خرجوا عن الطريق؛ وإنما يرفعه عن أولئك الذين تمسكوا به وصبروا رغم المشاق. والمقصود من قولنا، هو أن دعاء اللسان ينبغي أن يُطابق الحال؛ وإلا فإن الله لا يعتبره. بل إن دعاء اللسان وحده، قد يصير نوعا من الاستهزاء بالدين، فيزداد به العبد بعدا عن الحق، ويزداد قربا من العذاب، في الدنيا والآخرة.

_ "واملك عاجلا علينا أنت وحدك": هذا الدعاء، يعني به صاحبه أن تحكم الشريعة الشعب. فهذا هو المعنى الوحيد الصحيح، الذي تنصرف إليه العبارة؛ لأن مُلك الله على عباده -حيث كانوا- هو ثابت، لا خلاف عليه، من جهة الحقيقة. ولولا أن المُلك هو بالأصالة للاسم "الله"، ما كان هو يُؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء، كما أخبر سبحانه بقوله: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: ٢٦]. وقد غلط علماء المسلمين في تنزيل معاني هذه الآية كثيرا، عندما اعتبروا المعنى الفقهي (الشريعة)، مع تلاعبهم فيه كثيرا؛ وغفلوا عن المعنى العام المطابق للحقيقة، والذي لا يستثني حاكما من حكام العالم، بغض النظر عن ملته، وعن مدى إقامته للعدل في شعبه. وهذا الذي نقوله، لا يعني أن الحكام سواء عند الله، وإنما يعني أن لله حِكما في توليتهم على اختلاف أحوالهم؛ مما هو من باب الجزاء للأقوام، ومما هو من غير ذلك، مما لا يعلمه إلا الله. ولو فتح الله لعبد في حِكمه المتداخلة في الأمور عند كل فعل إلهي، والذي هو هنا تولية الحاكم المخصوص، لطاش عقله من شدة إحكام أفعال الله؛ رغم أن الغافلين لا يكادون يعتبرونها. فلله الحمد على ما أولى وعلى ما حكم، وله الحمد على ما أعطى وما أنعم.

_ "يا رب برحمة وعدل وحكم": يسأل السائل هنا، بعد أن سأل أن يكون الملك لله، أن يكون برحمة وعدل وحكم. وملك الله للعالم لا يخرج عن هذه الصفات، وإن لم يشعر بذلك كل أحد. فنحن إن رجعنا إلى الرحمة، فإننا سنجدها تنقسم إلى قسميْن: رحمة الرحمن، ورحمة الرحيم. ورحمة الرحمن هي الأظهر في الدنيا، وإن وُجدت ضمنها رحمة الرحيم باطنة. ورحمة الرحمن، عامة، تُراعي المحلّ وتراعي الاسم الظاهر به. ومن مراعاة الأسماء، ينتج عن الرحمة ما لا يلائم غرض المظهر. وهذا يعني أن الآلام التي تظهر على العباد، هي أولا من رحمة الأسماء الظاهرة فيهم. وقد تكون الآلام أيضا رحمة في حق المظاهر، من جهة الرحمة الرحيمية، التي تُعوِّض المظهر خيرا عن مقاساته، إما في الدنيا وإما في الآخرة؛ أو فيهما معا، ما دام فضل الله لا يُحد. وإن نحن رجعنا إلى معنى العدل، فإننا سنجده صنفيْن: عدل شرعي، وهو لا يتوافر إلا عند تحكيم الوحي؛ وعدل عام، هو متحقق على كل حال. ونعني بالعدل العام، ما يكون فيه الفعل منسوبا إلى الله؛ لأن النسبة إلى الله في الأفعال التي ظاهرها ظلم، تُخرجها من صفة الظلم إلى صفة العدل تلقائيا؛ وهذا هو ما يجعل المؤمنين يُسلِّمون للأقدار. وإن نحن دققنا النظر، فإننا سنجد الظلم أمرا اعتباريا في العدل العام؛ وإن كنا نعلم قصور جُلّ العقول عن تبيّن ما نذكره. ولعل المقصود للسائل من كلمة "حكم" هو الانضباط الذي يجعل الرحمة والعدل مهيمنيْن على المجتمع. والانضباط يحتاج إلى قوة مُلزمة، تجعل الناس خاضعين للحكم بالقهر إن هم لم يخضعوا اختيارا.

_ "مبارك أنت يا رب، الملك المحب للعدالة والحكم": من دون أن يعلم السائل، هو يُثني على الاسم "المِلك" في مظهره؛ وهذا يقع من كثيرين. ولو أنهم علموا المظاهر، لصعُب عليهم البقاء على اعتقادهم؛ لأن كثيرا من الملوك يُنسبون إلى الظلم لا إلى العدل، والظلم يستحيل أن يُنسب إلى الله. والمسألة هنا تحتاج إلى تفصيل: وهو أن العدل يُؤخذ بمعنييْن: عدل مباشر (بسيط الصورة)، وعدل غير مباشر (مركب الصورة). فمن باب العدل المباشر، لا يكون عادلا، إلا من وافق في حكمه شريعة الله من جهة الظاهر؛ وهذا لا يكون على التمام إلا للخلفاء، من الأنبياء كداود عليه السلام، أو من الورثة

كأبي بكر رضي الله عنه. وأما العدل غير المباشر، فهو عام يشمل حكم كل حاكم؛ من كون حكم الحاكم حكما لله من جهة الحقيقة ولا بد. وذلك لأن الله هو ملِك الملوك، ولأن كل حكمهم إنما هو صورة لحكمه من دون أدنى شك. ورغم أن حكم الحكام قد يتصف بالظلم من جهة الظاهر، إلا أنه لو اطلع العبد على باطن الأمور، لوجد ذلك الظلم عدلا من ذلك الوجه؛ كأن تكون الرعية ظالمة في نفسها، ويكون حكم الحاكم عاكسا لظلمها من باب التذكير؛ أو كأن يكون ظلم الحاكم تكفيرا لظلمها لنفسها، من باب الجزاء المعجّل؛ إلى غير ذلك من الصور... وهذا لا يعني أن الظلم مطلوب لذاته، كما هو العدل مطلوب؛ لأن القول بذلك يهدم أسس الشريعة وأسس العقل؛ ولكن هو نظر إلى الأمر من وجهيْن متقابليْن، لا بد أن يكون الجمع بينهما زيادة في حكمة الناظر نفسه. وقد جاء صاحب الدعاء بعد الاسم "الملك"، بالاسم "المحب" الذي هو عامّ الحكم، وإن جُهل عمومه بسبب التركيب وعدم المباشرة الذي ذكرناه عنه سابقا. ونعني من هذا، أن حكم المُحبّ مع الموافق واضح لكل أحد، لكنه ملتبس مع المخالف. ونحن كنا قد ذكرنا فيما مرّ، أن معاقبة المخالف، هي من أحكام المُحبّ. وإن كان الأمر هكذا، فلا شك أن العدل والظلم اللذيْن يتصف بهما الحاكم (الملِك)، لا بد أن يكونا من حكم المحب أيضا؛ لكون المحبة أعم في الحكم وأشمل. وأما تقييد السائل اسم المُحب بالعدالة، فهو من موافقة الشريعة؛ وهو جيد. وهذا حتى لا ينخرم الناموس، وحتى لا يعود الناس إلى السفسطة. والمقصود بالحُكم في ختام العبارة، هو الحكم بالشريعة الربانية؛ وإن كان كل حكم داخلا تحته من جهة الباطن. وتفصيل ذلك مما يطول، ومما يخرج عن إدراك جل العقول.

١٢. وهذه هي الدعوة التاسعة عشرة التي أضافها صمويل الأصغر: [لا تكن رجاء للوشاة، بحيث يهلك كل البغاة توا، ويستأصل كل أعدائك ومبغضيك عاجلا، فتقتلع وتحطم وتُعدم وتقهر وتدمر ملك الفساد، عاجلا في أيامنا. مبارك أنت يا رب كاسر الأعداء وقاهر البغاة.]:

ـــ "لا تكن رجاء للوشاة": هذه "البركة" هي التي أراد منها اليهود أن تكون لعنة على المسيحيين، لكونهم –في نظرهم– قد خرجوا عن شريعة موسى؛ والحقيقة هي أن المسيحيّين قد واصلوا الطريق الذي بدأوه مع موسى، مع عيسى؛ عليهما السلام. وهذا هو المطلوب من كل مؤمن عابد لله، غير محجوب عن المعبود بالمُبلِّغ. وإن الناس ينسون كثيرا، أنه لولا الله، ما التفت أحد إلى موسى ولا إلى غيره؛ فلا يلبثون أن يتمسّكوا بالرسول ظاهرا، وكأنه هو الغاية؛ بينما الغاية الله. وهذا كله من ضعف العقول، ومن أثر العادة فيها. و"الوشاة" المذكورون، هم المسيحيون من غير تصريح بالصفة؛ لأن الداعيَ لو صرّح، ما كانت مزاعمه تصدق، ولا كان كل اليهود يصدّقونها. وهذا الصنف من التلبيس معلوم لدى المُضلّين من كل الأصناف وفي كل الأزمنة. ومعنى "لا تكن رجاء"، هو: لا تجعلهم يرجونك، ولا تُجب رجاءهم. وهذا من سوء الأدب مع الله، قبل أن يكون من الظلم لطائفة من الناس؛ لأن الرجاء في الله، لا يتمكن أحد من قطعه عن أحد؛ بالمعنى الشرعي وبالمعنى الحقيقي. وذلك لأن كل عبد، لا بد له من الرجاء في ربه، وإن كان من أكفر الكافرين. وبطون الرجاء في العبد أو خفاؤه عنه وعن غيره، لا يدل حتما على عدم وجوده. وهذا باب من الرحمة الرحمانية، لا يُسدّ أبدا. وكما لا يجوز قطع رجاء المسيحيين من الله، من قِبل اليهود، فكذلك لا يجوز للمسلمين قطع رجاء اليهود والنصارى من الله. ونحن هنا لا نتكلم عن مطابقة حكم الكفر لهم أو عدمها، وإنما كلامنا عن مبدأ قطع الرجاء الذي لا يمكن للعبد الخوض فيه. وهذا يعني أن لله معاملات لكل عباده، لم يُطلع عليها أحدا من عباده الآخرين؛ وإلا لادعى بعضهم العلم بكل وجوه المعاملة التي لله مع عباده، وهذا محال.

ـــ "بحيث يهلك كل البغاة توا": يعني المتكلم بالبغاة، المسيحيين خصوصا؛ لأنهم بغوا في نظره باتباع المسيح عليه السلام؛ وهم في الحقيقة ازدادوا هدى، ولكن هذا هو شأن المحجوبين دائما. وقد حدث الشيء نفسه مع النصارى عند بعثة محمد

صلى الله عليه وآله وسلّم. ولو أن الناظر يتأمل كيف لا يؤمن متّبع الرسول السابق بالرسول اللاحق، في الوقت الذي يكون الإيمان بالسابق لدى المؤمن باللاحق أمرا حتميا، لانكشفت له الصورة على حقيقتها؛ ولعلم أن الانحجاب هو من جهة المؤمن من الناس، لا من جهة المظهر الإلهي. ومن علم هذا، علم بالتبع، أن الكافر إنما يأتيه كفره من نفسه، لا من علّة خارجية؛ وهو معنى قول الله تعالى: {وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} [النساء: ٧٩]. وطلب الهلاك للبغاة، المتجاوزين للحدود، هو طلب نسبيّ، يتعلّق بالصنف الداعي والصنف المدعوّ عليه؛ لأن كل طائفة ترى نفسها على الحق، وترى مخالفيها على الباطل. وهذا هو ما يجعل الاختلاف في الدنيا لا يرتفع، ويجعل الناس ينتظرون حكم الله يوم القيامة في اختلافهم. وهو ما يُشير إليه من جهةٍ قول الله تعالى: {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} [هود: ١١٨، ١١٩]، ومن الجهة الأخرى قوله سبحانه: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [السجدة: ٢٥]. وكون الفصل في الاختلاف مُرجَأً إلى يوم القيامة، لا يعني أن الله لم يُبيّنه في كتابه، ليعلمه الناس هنا؛ كما أخبر سبحانه: {فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} [البقرة: ٢١٣]؛ وهذا يعني أن تبيّن الأحكام من الكتاب، على الوجه الصحيح، هو مخصوص بالصفوة. ولذلك يختم الله الآية بقوله: {فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: ٢١٣]. والهداية هنا، المقصود منها الهداية الخاصة بعد الهداية العامة. ولهذا نجد كثيرا من المسلمين من أصحاب الهداية العامة، لا يظفرون بما يرفع الخلاف بين المختلفين؛ بل إنهم يكونون من أهل الاختلاف هم أيضا. وإنّ طلب الهلاك للمخالف توّا، يظهر مدى الكراهية له، ومدى الضيق منه. وهذا كله دليل البعد عن الله، لا غير ذلك؛ مما يتوهمه أهل الدين من خصوصية لهم عند الله من دون سواهم. ولو تنبه اليهود إلى ما يُعاملون به غيرهم، لتفطّنوا إلى أصل ما يُعاملهم غيرهم به؛ لأن الناس في النهاية، وإن كانوا يختلفون في النسبة الدينية، لا يختلفون في النسبة إلى الله؛ وهذا مما ينبغي أن يُميَّز لدى اليهود ولدى غيرهم. ونقصد المسلمين قبل غيرهم؛ لأن الحكم على الغير من مُنطلق النفس، لا يُمكن أن يُطمأنّ إليه؛ مهما بلغت درجة وثوق المرء من نفسه. وأما غير هؤلاء ممن يقومون بربهم في الأمور (الربانيون)، فإننا نجدهم من أوسع الناس عَطَنا على الدوام.

ـــ "ويستأصل كل أعدائك ومبغضيك عاجلا": إن من توهُّمات أهل الدين الكثيرة، أن يتوحّد في نظرهم ما هو من معاملتهم بما هو من معاملة الله؛ فيرون أعداءهم أعداء لله، وأولياءهم أولياء لله. والحقيقة هي أن العبد ينبغي عليه أن يتأكد هو أولا من نفسه: هل هو حقيقة ولي لله، أم هو من الأعداء؛ أو على الأقل: هل هو ممن ينبغي لهم عدم الخوض في مثل هذه المسائل. وهذا يقتضي الحكم على النفس في الحال وفي المآل، ما دام الإنسان لا يملك من أمر نفسه شيئا في الحقيقة. وإلى هذا المعنى الإشارة بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا؛ وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا.»[1]. وإن مَن يسأل الله أن يُعجّل بهلاك أعدائه، ما الذي سيكون موقفه لو أنه استُجيب لأحدهم فيه قبل أن يتوب؟!... فعلى الداعي أن يُمهِل من يراه هو عدوّا، كما يُحبّ أن يُمهَل هو لو كان في محلّه. وهذا الصنف من الإنصاف، من أعسر الأشياء على النفوس؛ ولا يتصف به من جهة الباطن إلا قلة من الناس؛ أما من جهة الظاهر فلا وجود له في صورة تمامه وعلى الدوام. وقد نبّه الله إلى هذا المعنى في قوله تعالى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ

---

[1] . متفق عليه، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ظَالِمُونَ} [آل عمران: ١٢٨]، وفي قوله أيضا: {لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [الأحزاب: ٢٤]. ومما ذكره المفسرون في نزول قول الله تعالى:{لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ...}، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال يوم أحد بعد كسر رباعيته وشجّ وجهه الشريف: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ صَنَعُوا بِنَبِيِّهِمْ هَذَا!»، فأنزل الله الآية. وهذا يعني أن حُكم العباد، هو على الله لا على أحد من العباد. وأما من استشكل هذا، مع دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم على بعض العباد كعتبة بن أبي وقاص في يوم أحد ذاته، حين قال عليه السلام: «اللَّهُمَّ لا تُحِلْ عَلَيْهِ الحَوْلَ حتى يَمُوتَ كافِرًا!»، فلم يحل عليه الحول حتى مات كافرا؛ فليعلم أن ذلك من تجلّيات باطن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بحسب الأسماء، وليعلم أن الحكم بقول واحد، وتعميمه على جميع شؤون النبي صلى الله عليه وآله وسلم، هو من الجهل بما ذكرنا. بل إن القرآن الكريم، إن لم يُفهم بحسب ما يُعطيه باطن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بخصوص كل آية، فإن الفهم فيه يكون إما قاصرا وإما خاطئا. ومن لم يعلم تلون القرآن بحسب تلوُّن باطن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فإنه لا يُعد من أهل القرآن حقيقة. وهذا الباب من علم القرآن عجيب ومتقلّب، لا يكاد يثبت على حال. ولولا أن جل العقول المؤمنة تضيق عنه، لكشفنا بعضا منه، تشويقا لا تعريفا. وعلى كل حال، فإن العبد إن لم يتحقق فناؤه في ربه، فالأسلم له أن ينأى عن الدعاء على الناس، أو مجرد الحكم عليهم. وإن أهل الدين في مُعظمهم، يقعون في هذه الآفة، إلا من كان متأدبا بإمام ربانيّ. وعلى هذا، فإن دعاء عوام المسلمين جماعات وفُرادى على اليهود والنصارى في زماننا والذي قبله، بالهلاك، هو من الجهل بالله قبل الدين. وأما من يخطر في باله: فلمَ أَذِن الله بقتال الكافرين، إن كان الدعاء عليهم لا يصح؟ فإننا نجيبه: إن قتال الكفّار ليس بحسب ما يراه المسلمون بهواهم؛ بل لا بد أن يكون عن أمر إمام رباني في الوقت، كخليفة المسلمين بمعنى الخلافة الجامع، لا بمعنى السلطان وحده؛ أو أن يكون المسلمون ممن وقع عليهم الظلم والعدوان البيّن من أهل الكفر. وفي هذه الصورة يتصرفون بالإذن العام، من غير إمام رباني؛ عملا بقوله تعالى: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} [البقرة: ١٩٤]. وحتى هذا قيّده الله بما جاء بعده: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [البقرة: ١٩٤]. وذلك لأن من أعمال الكفار في الحرب، ما ينبغي على المسلمين التنزُّه عنه، كالإجهاز على الضعفاء ومن ألقى السلاح؛ أو كالتمثيل بالجثث وتعذيب الأحياء. وذلك لأن من عرف قدر الإنسان عند ربّه، لم يتجاوز في وقت الحرب إحسان القتل والمعاملة اللائقة. ومن لم يعلم مناطات الأحكام الشرعية من الحقائق، فلا أقل من أن يُلجم لسانه عن القول في الدين بغير علم. وأما حكم الخليفة الرباني بالإقدام على القتال أو بالإحجام عنه، فهو خاص به؛ لأن الله هو الحاكم والمتصرف في مظهره. وليس لأحد غيره زعْم ذلك لنفسه، كما كنا نرى ذلك من زعماء الجماعات الإسلامية الذين لم يكونوا يُجاوزون في مرتبتهم أحيانا، ما يكون عليه سفهاء المسلمين.

ـ "فتقتلع وتحطم وتُعدم وتقهر وتدمر ملك الفساد، عاجلا في أيامنا": وهذا يلحق في الحكم بما ذكرناه في القول السابق، فلا داعي إلى التكرار.

ـ "مبارك أنت يا رب كاسر الأعداء وقاهر البغاة.": نعم، إن مما يُشكر الله عليه كسره للأعداء ودفعه البغاة؛ لكن هذا لا يُعتبر في ميزان العبد، حتى يكون هو أولا ممن يخرج عن وصف العداء لله ورسوله؛ وإلا فإن نصر الله له، لا يكون دليلا على الكرامة؛ وإنما هو من المكر والاستدراج في حقه؛ أو هو من العقوبة في حق الأعداء إن كانوا مؤمنين. وأما إن كانت العداوة فيما بين الكفار بعضهم لبعض، فلا خلاف في ذلك من استواء الحال بين المنتصر والمهزوم، إلا مما هو من عاجل الدنيا، وهو لا اعتبار له. وحتى نزيد الأمر إيضاحا، فيما يعود إلى هزيمة المسلمين على أيدي الكافرين، فإننا نذكر هنا تفسيرا للشيخ الأكبر رضي الله عنه، بخصوص قول الله تعالى: {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [الروم: ٤٧]، حيث

ينبه إلى أن الله لم يُقيّد الإيمان في الآية، بل أطلقه. وبما أن الكفّار على إيمان يخصّهم، وإن لم يكن من الوجه المشروع، فإنهم إن فاق إيمانهم بما يؤمنون إيمان المؤمنين بالله، فإن النصر يكون حليفهم. وهذا الحكم هو للأسماء، كما قد يتفطن إليه من ألف كلامنا؛ لأن الأسماء لا تعمل في المظاهر بأحكام الشريعة، كما قد يتوهم الجاهلون؛ فهي غير مكلّفة بالمعنى المعروف للعباد؛ وإنما هي تُجيب من يدعوها بالحال قبل المقال. وأما حكم الشريعة، فهو الميزان الذي ينبغي للعبد أن يسوس به نفسه في الدنيا؛ وهو الميزان الذي ستوزن به أعمال العباد حسّا في الآخرة. وعلى الناس أن يُفرّقوا بين الميزان والأشياء الموزونة هنا وهناك؛ وعليهم أن يعلموا أن التكليف تابع للعبودية وحدها. نقول هذا، لأن بعض الجهلة، ذهب بهم الجهل إلى أن يروا أن مثوبة الله للمحسن وعقوبته للمسيء هي مما يجب عليه سبحانه. وهذا لا يصح البتة!... ولو تفطنوا، لوجدوا أنهم أدخلوا الله في معنى التكليف، من غير أن يعلموا؛ وهو القائل سبحانه: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: ٢٣]. لذلك فإن الله لو شاء أن يُعذب محسنا، أو أن يُثيب مسيئا، لفعل؛ وهو إن لم يفعل سبحانه، فمن باب الفضل لا من باب الوجوب. تعالى الله أن يجب عليه إلا ما أوجب هو على نفسه!... وعلى هذا النحو ينبغي فهم كل ما يتعلّق بالله، مما هو قريب من معنى الوجوب؛ كقوله تعالى: {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [الروم: ٤٧]، أو قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟، قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ! قَالَ: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ؟ قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ! قَالَ: أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ.»[١].

١٣. [لترفرف يا رب مراحمك يا رب يا إلهنا على الصالحين والأتقياء، وعلى بقية شعبك آل إسرائيل، وعلى شيوخهم، وعلى الناجين من عشيرة كَتَبَتهم، وعلى دخلاء الصدق وعلينا. وأعط أجرا حسنا لكل المتكلين على اسمك بالحق، واجعل نصيبنا معهم فلا نخزى إلى الأبد، لأننا بك وثقنا، وعلى فضلك العظيم بالحق اعتمدنا. مبارك أنت يا رب يا سند الصالحين ومعتَمَدهم.]:

ــ "لترفرف يا رب مراحمك يا رب يا إلهنا على الصالحين والأتقياء": هذا الدعاء في مقابل الدعاء السابق بالهلاك، وهو من التقابل الذي تُعطيه الأسماء. ويظهر أن الأصل في هذه "البركات" اقتصارها على الدعاء للصالحين، دون الدعاء على الأعداء. وقد كان هذا أليق بما كان عليه الموسويّون من هداية في بداية أمرهم، وقبل أن يحق عليهم حكم الله بالكفر بعد بعثة عيسى عليه السلام. ومعنى رفرفة المراحم، شمولها لمن تحتها، حتى لا تترك لأسماء الجلال مطلبا فيهم. ومن هذا الباب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: ...»[٢]؛ فمعنى الظل هنا الحماية والوقاية. ونسبته إلى الاسم "الله" هي لتكون له الإحاطة، حتى يغلب طلب كل اسم دونه. وأما المعنى المقصود من الصالحين، فمنه عام وخاص وأخص: فالعام، هو ما يشمل كل مخلوق من المخلوقات، بغض النظر عن حكم الشرع فيه. وذلك لأن كل مخلوق هو صالح لما خلقه الله له، وإن كان الشيطان ذاته. ومن هذا الباب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ.»[٣]. وأما المعنى الخاص، فهو ما يتعلّق بأهل الإيمان الذين صلحوا للدين؛ ليخرج منه أهل الكفر والطغيان. ومن هذا المعنى قول الله تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ

---

[١] . متفق عليه.

[٢] . متفق عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ والحديث بتمامه هو: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ.»

[٣] . متفق عليه، عن علي بن أبي طالب عليه السلام.

اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران: ١١٣، ١١٤]؛ وهذا الحكم خاص بأوان شرائعهم حصرا. وأما الأخص، فهو للربانيين الذين صلحوا للحق، وهم الأنبياء والأولياء. ومن هذا المعنى قول الله تعالى عن إبراهيم: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [البقرة: ١٣٠]، وقوله عن يحيى عليه السلام: {أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران: ٣٩]، وقوله سبحانه عن عيسى عليه السلام: {وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران: ٤٦]. وأما معنى التقوى، فهو أيضا عام وخاص وأخص: فالعام ما كان العبد متقيا به العدم؛ وهو الله من حيث هو وجود سبحانه؛ وهذا يشمل جميع المخلوقات. والخاص، وهو من اتقاء العبد غضب ربه وناره؛ ومنه قول الله تعالى: {قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى} [النساء: ٧٧]. والأخص، وهو خاص بالربانيين أصحاب المواجهة من الأنبياء والأولياء؛ من كون صورهم وقاية لله. ومن هذا الباب قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس: ٦٢، ٦٣]. وإن حمل العلماء معنى التقوى في هذه الآية، على المعنى اللائق بعوام المؤمنين، قد حجب مُعظمهم عن معنى الولاية الخاصة. فليتهم يعتبرون بما نذكره هنا، ليخرجوا من الضيق إلى السعة. هذا وإن هذه المعاني التي نفسّر بها عبارات بني إسرائيل، لم تكتمل إلا مع محمد صلى الله عليه وآله وسلم، كما أخبر بذلك ربه سبحانه في قوله: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣]. ومعناه: اليوم أكملت لكم دينكم ببعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأتممت عليكم نعمتي بإتمام شريعته، ورضيت لكم الإسلام عند اكتمال صورته في هذه الصورة البالغة منتهى الجمال والكمال. وإن هذه المعاني، لم تُكشف إلا لمن كان محمدي الاستمداد، من نبي سابق، أو ولي من هذه الأمة. ومن شاء أن يتثبت، فلينظر إلى كلام غيرنا من الأمم عن الله، ليعلم مقدار الفرق. فلله الحمد والمنّة أن جعلنا من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ وكفى بها نعمة!...

ـ "وعلى بقية شعبك آل إسرائيل، وعلى شيوخهم، وعلى الناجين من عشيرة كَتَبَتهم، وعلى دخلاء الصدق وعلينا": وهذا الدعاء خاص، كما يظهر من لفظه؛ ولا شك أنه قد أصاب من كان من أهل الحق من الموسويين في السابق، فضلا عن آبائهم من الإبراهيميين، ومن سبقهم من الآدميّين. ونعني من هذا، أن فضل الله لم يكن محجورا قبل موسى، حتى يُقال بحجره بعده عليه السلام؟! يقول الله تعالى: {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الجمعة: ٤]. والمشيئة كما نقول دائما، هي مطلقة؛ ومعنى "الفضل العظيم": أي الذي يتعاظم على الحصر والقصر.

ـ "وأعط أجرا حسنا لكل المتكلين على اسمك بالحق، واجعل نصيبنا معهم فلا نخزى إلى الأبد": جيد أن يجعل المتكلّم هنا الاتكال على الاسم؛ لأن حمل المعنى على الذات، لا يصح؛ كما أشرنا مرارا. والاسم الخاص بالتوكل هو "الوكيل"، وإن كان لكل مظهر من مظاهر الأسماء الأخرى معنى خاصا به من معاني التوكل. ومعنى "بالحق"، أي صدقا وحقا؛ لا زعما وتوهما، كما يكون ذلك لكثير من عوام المؤمنين. ولسنا بمعرض الكلام عن المقامات والأحوال، حتى نفصّل الكلام في التوكل هنا. وآخر العبارة من أحسن ما يُقال في الدعاء، من التخصيص بعد التعميم؛ لأنه بمنزلة التشفُّع بكل من سبق ذكرهم. وهو من خصال المتواضعين لله، من خواص المؤمنين.

ـ "لأننا بك وثقنا، وعلى فضلك العظيم بالحق اعتمدنا": ما أحسن أن يدعو العبد ربّه، ويكون موقنا بالإجابة. وقد أشار إلى هذا الأدب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند تعليمنا سيّد الاستغفار، بقوله: «وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا

بِهَا» وقوله: «وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا»[1]. ومعنى الإيقان هنا، هو أن يكون العبد عند دعائه ناظرا إلى الله، لا إلى نفسه. ومن كان نظره إلى الله، فإنه من تعظيمه له سبحانه، يرى إجابة الدعاء؛ بخلاف من كان نظره إلى نفسه، فإنه في أحيان كثيرة يراها لا تستحق الإجابة، فيُحرم بذلك منها. وهذا الذي نقوله هنا، يدخل في باب نفع الإنسان لنفسه وضرره لها، كما نبهنا إلى ذلك عند ذكرنا لقول الله تعالى: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} [النساء: ٧٩]. وأما قولنا بنسبة النفع للنفس، فإنه لا يخرج عن نسبته إلى الله في الآية: من جهة لأن النفس عينها من الله؛ ومن جهة أخرى، لأن خير النفس لا يظهر إلا بإظهار الله. نقول هذا، حتى لا ينحجب العبد بظاهر اللفظ، عما نقصده من المعنى. وقول الداعي بعد ذلك "وعلى فضلك العظيم بالحق اعتمدنا"، هو من أحسن عبارات التوسل والدعاء. وذلك ليخرج العبد بنفسه من الدعوى والقول بالاستحقاق. وهذا لا يكون إلا للعلماء بالله، العلماء بالنفس. ومن نظر إلى خواص العباد من الأنبياء والورثة، فإنه يجدهم دائما يعتمدون على فضل الله، مبدأً ومعاداً؛ لأنه بفضل الله برزت المخلوقات إلى الوجود، قبل أن يُنسب إليها شيء من الصفات والأفعال؛ بل وبفضله سبحانه، نُسب إليها ما نُسب في حضرة الثبوت وقبل أن يتعلّق بها العلم. وقولنا: قبل أن يتعلق بها العلم، هو من جهة المرتبة لا من جهة الزمان، بما أنه لا زمان هناك. ومن أجل الدلالة على ما ذكرنا من أدب موافق للعلم، جاء قول الله تعالى: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [يونس: ٥٨]؛ والمعنى هو: فرح العباد بفضل الله السابق، وبرحمته الغامرة، هو خير من فرحهم بما يرونه من نسبة الفضائل إلى أنفسهم؛ سواء أكان ذلك بالحق أم بالباطل؛ لأن العلم يُعطي أن لا شيء من الحسنات كان ليظهر لولا أن الله أظهره؛ ولا شيء من ذلك كان ليُنسب إلى النفس، لولا أن الله نسبه إليها. وهذا الذي نقوله هنا، لا يتعارض مع نسبة السيئات إلى النفس؛ لأن النسبة تصح من جهة العدم، والعدم يعود إلى الحقيقة كما هو الوجود عائد. وهذا المستوى، مما لا إذن للعقول بالدخول فيه؛ ونحن إنما نقوله من باب التشويق فحسب، كما هو دأبنا. نرجو بذلك الجزاء من الله على دلالتنا، فإنه المفضل المنعم سبحانه وحده. ولقد حذّر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الاعتداد بالعمل الصالح، وعلّمنا أن نعتمد على فضل الله ورحمته؛ فقال: «لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ؛ قَالَ رَجُلٌ: وَلَا إِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "وَلَا إِيَّايَ؛ إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ؛ وَلَكِنْ سَدِّدُوا!»[2]؛ والمقصود من "سددوا" عدم ترك العمل عند عدم الاعتماد عليه. هذا وينبغي أن لا يُقاس حال النبي صلى الله عليه وآله وسلم، على ما يعلمه الناس من أنفسهم؛ لأننا نرى كثيرين قد ضلّوا بمثل هذه الأحاديث، وانحجبوا عن خصوصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي هي ربانيته الكبرى. وأدب النبي مع ربه، هو من خاص علمه، الذي ينبغي أن لا يحجبنا نحن عن الأدب معه صلى الله عليه وآله وسلم. نسأل الله العفو والعافية، لنا ولجميع إخواننا.

ـــ "مبارك أنت يا رب يا سند الصالحين ومعتَمَدهم": إن تخصيص "الرب" بكونه سندا للصالحين ومُعتمدهم، لا يعني أنه سبحانه ليس سندا لغيرهم ممن هم على صفة غير صفتهم؛ وإنما يعني أن الثناء عليه سبحانه، يكون بنسبة ما يليق إليه، لا بنسبة ما لا يليق. وهذا يدخل ضمن علم الأدب، الذي هو باب خاص في العلم.

[1] . أخرجه البخاري، عن شداد بن أوس رضي الله عنه؛ والحديث بتمامه هو: «سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ؛ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ؛ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ؛ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. قَالَ: وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ.».

[2] . متفق عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

١٤. [اسكن في وسط أورشليم مدينتك، حسب ما قلت، وثبت فيها كرسي عبدك داود عاجلا، وابنها سريعا في أيامنا بناء أبديا، مبارك أنت يا رب، باني أورشليم.]:

_ "اسكن في وسط أورشليم مدينتك": وإن معنى هذا القول، لا يصح إلا من جهة المظهر؛ وكأن القائل يقول: اجعل مظهرك يسكن بيننا في مدينتك المقدسة "أورشليم". وهذا لا يتحقق إلا في زمن نبي من الأنبياء الإسرائيليين عليهم السلام. وأما إن سأل سائل: فلم لا يكون ذلك لأحد من الورثة، كما هو الحال مع أمتنا؟ فإننا نجيب: إن مظهرية الاسم الله، التي هي معنى القطبية عندنا، لم تكن في الأمم السابقة إلا للأنبياء عليهم السلام؛ ولم تنل غيرهم ممن ليسوا بأنبياء، إلا في هذه الأمة، وإكراما لنبيّها عليه السلام وحده؛ حتى يكون لورثته من الفضل ما كان حكرا على الأنبياء السابقين وحدهم. ولو علم الناس ما في هذا التكريم من تشريف، لدهشت عقولهم وكلّت ألسنتهم. ونحن هنا إنما نشير إلى مبدأ هذا العلم، لا إلى منتهاه. وإن سؤال السائل أن يسكن المظهر الإلهي بينهم، لا شك هو من أثر العلم بمرتبته؛ لأنه لا يعلم هذه المرتبة إلا الخواص. ومن علم ما ندل عليه، فإنه سيعلم معنى أن يكون الله جارا؛ كما في معنى الحديث من جهة باطنه: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ!...»[1].

_ "حسب ما قلت": أي حسب وعدك؛ وهذا وعد خاص ببني إسرائيل. وأما اليوم، فإن "الله" يسكن من جهة النِّسبة في مكة؛ وإن كان القطب يوجد في أي مكان من الأرض. ولسنا نعني بالنسبة إلا نسبة المرتبة، لا نسبة شخص القطب، التي يكون من جهتها كسائر الناس.

_ "وثبت فيها كرسي عبدك داود عاجلا": والمقصود من كرسيّ داود عليه السلام، كرسي الوراثة بالخلافة، كما كانت لسليمان ابنه من بعده عليه السلام، وكانت للأنبياء من بعد سليمان، من جهة الغيب. ومعنى التثبيت هنا، هو الإبقاء على هذه المرتبة من الوراثة الموسوية، ضمن سكان بيت المقدس وأهله. وأما التعجيل بذلك، فلا محل له؛ إلا إن كان السائل يجهل نبي زمانه؛ أو كان من زمن غير زمان الوراثة الموسوية، بعد مجيء عيسى عليه السلام؛ وهو ما يسري على من جاء بعد البعثة المحمدية أيضا، إلى قيام الساعة.

_ "وابنها سريعا في أيامنا بناء أبديا": والمقصود هنا على عادة بني إسرائيل، بناء "أورشليم". وأما سؤالهم أن يكون البناء أبديا، فلا معنى له؛ إلا أنهم يجهلون معنى الأبد، ويجهلون الآخرة. ونعني من جهل الآخرة، الجهل بكونها دارا أخرى غير الدنيا. ونحن نقول هذا، لأن اليهود بحسب مرتبتهم الأصلية (الأولى من الدين والمرحلة الأولى له)، لم يكونوا يعون معنى الآخرة كما يعيه المسلمون (المرحلة الختامية للدين)؛ بل كانوا يفهمون أن الله يُحيي الموتى (يوقظهم) ويُعيدهم للحياة في الأرض المقدسة إلى الأبد. وهذا تصوّر بدائي للآخرة، ما زال ماثلا في أذهان اليهود إلى يومنا هذا. وهو من الأسس التي أقام عليها اليهود دولتهم، السائرة بحسبهم نحو طور الكمال، الذي هو الجنة. وإن من دلالات هذا المعنى لديهم، سؤال الله أن يبني أورشليم بناء أبديا؛ وإن كانوا -كما أشرنا- يجهلون معنى الأبد. ولو أنهم كانوا يعلمونه، لعلموا تبعا له، أن الأكوان الآن، وعلى ما هي عليه في الدنيا، لا تصمد إلا لزمن محدود، وإن تطاول بحسب الاعتبار. وما تغيُّر الأبنية واندثارها، إلا دليل على المعنى القاضي بفناء الدنيا بأسرها، لو أنهم كانوا يتنبّهون؛ ولكن يبدو أن عقولهم الدينية عجزت عن إدراك ما بلغه العقل الفلسفي، عندما وصف الدنيا بـ "عالم الكون والفساد"؛ وإن كان العقل الفلسفي أيضا، لا

---

[1] . متفق عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ والحديث بتمامه هو: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ؛ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ؛ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ.»

يتمكن من إدراك وجود الآخرة، وإنما هو يرى دنيا متطورة إلى ما لا نهاية له في الزمن. وهذا كله، يجعل العقل المسلم، يُرتَّب في أعلى المراتب، بهذا الاعتبار وحده؛ فما الظن، بما هو فوق ذلك من العلم بالله والعلم بالآخرة!...

ـــ "مبارك أنت يا رب، باني أورشليم": ومما سبق أن بيّنّاه آنفا، من معتقد اليهود في الآخرة، يظهر لنا أن هذا الاسم "باني أورشليم"، هو من الأسماء الخاصة المعقولة لهم. وهو لا يختلف عندنا عن الأسماء التخصيصية، كقولنا مُنبت الشجرة، ومُرسل الريح، وغيرهما؛ عند اعتبار شجرة بعينها وريح بعينها. وهذا الذي ندل عليه هنا، هو معنى عدم انتهاء الأسماء الإلهية إلى عدد محدود. وهو لا يكون إلا باعتبار التجليّات الشخصية، المندرجة تحت المعاني العامة التي تكون للأسماء في المعتاد من جهة الجنس. وهذا الذي نقوله، لا ينفي أن تكون لله أسماء غير داخلة في العلم. ونعني بالعلم هنا العلم القديم، من كونه غير محيط بالذات؛ كما نعني به العلم الحادث الذي لا يتعلّق إلا بما يُفاض عليه من القديم نفسه. وعدم انحصار الأسماء في العلم وفي العدد، هو ما يشير إليه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «...أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ...»[1]. وهذا يعني أن الأسماء تنقسم إلى قسميْن: قسم تجلى الله به؛ وهو ينقسم إلى ما سمى الله به نفسه، وما علمه لأحد من خلقه، وما أنزله في كتابه؛ وقسم لم يتجل الله به، وهو ينقسم إلى ما سيتجلى الله به في الآخرة، وإلى ما يستأثر الله به في غيب ذاته أبد الآباد. وهذا باب من علم الأسماء، يفتح مغاليق من العلوم التي لا علم لأحد بها من غير المصطفيْن من أنبياء وأولياء؛ أو لا علم لأحد بها إلا من جهة إجمالها والعلم بوجودها؛ لا من جهة العلم بها. وهذا كله يُبرز قلة ما يناله العلماء بالله إن علموا؛ فما الظن بغيرهم!... وهو معنى قول الله تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٨٥].

١٥. [اجعل ذرية عبدك داود تنبت عاجلا، وارفع قرنه بفرجك، لأننا نؤمل في فرجك كل يوم. مبارك أنت يا رب، منبت قرن النجاة.]:

ـــ "اجعل ذرية عبدك داود تنبت عاجلا": يعتقد اليهود أن كل الشرف محصور في ذريّة داود عليه السلام؛ وهذا هو السبب الرئيس في عدم إيمانهم بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم. واعتقادهم هذا، هو من ضيق علمهم بالله، لأنهم لو علموا شيئا مما يعلمه خواص هذه الأمة، لتجنّبوا أن يتألّوْا على الله بشيء لم يقله سبحانه عن نفسه في كلامه، أو على ألسنة أنبيائه. ورغم أن هذا الذي يقولونه، هو مثلبة لهم، إلا أن الشيطان يزيّنه لهم بنسبته إلى داود عليه السلام، من باب الوفاء له ومن باب التعظيم. وهذا من سبل إضلاله، لكل من يضل وهو يزعم أنه معظم لنبي أو لوارث؛ كما يحدث مع النصارى عند تعظيمهم لعيسى عليه السلام، أو مع الشيعة عند تعظيمهم لعلي عليه السلام، أو لأهل السنة المتجاوزين عند تعظيمهم لأبي بكر وعمر عليهما السلام.

ـــ "وارفع قرنه بفرَجك": والمعنى بسط المُلك الإسرائيلي بين الناس، بفرج من عند الله، يوسّع دائرته، ويُكثّر منتسبيه. ونحن نؤكد هنا على أن المملكة الداودية، التي كانت استمرارا للدعوة الموسوية، لم يكن لها لتتوقّف إلا عند خاتم النبيين والمرسلين، محمد صلى الله عليه وآله وسلم. والجهل بمعنى ختمية النبوة، هو كجهل بني إسرائيل بمعنى الأبدية، مع كونهم عالمين بمعنى الزمن من جهة التقييد. بل إن هذا من ذاك، وإن لم يعلم كل الناس الرابط بين المعنييْن.

---

[1] . أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم في المستدرك، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ والحديث بتمامه هو: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ؛ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ؛ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ؛ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ؛ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ؛ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي؛ إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا. قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا.»

ـ "لأننا نؤمّل في فرجك كل يوم": يقصد السائل أنه يؤمّل استجابة دعائه، كما يؤمل فرج الله في الأمور اليومية، التي هي أقرب إلى الإدراك. وهذا يُشبه المعنى الذي دل عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: «لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا حَتَّى يَسْأَلَ شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ»[1]؛ وهذا لأن الله يستوي عنده عظيم الأفعال مع صغيرها، بحسب ما يرى العباد. يقول الله تعالى: {قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ} [مريم: ٩].

ـ "مبارك أنت يا رب، منبت قرن النجاة": وهذا من معاني الثناء الخاص لدى بني إسرائيل، الذي نقرّهم عليه بحسب ما يُعطيه اللفظ من معنى، لا على ما يفهمون هم منه.

١٦. [اسمع صوتنا يا رب يا إلهنا الأب الرحمن، أشفق علينا وارأف بنا، واقبل صلاتنا برحمة ورضوان، لأنك رب سميع للصلوات والدعوات، ولا تردنا عن وجهك يا ملكنا خائبين. تحنن علينا، واستجب لنا، واسمع صلاتنا، لأنك أنت تسمع صلاة كل فم. مبارك أنت يا رب يا سامع الصلاة.] وفي يوم الصيام يُقال: [استجب لنا يا أبانا، استجب لنا في يوم صوم هذا الصيام، لأننا في كرب عظيم. لا تلتفت إلى شرنا، ولا تتوار يا ملكنا من دعائنا. كن قريبا لصراخنا، بل استجب لنا قبل أن نصرخ إليك. نتكلم وأنت تسمع، كالكلام الذي قيل: "ويكون أنني قبل أن يدعوا أجيب، وفيما هم بعد يتكلمون أنا أسمع."(إشعيا: ٥٦: ٢٤). لأنك أنت يا رب فاد ومخلّص، ومجيب وراحم، في كل وقت كرب وضيق.] ويقرأ الحزان[2] وحده: [مبارك أنت يا رب المستجيب لشعبه إسرائيل في وقت الكرب.]:

ـ "اسمع صوتنا يا رب يا إلهنا الأب الرحمن": أي اسمع صوت دعائنا واقبله؛ يارب يا إلهنا الأب الرحمن: يامن يربينا بما يصلحنا، ومن يعاملنا برحمته الواسعة. غير أن تخصيص الاسم الرحمن، لا يُستثنى معه العذاب؛ لكون العذاب من مشمولات الرحمة الرحمنية؛ ولعل الترجمة لم تنقل المعنى الدقيق للاسم المدعو. وذلك لأن داعي الرحمن، لا يدعو بالرحمة الخالصة. ولعل كل ما أصاب اليهود من آلام عبر مراحلهم التاريخية، كان -بالإضافة إلى عصيانهم- من عدم إحسانهم الدعاء. ونعني من هذا أن كل ما أصابهم من مشاق، هو من آثار الاسم "الرحمن".

ـ "أشفق علينا وارأف بنا": وهذا أيضا من الدعاء بالرحمة مع تخصيص معنيَيْ الإشفاق والرأفة، وهما أخص مما سبق.

ـ "واقبل صلاتنا برحمة ورضوان": ويدعو الداعي هنا بقبول الصلاة، برحمة ورضوان؛ ويعني أن يكون القبول بالفضل وأن يُعقب بالرضوان. وينبغي هنا أن نميّز بين الدعاء في زمن الشريعة الموسوية، والدعاء بعده (زمن الشريعة العيسوية ثم المحمدية). فأما الدعاء في زمن الشريعة الموسويّة، فإنه يكون مظنةً للقبول؛ لأن بني إسرائيل كانوا على الحق وحدهم، بين أقوام وثنيّين ومشركين. وأما إن كان الدعاء منهم بعد انقضاء الزمن الموسوي، فإنه يكون غير معتبر من الله. ونخص ما يتعلّق بقبول العبادات التي من ضمنها الصلاة، لا كل قبول. ونعني أن الله قد يستجيب للكافر -مثلا- عند دعائه بالشفاء إذا كان مريضا، أو بالاغتناء إذا كان فقيرا... لكن العبادة أمرها منوط بالإذن الرباني في التشريع؛ وما لا إذن فيه لا قبول له. وأما إن خطر للمرء فلمَ كنا نؤمِّن نحن على بعض الأدعية التي نراها مناسبة من هذه "البركات"، فإننا نقول: إن تأميننا هو خاص بنا، وكأنه دعاء مُنشَأ من قِبلنا، ولا يعني إن تقبّله الله منّا أنه سيتقبّله مِن كل سائلٍ به. فمثل هذا، لا ينبغي أن يغيب عن عقل المؤمن الفاقِه لدينه.

ـ "لأنك رب سميع للصلوات والدعوات": وهذا من باب الثناء على الله الذي يعقب دعاء الداعين، وهو كمن يقول: فكما تقبلت يا رب كل الدعوات والصلوات، فتقبل دعاءنا وصلاتنا؛ والمعنى جيد على كل حال.

[1] . أخرجه الترمذي وابن حبان، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

[2] . الحزان: هو إمام صلاة الجماعة في المعبد.

_ "ولا تردنا عن وجهك يا ملكنا خائبين": أي، لا تُخيّب سؤالنا، ولا ترد دعاءنا، بسبب ما اقترفناه من المعاصي والذنوب؛ وهذا لأن المعاصي تحول دون تقبل الدعاء. يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: {يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}، وَقَالَ: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ؛ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ؛ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ!»[1]. وهذا يعني أن العبد إن كان يعلم نفسه على معصية، فليس له أن يدعو وهو مصرّ عليها؛ لأنه يكون بذلك كالمستهزئ بربه. وله -إن كان من المغلوبين على المعصية- أن يدعو بالتوبة، لا غير. وهذا لا يحتاج إلى دليل، لمن كان ذا عقل سليم.

_ "تحنن علينا، واستجب لنا، واسمع صلاتنا، لأنك أنت تسمع صلاة كل فم": دعا الداعي هنا بالتحنن أولا، وهو ما يجعل الله يلتفت إليه؛ ثم دعا باستماع الصلاة، وهو وحده نعمة؛ ثم دعا بعده بالاستجابة وإن خالف الترتيب، لأن الاستجابة تكون بعد الاستماع. وهذا كله، لأن الله قد لا يلتفت إلى العبد بدءاً، أو قد يُعرض عن الاستماع إليه، أو إن استمع سبحانه لا يستجيب له. فهو مختار في أفعاله، يفعل ما يشاء ويختار ما يشاء. وأما العبارة الأخيرة، فهي ثناء على الله، يُرجى منه التوسّل، لعل الله يستجيب. ومعنى استماع الله صلاة كل فم، هو استجابته سبحانه كل دعاء. وهذا من باب التعميم اللائق بالثناء، وإن كانت الاستجابة لا تتحقق لكل دعاء كما أسلفنا، وكما هو مفهوم من معاملة الله للعباد. كل ما تقدّم، هو منوط بدعاء المقال؛ وأما دعاء الحال، فهو مستجاب دائما. وهو سر من أسرار الله المودعة في قلوب عباده.

_ "مبارك أنت يا رب يا سامع الصلاة": وهذا أيضا ثناء، لكن لا بعموم الفعل كما كان الشأن في العبارة السابقة، وإنما بصفة السمع للدعاء؛ وهي أَولى بأن يُتوسّل بها. ولا بد لمن كان يريد متابعتنا في كتاباتنا، أن يتعلّم التفريق بين ما هو فعل لله، وما هو صفة له سبحانه؛ لأنه يترتب على ذلك، التفريقُ في الأحكام المتعلقة بهما. فلا يغفل أحد عن هذا!...

_"استجب لنا يا أبانا، استجب لنا في يوم صوم هذا الصيام، لأننا في كرب عظيم": يُقال هذا الدعاء في يوم الصوم، وهو مناسب لما يكون عليه الصائم من مشقة. ومن المستحبّ كما لا يخفى دعاء الله بعد أفعال التقرّب كلها؛ كالصلاة والصوم والحج والصدقة وعيادة المريض وغير ذلك... وهذا المعنى هو المُشار إليه في قول الله تعالى: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المجادلة: ١٢]. وأما من يغيب عنه ما ذكرنا، لكون المقصود بالمناجاة هنا الرسول لا الله؛ فإننا نذكّره بكلامنا في الجزء الأول من هذا الكتاب عن الاسم "الله" وعن مظاهره. فإن علم ذلك، فليعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، هو المظهر الأعظم لهذا الاسم؛ وعلى هذا فإن مناجاته (مكالمته في حاجة العبد) هو من أخص الدعاء لله. ومن لم يعلم الدين على ما نذكره، فليعلم أنه من عوام أهله، الذين ينبغي عليهم السكوت حيال المسائل الخاصة منه، كالتوحيد الخاص، وكأحوال القلوب، وغير ذلك...

_ "لا تلتفت إلى شرّنا، ولا تتوار يا ملكنا من دعائنا": هذا الدعاء جيد، لأنه يبدأ بسؤال الله أن لا ينظر إلى شرور السائلين؛ لأنه إن صرف نظره سبحانه عن شرورهم، بعد ذلك يلتفت إلى دعائهم؛ وإلا فإنه لا يستمع إليهم سبحانه. ومعنى الاستماع هنا الإجابة، لا مجرد فعل الاستماع العائد إلى العلم. وهذا مما ينبغي التنبُّه إليه، حتى لا يدخل العبد في الجهل عن طريق تتبع الألفاظ. ولقد تكلمنا مرارا، عن المعاني التي تُعطيها الألفاظ، وعن المعاني التي هي من خارجها.

[1] . أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن أحكم ما ندلّه عليه، فإنه يُرجى له أن يكون من أهل العلم. وأما معنى عبارة "ولا تتوار يا ملكنا من دعائنا"، فهو صحيح، وإن كان اللفظ ركيكا؛ والمقصود منه: "لا تصرف عنا سمعك يا ربنا". وصرف السمع قد يحدث، إذا كان الله لا يريد أن يستجيب للعبد؛ وهو خاص بمن لا يحب الله الاستماع إليهم ممن يكونون من أهل المقت خصوصا. ونعني من هذا كله، أن صرف السمع يكون حكمه متعلّقا بالمصروف عنه، ومن جهته؛ لا من جهة الله تعالى؛ لأنه ما يزال سبحانه سميعا بمعنى الإطلاق. وصرف السمع، هو الوارد في الشرع بلفظ الإعراض؛ كما في قول الله تعالى: {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: ١٠٦]؛ والإعراض من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هنا، هو إعراض من الله؛ فلا داعي إلى تكرار الكلام.

ـ "كن قريبا لصراخنا، بل استجب لنا قبل أن نصرخ إليك": الصراخ، هو رفع الصوت بالدعاء؛ وهو الجأْر. يقول الله تعالى في هذا المعنى: {حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ . لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ} [المؤمنون: ٦٤، ٦٥]. ومعنى ختام العبارة من الدعاء هو: استجب لنا يا ربنا، سواء صرخنا أم لم نصرُخ؛ لأن مقصودنا إجابتك لا دعاؤنا. وهذا معنى جيد، ينبغي أن يتنبه إليه كل داع.

ـ "نتكلم وأنت تسمع، كالكلام الذي قيل: "ويكون أنني قبل أن يدعوا أجيب، وفيما هم بعد يتكلمون أنا أسمع": والمعنى هو: أجب دعاءنا يا رب قبل أن ندعو، واسمعنا قبل أن نتكلم. وهذا يكون للخواص المحبوبين لا لكل المؤمنين. فالعبد المحبوب إليه سبحانه، يُجيبه قبل أن يدعوه؛ وهذا المعنى هو المسارعة في الإجابة. جاء عن السيدة عائشة عليها السلام، أنها قالت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: «مَا أَرَى رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ!»[1]. وهذا منه لكل محبوب حظٌّ على قدر محبوبيته عند الله.

ـ "لأنك أنت يا رب فاد ومخلّص، ومجيب وراحم، في كل وقت كرْب وضيق": يقصد القائل من كلامه، أنه لا يأتي بهذه المعاني التي دعا بها من عند نفسه؛ وإنما هو يوافق ما أنزله الله في وحيه؛ مما وعد به عباده. وكأنه يقول: يا رب، فكما قلت أجيب قبل أن يدعو عبدي، وأسمع قبل أن يتكلم؛ فاسمع لنا وأجبنا. وأما عبارة "لأنك فاد ومخلّص، ..."، فيبدو أنها من أثر عقيدة الفداء التي يقول بها النصارى؛ ولا ندري كيف أُدرجت هنا: أهو من سوء الترجمة، أم غير ذلك!...

١٧. [ارض يا رب إلهنا عن شعبك إسرائيل، وانظر إلى صلاتهم، وأعد العبادة إلى محراب بيتك، واقبل بمحبة ورضوان قرابين إسرائيل وصلاتهم عاجلا. ولتكن عبادة إسرائيل شعبك دائما مرضية.] وفي أوائل الشهور القمرية وفي وسط عيديْ الفصح والمظال يقال: [إلهنا وإله آبائنا، ليصعد ويأت ويصل ويظهر ويُقبل ويُسمع ويُفتقد ويُذكر أمامك ذكرنا، وذكر آبائنا، وذكر أورشليم مدينتك، وذكر المسيح ابن داود عبدك، وذكر كل شعبك آل إسرائيل، للنجاة والخير والعطف والإحسان والرحمة.] وفي أول الشهر: [في يوم مستهل الشهر هذا، في عيد الفصح هذا (أو في عيد المظال هذا)، في يوم المحفل المقدس هذا، لترحمنا فيه وتخلصنا. اذكرنا يا رب إلهنا فيه للخير، وافتقدنا فيه للبركة، وخلّصنا فيه لحياة سعيدة، وحسب الوعد بالفرج والرحمة أشفق علينا، وحن علينا، وارأف بنا، وارحمنا، وخلصنا، لأن أعيننا نحوك، لأنك إله ملك رؤوف رحيم. وأنت بحسب مراحمك الكثيرة تُسرّ بنا وترضى عنا، فترى أعيننا رجوعك إلى صهيون برحمة. مبارك أنت يا رب الذي يعيد سكينته إلى صهيون.]:

ـ "ارض يا رب إلهنا عن شعبك إسرائيل": وسؤال الرضى عن شعب إسرائيل قاطبة، هو سؤال غير منوط بجزاء، كما كانت الأدعية السابقة؛ بل هو دعاء منوط بكرامة العرق وحدها. وأفضل ما يُحمل عليه هذا الدعاء من وجه، هو أن

---

[1] . متفق عليه.

يُراد منه أن يستقيم الإسرائيليون على الشريعة، لينالهم رضى الله. وهذا لأن الله لا يرضى عن قوم، لأنهم من ذرية مخصوصة فحسب. وهذا واضح من وعد الله لإبراهيم أبينا جميعا، عليه السلام، كما أخبر ربنا في كتابه عند قوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة: ١٢٤]؛ أي لا ينال عهدي لك ولذريتك، الظالمين منهم؛ لأن الظلم يُسقط قيمة النَّسَب. ومن هذا الباب كان ينبغي للأشراف من ذرية نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم، أن لا يكونوا على ظلم، حتى يعتبر الله قرابتهم من نبيّه. وإن كان هذا قد يلتبس على أحد مرّ به كلام لنا سابق، عن معرفة قدر العترة من دون نظر إلى أحوالهم، فليعلم أنه لا إشكال!... وذلك لأن النظر من الله هو غير النظر من العباد هنا؛ والله إن حكم على عبد أنه ظالم، فلا بد أن يكون ظالما؛ وأما العباد فقد يحكمون بذلك في حق شخص، عن طريق تقليدهم لغيرهم، وقد يُجارون في ذلك الشائع عنه، أو قد يحكمون بحسب علمهم فيخطئون؛ لأن علم العبد قاصر على كل حال. ونحن عندما طالبنا بإحسان معاملة الذرية النبوية من دون نظر إلى أحوالهم، ففرارا من إقحام الناس فيما يُدخلهم في سوء الأدب مع ربهم أولا، ثم مع نبيّهم صلى الله عليه وآله وسلم ثانيا؛ لا على الإطلاق واستهانة بأمر الله!... فليُفهم هذا عنا!...

ـ "وانظر إلى صلاتهم": ومعناه: اعتبرها عندك؛ لأنه كم من عمل معتبر عند أصحابه، أو عند الناس من بعدهم، وهو غير معتبر عند الله. ولقد وجدنا من أحسن ما قيل في هذا الباب، قول الصوفية (من باب الإشارة) في معنى قول الله تعالى: {وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: ١٠]؛ فقالوا إن كان العمل صالحا وتقبّله الله، فإنه يرفعه من نظر عبده فينساه، وكأنه لم يعمله قط؛ وهذا معلوم من الذوق. فتجد العبد المعظم لربه، لا يرى لنفسه عملا إلا مجازا لا حقيقة؛ وهو إن نسب الناس الأعمال إلى أنفسهم، يتعجّب منهم كما يتعجب من يسمع خبرا يخرج عن المعتاد. وعلى كل حال، فمن لا يجد هذا من نفسه، يصعب عليه أن يُدرك ما نُلقي به إليه.

ـ "وأعد العبادة إلى محراب بيتك": المراد من البيت هنا "الهيكل". وبنو إسرائيل يسألون أن يعود الهيكل كما كان، وأن تملأه العبادة كما كانت؛ لأن هذا علامة لديهم على رضى الله عنهم. وبما أنهم "هداهم الله" يحكمون على الأعمال، من دون النظر إلى شروطها، فإنهم سيبقون منازعين للأمر، فيعملون مختلف أعمالهم، ولا ينالون من عملهم إلا النصب والتعب. وعن أحوال الكتابيين أخبر الله تعالى في قوله: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ . تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً . تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ . لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ . لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ} [الغاشية: ٢ – ٧]. وهذا، لأن العمل ليس مقصودا لذاته، كما قد يتوهم المتوهمون؛ وإنما هو مقصود لسر الأمر فيه. وقد روى القرطبي في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن" عن الحسن (البصري) قال: [لما قدم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الشام أتاه راهب شيخ كبير مُتَقَهِّل، عليه سواد، فلما رآه عمر بكى. فقال له: يا أمير المؤمنين، ما يبكيك؟ قال: هذا المسكين طلب أمراً فلم يصبه، ورجا رجاء فأخطأه؛ وقرأ قول الله عز وجل: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ}. قال الكسائيّ: التقهل: رثاثة الهيئة، ورجل مُتَقَهِّل: يابس الجلد سَيِّءُ الحال، مثل المتقحل.]. وهذا المعنى يؤكده قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حق بعض المسلمين: «رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ!»[1]. وعلم الأعمال من العلم الخاص، الذي لا يؤتيه الله إلا لمن اصطفاه من عباده. وفيه من الأعاجيب ما لا يكادُ يُحصر؛ والنية من فروع هذا العلم، وإن كان المجال لا يتسع لذكرها هنا. ولكن ينبغي على إخواننا اليهود، إن كانوا ناصحين لأنفسهم، أن لا يسعوا إلى تحقيق ما يرونه من جهة

---

[1]. أخرجه ابن ماجة والنسائي في الكبرى، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

نظرهم مقرّبا إلى الله؛ بل عليهم أن يتحرّوا علم الله في الأعمال، ليعودوا إليه وحده. وذلك حتى لا يحبط عملهم، ويفوتهم أجره. فعمل من دون أجر، الراحة أولى منه!...

ـ "واقبل بمحبة ورضوان قرابين إسرائيل وصلاتهم عاجلا": وهذا السؤال ملتحق بسابقه؛ لأن القبول -كما ذكرنا- له شروط، على العامل مراعاتها. وأما إغفالها، وسؤال الله القبول، فإنه يكون من علامات الخيبة وسوء المنقلَب. والمسألة هنا منطقية في المرتبة الأولى: وذلك إن كان الله هو المقصود بالعمل، وكان القبول منه وحده سبحانه، فإن من لا يتحرى شروط العمل التي وضعها الله لها، فإنه يكون عاملا في غير معمل، من غير أدنى شك. ولقد سبق أن نبّهنا إخواننا من الكتابيّين، أن الشريعة التي كانوا عليها، قد ارتفع حكمها الآن. ووالله لا نقول لهم هذا، إلا من منطلق العلم وحده، لا من منطلق مناصرة شريعتنا!... فإنه يحرم علينا أن نغشّهم، أو نستغفلهم، كما يحرم علينا غش واستغفال المسلمين. ولقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لَا غِشَّ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا!»[١]. ولقد كنا في الجزء الأول من هذا الكتاب، ذكرنا أن للفظ المسلم معنييْن: معنى عام يدخل فيه جميع الناس، كتابيّين وغيرهم؛ ومعنى خاص، هو ما ينطبق على المحمديين خصوصا. نقول هذا، لأن شريعة الإسلام، كما تحرم على العبد غش إخوانه في الإسلام، فإنها تحرم عليه أيضا غش كل إنسان، بل كل مخلوق. ولقد ذُكر أن بعض السلف انصرف عن محدّث رآه كذب على دابته، يوهمها أن معه علفا وهو ليس معه؛ فقال من يكذب على دابته، لا آمنه على حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا، وإن كان من التدقيق، إلا أنه نافع في محلّه. والقصة إنما أوردناها للإيناس، لا في معرض الاستدلال؛ لهذا لم نتكلف لها التخريج. وخلاصة الكلام، أن العبد لا ينبغي أن يدعو بقبول العمل، حتى يكون محكما لشروطه؛ وأما قبل ذلك فإنه يكون متلاعبا بالدين، زاهدا حقيقة في القبول من ربه، وإن زعم ذلك باللسان.

ـ "ولتكن عبادة إسرائيل شعبك دائما مرضية": وهذا من الدعاء العام الجائز، والذي يأخذ فيه الداعي الأجر على عدد الداخلين فيه. ولقد كان العلماء يحرصون على الدعاء للأمة كافة، حتى ينالوا الأجر بعدد أفرادها؛ وهو علم صحيح في محله. لكن اعتبار التشريع الآن من بني إسرائيل أوجب، حتى لا يكونوا عند الله مردودي الأعمال. وعلى الأقل، ينبغي عليهم أن يدعوا بما هو من المعاني العامة، كأن يقولوا اللهم اهدنا فيمن هديت، وارحمنا رحمة تكتب لنا بها الجنة عندك؛ فإنه إن استُجيب لهم فيه، فإنهم ستُشرح صدورهم للإسلام المحمدي أولا، ثم بعد ذلك تأتي الأعمال بتفاصيلها. أما أن يبقوا على ما هم عليه، ويدعوا ربهم بالقبول، فإنهم يكونون كمن يُعاند ربه، ويُصرّ على العناد، ويسأله أن يتقبل منه. وهذا فيه من معاني الإرغام والإكراه ما لا يخفى عن عاقل؛ والله سبحانه لا يُكره على شيء. وهذا معنى قوله تعالى: {وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ} [هود: ١٢٣]. وليس الكتابيّون من يقعون في هذا الخذلان وحدهم، بل إن كثيرا من المسلمين يقعون فيه أيضا، عندما لا يعملون وفق السنة، أو عندما يعملون العمل في غير وقته، أو عندما لا يُحافظون على الآداب في العمل وهي كثيرة؛ منها ما يتعلّق بالظاهر، ومنها ما هو منوط بالباطن. وعلى هذا، فإن العبد ليس له أن يسأل من ربه القبول، إلا إن كان قد استفرغ جهده من جهة النية، ومن جهة الصورة، ومن جهة الآداب؛ فإن فعل من دون اعتبار ذلك، فإنه يكون أقرب إلى العقوبة منه إلى الثواب. ولقد جاء في حديث ضعّفه كثير من أهل الحديث، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ صَلَّى الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا، وَأَسْبَغَ لَهَا وُضُوءَهَا، وَأَتَمَّ لَهَا قِيَامَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا؛ خَرَجَتْ وَهِيَ بَيْضَاءُ مُسْفِرَةٌ، تَقُولُ: حَفِظَكَ اللَّهُ كَمَا حَفِظْتَنِي! وَمَنْ صَلَّى الصَّلَاةَ

---

[١] . أخرجه الدارمي وابن حبا بلفظ قريب منه، عن ابن عمر رضي الله عنهما. وأخرجه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا!».

لِغَيْرِ وَقْتِهَا فَلَمْ يُسْبِغْ لَهَا وُضُوءَهَا، وَلَمْ يُتِمَّ لَهَا خُشُوعَهَا وَلا رُكُوعَهَا وَلا سُجُودَهَا؛ خَرَجَتْ وَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ، تَقُولُ: ضَيَّعَكَ اللَّهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي! حَتَّى إِذَا كَانَتْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، لُفَّتْ كَمَا يُلَفُّ الثَّوْبُ الْخَلِقُ، ثُمَّ ضُرِبَ بِهَا وَجْهُهُ!»[1]. وعلى كل حال، فمعنى الحديث جيد، وهو صالح في باب الآداب.

ــ "إلهنا وإله آبائنا، ليصعد ويأت ويصل ويظهر ويُقبل ويُسمع ويُفتقد ويُذكر أمامك ذكرنا": يدعو هذا الداعي بأن يُذكر عند الله؛ لأنه من ذُكر عند الله فقد رُحم. ولهذا السبب كان الله يمنع من وصول ذكر من لا يريد أن يرحمه إليه. ويتجلى ذلك المنع في منع رفع العمل، وفي إحباطه، وفي الإعراض عنه. وإن هذا السائل كان على علم بكل هذا، فكأنه سأل أن يُفتح الطريق لذكره وذكر جماعته، حتى يصل إلى حضرة الرب. وهذا جيد، غير أن الدعاء به وحده، من دون عمل مُسبق بالشروط والآداب، لا يكون في الغالب نافعا. ونحن هنا نبيّن جميع أوجه القبول، من باب تكميل النصح لإخواننا. وقد جاء في الحديث، قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ! قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ.»[2]. ومن كان يحصر العمل بالحديث في أمة الإسلام وحدها، فما فقه معناه؛ لأن النصيحة واجبة على المسلم تجاه أخيه الإنسان (المسلم بالمعنى العام). ومن افترضنا أنه ينصح للمسلمين، وهو مع ذلك يكون غاشا لغيرهم من الناس، فلا ينتظر أن يُكتب عند الله من الناصحين!... وتخصيص ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأئمة المسلمين وعامتهم، هو من باب التأكيد فقط، لا بمعنى الحصر. ونحن عملا بهذا الحديث، وما هو في معناه، نحرص كل الحرص على نُصح إخواننا من أهل الكتاب، وعلى نُصح غيرهم من عموم الناس. فليتنبّه القارئ إلى مُنطلَقاتنا، وليعمل وفق ما نقول، فإنه باب من أبواب الرحمة الواسعة. والمحروم من حرم نفسه!...

ــ "وذكر آبائنا": أي، ولْيُذكر آباؤنا أيضا أمامك. وهو دعاء لهم بالرحمة، كما أسلفنا. وكأن القائل يقول: "اللهم ارحمنا وارحم والدِينا وأسلافنا." وهذا دعاء جيد، لا خلاف عليه؛ إن ارتفعت الموانع.

ــ "وذكر أورشليم مدينتك": ويسأل السائل الرحمة لمدينة أورشليم نفسها، من كونها مدينة مقدسة. وهو في الحقيقة يسأل الرحمة لأهلها لا لها؛ لأن الأماكن لا يلحقها التكليف، وإنما يلحقها التشريف. فبالتشريف تفضل بعض الأماكن بعضها الآخر، لا بما هو من معاني التكليف، كما هو شأن الآدميين. وهذا ينبغي أن يُميَّز، حتى لا تؤخذ أمثال هذه الأدعية بما يعطيه ظاهر ألفاظها وحده.

ــ "وذكر المسيح ابن داود عبدك": وهذا دعاء للمسيح المخلص، الذي تعلمه اليهود من كتبها؛ ولكنها ضلت عنه في شخصه عندما بُعث إليهم عليه السلام. وهم بدعائهم للمسيح، فكأنهم يدعون بتعجيل خروجه. وهذا الصنف من الدعاء، هو من دلائل الخذلان للعبد. وهو يُشبه الدعاء في غير محله المعتاد؛ بل هو أسوأ؛ وهو يُشبه أن يدعو المرء للشيخ أن يصير شابا، أو أن يدعو للشيطان أن يصير مَلَكاً، أو لنبي من الأنبياء أن يكون من أهل النار... فأمثال هذه الأدعية لا معنى لها، إلا أنها تدل على إفلاس صاحبها وعلى عدم نُجْح حاجته. هذا من جهة، وأما من جهة أخرى، فإن الأدعية من كونها مخلوقات لله، بغض النظر عن قائليها، وعن فهمهم فيها، هي عائدة على أصحابها بالأصالة. ولنأخذ على ذلك مثلا، نرجو أن تتسع صدور إخواننا له، فنقول: من يدعو من أهل الكتاب فيقول: اللهم اغفر للمؤمنين وارحمهم. فإن الله يستجيب للدعاء من كونه دعاء، لا من كونه دعاء لفلان؛ فيجعل مغفرته ورحمته للمتصفين بهذه الصفة عنده، لا عند السائل. وأمثال هذا الصنف من إجابة الدعاء كثيرة، لا يتفطن إليها جل العلماء، بله غيرهم من العامة النمطيّين.

---

[1] . أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط.

[2] . أخرجه مسلم عن تميم الداريّ رضي الله عنه، وأورده البخاري في التبويبات.

وعلى هذا، فإن دعاء هذا السائل، سيكون من نصيب عيسى عليه السلام، وإن لم يكن مقصودا له؛ ليزداد عيسى بذلك وأمثاله رفعة عند الله في كل وقت وحين؛ وإن كان عيسى في غنى عن دعاء الدّاعين!...

ـ "وذكر كل شعبك آل إسرائيل": وإدخال كل شعب إسرائيل في الدعاء، هو من التعميم المطلوب، الذي يجعل الدعاء المخصوص أقرب إلى الإجابة. وقد ذكرنا هذا الوجه في كلام لنا سابق، من دون أن نُقيّد. أما هنا، وبعد ذكر شروط الأعمال بحسب التشريع، وبعد ذكر الآداب المعتبرة، فإنه لا بد من أن نقول إن هذا التعميم في الدعاء لا ينفع أصحابه إلا إن هم خضعوا لصاحب الوقت من الرسل، وليس إلا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم. وكل من يُغفل ما نذكره هنا، فهو كالمضيّع للمفتاح، عند إرادته فتح الباب. نسأل الله ولإخواننا هداية تامة، وعملا صالحا، وقبولا غير مشوب، ورحمة غاشية؛ إنه أهل ذلك والمتفضل به سبحانه.

ـ "للنجاة والخير والعطف والإحسان والرحمة": يُخصِّص السائل سؤاله ذكر الله لشعب إسرائيل، بأن يكون للنجاة والخير والعطف والإحسان والرحمة، لا لغير ذلك من نقائضها، والتي هي العذاب والانتقام والعقوبة. ولولا علم السائل، بأن الله يذكر فريقا للنعيم، ويذكر آخر للعذاب، ما كان خصَّص. وهذا من دقيق العلم الذي ينبغي أن يكون عليه الخواص. وأما من يترك الدعاء محتملا للوجهيْن، فإنه لا يدري بأي الوجهيْن يكون من الله الحكم. والعبد هو من ينبغي عليه أن يحرص على فوزه، لأن الله لا غرض له سبحانه في أحوال العباد. وإلى هذا المعنى يُشير قول الله تعالى: {قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ} [الفرقان: ٧٧]. والمعنى هو أن الله لا يعبأ بالعبد من الأصل، لولا أن العبد سأل ربه من حضرة الثبوت بالحال، وقبل أن يوجد. ثم هو سبحانه بعد إيجاد العبد، لا يعبأ بما فيه مصلحة العبد، لولا دعاؤه له بالحال وبالمقال. ومن علم هذا، فإنه سيعلم معنى غنى الله عن عباده، الذي ذكره في قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر: ١٥].

ـ "في يوم مستهل الشهر هذا، في عيد الفصح هذا (أو في عيد المظال هذا)، في يوم المحفل المقدس هذا، لترحمنا فيه وتخلصنا": دعاء العباد ربَّهم بالرحمة، مع ذكر فضل الزمان والمكان والعمل، هو من الفقه في الدين. وهو يدخل ضمن التوسل والتشفع؛ فكأن العبد يقول: يا رب بجاه هذا المكان المقدس، وبجاه هذا اليوم المقدس، وبجاه هذا العمل المقدس، استجب لنا وارحمنا. ولا يكون هذا العلم إلا لخواص الأمم. وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مثل هذا قوله: «أَلَا تَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ! (قَالَ: حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ) فَقَالَ: أَلَيْسَ بِيَوْمِ النَّحْرِ؟ قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ أَلَيْسَتْ بِالْبَلْدَةِ الْحَرَامِ؟ قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، وَأَبْشَارَكُمْ، عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا! أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ قُلْنَا: نَعَمْ! قَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ! فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ!»[١]

ـ "اذكرنا يا رب إلهنا فيه للخير": أي اذكرنا في هذا اليوم المقدس للخير؛ والمعنى قد تكلمنا فيه آنفا، فلا داعي إلى التكرار.

ـ "وافتقدنا فيه للبركة": أما معنى افتقدنا للبركة، فهو أخص من القول السابق؛ لأن التفقد طلب، ومن طلبه الله أدركه. فإن كان المطلوب للبركة، فلا بد من أن ينالها. وهذا من أحسن ما يُقال في الأدعية!...

ـ "وخلّصنا فيه لحياة سعيدة": والمقصود من التخليص في هذا اليوم، لحياة سعيدة، هو أن يكتب الله عباده من السعداء؛ وإن كانوا فيما قبل مكتوبين من الأشقياء. هذا، لأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. ومن علم هذا، فلا ييأس أبدا من

---

[١] . متفق عليه، عن أبي بَكرة رضي الله عنه.

رحمة ربه وإن كان من كبار الأشرار في الحال. وقد ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي فِي أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَأَثْبِتْنِي فِيهَا؛ وَإِنْ كُنْتَ كَتَبْتَ عَلَيَّ الذَّنْبَ وَالشِّقْوَةَ، فَامْحُنِي وَأَثْبِتْنِي فِي أَهْلِ السَّعَادَةِ؛ فَإِنَّكَ تَمْحُو مَا تَشَاءُ وَتُثْبِتُ، وَعِنْدَكَ أُمُّ الْكِتَابِ."[١]

_ "وحسب الوعد بالفرج والرحمة أشفق علينا": وهذا دعاء بالوفاء بالوعد السابق، وهو لا يجوز أن يُقال لله من باب التذكير، لأن الله لا ينسى؛ ولكن يجوز قوله من باب شكر نعمة الوعد الأول، والتوسل به لنيل نجازه. وذلك لأن نجاز الوعد قد يتأخر، فيكون الدعاء من أسباب تحققه عاجلا. وأفضال الله لا نهاية لها، ففي طيّ كل واحد منها أفضال أخرى، إذا نبّه الله العبد إليها ووفّقه لسؤالها، فإنه يُنيله إياها كلها. والله ذو الفضل العميم.

_ "وحن علينا، وارأف بنا، وارحمنا، وخلصنا": يتذلل السائل هنا لربّه، لأن الرب يُحب أن يتذلل العبد بين يديه. وإن كل عبد رزقه الله التذلل بين يديه، لا بد من أن يرحمه ويرأف به، بحسب ما يليق به وبحاله. وفضل الله لا يُحجر ولا يُضيّق، حتى يحكم بعض الناس بعدم إصابته لقوم من الأقوام، بصورة من الصور. فإن من يحكم بذلك يكون من أجهل الجاهلين!... ولإخواننا النصارى عبارة لا يفهمها المسلمون، يقولون فيها: "إنّ طرق الله لا تُدرك!"، ويعنون منها (وما أحسن ما يعنون!): أن لله طرقا في إيصال رحمته إلى العباد، لا تُدرك لكل العباد!... ونحن معهم في هذا القول؛ بل نؤكده ونقوّيه ونجعل معناه مطلقا.

_ "لأن أعيننا نحوك، لأنك إله ملك رؤوف رحيم": المقصود من قول السائل: "لأن أعيننا نحوك"، أي لأننا لا ننتظر ذلك إلا منك. وهو من عيون الثناء المحبوبة عند الله. ومن رجا الله صدقا وحقا، محال على الله أن يُخيّبه!... ونحن نحذر كل من يُطالع كلامنا هذا، من أن يعترض ولو بقلبه على ما نقول، لأن ذلك قد يُغضب الله منه، ويحرمه فضلا واسعا، كان يُمكن أن يناله، بحسن ظنه بربه فحسب. يقول الله تعالى في الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي!»[٢]. وما خص سبحانه عبدا من عبد، وما خص ظنا من ظن!... فالعبد مطلق، والظن مطلق؛ وليس بعد هذا الفضل في السَّعة شيء!... وما ضيّق أحد على نفسه، إلا من نفسه!...

_ "وأنت بحسب مراحمك الكثيرة تُسرّ بنا وترضى عنا": يقصد الداعي هنا، أن فرح الله بعبده ورضاه عنه، هو من رحمته به؛ لا من استحقاقه. وقد ورد لفظ الفرح الإلهي في مثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِكُمْ بِضَالَّتِهِ إِذَا وَجَدَهَا!»[٣]. فلا يستهن أحد بهذه الصفة، وليعتبرها في ربه؛ فإنه لا يدري من مِن الناس تناله بركتها؟ ولا متى؟... وليكن دائما متطلعا إلى أن يراه ربه على ما يحب ويرضى، لعله يفرح به؛ فإن فرح به، فإنه لن يشقى بعدها أبدا. ونحن ندل العباد هنا، على كنوز المعاملة، التي من عمل بها، نال المنازل الرفيعة والدرجات المنيفة!...

_ "فترى أعيننا رجوعك إلى صهيون برحمة": يقصد السائل من هذا الدعاء، أن يرحم الله أورشليم، حتى ترى الأعيُن الرحمة وتفرح بها. وهو دعاء جائز؛ لكن بما يشاء الله، لا بما يُعيّن العبد؛ لأن الله يعامل الناس بحسب علمه فيهم، لا بحسب علمهم هم. وهذا أمر ينبغي التنبّه إليه!...

---

[١] . أخرجه الطبري في "تفسيره" (٥٦٤/١٣)، والدولابي في "الكنى والأسماء" (٦٣٥)، وابن بطة في "الإبانة" (١٥٦٥)، واللالكائي في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة" (١٢٠٦)، جميعا من طريق أبي حكيمة، قال: سَمِعْتُ أَبَا عُثْمَانَ النَّهْدِيَّ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ: وذكر الدعاء...

[٢] . متفق عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[٣] . أخرجه مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ـ "مبارك أنت يا رب الذي يعيد سكينته إلى صهيون": وهذا ثناء من العبد على ربه، بنعمة أنعمها عليه؛ وهي سكينة بيت المقدس؛ وهو ثناء معتبر، وفي محله. وإن تقبله الله من عبده، فإنه يكون معدودا في شُكره. ومَن شَكر الله، فإن الله يزيده من فضله؛ كما أخبر سبحانه عن نفسه: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: ٧].

١٨. [نشكرك لأنك أنت الرب إلهنا، وإله آبائنا، إلى أبد الآبدين. صخرتنا، صخرة حياتنا، ومجن خلاصنا هو أنت. جيلا بعد جيل نشكر لك ونتحدث بحمدك من أجل حياتنا المودعة بيدك، وأرواحنا المحفوظة عندك، ومعجزاتك التي هي معنا كل يوم، وعجائبك وخيراتك التي هي في كل وقت مساء وصباحا وظهرا، أيها الطيب الذي لا تنتهي مراحمك، المشفق الذي لا تنقطع أفضالك، فإننا منذ الأزل وضعنا أملنا فيك. نشكرك لأنك أنت الرب إلهنا، وإله آبائنا وإله كل البشر، خالقنا المصور في البداية. البركات والتشكرات لاسمك العظيم والمقدس، لأنك أحييتنا وثبتّنا. وكذلك ستحيينا وترأف بنا، وتجمع المشتتين منا إلى دور قدسك، لنحفظ فرائضك ونعمل ما يرضيك ونعبدك بقلب سليم؛ لهذا نحن نشكرك. مبارك رب التشكرات.]. وفي عيدي الحانوكة والفور، يقال: [نشكرك أيضا على المعجزات والخلاص والأعمال العظيمة وعلى الفرج، وعلى الخوارق وعلى التعزيات التي صنعتها لآبائنا في غابر الزمان وفي هذا الوقت.]. ويُقال في عيد حانوكة: [في أيام متاتيا بن يوحنا الكاهن الأعظم الحشموني وأبنائه عندما وقفت مملكة اليونان الفاجرة ضد شعبك إسرائيل، لتُنسيهم توراتك، وتجعلهم يخالفون فرائض إرادتك، وقفت أنت بمراحمك العظيمة معهم في وقت شدّتهم وأيدتهم في خصومتهم، وحكمت حكمهم وثأرت انتقاما لهم. سلمت الجبابرة بيد الضعفاء، والكثيرين بيد القليلين، والمجرمين بيد الصدّيقين، والأنجاس بيد الأطهار، والبغاة بيد المشتغلين بشريعتك. فصنعت لك اسما عظيما ومقدّسا في عالمك، وصنعت لشعبك إسرائيل نجاة عظيمة وخلاصا في مثل هذا اليوم. وبعد ذلك جاء أبناؤك إلى محراب بيتك فنظفوا هيكلك، وطهروا مقدَّسك، وأوقدوا شموعا في أفنية قدسك، وأقروا هذه الأيام الثمانية للحمد والشكر، إذ أتيت معهم بمعجزات وعجائب، فنشكر اسمك العظيم، سلاه.]. ويُقال في عيد الفور: [في أيام مردخاي وإستير، في العاصمة شوشن، عندما قام عليهما هامان المجرم، وطلب تدمير وقتل وإهلاك كل اليهود من الغلام إلى الشيخ والأطفال والنساء، في يوم واحد هو الثالث عشر من الشهر الثاني عشر، أي شهر آذار، ونهبهم غنيمة، وأنت بمراحمك العظيمة أبطلت مشورته، وخيبت فكرته، ورددت جزاءه على رأسه، فعلقوه هو وأولاده على الخشب. وهكذا صنعت معهم معجزات وعجائب، فنشكر اسمك العظيم، سلاه.]. [وعلى كل هذه ليتبارك ويتعال ويرتفع اسمك دائما، يا ملكنا إلى أبد الآبدين وكل الأحياء يشكرونك، سلاه.]. ويُقال في أيام التوبة العشرة: [واكتب حياة سعيدة لبني عهدك، وليمدحوا ويباركوا اسمك العظيم حقا إلى الأبد، لأنه طيب إله نجاتنا وعوننا، سلاه. الإله الطيب، مبارك أنت يا رب، الطيب الاسم، وبك يليق الشكر.]. وعند تكرار العاميدة يقول الحزان: [إلهنا وإله آبائنا، باركنا بالبركة المثلثة في التوراة، المكتوبة على يديْ موسى عبدك المنطوقة من فم هارون وأبنائه كهنة شعبك المقدسين في قوله: "يباركك الرب ويحرسك، يضيء الرب بوجهه عليك، ويرأف بك. يرفع الرب وجهه عليك، ويمنحك سلاما، فيجعلون اسمي على بني إسرائيل وأنا أباركهم. (عدد: ٦: ٢٤-٢٦)".].

ـ "نشكرك لأنك أنت الرب إلهنا، وإله آبائنا، إلى أبد الآبدين": هذا الاستهلال، يرتبط به العبد بربه؛ ويذكر من خلاله شمول عناية الله للأسلاف. وأما قوله "إلى أبد الآبدين"، فهو يعني أننا ارتضيناه إلها لنا إلى الأبد. وهو قول جيد، لاستمطار الرحمة واجتلاب الرأفة.

ـ "صخرتنا، صخرة حياتنا، ومجن خلاصنا هو أنت": وصف الله بالصخرة، هو بمعنى السند؛ وقد جيء بذكر الصخرة مجازا، لأنها صلبة ومتينة، إليها يلجأ من يريد الاحتماء والتمسُّك. فكأن الداعي ذكر هنا الأسماء: "القوي"، "المتين"،

"الوكيل"، "المولى"، و"النصير"... ومعنى "صخرة حياتنا"، هو ما تقوم به حياتنا؛ وحياة العبد لا تقوم إلا بحياة الله وإحيائه. فكأنه يُثني على ربه باسمه "الحي المحيي" خصوصا. وأما معنى "مجن خلاصنا"، فهو يعني به "الواقي" و"الحافظ" و"المُمسك"، وغيرها. والألفاظ الواردة في الدعاء كلها صحيحة، وتؤدي إلى معان صحيحة.

ـ "جيلا بعد جيل نشكر لك ونتحدث بحمدك من أجل حياتنا المودعة بيدك، وأرواحنا المحفوظة عندك، ومعجزاتك التي هي معنا كل يوم، وعجائبك وخيراتك التي هي في كل وقت مساء وصباحا وظهرا، أيها الطيب الذي لا تنتهي مراحمك، المشفق الذي لا تنقطع أفضالك، فإننا منذ الأزل وضعنا أملنا فيك": هذا الثناء على الله، جمع فيه صاحبه من كل المحامد: من الحياة التي هي أصل كل نعمة، إلى حفظ الأنفس، والمعجزات التي تحدث كل يوم. وحدوث المعجزات كل يوم، هو معنى صحيح، لا يعلمه إلا الربانيون؛ لأن كل ما يحدث في الحقيقة، حتى مما هو من أمور العادة، هو من المعجزات. ثم يذكر الحامد فضل الله الذي لا ينقطع في كل صباح وكل مساء، وإن غفلت بعض الأعين عن ملاحظته؛ وينتهي إلى الإقرار بعدم انتهاء المراحم من الله، وإلى عدم انقطاع الأفضال، منذ الأزل وإلى الأبد. وهذا الثناء من أحسن ما يُثنى على الله به؛ وهو لا يصدر إلا من عبد رباني له علم خاص بربه.

ـ "نشكرك لأنك أنت الرب إلهنا، وإله آبائنا وإله كل البشر، خالقنا المصور في البداية": وهذا من الشكر العام، العظيم عند الله؛ لأن مناطه ليس نعمة خاصة، وإنما نعمة عامة شاملة، للناس أجمعين وللخلق أجمعين؛ من بداية الخلق وإلى الأبد. وهذا الشكر لا يعلم جزاءه إلا الله تعالى. فهو أوسع من علم كل العلماء، وأوسع من علم الملائكة أنفسهم. وذلك لأن الملائكة، وإن كانوا من الرؤساء كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، عليهم السلام؛ فإن الله لا يُطلعهم على علمه كلّه؛ بل يبقى علم كثير لا يعلمه إلا هو سبحانه. وهذا هو معنى قول الملائكة المذكور عنهم في القرآن: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [البقرة: ٣٢].

ـ "البركات والتشكرات لاسمك العظيم والمقدس، لأنك أحييتنا وثبّتنا": وهذا الثناء جيّد أيضا، لأنه متعلّق بوهب الحياة وبالتثبيت فيها. وليس المقصود من الحياةِ الحياةَ الطبيعية وحدها، والتي لا شك هي نعمة من النعم؛ وإنما المقصود أيضا حياة القلوب بالإيمان، وحياة الأرواح بحياة الله. وهي نعم كثيرة وكبيرة، لا يستطيع العبد أداء شكرها، إلا إن كان شكره لربه به لا بنفسه. وذلك كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ!»[1].

ـ "وكذلك ستحيينا وترأف بنا، وتجمع المشتتين منا إلى دور قدسك، لنحفظ فرائضك ونعمل ما يرضيك ونعبدك بقلب سليم؛ لهذا نحن نشكرك. مبارك رب التشكرات.": هذه العبارات، كأنها معاهدة لله، يحفظ الله بها بني إسرائيل ويجمع شتاتهم، في مقابل أن يعملوا بشريعته وأن يُخلصوا له سبحانه. وهذا وإن كان من المعاني الجائزة شرعا، بحسب ما أنزل الله في كتابه في قوله تعالى: {يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} [البقرة: ٤٠]، إلا أن العبد من أدبه أن يعبد الله على وجه الافتقار، لا على وجه المشارطة. وبنو إسرائيل عندما فقدوا الأدب، فإنهم لم يُوفّقوا للعمل بما أقرّوا به على أنفسهم. وقد أخبر الله عن نتيجة أمرهم في مثل قوله سبحانه: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [المائدة: ٧٨، ٧٩]. ولقد مرّ بنا في الجزء الأول من هذا الكتاب، موقفهم من عيسى عليه السلام، الذي جلب عليهم لعنته وسخطه.

---

[1] . أخرجه مسلم، عن عائشة عليها السلام.

ـ "نشكرك أيضا على المعجزات والخلاص والأعمال العظيمة وعلى الفرج، وعلى الخوارق وعلى التعزيات التي صنعتها لآبائنا في غابر الزمان وفي هذا الوقت": لقد مرت قبل هذا، عبارات شكر شبيهة، يوحي ظاهرها بمعنى الشكر الشرعي؛ غير أن شكر بني إسرائيل في الغالب لم يكن إلا من صنف الشكر المشروط. وذلك يجعلهم مشترطين على الله ومجربين له، بسبب جهلهم به سبحانه. وهذا يعني أن معرفتهم بالله كانت ضعيفة جدا، يُعاملون الله بمقتضاها كما يُعامَل الملِك من العباد. بل إن العباد عندما يقوى شركهم، فإنهم يحسبون حساب ملوكهم ورؤساءهم، ولا يحسبون حسابا لربهم.

ـ "في أيام متاتيا بن يوحنا الكاهن الأعظم الحشموني وأبنائه عندما وقفت مملكة اليونان الفاجرة ضد شعبك إسرائيل، لتُنسيهم توراتك، وتجعلهم يخالفون فرائض إرادتك، وقفت أنت بمراحمك العظيمة معهم في وقت شدّتهم وأيدتهم في خصومتهم، وحكمت حكمهم وثأرت انتقاما لهم": يستحضر اليهود مشاهد مخصوصة من تاريخهم، يرون أنها مختزِلة لصلتهم بالله، التي تقوم على اجتبائه سبحانه لهم. ورغم أن هذا المعنى صحيح، وله أصل في معاملة الله لهم، إلا أنهم -بسبب جهل أكثرهم- غفلوا عن فقرهم الأصلي، وتوهموا الاستحقاق. وهذا أدخلهم في صفة الاغترار بالله، التي يهوي بها أصحابها من بعد ارتفاع. وهذا يدل على أن عباد الله كلما ازدادوا قربا، ازدادوا تواضعا وعبودية؛ بعكس ما يتوهم من لا عقل له. والعامة بسبب ضعف إدراكهم، يقيسون أحوال الربانيين على أحوال حاشية السلطان. فهم يرون تعزز الحاشية بالسلطان، ويتوهمون أن المقرّبين يكونون على مثل ذلك؛ والأمر بعكس ذلك على التمام. ونعني أن تعزز حاشية السلطان بالسلطان، هو من عيوبها وآفاتها؛ لا من اعتدال حالها. وأما أهل الله، فإن عزة ربهم تمحوا أثر العزة من نفوسهم محوا؛ ليبقوا بعد ذلك على العبودية التامة. ولعل القارئ سيعلم أن صلب المسألة، هو في التفريق بين العزة والتعزز؛ أي بين الصفة الأصلية، وما هو من معاني الخروج عن الأصل. وهذا باب أساس في العلم، يتفرع عنه كل ما يأتي بعده. ولقد علّمنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أدب المنتصر بالله، عندما دخل يوم فتح مكة وهو خافض رأسه الشريفة تواضعا لربه. فهذا هو ما يليق بمثل ذلك النصر، لا أن يترفع العبد على المهزومين وكأن الأمر بينه وبينهم. فعبد الله لا دخل له في العداوة والخصومات بنفسه، وإنما هو مؤتمر فيها بأمر ربه؛ وعلى هذا فإن النصر ليس نصرا له وإنما هو لربه في الحقيقة. هذا مع أن الله ينسب النصر إلى عباده امتنانا في مثل قوله تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر: ٥١]، وفي مثل قوله تعالى أيضا: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٤٠]. والأمر كما هو واضح ليس منوطا بمعاني الألفاظ، بقدر ما هو معاملة بين الأسماء. فلا ينبغي للعبد الموفّق إغفال هذا!...

ـ "سلمت الجبابرة بيد الضعفاء، والكثيرين بيد القليلين، والمجرمين بيد الصدّيقين، والأنجاس بيد الأطهار، والبغاة بيد المشتغلين بشريعتك": إن بني إسرائيل عرفوا نعمة الله عليهم، عندما جعل الضعفاء قليلي العدد ينتصرون على الأقوياء؛ ولكنهم بقوا مع ذلك محجوبين بأنفسهم عما وراء المظاهر. ولقد ذكر الله مثل هذا في القرآن عن بني إسرائيل، عندما قال سبحانه: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ٢٤٩]. ومن ينظر إلى أن الغلبة كانت بالإذن، فإنه لا شك سيعود إلى ربه، وسيغيب عن شهود نفسه. وإن مسألة مغالبة الأسماء بعضها لبعض، هي من أشد المسائل على غير العلماء بالله؛ وقد يضل بها المهتدون بعد هداهم، إن لم يدُم توفيقهم. وأما العقول، فإنها لا قدم لها في علمها، وإن كانت من أكبر العقول؛ لأنها لا تتمكن من خرق حجاب الأسباب. والأسباب لا تُرفع أبدا، من حيث الوجود؛ وإنما يكون رفعها في حق من أراد الله له ذلك، من جهة الشهود. وقولنا عنها إنها لا تُرفع من جهة الوجود، لا يعني ضرورتها؛ وإنما يعني إثبات الحكمة لها، لا غير. وهذا يجرنا إلى مَن يفعل الفعلَ من أهل الله من غير مباشرة للأسباب، على سبيل الكرامة؛ لنقول إن الأسباب لم تنعدم لديهم على التمام؛ وإنما خفيت فحسب. وهذا موضوع يطول الكلام فيه، وهو خارج مقصدنا.

ـ "فصنعت لك اسما عظيما ومقدَّسا في عالمك، وصنعت لشعبك إسرائيل نجاة عظيمة وخلاصا في مثل هذا اليوم": المقابلة بين صنع الله لنفسه اسما عظيما ومُقدَّساً، وصنعه لشعب إسرائيل نجاة عظيمة وخلاصا، في هذه الذكرى، هو من المعنى الاشتراطي الذي ذكرناه آنفا؛ وكأن اليهود يقولون: إنك صنعت لنفسك اسما عظيما بإنجائنا، وهذا وإن كان له مسوغات من جهة علم الحقائق، إلا أنه لا يجوز للعبد مخاطبة ربه به. ويبدو أن اليهود لا يعلمون معنى الفقر الذاتي، وإنما هم يُدركون الفقر الطبيعي الذي يحكم حياتهم في عالم الطبيعة. وهذا يعني أنهم لا يعلمون أن غنى العبد لا يتحقق إلا مجازا، وإن لُبّيت له جميع حاجاته، بحسب ما يرى هو. ولسنا نستثني عوام المسلمين مما نقول، والذين صاروا يُعاملون ربهم معاملة التُّجار. ونعني من هذا، أن إدراكهم للآخرة نفسه، لا يخرج عن منطق دنياهم السقيم. ورغم أن الله يقول لعباده في كلامه: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ . لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ} [فاطر: ٢٩، ٣٠]، ويقول سبحانه أيضا: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ} [الصف: ١٠ – ١٣]، فإنه سبحانه يدل عباده على ما يجلب عليهم رحمته من أعمال، قياسا على مبدأ التجارة الذي يعلمونه جيدا، من معاملاتهم فيما بينهم؛ وهذا من الحض على العمل الصالح عن طريق ضرب المثل، لا من المبادلة بين نفعين كما هو الأصل في التجارة. وذلك لأن الله لا نفع له من أعمال العباد سبحانه، وهو الغني عنهم. وهذا يعني أن التجارة تكون بين فقيريْن: كل منهما يفتقر إلى ما عند صاحبه؛ وأما الله، فلا يفتقر إلى أعمال عباده؛ بل هم الفقراء إليه فيها إنشاء وجزاء. ومن كان غنيّا غنى مطلقا، فإن جزاءه على الأعمال هو من فضله، لا من باب آخر. وإذا كان بعض العباد، من شدة ضعف عقولهم، يعاملون ربهم بمنطق المتاجرة، ويتقبله الله منهم بفضله، فلأنه سبحانه يريد أن يُدخل في رحمته أكبر عدد منهم، ولو لشبهة دين. لكن لا يستوي من يُعامل ربه بتوقير مرتبته، بمن هو من هذا الصنف أبدا. وفي مثل هذا أنزل الله قوله: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: ٩]؛ أي الذين يعلمون حقيقة ما هو الأمر عليه، والذين لا يعلمون. واليهود بحسب أحوالهم، والعامة من المسلمين، هم من الصنف الذي لا يعلم. لهذا كانت العقائد التي يكونون عليها، وكانت المعاملات الناتجة عنها، مما ينبغي أن يتوب منه العبد، لا مما يجعله دينا. وإن علماء الدين، هم أول من ينبغي عليهم إعادة الأمور إلى نصابها، بالعمل على تنوُّر قلوبهم أولا، حتى تتمكن من تبيّن المعاني؛ بدل توهمهم منطقا للدين، لا ينفعهم لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ـ "وبعد ذلك جاء أبناؤك إلى محراب بيتك فنظفوا هيكلك، وطهروا مقدَّسك، وأوقدوا شموعا في أفنية قدسك، وأقروا هذه الأيام الثمانية للحمد والشكر، إذ أتيت معهم بمعجزات وعجائب، فنشكر اسمك العظيم، سلاه": ورغم أن هذه العبارة تدل على شكر اليهود للرب، بعد إنعامه عليهم؛ إلا أنها لا تخلو من امتنان عليه سبحانه، بتطهير بيته وتنظيف هيكله. وهذا من جهلهم بفقرهم كما ذكرنا سابقا. ولأمثال هذا الصنف من الناس، يقول الله تعالى في كتابه: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحجرات: ١٧، ١٨]. وهذا الخطاب، وإن كان في ظاهره موجّها لأهل مرتبة الإسلام من المسلمين، إلا أنه ينطبق على الكتابيّين أيضا، لعدم خروج إدراكهم عنه. والمن بالإسلام على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إن كان لا يجوز معه، وهو العبد الفقير إلى ربه؛ فما الظن إن كان في معاملة الله الغني!... ولو تأملنا، لوجدنا الرد على المن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يأتي من الله لا منه؛ فيقول الله تعالى: {بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}. وهذا لمعنييْن: الأول، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، هو مظهر "الله"، كما نقول

دائما؛ وعلى من يُعامله أن يعلم مرتبته، وإلا هلك. والثاني، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، من أدبه مع ربه في تمام فقره إليه، لا يرى منة منه على أحد؛ وهذا من علوم المعاملة التي لا يعقلها إلا الربانيون. وقول الله بعد امتنانه على عباده بالهداية {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، هو ليدلهم على الشوائب التي هم عليها في إيمانهم، مما يُخرج كثيرين من مُدّعيه عن حقيقته، وهم لا يشعرون. لذلك أعقبه بقوله سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}، أي هو بصير بما يعملون من أمور تخالف زعمهم الإيمان. وأما الإيمان المذكور في هذه الآية، والذي جاء في معرض الكلام عن الإسلام، فهو الإيمان المُجمل الذي يكون عليه أهل مرتبة الإسلام، وليس الإيمان المرتبة؛ لأن ذاك فوق طور إدراك هؤلاء المُدّعين. ولا بد هنا من العروج على فرع من فروع المنّ بالإسلام التي لا يكاد العامة يشعرون بها، وهو نسبتهم إيمانهم لأنفسهم وحدها من دون الله. وهذا يظهر في رؤية الفضل لأنفسهم على من لا يؤمن، ويظهر في منطق المتاجرة الذي يعاملون به ربهم عند إتيانهم ببعض الأعمال. وهؤلاء كلّهم ترد عليهم حقيقتهم من باطنهم ومن ظاهرهم، وإن كانوا في الغالب لا يسمعون: {بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}. وإن أول من تنبغي عليه المبادرة إلى التوبة من هذه الآفة، الفقهاء؛ الذين توهموا من نسبة الأفعال إلى العباد بمنطق الشريعة، أنها لهم حقيقة، فضلوا على علم. ومعنى أن يضل العبد على علم، لا يعني أنه يكون عالما بالشيء ثم يضل بعلمه ذاك؛ لأن هذا سيقلب حقيقة العلم، وهو لا يصح؛ ولكن المقصود أن العبد يكون له علم بوجه من وجوه المسائل، فيعمم علمه ذاك على وجوه أخرى منها لا يشملها، فتكون النتيجة ضلالا لا شُبهة فيه. وهذا الصنف من الضلال كثير عند من يزعم أنه من أهل العلم الشرعي، أو من أهل الإيمان. ولو أن العبد تفطن إلى أن منطق الأحكام الشرعية، هو صنف واحد من أنواع المنطق التي ينطوي عليها كلام الله، لتنبّه إلى أصل ما نتكلم فيه؛ ولكن بما أن استناده في إدراك منطق الأحكام، كان على المنطق العقلي المجرد، عند توهمه أنْ لا منطق غيره، فقد جعله يقع فيما وقع فيه من ضلال. وهذا يحدث كثيرا للفقهاء، وهم لا يشعرون!...

ــ "في أيام مردخاي وإستير، في العاصمة شوشن، عندما قام عليهما هامان المجرم، وطلب تدمير وقتل وإهلاك كل اليهود من الغلام إلى الشيخ والأطفال والنساء، في يوم واحد هو الثالث عشر من الشهر الثاني عشر، أي شهر آذار، ونهبهم غنيمة، وأنت بمراحمك العظيمة أبطلت مشورته، وخيبت فكرته، ورددت جزاءه على رأسه، فعلقوه هو وأولاده على الخشب": يستحضر اليهود هنا واقعة تاريخية أخرى، مما يرونه مفصليا في معنى وجودهم، ويشكرون الله على إنجائهم فيها، وعلى انتقامه من أعدائهم؛ وهو خلط لديهم، يجعلهم في نظر أنفسهم محور المعاملة، وهو ما لا يصح؛ لأن محور المعاملة ينبغي أن يكون الله لا هم. وهذا كله من ضعف إدراكهم لما نذكر!... ولو أنهم كانوا من الألباء، وانتبهوا إلى معاملة الله في كل ذلك، لوجدوا الأمر منه سبحانه وإليه. فأهل الكفر المعتدون ليسوا إلا مظاهر للأسماء الجلالية، التي هي وجوه لاسمه الأعظم؛ وهم ليسوا منقطعين بأنفسهم، وكأنهم عباد لرب آخر. بل إن اليهود وقعوا في هذا الشرك بسهولة، عند توهمهم أن معاركهم كانت بين فريقين، كل فريق يتكون من إله ومن عابديه. وهذا لا يصح البتة!... إلا في الأذهان السقيمة... وعندما يمتن الله على عباده بإنجائهم من عدوّهم، فإنه لا يلفت انتباههم إلى ذلك العدو، وإنما يريد أن يروا نعمته عليهم، ليزدادوا بِشكرهم ترقيا وتقربا. وعلى الناس –حتى تسهل عليهم العودة إلى ربهم– أكانوا يهودا أم نصارى أم مسلمين، أن يتخلّصوا من مركزيّتهم التاريخية عند أنفسهم، ويعلموا أنه لا فرق بينهم وبين غيرهم من الشعوب والأقوام عند الله، إلا بمقدار عبوديتهم له سبحانه. والعبودية، هي ما ينبغي أن يستخرجوه من تحت طبقات أوهامهم التاريخية المركزية، ليعودوا بذلك إلى معنى آدميتهم المشتركة. فالآدمية التي هي أعلى مرتبة يصلها بشر من جهة الباطن، لا تُدرك إلا باعتبار الآدمية التي هي الأصل الأول من جهة الظاهر. ونعني من هذا ما سبق أن قيل من قِبل بعض حكماء الطريق، من أن النهاية هي البداية عينها؛ بوجه من الوجوه. وكيف يعلم بدايته، من علق في طور من أطوار التاريخ، أو في معاملة

من المعاملات المحصورة. ورغم أن كثرة المعلومات تدل من أحد وجوهها على كثرة العلم، إلا أنها في أحيان كثيرة تكون حجابا عنه. فليتّق العبد المهالك فيما لا يبدو ظاهرا منها، لأن ما يبدو في الظاهر منها، يُدركه السفهاء أيضا. ومن قنع بعلم السفهاء، فكيف يزعم لنفسه الخصوصية في العلم بعد ذلك. كل هذا نقوله، لأن جل أهل زماننا واقعون فيه!...

ـــ "وهكذا صنعت معهم معجزات وعجائب، فنشكر اسمك العظيم، سلاه": إن معنى الشكر حقيقة، هو أن يكون عاما؛ لأن الله تفضل علينا بالإيجاد وبالإمداد. ومن كان شكره عاما، كان جزاء الله له على قدره. لهذا يكون من الناس من لا يعلم منتهى جزائهم إلا هو سبحانه؛ وهم الموَفَّوْن أجورهم بغير حساب، كما في قوله تعالى: {لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [النور: ٣٨]. ومعنى "بغير حساب"، لو تفطّن الناس، لا يدخل ضمن منطق التجارة الذي هيمن على عقولهم!...

ـــ "وعلى كل هذه ليتبارك ويتعال ويرتفع اسمك دائما، يا ملكنا إلى أبد الآبدين وكل الأحياء يشكرونك، سلاه": إن جعل الشكر على قدر النعمة بحسب إدراك العبد منها، لا يرقى إلى أن يكون من مرتبة شكر العالمين. ونحن قد دللنا على بعض وجوه المسألة من جهة العلم، فلا داعي إلى تكرارها هنا.

ـــ "واكتب حياة سعيدة لبني عهدك، وليمدحوا ويباركوا اسمك العظيم حقا إلى الأبد، لأنه طيب إله نجاتنا وعوننا، سلاه. الإله الطيب، مبارك أنت يا رب، الطيب الاسم، وبك يليق الشكر": وكما ربط اليهود الشكر بما أنعم الله عليهم في ماضيهم، هم يربطونه هنا بما سيُنعم عليهم في مستقبلهم. وهو وإن كان أوسع من جهة المعنى من الصنف الأول، إلا أنه يبقى منوطا بإدراك معنى النعمة الملاصق للغرض (المصلحة)؛ وهو معنى ضيق، وإن بدا واسعا. وأفضل الشكر ما كان مُطلقا عن العلة مع تضمنه لها.

ـــ "إلهنا وإله آبائنا، باركنا بالبركة المثلثة في التوراة، المكتوبة على يديْ موسى عبدك المنطوقة من فم هارون وأبنائه كهنة شعبك المقدسين في قوله: "يباركك الرب ويحرسك، يضيء الرب بوجهه عليك، ويرأف بك. يرفع الرب وجهه عليك، ويمنحك سلاما، فيجعلون اسمي على بني إسرائيل وأنا أباركهم": يذكر اليهود هنا وعد الله، وكأنهم يُذكّرونه سبحانه به. والمعنى وإن كان مما يجوز شرعا، إلا أن العبد عليه أن يلازم الأدب فيه. وهنا تأتي مهمة الأئمة، الذين ينبغي أن يدلّوا العباد على ما ينفعهم عند ربهم؛ لا أن يحبسوهم داخل انتمائهم الديني التاريخي، الذي قد يقتل فيهم إيمانهم ويُهلكهم إلى الأبد. ومن عجيب الأمر، أن الناس يهتمون لما قد يصيب أبدانهم من أذى وإن كان مستحقرا، ولا يُبالون مع ذلك بما قد يُميت قلوبهم؛ وكأن الأبدان قد أصبحت أهم من القلوب، التي مدار كل الأمر عليها. وهذا يُشبه الإنسان المالك لدابة من الدواب، وهو من انعكاس إدراكه، يخدمها بكل ما أوتي من قوة، ويرى هلاكه دون خدمتها والقيام بأمرها، مما يرقى به في ميزان العقلاء!...

١٩. [اجعل علينا سلاما وخيرا وبركة وحياة ونعمة وفضلا وإحسانا ورحمة، وعلى جميع شعبك إسرائيل. وباركنا يا أبانا جميعنا معا بنور وجهك. لأنه بنور وجهك أعطيتنا يا رب إلهنا شريعة وحياة ومحبة وفضلا وإحسانا ورحمة وبركة وسلاما. ليكن حسنا في عينيك أن تباركنا وتبارك كل شعبك إسرائيل بمزيد عزة وسلام.]. وفي أيام التوبة العشرة يُقال: [وفي سفر الحياة والبركة والسلام والقوت الجيد والفرج والعزاء والأحكام الحسنة، لنذكر ونكتب أمامك نحن وجميع شعبك إسرائيل لحياة سعيدة وسلام. مبارك أنت يا رب، يا من يبارك شعبه إسرائيل بالسلام. آمين. لتكن أقوال فمي وفكر قلبي مرضية أمام وجهك، يا رب يا صخرتي وموئلي (مزامير: ١٩: ١٥).]:

ـــ "اجعل علينا سلاما وخيرا وبركة وحياة ونعمة وفضلا وإحسانا ورحمة، وعلى جميع شعبك إسرائيل": هذا دعاء عام من حيث النعم المدعو بها، وخاص من حيث المدعو له. وهو جائز شرعا، لكونه داخل في نطاق المعاملة بين الرب وعباده.

ـــ "وباركنا يا أبانا جميعنا معا بنور وجهك. لأنه بنور وجهك أعطيتنا يا رب إلهنا شريعة وحياة ومحبة وفضلا وإحسانا ورحمة وبركة وسلاما": وهذا أفضل من حيث العبارة من كل ما سبق، لأنه يذكر تفضل الله على عباده بدءاً، لا بمعنى الجزاء والمقابلة وحدهما. وذكر نور الوجه هنا، يرفع من قيمة الكلام؛ لأن الوجه يُحيل على الذات. وكل معنى ذاتي هو أرفع من حيث المرتبة من كل المعاني الأخرى العائدة إلى الصفات أو إلى الأفعال؛ مع أن العامة من أهل الدين، لا يكادون يعلمون من هذه الدلالة الذاتية شيئا. ولكن الموافقة في اللفظ تأتي بالبركة، وإن لم يتحقق العلم. ومن هذا الباب كان يُسن للناس الدعاء بما صح قوله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولو من غير إدراك لمعناه. ومعنى الوجه، هو مِن أغمض المعاني لدى علماء الدين، خصوصا منهم أهل العقائد والكلام؛ مع أنه من أوضحها، لمن كان على نور عند نظره في كلام ربه. ولسنا هنا بمعرض بحث المسألة، حتى نفصّل الكلام فيها؛ وإنما أردنا التنبيه إلى أصلها فحسب.

ـــ "ليكن حسنا في عينيك أن تباركنا وتبارك كل شعبك إسرائيل بمزيد عزة وسلام": يقصدون أن تكون إجابة الله لهم عن قبول، حتى تتم النعم. وهذا المعنى ضمني في الإجابة، ولكن ذكره يزيد من أدب قائله، إن كان يعلم ما يقول. وهذا يجعلنا نذكّر بأن الإجابة من الله لعباده على ضربيْن: إجابة تكون من باب إنجاز الله لوعده، وهي تشمل أحيانا من لا يكون محبوبا عند الله. وغير المحبوبين، قد يُسارع الله لهم في الإجابة، بعكس الصنف المحبوب؛ وخلافا لما يتوقّعه العقل المعاشي أو المفكّر. والإجابة التي تكون عن رضى ومحبة، قد تتأخر أحيانا من باب استبطاء صاحبها. وهذه المعاني من العلم الغريب، الذي لا يكون إلا لأهل الله الكبار. وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ اللَّهَ عزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لِمَلائِكَتِهِ: انْطَلِقُوا إِلَى عَبْدِي، فَصُبُّوا عَلَيْهِ الْبَلاءَ صَبًّا! قَالَ: فَيَأْتُونَهُ، فَيَصُبُّونَ عَلَيْهِ الْبَلاءَ صَبًّا، فَيَحْمَدُ اللَّهَ، فَيَرْجِعُونَ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبُّ إِنَّا صَبَبْنَا عَلَيْهِ الْبَلاءَ صَبًّا كَمَا أَمَرْتَنَا! فَيَقُولُ: ارْجِعُوا فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ!»[1]. وجاء عنه صلى الله عليه وآله وسلم في المقابل: «إِنَّ الْعَبْدَ يُؤْتَى مَالا وَوَلَدًا وَصِحَّةً؛ قَالَ: فَشَكَاهُ الْمَلائِكَةُ (أي شكوا سوء حاله)، فَيَقُولُ اللَّهُ: مُدُّوا لَهُ فِيمَا هُوَ فِيهِ، فَإِنِّي مَا أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ!»[2]. ولقد قلنا آنفا إن هذا من غريب العلم، لأنه من علم المحبة؛ وهي لا تخضع للمنطق العام شرعا وعقلا. وإخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم هنا، هو من مرتبة محبته ومحبوبيته، لمن كان من أهل المحبة لا لغيرهم. والكلام يتلون بلون المتكلِّم ولون المُخاطَب، فينبغي أن يُعتبر هذا.

ـــ "وفي سفر الحياة والبركة والسلام والقوت الجيد والفرج والعزاء والأحكام الحسنة، لنذكر ونكتب أمامك نحن وجميع شعبك إسرائيل لحياة سعيدة وسلام": وهذا من الدعاء العام، الذي لا يتجاوز فيه الداعون أغراضهم. وأين هذا، مما كنا بصدده قبل قليل!...

ـــ "مبارك أنت يا رب، يا من يبارك شعبه إسرائيل بالسلام. آمين": إن ربط تبارُك الله بمباركته لشعب إسرائيل، وإن كان يبدو من الشكر في ظاهره؛ لا يسلم من رائحة الاشتراط الذميم، الذي أوضحناه فيما مرّ. والعباد يُخاطِبون ربهم على قدر علمهم به سبحانه، فلا ينبغي أن يُغفل هذا.

ـــ "لتكن أقوال فمي وفكر قلبي مرضية أمام وجهك، يا رب يا صخرتي وموئلي": ويعود الداعي إلى خاصة نفسه، ليسأل ربه التوفيق لما يرضيه عنه من أقوال ومن خواطر. ويعوذ به –عند استدعاء معنى "الوكيل" ومَن قارَبه من الأسماء– من المخالفة الجالبة للغضب والمقت. وهذا دعاء جيد، لأنه مناسب لحال الفقر الذي يكون عليه العبد بين يدي ربه. وهو مطابق لمعنى "لا حول ولا قوة إلا بالله" لدى المسلمين.

[1] . أخرجه البغوي في شرح السنة، عن أبي أمامة رضي الله عنه.

[2] . المرجع السابق بالإسناد نفسه.

وبهذا نكون قد انتهينا من الكلام على المعاني الواردة في صلوات اليهود، مما هو من أُسس عقائدهم. ونحن بهذا الكلام لم نفرُغ بعد من عقائدهم، وإنما أردنا أن نجعل الصلاة مدخلا، به نحدّد مجالها فحسب. وأما تفصيل الكلام –إن شاء الله– فإنه سيأتي عند ذكر العقائد نفسها، بألفاظها وبمعانيها، في مواضع قادمة من هذا الكتاب...

الفصل الرابع
الشعائر اليهودية: التقويم والأعياد

لقد جهل الدارسون الأصل الرباني للتقويم الخاص بالأمم السالفة، خصوصا تلك التي كانت على شرك أو وثنية؛ وما علموا من عبادة الأقوام المختلفة، إلا نسبتها إليهم، مع إغفال تام لوجهها الرباني الذي لا يغيب ولا في واحدة منها. ونعني من هذا، أن عبادة الأقوام، وإن كانت في حكم الشرع شركية، إلا أنها من جهة الحقيقة، لا تخرج عن عبادة الله من جهة الأسماء. وهذا يعني أن اختلاف الشرك من جهة العقيدة، عن التوحيد، لا يكون إلا عند نسبة الظهور إلى المظهر لا إلى الظاهر. وحتى نتوسع قليلا في المسألة، فلا بد من أن نعرف أولا معبود القوم المخصوصين، وندل بعد ذلك على الاسم (أو الأسماء) المعبودة من ورائه. يقول الله تعالى: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} [الزمر: ٣]. والآية تدل من جهة ظاهرها على أن العابد لله، هو وحده من يكون على الدين الحق؛ وتدل من جهة باطنها على أن الدين حيث كان، هو خالص لله تعالى. وتدل مرة أخرى من جهة ظاهرها، على أن الذين عبدوا المظاهر المختلفة، التي منها الأصنام المعلومة لقريش، ما كانوا يعبدونها لنفسها، وإنما كانوا يعبدونها لتقربهم إلى الله. وهذا يعني أنهم كانوا على علم بألوهية الله، وبرئاسته لكل الأسماء، ولكن كانوا يجهلون كيفية العبادة فحسب. وهم في هذا أقرب ما يكون إلى حال أهل الفترة الذين يكونون على الفطرة. والفصل بين مختلف العابدين يوم القيامة، لن يكون إلا لله، معبودهم جميعا؛ وهذا من أكبر دلالات التوحيد الساري في العالم. وأما من كان حاله الكذب والتمادي في الكفر، بمخالفة ظاهره لباطنه، أو بمخالفة لسانه لقلبه، فإن الله لا يهديه لما اختُلف فيه من الحق؛ جزاء له على حاله. وهذا من باب نفع الصدق للمؤمن وللكافر، وإن اختلف منهما الحال واختلفت الدار. يقول الله سبحانه عن الصادقين الذين ظهر صدقهم بظهور إيمانهم: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [المائدة: ١١٩].

ونحن إن عدنا إلى أكبر الحضارات، فإننا سنجد الحضارة المصرية في مقدّمتها؛ وسنجد المصريّين القدماء يعبدون الشمس. وبما أن الألوهية لا تنفصل في إدراك الشعوب عن الحُكم والقائم به، فإننا سنجد المصريّين القدماء ينسبون الحاكم (فرعون) إلى الشمس بالبنوة؛ ليجدوا رابطا لهم بين الأرض والسماء، على قدر إدراكهم. ولقد ذكرنا معنى البنوة بالنسبة إلى الأسماء في الجزء الأول من هذا الكتاب. وحتى يتمكن القارئ من إدراك ما نرمي إليه، فعليه أن يعتبر مستوى الإدراك لدى الشعوب القديمة، ومعه القدرة على التعبير باللغة عن المعاني المرادة لهم. نقول هذا، لأن أناس هذا الزمان، يحكمون على الأمور، وكأن البشرية كلها كانت على مستوى واحد من حيث ما ذكرنا؛ وهذا يحرف الاستنتاجات من غير شك. والحقيقة هي أن المعاني تدور على أصول بارزة، يرتبط بها كل ما عداها، ارتباطا تدل عليه الأسماء والعبارات، بحسب مُستطاع الناس. وهنا ينبغي التفريق بين الوحي والكلام البشري؛ لأن الوحي سيدل على المعاني كما هي في علم الله، وسيُعبّر عنها بمستويات لغوية متفاوتة؛ حتى تعقل الأقوام عنه. وهذا الجانب في الوحي، يجعل الهيمنة فيه على آخر ما نزل منه، وهو القرآن؛ ومن لم يُدرك ما نقول، فإنه سيبقى متخلّفا عن صحيح الإدراك المنوط بالزمان، وربما قد ينحجب عن إدراك المعنى من التعابير المُتجاوَزة، من دون أن يشعر. ولقد نبّه القرآن إلى هذه الأمور في قول الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ

رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [إبراهيم: ٤]. ومعنى {بِلِسَانِ قَوْمِهِ}، يتضمّن اللغة من حيث هي لغة، كما يتضمن التعابير المتعارف عليها التي قد تختلف داخل اللغة الواحدة، بالنظر إلى الزمان أو إلى المكان، أو بالنظر إليهما معا. وهذا الذي نقوله، مما هو معلوم بالضرورة لدى علماء اللغة، بحيث لا يتطلب منا توقفا عنده. وأما قوله تعالى {لِيُبَيِّنَ لَهُمْ}، فالمقصود بالتبيين منه، تبيين ما يتعلّق بتجليات الحق في الخلق؛ وهو مجال ظهور الأسماء الإلهية بمظاهرها في العالم. وهكذا، فإن الرسل عليهم السلام، جاؤوا لينفوا الحيرة عن عقول الناس، بخلاف ما يقوله المتفلسفون، الذين يتوهمون أن الفلسفة هي مجال فك طلاسم الوجود. وهذا التوهم، جعل العقلاء، يفسرون الدين تفسيرا مُخِلا، لتبقى المكانة العليا للعقل بحسبهم. فكانوا يقولون: إن الإنسان البدائي عند نظره إلى عالم الطبيعة، فسّر ما لا يبلغه إدراكه منه بتفاسير خرافية، ربطت الظواهر والمظاهر بعالم الأرواح؛ فلما تطوّر العقل -دائما بحسبهم- فإنه صار يعلم "العلم" الذي جعله متحكما بقدر قابل للزيادة، فيما حوله. وهذا أصل المرور من الحقبة الدينية لدى الإنسان، إلى الحقبة "العلمية" في نظرهم؛ وأصل القول بتأليه الإنسان (مبدأ الأنسنة)، في مقابل ألوهية الإله. وكل هذا مغالطات، لا ترقى إلى أن يَلتفِت إليها عاقل بالمعنى الصحيح للكلمة. وعلينا هنا أن نتبيّن الفرق بين التبيين الذي كان عليه الرسل عليهم السلام، والتفسير بالظن الذي عمل عليه الفلاسفة؛ مع تقرير أن الفلاسفة الأقدمين كانوا أعقل بكثير من مُتأخِّريهم. ولعلنا نعود إلى بسط القول في هذه المسألة خاصة، في موضع آخر من هذا الكتاب؛ ولنعد إلى ما كنا بصدده من التبيين، فنقول: إن الرسل كانوا يدلون على الأسماء الإلهية، بحسب ترتيبها في الحُكم؛ ليعقل أقوامهم تراتب الوجود المشهود لهم، وليعلموا ولو بطريقة الهداية عن طريق التقليد، كيفية معاملة الأسماء في مختلف أحوالهم. وهذا علم عظيم، لا يعلم قدره إلا الربانيون!... وأما من كان على الشرك والوثنية، فإنهم كانوا على دين موازٍ، يُعاملون فيه مظاهر الأسماء لا الأسماء ذاتها. وهكذا، فإن عبادة المصريّين للشمس، لم تكن إلا معاملةً للاسم "النور" من وراء حجاب مظهر الشمس. ولقد خصّوه بمركزية العبادة، لِما رأوا له من مركزية بين الأفلاك، ولِما رأوه من نشوء السّنة الفلاحية عن دورة الشمس. وذلك لأنهم لم يعقلوا من وجودهم، إلا حياتهم الطبيعية وحدها، دون حياتهم الروحية[1]. وحتى عند القول بتعدد الآلهة، فإن المصريّين القدماء، لم يتجاوزوا الشمس؛ فهي إما الإله المهيمن وإما ابن لإلهين يكونان أبا وأما لها. وحتى العدد الذي يكون أحيانا تسعة (تاسوع هيليوبوليس) أو ثمانية (ثامون أشمون)، فإنه يدور حول عدد الصفات السبع الأمهات؛ وإضافة واحد أو اثنين تعود إلى الخطأ في الاعتبارات فحسب. ولقد قارب الوثنيون الحقيقة، لأنهم نظروا إليها نظرا يقارب نظر الأطفال، ويخالف نظر النُّظّار. فعبروا عما انطبع في بواطنهم تعبيرا دقيقا أحيانا، لكن عن صورة غير واضحة؛ بخلاف الرسل عليهم السلام الذين كانوا يُعبّرون بأدق العبارات عن معان واضحات. والوضوح لا يكون باعتبار الحقيقة إلا عن كشف إلهي (وحي) أو كشف شهودي (تعرف)، وهو لاحق بالوحي من جهة مصدريته. وأما الفلاسفة الذين توهموا أنهم أدركُ للحقيقة من سواهم، فإنهم بقوا مع تصوُّرات عقولهم، من دون أن يشعروا. ولسنا نعني بالتصورات هنا، إلا صورة الوجود في أذهانهم. ولقد اختلفت التصورات لاختلاف العقول، واختلفت لاختلاف الأزمنة والثقافات؛ وما تفطن المساكين إلى أن الحقيقة أقرب إليهم من عقولهم ذاتها. يقول الله تعالى في هذا المعنى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق: ١٦]. والعقل عند الفيلسوف من مقام النفس، وليس من مرتبة العقل المجرّد عن الجسمية. وهذا الذي ذكرناه من اختلاف بين طريقيْ الوحي والفلسفة، هو ما يدل عليه قول الله تعالى من الآية السابقة من سورة إبراهيم: {فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}؛ فالمهتدون هم أتباع الرسل، والضالون هم

[1] . يخلط الناس بين معنى الروحية ومعنى العقدية، لذلك هم يجعلون كل عبادة روحيةً بغض النظر عن كونها حقا أم باطلا؛ وهذا غلط.

الفلاسفة وأتباعهم. ولعل القارئ قد أدرك أن الوثنيّين كانوا على ضلال، أهون من ضلال الفلاسفة؛ وهو بالتأكيد مخالف لما تظنه العامة في المسألة. وهنا لا بد من الإشارة إلى ما كان عليه فلاسفة اليونان من توحيد، في مجتمع وثني مُعدِّد؛ لنعلم أن توحيد الفلاسفة كان نتيجة وثنية قومهم، بخلاف تفلسف المتأخرين الذي جاء مؤسَّسا على العقلانية وحدها، التي جعلتهم يدورون حول أنفسهم، ولا يستطيعون فكاكا. وهذا الذي نذكره هنا، من مفاتيح العلم المتعلق بما يُسميه الفلاسفة "نظرية المعرفة"؛ لو أنهم يعتبرونه. وأما ختم الله للآية بالاسمين: "العزيز" و"الحكيم"، فهو للدلالة على هيمنتهما العلمية في باب التجلي. ونعني من هذا، أن الحق أعزّ من أن يُدرك بإرادة العبد ذلك؛ بل هو سبحانه لا يُدرَك من هذا الوجه قط، وإن كان لا يظهر من الوجود إلا هو سبحانه، على كل حال. وهذا لحكمة اقتضاها "الحكيم"، المرتِّب لمختلف العلاقات ومختلف المعاملات بين مختلف الأسماء. وهذا يعني أن الأسماء الإلهية لها نظام حُكم يخصها، من لا يعلمه، لا يتمكن من إدراك مظاهر الوجود الناشئ عنها. وهذا العلم، لا أعلى منه في العلوم؛ وهو داخل في علم الحكمة التي يقول عنها سبحانه: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [البقرة: ٢٦٩]. والكثرة في الخير هنا من كثرة الأسماء وكثرة مظاهرها وتراكيبها، وهي لا نهاية لها في نفسها؛ وإن كان العبد لا بد من أن يكون محدود العلم به، مع القابلية للزيادة فيه، في حق المُصطفيْن؛ كما نفهم من أمْرِ الله نبيَّه صلى الله عليه وآله وسلم أن يسأله بقوله: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: ١١٤].

ولم تكن الديانة لتختلف عند البابليين عن المصريين إلا في التفاصيل والمظاهر؛ وكذلك الأمر عند الأشوريين والكلدانيين والكنعانيين والسريان والآراميين والعرب. وإن نحن تتبعنا الأسماء الإلهية فيها (الديانات) فإننا سنعثر عليها جليّة، وإن ظن الدارسون أنها كانت تختلف من حيث الجوهر. وحتى ندلل على بعض مواطن الاختلاف، ولا خلاف، فلنعتبر مفهوم التوحيد وما يُسمّى التفريد (الإفراد)، حيث يُظن أن الديانة التوحيدية هي ما كان يُعبد فيها إله واحد؛ وأن الديانة التفريدية هي ما كان يُخصص فيها إله واحد بالتعظيم، من دون إنكار لآلهة أخرى معه. وإن نحن عُدنا إلى ما تُعطيه الأسماء، فإننا سنجد الاسم الله اسما جامعا من حيث الدلالة المعنوية، لكل الأسماء الإلهية. فمن تفطن إلى هذا الجمع، نسب الألوهية إلى الله، وكان على التوحيد؛ ومن جهل هذا الجمع، فإنه سيظن كل اسم آخر غير "الله"، مستقلا من جهة الذات، في الغالب لضعف في الإدراك، وبالتالي فإنه سيقول بالتعدد. ولو عدنا إلى معنى الذات، كما هو، فإننا سنجده مجهولا حتى عند أهل التوحيد كاليهود والمسلمين. فأما المسلمون، فإن جلّهم يؤمن بالذات ولكن لا يعلمها؛ وهم بذلك لا يعلمون من الله إلا مرتبة ألوهيته (رئاسته للأسماء كلها) لا الذات. ولما جهل علماء الدين (المتكلمون على الأخص) هذا التفريق، فإنهم صاروا يشقّقون في العقائد في كل مرة، بحسب ما يوافق إدراكهم. ولو أنهم كانوا على توحيد سليم وواضح، لكانوا على عقيدة واحدة من غير شك، ما دامت الحقيقة واحدة. وعلى جلاء هذا المعنى في العقول، فإن أهل العقائد لا يعتبرونه، بسبب غلبة التجلي من جهة باطنهم عليهم. ونعني من هذا، أن التجلّي الإلهي عام، وأن الشهود له عام، وما يختلف فيه الناس هو العلم به الذي إما أن يكون عن هداية ربانية، وإما عن إضلال؛ عند إبقاء العبد مع ما يُنتج له عقله ذو الأصل العدمي. ومن يرِدْ أن يتبيّن ما نذكره، فليُجرب أن يجمع بين شيعي وسنيّ من جهة العقيدة؛ أو بين أشعري وسلفي؛ مع أنهم جميعا مصرّون على أنهم مسلمون، ولا يقبلون بديلا عن ذلك. وهذا يعني، أن ما هو سبب في اختلاف عقائد المسلمين، هو ذاته ما كان سببا في اختلاف الديانات[1] بعضها عن بعض. وأما الديانات الثنوية كدين المانوية، فإنها تعود في أصلها إلى شأنيْن من شؤون الذات، هما الظهور والبطون؛ اللذان يكون الليل والنهار من

---

[1] . نحن نعتبر أهل الكتاب على دين واحد من حيث الأصل، لذلك نعني بالديانات ما عداها مما عرفه الناس مشرقا ومغربا.

تجلياتهما. ونعني أن القول بالتثنية ليس أصليا في اعتبارهم، وإن جهلوا حقيقته؛ بل هو من توابع التوحيد. ونعني بالتوحيد -كما تدل عليه صيغة الاسم- ما تعدّد وانتهى إلى واحد؛ لا ما كان أحدا. ولهذا، فإن الاسم "الأحد" يُطلق على الذات من غير اعتبار لمعاني الأسماء من غيره، بمن فيهم الاسم "الله"؛ وإن كان الاسم الله، من أحد وجهيْه عَلَما على الذات، كما هو معلوم لدى العلماء. ولكن دلالة "الأحد" أخص، بسبب اقتصار دلالته على المعنى المذكور، دون الاسم الله الذي هو أوسع منه في التجلّي من غير شك. وما نريد أن نخلُص إليه من كل كلامنا هنا، هو أن كل الديانات توحيدية من جهة حقيقتها؛ ولا يُنسب الشرك إلى أهلها ممن كان على الشرك، إلا من جهة تصوُّراتهم هم فقط. وإن كان هذا، هو ما يتعلّق بالديانات كلها، فما القول بالدين الواحد، دين أهل الكتاب في أصله، ودين الإسلام الآن!...

ولقد قدّمنا بالكلام عن التوحيد، لنقرر أن اليهود في تقويمهم للزمان، لم يكونوا يختلفون كثيرا عن غيرهم من الأقوام، إلا في بعض التفاصيل. بل إنهم كانوا أكثر موافقة للحق من غيرهم، من الأمم المعاصرة لهم على الخصوص. وحتى ما هو محل لاختلافهم مع غيرهم، فإن مردّه إلى أصل واحد ولابد. ونعني -مثلا- أن السَّنة التي هي اثنا عشر شهرا، لا تختلف عنها عند من يقول بعدد من الأشهر أقل أو أكثر، كما كانت تقول بعض القبائل البدائية؛ وذلك لأن التجليات واحدة في أصلها، وهي تجعل مشهود هؤلاء القوم من أحوال الشمس أثناء دورتها، مشهود القوم الآخرين؛ والاختلاف هو في الاعتبارات والتصورات الناشئة عنها فحسب.

ولقد جعل اليهود بداية تقويمهم بداية الخلق عينها، وهو معنى جيد؛ بل إنه الأجدر بالاعتبار، إن قلنا بحدوث العالم. ورغم أن اليهود لن يتمكنوا من الكلام عن بداية خلق العالم، من جهة المعاينة، لكونهم متأخرين عن أبيهم آدم عليه السلام بقرون طويلة، ولكون آدم نفسه متأخرا عن خلق السماوات والأرض وما بينهما من مخلوقات كالملائكة والجن؛ إلا أنهم سيجتهدون وسيقدّرون ذلك بحسب مُستطاعهم. ولقد توصلوا إلى أن الزمان من بداية الخلق إلى اليوم الذي نحن فيه، والذي يوافق ٢١ مارس ٢٠٢٠ بالتقويم الميلادي، هو ٥٧٨٠ سنة. ولن نرد على هذا الزعم بما يقوله علماء الآثار، الذين يرون أن الزمان الفاصل عن العصور الأولى المعلومة للإنسان وحده، يفوق ما يُقدّره اليهود بكثير؛ وسنكتفي باعتبار التقويم العبري تقويما وضعيا في مقابل التقاويم التي عرفتها البشرية في جميع أصقاع الأرض. وأما مسألة حدوث العالم، فإننا سنعود إليها عندما نعرض لأقوال الكتابيّين فيها بالتفصيل؛ وهي من أعقد المسائل وإن ظُنّ فيها خلاف ذلك.

والسنة العبرية هي اثنا عشر شهرا، بحساب دورة القمر من جهة الشهور، وبحساب دورة الشمس من جهة السنين. وهم موافقون لعلم الله في المسألة، لقوله تعالى: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [التوبة: ٣٦]؛ أي يوم خلق السماوات والأرض، وأذِن بدوران الأفلاك؛ لأن الزمان لم يكن موجودا قبل هذا الدوران. ونعني بوجود الزمان هنا، معقوليته فحسب؛ لا شيئا زائدا. واليهود بهذا التركيب بين الشمسي والقمري في التقويم، يُشبهون ما عليه المسلمون من تقويم قمري، وما عليه النصارى من تقويم شمسي، مع انفرادهم عن الفريقين من جهة التفصيل. بل إن المسلمين يوافقونهم في مبدأ التركيب ذاك، إلا أنهم لا يربطون شعائرهم إلا بالتقويم القمري وحده؛ بخلاف اليهود الذين يخلطون. وسنعلم في نهاية هذا الفصل، من أين دخل الخلط عليهم، بعد أن نتعرّف أعيادهم. وحتى يجمع اليهود بين التقويمين، كان لزاما عليهم إيجاد حل في الفرق الذي يكون بين السنة القمرية والسنة الشمسية، والذي هو النسيء. ويُقدّر النسيء بحوالي عشرة أيام في كل سنة، مما يجعلهم يُضيفون شهرا إلى حسابهم كل ثلاث سنين. وهذا يجعل سنتهم الكبيسة التي تأتي كل ثلاث سنوات، مكونة من ثلاثة عشر شهرا. وشهر النسيء، يُضاف عندهم بعد شهر "آذار" اليهودي؛ ويأتي في فصل الربيع: قسمه الأول في أواخر فبراير، وقسمه الثاني في مارس. وهكذا يكون في السنة الكبيسة آذار الأول وآذار الثاني.

ولما كانت الشهور العبرية قمرية، فإنها ستكون إما ثلاثين يوما أو تسعة وعشرين. وهناك شهران هما اللذان يأتيان إما كاملَيْن (ثلاثون يوما) وإما ناقصيْن (تسعة وعشرون يوما)، وهما: "حِشوان" الذي يقابل نوفمبر، و"كِسْلِو" الذي يقابل ديسمبر. وفي السنة الكبيسة التي يُزاد فيها شهر آذار الثاني، يكون آذار الأول ثلاثين يوما وآذار الثاني تسعة وعشرين. ولقد كانت الطريقة القديمة تجعل بداية السنة من فصل الربيع، وربما وافق ذلك عندهم تاريخ خروجهم مع موسى عليه السلام من مصر، في الوقت الذي يقع فيه عيد "الفصح" وهو شهر "نيسان" من شهور الربيع، كما سنرى فيما بعد. وهذا هو ما يجعل اليهود إلى اليوم، عندما يسردون الشهور يقولون: نيسان – أيار – سيوان – تموز – آب – أيلول – تشري – حشوان –كسلو – طِبت – شباط – آذار. وأسماء الشهور كما هو بادٍ من بعضها، مشتقة من التقويم البابلي، وربما كان ذلك من تأثُّرهم بالبابليين زمن السبي (القرن السادس ق.م).

وأما الفصول في السنة اليهودية فهي أربعة:

_ فصل الخريف (تقوفت تشري): ويبدأ في ٢٤ أو ٢٥ سبتمبر.

_ فصل الشتاء (تقوفت طبت): ويبدأ في ٢٤ أو ٢٥ ديسمبر.

_ فصل الربيع (تقوفت نيسان): ويبدأ في ٢٥ أو ٢٦ مارس.

_ فصل الصيف (تقوفت تموز): ويبدأ في ٢٤ أو ٢٥ يونيو.

وقد جعل المؤقِّتون اليهود لكل شهر أياما من أيام الأسبوع يبدأ فيها، متجاهلين حركة القمر تجاهلا جزئيا. فشهر "نيسان" عندهم -مثلا- لا يبدأ إلا في يوم أحد أو ثلاثاء أو خميس أو سبت؛ ولا يبدأ أبدا في يوم اثنين أو أربعاء أو جمعة. وهم بهذا يتصرّفون في التقويم، ولا يتبعون فيه ظواهره الطبيعية. وهذا سيجعل عقائدهم تبعا لذلك مُعقلنة (تحت تصرف العقول جزئيا)، وهو ما سيبعُدون على قدره عن المعاني الأصلية. وسيظهر هذا جليّا، في كل مرة نتناول فيها عقائدهم بالتحليل. ونحن الآن نسير في طريق ذلك بالتدرُّج، وبحسب ما تُعطيه منظوماتهم المعرفية المختلفة، كالمنظومة الزمانية هنا.

وأما ما يعود إلى أصل التقويم من كونه شمسيا أو قمريا، فهو متعلّق باعتبار الظهور والبطون اللذيْن هما شأنان ذاتيان أصليان. فالتقويم الشمسي معتبر عند أهل الظهور كالنصارى؛ وهو ما أنتج فيهم القول بألوهية المسيح عليه السلام؛ بخلاف أهل التقويم القمري، الذين تكون عقائدهم غيبية في الله، كاليهود وجل المسلمين. وهؤلاء تثبت عندهم الشرائع ثبوتا أكثر من الأولين، بسبب ما ذكرنا. وهذه المسألة ذات ذيول لا تنحصر، ونحن لا نريد أن نبتعد عن خط سيرنا في التناول؛ لذلك سنكتفي فيها الآن بما ذُكر. وأما لماذا كان التجلي المحمدي قمريا؟ فجوابه هو: لأنه لو كان شمسيا لضلّ أصحابه فيه ضلالا أكثر من ضلال[1] النصارى في عيسى؛ من كونه في الذاتية أعلى منه. ثم إن الكمال في التجلي، هو ما يحفظ المراتب من جهة إجمالها وتفصيلها؛ وهذا لا يعطيه إلا التجلّي القمري. ولعل القارئ قد فطن إلى أن التجلّي الذاتي المحض، لا يكون عنه علم البتة، وإن كان عنه ذوق خاص. وحتى لا يعترض أحد علينا بقوله إن الذوق علم، نقول: إلا هذا الذوق. وهذا الذي نذكره هنا، يجعل التقويم الشمسي حاضرا عند المسلمين، لكن من وراء القمر باعتبار الفصول. وهذا الأمر وإن كان يبدو مشتركا بين اليهود والمسلمين، إلا أنهم لا بد أن يكونوا مختلفين في إدراكه. والسبب هو اختلاف التجلي الموسوي عن المحمدي؛ مع كون القمر لا يدل إلا على الشمس، من جهة المعنى الذاتي، لا على نفسه. وهذا يعني أن التجلي القمري المحمدي على تمام الاعتدال، بين ما هو للحق وما هو للخلق؛ كما يدل على ذلك حال القمر في

---

[1] . وسنعود إن شاء الله إلى تناول حقيقة الضلال فيما يأتي من الكتاب.

منتصف الشهر (الإبدار). وإن كان التقويم يعود إلى الظهور والبطون كما ذكرنا، فإن الفصول التي هي دائما بحسب دورة الشمس، مردّها إلى الأسماء "الأول" و"الآخر" و"الظاهر" و"الباطن"؛ والتي لها الإحاطة كما لا يخفى. ولولا هذه الإحاطة، ما ظهر عالم الطبيعة من العناصر، ولا كانت الأجسام الطبيعية محصورة الجهات. وهكذا يكون الاسم "الأول" للخريف، ويكون "الآخر" للصيف، و"الباطن" للشتاء، و"الظاهر" للربيع. وهذا ينطبق على السنة الفلاحية، من بداية الحرث في الخريف، إلى حصاد الزرع في الصيف، مرورا ببطون الطبيعة في الشتاء وظهورها بأكمل مظاهرها في الربيع. وهذا أيضا من مظاهر التوحيد العامة، التي لا يخرج عنها شعب من الشعوب. نقول هذا، حتى يعلم القارئ مستندنا في كلامنا السابق عن الإسلام العام الذي يكون عليه كل الناس. ولعل ما مررنا به إلى الآن من عقائد اليهود، يدل دلالة كبيرة على ما ذكرنا؛ فكيف عندما سننتهي بإذن الله من كل الكتاب!... أم كيف لو أننا تناولنا عقائد غير الكتابيّين بالإضافة إليها!...

وأما أعياد اليهود فهي:

١. السبت: وهو العيد الأسبوعي، وهو من غروب شمس يوم الجمعة إلى غروب شمس يوم السبت. وهذا لأن الليل في الاعتبار القمري أسبق من النهار. وهو المصرَّح به في قول الله تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ} [يس: ٣٧]. وهذا يعني أن الليل أصل، وأن النهار طارئ عليه. وهو يُشير إلى بطون الذات، قبل ظهورها وأثناءه وبعده. ولا بأس هنا من أن نقارن بين السبت لدى اليهود والجمعة والأحد لدى المسلمين والنصارى. ولقد مرّ بنا ذكر معنى السبت، الذي هو اليوم السابع، يوم فراغ الله من الخلق؛ في مقابل الأيام الستة التي هي أيام الخلق. ومعنى اليوم هنا التجلّي، لا كما يُفهم من لفظه في العادة؛ وذلك لأن اليوم المعتاد تجلٍّ تفصيلي، كما هو التجلّي يوم مجمل. فالأصل في الاعتبار التجلي كما ذكرنا. ولقد غلط علماء المسلمين كثيرا عندما اختلفوا في معنى اليوم المراد من السبعة، وكان الأولى بهم السكوت. يقول الله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ٥٤]. ولقد كانت الأيام في مجموعها سبعة، لأن الصفات الأمهات سبع؛ وبها كان الظهور. وأما من جهة التفصيل، فإن الله يُخبر أنه خلق السماوات في يومين، وخلق الأرض في يومين. يقول سبحانه: {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [فصلت: ١٢]، ويقول أيضا: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ} [فصلت: ٩، ١٠]. وهذا يعني أن يوميْ خلق السماوات، من خارج أيام خلق الأرض، وأن المقصود بالأيام السبعة هنا، ما يتعلّق بأهل الأرض خصوصا، لكون آدم وذريته منها. وهذا هو ما جاء به حديث: «خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ.»[١]. وما ينبغي أن يُذكر هنا، هو أن الأيام السبعة لها اعتباران: حقي وخلقي. وحساب الأيام من جهة الحق ومن جهة الخلق، هو ما أعطى التبايُن في نسبة الأعداد إلى السماوات والأرض جميعا، وإلى الأرض خصوصا. وهذه التثنية في الاعتبار، هي ما يدل عليه قول الله تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ} [الزمر: ٢٣]. والتشابه يأتي من كون الظاهر والمظهر لا ينفصلان إلا في الاعتبار العقلي لا الوجودي. وهذا التشابه أصل كل قول يجمع بين الإثبات والنفي في القرآن، كقوله سبحانه:

[١]. أخرجه مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} [محمد: ١٩]، وقوله: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ} [الأنفال: ١٧]، وغير ذلك مما هو في هذا المعنى. ويوم الفراغ الموافق ليوم السبت، لا يكون إلا في أيام الحق؛ بخلاف أيام الخلق التي يُشير إليها الحديث، فإنه لا فراغ فيها. وكون يوم السبت عيدا، يعني أن اليهود (الموسويين)، عملوا على أصل ما كان عليه الحق مع الخلق؛ عملاً مقابل عمل، وفراغا مقابل فراغ؛ وهو لا شك معتبر جدا في الحقائق. وأما النصارى، فكان لهم الأحد؛ لأن التجلي العيسوي شمسي؛ ولقد قلنا سابقا إن الشمسيّة من الأحدية؛ والأحدية حق من دون خلق. وأما المسلمون فإنهم وافقوا يوم خلق آدم، الذي هو خلاصة العالم، وصورة الحق الظاهرة بمظهر الخلق. وهم بهذا الجمع اجتمع لهم ما تفرق لدى اليهود والنصارى وزادوا عليهم. ولقد أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذا المعنى بقوله: «نَحْنُ الْآخِرُونَ وَنَحْنُ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ بَيْدَ أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ أُوتِيَتِ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ؛ ثُمَّ هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا هَدَانَا اللَّهُ لَهُ؛ فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ: الْيَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ!»[1]. ومعنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «نَحْنُ الْآخِرُونَ وَنَحْنُ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، أي نحن الآخرون ظهورا على الأرض، والسابقون يوم القيامة مرتبة. وهذا من جهة التفصيل العائد في حكمه إلى الأصل، ولسنا نعني إلا أن آدم الذي هو أصل البشرية، ليس إلا صورة فرعية عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ فآدم سابق من جهة الظهور، لاحق من جهة المرتبة. وهذا يعني أن بني آدم من غيرنا، هم صور للصورة، وأما نحن فصور للأصل من جهة المعنى. وهذا هو معنى كونهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأُوتيناه من بعدهم؛ وليس الكتاب إلا التجلّي القرآني الذاتي المخصوص به نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وحده. وهكذا يكون الكتاب، هو الصورة الإلهية نفسها؛ فلا يَضلَّن أحد باللفظ. ومعنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثُمَّ هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا هَدَانَا اللَّهُ لَهُ»، هو أن التجلي الجمعي المسمى يوما (بالمعنى الجامع لكل معاني الأيام)، والذي جعله الله لنا، جعلنا فيه بهدايته سبحانه، على المطابقة التامة من أصله الأول؛ وهذا هو أصل تسميته "جمعة". وأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ»، فيُقصد منه آدم وكل بنيه، وعلى رأسهم اليهود الذين يأتي يومهم بعد يوم الجمعة (السبت)، والنصارى الذين يأتي يومهم بعد الذي بعده (الأحد). فهذا الترتيب الذي ظهر في أيام الأعياد، هو ترتيب في التجلّي. وما ظهر في أيام الدنيا بهذا المظهر، فإنه سيظهر يوم القيامة بمظهر يناسبها؛ حيث يكون السبق جليّا، لا يخفى كما هو خاف عن جل الناس هنا.

ومن أحكام يوم السبت عند اليهود: الكف عن العمل؛ وقد بيّنّا الحكمة منه آنفا. وإن معنى الكف عن العمل ينسحب على كل عمل وكل حركة من الحركات المتعديّة إلى الدواب كالسفر؛ ويدخل في معناه وسائل السفر العصرية أيضا، من سيارات وقطارات وطائرات... ويدخل في معنى العمل كسب النقود، فيحرم إنفاق النقود وتسلُّمها يوم السبت. ويدخل فيه أيضا الكتابة، التي يُراد منها في أصلها كتابة عقود البيع والشراء؛ ويتفرع عن ذلك عقد الزواج أيضا. ويدخل فيه أيضا الحرب إن كانت هجومية، أما إن كانت دفاعية من أجل الحفاظ على شعب بني إسرائيل فإن الكاهن يأذن فيها. ولقد نشأ عن تحريم الحرب الهجومية، ما يزعمه حكام دولة إسرائيل من كون كل حروبهم دفاعية؛ حتى لا يُضطرّوا إلى الرجوع فيها إلى المجلس الديني الأعلى دائما. وهذا من التحايُل على الشريعة، كما يحدث أيضا عند المسلمين والنصارى في مسائل عدة.

٢. بداية الشهر القمري: وله طقوس وصلوات تُقام عند رؤية الهلال في بداية كل شهر. وهم لا يعتمدون على الرؤية البصرية كما يفعل المسلمون، ويعتمدون الحساب الفلكي الآن. ويُسمّى عيد الهلال عندهم "روش حودِش"، أي رأس

---

[1] . متفق عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الشهر؛ ويكون الاحتفال به أحيانا يوما واحدا، وأحيانا يومين. وأما عدم اعتماد الرؤية البصرية في الهلال، فهو لأنهم ليسوا من أهل المشاهدة من حيث المرتبة؛ بل هم من أهل الإيمان المجمل بالنظر إلى عمومهم. وأما المسلمون فهم من جهة الأصل من أهل المشاهدة، بالنظر إلى خواصهم، أو بالنظر إلى الشريعة في عمومها. ولهذا أُنزل عليهم بخصوص الرؤية: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [البقرة: ١٨٥]. وهو وإن فسَّره المفسرون بمعنى إدراك شهر الصيام، إلا أنه يحتمل الرؤية البصرية من جهة اللغة، إن أخذنا شهد بمعنى شاهد، وأخذنا الشهر بمعنى الهلال. وسمي الهلال شهرا، لاشتهاره عند رؤيته، ومنه تسمية الشهر من باب تسمية الشيء بلازمه. ويدل على معنى الرؤية قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ! فَإِنْ غُمِّيَ عَلَيْكُمُ الشَّهْرُ، فَعُدُّوا ثَلَاثِينَ!»[١]. وعلى هذا، فإن من عمل من المسلمين بالحساب الفلكي، فإنه يكون عاملا بأصل الشريعة الموسوية لا المحمدية. وهو جائز في حق أهل المرتبة الأولى من الإسلام، غير لائق بأهل الإحسان. وينبغي هنا أن نذكر أن اليهود قد اجتهدوا في توحيد حسابهم، وتجنبوا تبعا لذلك وقوعهم في الاختلاف في أيام المناسبات والأعياد فيما بينهم؛ بينما لم يفعل ذلك المسلمون. ونحن نرى في كل عام اختلافهم في بداية شهر رمضان، وفي نهايته؛ واختلافهم في عيد الفطر. بل إن منهم من يُخالف في يوم النحر، مع أنه مرتبط بالإضافة إلى الزمان بالمكان الذي هو بيت الله الحرام؛ وهذا من أشنع ما يقع فيه المسلمون. والاختلاف في الأيام عموما، وفي يوم النحر خصوصا، هو في عصرنا من التأثر بالسياسة، التي يحرص حكام الأقطار على أن يُخالفوا فيها خصومهم أحيانا، ولو بالتحكّم فيما هو من الدين، عن طريق الكهنة من المفتين. وأما من جهة الأصل، وعندما كان المسلمون يختلفون فيما يُسمى بالمطالع، في زمن الانغلاق الجغرافي، فإن الاختلاف كان عائدا إلى حكم اختلاف المراتب رغم وحدة الشريعة لديهم؛ وكلٌّ منهم، يعمل حسب مبلغه من العلم في الدين. وهذا من التيسير ومن مراعاة المراتب، كما ندل عليه في كلّ كتاباتنا. ولكن الأمر يختلف في زماننا من جهة إمكان بلوغ الرؤية في لحظة وقوعها، إلى جميع أنحاء الأرض؛ لا من جهة اختلاف المراتب. ونحن نرى تبعا لكل ما ذكرنا، تأكُّد توحيد أيام الصيام وأيام الأعياد، من باب مواكبة الأحكام الفقهية للزمان، ومن باب فقه معنى العولمة الذي هو من مقدمات الخلافة الخاتمة، التي لا بد أن تكون جامعة من حيث الأحكام. وهذا باب من العلم في الفقه، لم نر له ذاكرا في زماننا؛ ونحن نرجو أن يتنبه الفقهاء إليه، عسى أن يكونوا من المُهتدين.

٣. رأس السنة العبرية (روش هاشناه): ويدوم ثلاثة أيام (بداية تشري)، وأما اليوم الرابع، فهو يوم صيام يُسمّى "صوم جِدَلْيا". وهو يوم صوم وحداد ككل أيام الصوم عند اليهود. ومناسبته هي ذكرى مقتل "جِدَلْيا بن أحيقام"، الذي ولاه "نبوختنصر" ملك بابل على البقية الباقية من اليهود في فلسطين بعد الاستيلاء عليها. ويعتقد اليهود أن أعداءهم دبروا مكيدة لقتل "جدليا" عملا على قطع دابرهم كلهم.

٤. يوم الغفران أو يوم الكفارة (كيبور): وهو اليوم العاشر من شهر تشري، ويدوم حوالي سبعا وعشرين ساعة، مما قبل غروب اليوم التاسع إلى ما بعد غروب اليوم العاشر. ولا يشتغل اليهود في كل تلك المدة إلا بالصوم (ليلا ونهارا) والعبادة. ويبدو أن هذه الشعيرة تعود إلى الزمن الأول، وربما إلى زمن موسى عليه السلام نفسه؛ لأنه كان قد خصص لأتباعه يوما في السنة من أجل محاسبة النفس، والندم على ما ارتُكب من الذنوب، مع التوبة والتكفير الذي كان زيادة على الصوم يتطلب الذبائح. وكانت تسميته قديما، يوم "هكبوريم"؛ أي يوم الكفارات. ولكن حدث أن "نبوختنصر" صادف تدميره "أورشليم" وإشعال النيران فيها ذلك اليوم، فأصبح عند اليهود ذكرى أليمة، وأصبح عندهم أكبر أيام الحداد. ومما ينبغي ذكره هنا، أن اليهود قد جعلوا هذا اليوم، يوما لنقض كل العهود التي لهم مع غيرهم (الأغيار)؛ وذلك بسبب شدة

---

[١] . متفق عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الاضطهاد التي عرفوها مع مختلف الأمم والشعوب. وهذا من الأحكام التي اخترعها كهنتهم، وجعلوا سببها إكراه اليهود على تغيير دينهم. ولقد اعتاد عوام اليهود، أن يُجيزوا لأنفسهم تبعا لهذا الحكم، هضم الديون وإخلاف الوعود والأيمان التي قطعوها على أنفسهم لغير اليهود طيلة السنة. ولقد قام بعض متأخري الحاخامات، على هذه البدعة، منكرين لإحلالها ما حُرّم من المنكرات. ورغم أن التوبة من الذنوب مشروعة، فإننا نرى كيف أنها انقلبت مع طغيان الوجدان التاريخي إلى عكس ما كانت عليه. ولا ينفع أن يصوم العبد أو أن يُصلّي، وهو يصرّ على معاملة "الأغيار" بغير ما أحل الله، كما لا يخفى.

٥. عيد الظُّلل (سُكّوت): والأصل فيه أنه عيد زراعي، كان يُحتفل فيه بتخزين المحصولات الزراعية المتعلقة بالسنة الفلاحية في فصل الخريف. فكان اليهود يجمعون فيه مؤونتهم من التمر والتين المجفف والزيتون والزبيب والنبيذ، ولهذا كانوا يُسمّونه أيضا "حج ها أسيف"؛ أي عيد التخزين. ويبدأ هذا العيد في اليوم الخامس عشر من شهر تشري، ويستمر عادة تسعة أيام، منها سبعة هي عيد الظلل، ويومان آخران (الثاني والعشرون والثالث والعشرون) لهما صبغة أخرى؛ يُسمى الأول منهما الثامن الختامي (شميني عَصيرِتْ)، لأنه يختتم عيد الظلل نفسه بأيامه السبعة، بل ويختتم كل الأعياد المجتمعة في شهر تشري؛ وأما اليوم الثاني، فإنه يفتتح دورة طويلة من قراءة التوراة، ولذلك يُسمّى فرحة التوراة (سِمحَتْ توراة). أما الأيام السبعة التي هي عيد الظلل، فاليومان الأولان منها يمتازان بمظاهر البهجة والفرح، والخمسة الباقية تكون أقل في ذلك منهما. ويتضمن هذا العيد أيضا معنى الاستسقاء في اليوم السابع الأخير، وهو ما يُسمّونه "هوشعنا ربّا". وأما المتأخرون من اليهود فجعلوا هذا اليوم لدخول المعبد وفي يد كل واحد غصن من الأغصان، التي كانت تُستعمل في الأصل لإقامة الظلل (الأكواخ النباتية) من مختلف الأشجار والنباتات. ويُضرب بالأغصان على الكراسي، حتى تسقط كل أوراقها؛ ظنا منهم أن ذنوبهم التي ارتكبوها في السنة، ستسقط عنهم بذلك. وهذا من دون شك، لا يمت إلى الشريعة الأصلية بصلة؛ وهو كالخرافات الناشئة لدى طوائف من المسلمين الذين يكونون في الغالب من أهل الشرك قبل إسلامهم، أو يكونون من المجاورين لهم والمتأثرين بهم.

٦. الحانوكة، أو عيد التدشين: وهو له صبغة سياسية وتاريخية صهيونية في الخامس والعشرين من شهر "كسلو" (ديسمبر)؛ يتمكن فيه أطفال اليهود من الاحتفال في أيام عيد الميلاد النصراني ذاتها. ومناسبة هذا العيد تعود إلى عام ١٦٥ ق.م، عندما كانت فلسطين وبلاد الشام كلها مع مصر، تحت حكم اليونان؛ وكان المتصرف في بلاد الشام "أنتيخوس أبيفانس"، الذي أرغم اليهود على ترك دينهم والدخول في الوثنية اليونانية؛ فأدى ذلك إلى أن يُعلن الكاهن "متاتيا" وابنه "يهوذا المكابي" المقاومة، من أجل استرجاع المعبد اليهودي من الجيوش اليونانية. وفي الخامس والعشرين من "كسلو" في تلك السنة، أُخرجت التماثيل اليونانية من الهيكل، وأُقيم فيه مذبح جديد، وأُعيد فتحه لأداء الشعائر اليهودية. وهذا هو السبب في تسمية هذا العيد "عيد التدشين". ويمتاز هذا العيد بإشعال الشموع الكثيرة وإضاءة الأنوار المختلفة لمدة أسبوع كامل؛ وهو عمل يرمز إلى عودة نور التديّن بعد ظلمة الوثنية. وترافق ذلك، الأناشيد المترنمة بالبطولات الخاصة بالذكرى. وتتخذ الصهيونية من هذا العيد مناسبة للدعاية، بالتأكيد على:

ا. الإيمان وأثره: واليهود يقولون بأن المكابيين رغم عدم بلوغهم درجة كبيرة من التديّن، إلا أنهم من جهة الإيمان، لم يطيقوا وجود التماثيل اليونانية داخل الهيكل؛ فالإيمان هو ما كان محركهم في مقاومتهم لليونان. وهذه المناسبة هي التاريخ الذي يرجع إليه تحليل القتال في يوم السبت عند اليهود، والذي سيتكرر العمل به كلما دعت الحاجة إليه فيما بعد.

ب. الشجاعة: ويُقال إن الحشمونيين (المكابيين)، لم يكونوا في الأصل من المقاتلين وأشداء المحاربين، ولكنهم صاروا كذلك عندما تبيّن لهم أن هويتهم مهددة. ولا تنفي الشجاعة بمعناها هنا، ما ينبغي أن يكون عليه القادة من الدهاء السياسي؛ بل تؤكده.

ج. عدم السماح بذوبان اليهود في الحضارات المختلفة: ويرى اليهود أنه طالما كان الحكم اليوناني يسمح لهم بالتمسك بخصوصيتهم، فإنهم كانوا مسايرين له؛ ولكن بمجرد أن أُريد لهم أن يذوبوا في الحضارة اليونانية ذوبانا، قاموا إلى المقاومة المسلحة. وهذا ما يعمل عليه اليهود في جميع بلدان العالم دائما.

٧. عيد "البوريم" (الفور أو النصيب): وكان بعض العرب يُسمونه عيد المسخرة، بسبب ما يرونه فيه من ثمالة لدى اليهود ومن لبس للأقنعة التنكرية. وهذا العيد لا صلة له بالشريعة الموسوية كما هو ظاهر، ولكنه احتفال بمناسبة التهيؤ للعودة من السبي البابلي، بناء على وعد من ملك الفرس للجالية اليهودية المقيمة عند الكلدانيين في العراق، إن هم ساعدوه على دخول البلاد وتدمير الدولة الكلدانية؛ وهو يدور حول شخصية اليهودية "إستير"، التي مكرت في زمانها لليهود، وجعلتهم ينتقمون من أعدائهم. وهذا يعني أن هذا الاحتفال سياسي في أصله، ستكون له مكانة خاصة لدى الصهاينة. ويبدأ هذا العيد من ليلة الثالث عشر من شهر آذار من السنة العبرية، ليكون يوم الثالث عشر نفسه يوم صوم يُسمّى "صيام إستير". وأما اليوم الرابع عشر، فإنه يكون يوم العيد حقيقة، ويُسمى "يوم بوريم"؛ ثم يكون اليوم الخامس عشر الذي يليه يوم صخب وكرنفال يُسمى "بوريم شوشان". وعلى الرغم من وضوح المناسبة التاريخية والسياسية للعيد، إلا أن التلمود يزعم أنه كان معروفا منذ زمان "يوشع بن نون"، لأسباب مماثلة لما وقع إبان السبي البابلي. وسِفر "إستير" المكون من عشرة أصحاحات، مكتوبة بخط اليد على رقّ، يُحفظ مع التوراة لقراءته في هذا العيد. ومما لاحظه النقاد على هذا السفر، أن الله لا يُذكر فيه البتة؛ وهو أمر ينافي الدين من أصله، ويفتح الباب أمام التحريفات الشيطانية الكبرى له. وسنعود -إن شاء الله- إلى هذا الموضوع في حينه، وعندما نصل إلى مآلات الدين لدى الكتابيّين جميعا. ومن النقود أيضا التي لاحقت السفر، أنه نسيج خيالي حول حقبة تاريخية، عُرضت فيه صور من حياة الفرس وثقافتهم على غير ما كانت عليه. وأما تاريخ السفر، فيعود إلى الجيل الثاني قبل المسيح. وأما الصلوات المُذيّلة فيه (مضافة) التي يُشير إليها "الآباء اليسوعيون"، فلا يعترف بها اليهود؛ وهي تتضمن ذكر البطالمة وغيرهم من أعلام العصور اليونانية التالية للإسكندر. ورغم أن "إستير" التي يعُدّها اليهود ملكة أو نبية[١]، لم يقم دليل واحد تاريخي على وجودها بالفعل، أو على حيازتها هي وقريبها "مردخاي" لكل ذلك النفوذ في القصر الإمبراطوري الفارسي، إلا أن النزعة الصهيونية التي تتلبس الشعب اليهودي بين الحقبة والأخرى منذ السبي البابلي، قد جعلت منها رمزا للدهاء اليهودي، وما يزعمونه لأنفسهم من عناية خاصة لله بهم. ولقد وصل الأمر بالطبقات الشعبية من اليهود أن ربطوا بينها وبين العودة من السبي البابلي، الذي كان في الحقيقة ناتجا عن الصراع بين الفرس والكلدانيين، وعن طمع الملك "كورش" في احتلال العراق، كما سبق أن ذكرنا. ويستخلص اليهود من عيد "بوريم" عبرا منها:

ا. أن يتجنب اليهود استثارة الأمم الأخرى ضدهم، وهو ما يُسمى اليوم "معاداة السامية"؛ إلا إن كان ذلك أمرا لا مندوحة عنه.

ب. إذا قام عداء ضد اليهود، فمن الواجب عليهم أن يقاوموه وأن يواجهوه بشجاعة.

---

[١] . يتضح من هذا الوصف أن اليهود لم يكن لهم علم بمعنى النبوة في أصله؛ وصارت عندهم بعد التحريف مرتبة من مراتب الشرف التي يخلعونها على من يرونه يستحقها بحسب مقدار خدمته للشعب اليهودي.

ج. أن إخلاص اليهودي لدينه، لا يمنعه من الوفاء للحاكم الذي يعيش تحت سلطته، وإن لم يكن يهوديا؛ ما دام لا يُعارض حكمه مصلحة اليهود.

د. مهما كان اندماج اليهودي في البلد الذي يعيش فيه، فإنه ينبغي عليه أن لا ينسى ارتباطه بملته؛ لأنه لن يتمكن من العيش دون ذلك الارتباط.

هـ. إذا داهم الخطر اليهود، فإنه يجب على كل واحد منهم العمل على التصدّي له بما يناسب وفي الوقت المناسب.

و. أن العداء لليهود، يبدأ مع العداء لأفراد منهم فحسب؛ وما يلبث أن يتحوّل بعد ذلك، إلى مناداة بإبادة اليهود جميعا.

ز. أن معاداة السامية لن تزال مضرة باليهود، مهما بلغت مكانتهم في المجتمع.

ح. أن انتقام اليهود من أعدائهم، لا ينبغي أن يكون مصحوبا بالرغبة في الغنائم أو بالسلب والنهب؛ حتى يكون مُستساغا من الناحية الشرعية.

ط. أن المناسبة المُفرحة لليهود، لا ينبغي أن تُنسيهم الآلام التي سبقتها؛ ولهذا على اليهودي أن يتذكّر البؤساء من إخوانه في كل فرح من أفراحه.

٨. عيد الفصح: وأول أيامه الخامس عشر من شهر نيسان من السنة العبرية. والفصح هو عيد الربيع عند اليهود، وهو يُسمّى في التوراة شهر "أبيب"، أي الربيع؛ ثم اتحد هذا المعنى بذكرى خروج اليهود من مصر. ولقد تسمى هذا العيد عبر التاريخ بأكثر من اسم، لكلٍّ منها معناه الخاص، منها:

ا. الفصح أو "الفسح": وأصل المعنى فيه المرور والعبور، أو الفرج بعد الضيق.

ب. الفطر (حج همّصوت): لأنه يتوجب على اليهود فيه أن يأكلوا الخبز من عجين فطري، لا يخالطه ملح ولا خميرة.

ج. موسم الحرية (زمن حيروتينو): وهو يُذكّر بالخلاص من نير الفراعنة.

د. عيد الربيع (حج ها أبيب): والمقصود منه الربيع لا غير.

ومدة هذا العيد ثمانية أيام، جعلها فقهاء اليهود سبعة لمن يقيم في فلسطين؛ ويزعمون أن السبب هو أن التقويم اليهودي أتى متأخرا عن زمن موسى عليه السلام، وكان الفقهاء يضيفون فيه يوما إلى الأعياد، احتياطا لمن يكون بعيدا عن فلسطين، مع ما يكتنف الشهور القمرية من اختلاف بحسب المطالع؛ حتى يتمكن الحجاج اليهود القادمون إلى فلسطين من بعيد أن يُدركوا العيد. واليومان الأولان واليومان الأخيران من هذا العيد، هي أهم من الأيام الأربعة الوسطى. وعلى مائدة الفصح ينبغي لرئيس العائلة في اليومين الأولين أن يحكي قصة الفصح، وهي قصة الخروج من مصر. ولحكايتها ثلاث صيغ: مطولة للكبار والعقلاء، وصغيرة تناسب الأطفال، ومختزلة تناسب من لا صبر لهم من الأطفال؛ وتكثر في هذا العيد القصص حول النبي "إيليا" والمسيح المنتظر. وجرت عادة اليهود المتأخرين أن يُشيعوا ذكر الغايات الصهيونية في مجتمعاتهم. لهذا كانت عبارة التهنئة المتبادلة بين اليهود بهذه المناسبة هي: "السنة القادمة في أورشليم". وهي عبارة حُوِّلت من الدلالة الدينية إلى المركزية السياسية والعسكرية فيما بعد. ويُضحّي اليهود في عيد الفصح بخروف أو شاة أو جدي أو غير ذلك...

٩. الثالث والثلاثون في العومِر (لج بعومر): وهو يقع في الثامن عشر من مايو (أيار). والثلاثة والثلاثون هي من حساب عدد "لج" التي يكون فيها اللام بثلاثين والجيم بثلاثة.

١٠. عيد الحصاد أو عيد الأسابيع (شبوعوت): ويبدأ في اليوم الخمسين من العومر، الموافق للسادس من شهر "سيوان" (آخر مايو وبداية يونيو). ومدة هذا العيد يومان: السادس والسابع من "سيوان". ويجعل اليهود نزول الوصايا العشر على

موسى في هذا التاريخ، ولهذا يقومون بحفلة زفاف للتوراة في المعبد وكأنها عروس؛ كما يقوم بعض المتحمسين بقراءتها في هذين اليومين.

١١. صوم تموز: وهو يوم واحد يصومه اليهود في شهر تموز اليهودي (يوليو). ويجعلون هذا الصوم حدادا على أحداث متعددة منها: تحطيم ألواح التوراة، إبطال القربان اليومي، إحراق التوراة في أورشليم على يد القائد الروماني "بوستهومروس"، ومهاجمة القائد الروماني "تيتوس" لأورشليم بقصد إبادة اليهود سنة ٧٠ م.

١٢. صيام التاسع من آب: وهو ذكرى سقوط أورشليم في يد "تيتوس"، وتخريب الهيكل الثاني الذي كان قد أُقيم بعد العودة من السبي البابلي في القرن الخامس ق.م، على يد "نحميا" و"عزرا" و"زروبابل".

ومن كل ما سبق يتبيّن أن جلّ الأعياد اليهودية مستحدثة بعد موسى عليه السلام، وهذا أمر لا يضيرهم ما دمنا نعلم أنه قد بُعث إليهم بعده أنبياء مجددون كـ "عزرا" عليه السلام. وأما أعياد الحج التي هي: الفصح والحصاد والظلل، فيُقال إنها تعود إلى الزمن الموسوي؛ لذلك فلا خلاف عليها. وأما ما له صبغة تاريخية، كالمآسي التي تعرّض لها اليهود عبر تاريخهم الطويل، فهي مُقحمة في الدين، بسبب عدم التمييز بين ما هو قومي لدى اليهود وما هو ديني. وهذا أمر يطبع تديُّنهم من بدايته إلى اليوم، مع وجوب التنبيه إلى الانحرافات الخطيرة التي تسبب فيها التوجُّه السياسي للقادة اليهود، أو التوجيه الذي يمارسه الحاخامات بإيعاز منهم، في كل الحقب. ولا شك أن الحقبة المتأخرة التي عرفت قيام الحركة الصهيونية العالمية على يد "هرتزل" في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، والتي نتج عنها قيام دولة إسرائيل نفسها عام ١٩٤٨م، هي أهم كل الحقب التي سبقت، وأشدها أثرا على اليهود والعالم من بعدهم. ولا شك أن هذه الحقبة المخصوصة ما زالت لم تبلغ نهايتها، ومازالت في مرحلة الإسفار عن نتائجها التفصيلية، والتي نرى أن أهمها هو ما يتداعى إليه رؤساء الدول العربية اليوم مما يسمّى اصطلاحا بـ "التطبيع". ونحن وإن كنا لا نُكنّ لليهود عداء بسبب الدين أو العرق كما هو شائع لدى جل المسلمين، فإن لنا رأيا خاصا يتعلّق بمسألة إقامة الدولة اليهودية بالشروط الصهيونية وحدها، سنفصّله –إن شاء الله– عندما يحين حينه.

وإن كان اليهود قد وقع لهم الانقطاع عن المدد الرباني منذ البعثة العيسوية، كما ذكرنا مرارا، فإن تمسكهم بتديّن تاريخي يتمّ فيه تأويل الأحداث بحسب الهوى، سيزيد من دون شك في انحجابهم عن الله. وهذا يظهر جليا عندما يصير ما يُزعم أنه من الدين، مؤديا إلى ما هو من المحرمات القطعية فيه. ورغم أن اليهود ليسوا وحدهم في هذا الصنف من الانحراف، ورغم أن المسلمين في غالبيتهم صاروا على مثل نهجهم، إلا أن الحق أحق بالاتباع. ونعني من هذا أن التلاعب بأحكام الدين من الجميع، قد صار من أكبر الأضرار على البشرية جمعاء. وهذا يعني أنه ينبغي وضع حد له الآن، وقبل أن يستفحل الأمر؛ لأن هذه الحال تجلب نقمة الله وغضبه، وهو ما يؤذن بالهلاك العام. يقول الله تعالى: {وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ . وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ . وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ . فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ . يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ . سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ . لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [إبراهيم: ٤٤ – ٥٢].

الفصل الخامس
معالم الشريعة اليهودية

معنى الشريعة في الاصطلاح، هو ما يكون عليه أهل الدين من عمل تعبُّديّ مخصوص؛ مما له تعلق بزمان مخصوص، أو مما هو مطلق؛ ومما له تعلّق بمكان مخصوص، أو مما هو مطلق؛ ومما له تعلّق بحال للعبد مخصوص، أو مما هو مطلق. وللأعمال الشرعية واردات نورية، لا بد منها، ما شُرعت إلا لها. وهذا، إن كان صاحبها متبعا لرسوله حقيقة، لا ممن ضل من بعدُ وصارت نسبته اسميّة فقط. والسبب هو أن الله عندما بعث الرسُل بالرسالات، جعلها قسميْن رئيسيْن، هما: قسم الأحكام العملية (الفقه)، وقسم الأحكام العلمية (المعارف). ولما كان الناس يقصُرون عن إدراك المعارف المكنونة في الوحي الإلهي من اللغة وحدها، لكون الكلام الإلهي مخالفا للكلام البشري؛ فإن الله شرع لهم من الأعمال ما تستنير به بواطنهم، ليزدادوا بها من الله قربا. فإذا ازدادوا قربا، صاروا أكثر استعدادا لإدراك معاني الوحي من غيرهم. وهذا الطريق، هو ما تُنال منه معرفة الله وحده؛ خلافا لما يتوهّمه المتكلمون الذين تفلسفوا من داخل الدين، فضلوا عن سبيل النبوة ضلالا مبينا. ولما كان الموسويّون أتباعا لموسى عليه السلام، فإنهم كانوا ملزَمين باتباع شريعته، ليكمل لهم تديّنهم. هذا في زمن شريعته الذي ينتهي عند بعثة عيسى عليه السلام (مع وحدة الشريعة في الظاهر)؛ وأما الآن، فلا نور للأعمال الشرعية اليهودية، وإن تلاعب بهم الشيطان وأظهر لهم ما يُشبه الواردات النورانية. وهذا باب واسع من العلم، نكتفي بالإشارة إليه هنا، من دون التفصيل فيه.

وحتى يُدرك القارئ معنى خصوصية التشريع الذي يكون لكل رسول، فإنّنا نذكّره بما انطلقنا منه في الجزء الأول من هذا الكتاب، وعندما أوضحنا أن الرسول في زمانه يكون صورة "الله" التي يتعرّف بها إلى قومه خصوصا، وإلى الناس عموما فيما هو عائد إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم وحده. والصور الإلهية الرساليّة التعرُّفيّة، متفاوتة كما ذكرنا؛ فمنها الكامل، ومنها الأكمل؛ بحسب الرُّسُل ومكانتهم من الحقيقة المحمدية (فيها). والشريعة التي تكون لكل رسول، هي الصورة العملية المُطابقة لتلك الصورة من غير زيادة ولا نقصان. ورغم أن العقل يحكم بعدم إمكان ظهور الإطلاق في الصورة المقيَّدة، فإن القدرة الإلهية تُعطي ذلك. نقول هذا، حتى لا ينحجب العقلاء عن كلامنا بقياساتهم... ومن الباب الذي ذكرنا، كان الاختلاف بين الشرائع، وكان أيضا الختْم للشريعة المحمدية من كونها الأكمل. ولعل هذا المعنى، سيتضح شيئا فشيئا، كلما تقدّمنا في الكلام. وأما أهم ما يُميّز الشريعة اليهودية، فهو:

١. يعتبر اليهود الزواج فرضا عليهم، ويرون أن البقاء على العزوبية يجلب عليهم نقمة الله. وزواج اليهود من غيرهم حرام، لأن الأغيار كفار بحسبهم؛ سواء أكان الأغيار نصارى أم مسلمين أم وثنيين أم غيرهم، وكلهم يُسمَّون "غوييم". بل إن بعض المتشددين لا يشترطون وحدة الدين بين الزوجين وحدها، ويتعدون ذلك إلى وحدة المذهب أيضا. وهذا لو قابلناه بالتشريع الإسلامي، فإننا سنجده فيه من حكم السنة لا الفرض. وهذا الحكم متعلّق بكون الله مُختارا في خلق العالم (وهو معنى تزويج الذات)، ولم يكن سبحانه مُجبرا. وحتى يَبين معنى السنة، فإنه علينا أن نعود إلى أصلها الذي ينقسم إلى قسمين: سنة إلهية، وسنة نبوية. فالسنة الإلهية، هي المذكورة في قوله تعالى: {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} [الفتح: ٢٣]؛ وهي ما نُسمّيه نحن "الحقائق". وأما السنّة النبوية، فهي ما شرعه النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأمته. والزواج، من السنة الإلهية والسنة النبوية؛ لكنه على وجه الاختيار، كما بيّنّا. لكن الزواج بالنظر إلى

أهل الكمال، أكمل؛ لجمعه بين المعنييْن المذكوريْن. وأما زواج المسلم من غير المسلمة (الكتابية)، فهو سَعةٌ ظاهرة؛ وذلك من غير أن يشترط عليها تغيير دينها، لا في الحال ولا في الاستقبال. وهذا، لأن الإسلام كما ذكرنا مرارا، هو اكتمالٌ للدين الكتابي كله. وإن كان البعض لا يحتمل الكل (رفض اليهود تزويج المسلم مثلا)، فإنه من المحال أن يضيق الكل عن بعضه. وأما تحريم زواج المسلم من غير الكتابية، فهو لأن غير الكتابيات لا أصل لهن في الحقائق، إن نحن علمنا أن الكتاب هو الوجود، وعلمنا أن الوجود هو لله وحده. وأما تحريم زواج المسلمة بالكتابي، فإنه من باب آخر؛ وهو من احتمال إيال الأمر إلى إكراه الكتابي لها على ترك دينها من جهة الظاهر؛ وأما من جهة الباطن فلأن الزوج (الرجل) ينبغي أن يكون أكمل من امرأته، وإلا عاكس الحقيقة. ولسنا نعني بتحريم زواج المسلمة من الكتابي، ما يُعطيه المعنى الذي يشحذ العصبيات؛ ولكن نعني أن المرأة المسلمة سيُغلق دونها باب الترقي في الدين عند طاعتها لزوجها الكتابي. وأما الكتابية، فلو افترضنا أنها اختارت أن تدخل في دين زوجها المسلم، فإنها ستكون مستفيدة من فرصة الترقي، وقبلها من الإسلام نفسه، الذي يربطها ربطا حقيقيا مع نبيّها السابق. وذلك لأننا قد ذكرنا مرارا أن اليهود لا يكونون أتباعا لموسى حقيقة، وأن النصارى لا يكونون أتباعا لعيسى حقيقة، في هذا الزمان، إلا إن هم اتبعوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم. ولن نُعيد هنا الكلام في الدلالة على ذلك، لأننا نريد لقارئنا أن يلتزم معنا بالحضور فيما يقرأ؛ ليستنتج بنفسه ما يراه مُناسبا له في كل مرة، لا أن نكون مُكرهين له على معنى من المعاني؛ فإن الله تعالى يقول: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة: ٢٥٦].

وقبل أن نواصل الكلام عما يتعلق بالزواج، فلا بأس من أن نتكلم في أصله من جهة النشأة. والأصل فيه كما هو معلوم: آدم وحواء عليهما السلام. وهنا ينبغي أن نتبيّن أمورا لا بد منها، وهي:

ا- أن آدم هو أصل حواء، لأن الله خلق آدم من تراب، وخلق حواء من ضلع آدم؛ فهو مُصوَّرٌ (مُشَكَّل)، وهي منحوتة. ولقد كنا نقول عن آدم دائما، إنه خُلق على الصورة (صورة الله)، وأما حواء فهي مخلوقة على صورة الصورة من حيث ظهورها لآدم ولنفسها؛ لا بالمعنى المطلق الذي يكون عليه آدم من جهة باطنه. ومن هنا ظهر مبدأ الزواج في النشأة الآدمية، وأصله ما ذكرناه سابقا من جهة الحقائق. ونعني من هذا أن الزوج هو مجموع الاثنين، ولا يُعتبر فيه أحدهما إلا باعتبار الثاني. والحقيقة من جهة باطن آدم وظاهره، هي أنه على الصورة المحمدية؛ وأما حواء فكانت صورة لآدم من جهة نفسه الناشئة بين قلبه وجسده، ولم تكن مظهرا للصورة المحمدية ذاتها. ومناسبة حواء لنفس آدم، هي ما جعل آدم يتعلّق بها؛ ولولا ذلك لما التفت إليها بسبب توجه روحه بالكليّة إلى ربه. ومن هذا الباب كان الحصرُ الذي يكون عليه بعض الخواص، كيحيى عليه السلام، الذي أثنى عليه ربه بقوله (والكلام عن زكريّا عليه السلام): {فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران: ٣٩]. وهذا يعني أن الحصر في حق أهله من أرباب هذا التجلي كمال، ونحن ما حكمنا بنقص غير المتزوج سابقا، إلا من جهة العلم المجرد، لا بالنظر إلى أشخاص أهل الكمال. وهذا لا ينفي كون التجلي المحمدي الأكمل، الذي يُعطي الزواج في أهل الكمال، هو أعلى بجميع الاعتبارات. وهنا ينبغي أن نُفرق بين من يكون على السنّة المحمدية من جهة الحقيقة، ومن يكون عليها من جهة الظاهر وحده؛ لأن أهل الظاهر ليس لهم من المعنى الذي نشير إليه إلا بركة موافقته من جهة الحكم فحسب. وأما من جهة الحقيقة، فليس لهم من معنى الزواج إلا ما يحفظ النوع. وهذه مرتبة حيوانية مشتركة، كما لا يخفى. وتذكيرنا هذا، هو لردع قوم يزعمون أنهم على السنّة، وهم أبعد الناس عنها.

ب- أن آدم وقع له التزويج بحواء، ليكون عنهما النتيجة التي هي ولادة الأبناء. وهذا على ما كان عليه الحق من جهة أحديته، ومن جهة واحديته، كما سبق أن ذكرنا؛ وهو ما أعطى ظهور العالم ومراتبه (الولد). وهذا يعني أن آدم لو بقي

من دون حواء، لكان على صورة الأحدية وحدها، ولم يكن له أبناء؛ فلما شاء الله ظهور تفاصيل النشأة الآدمية المقدسة، خلق حواء وأذن بالزواج. وهذا يعني أن الزواج يُعتبر من الأحوال لأهل الأحدية، وإن كان مقاما في ذاته لأهل الواحدية. هذا، لمن كان يقول بإمكان التحقق بالأحدية من الأولياء. وهو علم أشار إلى اختلاف الأولياء فيه، الشيخ الأكبر قُدّس سرّه.

ج- أن آدم يكون حنينه إلى ما خُلق منه وهو الأرض باعتبار ظاهر الصورة، والحق باعتبار باطنها؛ وأن حواء يكون حنينها إلى صورة الحق ظاهرا وباطنا، لا إلى الحق. وهذا يعطي ممن كان ظاهرا بلا باطن في الحكم، ما لا يخفى من أحوال العباد، من جهة الرجال ومن جهة النساء.

د- أن سبق آدم لحواء، هو بالمرتبة؛ وهو ما يجعل له الفضل في الاعتبار الإلهي الأول؛ وهو أصل القوامة التي للرجال على النساء. يقول الله تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ} [النساء: ٣٤]. فتفضيل بعضهم على بعض، هو بالمرتبة كما ذكرنا؛ وأما إنفاق المال فمن آثار التفضيل الظاهرة في عالم الطبيعة. وأما التفضيل الشرعي، الذي قد تكون به المرأة أفضل من الرجل أو مساوية له، فهو أمر آخر، لا ينبغي أن نخلط بينه وبين الأول. فمن جهة طاعة أوامر الله الشرعية، فإن المرأة لا تعوقها المرتبة؛ وقد تبلغ درجة الكمال كما أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لكن الكمال (بمعنى الولاية) لدى النساء معدود، والكمال لدى الرجال كثير. يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ!»[١]. والنساء المعدودات هن باعتبار تاريخ البشرية كله، في مقابل العدد الكثير من الرجال في كل زمان. وهذا كله عائد إلى حكم المرتبة، لا إلى حكم الأعمال؛ والمرأة الكاملة تُعدّ من الرجال من حيث المقام، بسبب رجوع الحقيقة إلى صاحبها. ولكن رغم عدم ظهور المرأة بحكم المرتبة كما ظهر الرجل، فإنها تكون لها بالقوة، من جهة كونها نسخة عن آدم. ولعل هذا الحكم مما سيظهر في الآخرة، من كون الآخرة مقلوب الدنيا؛ ولعل إشارة الشيخ الأكبر إلى عِظم مكانة المرأة، كانت متضمنة له.

هـ- إن القائلين بالمساواة بين المرأة والرجل، صادقون في مقولتهم، مخطئون فيما يفهمون منها. وذلك لأن المساواة في الخلق ثابتة، وإن كان الاختلاف بين آدم وحواء أيضا ثابتا؛ والمساواةَ في التكليف من حيث الأصل، ثابتة من جهة الشريعة؛ فلم يبق إلا أن يُنافس أحدهما الآخر في طاعة ربه والتقرب إليه. وأما ما ذكرناه من معنى المرتبة، فلا مجال للمنافسة فيه؛ وهو يُشبه ما يكون من فرق بين النبي وتابعيه.

و. إن حواء تختلف عن آدم من جهة تراكيب الأسماء المدبرة لها، لأن نفس آدم انطبعت فيها، كما انطبع فيها ظاهره. وهذا يعني أن الاستعداد من جهة المرأة يكون من المرتبة الثانية لا الأولى، كما كان استعداد الرجل. فالرجل من جهة المرتبة، هو إطلاقها، لا الإطلاق الذي من وراء الرجل، والذي تنتهي إليه المرأة. وهذا هو سبب عدم بلوغها الكمال، الذي ذكرناه، إلا في حق عدد محصور بعينه. وأما لماذا ظهر الكمال في هذه القلة من النساء، ولم يبق الحكم العام شاملا فيهن؛ فلأنه يكون في مقابل النقص الذي ظهر به كثير من الرجال، وليظهر عدل الله في الناس بذلك. وهناك أسرار أخرى لا يسمح الوقت بذكرها كلها الآن.

ز. إن طريق المرأة إلى الله أطول من جهة الحقيقة من طريق الرجل، لأن طريقها ينبغي أن تعود فيه إلى حقيقتها من الرجل، لا إلى حقيقتها هي. ولكن إن صحبت المرأة ذات الاستعداد الرجل الكامل، ووفقها الله إلى الفناء فيه، فإنها تبلغ الغاية

---

[١] . متفق عليه، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

من الطريق بسهولة؛ لكون الحق عندها متحدا بالرجل من غير تكلُّف. وهو نادر الوقوع، يُشبه عدم حصول بعض الأوفاق من الهيئات الفلكية إلا نادرا أيضا. ولنعد إلى شريعة بني إسرائيل:

ويمنع فقهاء اليهود أن يكون من أبناء الزواج المختلط كهنة في إسرائيل، وهذا يؤكد العنصرية التي يصطبغ بها التشريع اليهودي، خصوصا فيما يتعلق بالأحوال الشخصية. وأدل شيء على تغليب العنصرية على الدين في أحكام اليهود ما جاء في المادة ١٩ من كتاب "بن شمعون" في الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية، حيث يقول: [إذا ارتد الإسرائيلي ثم تزوج شرعا بإسرائيلية، صح العقد؛ كذلك إذا ارتدت الإسرائيلية ثم تزوجت بإسرائيلي.]. ومعنى هذا، أن الزواج ليس عندهم فرعا عن الإيمان، كما هو عند المسلمين والنصارى، بل هو تابع في الحكم للعنصرية والعرق. والإسرائيلي يبقى إسرائيليا حتى ولو كفر. وهذا يجعلنا نفرق بين كفر اليهودي الذي لا يعتبرونه، وتكفيره عندما يُريدون ذلك، فيُنبذ ويُطرد تبعا له. وهو ما يجعل الفرد اليهودي تحت قهر مجتمعه مباشرة وبقوة، في صنف من الإرهاب الاجتماعي، الواضح والمسكوت عنه. ونعني من هذا، أن المجتمع إذا صار يتحكم في الفرد، بعيدا عن أحكام الشريعة الأصلية، فإنه يكون قد قضى على الدين لديه قضاء مبرما؛ لأن ما سيتبقّى لديه، هو تظاهر بالتديّن وأعراف ناسخة. وهو ما يُنتج في الحقيقة استبدادا مركّبا مُهلكا؛ قد ينتهي بالجميع في النهاية إلى التحلُّل من الدين بالكلّيّة. وفيما يخص الزواج المختلط ينبغي أن نتكلم عن أمرين: الأول هو أن الولد الذي يكون عن زواج غير شرعي، أو عن زنا، لا ينبغي أن يحمَّل وزر والديه طيلة حياته، وهو لم يرتكب إثما في نفسه؛ وهذا هو المبدأ الذي دل عليه الإسلام في قول الله تعالى: {وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [الأنعام: ١٦٤]، ويقول سبحانه: {فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ} [الأحزاب: ٥]؛ أي إن الشخص مجهول الأب، ينبغي أن يُكفل من قِبل المجتمع وأن يُربّى تربية حسنة، وأن يُعامل كأحد أفراد المسلمين، من جهة الحقوق والواجبات جميعا. نقول هذا رغم أن الجهل لدى العوام لا يُمكّنهم أحيانا من تجاوز النعرات الجاهلية المتجذرة في الوجدان الجمعي. وأما الأمر الثاني، فهو أن النسب ينتقل عند المسلمين من جهة الأب، لا من جهة الأم كما هو عند اليهود. وحتى نُدرك الفرق في الأصل، فعلينا أن نعلم أن الفاعلية في الإيلاد، هي للرجل، وأن المفعولية للمرأة في المقابل؛ لا العكس. وهذا هو معنى قول الله تعالى عن مريم عليها السلام (والظاهر أنه قول حنة أمها عند ولادتها): {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى} [آل عمران: ٣٦]؛ ولا تعني إلا المرتبة وأثرها من الفاعلية. وهذا هو سبب اعتبار نسب الأب دون الأم من جهة الشريعة الإسلامية، التي جاء فيها قوله تعالى: {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ} [الأحزاب: ٥]. ومعنى أقسط عند الله، هو: أوفق لما في العلم. والحكم بما في العلم، هو الحكم بالعدل. وأما اعتبار النسب من جهة الأم عند اليهود، فهو من كونها الحاملة التي عنها ينفصل الولد؛ واعتبار هذا، له ظاهر وباطن. فأما ظاهره، فهو ما يُشهد من خروج الوليد من بطن أمه؛ وأما باطنه فهو انفصال الخلق عن الحق. وهذا النسب أصدق من الأول، لكن من جهة الطبيعة فحسب؛ والطبيعة جاءت فيه على صورة الحقيقة الذاتية كما ذكرنا. والأب وإن كان له السبق في علم الحقائق، فالأم لها السبق أيضا من جهة حقيقة الوجود من جهة العموم. وقولنا سابقا عن نسب الأم إنه أصدق، كنا نعني منه أن النسب إلى الأب قد لا يوافق ما في العلم، إن وقع تلاعب في الإلحاق، أو وقع اختلاط في الأنساب؛ كما يحدث كثيرا. وهذا كله يجعل النسبة إلى الأم هنا أتم؛ لكن هذا على سبيل اعتبار الاستثناء لا القاعدة. ولذلك إن شئنا قلنا إن التشريع الإسلامي هنا أعلى وأتم، والتشريع اليهودي أدنى وأسلم؛ أو قلنا إن التشريع الإسلامي أوفق للأصل، وإن التشريع اليهودي أليق بالأعراض (ما يعرض) وأنسب لسوء الظن الذي جُبل عليه اليهود. ولا شك أن التشريع اليهودي أوفق للقرون المتأخرة من المسلمين أيضا، والتي أخبر عنها النبي

صلى الله عليه وآله وسلم، أنها سيكثر فيها الزنا. يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ مِنْ أَعْلَامِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا أَنْ يَكْثُرَ أَوْلَادُ الزِّنَا!»[1]. ونقصد من مجموع كلامنا، الدلالة على صواب كل قول، بشرط العلم بوجه إناطته بالمسألة.

٢. يجوز للإسرائيلي الزواج ببنت الأخ وبنت الأخت، ولكن يحرم على الإسرائيلية الزواج بابن الأخ أو ابن الأخت. أما الإسلام فقد قال الله في ذلك: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: ٢٣]. فالتحريم عندنا معلوم من الجهتيْن: جهة الرجل وجهة المرأة؛ بحيث يعلم كل رجل ما حُرّم عليه من النساء، وتعلم النساء ما حُرم عليهن من الرجال من الحكم الواحد. بخلاف اليهود الذين ينظرون إلى التحريم من كل جهة على حدة، في المسألة المذكورة خصوصا. وما نظنّه نحن إلا مما وقع تحريفه، من أحكام الشريعة الموسوية.

٣. تعدد الزوجات جائز لدى اليهود، وهو لا يتقيّد بعدد في النصوص الأصلية؛ ولكن ظهر في القرون الوسطى الحاخام المفسر "جرشوم بن يهودا" (٩٦٠-١٠٤٠م)، الذي عاش في فرنسا وألمانيا، وأفتى بتحريم تعدد الزوجات. ولقد كان يريد بذلك التخفيف من المظاهر المميّزة لليهود في المجتمعات النصرانية؛ غير أن فتواه لم يتم اعتمادها في المجالس الملّيّة والأحوال الشخصية لليهود في أوروبا إلا حوالي سنة ١٢٤٠م. ومع هذا التحريم، فقد ظل التعدد منتشرا بين اليهود إما سرا وإما علنا، مدة طويلة بعد هذا التاريخ، خصوصا في بلدان أفريقيا وآسيا. والظاهر أن الشريعة اليهودية تأثرت في هذه المسألة بالشريعة المجاورة لها: فتحريم "جرشوم" جاء موافقا لكاثوليكية أوروبا، وتساهُلُ "ابن شمعون"، كان موافقا للتشريع الإسلامي لكونه عاش في القاهرة. وقد وضع الحاخام "جرشوم" قيودا على الطلاق أيضا، ليجعله بالاتفاق بين الزوجين أو بحكم القاضي، بعد أن كان بيد الرجل من دون قيد أو شرط. وأما في الإسلام فيمكن للزوج التعديد بشرط العدل، وينتهي العدد في ذلك إلى أربع كما هو معلوم، فلا يجوز تجاوزه. فكأن التشريع الإسلامي جمع بين التعديد والتقييد، وقلما يجتمع للرجل ما يجعله يستحل فوق واحدة؛ مع إبقاء حل التعدد مناسبا لأوقات ما بعد الحرب، حيث يقل عدد الرجال بالمقارنة إلى النساء؛ وفي آخر الزمان حيث يكون عدد النساء أضعاف عدد الرجال. ولكن المسلمين، بسبب ابتعادهم عن روح التشريع، وبسبب تأثرهم بالثقافات الوافدة، فإنهم صاروا يعانون مثلما يعاني اليهود والنصارى، وقد يزيدون أو ينقصون، بحسب الأحوال. ولا شك إن نحن قارنا بين فقهاء اليهود وفقهاء المسلمين، فإننا سنجد فقهاء اليهود أكثر مرونة في بعض الأحيان، في المسائل التي تعود إلى الأحوال الشخصية؛ وهذا قد سهل حياتهم في بلاد الاغتراب كثيرا، مع كونهم لا يقبلون الاندماج. وأما فقهاء المسلمين، فإننا نجدهم في أحيان كثيرة جامدين على الأصل الأول من دون مراعاة للمتغيرات؛ فيؤدي ذلك من حيث لا يشعرون إلى لجوء أفراد الجماعة المسلمة إما إلى التحايل على الشريعة، وإما إلى التحلل منها؛ خصوصا في بلاد الاغتراب. نقول هذا، لأن الواقع الصلب في المجتمعات المستضيفة، لا بد أن يُؤخذ بعين الاعتبار عند تبيين الأحكام الشرعية، منعا لقصور أحكام الشريعة عن تغطية جميع الأحوال. وعلى كل حال، فإننا منذ مدة صرنا ننادي إلى تجديد الفقه الإسلامي كله؛ لأن القديم منه، صار لا يُفيد في الحياة المعيشة إلا ما كان من باب الثابت فيه، لا المتغيّر. وأما لمَ كان التعدّد مشروعا في الشرائع للرجال، دون النساء؟ كما يتساءل بعض ضعفاء العقول؟...

---

[1] . أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فلأن حواء بعض آدم في أصلها، لا العكس. وما كان أصلا، احتمل أن يضمّ أبعاضا، وإلا قيل بالتساوي. وهو هنا من هذا الوجه لا يصح!...

٤. ومن أحكام الأرملة التي مات عنها زوجها، إيجاب تزويجها لأخيه الأعزب من بعده، وتكون نسبة الأبناء من هذا الزواج إلى الأخ الميّت دون الزوج الجديد. وإذا امتنع أخ الميت من هذا الزواج، فإنه يُشهّر به ويُطرد من المجتمع الإسرائيلي. وهذا لا شك من تأثير العصبية القومية على التشريعات القديمة، لأنها مخالفة لواقع الحال. والشرع لا يعتبر إلا ما كان موافقا للحق (الواقع). وإن نسبة أبناء رجل إلى أخيه، لا يعني في الحقيقة شيئا؛ وإنما هو عُرف نشأ عن هوى، فغلب الشرع. وأما المعمول به الآن، فهو ما جاء في المادة ٢٦ عن "بن شمعون": [المتوفى زوجها إذا لم يترك أولادا، وكان له شقيق أو أخ لأبيه، عدّت له زوجة شرعا، ولا تحل لغيره ما دام حيا، إلا إذا تبرأ منها، كنص المادة ٤٣.]. وأما في الإسلام، فيجوز للأخ أن يتزوج زوجة أخيه المتوفَّى اختيارا، فإن لم يُرد فليس عليه حرج في تركها؛ وتكون في حقه كسائر النساء مِن سواها. ولعلنا نتبيّن من التشريع اليهودي، ما يُضيّق نطاق توسيع الأسرة فوق حدها الأدنى؛ وكأنه يرى ذلك عاملا على متانة المجتمع الإسرائيلي الذي ينبغي أن يكون شديد التماسك بحسب الشارع من الفقهاء. وإن كان التماسك الإسرائيلي محبذا في الأزمنة الأولى، عندما كانوا منكَّلا بهم، أو عندما كانوا محاطين بأقوام وثنيين لا يُقاسمونهم المصدرية الربانية التي لهم؛ فإنهم بعد ظهور المسيحيين ثم المسلمين، قد فقد انغلاقهم معناه، وأصبح مضرا بهم، كما منعهم من الاستفادة من الترقي الذي كانوا مطالبين به، بعد ذلك كله وفوقه.

٥. يهتم التشريع اليهودي بالابن البكر، وكان في زمن البداوة العبراني يجعله خليفة لأبيه في كل شيء. وأما في الفقه اليهودي المعمول به الآن: [للولد البكر من الأب، مثل حظ الولديْن، فهو مميّز بسهم بعلة البكورة.][1]. وتظهر العصبية العنصرية هنا أيضا: فـ [البكر المولود وأبوه أجنبي عن الملة، لا يُعدّ بكرا؛ وإذا عاد إلى الملة وولد، فلا بكورة أيضا.][2]. وتتأكد العنصرية في المادة التي بعدها، والتي جاء فيها: [البكر من الجارية أو الأجنبية لا يمنع البكورة من الإسرائيلية بعدها.][3]. وهذا القول من فقهاء التلمود، جاء ليغطي على حق إسماعيل في بكورته وميراثه من إبراهيم عليهما السلام؛ وكأنه تشريع بأثر رجعي؛ رغم أن التشريع الإبراهيمي هو الأصل. وهم يزعمون تبعا لِما حكموا، أن إسماعيل وإن كان قد وُلد قبل إسحاق، لا يستحق البُكورة، ما دامت أمه "هاجر" جارية مصرية؛ وأن البُكورة تكون من حق إسحاق بن "سارة" العبرية، وإن وُلد بعده. وهذا التأويل لدى اليهود، هو أصل القول بـ "شعب الله المختار"؛ وإن كنّا نحن نؤكد على صحة المعنى لزمن مخصوص، كما بيّن الله ذلك بقوله تعالى: {يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} [البقرة: ٤٠]؛ والنعمة هي اصطفاؤهم من بين البشر في الأزمنة الأولى. وما يدل على أن شريعة إبراهيم في هذه المسألة، مناقضة للتشريع اليهودي، هو قول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [إبراهيم: ٣٩]، ونعني أن الحمد كان جامعا لنعمة الولديْن معا، وكان اللفظ فيه مراعيا للترتيب: الأول فالأول. وحكم الله هو المعتبر، وإنْ حرف اليهود المعنى، وقالوا بعدم ميراث إسماعيل لشيء من أبيه. وكيف يستقيم هذا القول منهم الآن، وقد جاء من نسل إسماعيل أفضل الأنبياء عليهم السلام بالإطلاق!... وإن البقاء من اليهود على المقولات المحرَّفة القديمة، لن يزيد أمرهم إلا انفضاحا عند الناس في الدنيا،

[1] . "بن شمعون": المادة ٤٩١.

[2] . "بن شمعون": المادة ٥٠١.

[3] . "بن شمعون": ٥٠٢.

وقبل الانقلاب إلى الآخرة. ولعل العاقلين منهم قد بدأوا يُدركون هذا، منذ زمن!... وأما جوابا لقوم يرون المساواة الإنسانية التي يقول بها العقل اليوم منافية لمعنى الاصطفاء المذكور، فنقول: إن الله اصطفى من يشاء من نسل آدم، لأنه يفعل ما يشاء في خلقه سبحانه؛ وليس مُجبَرا (تعالى عن ذلك) أن يُعامل عباده بما يراه بعض المتأخرين منهم. فإن هذا من أسفه السفَه الذي يُمكن أن يكون. والله يقول في مسألة الاصطفاء، ما لا يدع مجالا لأدنى التباس: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ . ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [آل عمران: ٣٣، ٣٤]؛ فلما سأل إبراهيم الوراثة لكل بنيه، خصّص الله بقوله سبحانه: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة: ١٢٤]. وهذا يعني أن من ذرية إبراهيم من يكون كافرا، لأن الظلم هنا هو الكفر. ولما كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم أكمل الخلق، وكان من ذرية إبراهيم، فإنه حاز ما لم يحُزه أحد منهم؛ فكان مصطفى من بين المُصطفيْن، وكان خيارا من خيار؛ كما أخبر عن نفسه صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ، فَاخْتَارَ الْعُلْيَا فَأَسْكَنَهَا مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ؛ ثُمَّ خَلَقَ الْخَلْقَ فَاخْتَارَ مِنَ الْخَلْقِ بَنِي آدَمَ، وَاخْتَارَ مِنْ بَنِي آدَمَ الْعَرَبَ، وَاخْتَارَ مِنَ الْعَرَبِ مُضَرَ، وَاخْتَارَ مِنْ مُضَرَ قُرَيْشًا، وَاخْتَارَ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاخْتَارَنِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ. فَأَنَا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ مِنْ خِيَارٍ إِلَى خِيَارٍ، فَمَنْ أَحَبَّ الْعَرَبَ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَ الْعَرَبَ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ.»[١]. وهذا لا يتعارض مع اصطفاء بني إسرائيل الذي ذكرناه آنفا؛ لكون إسماعيل ويعقوب من ذرية إبراهيم المرضيّة عند الله، مع زيادة شرف المُصطفى الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم. ولما كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم المُصطفى من المُصطفيْن جميعا، فإنه شرُف به أجداده كما شرُفت به ذريته؛ وهذا ليس إلا له وحده. ومن علم ما نذكره هنا، علم أن المقصود من خلق الخلق -بمن فيهم آدم نفسه- هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم. ومن لم يعلم هذا، فإنه سيبقى جاهلا بالحقيقة، وإن قاربها حينا، كما قاربها أهل الكتاب.

٦. تحريم الربا فيما بين اليهود وحدهم، وإباحته في معاملة الأغيار: وإن عامل اليهودي يهوديا آخر بالربا فإنه يتعرض للتكفير والطرد من المجتمع اليهودي. ولكن بما جُبل عليه اليهود من حب للمال، فإنهم تحايلوا على الشريعة، كما هو واضح من المادة ٥٨٤ والتي تليها، من المجموعة القانونية التي ترجمها "دي بولي"[٢]، واللتين جاء فيهما: [محرم على اليهودي أن يقرض اليهودي مالا أو غيره من الأشياء التي يحتاج إليها كالقمح والدقيق مثلا بالربا. وإن المُقرض بالربا يتعرض تلقائيا للخلع والطرد.]؛ وتقول المادة ٥٨٥: [أما إذا اقترض اليهودي نقودا من يهودي آخر، بقصد الاستثمار، أو التوسع في التجارة، أو تنفيذ بعض المشروعات التي تدر ريعا، فإن الذي يُقرضه المال يمكنه أن يفرض عليه نصيبا في الأرباح يُتّفَق عليه.]. ويتضح من النص، أن اليهودي المُقرِض لا يتحمل الخسارة إن هي وقعت.

٧. الأكل والشراب:

ا- يحل من الحيوانات ذوات الأربع كل ما له ظلف مشقوق وليست له أنياب، ويأكل العشب ويجتر. وعلى هذا، فإن الخيل والبغال والحمير تحرم لحومها، لأن أظلافها غير مشقوقة؛ وكذلك الجمل، لكونه ذا خف لا ظلف. ويحرم الخنزير بالرغم من كونه ذا أظلاف مشقوقة لأنه ذو ناب. وتحرم السباع كلها لأنها ذات مخالب وأنياب. وتحرم الأرانب وما يتصل بها من القوارض آكلة العشب، لأنها ذات أظافر، لا أظلاف مشقوقة.

---

[١] . أخرجه الحاكم في المُستدرك على الصحيحيْن، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

[٢] . Jean de Pauly: Code civil et pénal du judaïsme; Paris:1896

ب- ويحرم من الطيور كل ما له منسر، وهو المنقار المعقوف؛ أو ما له مخلب؛ أو ما كان من أوابد الطير التي تأكل الجيف والرمم. فيحرم أكل الصقر والبومة والحدأة والببغاء لكونها ذات منسر، أو مخلب أو كليهما معا. ويحرم أكل الغراب والهدهد ونحوهما احتياطا، لأنه من الأوابد التي لا يُعلم ما تتغذّى عليه. ويحل أكل الدجاج والإوز والبط وأمثالها من الطيور الأليفة، التي تمكن تربيتها في البيوت والمزارع. كما تحل السماني والعصافير وبعض الطيور البرية آكلة العشب والحب. ويُشترط في الطيور المأكولة أن تكون سليمة من الجروح والكسور والأمراض، وأن تُذبح من منحرها مع ذكر الله عليها.

ج- أما الأحياء المائية، فيحل منها السمك الذي له زعانف وعليه قشور، وفيما عدا ذلك فكل صيد البحر حرام.

د- والدم محرم على اليهود، كما هو محرم على المسلمين.

هـ- ولا يجوز لليهود الجمع بين اللحم واللبن والحليب، أو أي شيء من مشتقاته، في طعام واحد. وهكذا يحرم طبخ اللحوم في السمن أو الزبد، بل ينبغي أن تُطبخ في زيوت نباتية. وانتقل التحريم إلى الآنية والأدوات، فلا يوضع لحم في آنية كان بها زبد أو لبن، أو تُستعمل سكين واحدة في تقطيع اللحم والجبن معا. ولهذا يتعيّن على كل يهودي متشرع أو مطعم يحترم الشريعة، أن يفصل بين الأدوات التي يستعملها للحم، والأخرى التي يستعملها للحليب ومشتقاته.

و- يحرم على اليهود خلط الأنبذة أو الخمور، وخلط الألبان.

والفقه اليهودي ينقسم إلى مدرستيْن متباينتيْن هما: مدرسة "هليل" المشهورة بالتسامح والتيسير، ومدرسة "شماي" التي تُعرف بالتشدد والتدقيق؛ ولا شك أن الأولى هي أكثر انتشارا واتساعا من الثانية، كما هي الحال في كل الملل.

ولعل القارئ قد تنبه معنا إلى كون الشريعة لا يُمكن أن تكون أحكاما جُزافية يخترعها الناس من لدنهم اختراعا، وإنما هي صور عمليّة يتعبّد الله بها عباده، وتتأسس على أحكام علمية لها منطقها الخاص، ولها نظامها الذي يحكُم علاقة بعضها ببعض. ولا يكون هذا العلم الذي تقوم عليه الأحكام الشرعية إلا للأنبياء خاصة، أو من كان من المجددين من هذه الأمة. ونعني من هذا، أن هذا العلم لا يكون للمجتهدين من الفقهاء، على ما لهم من مكانة وما يُحالفهم من توفيق ربّاني.

وأهم ما ينبغي أن يُعتبر في زماننا أمران:

١. أنه لا شريعة معتبرة عند الله اليوم إلا الشريعة المحمدية وحدها. وهذا يعني أن الشريعة الموسوية (اليهودية عموما)، لا تُغني عن أصحابها شيئا؛ وأن أقصى ما تُمثّله لهم، أنها تربط أهلها بثقافتهم وتاريخهم.

٢. أن الشرائع الربانية السابقة على الشريعة المحمدية، لها اعتبار تحت حكم هذه الأخيرة: من جهة لأن ما كان أصله ربانيا -وإن نُسخ- لا يستوي مع ما لم يكن أصله كذلك قط؛ ومن جهة أخرى، لأن الشريعة المحمدية باعتبار إطلاقها، هي مُهيمنة على الشرائع الربانية الأخرى. ونعني من هذا أنها متضمنة لها حكما، من جهة إجمال تفصيلها أو تفصيل إجمالها. وهذا علم، لم نر من فقهاء الإسلام من تصدّى له عبر القرون، إلا فيما ندر. وهو من هيمنة الشريعة المحمدية، كما قلنا. وهذا الحكم، هو ما يُخوّل الكتابيّين الحكم بشرائعهم فيما بينهم، تحت حكم الشريعة المحمدية العام. وهذا يعني أن الكتابيّين على إسلام دنيوي، ينفعهم في دنياهم، وإن كان لا ينفعهم في الآخرة إلا مقارنة بالمنافقين؛ ونعني أنهم أفضل منهم بكثير. وعموم ما يتعلّق بهذا، هو ما سمّاه الشرع ذمّة، والتي هي بمعنى الكفالة والعهد. ولعلنا نعود إلى مسألة الذّمة في موضع آخر من هذا الكتاب، إن شاء الله.

وأما ما على الناس أن تعيَه بخصوص الشريعة المحمدية، فهو:

١. أنها الشريعة الخاتمة للشرائع، التي لا تُنتظر بعدها شريعة إلى قيام الساعة. وهذا يجعلها على خصائص لم تكن لسابقاتها، أهمها:

– المرونة: بحيث تكون قابلة للتجدُّد مع الزمان. وهذا جانب أغفله متأخرو الفقهاء، فجعلهم يجمُدون على أحكام مُتجاوَزة، في كثير من جوانب التشريع التي ينبغي أن تُغطي كل جوانب الحياة الدنيوية للفرد وللجماعة معا عبر الزمان كلّه.

– الشمول: وهو يعني أن لا شيء إلا وللشرع فيه حكم، إما بالإيجاب أو بالمنع (التحريم) أو بالإباحة. وهذا يعني أن المسلمين ينبغي أن تكون طريقة عيشهم خاضعة لأحكام الشريعة، في جميع المجالات. وهو ما يقتضي أن القوانين الوضعية، المسماة "القوانين المدنية" من باب المراوغة، ينبغي أن تكون منبثقة عن الشريعة، غير مُستمَدة من قوانين الأمم الكافرة (المُستعمِرة سابقا)، كما هو الشأن لدى جل المسلمين اليوم. وهذا الذي نقوله، ليس من الضيق عن الاستيعاب الذي قد يُفهم لأول وهلة من الكلام؛ وإنما هو في المقابل من ذلك، من سَعة الشريعة المحمدية، كما سبق أن ذكرنا، ومن غناها.

٢. أن الشريعة المحمدية أيسر الشرائع على الإطلاق، بسبب سعة الحقيقة المحمدية لجميع حقائق المخلوقات. وهذا المعنى هو ما يذكره الله تعالى في قوله: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥]، أي في هذه الشريعة؛ وهو ما يعنيه الله بقوله سبحانه: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} [الأعراف: ١٥٧]. وهذا المعنى يشعر به من كان من أهل الكتاب ثم أسلم، أكثر من غيره؛ لأنه سيعلم بالذوق الفرق بين ما كان عليه من ضيق، وما خرج إليه من سعة. وأما الإصر، فهو الثّقل؛ والأغلال، هي الوُثُقُ (جمع وِثاق). ومعنى وضع الأغلال والإصر عن أهل الكتاب، هو إخراجهم من حكم تقييد حقائق أنبيائهم، إن كانوا على الحق في زمن شريعتهم، إلى حكم طلاقة الحقيقة المحمدية؛ أو هو إخراجهم من الكفر الذي وقعوا فيه فيما بعد، إلى الإيمان. وهذا، لأن الحقيقة المحمدية متضمنة لجميع حقائق الأنبياء عليهم السلام، وزائدة عليها بما هو خاص به صلى الله عليه وآله وسلم وحده. وإن فقهاء المسلمين، في عمومهم، من أجهل الناس بهذا المعنى؛ لذلك كان فقههم في الغالب ضيّقا بمعنى ما. ونعني من هذا، أنه لا يكون على الشريعة المحمدية من جهة إطلاقها حقيقة، إلا الأفراد من هذه الأمة. وهذا الذي نقوله، يقتضي أن تكون المذاهب الفقهية الإسلامية ضيّقة، لكونها مقيّدةً ومختلِفاً بعضها عن بعض. ولا يكون الإطلاق لها، إلا مجتمعة، وفي حال تضمُّنها لكل الأقوال في المسألة الواحدة. وهذا يدحض قول القاصرين من المتأخرين، بعدم جواز الجمع بين المذاهب المختلفة في العمل. وهو وإن كان معتبرا بالنظر إلى العامة، الذين لا قِبل لهم باستيعاب الاختلاف؛ إلا أنه بالنظر إلى العلماء دليل على نقص العلم. وهو ما يُخالف ما كان عليه كبار الصحابة رضي الله عنهم، وما كان عليه الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، من كل زمن. كل هذا من جهة أصل التشريع ذاته، لا من جهة أحوال العاملين بالشريعة؛ فإن ذاك باب آخر من الفقه، لسنا بمعرض الخوض فيه.

٣. أن المجددين للشريعة لا ينبغي أن يخلو منهم زمان؛ وهم بمثابة الرسل عليهم السلام في الأمم السابقة. وهذا لأن هذه الأمة لها كرامة مخصوصة عند ربها، وهي أن أئمتها يعدلون في المنزلة الأنبياء عليهم السلام، من غير أن تكون لهم نبوة بالمعنى الاصطلاحي. وعندما نقول بعدم خلوّ زمان منهم، فإننا لا نقطع دائما بظهورهم؛ لأن زماننا لا ظهور لهم فيه، إلى الحد الذي أصبح معه السفهاء يُعدّون من علماء الدين!... ثم إننا عندما نذكر تجديد الشريعة، فإننا نفرّق بينه وبين التجديد الديني، الذي ذكره النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ، مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا.»[1]. ونعني من كلامنا، أن تجديد التشريع، هو من تجديد الفقه بالمعنى الاصطلاحي؛ وأما تجديد الدين،

[1]. أخرجه أبو داود والحاكم في المستدرك، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فهو عام يشمل ظاهر الدين وباطنه. وهو في الغالب لا يكون إلا للأئمة الجامعين، الذين يكونون في المرتبة كالأئمة من أهل البيت المعلومين في الزمن الأول. ومَن قارن بين علم الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وعلم مالك وأضرابه رضي الله عنهم، فإنه سيعلم الفرق حتما، وسيعلم ما نقول.

الفصل السادس
الفرق اليهودية وعقائدها

لقد قررنا في الفصل السابق أن الشعائر، هي معان مكثفة تخصصها حقيقة النبي الرسول؛ وإن كانت الشعائر على هذا النحو، فإن العقائد التي يكون عليها قوم مخصوصون من أتباع رسول مخصوص، هي أولى بترجمة تلك المعاني عن قرب. وحتى نزيد الأمر وضوحا فإننا نقول: حقيقة النبي جامعة لمعان عرفانية، يمتاز فيها تجليه عن سائر التجليات التي لغيره من الأنبياء؛ إلا محمدا فإن تجليه جامع للكل من جهة ختميته صلى الله عليه وآله وسلم. والمعاني التي تتضمنها حقيقة النبي، تكون بالنظر إلى أتباعه معارف (علوما إيمانية) في صورتها العلمية، كما تكون في الظاهر أعمالا مشروعة في صورتها العملية. وإذا كان اليهود قد انقسموا من جهة آرائهم في الأحكام الشرعية، فإنهم سيختلفون اختلافا أكبر بالنظر إلى مقولاتهم العقدية، كما سنرى. ونحن وإن كنا قد مررنا ببعض فرق اليهود في الجزء الأول من هذا الكتاب، مرورا لا يُجاوز التعريف الأولي لكلٍّ منها، وذلك حتى يسهل التمييز فيما بينها، وحتى نُمهّد لما نحن بصدده الآن؛ فإننا هنا سنتوقف عند كل فرقة بشيء من التوسع، فيما يتعلق بها من أسباب ونتائج، نرجو أن تفتح أبوابا من معرفتها، كانت مغلقة إلى الآن. وذلك -في مرحلة وُسطى- لنتمكن من تتبع تفاصيل عقائدها فيما بعد لدى النصارى ولدى المسلمين جميعا. ونعني من كلامنا، أن ما سنُبديه من ذلك الاشتراك العقدي في هذه المرحلة، لن يكون الغاية في هذه المقارنات، وإنما سيُعِدُّنا لما هو آت في الأجزاء الأخرى المقبلة من الكتاب، لنخرج في النهاية بصورة واضحة المعالم عند الانتهاء من الكتاب بعون الله وإذنه. لهذا، فلا يستعجل أحد، إن هو رآنا نتجاوز بعض ما كان يُريد هو منا الوقوف عنده؛ فإننا -إن شاء الله- إليه عائدون في محله، وعند الاقتضاء. ثم لا بد من التذكير مرة أخرى -وحتى لا ينحرف الفهم من الناسين- بأن اليهود كانوا مدعوّين إلى المرتبة الأولى من الدين في الغالب، والتي لا يتجاوز أصحابها ما يكون عليه أهل الإيمان المُجمل. وهم بخوضهم في العقائد، سيقعون في انحراف محقّق عن الطريق الأصلي، الذي دلهم عليه موسى عليه السلام؛ وذلك عند إعمال عقولهم -على قصورها- فيما لا مدخل لها فيه؛ وهو الشيء الذي لن يسلم منه النصارى فيما بعد، ولا المسلمون، بصور مختلفة. وعلى هذا، فإن الاختلاف في العقائد بين الفرق، لن يكون في أساسه إلا اختلافا في العقول ذاتها، وفي تناولها لمفردات العقائد، مما له علاقة بالألوهية أو بالنبوة أو باليوم الآخر. وعلى عكس ما هو شائع لدى عموم الناس، من كون إحدى الفرق لا بد من أن تكون على الحق، في مقابل تلك التي تكون بعيدة عنه بقدر ما؛ فإننا نحكم بإخطاء جميع الفرق للطريق، موافَقَةً للأنبياء عليهم السلام في الدلالة على الإيمان بالمعنى الصحيح للكلمة، لا على الفكر العقدي. وسيظهر هذا جليّا -بإذن الله- عندما نصل إلى الفرق الإسلامية، التي لن تكون إلا امتدادا للفرق اليهودية من حيث الطريق، وإن فاقتها من حيث مرتبة التعقل، التي لا تكون في الغالب إلا لكبار الفلاسفة.

وأول ما ينبغي أن نذكره في هذه البداية، السواد الأعظم من اليهود، والشطر الأكبر منهم، والذين هم اليهود "الربيّون" أو "الربانيّون"، نسبة إلى "الرب" الذي هو بمعنى الكبير، أو الرئيس. والمقصود منهم أولئك الذين أبقوا على مجال المقدّسات مفتوحا، بعد موسى عليه السلام، وبعد التجديد العُزَيْريّ (نسبة إلى عزرا)، الذي جاء بعد السبي البابلي. ونعني من هذا، أنه ينبغي علينا التفريق من الآن، بين ما هو من التشريع الإلهي لدى اليهود، وما هو من تشريع الفقهاء الداخل

عليه. وتشريع فقهاء اليهود منه ما هو من قبيل المرويات الشفوية، ومنه ما هو من قبيل الاجتهادات أو الفتاوى، المتضمَّنة في "المشنا" و"التلمود" و"المدراش"، وهي الكتب الزائدة عندهم على الكتاب المقدس، بحسب العرف. والفقهاء أنفسهم ينقسمون إلى طبقات هي: طبقة "السوفريم"، وهم الكَتَبة؛ وطبقة "التائيم"، وهم رواة "المشنا"؛ وطبقة "الأمورائيم"، وهم أحبار "التَّلمود"؛ وطبقة "الدرشانيم"، وهم المفسرون للكتاب المقدس، أصحاب "المدراش" (التفسير)؛ وطبقة "الجأونيم"، وهم كبار الفقهاء الذين ظهر الإسلام في زمنهم؛ وطبقة "الموسيفيم"، وهم أصحاب الحواشي والتعليقات والفتاوى، الذين يمتد زمانهم من العصور الوسطى إلى العصر الحديث.

وهذا الشطر الأكبر من اليهود، ينقسم إلى فرقتيْن عظيمتيْن، هما:

١ . الأشكناز: وهم اليهود الذين استقروا في شمال أوروبا وشرقها. وكلمة "أشكناز" كانت دالة على الفكر اليهودي في العصور الوسطى، المخصوص بالبلاد الأوروبية التي يسكنها الجنس الجرماني؛ ثم أصبحت تعني فيما بعد ألمانيا حصرا. ومع ذلك فإن جزءا كبيرا من اليهود الأشكناز، سكن شمال فرنسا وشرقها، بالإضافة إلى ألمانيا والنمسا وبولونيا، وسائر دول أوروبا الشرقية، وما كان يُسمّى قبل عقود "الاتحاد السوفياتي". وكان هؤلاء اليهود الأشكناز، قد انقطعوا عن التكلم بالعبرية بالكلّيّة، وصاروا في مجتمعاتهم يخلطون بين لهجة ألمانية قديمة محرفة، وعبارات من اللغات السلافية، وبعض الكلمات العبرية المكسرة، التي لها صلة بالموروث الديني اليهودي كما هو غير خاف. ولما عاد اليهود الأشكناز إلى العبرية فيما بعد، فإنه قد بقيت لهم فيها لهجة خاصة، لا تتقيّد بالقواعد المتعارف عليها عند اليهود الأولين. وهم في صلواتهم، ينطقون بهذه اللهجة الخاصة بهم؛ ويختلفون عن غيرهم فيما يعود إلى بعض النصوص أيضا، التي قد توجد عندهم وحدهم؛ أو قد توجد عند غيرهم ولا توجد عندهم. ومما لا يخفى أيضا، اختلافهم عن غيرهم فيما يخص بعض الأعياد، وما هو من العادات المعيشية التي يدخل فيها الأكل والشرب واللبس والمسكن؛ بسبب المناخ البارد الذي عاشوا فيه طويلا من جهة، وبسبب مجاورتهم لشعوب مغايرة لهم، من جهة أخرى. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن الأشكناز هم أقطاب الصهيونية المعاصرة ولبّها؛ وسيظهر بالتدريج سبب ذلك، بعد أن نقارنهم بغيرهم من الفرق.

٢ . السفرديم: وهؤلاء هم اليهود الذين استقروا في حوض البحر الأبيض المتوسط. وكلمة "سفرد" كانت تدل في الفكر اليهودي في العصور الوُسطى، على شبه جزيرة أيبيريا، التي تشمل إسبانيا والبرتغال؛ ثم أصبحت تعني فيما بعد إسبانيا حصرا. والسفرديم، كانوا قد انقطعوا أيضا عن اللغة العبرية بعد الشتات الذي أعقب تنكيل الرومان بهم سنة ٧٠ م، على يد قائدهم "تيتوس"؛ وسنة ١٣٥م على يد "هدريان". فصاروا يتكلمون تبعا لذلك، إسبانية قديمة ركيكة ومحرفة، كانت تُسمّى "لادينو" أي لاتيني. غير أن هذه اللهجة كانت مطعّمة بألفاظ عبرية ولا بد، كما هو الشأن مع إخوانهم الأشكناز، لاقتضاء الحمولة التاريخية والدينية ذلك. وإن قورِن هؤلاء السفرديم بالأشكيناز من الناحية اللغوية، فإننا سنجد السفرديم أوفر حظا، بعد أن دخل الإسلام إلى الأندلس، ومنح اليهود حريةً لم يعرفوها مع سواه. وفي الأندلس، انتعشت العبرية إلى جانب أختها العربية، وكثرت المدارس والمعابد اليهودية في قرطبة وأليسنة (لوسينا) وطليطلة وإشبيلية وسرقسطة وبرشلونة وغيرها... وظهرت حركة أدبية قوية باللغة العبرية، اعتنت بضبط الألفاظ وقواعد التركيب؛ بحيث أصبح هذا الاستعمال أنقى وأفصحَ كلِّ الصور اللغوية المعروفة إلى وقته. ولقد زاد من هذا الصقل، مشاركة العبرية للعربية في الأصل، والتي تُعتبر العربية بالنظر إليه أرقى اللغات السامية قاطبة. فكانت من هذا الوجه أخت العبرية الكبرى، المسددة لها في التطور وفي تدارك ما فات. ولقد تأثر اليهود "السفرد" في عباداتهم وتلاواتهم وترتيلهم وإنشادهم، بالصبغة العربية في الإنشاد والموسيقى، لحنا وإيقاعا؛ كما انفردوا بنصوص شعرية ونثرية في أدعيتهم وصلواتهم، قريبة الشبه بما يقابلها عند المسلمين. وقد نتج عن هذا، أن دولة إسرائيل عند قيامها، وجدت نفسها مُضطرة إلى اعتبار لغة "السفرد" اللغة الرسمية لقطاعيْ الإعلام والتعليم.

ولقد بلغ الأمر إلى حد أن الأدباء وعلماء اللغة من الأشكناز أنفسهم، صاروا خاضعين خضوعا تاما للغة السفرديم. ولا بد من التذكير هنا، بأن العرب عندما خرجوا من الأندلس، فإن محاكم التفتيش الكاثوليكية، قد تسببت في هجرة عدد كبير من بقيتهم، ومن السفرديم الذين عاشوا معهم؛ إلى فرنسا وإيطاليا واليونان وتركيا وهولندا وإنجلترا، كما تسببت في استقرار الآخرين منهم بالدول العربية. وعلى الرغم من أن اليهود في البلاد العربية هم من السفرديم، إلا أنه قد أصبح لكلّ منهم لهجة تميّزه عن الآخر؛ فاليمني غير المغربي، والعراقي غير المصري. كما ينبغي أن لا ننسى أن يهود إيران، هم معدودون من السفرديم أيضا، منذ دخول الإسلام والعربية إلى هناك؛ وإن كانت لهجتهم متأثرة بالفارسية، كما هو ثابت.

ورغم أن التفريق بين الأشكناز والسفرديم، هو في أصله جغرافي، إلا أنه أصبح متعدّيا إلى الفكر وتطوراته وتوابعه، عند كل فريق مع مرور الزمان، بسبب الاحتكاك بثقافات متباعدة فيما بينها؛ وتبعا لذلك، بسبب تطوُّر كل منهما في استقلال عن الآخر. وهو ما سيجعل الفريقيْن المذكوريْن، يمتازان عن فرقٍ أقلَّ عددا وأقل تأثيرا منهما؛ سنعمل على ذكر وجوه مخالفتها لهما تصريحا أو بالإشارة، نخصّ منها:

١. السامريون: وهي فرقة صغيرة وفقيرة، لا يتجاوز عددها بضع مئات، تعيش بجوار مدينة نابلس بفلسطين، وتثير جدلا كبيرا حول أصلها وتاريخها. وما زاد من حدة هذا الجدل، هو كون السامريين غير صهاينة؛ لسبب جوهري، هو كفرهم بداود وسليمان عليهما السلام، اللذين لم يكتسب جبل صهيون قدسيته إلا منهما. وعلى هذا، فإن جبل صهيون، يعتبره السامريون "قاعدة الكفر"، ويعتبرون الصهيونية تجديدا للكفر، وتغليبا له على الفكر الإسرائيلي الأصلي. وهم -كما يدل اسمهم- ينتسبون إلى مدينة السامرة القديمة، التي يعيشون حولها، والتي قامت على أنقاضها مدينة نابلس. ونابلس أو السامرة، هي التي كانت تُسمّى قبل مقدم اليهود إلى فلسطين "شكيم". ويُشرف عليها جبل مقدس، اسمه "جرزيم". وتذكر التوراة أن يعقوب قد بنى معبده المكرّس للرب في هذا المكان، وسماه "بيت إل"، أي بيت الله. وهكذا يزعم السامرية أنهم الباقون على الدين الصحيح، من دون جميع اليهود، بإبقائهم على مكانة "بيت إل" فيهم. ويقولون إن موسى نفسه، كان يجعل قبلته نحو "بيت إل"؛ وينتقدون على داود وسليمان تأسيسهما للمملكة، التي يرونها مخالفة للدين. وهذا يجعلهم أجهل من بقية اليهود بمعنى الخلافة عن الله، التي تكون جامعة بين النبوة والحكم. وتتلخص عقيدة السامرية في:

ا- الإيمان بإله واحد، وهو روحاني بحت: وهذا يعني أن هذه الطائفة، قد جمعت بين الكفر والشرك: الكفر، عندما كفرت بداود وسليمان؛ والشرك، عندما جعلت الله روحا؛ وهو ما يستلزم القول بوجوديْن: أحدهما لله، والثاني للعالم؛ وهذا هو الشرك بعينه. ورغم أن هذه العقيدة لا يسلم منها النصارى وكثير من المسلمين، عندما يجعلون الله مفارقا للعالم بسبب اعتمادهم التنزيه العقلي، الذي لا يُعطي إلا ذلك؛ فإن المُعلن بكون الله روحا، يكون أدخل في الشرك من غيره فيه؛ لأنه سيجعل للمادة وجودا في مقابل الروح. ومن ينظر إلى كثرة تحذيرنا من الخوض في "الكلام"، فإنه سيعلم الآن أخص وجه من وجوه ذلك التحذير، والذي هو الشرك الناتج عن القول بوجوديْن. ونعني من هذا أن تفريق الأشاعرة وغيرهم، بين وجود الحق ووجود الخلق، الذي يلفقون له العبارات، ويتكلفون له التأويلات، لا ينفع القائلين به شيئا؛ بل يضرهم. وهم على كل حال، جاهلون بمعنى الوجود حقيقة؛ وإنما يقصدون بالوجود في الغالب الثبوت العقلي[١] لا غير. ولأن يبقى المرء عاميا، يعبد الله على إيمان مجمل، خير له من أن يكون إماما من أئمة الكلام؛ لأن العامي على أصل التوحيد باق، والإمام المتكلم قد خرج عنه. ولعلنا سنبيّن في موضع آخر من هذا الكتاب، أصل هذه المسألة، إن شاء الله ذلك.

---

١. الثبوت العقلي هنا هو غير الثبوت العلمي الذي يقول به العارفون.

ب- الإيمان بأن موسى رسول الله، وبأنه خاتم الرسل: وهذا يدل على وعي أهل الدين عموما، بحقيقة ختم النبوة؛ وإن كان الخلل يدخل عليهم من جهة النسبة. ونعني من هذا، أنهم يعلمون بوجود ختم النبوة من جهة غيبهم، لكن ينسبونه في الغالب إلى من ينتسبون إليه من الرسل بسبب العصبية، كما هو الحال هنا مع موسى عليه السلام. وهؤلاء السامرة قد أخطأوا من جهتيْن: الأولى، هي عندما أقروا برسالة موسى عليه السلام، ثم كفروا بالأنبياء الوارثين له من بعده؛ وهذا سيجعلهم يجهلون معنى التجديد في الشريعة الموسوية نفسها، وسينتهي بهم تبعا لذلك، إلى الانقطاع عنها حتما؛ والجهة الثانية، هي عندما نسبوا إلى موسى ختم النبوة، وهو ليس صاحبه. وهذا يعني على الإجمال، أن الناس كلهم عالمون بالحقائق الكبرى، لكنهم يُخطئون في نسبتها، وفي تنزيل معانيها. ومن الحقائق المعلومة للخلق أجمعين، كما لا يخفى: الألوهة؛ ولكن نسبتها تختلف كما نرى من قوم إلى آخرين، ومن ملة إلى أخرى. ولو كان السامرة موفَّقين، لعلموا أن ختم النبوة هو لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، لا لغيره؛ وهذا يدل عليه القرآن بألفاظه ومعانيه، وهو قد بلغهم من غير شك. ومن ثمّ وجب الإيمان به على كل أفراد البشرية، خصوصا منهم من كان على بداية كتابية مع موسى أو عيسى عليهما السلام. وكلامنا هنا، هو بحسب ما يُعطيه المنطق العقلي، من وجوب مقارنة الكتب السابقة إلى القرآن، بكل تجرد؛ لا باعتبار ما يكون عليه الناس في ثقافاتهم المتوارثة، والتي تجعل كل قوم في الغالب، يرون أنفسهم أفضل الناس على وجه البسيطة. فهذا -كما لا يخفى- هو من الحمق الجماعي، الذي يسم المجتمعات. ونحن عندما نقرر هذا، لا نستثني اليوم المسلمين من هذه الآفة؛ بل إن مصيبتهم صارت أعظم. وذلك عند كونهم من جهة على الدين الحق، مع انحجابهم عن الحق في الوقت ذاته من جهة أخرى. وهذا من أعجب ما يكون، لو أن الناس كانوا يشعرون!...

ج- الإيمان بأن توراة موسى هي كلام الله: وهذه المسألة فرع عن السابقة. وهم عندما حصروا الرسالة في موسى، ومع اعتقادهم بأنه خاتم الرسل، لا يبقى أمامهم إلا أن يحصروا كلام الله في التوراة وحدها؛ لئلا يُناقضوا مبادئهم. وهذا سيحجبهم حتما عن القرآن الذي هو "الكتاب" بجميع المعاني التي تعطيها "الـ" التعريفية، كما سبق أن ذكرنا. ولما كانت السامرة يكفرون بمحمد وبالقرآن، فإن إيمانهم الآن الذي يتمسكون به، لا يجعلهم عند الله مؤمنين؛ بل هم من كافري أهل الكتاب من غير شك. وهم في كفرهم أسوأ من اليهود الربانيين، لأن هؤلاء زادوا عليهم بإيمانهم بالأنبياء المجددين للدعوة الموسوية كلهم. وهذا لا بد أن يُحسب لهم، وأن يجعل الناظر إليهم يقرّ لهم بالاستقامة على طريق الله، إلى أمد مخصوص. وإن كل علماء العقائد الذين لا يعتبرون هذه الفروق، لا يُمكن أن يُعَدّوا من العلماء حقا؛ لأن هذه الفروق هي المميزة للحق من الباطل، أصولا وفروعا.

د- الإيمان بأن جبل "جرزيم"، هو المكان الوحيد المقدس، وهو القبلة الوحيدة التي للإسرائيليين: وهم بهذا لا يخالفون اليهود من غيرهم وحدهم، ولكن يُخالفون الحق كما هو في نفسه؛ وهذا أيضا متفرع عن عقائدهم السابقة. وبهذا يكون السامريون من أبعد الفرق اليهودية عن الحق.

والتوراة التي يؤمن بها السامرة، ليست هي التوراة المعلومة لليهود؛ وإنما هي توراة برواية خاصة، تختلف عن التوراة الأخرى من حيث اللغة ومن حيث الكتابة (الرسم). وذلك لأنهم يزعمون أن العبرية وطريقة كتابتها هما ما كانتا متداولتيْن على عهد موسى عليه السلام. وفي هذا من القفز على الحقائق التاريخية، ما لا يخفى عن منصف؛ بسبب البعد الزماني الشاسع.

وأما المعتدلون من هذه الطائفة، فينسبون أنفسهم إلى ضعفاء اليهود الذين بقوا في فلسطين بعد السبي البابلي. ويقول غيرهم بأن السامريين هم من جاء ذكرهم في سفر الملوك الثاني: "وَسَلَكَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي جَمِيعِ خَطَايَا يَرُبْعَامَ الَّتِي عَمِلَ. لَمْ يَحِيدُوا عَنْهَا، حَتَّى نَحَّى الرَّبُّ إِسْرَائِيلَ مِنْ أَمَامِهِ كَمَا تَكَلَّمَ عَنْ يَدِ جَمِيعِ عَبِيدِهِ الأَنْبِيَاءِ، فَسُبِيَ إِسْرَائِيلُ مِنْ أَرْضِهِ

إِلَى أَشُّورَ إِلَى هذَا الْيَوْمِ. وَأَتَى مَلِكُ أَشُّورَ بِقَوْمٍ مِنْ بَابِلَ وَكُوثَ وَعَوَّا وَحَمَاةَ وَسَفَرْوَايِمَ، وَأَسْكَنَهُمْ فِي مُدُنِ السَّامِرَةِ عِوَضًا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَامْتَلَكُوا السَّامِرَةَ وَسَكَنُوا فِي مُدُنِهَا."[1]. ومن يستدل بهذا النص، يريد أن يقطع صلة السامريين عن العبريين وعن يعقوب وموسى جميعا؛ ويريد أن يجعلهم أخلاطا من "الغوييم" المتعاونين مع أعداء اليهود تاريخيا، بما أن الأشوريين هم من أتوا بهم في البداية وأحلّوهم محل بني إسرائيل. والقائلون بهذا القول، لا يُسمّون السامريين باسمهم، وإنما يُسمونهم "الكوثيين"، أي الذين جاءوا مع الأشوريين من "كوث" المذكورة بعد بابل في النص السابق. وإذا نظرنا فيما يتبع النص السابق، فإننا سنجد: "وَكَانَ فِي ابْتِدَاءِ سَكَنِهِمْ هُنَاكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَتَّقُوا الرَّبَّ، فَأَرْسَلَ الرَّبُّ عَلَيْهِمِ السِّبَاعَ فَكَانَتْ تَقْتُلُ مِنْهُمْ. فَكَلَّمُوا مَلِكِ أَشُّورَ قَائِلِينَ: «إِنَّ الأُمَمَ الَّذِينَ سَبَيْتَهُمْ وَأَسْكَنْتَهُمْ فِي مُدُنِ السَّامِرَةِ، لاَ يَعْرِفُونَ قَضَاءَ إِلهِ الأَرْضِ، فَأَرْسَلَ عَلَيْهِمِ السِّبَاعَ فَهِيَ تَقْتُلُهُمْ لأَنَّهُمْ لاَ يَعْرِفُونَ قَضَاءَ إِلهِ الأَرْضِ». فَأَمَرَ مَلِكُ أَشُّورَ قَائِلًا: «ابْعَثُوا إِلَى هُنَاكَ وَاحِدًا مِنَ الْكَهَنَةِ الَّذِينَ سَبَيْتُمُوهُمْ مِنْ هُنَاكَ فَيَذْهَبَ وَيَسْكُنَ هُنَاكَ، وَيُعَلِّمَهُمْ قَضَاءَ إِلهِ الأَرْضِ». فَأَتَى وَاحِدٌ مِنَ الْكَهَنَةِ الَّذِينَ سَبَوْهُمْ مِنَ السَّامِرَةِ، وَسَكَنَ فِي بَيْتِ إِيلَ وَعَلَّمَهُمْ كَيْفَ يَتَّقُونَ الرَّبَّ. فَكَانَتْ كُلُّ أُمَّةٍ تَعْمَلُ آلِهَتَهَا وَوَضَعُوهَا فِي بُيُوتِ الْمُرْتَفَعَاتِ الَّتِي عَمِلَهَا السَّامِرِيُّونَ، كُلُّ أُمَّةٍ فِي مُدُنِهَا الَّتِي سَكَنَتْ فِيهَا."[2]. وهذا يؤكد أن الأخلاط التي سكنت السامرة، لم ينفعها تعليم الكاهن، وتحوّلوا عن قريب إلى عبادة الأوثان. ويقْوى هذا القول عند ذكر النص للأصنام التي اتخذتها كل جماعة من السامريين بالتفصيل: "فَعَمِلَ أَهْلُ بَابِلَ سُكُّوثَ بَنُوثَ، وَأَهْلُ كُوثَ عَمِلُوا نَرْجَلَ، وَأَهْلُ حَمَاةَ عَمِلُوا أَشِيمَا، وَالْعُوِّيُّونَ عَمِلُوا نِبْحَزَ وَتَرْتَاقَ، وَالسَّفَرْوَايِمِيُّونَ كَانُوا يُحْرِقُونَ بَنِيهِمْ بِالنَّارِ لأَدْرَمَّلَكَ وَعَنَمَّلَكَ إِلهَيْ سَفَرْوَايِمَ. فَكَانُوا يَتَّقُونَ الرَّبَّ، وَيَعْمَلُونَ لأَنْفُسِهِمْ مِنْ أَطْرَافِهِمْ كَهَنَةَ مُرْتَفَعَاتٍ، كَانُوا يُقَرِّبُونَ لأَجْلِهِمْ فِي بُيُوتِ الْمُرْتَفَعَاتِ. كَانُوا يَتَّقُونَ الرَّبَّ وَيَعْبُدُونَ آلِهَتَهُمْ كَعَادَةِ الأُمَمِ الَّذِينَ سَبَوْهُمْ مِنْ بَيْنِهِمْ إِلَى هذَا الْيَوْمِ يَعْمَلُونَ كَعَادَاتِهِمِ الأُوَلِ. لاَ يَتَّقُونَ الرَّبَّ وَلاَ يَعْمَلُونَ حَسَبَ فَرَائِضِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَلاَ حَسَبَ الشَّرِيعَةِ وَالْوَصِيَّةِ الَّتِي أَمَرَ بِهَا الرَّبُّ بَنِي يَعْقُوبَ، الَّذِي جَعَلَ اسْمَهُ إِسْرَائِيلَ."[3]. وهذا جعل جُلّ اليهود، لا يقرّون بانتساب السامريين لإسرائيل، أو بإيمانهم بإله إسرائيل؛ بل وصل الأمر ببعض الكهنة أن سمّوهم "جيران السباع". ونحن نتفهم هذا التوجه اليهودي العام، ونوافقه بإقرار كثير من دواعيه، كما سبق أن بيّنّا.

وأما السامريون أنفسهم، فإنهم ينتسبون إلى هارون أخي موسى عليهما السلام، وينتخبون كاهنا أعظم، يُسمّونه "الكاهن اللاوي"؛ أي المنحدر من سبط "لاوي" أو "ليفي"؛ وكثيرا ما يكتفون بتسميته "الحبر الكبير". وهذا لو كان صحيحا، لكانوا أخص من بقية اليهود في الإيمان بالأنبياء المجددين؛ وبما أن العكس هو الصحيح، فإن التشكيك في أصلهم هو الصواب. وأما زعمهم لأنفسهم الخصوصية، من دون الشعب اليهودي الأصلي، فلا يبعُد أن يكون دليلا على كونهم من محيط الدائرة لا من مركزها؛ وهم بمقولاتهم يُعوّضون ما ينقصهم من أصالة. وهذا دأب كثير من الأقليات، التي تروم إثبات وجود لنفسها بجنب الأكثريات الأصلية، من كل الأقوام والملل. ويُشبههم في هذا المنحى الشيعة لدى المسلمين، الذين –بسبب كونهم أقلية ولو في زمن مخصوص– قد نظّروا كثيرا لمذهبهم بُغية تثبيته، بما لا يقبله عقل ولا نقل. وسنعود إلى هذه المسألة –إن شاء الله– عندما نصل إلى عقائد المسلمين.

وبسبب العزلة التي عاش فيها السامريون، فإنهم بقوا على جهل مصحوب بأمية؛ وحتى صلواتهم التي هي بالعبرية لا يفهمونها دائما، ما داموا يتخاطبون فيما بينهم بالعربية. والسامريون كاليهود الربانيين، يؤمنون بيوم القيامة، ويسمّونه

[1] . الملوك الثاني: ١٧: ٢٢-٢٤.

[2] . الملوك الثاني: ١٧: ٢٥-٢٩.

[3] . الملوك الثاني: ١٧: ٣٠-٣٤.

يوم البعث؛ كما يؤمنون بالمسيح المخلّص. ويتسمى السامريون بأسماء أخرى ك "بني إسرائيل"، و"بني يوسف"؛ على ما بينهم وبين غيرهم من اليهود من خلاف.

٢. الفرّيسيّون: وهم طائفة علماء الشريعة من الربانيين قديما. ولقد كانت لهم الكلمة العليا في توجيه الشعب اليهودي على عهد المسيح عليه السلام، وهم من حجب الإسرائيليين عنه، بما كانوا يُعادونه ويُشيعون عنه من أباطيل. وقد كانت لهم المكانة لسببيْن: الأول لعلمهم بالشريعة، وإحسان الناس الظن بهم، كما هي عادة العوام مع الفقهاء؛ والثاني لصلتهم بالسلطة الرومانية وعمالتهم لها. وإن صلة اليهود بالسلطة الحاكمة، على مدى التاريخ لم تكن إلا على وجه يخدم مصالحهم الدنيوية، من دون اعتبار لدين أو لغيره. فهم "براغماتيون" قدماء متطرفون، من قبل أن يعرف العالم مصطلح "البراغماتية". ولقد شاع لدى مترجمي الإنجيل، أو الذين كتبوا عن صلة المسيحية باليهودية، أن يُسمّوا هذه الجماعة بالفريسيين. واسمهم بالعبرية هو "فروشيم"؛ ويعني "المفروزون". وذلك لامتيازهم عن عوام اليهود بما لهم من علم، يجعلهم صفوة المجتمع وقُدوته. والعوام من اليهود الربانيين، كانوا يوصفون على ألسنة خواصهم ب "عام ها آرض"، أي عوام الأرض؛ وهي صفة تدل على اشتراك الموصوف بها في الحيوانية. وهذا ما يجعل العوام دوما، في حاجة مستمرة إلى رقابة الفريسيين، الذين لا يخفى تشددهم وجمودهم عن منصف. ولقد كان رجال هذه الطبقة يتسمّون فيما بينهم "حسيديم"، أي الأتقياء الورعون؛ أو "حبيريم"، بمعنى الرفقاء والزملاء. ولعلها أصل الكلمة العربية "أحبار"، التي تدل على الفقهاء. وهم في الحقيقة لم يكونوا طائفة مستقلة، بقدر ما كانوا جمعية تزعم لنفسها علما خاصا بالشريعة؛ تماما كما هي طبقة الفقهاء لدى المسلمين. وهو ما سيجعل لها سُلطة على اليهود الآخرين، عبر جميع حقب التاريخ. وعلى غرار غيرهم من الفقهاء، فإن الفريسيّين يرون أن الإيمان بما هو في نظرهم مكمل للتوراة، مما ورد في المشنا والتلمود والمدراش من "هلاخا" (تشريع)، ومن "هجادا" (قصص)، هو من الإيمان بالتوراة ذاتها. وهذا يقع فيه فقهاء الملل، بسبب اعتبارهم لأمثالهم من طبقتهم الذين تعاقبوا عبر الأجيال. ونعني من هذا، أنهم لو لم يوجبوا التقيّد بمقولات الأولين، لخرج لهم من جيلهم من يُنكر مكانتهم هم أيضا. وهم واعون لهذا الترابط المنطقي، لذلك يقطعون على معارضيهم الطريق بإثبات أصل متسلسل يعودون إليه. وفقهاء المسلمين على هذا النهج أيضا سائرون: فهم يُعظمون الموروث الفقهي بأكثر مما يُعظمون القرآن والسنة، ولو بغير قصد أحيانا؛ وإنما عن طريق العمل بمبدأ تعظيم الفقهاء الأولين فحسب. ثم لا بد لهم تبعا لهذا، من أن يُعادوا الحق الذي يظهر في أزمنتهم، عندما يجدونه مخالفا للمقولات الموروثة. ومَن لم ير من الفقهاء ذلك بعينيه، فإنه سيجهله لحسن ظنه بهم، ولاستبعاده جُرأتهم على فعل ذلك. لذلك، فنحن من النظر إلى الفقهاء المسلمين، نتبيّن أحوال الفريسيين بصورة أوضح مما هو لغيرنا بحمد الله. وكل هذا الذي ذكرناه من شأن الفقهاء والفريسيين، كما هو ظاهر، ليس من الدين في شيء؛ وإنما هو من السياسة والمكر في أغلب الأحيان، خصوصا إذا انضافا إلى جهل بأصل الدين ذاته. ولا يخفى ما كان لطبقة الأحبار من أثر في التوجيه الصهيوني للعوام في العصر الحديث، وما كان لهم من إحياء للنظرة العنصرية الاستعلائية التي اتصف بها اليهود على مر التاريخ. وعلى قدر ما كان هذا التوجيه باعثا لعامة اليهود على عدم الانضباط للسلطة الحاكمة من أحد وجوهه، خصوصا في الحقبتيْن اليونانية والرومانية؛ فإنه كان من جهة مقابلة سببا في تشريدهم ونفيهم، عقوبة من الله على عصيانهم ومخالفتهم للحق. ويكفي للدلالة على شر الأحبار الكبير، ما أضمروه للسيد المسيح عليه السلام من إرادةٍ للهلاك المبرم. ومن لم يسلم المسيح من أذاه، فلا بد أن يصيب شرُّه الإنسانية كلها؛ كما هو ظاهر من الحقب التاريخية التي جاءت بعد ذلك وإلى يومنا هذا. ولقد فضح الإنجيل ما كان عليه الفريسيون من السوء، ودل على مخالفة ظواهرهم لبواطنهم، وعلى جهلهم بروح التشريع، وإن كانوا يزعمون الانتصار له. ونحن عندما نذكر هذا عنهم، ونذكر نتائجه على اليهود جميعا، فإننا لا نخرج فيه عما يقتضيه النظر السليم إلى الدين وإلى التاريخ كليهما؛ خلافا لما قد يتوهمه

بعضهم فينا من معاداة قائمة على اختلاف النبوة بيننا. فإننا –بحمد الله– ننزه نفسنا عن النزول إلى هذا الدرك السفليّ من النظر...

٣. الصدّوقيّون: إذا كان الفرّيسيّون قد استمر وجودهم من الزمن الأول وإلى أيامنا هذه، تحت تسميات أخرى هي لجماعات أحيانا، أو لأحزاب أحيانا أخرى؛ فإن فرقة أخرى قد وُجدت معهم أو ربما قبلهم، ولكنها لم تُساير تطور الفكر الديني اليهودي، فانقرضت مع الزمن؛ هي فرقة "الصدوقيين". وعلى الرغم من شهرة هذه الفرقة، إلا أن الغموض يكتنفها: فالروايات الفريسية القديمة تقول إن "أنتيجُنوس السوخي"، الذي كان من كبار كهنة الهيكل الثاني (حوالي ٣٠٠ ق.م)، كان له تلميذان: أحدهما اسمه "صدوق"، والآخر اسمه "بيتوس"؛ وإلى الأول منهما تُنسب هذه الفرقة. ولما كان قد ورد في الأخبار اسم "البيتدسيين" أيضا، فإن اليهود اعتبروا أن الفرقتيْن هما فرقة واحدة لها اسمان مختلفان؛ وإن كان البعض قد حرص على إيجاد فرق يجعله أساس القول بفرقتيْن بدل واحدة. والصدوقيون أنفسهم لم يكونوا يقبلون ذلك، لأنهم يزعمون أنهم ينتسبون إلى "صدوق" آخر، أقدم من هذا بزمن طويل؛ هو الكاهن الأعظم لداود عليه السلام، الذي تولى أخذ البيعة لسليمان عليه السلام، فصار كاهنا أعظم له أيضا. ولقد جاء في سفر الملوك الأول، ما يدل نوع دلالة على هذا المذهب: "وَقَالَ الْمَلِكُ دَاوُدُ: «اُدْعُ لِي صَادُوقَ الْكَاهِنَ وَنَاثَانَ النَّبِيَّ وَبَنَايَاهُوَ بْنَ يَهُويَادَاعَ». فَدَخَلُوا إِلَى أَمَامِ الْمَلِكِ. فَقَالَ الْمَلِكُ لَهُمْ: «خُذُوا مَعَكُمْ عَبِيدَ سَيِّدِكُمْ، وَأَرْكِبُوا سُلَيْمَانَ ابْنِي عَلَى الْبَغْلَةِ الَّتِي لِي، وَانْزِلُوا بِهِ إِلَى جِيحُونَ، وَلْيَمْسَحْهُ هُنَاكَ صَادُوقُ الْكَاهِنُ وَنَاثَانُ النَّبِيُّ مَلِكًا عَلَى إِسْرَائِيلَ، وَاضْرِبُوا بِالْبُوقِ وَقُولُوا: لِيَحْيَ الْمَلِكُ سُلَيْمَانُ. وَتَصْعَدُونَ وَرَاءَهُ، فَيَأْتِي وَيَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّي وَهُوَ يَمْلِكُ عِوَضًا عَنِّي، وَإِيَّاهُ قَدْ أَوْصَيْتُ أَنْ يَكُونَ رَئِيسًا عَلَى إِسْرَائِيلَ وَيَهُوذَا»[١]. ثم يأتي بعد ذلك: "وَجَعَلَ الْمَلِكُ بَنَايَاهُوَ بْنَ يَهُويَادَاعَ مَكَانَهُ عَلَى الْجَيْشِ، وَجَعَلَ الْمَلِكُ صَادُوقَ الْكَاهِنَ مَكَانَ أَبِيَاثَارَ."[٢]. ويبدو أن أحفاد "صادوق" قد توارثوا بعده الكهانة؛ لأنه قد جاء في "حزقيال": "وَالْمِخْدَعُ الَّذِي وَجْهُهُ نَحْوَ الشِّمَالِ لِلْكَهَنَةِ حَارِسِي حِرَاسَةِ الْمَذْبَحِ. هُمْ بَنُو صَادُوقَ الْمُقَرَّبُونَ مِنْ بَنِي لاَوِي إِلَى الرَّبِّ لِيَخْدِمُوهُ."[٣]. كل هذا، وقد شكك بعض الدارسين في انتساب فرقة الصدوقيين إلى الكاهن الأعظم لسليمان. ولهذا تأوّل آخرون أصل التسمية التي يروها من "صديقيم"، التي تعني بالعبرية الصّدّيقين، بتبديل الياء بالواو تواضعا؛ ليصير المعنى "أهل العدل"، أو ما يُقاربه. وهكذا تبقى مسألة التسمية لهذه الفرقة غير محسومة، خصوصا مع عداوتها للفريسيين وللمسيحيين جميعا. ولم يقنع التلمود بوصفهم بأقبح الصفات، بل عدل عن تسميتهم بالصدوقيين إلى تسميتهم بـ "الأبيقوريين"؛ لأن مدلول هذه التسمية عند التلموديين ينطبق على من يشك في الحقائق، ومن لا يؤمن بالمرويات الشفوية، مع التحلل من أحكام الدين والأخلاق. وهذا المعنى قريب من "الزندقة" التي يُطلقها المسلمون على أهل الزيغ والضلال منهم. ومن خصائص طائفة الصدوقيين ما يأتي:

ا– أنها لا تؤمن بقيامة الأموات من القبور: خلافا للربانيين.

ب– لا تؤمن بالحياة الأبدية للبشر بأشخاصهم، كما كانوا في الدنيا: وهذا لا بد أن يؤدي إلى القول بالعبث، وإن لم يُصرّحوا هم بذلك؛ لكن العقل يحكم به، تبعا لمقولتهم. وهذا هو ما نفاه القرآن نفيا قاطعا، في قول الله تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]؛ أي تعالى عن أن يكون خلقه عبثا.

---

[١] . الملوك الأول: ١: ٣٢–٣٥.

[٢] . الملوك الأول: ٢: ٣٥.

[٣] . حزقيال: ٤٠: ٤٦.

ج- تُنكر الثواب والعقاب في الآخرة: وهذا منسجم مع قولهم السابق: لأن المثاب والمعاقب، لا بد أن يكون هو ذاته من أطاع أو عصى في الدنيا؛ وهم لا يُقرّون بذلك.

د- تُنكر القضاء والقدر: وهذا أيضا فرع عن قولهم الأول، لأن القضاء والقدر يقتضيان مخلوقا يجريان عليه في الدنيا والآخرة. وهو خلاف مذهبهم.

هـ- تُنكر وجود الملائكة والشياطين: وهذا أيضا فرع عن قولهم بانتفاء الثواب والعقاب؛ لأن الملائكة شركاء فيما هو آيل إلى الثواب من الأعمال، كما أن الشياطين شركاء فيما هو مؤدٍ إلى العذاب منها. ولن نخوض في تفصيل ذلك، لأنه سيخرج بنا عن غرض الكتاب.

و- تقول بخلق الإنسان لأفعاله، وبذلك هو مسؤول: وهذا أيضا منسجم مع قولهم السابق؛ لأنه كفر منهم بأصل ما في العلم، وبما هو من نتائج الأعمال في الآخرة. وهذا يعني أن المسؤولية التي يتكلمون عنها، هي دنيوية صرف؛ كالمسؤولية التي تكون أمام القانون الأرضي.

ز- تؤمن بالعهد القديم، وتُنكر التلمود وغيره: ولا ندري عن أي إيمان بالعهد القديم هو الكلام هنا؛ لأن هذه الفرقة، لا ينقصها حتى تكون ملحدة إلحادا تاما إلا الكفر بالله نفسه سبحانه. وهذا التناقض المبدئي بين ما يزعمونه من إيمان، وما هم عليه من كفر، لا يدل منهم إلا على ضعف عقولهم النظرية؛ لأنهم، وإن حافظوا على اتساق أنساقهم جزئيا، نقضوها من الأصل الأول الذي بنقضه، تنتقض كل الفروع.

وقد رأى بعض الدارسين لهذه الفرقة شبها بفرقة المعتزلة، من جهة الاشتراك في بعض المقولات، ومن جهة كون أفرادها من النخبة وطبقة العقلاء؛ أما نحن فنرى المعتزلة أرقى منهم بكثير في العقل. وسيتضح ما نميل إليه -إن شاء الله- عندما نتناول مقولات المعتزلة بالتحليل. وعلى الرغم من عدم قول هذه الفرقة بـ "المسيح المخلص"، فإنهم يُبقون على إمكان وجوده، من خلال تأويلهم لنصوص بعينها من العهد القديم، وبالخصوص سفر "إشعيا". ولكنهم لم يُصرحوا بذلك، ولم يُصرّوا أيضا، تنزُّها؛ عندما رأوا هذه المقولة تؤول إلى صنف من الدروشة والخرافة الدينية، بين العامة والدهماء. ولعل هذا، كان سببا في عدائهم المعروف عنهم، للمسيح عليه السلام؛ فاشتركوا مع الفريسيين في مناصبته العداء وفي مقاومة ما جاء به. وسنرى فيما بعدُ -إن شاء الله- كيف سيتأثر بهذا الفكر بعض المتأخرين كطائفة "القرائين" من اليهود.

٤. القنّاءون: وهم ليسوا في الحقيقة فرقة بالمعنى المعروف، وإنما هم فرع متطرف عن الفرّيسيين؛ وقد يلجأون إلى العنف بحسب الأحوال. وهم بهذه الأوصاف يُمكن أن يُنعتوا بـ "غلاة اليهود". وكلمة "قنّاء" التي يتسمى بها كل فرد من هذه الفئة، معناها في العبرية "الغيور"، أو "صاحب الحمية". وهي الصفة التي وصف الله بها نفسه في الوصايا العشر، عند النهي عن اتخاذ آلهة أخرى. وكان المعنى القديم لهذا اللفظ في اللغة العبرية، قد تضمن الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوة وجرأة؛ لا يخاف العبد في ذلك لومة لائم. وعندما ذهب النبي "إيليا" إلى جبل الله "حوريب"، الذي كلم الله فيه موسى، وبات في المغارة، كما جاء في الكتاب المقدس: "وَدَخَلَ هُنَاكَ الْمُغَارَةَ وَبَاتَ فِيهَا. وَكَانَ كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَيْهِ يَقُولُ: «مَا لَكَ ههُنَا يَا إِيلِيَّا؟». فَقَالَ: «قَدْ غِرْتُ غَيْرَةً لِلرَّبِّ إِلهِ الْجُنُودِ، لأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ تَرَكُوا عَهْدَكَ، وَنَقَضُوا مَذَابِحَكَ، وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَكَ بِالسَّيْفِ، فَبَقِيتُ أَنَا وَحْدِي، وَهُمْ يَطْلُبُونَ نَفْسِي لِيَأْخُذُوهَا»".[١] فهذه الغيرة هي ما يُعبّر عنه في العبرية بمشتقات "قنّاء". ويذكر المفسرون اليهود من أصحاب المدراش، أن من أكبر القنّائين القدماء، الذين أخذتهم الغيرة لله، من عهد موسى: "فنحاس بن أليعازر بن هارون" الكاهن، الذي ورد في شأنه في سفر العدد: "وَإِذَا رَجُلٌ مِنْ

---

[١] . الملوك الأول: ١٩: ٩-١٠.

بَنِي إِسْرَائِيلَ جَاءَ وَقَدَّمَ إِلَى إِخْوَتِهِ الْمِدْيَانِيَّةَ، أَمَامَ عَيْنَيْ مُوسَى وَأَعْيُنِ كُلِّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُمْ بَاكُونَ لَدَى بَابِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ. فَلَمَّا رَأَى ذلِكَ فِينْحَاسُ بْنُ أَلِعَازَارَ بْنِ هَارُونَ الْكَاهِنِ، قَامَ مِنْ وَسَطِ الْجَمَاعَةِ وَأَخَذَ رُمْحًا بِيَدِهِ، وَدَخَلَ وَرَاءَ الرَّجُلِ الإِسْرَائِيلِيِّ إِلَى الْقُبَّةِ وَطَعَنَ كِلَيْهِمَا، الرَّجُلَ الإِسْرَائِيلِيَّ وَالْمَرْأَةَ فِي بَطْنِهَا. فَامْتَنَعَ الْوَبَأُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَكَانَ الَّذِينَ مَاتُوا بِالْوَبَإِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا. فَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: «فِينْحَاسُ بْنُ أَلِعَازَارَ بْنِ هَارُونَ الْكَاهِنِ قَدْ رَدَّ سَخَطِي عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِكَوْنِهِ غَارَ غَيْرَتِي فِي وَسَطِهِمْ حَتَّى لَمْ أُفْنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِغَيْرَتِي. لِذلِكَ قُلْ: هأَنَذَا أُعْطِيهِ مِيثَاقِي مِيثَاقَ السَّلاَمِ، فَيَكُونُ لَهُ وَلِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِيثَاقَ كَهَنُوتٍ أَبَدِيٍّ، لأَجْلِ أَنَّهُ غَارَ للهِ وَكَفَّرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ».[1]. واليهود يرون في هذا النص، ما يجعلهم ينسبون البلاء إلى الزواج بالأجنبيات؛ وهو ما يدفع القنائين إلى الانتقام منهن، من باب دفع البلاء عن الشعب. ونحن لا نُنكر عليهم هذا مبدئيا، كما قد يُنكره أصحاب العقول، الناظرون في الشرائع بالمنطق العقلي؛ بل نرد ذلك إلى ما شرعه موسى لقومه، عليه السلام. ولكن الاستمرار على هذا الحكم في زمن المسيح عليه السلام، أو زمن محمد صلى الله عليه وآله وسلم، هو ما ننكره عليهم قطعا؛ لأن الغيرة التي يتوهمونها حينئذ، تكون غيرة من غير سند شرعي. ولذلك هي تندرج في العنف المحظور، الذي يُحاسب عليه صاحبه في الدنيا وقبل الآخرة. وهذا العنف المنسوب إلى الشريعة، كان قد ظهر زمن أحبار المشنا، حيث جاء في باب القضاء (السنهدرين ٨١): أن من يسرق أدوات الخدمة الدينية، ومن يعمل عملا سحريا للإضرار، ومن يتزوج بامرأة آرامية، فإن القنائين كانوا يقتلونه. وقد أصبح قضاء القنائين مضرب الأمثال في القسوة، مما جعلهم في أيام "هيرودوس" زمن ميلاد المسيح، يُعتبَرون فرقة مستقلة؛ وجعل الفريسيّين الذين لا يختلفون عنهم من جهة العقيدة والشريعة، يُعادونهم بسبب هذا الغلو والإرهاب. ولقد بلغ الأمر بهم إلى أن صاروا يُسمَّون "سيقارين" أو "سيقاريقين" وهو مصطلح تلمودي معناه "الإرهابيون" أو "السفاحون" أو "قطاع الطرق"؛ كما سُمّوا في بعض الوثائق "بريوناي" أي "الخارجون عن القانون" أو "المتمردون". ويحكي عنهم المؤرخ اليهودي المعاصر لهم "يوسيفوس"، أنهم كانوا يمتازون بدعوتهم إلى وطن يهودي حر ومستقل؛ وأنهم كانوا لا يُقرّون لحاكم ولا سيد إلا الله وحده؛ وأنهم كانوا يُفضلون الموت على بيعة حاكم أجنبي. ويربط "يوسيفوس" بين ظهور فرقة "القنائين"، وما وقع من أحداث في السنتيْن السادسة والسابعة لميلاد المسيح، عند صدور مرسوم روماني يعتبر فلسطين رومانية على التمام. وقد بدأت هذه الأحداث بإحصاء روماني لليهود الموجودين في فلسطين، فقام أحد "القنائين"، وكان اسمه "يهوذا دي جملا" المعروف بـ "يهوذا الجليلي"، واتفق سرا مع أحد الفريسيين واسمه "صدوق"، على إشعال نار الثورة؛ ولكنهما لم ينجحا إلا في استقطاب بعض المتطرفين وتكوين عصابات محدودة. فلما علم الرومان بأمرهم، هبوا لقمعهم، ونجحوا في سحقهم وفي قتل الزعيمين المذكوريْن. ومنذ ذلك الوقت، أصبحت حركة "القنائين" حركة سرية، تعتمد الاغتيال. وكان ضحاياها من اليهود المتعاونين مع الرومان، الفريسيين خصوصا؛ لعلمهم بأثرهم على الشعب عامة. وهم يُشبهون في هذا، حركة "الحشاشين" المعروفة لدى المسلمين في القرن الحادي عشر الميلادي، من بلاد فارس والشام. وكان زعيم القنّائين قُبيل هجوم "تيتوس" على اليهود عام ٧٠ م، هو "مناحم بن يهوذا الجليلي"، الذي كانت مناوشاته سببا في إنهاء أمر القنائين واليهود جميعا، على يد الرومان. وإذا كانت حركة القنائين قد اندثرت منذ هذا التاريخ، فلا شك أن منهاجها في العمل على نشر مبادئها بالعنف، سيبقى مستمرا طول الزمان، ليظهر في مظهر أقوى من الأول، عند نشوء الحركة الصهيونية المعاصرة. بل إن من الجماعات الإسلامية القائمة على الفقه الظاهري، من كان على هذا النهج عبر العصور. وإن آخر صور هذا العنف الدينيّ، ما أنتجه المتسلفة من متأخري الحنابلة؛ الذي انتهى إلى "دولة داعش" المزعومة، التي تأذى منها

[1]. العدد: ٢٥: ٦- ١٣.

المسلمون كما تأذى غيرهم. ولا بد أن نذكر هنا، أن هذا الصنف من العمل الديني، لا ينحسر إلا مع شيوع العلم الديني الصحيح؛ لهذا كنا نحن لا ندعو إلى محاربة التطرف والإرهاب بتطرف وإرهاب مقابل، داخل الدولة الواحدة أو في العالم، لأن ذلك يزيد من قوته وانتشاره. وعلى العكس من ذلك، ندعو إلى محاربة كل تطرف بإشاعة العلم بين الناس، وبتعليمهم أصول الدين الأصيلة؛ بدل هذا الفقه العليل الذي يُشبه لدينا فقه التلمود والمشنا. ولا ندري إلى الآن، لمَ لمْ يتنبه المسلمون إلى وقوعهم فيما وقع فيه اليهود ذاته!... ولمَ لمْ ينتفعوا من أخطاء اليهود، وقد جعلها الله في القرآن بابا مستقلا من العلم الديني!... ربما ذلك لوجود نظرة استعلائية، شابهوا فيها اليهود!... وهذا ما لا يتفق مع مبادئ الإسلام البتة!...

٥. فرقة "الأسينيين": كانت هذه الفرقة موجودة على عهد المسيح عليه السلام؛ وهي من أهم فرق اليهود وأكثرها نشاطا وقيمة، إلى الحد الذي كان المتناولون للفكر اليهودي يعتبرونها مع أخواتها من الفريسيين والصدوقيين والقنائين، أهم الفرق قاطبة. لكن الفرق بين فرقة الأسينيين ومثيلاتها، هو شح المعلومات عنها بالمقارنة إلى غيرها. ولقد بدأ الغموض المحيط بهذه الفرقة، مع المؤرخين الأولين، الذين لم يكتبوا عنها إلا فقرات معدودة. ولم يكن المؤرخ "يوسيفوس" ليخرج عما ذكرنا، وهو من لم يُجاوز في ذكر الأسينيين عشرين فقرة في كتابيْه: "حرب اليهود" و"تواريخ اليهود"؛ بالإضافة إلى تعريفٍ كتبه العالم الطبيعي الروماني "بلينوس" الأكبر، الذي عاش في القرن الأول الميلادي، في كتابه "التاريخ الطبيعي"؛ إلى جانب شذرات تركها الفيلسوف اليهودي السكندري "فيلون". والكتابات اليهودية والآرامية، المعاصرة للأسينيين، لم تعتن بهم ولا ذكرتهم بما يليق بهم. وكذلك الكتابات المسيحية الأولى، التي كان ينبغي أن تشيد بهم لِما سيأتي ذكره بعد قليل إن شاء الله. وبقي الأمر على حاله، إلى أواخر صيف سنة ١٩٤٧م، عندما عُثر على مجموعة من الكتابات العبرية في مغارة بالقرب من "فشخة"، في منطقة "أريحا"، على الجانب الغربي للبحر الميت. وهذه الكتابات على غزارتها، وباعتبار مكانها تدل على وجود فرقة يهودية مخصوصة، لكن من غير ورود ذكر اسم "الأسينيين"، ولو مرة واحدة. ومع هذا، فقد رجح كثير من الباحثين (منهم "ديبون سومير" الأستاذ بالسوربون)، أن تكون الكتابات المكتشفة تراثا للأسينيين؛ بينما تحفّظ آخرون، ونسبوا الوثائق إلى مكانها؛ فقالوا: "كتابات البحر الميت"، أو "مخطوطات قمران"؛ من دون زيادة. ولما كان هذا التراث يوافق من وجوه عديدة، ما تركه "يوسيفوس" و"بلينوس" الأكبر و"فيلون"، من وصف للأسينيين، فإنه صار لزاما ذكر بعض وجوه الشبه تلك؛ وإن كانت لن تنفع في بيان أصلها على وجه اليقين.

وإذا كانت ندرة المراجع، تجعل من عقائد هذه الفرقة أمرا صعب المنال؛ فإن اسمها نفسه لا يقل عنها في ذلك. وذلك لأنه لم يرد مكتوبا بالعبرية قط، بل خُطّ باليونانية وباللاتينية. والشائع الآن بين العلماء، أن الكلمة كانت تعني "الأطباء"؛ وأن أصلها آرامي، وهو "آسيا"، الذي يعني الطبيب أو المداوي (تقول العرب من باب المجاورة الآسي للجراح والطبيب). وعلى هذا، فإنه كان يجدر أن تُسمّى هذه الفرقة "الأُساة"؛ والذين ذهبوا هذا المذهب، اعتمدوا تسمية الفيلسوف اليهودي "فيلون" لهم باليونانية "ثيرابوتي ثيو"؛ أي "أطباء الله". ومع ذلك، يبقى هذا التخريج غير دقيق، لكون "ثيرابوتي" في اليونانية، تعني الخدَم، كما تعني الأطباء.

ولقد رجح بعض الباحثين أن اشتقاق اسم هذه الفرقة جاء من "أوسيوى"، التي تعني الأبرار أو القديسين؛ كما عزاها بعضهم إلى الكلمة العبرية القديمة "حسْيا" أو "حسين" بمعنى الأتقياء؛ وإن كان هذا التخريج الأخير مستبعدا، بسبب انعدام الوثائق الصريحة التي ترد فيها هذه الكلمة بالمعنى المذكور في التراث اليهودي. ولقد أرجعها آخرون إلى كلمة "حاشِيا" والتي معناها "الصامت"، وأبعد غيرهم حينما جعلها من "ساحِيا" التي تعني السباحة في الماء؛ وكأنهم تكلّفوا العثور على معنى العِمادة المعروف. ولعل أقرب هذه المعاني كلها إلى الحقيقة، يتقوّى بما أشار إليه "يوسيفوس"، عندما ذكر أن هؤلاء القوم كانوا يلتزمون لبس الثياب البيضاء النظيفة، ويظهرون في المجتمع بهيئة الوقار والهيبة، التي تجعل الناس

يثقون بهم ويطمئنون إليهم. والذي يجعل كثيرين يتحمسون للمعنى الطبيّ، هو عدم تعريض المسيح عليه السلام بهذه الفرقة، على غرار ما فعل مع الفريسيين والقنائين. ولما كان هو عليه السلام، قد اشتهر بمعجزاته الطبية، فقد زاد ذلك من احتمال كون الأسينيين مقتفين له في التطبيب من جهة التشبه والاستنان. ورغم كل هذا التطواف حول المعاني، فإن اسم الأسينيين سيبقى غامضا لا يخلص إلى وجه بعينه، لعدم وجود المرجِّح المعتبر. وغموض هذه الفرقة، لا يتعلق باسمها وحده، وإنما بتاريخها أيضا: فأقدم ذكر لها، يرجع إلى أسرة المكابيين الحشمونيين، عندما يحكي "يوسيفوس" في "تاريخ اليهود" أنهم كانوا موجودين على عهد الأمير الحشموني "يوناثان". ويبدو من نهجهم نفسه، أنهم لم يكونوا يتيحون لسواهم من الناس أن يعرفوا عنهم الكثير. ويبدو أنهم كانوا على عقائد مخلوطة بالفيثاغورية اليونانية، وبشطر من عقائد فارس في النور على الخصوص، وبما كان عليه المصريون من تقديسٍ للشمس؛ بالإضافة إلى العقيدة اليهودية العامة بلا ريب. ولعل عقيدتهم تتلخص فيما يلي:

ا- الاعتزال عن الناس: بعد الانتماء إلى الفرقة، يُقسم المنتمي قَسَما باتا، لا يُقسم بعده أبدا؛ وهو يُشبه ما تدأب عليه المنظمات السرية عبر الأزمان. ورغم أن المتعجلين يرون شبها في هذا بما كان عليه المسيح عليه السلام مع الحواريين، فإننا نُصر على التمييز بين الجماعتيْن، لوجود الفارق. ونحن نعني أنه لا يُمكن مقارنة جماعة إمامها رباني، من أعلى مرتبة في الربانية (الرسالة)، إلى جماعة أخرى وإن كانت جماعة مؤمنين. وهذا يعني أيضا أن التشابه في المظاهر ليس أمرا معتبرا في مثل هذه المسائل، لأننا بصدد تناول الإنسان في جوهره قبل مظهره؛ وهذا يخرج عن مقدرة جل الدارسين. وعدم اعتبار الفارق الذي بيّنّاه، قد أدى بعلماء الدين القاصرين، قبل غيرهم، إلى الغلط في النظر إلى الدين وإلى أهله (مختلف الفرق). ولذلك نحن نجد من علماء الإسلام (بحسب الزعم)، من لا يُميّز معنى الجماعة في الشرع، وهم من كان ينبغي أن لا يجهلوه؛ لكونهم أقرب عهدا بالوحي من غيرهم، ولكون رسالتهم خاتمة الرسالات. وقد نتج عن هذا الجهل، تحريف في التديُّن العمليّ، عندما صار غير الربانيين (بالمعنى الإسلامي الخاص) أئمة يقودون الناس إلى الهلاك المبين.

ب- لبس الثياب البيضاء: مع الحرص على نظافتها، والظهور بمظهر الوقار. وفي هذا أيضا يُشبَّهون بالحواريين، عندما يُجعل معنى حواري، هو: "لابس الثياب البيضاء". وحتى لو صح هذا من جهة الظاهر، فإنه يكون استنانا من هذه الفرقة بما كان عليه المسيحيون، في هذه المسألة على الخصوص؛ من دون أن يدلّ على اشتراك في الصفة. ونعني من هذا، أن الأسينيين إن امتازوا عن غيرهم ببياض ثيابهم، فلاعتبار ثانوي، يأتي حتما بعد الأساس الذي كانت تقوم عليه. ويدل على هذا، ما كانوا عليه من رجاحة في العقل واتزان في المعاملة.

ج- العيش جماعة في دار واحدة بعيدا عن الناس: وهذا يُشبه ما تكون عليه الأديرة في النصرانية، وما تكون عليه بعض الزوايا الصوفية في الإسلام. وطريقة العيش هذه، لا تكون إلا عن مجافاة للدنيا وزخرفها؛ وهو ما يحدو بنا إلى القول باندراج هذه الفرقة ضمن التصوف اليهودي العام، من هذا الوجه. ونحن سنفصل الكلام عن التصوف اليهودي في أوانه، من غير هذا الجزء؛ ونكتفي هنا بالإشارة إليه فحسب.

د- الاهتمام بالنظافة وحسن المظهر: وينتهي ذلك -بعد العناية بالثياب- إلى تهذيب شعر الرأس واللحية. وهذا مما له صلة بما يكون عليه أهل الطب من هيئة؛ لعلمهم بقيمة النظافة من جهة؛ ولِما يكون عليه أهل التصوف أيضا، من باب موافقة ظاهرهم لباطنهم في التنزه عن النقائص وسوء الأخلاق.

هـ- الاحتفاء بشروق الشمس: فهم كانوا يستيقظون قبل الشروق ليستقبلوا الشمس بصلاة خاصة، سمّوها "صلاة الأسلاف". وهذا فيه شبه بالمجوس، وإن كنا لا نحصره فيهم؛ لعلمنا بوجود من هم على شاكلتهم من كل زمان. ولو عدنا إلى الإسلام، فإننا سنجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ينهى عن الصلاة في الأوقات التي لها صلة بجرم الشمس ظهورا

واختفاء واستواء. فعن عُقبة بن عامر الجهني، قال: "ثَلَاثُ سَاعَاتٍ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْهَانَا أَنْ نُصَلِّيَ فِيهِنَّ، أَوْ أَنْ نَقْبُرَ فِيهِنَّ مَوْتَانَا: حِينَ تَطْلُعُ الشَّمْسُ بَازِغَةً حَتَّى تَرْتَفِعَ، وَحِينَ يَقُومُ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ حَتَّى تَمِيلَ الشَّمْسُ، وَحِينَ تَضَيَّفُ الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ حَتَّى تَغْرُبَ."[١] وهذا، لأن الشمس مظهر من المظاهر التي عُبدت من دون الله لدى أقوام كثيرين. ولو أن العبادة اقترنت بها، لآل الأمر في زمن الغفلة (كزماننا) إلى عبادتها من غير شك؛ والإسلام جاء لإخراج الناس من عبادة المظاهر إلى عبادة الظاهر، كما لا نفتأ نكرر. ولقد أشرنا في كلام لنا سابق، إلى ما كان عليه المصريون القدماء من عبادة للشمس؛ وبيّنّا علو مرتبتها في اعتبار المظاهر، لكونها مظهرا للاسم "النور" الذي كان به الظهور. وهؤلاء الأسينيون، يبدو أنهم كانوا يعلمون من وجه ما، ما لهذا الاسم من عموم في مجال التجلي؛ فكانوا يُعظمونه في مظهره الأجلى، الذي هو الشمس. وهنا ينبغي أن نفرق بين حكم العبادة نفسها، التي قد تكون منهيا عنها شرعا، وما يدعو إلى تلك العبادة من جهة غيب العابدين؛ لأن عدم التفريق، قد يؤدي إلى الجهل بالحق الذي لا تخلو منه عبادة من العبادات. وهذا من أكبر دلالات التوحيد، لدى من كان له بعض إلمام بما نقول.

و- تحريم الذبيحة واعتبارها صنفا من العدوان على الحياة: وهم في هذا يُخالفون اليهود، الذين كانت عبادتهم في أصلها، قائمة على تقديم القرابين. وهذه الصفة إما أن تكون قد دخلت على هذه الفرقة من المجوسية، ومع غيرها من الطقوس، كتعظيم الشمس؛ وإما من الديانات الهندية التي يكون عليها النباتيّون. وعلى كل حال، فإن هذه الفرقة كانت على انفتاح كبير من جهة تديُّنها؛ خلافا لما يكون عليه اليهود في العادة.

ز- العيش ضمن ترتيب هرمي: بحيث يكون لكل دار من دورهم التي يعيشون فيها رئيس أعلى يُسمونه "معلم الحق"، وتكون تحته رتب متفاوتة، لا بد من اعتبارها في المعاملات التي بينهم. وهذا، مع ما يدل عليه من تماسك في الجماعة، يحيلنا على ما آلت إليه الكنيسة النصرانية فيما بعد؛ وكأنها قد تأثرت بهذه الجماعة أو بمثيلاتها في العالم. ونقول هذا، لأنه لا بد من وجود هذا النظام الهرمي في كل زمان؛ بسبب الحقيقة الداعية إليه. وإن كانت بعض صور هذه الهرمية مما هو معتبر من الباطل الشرعي، فإن إحداها لا بد أن تكون صورة حق لأهل الحق؛ وهي ما يُصطلح عليه بهرم الأقطاب المعلوم لدى الصوفية. ولن نستفيض في تفصيل المسألة، لكونها من العلوم الخاصة التي لا يُتحدث بها لكل أحد.

ح- الزهد: وهذا هو ما ذكرناه سابقا، عندما عرضنا لانعزالهم. وهو أيضا ما جعلهم يرفضون الهبات والأعطيات، ويعيشون على عمل أيديهم. وهو تنزه يشهد لهم بعلو الحال، وبصدق الإيمان؛ لأن غيرهم من أهل التديّن -خصوصا الفريسيين- لا يُطيقون ذلك. وقد كان من هذه الجماعة من يشتغل بالتطبيب، ليجمع بين علاج البدن وعلاج القلب، في نفع النفس والناس. وهو أيضا أمر محمود، يدل على علو همتهم، وعلى نظرهم إلى ما ينفعهم في المآل. ورغم ما يدل عليه هذا النظام من تروحن في الحد الأدنى، فإنه لا بد لمن يكون على هذه الهيأة من غلبة أحكام العقل عليه؛ وهو ما سنكتشفه فيما سيأتي.

ط- التبتل: يذكر عنهم "فيلون" أنهم كانوا يحرّمون على أنفسهم الزواج؛ ويؤكد ذلك "بلينوس". وهو ما يجعل الناظرين إليهم يرجحون تأثرهم بالفيثاغورية، مع مناقضة هذا الحال لما درج عليه اليهود في هذه المسألة. ولعل هذا المنزع قد دخل عليهم عند مغالاتهم في فهم الطهارة (القداسة)، عندما رأوا الشريعة توجب التطهُّر (الاغتسال) بعد مُباشرة النساء. ولعل هذا أيضا، هو ما أدى برجال الكنيسة الكاثوليكية إلى القول بالتبتل، من حيث المبدأ؛ زيادة على الاقتداء بحال السيد المسيح في الجزء الأول من حياته الدنيوية. وعلى العموم، فإن هذا العمل لا يصلح لأن يكون دينا، بسبب مناقضته لأصل

---

١. أخرجه أحمد في مسنده.

من أصول الطبيعة البشرية، والمتعلقة بحفظ النوع. ونعني من هذا، أن أصحاب هذا التوجُّه بعملهم ذاك، سيخرجون من معنى الدين إلى معنى الأيديولوجيا؛ وهو من آثار أحكام العقل التي أسلفنا الإشارة إليها.

ي- القول بالحرية لجميع الناس: وتحريم الرق والاستعباد. وهو أيضا من دلائل العقل لدى العقلاء، وإن كان من أصول الدين لدى المسلمين خصوصا. ونسبتنا لهذا الأصل إلى العقل قبل الدين، هي لقبول الدين الرّقّ من حيث هو أمر واقع في مراحله الأولى؛ بخلاف العقل الذي قد يضيق عنه، إن هو بالغ في التجريد. وهنا لا بد من أن نشير إلى أن العقل لدى فلاسفة اليونان، لم يمنعهم من قبول الرّقّ في مجتمعهم، بل كان يؤكّده؛ لاعتبار التفاوت الحاصل بين العقول الذي يشهد به العقل ذاته، لا للمعنى المجرّد الذي ذكرناه نحن. وهذه الاختلافات، لا يخرج منها المرء برأي، إلا إن هو حاز العلم بوجوه المسألة كلها؛ وهي من أشد المسائل تركيبا، بسبب مخالفة الواقع لها برغم الدعاوى المضللة. ونعني من هذا، أن المنادين بالمساواة في الحريّة، قليلا ما يُطابق حالهم قولهم؛ بل إن أكثرهم يميل إلى استعباد الناس واستخدامهم، بسبب الربوبية المرتكزة في النفوس. فيكون خطابهم عندئذ تضليليا، كما هو شأن خطاب الحكومات، وخطاب النظام العالمي، وخطاب السياسيين عموما؛ ولا يختلف في هذا، ما هو من شؤون الأفراد، عما هو من شؤون الجماعات كالأحزاب. وهو أيضا مما تدعو إليه الحقائق من نفسها، لذلك لا سبيل إلى القول برفعه من جهة المظاهر. وإلى هذا المعنى الإشارة بقول الله تعالى: {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا} [الزخرف: ٣٢]؛ إلى أن يقول سبحانه: {وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ} [الزخرف: ٣٣]؛ ومعناه أنه لولا أن يصير الناس أمة واحدة في الإشراك بالله، عند غلبة حكم المظاهر عليهم، لجعل الله مراتب الكافرين في الدنيا أكثر رفعة مما هم عليه. وعدم الجعل هذا، هو من رحمة الله بضعفاء الإيمان خاصة. ولو أن الناس ميّزوا بين تسخير الله بعضهم لبعض (الذي هو فعل الله)، واستعباد بعضهم لبعض بما هو من تشوّف نفوسهم، لكانوا على الحق وإن كانوا مالكين للغلمان والجواري. ولقد اعتنى التشريع المحمدي بتفاصيل هذه المسألة، ليخرج منها العامل بها من دون مطالبة يوم القيامة؛ ولكنها مما ينبغي إعادة إبراز أحكامه على نور وبيّنة، لا كما يفعل متفقهة الزمان من مجاراة للدجاليين في توجهاتهم، ويحسبون أنهم بذلك يُحسنون صنعا. وهيهات!...

ك- التمسك القوي بأحكام التوراة: ولو أدى بهم ذلك إلى القتل. وهذا من الإيمان بلا شك!... وهو يؤكد ما ذكرناه عنهم من اتصافهم بحد أدنى من التروحن. وإن صح عنهم هذا، فإنهم يكونون من خواص فرق اليهود؛ ما دام عمومهم على غير هذه الصفة، خصوصا عند وقوع البلاء. وبما أن هذه الفرقة كانت قبل البعثة المحمدية، فإنما كانت على الحق في ذلك، وكانت على استمداد نوري لا يخفى.

ل- الإيمان بمجيء المسيح: وإن كان هذا الركن لم يظهر جليا إلا من كتابات "قمران". وأوضحُ من ذلك إيمانهم باليوم الآخر، الذي هو فرع عن إيمانهم بالتوراة. ولقد اقترن عند اليهود القول بالمسيحانية والإيمان باليوم الآخر، حتى لا يكاد ينفصل أحدهما عن الآخر. وهذا من باب التلازم الذي بين الساعة (القيامة)، وأشراطها؛ التي من أبرزها نزول المسيح عليه السلام. هذا، مع أن اليهود ينتظرون مسيحا غير الذي يعرفه النصارى والمسلمون؛ وهو من ضلالهم بلا ريب. وهنا لا بد من الكلام عن حكم الإيمان بالمسيح العائد عند المسلمين، ما دام شطر منهم لا يعتني به، ويكتفي في ذلك باتباع مذاهب الأولين من الفقهاء. ونحن نقول: إن الفقه الآن، لا بد أن يولّي وجهه إلى المستقبل في عملية الاستنباط؛ حتى يتمكن الناس من إحسان العمل عند وقوع المقدورات. ونعني من هذا، أن المسلمين لا بد لهم من التهيؤ لاستقبال المهدي والمسيح عليهما السلام؛ ولا بد أن يكون لهم علم في ذلك، بما يمنعهم من الوقوع في المخالفات. كما ينبغي لهم، أن

يستعدوا لمواجهة المسيح الدجال، بما يمنعهم من تسلطه عليهم، بما أوتي من القدرات على الخوارق. وكل تغافل عما نذكر هنا، هو من باب المغامرة والاستهانة بالمصير!...

م- الإيمان بالقضاء والقدر: الذي تكاد تنفرد به هذه الطائفة عن سائر الطوائف الأخرى. وهو يؤكد كونهم من خواص المؤمنين ومن كبار العقلاء؛ لأن هذا الفرع من الإيمان يأتي في رأسه لا في أدناه. وقولنا عنهم من كبار العقلاء هنا، يعني اتساع عقولهم بنور الإيمان، ولا يعني كونهم من كبار الفلاسفة والنُّظّار؛ لأنه ليس في مقدور العقل المجرد إدراك معنى القضاء والقدر البتة. وهذا ظاهر من تعريف النبي صلى الله عليه وآله وسلم للإيمان (المرتبة الثانية من الدين)، بقوله: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.»[1]. ولأجل عزة الإيمان بالقدر، فإن أكثر المسلمين على خلافه، وإن ادعوا ذلك باللسان، فرارا من الكفر الصريح. ولقد وقعوا في ذلك، عند تأثرهم بالفكر الفلسفي، الذي غلب إيمانهم الضعيف، فأنتج لهم -بسبب ضعف عقولهم أيضا- عقلانية شوهاء؛ يطمئنون إليها توهما واستئناسا بما هم عليه أضرابهم من العوام. ومن أجل بلوغ الإيمان بالقدر، لا بد من سلوك طريق التديّن الصحيح وحده؛ وهو ما لا نرى دالا عليه من جهة العموم إلى الآن.

ن- التعلق بالتنجيم: وقد دخل عليهم ذلك بسبب اشتغالهم بالطب، والنظر في العلاجات وأوقاتها؛ لأن للطب صلة وثيقة بالتنجيم، وإن كان الطب الحديث يُنكر ذلك بسبب قيامه على الكفر المادي الصرف. ونعني من هذا، أن كثيرا من الطب، هو غائب في الطب الحديث، رغم اتساع المزاعم؛ لأن شطرا منه له صلة بالروحانيات. ولسنا هنا ندل على الشرك، كما قد يفهم السطحيون؛ ولكن ندل على أسباب العلاج المعنوية في مقابل الأسباب المادية، التي لا يكاد الناس في زماننا يعلمون غيرها. والاعتناء بالتنجيم لدى هذه الفرقة، سيجرها حتما إلى السحر، أو إلى ما يظنه الناس سحرا. ولا نعني من ذلك إلا ما يكون من علم الأوفاق الروحانية، التي يعمل عليها نظراؤهم من جميع الملل.

س- الإيمان بالملائكة: وهو من جهةٍ، من فروع الإيمان التي سبقت الإشارة إليها في الحديث النبوي الشريف؛ ومن جهة أخرى، متعلق بعلم استنزال الأرواح، في قضاء مآربهم؛ وهو تابع لما سبق ذكره من التنجيم ومن العلوم المجاورة له.

ع- اجتناب العنف: وهذا في نظر الدارسين ما كان يجعل الناس يوقرونهم، ولعله أيضا سبب انقراضهم وانقطاع ذكرهم في نظرهم. وأما نحن، فنردّه إلى قوة إيمانهم، وإلى اتساع وسائلهم؛ لأن من كان له التصرف بالروحانيات، لا يلجأ في الغالب إلى ما اعتاده الناس من وسائل القهر المادية. وهذا باب لا نطيل فيه الكلام، لأن له أصحابه المخصوصين.

ولا شك أن هذه الطائفة هي أبعد الطوائف عن التطرف، وأشدها نفورا من العمل السياسي؛ وبالتالي فهي أبعدها عن المبادئ الصهيونية المعاصرة، التي يتأسس عليها شطر كبير من تديُّن اليهود اليوم. وإن النظر إلى مبادئ هذه الفرقة، مع مسيحانيتها، يجعلنا ننظر إلى المسيحية فيما بعد زمن المسيح عليه السلام، وكأنها تطور طبيعي داخل المجتمع اليهودي ذاته. ولولا أن "شاؤل" المسمى عند المسيحيين "القديس بولس"، الذي أكد على أن المسيحية دين جديد[2] لا مذهب يهودي داخل اليهودية الجامعة؛ لبقي الأمر ملتبسا على كثيرين، بسبب التداخل الحاصل من جهة الظاهر. ولعل هذا الاشتراك، هو ما أدى إلى إقرار بعض المفكرين من اليهود ومن النصارى على السواء اليوم، بإمامة المسيح عليه السلام لتيار يهودي مستقل، لكنه غير مباينٍ ولا مفارق لليهودية. وربما سيأتي الكلام منا عن هذا التيّار، في ختام الكتاب إن شاء الله، عند ذكر المذاهب المعاصرة.

---

[1] . أخرجه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

[2] . الأصح: تديُّن جديد، أو دعوة جديدة.

٦. الإبيونيّون: وهي فرقة جاءت وسطا بين اليهود والنصارى، فلم تحظ بعنايةِ أيٍّ منهم. ومعنى "إبيون" بالعبرية: الفقير، أو الوضيع أو المسكين. ولا يخفى الشبه من حيث التسمية هنا بما درج عليه الصوفية من تسمية أنفسهم "فقراء". وذلك عملا بقول الله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر: ١٥]. والفقر بهذا المعنى، ذاتي وليس صفة، كما قد يُتوهّم؛ لأن ذوات العباد مفتقرة إلى الوجود أولا، وقبل افتقارها إلى ما يُديمه عليها. وهذا المعنى، من أعلى ما يتعلّق به التعقّل؛ لأنه الأصل الفارق بين الحق والخلق. ولهذه التسمية بالفقر، من تاريخ الفكر اليهودي مظهران:

الأول: يقول المؤرخ اليهودي الألماني "غريتس" عنه إنه ربما يعود إلى أيام القضاة (ما قبل ١٠٠٠ ق.م). ففي ذلك الوقت، لم يكن اليهود مستقرين في فلسطين، بل كانوا في حروب مستمرة مع سكانها الأصليين. وكانوا -وهم بعدُ يعملون على إحكام السيطرة على البلاد- قد قسموها على الأسباط الاثني عشر؛ بل الأحد عشر. وذلك لأن سبط اللاويين الذي هو عشيرة موسى وهارون، قد جُعلت الرئاسة الدينية لهم، وبذلك لم يُملّكوا الأرض في مقابلها. فمُنحت لهم بذلك ثمان وأربعون بلدة، من أراضي الأسباط، يمارسون منها سُلطتهم الدينية. فحدث حادث، أدى إلى ظهور فرقة الإبيونيين في هذا التاريخ. وذلك أنه كان في شمال فلسطين، في "جبل إفرايم"، شاب اسمه "ميخا"؛ سرق من أمه ألفا ومائة شاقل (مثقال) من الفضة، فسمعها تلعن من سرقها، فردّها إليها. وكانت المرأة قد نذرت أن يُصنع منها تمثالان للرب، إن هي أُعيدت إليها، أحدهما مسبوك والآخر منحوت. فلما صُنع التمثالان، أقام لهما "ميخا" معبدا، وجعل أحد أولاده يقوم بالخدمة فيه. وكان أحد أبناء اللاويين قد ترك "بيت لحم"، وراح يسيح شمالا، فوصل إلى "ميخا" وعرّفه بأنه من اللاويين. وقد جاء ذكر ذلك في سفر القضاة، في هذا المقطع: "فَقَالَ لَهُ مِيخَا: «أَقِمْ عِنْدِي وَكُنْ لِي أَبًا وَكَاهِنًا، وَأَنَا أُعْطِيكَ عَشَرَةَ شَوَاقِلِ فِضَّةٍ فِي السَّنَةِ، وَحُلَّةَ ثِيَابٍ، وَقُوتَكَ». فَذَهَبَ مَعَهُ اللاَّوِيُّ. فَرَضِيَ اللاَّوِيُّ بِالإِقَامَةِ مَعَ الرَّجُلِ، وَكَانَ الْغُلاَمُ لَهُ كَأَحَدِ بَنِيهِ. فَمَلأَ مِيخَا يَدَ اللاَّوِيِّ، وَكَانَ الْغُلاَمُ لَهُ كَاهِنًا، وَكَانَ فِي بَيْتِ مِيخَا. فَقَالَ مِيخَا: «الآنَ عَلِمْتُ أَنَّ الرَّبَّ يُحْسِنُ إِلَيَّ، لأَنَّهُ صَارَ لِيَ اللاَّوِيُّ كَاهِنًا»[١]. فعلم اللاويون بذلك، فأعلن بعضهم أنه يأبى أن يؤجّر نفسه لأحد، أو أن يُتاجر بالدين. وهكذا ظهرت طائفة "الفقراء"، التي أخذت على نفسها أن تعمل بأعمال البر، وأن تنشر العلم الدينيّ من دون أن تأخذ على ذلك أجرا. وقد قيل إنه قد تخرج على أيدي هؤلاء كثير من مشاهير الكهنة كـ "عيلي" الذي كان مربيا للنبي "صموئيل"؛ بل إن "صموئيل" نفسه يُعتبر من تلاميذهم، إلى جانب النبي "ناثان"، والعراف "جاد"، و"أخيا" الكاهن الشيلوني، و"عبدو" الرائي، و"إلياهو" النبي، وكذلك "إشعيا" و"إرميا" وغيرهما من الأنبياء. وإن الناظر في الأصحاح الأول من سفر "إشعيا"، يجده مُصرحا بمذهب الإبيونيين في قوله: "لِمَاذَا لِي كَثْرَةُ ذَبَائِحِكُمْ، يَقُولُ الرَّبُّ. اتَّخَمْتُ مِنْ مُحْرَقَاتِ كِبَاشٍ وَشَحْمِ مُسَمَّنَاتٍ، وَبِدَمِ عُجُول وَخِرْفَانٍ وَتُيُوسٍ مَا أُسَرُّ. حِينَمَا تَأْتُونَ لِتَظْهَرُوا أَمَامِي، مَنْ طَلَبَ هذَا مِنْ أَيْدِيكُمْ أَنْ تَدُوسُوا دُورِي؟ لاَ تَعُودُوا تَأْتُونَ بِتَقْدِمَةٍ بَاطِلَةٍ. الْبَخُورُ هُوَ مَكْرَهَةٌ لِي. رَأْسُ الشَّهْرِ وَالسَّبْتُ وَنِدَاءُ الْمَحْفَلِ. لَسْتُ أُطِيقُ الإِثْمَ وَالاعْتِكَافَ. رُؤُوسُ شُهُورِكُمْ وَأَعْيَادُكُمْ بَغَضَتْهَا نَفْسِي. صَارَتْ عَلَيَّ ثِقْلًا. مَلِلْتُ حَمْلَهَا. فَحِينَ تَبْسُطُونَ أَيْدِيَكُمْ أَسْتُرُ عَيْنَيَّ عَنْكُمْ، وَإِنْ كَثَّرْتُمُ الصَّلاَةَ لاَ أَسْمَعُ. أَيْدِيكُمْ مَلآنَةٌ دَمًا. اِغْتَسِلُوا. تَنَقَّوْا. اعْزِلُوا شَرَّ أَفْعَالِكُمْ مِنْ أَمَامِ عَيْنَيَّ. كُفُّوا عَنْ فِعْلِ الشَّرِّ. تَعَلَّمُوا فَعْلَ الْخَيْرِ. اطْلُبُوا الْحَقَّ. انْصِفُوا الْمَظْلُومَ. اقْضُوا لِلْيَتِيمِ. حَامُوا عَنِ الأَرْمَلَةِ."[٢]. وقد خص إرميا الكلام عن الذبائح والقرابين في قوله: "هكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ إِلهُ إِسْرَائِيلَ: ضُمُّوا مُحْرَقَاتِكُمْ إِلَى ذَبَائِحِكُمْ وَكُلُوا

---

[١]. القضاة: ١٧: ١٠-١٣.

[٢]. إشعيا: ١: ١١-١٧.

لَحْمًا. لأَنِّي لَمْ أُكَلِّمْ آبَاءَكُمْ وَلاَ أَوْصَيْتُهُمْ يَوْمَ أَخْرَجْتُهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ جِهَةِ مُحْرَقَةٍ وَذَبِيحَةٍ."[1]. وهذا المعنى هو ما يُشير إليه القرآن في قوله تعالى: {لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ} [الحج: ٣٧]. ويقول النبي "إرميا" أيضا في الإشادة بالإبيونية: "رَنِّمُوا لِلرَّبِّ، سَبِّحُوا الرَّبَّ، لأَنَّهُ قَدْ أَنْقَذَ نَفْسَ الْمِسْكِينِ مِنْ يَدِ الأَشْرَارِ."[2]؛ والمسكين هنا هو "إبيون". ويقول النبي "صفنيا": "وَأُبْقِي فِي وَسَطِكِ شَعْبًا بَائِسًا وَمِسْكِينًا، فَيَتَوَكَّلُونَ عَلَى اسْمِ الرَّبِّ. بَقِيَّةُ إِسْرَائِيلَ لاَ يَفْعَلُونَ إِثْمًا، وَلاَ يَتَكَلَّمُونَ بِالْكَذِبِ، وَلاَ يُوجَدُ فِي أَفْوَاهِهِمْ لِسَانُ غِشٍّ، لأَنَّهُمْ يَرْعَوْنَ وَيَرْبُضُونَ وَلاَ مُخِيفَ."[3]. والواضح من هذا كله، أن "الإبيونية" الأولى كانت صنفا من التصوف العملي (الزهد)، الذي وصل إلى تعطيل شعيرة الذبيحة، إمعانا في العناية بالباطن. ويبدو أن سعي هذه الطائفة إلى النفع العام، قد جعلها تعيش في وئام مع بقية الشعب اليهودي. وقد ذكر الفيلسوف اليوناني "تيوفراست" تلميذ "أرسطو"، ضمن حديثه عن فتح الإسكندر لفلسطين، في القرن الرابع قبل الميلاد، عن هذه الطائفة: "إن هؤلاء اليهود شعب عجيب، فكثير منهم قد وهب حياته للتأمل والدرس وتعليم خفايا الحكمة ومعرفة الحياة والكون.". وهذا الوصف يُطابق ما نُعت به الإبيونيون الأولون.

وأما المظهر الآخر للإبيونية، فهو يتمثل في فرقة ظهرت مباشرة بعد رفع السيد المسيح عليه السلام، فآمنت به، مع احتفاظها بيهوديتها المتضمنة لعنصريتها المعهودة؛ وتسمت بالاسم القديم للإبيونيين. واستمر وجود هذه الفرقة، إلى القرن الرابع الميلادي، ثم انتهى. وظاهرة المرور من المسيحانية إلى المسيحية، هي ما جعلنا نذكرها هنا، لأنها خصيصة لفِرق معدودة، كما يظهر من الكلام. وإذا كان كثير من الباحثين يزعمون أن المسيح قد تتلمذ قبل بعثته الرسمية، على يد "الأسينيين"، فإن دائرة المعارف اليهودية، ترى في الإنجيل آثارا من حكمة "الإبيونيين"، وتستشهد بما رُوي عن المسيح في موعظته على الجبل، حيث يقول: "«طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ، لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. طُوبَى لِلْحَزَانَى، لأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ. طُوبَى لِلْوُدَعَاءِ، لأَنَّهُمْ يَرِثُونَ الأَرْضَ. طُوبَى لِلْجِيَاعِ وَالْعِطَاشِ إِلَى الْبِرِّ، لأَنَّهُمْ يُشْبَعُونَ. طُوبَى لِلرُّحَمَاءِ، لأَنَّهُمْ يُرْحَمُونَ. طُوبَى لِلأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ، لأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللهَ. طُوبَى لِصَانِعِي السَّلاَمِ، لأَنَّهُمْ أَبْنَاءَ اللهِ يُدْعَوْنَ."[4]. وقد وردت بعض الأخبار عن الإبيونيين في كتابات آباء الكنيسة الأولين، من أمثال "ترتوليانوس" و"أوريجانوس" وغيرهما؛ تفيد بأنهم حافظوا على الشريعة الموسوية كما هي في التوراة، وأنهم آمنوا بعيسى إيمانا خاصا. وذلك لأنهم لا يؤمنون به مخلصا سياسيا أو دنيويا؛ ولكن منقذا للأرواح، يُعلم الناس حقارة الدنيا ويدلهم على فنائها؛ وأنه جاء ليبيّن للناس أن لا خير فيمن يلهج بذكر الله، ويسعى إلى جمع المال ومتعة الدنيا؛ وأن الخير كل الخير هو في التقوى والاستقامة والعمل بما يُرضي الله. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن الإبيونيين لم يؤمنوا بالمسيح أُقنوما ضمن الأقانيم الثلاثة: الأب والابن والروح القدس، ولا بأن له قدرة إلهية؛ بل بما هو بشر رسول، وعبد كسائر العباد. ولهذا، فإنهم قاموا في وجه "بولس"، عندما دعا إلى المسيحية، كما هي في نظره. وذكرت دائرة المعارف اليهودية، أن "ترتوليانوس"، قد نسب "الإبيونيين"، إلى رجل يُدعى "أبين"، أو "أبينا"، وأضافت أن هذا الزعم لا يستند إلى أي حدث تاريخي؛ وأنه لا توجد وثيقة تتضمن ذكر يهودي بهذا الاسم، أسس هذه الفرقة. وهكذا نشأت بين الإبيونيين وأتباع "بولس"، عداوة لم يكن الإبيونيون من جانبهم فيها يتقاعسون عن فضح خصومهم ووصفهم

---

[1]. إرميا: ٧: ٢١-٢٢.

[2]. إرميا: ٢٠: ١٣.

[3]. صفنيا: ٣: ١٢-١٣.

[4]. متى: ٥: ٣-٩.

بأنهم طلبة دنيا. ولعل توسُّط فرقة الإبيونيين في العداوة بين أتباع بولس من جهة، واليهود التلموديين من جهة أخرى، هو ما أدى إلى انقراضهم، كما سبق أن ذكرنا.

وإن تسميّ أهل التصوف من المسلمين بالفقراء، الذي يجعلهم مشابهين لبعض فرق اليهود أو لبعض النصارى، لا يقدح فيهم، كما قد يفهم ذلك السطحيّون من أهل ملتهم؛ بل إنه يجعلهم يشتركون معهم في أصل الفقر العام الذي ذكرناه وأتينا بدليله من القرآن آنفا، والذي يعم المخلوقات جميعها. وما هو مُشترك من الوجه العام، لا ينبغي أن يُغفل بتضخيم الوجوه المميزة الخاصة في المقابل؛ لأن ذلك سيكون مانعا عن شطر من العلم الحق. ولولا -أننا بحمد الله- على ما نذكر، ما استطعنا الخوض في عقائد المخالفين؛ بل ولما استطعنا اعتبارهم والنظر إليهم. وفي ذلك ما فيه، من مخالفة الأصل الرباني لجميع الخلق، بغض النظر عن حكم الشريعة على ذلك في بعض جزئياتها.

٧. الغنوصية (الصابئة): هذه الجماعات من اليهود، تتفق على أن المعرفة هي الطريق إلى الله؛ ولا يقصدون من المعرفة إلا معرفة المادة والروح، أو كما يقولون "إدراك علم السماوات والأرض". والظاهر أن هذه الجماعات كانت تلاميذ في البداية للأسينيين أيضا، وكانوا يُشابهونهم في الولاء القومي والتعصب الديني لليهودية؛ وهو ما جعلهم يحظون من الشعب بالتقدير ذاته الذي كان لهم. ولكنهم مع مرور الزمن، استهوتهم العقائد التي وجدوها حولهم عند البابليين والفرس واليونان؛ فأخذوا منها ما شاءوا، وصاروا يبتعدون عن اليهودية التقليدية، وينتقلون من المسيحانية إلى المسيحية هم أيضا؛ على نحو جعل اليهود يمقتونهم ويُعلنون تكفيرهم. والظاهر أن هذه الغنوصية اليهودية تلونت مع الزمان ألوانا، وانقسمت طوائف؛ ربما كان منها الصابئة في البداية، الذين يُسمَّون "المندائيين".

ولهؤلاء الصابئة دين خاص، به يعتبرهم اليهود والنصارى كفارا؛ بينما يُلحقهم الإسلام بأهل الكتاب وأهل الذمة. ويقول الله عنهم: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ٦٢]؛ وهذا مما يؤكد كونهم على شريعة خاصة من الله في زمانهم[١]. ويقوم دين الصابئة على أركان منها:

ا- الإيمان برسالة موسى: وهم يعملون بها في كثير من شؤونهم، خصوصا ما يتعلق منها بالأكل والشرب.

ب- الإيمان بالله والملائكة والجن، الذي هو من أثر الوحي من غير شك. ولكنهم يعظمون بعض الكواكب، ويخصون نجوما بعينها؛ وهو ما جعل الشائع عنهم لدى اليهود والنصارى والمسلمين، أنهم يعبدونها. وهذا كما لا يخفى من الشرك الذي دخل عليهم بعد أن كانوا على الحق؛ كما يحدث مع كل أهل الشرائع الربانية الأخرى. وإن كان المسلمون معصومين في عمومهم من هذه الآفة، فببركة نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم، لا بنزاهتهم في أنفسهم.

ج- الإيمان بالمسيحانية وباليوم الآخر. وهو كما لا يخفى، من أثر الوحي أيضا.

د- الجزم بأن يوحنا المعمدان -عليه السلام- نبي مرسل؛ وأنه هو المسيح المنتظر، ويُسمونه في كتبهم يحيى بن زكريا كما يسميه المسلمون. وبما أنهم يعتبرونه المسيح، فإنهم سيكفرون حتما بعيسى عليه السلام وبالإنجيل؛ وسيزعمون بأن عيسى قد زيف دعوة المعمدان، واغتصب الرسالة ونسب المسيحانية زورا إلى نفسه؛ وحاشاه!... ولهذا فإنهم في شطر من صلواتهم يمجدون يحي بن زكريا عليهما السلام، وفي الشطر الآخر يلعنون عيسى ويذمونه، عليه السلام. ولا يخفى ما لعقولهم من مدخل في مقولاتهم، والتي لولاها (العقول) لبقوا على صريح الإيمان، ولانتفعوا بعيسى كما انتفعوا بيحيى عليهما السلام.

---

[١] . نعني بالزمان هنا الزمان التشريعي لا الزمان التاريخي.

هـ- العمل بقول يحيى عليه السلام في الغطاس، وبقوله بقدسية الزواج؛ بحيث لا يحل الطلاق بعده لديهم، كما لا يحل تعديد الزوجات، إلا في ظروف خاصة. وأخذوا من طقوس المسيحية القربان، وإن كانوا يرون لهذه الشرائع حِكما أخرى.
و- اعتقادهم بخرافات دينية كثيرة: بعضها مما له صلة بالكواكب، وبعضها الآخر مما له صلة بالطوفان وبالخطيئة الأولى وبداية الشر وخلق العالم. ومن الجدير بالذكر، التنبيه إلى أن بعض هذه الخرافات قد انتقل فيما بعد، إلى القصاصين النصارى والمسلمين؛ وهو مما يُعرف عند أهل الاختصاص بـ "الإسرائيليات". ولعلنا سنعود -إن شاء الله- إلى مسألة الشر والقول بالخطيئة الأصلية، في مواضع قادمة من هذا الكتاب.

وللصابئة نصوص مقدسة مكتوبة بلغة تُعتبر لهجة آرامية، يُسمونها "اللغة المندائية". ولها حروف خاصة، تتأرجح بين السريانية والنسطورية والنبطية والعبرية. وقد عُرفوا بأسماء أخرى منها: الشيوخ، والأقدمون؛ ويسميهم بعض اليهود "نصارى يوحنا". أما كلمة "مندائيون" فتعني في أصلها "أهل المعرفة". وكان شطر منهم يقيم في العراق، حيث كانت صلتهم بتراثهم ضعيفة، كما هو حال السامريين في موطنهم. وفيما عدا الصابئة، فإنه يصعب الإلمام بأصحاب الأهواء من كل اليهود، الذين كانوا يظهرون تباعا مع الأزمان، والذين يُعتبر "حزقيا" من أشهرهم. وقد كان اسمه "فالنتينوس القبرصي"، وباشر نشاطه في القرن الثاني الميلادي زمن وقوع الكارثة على رؤوس اليهود، على يد الإمبراطور الروماني "هدريان". ولذلك لم تكن غنوصيته ذات كبير أثر على اليهودية من بعده؛ وإن كانت قد أثرت تأثيرا عميقا في المسيحية، كما سنرى في محله.

٨. اليودجانية: بعد أن استتب الأمر للدولة الإسلامية على يد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، واستمر ذلك على عهد الخلفاء الراشدين، فإن طوائف أهل الكتاب من يهود ونصارى وصابئة، صارت تخضع لتشريع واضح يحمي حريتها ويقرّ اختيارها. فلم تحدث صراعات فعلية بينها، ولا رأت داعيا إلا التحصُّن الفكري الذي يُلجأ إليه عادة تحت حكم الاستبداد والاضطهاد. ولكن حدث في عهد الخليفة الأموي "عبد الملك بن مروان" (٦٨٥-٧٠٥م)، أن ظهر بين اليهود رجل يُسمّى أبا عيسى "عوبديا" الأصفهاني، ادعى النبوة، وأراد أن يجمع أبناء دينه حوله، لتكون لهم جماعة قومية؛ إلا أنه لم يبلغ ما كان يؤمّله. ولكن تلميذا له اسمه "يودجان"، قام من بعده، وراح هو أيضا يدعي النبوة بين اليهود، في منتصف القرن الثامن الميلادي. وكان حظه أحسن قليلا من حظ شيخه، فتبعه عدد من التلاميذ والمريدين، وزاد إيمانهم به بعد موته؛ حتى قالوا إنه المسيح المنتظر، وإنه سيرجع من السماء مرة ثانية، وأطلقوا عليه لقب "الراعي". وزعموا أن الزمن الذي يفصل بينه وبين النبي دانيال هو ١٣٣٥ سنة، وأنهم وجدوا في سفر دانيال ما يدل على ذلك. وتقول دائرة المعارف اليهودية إن لقب "الراعي"، الذي أُطلق عليه، قد وصل إلى علماء المسلمين محرفا، فسماه الشهرستاني "الداعي". وأهم ما يُعرف من تعاليم "يودجان"، التي يُقال إنها تعاليم أبي عيسى الأصفهاني ذاتها: التقشف والنسك، والإكثار من الصوم والصلاة؛ وتحريم اللحم والخمر أثناء النسك. ويبدو أن الدعوة كانت تتضمن برنامجا للتوعية الصهيونية الأولى، لأن أبا عيسى ويودجان أعلنا أن طقوس السبت ليست فرضا واجب الأداء في فترة تشريد اليهود في الأرض؛ وأن من يقوم بها، فإنما يفعل ذلك لإحياء ذكرى شعائر الأقدمين، من باب التقاليد فقط. وهذا رأي معتبر في الفقه، لا بد من أن يُشاد به؛ وإن ظهر في مظهر المخالفة للأصل. ويُشبه هذا عند المسلمين، ما تقوله طائفة من الشيعة بخصوص سقوط صلاة الجمعة في زمن غيبة الإمام. ولسنا هنا بمعرض التفصيل في هذه المسألة، وإنما مرادنا الدلالة على وجه رجحان القول السابق من جهة العلم فحسب. كذلك عطل يودجان عددا من الشعائر، متعللا بأنها تكون واجبة عندما تكون لليهود دولة في فلسطين. وكان يقول إن تفسير التوراة، يُمكن أن تُستخرج منه المعاني البسيطة الظاهرة، كما يُمكن أن تُستنبط منه الأسرار الباطنية الرمزية؛ وكانت تفسيراته الباطنية شديدة الشطط والإبعاد. وهذا أيضا له وجاهته في العلم، لأن الوحي

الإلهي –من حيث المبدأ– ليس كلاما مسطحا، كما قد يفهمه القاصرون. ولقد سبق أن ذكرنا بعض ما يدل على خصوصية القرآن من هذا الوجه في كلام سابق، فلا داعي إلى تكراره هنا. وفي خلال القرن العاشر الميلادي، وإبان الحكم العباسي، كانت اليودجانية قد تقلصت وقل أتباعها، وتجمعوا تقريبا كلهم في أصفهان، ومالوا إلى التأثر بالمتكلمين المسلمين من المعتزلة. وما إن ظهرت فرقة القرّائين اليهودية، حتى سارعوا إلى اتباعها لموافقتها أصولهم ولرؤيتهم فيها منقذا من الاندثار. ولعله من المفيد أن نذكر هنا ما نقلته دائرة المعارف اليهودية، عن الشهرستاني، من قوله إن "يودجان" كان يهوديا من مدينة همذان، وأن اسمه بالعبرية كان "يهوذا". وقد وجد علماء اليهود في كتابات إبراهيم بن عزرا الأندلسي، قوله إن يهوذا الفارسي، ألف كتابا قال فيه إن تقويم السنين عند اليهود يُحسب على الشمس. فذهب هؤلاء العلماء، إلى أن يودجان أو يهوذا المولود في همذان، هو يهوذا الفارسي نفسه، عند إبراهيم بن عزرا. وأشار الشهرستاني إلى شُعبة من اليودجانية، كانت تُسمى "الموشكانية"، نسبة إلى مؤسسها "موشكا". وكان هذا الرجل أشد عنفا من سابقه، عند قوله بوجوب قتال الخارجين على الدين. ويُقال إنه خرج لقتال فرقة من تلك الفرق التي يحكم بضلالها، فقُتل بالقرب من مدينة "قم" بإيران. ومن بين الموشكانية، من يقول إن النبي محمدا صلى الله عليه وآله وسلم حق، وأن الله أرسله إلى العرب وإلى بقية الأمم، ما عدا بني إسرائيل. وقد اشتهر هذا الرأي أيضا عن أبي عيسى الأصفهاني فيما قبل. وفي هذا القول من أثر العصبية ما لا يخفى، وكأن الله لا يُعتبر سبحانه إلا بعد اعتبار شخص النبي أو الرسول. وهذا –بلا خلاف– مما يناقض ما أسسه الأنبياء عليهم السلام جميعا، من توجه إلى الله وحده، من وراء مظاهرهم. ولكن هذا العلم، مما يخفى عن كثير من المسلمين، بله من سبقهم من أهل النسبة الكتابية. ومن فروع اليودجانية أيضا طائفة "الشادجانية"، الذين تزعَّمهم "يافث بن عِلِي"، فكانوا يقولون هم أيضا بإسقاط الشعائر، وأحكام النجاسة والطهارة، طالما شعب الله المختار في الشتات. وقد لاحظ مؤرخو الفكر الديني الإسرائيلي، أن كل هذه الفرق والفروع، يحيطها غموض كبير؛ حتى لقد وُجد اسم فرقة أخرى هي "الشاركانية"، يكاد يُجمَع على أنها "الشادجانية" نفسها، فيكون أحد اسميها قد لحقه التحريف بحسب ذلك لزوما.

٩. القرّاءون: سبب هذه التسمية، هو أن التوراة والأنبياء والكتب، كانت تُسمى عند اليهود "المقرا" بمعنى المقروء. وهذه الفرقة رفضت أقوال الأحبار المزيدة، وردّت المرويات الشفوية التي تناقلها "التناءون" في المشنا، و"الأمورائيون" في التلمود. وعلى هذا، تأتي هذه الفرقة من جهة عدد الأسفار المعتمدة لديها، بعد السامرة التي تقتصر على أسفار موسى الخمسة وحدها، مضافا إليها سفر يوشع بن نون من باب التوسع. ومِن ضِيق دائرة الكتاب المقدس لدى القرّائين، واختلافهم في ذلك عن الربانيين الذين دائرتهم أوسع منهم بلا شك، نشأت الاختلافات الكبرى بين الفرقتيْن. ولقد بدأ ذلك مع التشكيك في الكتاب المقدس، قبل اكتمال صورة المشنا والتلمود لدى اليهود، مع "بولس" النصراني، عند قوله بزيف المرويات الفرّيسية؛ والذي بلغ به الحد فيه إلى ادعاء نسخ العهد الجديد للعهد القديم نسخا تاما. وهذا التشكيك قد جعل المتشددين اليهود، يبالغون في المقابل في العناية بالمشنا والتلمود، من أجل ضمان البقاء، ليصيرا مرجعيْن مميزيْن لهم عن سائر المخالفين. وهذه العصبية، ستزيد من إعلاء الحواجز بين مختلف الفرق، بدل أن تجعلها تدخل في حوار معرفي داخلي، يحافظ على الدين من حيث هو كلٌّ جامع. ولو لم تكن للفرق العقدية إلا هذه الصفة، لكانت كفيلة بإسقاط اعتبارها في أعين العقلاء!...

وفي ظل الإسلام، والتلمود ما زال حديث عهد بالتثبيت، برز منشقون من بين اليهود يهاجمونه ويُنكرونه؛ وفي مقدمتهم "سيرينوس"، ثم أبو عيسى الأصفهاني وتلميذه يودجان بعده. ولكن هذه الحركة المضادة للتلمود، كانت محصورة

من حيث المكان والزمان والعدد؛ مما جعلها تنقلب إلى محفز للحركة التلمودية ذاتها، على غرار ما يكون من تحفيزٍ لمنعة الجسم عند دخول الميكروب عليه بقدر مُتحكَّم فيه. وهكذا ازداد الربانيون عناية بهذا التراث، وازدادوا به تشبثا.

وفي النصف الأخير من القرن الثامن الميلادي، توفي الحاخام الأكبر ورأس الجالوت اليهودي، تحت الدولة الإسلامية، "الجأون سليمان"؛ وقد كان زعيم المحافظين على التلمود، بحكم منصبه. ولما لم يكن له أبناء يخلفونه، وأوشك الأمر أن يؤول إلى ابن أخيه "عنان بن داود"، خاف التلموديون على انفراط أمرهم، وقام اثنان منهم هما: رئيس أكاديمية سورة "الجأون الأعمى يهوداي"، ورئيس أكاديمية فومبديتا "الجأون داوداي"، واختارا لزعامة يهود العراق الأخ الأصغر لعنان بن داود الذي هو "حنانيا". وحدثت على إثر ذلك فتنة بين أنصار عنان وأنصار حنانيا، واستنجد أنصار عنان بسلطان المسلمين أبي جعفر المنصور، ليفرضه فرضا في المنصب؛ ولكنه آثر أن لا يتدخل في الشؤون الداخلية لليهود، وهكذا استقر حنانيا على رأس الجالوت. وسواء أصحّت أقاويل اليهود عما آل إليه أمر عنان أم لا، فإنه قد انتهى به المطاف في فلسطين، محاربا مع أتباعه للتلمود، بسبب ما لحقه من أذى على يد أنصاره. ويُقال إن الرجل قد تأثر بالمعتزلة في ردهم للحديث مع اتصال سنده ورفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهو ما جرّأه على المرويات الإسرائيلية التي لا تُضاهي الحديث النبوي أو تقاربه في القوة. ولنلاحظ كيف أنه قد قيل عن عدد من الفرق اليهودية، بأنها تتبع المعتزلة في منهاجها، لنعلم أن اليهود كانوا يعيشون تحت تأثير الثقافة الإسلامية. وهذا أمر، لا يُمكن لمنصف أن يُنكره؛ ولكن رغم أن الأمر قد يُستساغ من جهة الظاهر، وعند العلم باعتماد المعتزلة النظر العقلي فيما هو من العلوم الدينية التي يُثمرها الإيمان والعمل الصالح؛ فإننا نؤكد مرة أخرى، على أن المعتزلة لم يكونوا على المرتبة العقلية التي لهؤلاء اليهود ذاتها. وذلك لأنهم على الشريعة الحق، التي تُفسح في مُدركاتهم، بما لا يبلغه عقلٌ مجرد أو عقل كتابي أبدا. وإن إغفال هذا الأصل، لا شك سيجعل الأمور تختلط على الناظر، وربما قد تؤول به إلى التسوية بين الحق والباطل؛ وهو ما لا يقبله عقل ولا شرع. ومع هذا، فإننا لا نوافق المعتزلة على طريقهم؛ بل نخالفهم ونفضح انحرافهم. ولعلنا نتناول هذه الفرقة عند بلوغ الكلام عنها، بما يليق بمكانتها لدى اللاهوتيين عموما، ولدى المتكلمين خصوصا؛ ما دامت هي أصل علم الكلام الإسلامي من دون منازع.

وما جعل حركة القرّائين تبدو خطيرة في أعين عموم اليهود، هو إتقان زعيمها للتلمود وكثرة رجوعه إلى نصوصه بقصد تفنيدها والطعن فيها؛ ورجوعه إلى الكتب التي تنكّرت للأصول التي قام عليها التلمود، كالإنجيل والقرآن، يستعين بها على غرضه. وإن مما خرج به في هذا الشأن، قوله بإن عيسى عليه السلام لم ينكر التوراة ولم ينسخها، ولم يكن زنديقا كما زعم الفريسيون؛ وإنما كان رجلا صالحا من بني إسرائيل، غير مُدّعٍ للنبوة ولا للألوهة، كما يُشاع عنه. وهذا من الأقوال التي سيتأسس عليها التيار المعاصر، الذي أشرنا إليه سابقا، لدى اليهود والنصارى أجمعين. ولم يكتف عنان هذا، بما ذكره عن المسيح عليه السلام؛ بل زاد بأن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم نبي حق، وأنه كعيسى، لم يخطر له أن يخالف التوراة، أو أن ينسخها. ورغم أن هذا القول، لم يبلغ ما بلغه القول الأول، حتى يُتّخذ طريقا إلى القول بوحدة الدين من قبل اليهود والنصارى والمسلمين؛ إلا أنه لا يخفى ما يتأسس عليه من بعض الإنصاف، الذي لا شك هو عائد إلى أثر النظر العقلي السليم، أكثر مما هو منوط بحقيقة الإيمان. ونعني من هذا، أن النظر العقلي لم يكن لدى اليهود بالقوة التي تجعلهم ينفصلون عن التوراة ويتصلون بالقرآن، وإن خلخلهم وجعلهم ينظرون فيما عند غيرهم. وهذه الصفة ليست خاصة بهم، حيال الحق؛ وإنما هي صفة كل عوام الملل الثلاث، عندما لا تقوى عقولهم على نقد موروثهم وثقافتهم. ولعل بعض المسلمين لو وُضعوا في مكان اليهود، لكانوا أسوأ منهم حالا. ولولا أنهم وُلدوا مسلمين فضلا من الله عليهم، لكان لهم شأن آخر. وهذا يجرنا إلى الكلام عن اعتبار الظروف التي تحيط بالعبد، والتي يكون لها دخل في صنف تديّنه؛

ويجرنا إلى التساؤل عن اعتبار الله لها، كيف يكون؟ وهو سبحانه، أعلم بما يكون عليه عباده في جميع الأحوال. ولن ندخل في هذا الأمر، وقد استأثر الله بغيبه؛ ولكننا أردنا أن ننبه إلى ما يثيره المفكرون من مسائل في مقابله، مما هو داخل ضمن مقارناتهم، وعند تتبع الاحتمالات الممكنة التي تحكم بها عقولهم.

ولما اشتد الصراع بين الربانيين والقرائين، أعلن رؤساء كل طائفة تكفير الطائفة الأخرى، ونجاستها ولعنها. ومنعت كل فرقة من الصلاة في معابد الفرقة الأخرى، ومن مؤاكلتهم أو مزاوجتهم. واعتادت الفرقة الربانية على تسمية القرائين بأسماء الفرق المارقة الأولى كالصدوقيين، فسموهم "منيم"، أي الزنادقة والكفرة؛ و"أبيقوريم"، نسبة إلى المدرسة الفلسفية اليونانية. ولم يُقصّر القرّاءون من جهتهم في عداوتهم للربانيين، وفضحهم لهم والسخرية من تفاسيرهم للكتاب المقدس. وبعد موت عنان، اعتبره القراءون قديسا، وجعلوا له دعاء مخصوصا في صلواتهم، يقولون فيه: "رحم الله الأمير عنان، رجل الله الذي مهد طريق التوراة وفتح أعين القرائين، وأبعد عن المعصية كثيرا من إخوته، وبيّن لنا سواء السبيل. فليجعل الله له مكانا مرموقا بين السبعة المختارين لدخول الجنة."[١]. وخلف عنان على رئاسة الطائفة، ابنه شاؤل من بعده.

وتُذكرنا العداوة التي بين القرائين والربانيين، مع اختلافهم في الأصول، بما هو بين أهل السنة والشيعة من المسلمين من تنافر وتقاذف؛ خصوصا من متطرفي الفرقتيْن. ولا بد من أن نعلم من هذا الانفصال، المخالف لوحدة الدين، أن الفريقيْن ما عادا ينطلقان من الأصول، كما هي في نفسها؛ وإنما منها كما هي في تصوراتهما، ومن غير أن يُمحصاها أو يُشككا فيمن أخذاها عنهم. وربما قد يقع في بعض الأذهان، أن حكمنا بانحراف الفرقتيْن معا، قد يكون مخالفا للواقع الذي تكون فيه إحدى الفرقتيْن على الحق وتكون مقابلتها على الباطل، كما تزعم كلٌّ منهما، فنقول: نحن تعمدنا إسباق إبراز حكمنا، لنجعل الناظر في كلامنا يحفظ ما سنقوله بعد أن يخطر له الاحتمال المذكور. وذلك لأن كلتا الفرقتيْن لو كانت على الحق التام، لاعتبرت الدين عند أختها، ولم تحكم بكفرها. وهي عند حكمها عليها بالكفر، قد أبانت عن جهلها بأصول دينها ذاته من جهتها؛ مما يجعلها كأختها على الحق جزئيا، إن كانت عليه، لا كليا. وهذه مسألة تغيب عن العقول، بسبب غلبة العصبية وإرادة غلبة الخصم. وهذه خصال من كان رقيق التدين، ضعيف الإيمان!...

ولقد ظهرت فيما بعد، بين القرائين، مدارس علمية قوية، اعتنت بدراسة اللغة العبرية؛ وكان من أشهر القائمين عليها، في القرن العاشر الميلادي: أبو سليمان داود بن إبراهيم الفاسي، مؤلف قاموس التوراة الكبير، الذي يشرح فيه ألفاظ الكتاب المقدس العبرية بالعربية؛ واسمه: "جامع الألفاظ" أو "الأحرون". كما ظهر من بينهم محققون لقراءة الكتاب المقدس ومفسرون، تتالت كتبهم على مر السنين. ومن أهم مفكري هذه الطائفة "بنيامين بن موسى النهاوندي"، ومن بعده "دانيال الزمجاني"، الذي خالف بعض ما كان عليه عنان في آخر أيامه. ومنهم أيضا "ابن ساقويه" صاحب كتاب "الفضائح"، الذي هاجم التلموديين والربانيين. وتولى زعامة القرائين في القرن العاشر الميلادي "يعقوب القرقساني"، وكان عالما متبحرا ومعاصرا لأحد جهابذة الربانيين هو "سعديا سعيد بن يوسف الفيومي". وهو ما جعل الجدل يعود إلى نشاطه الذي كان عليه في أيامه الأولى بين الفرقتين، فكتب سعديا كتابه المشهور "الرد على عنان"، كما ألف في عقائد الربانيين كتاب "الأمانات والاعتقادات"، الذي تأثر فيه هو أيضا بمذهب المعتزلة من المسلمين كما يُقال. وعاش في ذلك الزمن أحد أكابر المتطرفين القرائين، والذي هو "سلمون بن يروحم"؛ وقد لقي من طائفته تعظيما وافرا لشدته على الربانيين. ومن القرائين في هذا الجيل أيضا "حسون بن مشيح"، وقد كان مفسرا للتوراة قويا في الجدل؛ ويُقال إنه كان يرجع إلى بعض تراث الصدوقيين، بسبب ذكره في كتاباته لـ "كتاب الصدوقية". ومن أئمتهم أيضا "داود بن بوعز"، الذي يُلقَّب

---

[١] . دائرة المعارف العبرية: المجلد التاسع.

بالرئيس، وله تفاسير على أجزاء التوراة، كما ألف كتابا في أصول الدين سماه "كتاب الأصول". وفي القرن الحادي عشر الميلادي، ظهرت مدرسة قرّائية على يد "يافث بن عِلِي اللاوي" و"سهل بن مصلح"؛ وكان منها "ليفي بن يافث اللاوي" و"يوسف بن إبراهيم الراعي" و"يشوعا بن يهوذا". وقد خرّج هذا الأخير تلميذيْن نشرا المعتقد القرّائي في الإمبراطورية البيزنطية، هما: "طوبيا بن موسى المترجم" و"يهوذا هاداسي"، مؤلف كتاب "مجمع العطور" (إشكول هكوفر)، الذي يحتوي على أندر شروح القرائين الأولين.

واستمرت حركة القرّائين نشيطة إلى مستهل القرن السابع عشر الميلادي؛ ثم جمدت في أوروبا، بعد وصول المد الثقافي والقومي الأوروبي إلى خصومهم الربانيين هناك. وبقي القرّاءون ظاهرين في الشرق المناسب لهم، والذي سيطروا عليه بفكرهم. ولهذا كان أكثر القرائين مقيمين بمصر والشام والعراق وتركيا وإيران وبعض الأجزاء من روسيا وأوروبا الشرقية. وبسبب تخلف الحكم القيصري والإيراني والتركي، فإن القرّائين صاروا يُشبهون في أزمنتهم العرب والمسلمين المتخلفين من الناحية الحضارية، بالإضافة إلى كونهم أقلية ضمن المجتمع اليهودي نفسه؛ وهو ما زادهم ضعفا على ضعف.

أما في العصر الحديث، فقد تقلص عدد القرائين، بسبب انتشار اليهود الربانيين في أوروبا وأمريكا وكثير من بلدان آسيا وأفريقيا. وقد أدى الفرق بين الربانيين والقرّائين من حيث العدد والمال والنفوذ، إلى ما يُقارب انمحاق هذه الطائفة (طائفة القرائين)؛ وتأكد ذلك مع ظهور الحركة الصهيونية العالمية، التي لم يجدوا بدا من معاداتها، لكونهم يرون فيها خطرا يُهدد باستئثار خصومهم بمقدسات إسرائيل من دونهم؛ أي خطر الإلغاء التاريخي. وكان للقرائين في مصر وروسيا وتركيا، نشاط واضح ضد الصهيونية؛ لولا أن الجواسيس وعملاء الصهيونية اغتنموا ظروفا مؤاتية لاقتناص عدد منهم وإدخالهم قسرا إلى إسرائيل. وهكذا، أصبحوا رهائن هناك، تُساوم دولة إسرائيل بهم بقية القرائين في العالم...

١٠. المارانوس: هم طائفة من اليهود ظهرت في إسبانيا والبرتغال، منذ بداية القرن الخامس عشر الميلادي، إبّان بلوغ الكاثوليكية أوج قوتها بعد نجاحها في طرد المسلمين من هناك. ولما كان اليهود قد عاشوا في رخاء تحت ظل الحكم الإسلامي بالأندلس، فإنهم كانوا على ولاء للمسلمين غير خفي؛ وهو ما جلب عليهم انتقام الكاثوليكية من غير شك. ولذلك قد ظهرت محاكم التفتيش الشهيرة، التي كانت تطارد كل ما هو غير نصراني، في سُعار عقدي يندى له جبين الإنسانية خجلا. وقد كان اليهود فريسة سهلة وسمينة، بسبب انعدام من يحميهم هناك من جهة، ولتجمُّعهم في قرى وأحياء خاصة بهم، على عادتهم، من جهة أخرى. وكان الكاثوليك يهاجمونهم في أماكنهم تلك، ويسلبونهم وينهبون؛ ثم يأخذون كتبهم وأدواتهم الدينية، ويُكوّمونها وسط الساحات، ويُشعلون فيها النار، إمعانا في إذلالهم؛ وتأتي الجماهير العطشى إلى التشفي والتنفيس عن الغيظ، لتتحلق حول المحارق وتعبّر عن سرورها بما ترى. وكان هذا المشهد يتكرر بصورة اعتيادية، من دون أن يستثير تدخّل العقلاء؛ وكان أحيانا يؤتى باليهود أنفسهم مكبَّلين بالقيود، فيُطرحون في النار، لتكتمل الاحتفالات. ولقد كان هذا، من أبشع الصور التي ستعلق ذكراها بالدين، إلى الأبد. وفي بعض المرات، كان يُعرض على اليهود الدخول في النصرانية، منّة من المُشرفين على الاضطهاد؛ فمن أبى منهم قُتل، ومن قبل نجا. وقد بدأت هذه العملية في إسبانيا منذ عام ١٣٩١م؛ وكان هؤلاء المتنصِّرون من اليهود يُسمَّون "كونفيرسوس"، أي المتحوّلون إلى الدين؛ وكان البرتغاليون يُسمّونهم "كريستاوس نوفوس"، أي: النصارى الجدد.

وقد عز على هؤلاء اليهود المتنصّرين ترك ديانتهم الأولى، فاتفقوا سرا فيما بينهم على أن يعيشوا في بيوتهم وفي المجتمع عيشة الكاثوليك، وأن يبنوا في أحيائهم معابد شكلها الخارجي كنائس كاثوليكية، فإذا اجتمعوا فيها انقلبوا يهودا يتعبدون حسب الطقوس الإسرائيلية. لذلك صاروا يُسمّون عند اليهود "أنوسيم"، أي: المضطرون، أو المكرَهون. وواضح من هذه التسميات، أنهم كانوا محل عطف وشفقة من جميع اليهود؛ لأنهم مع كونهم في وضع صعب جدا، هم متمسكون

بدينهم. وهنا ينبغي أن نُذكّر بحكم الشريعة الإسلامية في المـُخالِف الديني، الذي لا يُكتفى بصون حقوقه في المجتمع الإسلامي؛ بل يُقتصّ له ممن ظلمه، وإن كان من "رموز" الدين أنفسهم. وقبل هذا وبعده، فإن حريته في اختيار دينه تبقى محمية، لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها. ويكفي في هذا الشأن قول الله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة: ٢٥٦]. ولهذا لم تظهر في المجتمعات الإسلامية، جماعات تُضطر إلى إخفاء انتمائها الديني؛ إلا ما كان من معاداة المسلمين فيما بينهم، ومن جور بعضهم على بعض؛ كما يحدث بين أهل السنة والشيعة عندما يكون الحاكم متعصبا لمذهبه.

أما كلمة "مارانوس"، فقد اختُلف في أصلها: فقيل إنها تحريف من كلمتيْن تبدأ بهما صلاة نصرانية بالآرامية، هما "ماران آث"، ومعناها أنت مولانا؛ والمخاطب بهما كان المسيح عليه السلام. فكان على اليهوديّ، أن يُكررهما كثيرا لإبعاد الشبهة عن نفسه؛ ثم أصابهما التحريف، فصارتا "ماراناس"، ثم "مارانوس". وأما القول الآخر في أصل الكلمة، فهو أن "مارانو" بالعامية الإسبانية القديمة، معناها الخنزير؛ وكان يُنعت بها المتنصّرون من غير الأوروبيين، وممن لا يعودون إلى أصول لاتينية؛ فكان اليهود أولى الناس بها، في نظر النصارى الأُصلاء. وما يُقوي هذا المنحى، هو أن العرب المسلمين الذين بقوا في إسبانيا واضطُرّوا إلى التحوّل إلى النصرانية، كانوا يُلقّبون أيضا "مارانوس". وقد صارت الكلمة فيما بعد، لدى الإسبان والبرتغال والفرنسيين، تعني المنافق والخائن والدنيء واللص والكذاب، ونحو ذلك من صفات الذمّ.

عاش المارانوس في خليط عجيب من الطقوس، يُظهرون النصرانية ويُبطنون اليهودية؛ ولم يكونوا يُفلحون أحيانا في إخفاء احتقارهم لدينهم الجديد. فمن ذلك ما روته دائرة المعارف العبرية من أن أحد المارانوس اضطر إلى حضور الصلاة في كنيسة كاثوليكية، وعندما كان المصلون يمثُلون أمام تمثال المسيح المصلوب، سُمع هذا اليهودي وهو يُتمتم: "وا أسفاه! من الذي يستطيع أن يرى هذا ويؤمن به!". فسمعه بعض الحاضرين، وذهب يشكوه إلى أمير إشبيلية، وكان بعض المشرفين على محاكم التفتيش موجودا؛ فقال للأمير: إذا شئت أن تتأكد أن المارانو، هو أولا وقبل كل شيء يهودي، فلنصعد معا ليلة السبت إلى القلعة وننظر، وسوف تستطيع وأنت ترى شموع السبت على الموائد، أن تميّز بيوت المارانوس من غيرها. وكان يُقال إن لهذه الطائفة حاخاميْن مستوريْن، وجزارين يذبحون لهم اللحم ويوزعونه سرا؛ ونحو ذلك مما يدل على حرصهم على إقامة الشريعة، رغم الصعاب والعقبات.

وقد جرّ تشبث المارانوس بطقوسهم، عليهم الاضطهاد الذي وقع في طليطلة سنة ١٤٤٩م وسنة ١٤٦٧م، من قتل وسلب ونهب وإحراق للبيوت. وحدث في قرطبة مثل ذلك سنة ١٤٧٣م، ثم انتشر هذا السخط فيما بعد إلى جهات أخرى من إسبانيا. وفي البرتغال اشتعل الغضب ضد المارانوس، في لشبونة، سنة ١٥٠٦م؛ فقُتل منهم عدة مئات في يوم واحد. وكان تعرّض هذه الطائفة إلى هذا التنكيل، كفيلا بأن يجعل اليهود يعطفون عليهم؛ إلى الحد الذي خُصّوا معه بصلوات في كتبهم. ومن ذلك ما وُجد في كتابٍ بروما، يعود إلى سنة ١٤٤١م؛ جاء فيه: "لترحم الحضرة الإلهية إخواننا المُكرَهين من إسرائيل، المتروكين في الضيق والأسر؛ ولتعطف عليهم، ومن أجل اسمه العظيم يخلصهم ويخلصنا، ويُخرجهم ويُخرجنا من الضيق إلى الفرج، ومن الظلمة إلى النور. ونحن نقول آمين.". وقد اختلفت نظرة فقهاء اليهود إلى المارانوس عبر العصور: ففقهاء العصور الوسطى، اعتبروهم مُكرهين، كما سبق أن ذكرنا؛ وبالتالي فلا فرق بينهم وبين سائر اليهود في الحقوق والواجبات؛ أما المتأخرون من اليهود، فقد اعتبروهم من "الغوييم" (الأغيار). ولعل لهذا الحكم سببا وجيها،

هو استمرار المارانوس على "تقيّتهم"[1]، رغم ظهور ما يُسمى حقوق الإنسان في العالم، ورغم حرية التعبير المكفولة من قبل الدول العصرية. نقول هذا، من جهة الظاهر؛ وإلا فإن الأمور ليست دائما على ما تبدو عليه!... ولا شك في أن من مارس نمطا من التديّن لمدة طويلة، لا بد من أن يعتاد عليه، فلا يتمكن من تركه فيما بعد بسهولة؛ خصوصا، إن انتقل ذلك العمل من جيل إلى جيل أو أجيال بعده؛ لأنه عندئذ سيُصبح أرسخ لدى المتأخرين، الذين لن يعلموا في الغالب منه، إلا أنه دينهم. نقول هذا، ونحن نعلم أن العائلات اليهودية، قد توارثت تقاليد في إخبار أبنائها بحقيقة أصلهم؛ ربما لم يُمهل الزمن بعضهم معها، أن يكشف لأبنائه ما كان يعزم على كشفه. ولا شك أن الصِّلات العائلية التي أُقيمت بين المارانوس والنصارى، لم تكن لتسهل الأمر؛ وربما غابت الحقيقة التاريخية في ثنايا مصاهرة نافعة، أو مشاركة تجارية واعدة. وعلى كل حال، فإن الأمور لا تكون في الواقع، بالتبسيط الذي يُخضعها له الناظر المتجرد...

١١. الدونمة: وهي كلمة تركية عامية مركّبة تعني "مزدوجو الانتماء"، ويُقصد من ذلك، الانتماء إلى اليهودية، وإلى الإسلام. وهذه الفرقة من هذا الوجه، تأتي في مقابل المارانوس الذين يجمعون بين الانتماء إلى اليهودية وإلى الكاثوليكية. ورغم أن بعض الدارسين رأوا أن الدونمة لم يكونوا مُكرهين على إظهار الإسلام، كما كان المارانوس مُكرهين على النصرانية، إلا أننا نرى أنهم قد كانوا كذلك، بوجه ما؛ بعد أن وصل أمر زعيمهم "شبتاي تسفي" إلى الخليفة الذي عرض أمره على المفتي بعد زعمه كونه "المسيح المنتظر". وبعد أن حكم المفتي على هذا المدعي بالقتل، خُيّر -بحسب الحكم الشرعي- بين تنفيذ الحكم فيه وبين الإسلام؛ فاختار الإسلام ظاهرا، وتبعه في ذلك كل أتباعه. وهذا وجه من وجوه الإكراه بلا خلاف!... ولسنا نبغي هنا الخوض في وجوه المسألة من جهة الفقه الإسلامي، الذي كان المفتي موفقا في حكمه حيالها؛ وإنما نأخذ الأمر على ما يُعطيه لدى المحكوم عليه في نفسه. وهذا هو ما جعلنا نقول بالإكراه!... وأما الدونمة، فلا يزالون في تركيا يُحافظون على نظامهم بالجمع بين الدينيْن بحسب الظاهر والباطن؛ إلى الحد الذي يتسمون فيه بأسماء إسلامية، لا يستعملونها في بيوتهم. وهم يستعملون العبرية في صلواتهم، والتركية في كلامهم؛ وإن كانت التركية قد غلبت مع مرور الزمان كما هو متوقّع. وأما الربانيون من اليهود، فلا يعتبرون هذه الفرقة من الإسرائيليين، بل من الكفار "مينيم". والدونمة شديدو المحافظة على تعاليم زعيمهم المذكور، والتي منها:

ا- وجوب الزواج على أفراد الطائفة، وهو أمر داخلي لا يتعدى الطائفة ذاتها. وهذا النمط من العيش، لا بد أن يؤدي في النهاية إلى ضمور الطائفة، ثم إلى اندثارها في بلدها الأصلي. أما أفرادها الذين يُضطرون إلى العيش في بلدان أخرى لسبب من الأسباب، فإنهم سيُضطرون إلى الاندماج في المجتمعات الجديدة، ولو بعد حين.

ب- حرمة التعديد في الزواج: ولعل السبب في هذا، كان عدم كفاية عدد النساء داخل المجموعة الصغيرة؛ ولم يكن تأثرا بالمجتمع الذي يعيشون فيه. فهو من التكيُّف أكثر مما هو من الشريعة.

ج- استحباب عقد الزواج يوم الاثنين أو يوم الخميس: وهو أمر إن لم يثبت فيه شيء من جهة التشريع اليهودي، عائد إلى التأثر بالمجتمع المسلم، الذي يخص هذين اليومين بأعمال بعينها، نظرا لورود نصوص في خصوصيتهما.

د- يَعقد الزواجَ رئيس الطائفة، الذي ينبغي أن يباركه سبع مرات؛ ثم يتم الزفاف باللغة العبرية غناء وموسيقى. والتسبيع في عدد البركات، هو من اعتبار الصفات السبع الأمهات، من جهة الغيب، كما نقول دائما؛ وهو أمر متأكِّد في التشريع الإسلامي المكتمل.

---

[1] . التقية في الاصطلاح الإسلامي، هي مداراة القوم وموافقتهم في ظاهر الأمر، عندما تُعلم منهم العداوة للمذهب؛ وقد شاع العمل بالتقية من الشيعة، عند اضطهاد أهل السنة لهم.

هـ- فيما يتعلق بالجنائز: فإن مراسمهم تختلف عن مراسم اليهود، وتشبه في بعضها ما يفعله المسلمون. فالحاخام يحضر إلى بيت الميت، ويتلو أدعية وصلوات؛ ثم يُقام العزاء في البيت يوم الوفاة، وبعد أسبوع، وبعد شهر، وفي اليوم الأربعين، وبعد ثلاثة أشهر، وبعد تسعة أشهر، وعند تمام السنة. وهم يدفنون موتاهم في مقابر خاصة بهم، وتغلب على أدعيتهم لغة "اللادينو" الإسبانية. وإن عددهم قد بدأ يقل الآن، بسبب قلة مواليدهم، وعدم اهتمام يهود العالم بهم؛ خصوصا وأنهم يكفرون بالتلمود وبالمسيح المخلص، ما دام زعيمهم المؤسس عندهم هو المسيح نفسه، الذي ينتظرون عودته. وسنعود إلى مسألة العزاء، الذي يكون بعد أسبوع أو بعد أربعين يوما، المعمول بها في بعض المجتمعات الإسلامية، فيما بعدُ إن شاء الله؛ لنبيّن أصلها، وكيف دخلت على المسلمين، وهي ليست من تشريعهم. ذلك لأننا نرى الحرص عليها، من القوة، بحيث لا يمكن أن يكون ذلك عن مجرد مجاورة.

ولقد كانت طائفة الدونمة تنقسم في البداية إلى فرق منها: الأزميرلية والقنيهلية واليعقوبلية (نسبة إلى يعقوب الكريتي). وهذه الأخيرة هي أكثر اندماجا من غيرها في طريقة العيش التركية، وأكثرها قبولا لمظاهر التقدم التركي العثماني. وجل بقايا الدونمة الآن، من هذه الشعبة خصوصا.

وقد انتشرت تعاليم "شبتاي تسفي" في أوروبا الشرقية أيضا، واتبعها هناك "يعقوب فرانك"، لكن مع إحلال المظهر النصراني محل المظهر الإسلامي؛ وكأنه عاد إلى أسلوب المارانوس، اعتبارا للضرورة الجغرافية. ولقد حظيت طريقته بالانتشار في أوروبا الشرقية تحت اسم "الطائفة اليهودية الفرانكية". وقد كانت هذه الطائفة معادية للتلمود، ومقرّة لـ "الزُّهار"[1]. وكانت تزعم لنصارى بولونيا -من باب المخادعة- أنها تؤمن بالمسيح أُقنوما إلهيا ضمن التثليث المعروف؛ لكن من دون أن تُعلن أن المسيح في نظرها، هو زعيمها "شبتاي تسفي". وهكذا تبنت الكنيسة البولونية هذه الطائفة، مع مخالفتها التامة لها في العقيدة. وهذا يدل على مقدرة اليهود على تقمص ما يُوهم المخالف بعدم وجود الخلاف. كل هذا، من أجل تحقيق مآرب استراتيجية كبرى؛ سنرى إلى أين ستُفضي في نهاية الكتاب.

١٢. الإصلاحيون أو المجددون: وهذه الفرقة مرتبطة في أصل نشأتها ارتباطا عكسيا، بالفرقة القديمة "الصوفية" المسماة "حسيديم"، والتي أوصلت الدروشة اليهودية وليدة "الغيتو" إلى أقصى دركات الخرافة والدجل. وقد ازدهرت هذه الحسيدية في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي على يديْ حاخاميْن من أقطاب التصوف السري الباطني "القبالا"، واللذين هما: "إسرائيل بعل شيم طوب" و"زلمان ماودي" المعروف بـ "زلمان شنيؤورزون"؛ وكلاهما أصله من منطقة الحدود الروسية البولونية. وفي الوقت الذي سيطرت فيه هذه الطريقة على أوروبا الشرقية وعلى جزء من أوروبا الغربية، كانت أوروبا عموما تعرف ما يُسمى "النهضة" بتجلياتها العلمية والصناعية والحقوقية؛ وهو ما أدى ببعض اليهود إلى الانعتاق من خرافية هذه الطائفة، تأثرا بأفكار العصر. وكانت هذه الحركة الإصلاحية المعاكسة تُسمى: "الهسكالاه"؛ أي: الوعي والنهضة. فكانت من هذه الحركة المعاكسة للتصوف اليهودي، حركة الإصلاح والتجديد في المجتمع اليهودي، التي تزعمها "موسى مندلسن بن مناحم"، الذي ولد في ديساو بألمانيا عام ١٧٢٩م، ومات في برلين عام ١٧٨٦م؛ والذي كانت آراؤه جديدة على اليهود من الناحية السياسية ومن الناحية الإنسانية العامة (العلمانية اليهودية). ولا شك أن المرء عند هذا الحد، سيتذكر حركة الإصلاح عند المسلمين، التي تأسست على المبادئ ذاتها، والتي زعمت ربط التديّن بالنهضة الإنسانية العامة العلمية والحقوقية؛ والتي كان من أبرز وجوهها جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨م-١٨٩٧م)، بعد حوالي القرن من ظهور الحركة اليهودية. وهذا التأخر الطفيف في الزمان، بين الحركتيْن الإسلامية واليهودية، لا يدل إلا على وحدة الأصول الفكرية

---

[1] . هو أهم كتب التراث القابالي، وهو تعاليق بالآرامية على المعنى الباطني للعهد القديم.

المؤسّسة لديهما، على ما بينهما من اختلاف في المرجعية التشريعية من حيث الظاهر. وهذا النمط سيعمّ كل الحركات العصرية من جميع الفرق الإصلاحية للملل الثلاث، كما سيظهر ذلك بالتدريج. ولا بد من تناول هذا الانصهار في النمط المعرفي الجديد، في نهاية هذا الكتاب، لنتبيّن الواقع الديني والأيديولوجي العالمي، على حقيقته. وأما الآن، فنحن ما زلنا نتتبع الفرق اليهودية، في خصوصياتها؛ لذلك لا ينبغي أن نحيد عن وجهتنا. ومن مبادئ الإصلاحيين اليهود، ما يأتي:

ا- وجوب اندماج اليهود في الإنسانية العصرية، والخروج من العنصرية التي تسببت في انغلاقهم طيلة قرون. وهذا من أثر فلسفة "الأنسنة" التي عمت في القرون الأخيرة، والتي تهدف إلى نبذ الدين جملة، من غير أن يكون ذلك دُفعة واحدة. وهذا هو ما يجعل أصحابها، لا يُعلنون عن غايتهم في البداية، حتى لا يُنفّروا المتدينين؛ بل قبلوهم كما هم، وطالبوهم بالانصهار في المعنى الإنساني العام، في مقابل ذلك. ولقد انطلى هذا الخطاب على ضعاف العقول، وعلى السّذّج من الناس؛ إلى الحد الذي سيصير أصحابه تيارا أعم في كل ملة. بل إن كل دين من الأديان، لم يسلم من تغلغل هذا التيار فيه، وإن لم يَشعر بخطورته في النهاية إلا قلة من أهله. وسنعود إلى تفاصيل ما وقع بدعوى الوحدة الإنسانية، بعد أن ننتهي من المراحل التاريخية التي تسبقها...

ب- الفصل بين الدين اليهودي، والجنسية التي كانت دائما هي القومية الإسرائيلية نفسها؛ مع إسباق الجنسية الوطنية في التعريف؛ كأن يُقال: إنجليزي يهودي، لا العكس. وهذه علمانية اليهود، التي ستأخذهم في طريق الأيديولوجيا، وتبعد بهم عن الدين. ومع دخول الأيديولوجيا، فإن الحكم على الأشياء، سيصير للعقل بدل الشرع، شيئا فشيئا. وهذا الأمر لم يسلم منه النصارى والمسلمون أيضا؛ لذلك ستكون النتيجة لدى الجميع (الأغلبية منهم) في النهاية واحدة: نبذ الدين وتأليه العقل.

ج- اعتقاد المساواة في المواطنة بين اليهود وغيرهم، لكي تتسنى لهم المطالبة بحقوقهم في مجتمعاتهم الوطنية البديلة. وهذا أمر منطقي، لا يختلف عليه اثنان؛ لكنه لا يُساير التشريع. وهكذا، سيُضطر اليهود إلى ترك العمل بشريعتهم بالتدريج، ليصلوا في النهاية إلى انتماء يربطهم بثقافة يهودية، لا بدين. وهو أيضا ما سيقع للنصارى وللمسلمين أيضا، في الزمان ذاته أو في الذي يليه بقليل. وهكذا ستدخل البشرية مرحلة "ما بعد الدين"، من حيث ما تُعطيه فلسفة التاريخ لدى أصحابها.

د- الانصهار في الهوية الوطنية، من جهة اللغة والعادات، ومن جهة أداء الواجبات كالانخراط في الجيوش الوطنية والتعلّم في المدارس العمومية. وهذا من ركائز علمانية الدولة، التي بهذا الأسلوب في التربية والتنظيم، ستُنتج مواطنين ينتفي عندهم الانتماء الديني. والمواطن، بهذا المعنى، هو شخص قد تخلى عن دينه السابق، ليدخل دينا جديدا هو العلمانية. وكما أن للأديان معابد، فللعلمانية المدارس؛ وكما للأديان واجبات، فللعلمانية قوانين يترتب على مخالفتها إما العقوبة أو التهميش. وكما للأديان أماكن مقدسة، فإن للعلمانية الوطن؛ مع إغفال وضعيته معرفيا، وطروئه في الثقافة. ولن يعي الناس أنهم قد دخلوا دينا جديدا، عند تخليهم عن الدين الأصلي، إلا بعد مضي ما يُقارب القرنيْن من الزمان أو أزْيد قليلا.

وكان من أشد الإصلاحيين تمسكا بهذه المبادئ "إسحاق صموئيل ريجيو"، وهو يهودي إيطالي (١٧٨٤م-١٨٥٥م). وكان يقول فيما يتعلق بضرورة التخلي عن العنصرية القديمة، عند المطالبة بالحقوق المدنية: "كيف نطلب شيئا، لو أننا نلناه، لا نستطيع أن نستعمله؟!... وكيف نقدم أنفسنا للعالم، إذا كنا نثبت بسلوكنا كل يوم أن استمرارنا في التدين يتعارض مع مبدأ الحرية والمساواة؟!".

ولما كانت فرقة الإصلاحيين قد قامت من أجل الخروج من التخلف الذي كان سائدا قبلها، فإن أصحابها قد مقتوا المشنا والتلمود، باعتبارهما رمزيْن لذلك التخلف، جاعلين التشريع للكتاب المقدس وحده. وهم في هذا، قد وافقوا ظاهريا

السامريين والصدوقيين والقرائين والدونمة. وكان عدوهم -تبعا لتوجههم العلماني المعتدل- كتاب "شولحان عاروخ" الذي جمع فيه الربي "يوسف كارو" جميع الأحكام والفتاوى والتفريعات الواردة في المشنا والتلمود، والذي كان المعتمَد لدى اليهود المتشددين. فكان الإصلاحيون يعتبرونه رمزا للجمود والتخلف، والعقبة التي تحول دون الشعب الإسرائيلي والتقدم؛ فحاربوه هو وما شابهه من كتب الشروح والحواشي والجدل، التي تصب في التوجُّه ذاته. ولقد حدث الأمر نفسه مع النصارى ومع المسلمين؛ إلى أن وصلنا إلى صنف من "المسلمين"، يطعنون في القرآن وفي السنة النبوية، ولو من غير تصريح في البداية. وهم جميعا (من الملل الثلاث) يريدون الالتقاء على العلمانية؛ لكن من غير تعمق في جذورها، ومن دون تبصّر في غاياتها؛ إلى الحد الذي صارت معه العلمانية بتحررها المزعوم، أكبر ديكتاتورية على وجه الأرض. وبما أن الحوار لا يدور بين من لهم الأهلية في النظر، فإن الأمر قد صار تيارا عاميا يدوس كل من يُعارضه، على ما يكون عليه العوام في شؤونهم عبر التاريخ كله. وهذا من التوظيف الخبيث للعوام، كما حدث قبل ذلك، عند توظيفهم بالدين. والكلام في التفاصيل هنا يطول، وسنرجئه إلى الجزء الأخير من الكتاب إن شاء الله، ليكون كالخلاصة له.

وقد أحدث الإصلاحيون تغييرات في مظهر التديّن اليهودي، دون أن يُضطرّوا إلى التخلي عن ظاهر الدين اليهودي، كما فعل المارانوس والدونمة. ومن أهم هذه التغييرات، ما يلي:

ا- الاكتفاء بالحد الأدنى من الأدعية والصلوات، مع تلاوتها باللغات الوطنية: وهذا في انتظار أن تندثر مع الأيام وحدها، ومن دون إثارة للشكوك.

ب- نبذ الترانيم العبرية والآرامية القديمة: لفصل المتديّن تبعا لذلك عن تاريخه.

ج- إدخال الآلات الموسيقية وفرق الإنشاد الجماعي (كورال) من الذكور والإناث؛ مع التجديد في التأليف الموسيقي فيما يتعلق بألحان الترانيم. وانتهى هذا التطوير بإدخال الأرغن إلى المعابد، اقتداء بالكاتدرائيات والكنائس النصرانية. والتقريب بين ما عليه النصارى، وما عليه اليهود، هو أمر مقصود، من أجل بلوغ تمام الانصهار في العلمانية الخالصة من قِبل الجميع.

د- عدم ربط القول بالخلاص، بإقامة دولة يهودية في فلسطين: وهم بهذا، مفارقون للصهاينة ماضيا وحاضرا. والارتباط بفلسطين، أمر ضروري لليهودي من جهة تديُّنه؛ لا من جهة صهيونيته التي حرفت معنى هذا الارتباط، وجعلته غاية لإقامة الدولة اليهودية عن غير إذن إلهي. وهو ما سيجر عليهم البلاء الشديد، بسبب إضافة هذا العصيان إلى عصيانهم الأول. وإن كثيرا من فرق اليهود، تعي خطورة ارتداد أمر الدولة اليهودية على اليهود؛ ومنهم من يُحاول تدارك الأمر قبل فوات الأوان، عن طريق التوعية بحسب مستطاعهم. غير أن الخطاب الصهيوني سيجد منفذا إلى عوام اليهود، وسيأخذهم في طريق مختلف عن كل ما وقع التبشير به. ومن عجيب أمر الصهاينة، تمسكهم بالأرض المقدسة، مع تخليهم عن الدين!... على الأقل عند شطر كبير منهم.

هـ- مخالفة جميع فرق اليهود، باعتقاد أن الشتات خير لليهود: وأنهم باستطاعتهم -حسب زعمهم- الدعوة إلى دينهم في كل الأوطان. وهذا أمر جيد، لو أنه بقي عند هذا الحد!... ولكن، كما هو جلي، فإن هذا الخطاب كان مرحليا، ولم يكن مبدئيا.

و- وبما أنهم قد صرفوا النظر عن إعادة بناء الهيكل في أورشليم، فإن كل معبد من معابدهم، في أوطانهم المختلفة، يُسمى عندهم هيكلا: وهذا أيضا جيد، لو أن الأمر وقف عند حده؛ ولكن سيظهر ما لم يخطر لليهود -فيما بعد- على بال.

ز- إباحة الاختلاط بين الذكور والإناث في المعابد: وهذا إمعان في امتهان الشريعة، وفي التقليل من قيمتها. وهو ما سيؤول بالعلمانيين الذين اكتملت تربيتهم، إلى نبذ الدين جملة، كما سبق أن ذكرنا.

ح- الاهتمام بالخطبة داخل المعبد: فهم إلى جانب "الحزان" الذي يُشرف على الطقوس، يُعيّنون خطيبا ذا سعة في الفكر وذا قوة في التأثير، يُسمونه "مَطّيف". ومن أشهر الوُعاظ الذين عُرفوا لديهم: "أبراهام جايجر"، الذي تولى هذا المنصب بمدينة فيزبادن الألمانية. وهو من عمل على نشر مجلة ناطقة بعقائد الإصلاحيين، ابتداء من عام ١٨٣٢م، اسمها: "الصحيفة العلمية للاهوت اليهودي". وفي سنة ١٨٣٨م انتخبته طائفته حاخاما أكبر لها في مدينة برسلو منافسا لحاخامها القديم "تيتكين". وقد أحدث هذا الانتخاب انقساما حادا في صفوف اليهود أيامه، ولا يخفى معه ما كان يسم عمل الإصلاحيين من تحدّ وثورية، سيقلبان الواقع اليهودي رأسا على عقب. وهذا العمل كان ابتداعا فيما هو في الأصل من الشعائر!... وإن تنصيب الخطيب، لم يكن يقصد إلا إلى تقوية العلمانية في الأذهان، انطلاقا من المعابد، وعن طريق الديماغوجيا والأدلجة. وهو أمر قد نجح فيه أصحابه، ووصلوا إلى غاياتهم منه.

وأول هيكل خُصص للطائفة، هو الذي هيأه في بيته اليهودي الإصلاحي "إسرائيل يعقوبزون"، وكان ذلك في "زيزن" بألمانيا. ثم هيأ هو نفسه هيكلا آخر، في بيته ببرلين سنة ١٨١٥م. وفي سنة ١٨١٨م شهدت الطائفة تشييد أول هيكل يُبنى خصيصا لإقامة الشعائر، في الثغر الألماني الكبير "همبورغ"، وكانت الصلوات فيه تُقال بالألمانية لا العبرية. ولقد فرضت طبيعة هذه الطائفة عليها نشاطا دؤوبا أوفت به، فكان أقطابها يجتمعون في مؤتمرات عامة، وكان من أوائلها مؤتمر في "برنشويج" وآخر في فرانكفورت، وثالث في برسلَو من ١٨٤٤م إلى ١٨٤٦م. والذي كان يُحتم هذا النشاط، الرسالة الضخمة التي كان أهل هذه الطائفة يستشعرونها تجاه اليهود، الذين كان كثير منهم يتحول إلى النصرانية طلبا للسلامة، ورغبة في الاندماج؛ كما كان يهود أوروبا الشرقية، قد بدأوا يتوجهون إلى فلسطين، ويهاجرون إليها تلك الهجرات الأولى، التي سجلها التاريخ تحت اسميْن هما "بيلو"، و"حب صهيون". هذا إلى جانب يهود "الغيتو" ويهود أسواق التجارة والأوراق المالية، الذين لا يعبأون بشيء من كل ذلك في الأغلب؛ ثم اليهود التقليديون الذين يعرفون الدين والتاريخ، ويسيرون بالشعب اليهودي في طريق معيَّن مرسوم، أخذوه عن شيوخهم ليضمنوا لأنفسهم به السبق والصدارة؛ وهم من انبثقت منهم الصهيونية فيما بعد، وعندما آتت الحركة الإصلاحية ثمارها.

وكان على الإصلاحيين أن يواجهوا أيضا العالم غير اليهودي، مطالبين الأمم الأخرى بالشرائع الضرورية للاندماج والمواطنة. لهذا كله، لم تكن أمورهم هينة دائما، بل لقد لقوا معارضات شديدة كانت أولاها من الداعية العنصري الصهيوني "سمولينسكين" ومدرسته التي ضمت جماعة من أمثال الكاتب والمفكر الصهيوني "موسى هيس"، ومن قبله الحاخام المتطرف "تسفي كاليشر". وفي غمرة هذه الصراعات، كانت تحدث بعض الأخطاء، ولعل أكبرها من جانب الإصلاحيين: أنهم لم يبذلوا جهدا كافيا لمحاربة اليهودية المتعصبة في أوكارها في أوروبا الشرقية، مكتفين بألمانيا والنمسا وبعض بلاد أمريكا وأوروبا الغربية. وقد حدث في أواخر القرن الثامن عشر، أن ظهر كتاب في الشريعة اليهودية منسوبا إلى أحد علماء القرن الرابع عشر، والذي هو "الربي آشر بن يحيئيل"، وطبع في برلين سنة ١٧٩٣م، بعنوان "بساميم روش"، أي عطور الربي آشر. فوجد فيه اليهود الأرثذكس كثيرا من التشريعات المتساهلة المتطورة التي تعني أنهم هم من كتبوه. فمن ذلك قولهم بتحليل أكل الأرز والبقول الجافة في أيام الفصح؛ خلافا لما كان الأمر عليه؛ وتحليل شرب اللبن والنبيذ عند الغوييم، وهو أيضا من المحرمات. وقالوا بإلغاء بعض أيام الصوم أو تخفيفها، كصوم "إستير" والتاسع من آب، الذي هو ذكرى تخليد خراب الهيكل الثاني عام ٧٠ م. كما ورد فيه تحليل الانتقال بالعربات يوم السبت، وقد كان محرما... وقد أسفر التحقيق فيما بعد عن أن مؤلف هذا الكتاب، هو الحاخام الإصلاحي "شاءول" بن الحاخام الأكبر لبرلين "هيرشل ليفين". وقد أدى هذا الالتباس الناشئ عن الانتحال، إلى إحجام كثير من اليهود عن حركة الإصلاحيين، وإلى استغلال اليهود المتشددين لكل ذلك، من أجل ترسيخ مبادئهم. ومن هذا الصراع، خرجت الصهيونية، تدعي أن لديها الحل الأمثل

لمشاكل اليهود، وهو إنشاء وطن لهم في فلسطين، يعيشون فيه مواكبين للتقدم العالمي، من دون أن يُضطروا إلى تغير لغتهم أو تقاليدهم أو شريعتهم؛ فهي تزعم بذلك إرضاء المحافظين من اليهود والإصلاحيين جميعا. ورغم أن النتيجة كانت في نظر الدارسين عكسية؛ بحيث لم تُرض أيّا من الفريقين؛ مع إضافة أعداء جدد إلى اليهود، كانوا بالأمس من أوفى الأصدقاء، هم العرب والمسلمون، بكل حجمهم التاريخي والسياسي والاقتصادي في العالم؛ إلا أننا نؤكد، أن المرحلة الإصلاحية كانت مقدمة منطقية للصهيونية؛ سواء أعلم اليهود بذلك، أم بقي الأمر بين نخبة متحكّمة، كما هي العادة. وأما الصهيونية فإننا سنتناولها في موضعها إن شاء الله...

١٣. الفلاشة: وهم طائفة صغيرة تتبع الشريعة الموسوية بصورة مخصوصة بها، وتعيش في الحبشة، وهذه الطائفة لها أهمية في نظر دولة إسرائيل، لكونها مدخلا محتملا إلى القارة الأفريقية. والفلاشة مثال على عدم صحة القول بالعنصر اليهودي، لأنهم لا صلة لهم من جهة العرق باليهود، كما لا يخفى؛ بل هم أفارقة أقرب ما يكونون إلى النصارى والمسلمين والوثنيين. وهم لا يعرفون اللغة العبرية، ولا يؤمنون بالمشنا والتلمود؛ ولكنهم يؤمنون برسالة موسى عليه السلام ومَن بعده من الأنبياء. ويقيمون السبت، ويحتفلون بجل الأعياد، ويعملون بالشرائع العامة المشتركة. ولهم معابد خاصة بهم، يقوم بالخدمة فيها كاهن يُسمى "نازير"؛ وهي لفظة عبرية تعني المنقطع للعبادة (نذير). ووظيفته عندهم، كوظيفة الحاخام، ويُشترط عليه أن يكون متزوجا. وعندهم من رجال الدين صنف يسمونه "كوهين"، وهي كلمة عبرية معناها الكاهن؛ ولكنها تعني عندهم المأذون بالذبح الشرعي، وله مساعد يُسمونه باليونانية المحرفة "ديبتيرا". والمحاولات مستمرة من قِبل دولة إسرائيل، من أجل استقطاب يهود الفلاشة، وتعليمهم في الأوساط الصهيونية ليكونوا طليعة عملاء إسرائيل في الحبشة. ولا زال الدارسون إلى الآن، لم يحسموا فيمن هَوَّد الفلاشة: أهم يهود اليمن؟ أم يهود مصر؟... ولعل الأيام القادمة ستُسفر عن جواب هذا السؤال، لتتضح مكانة هذه الطائفة في الخارطة اليهودية العالمية...

١٤. بنو إسرائيل: وهذه فرقة من اليهود توجد في الهند، ويُقيم أكثرهم في ضواحي بومباي. وإقامة هؤلاء اليهود هناك، تعود إلى ما قبل العصور الوسطى. فقد ذكرهم الرحالة اليهودي الأندلسي "بنيامين التطيلي"، كما ذكرهم "موسى بن ميمون" أيضا. وهم يؤمنون بالكتاب المقدس، ولكنهم لا يعرفون التلمود، كشأن كل هذه الفرق الصغيرة النائية. ويُقال إن السبب في تسميتهم "بني إسرائيل"، هو أن العرب المسلمين لما دخلوا الهند، وجدوا هؤلاء القوم ملتزمين للشريعة الموسوية، ووجدوا في معاملتهم من الاستقامة، غير ما عهدوا من اليهود، فسموهم بني إسرائيل. ولهذه الفرقة نظيرة لها في الصين تُسمى باسمها أيضا. وهم يعيشون على طريقة الصينيين فيما عدا العبادة؛ إذ لهم معابد يُصلون فيها يوم السبت أمام هيكل خشبي يُسمونه "عرش موسى".

١٥. الطائفة الصهيونية: وهذه الجماعة ليست طائفة بالمعنى العائد إلى العقائد الدينية، بقدر ما هي تيار أيديولوجي يوظف الدين لبلوغ غاياته. وبما أن غاية الصهاينة ليست مرضاة الرب ولا الفوز بالجنة، فإنهم جعلوا غايتهم دنيوية صرفا، هي إقامة دولة إسرائيل، والتحكم في العالم من هناك. وعلى عكس ما تدل عليه التسمية، فهم لا صلة لهم بيعقوب أو بشريعة موسى؛ ما دام جلّهم علمانيين متطرفين. وإزاء هذا الوضع المبهم، ينبغي أن نفتش في جذور هذه الحركة، من أجل الوقوع على أصلها الحقيقي، ومن أجل تبيّن غاياتها الكامنة وراء شعاراتها الدينية الجوفاء، والتي لن تظهر للعيان إلا عند اكتمال المشروع الصهيوني بجميع مراحله. وأول من دعا إلى الصهيونية، بعد إتيان مرحلة الإصلاح أكلها، هو "تيودور هرتزل" (بنيامين زائيف)، الذي نشر كتابه "دولة اليهود" عام ١٨٩٦م، بوصفه حلا لمشكلة اليهود في أوروبا، وفرارا من مواجهة حركة "معاداة السامية" هناك. وبما أن للصهيونية اليهودية أُختيْن من الرضاع، هما: الصهيونية النصرانية، والصهيونية الإسلامية، اللتان ستظهران بعدها بقليل؛ فإننا سنرجئ الكلام عن تفاصيل ما يتعلّق بها، إلى أن نفرغ من تناول العقائد

النصرانية والإسلامية جميعا؛ حتى يسهل على المتتبع إدراك المشتركات القوية، رغم الوهم المسوَّق عالميا، والقاضي بعدم تلاقي هذه الملل الثلاث؛ بل بعدم إمكان ذلك التلاقي.

وهكذا نكون قد أنهينا الباب الأول المخصص لعقائد اليهود عبر تاريخهم كله، المتعلّق بالزمن الموسوي خصوصا؛ وسندخل الآن في المرحلة الجديدة لبني إسرائيل، والتي جاء عيسى عليه السلام ليدلّهم عليها، بعد أن نفد منهم الزاد الرباني. وبعد أن أشرنا إلى فِرقٍ معدودة من اليهود، آمنت بعيسى على طريقتها، من دون أن تتخلى عن الموروث اليهودي الديني؛ فإننا سنقصر الكلام فيما سيأتي على المسيحيين وحدهم، لنتعرف على فرقهم وعلى صورة تطور عقائدهم من زمن رفع عيسى إلى أيامنا هذه. وسنعمل -كشأننا مع اليهود سابقا- على تتبع العقائد النصرانية في الفرق الإسلامية من باب الإشارة إلى المشترك العقدي من وراء مظهر الشريعة، لتتضح وحدة الدين لدى الملل الثلاث؛ ولتبرز مراتبه بالنظر إلى كل ملة بحسب ما يغلب عليها، مما هو من أثر حقيقة رسولها خاصة...

الباب الثاني

نشوء العقائد النصرانية وتطورها

الفصل الأول
جوهر الدعوة المسيحية

إن بني إسرائيل بعد انصرام القرون الطويلة التي فصلتهم عن موسى عليه السلام، وبعد مُضيّ المجددين من الأنبياء المتعاقبين، قد استدعى أمرهم أن ينتقلوا إلى مرحلة رساليّة جديدة، يُكمِل فيها معهم الرسول الجديد، الذي هو عيسى عليه السلام، ما سُمي بحق "العهد الجديد"، الذي هو المرحلة المتوسّطة من الدين، بالنظر إلى البشرية جمعاء. ومعنى العهد الجديد، هو إعادة أخذ الميثاق من الله، على بني إسرائيل مرة أخرى، ومن جديد، بعد أن استنفد العهد القديم أغراضه وزمنه، وأخفق بنو إسرائيل في الوفاء به. وهذا يعني أن العمل بالشريعة الموسوية قد انتهى، وأنّ كل عامل بها يكون الآن غير مأجور على عمله من جهة، ويكون غير مستمدّ للنور الرباني من جهة أخرى. فالعامل للأعمال الدينية من هذا الصنف هو داخل حتما في وصف الله لقوم، بقوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ . تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً} [الغاشية: ٢ - ٤]؛ فالعامل ليس فاقدا لنتيجة عمله فحسب، وإنما هو من المستوجبين دخول النار، إن هو لم يتبع الرسول الجديد، وفق العهد الجديد. وكل ما سيبقى من التشريع الموسوي هو الصورة الظاهرة وحدها، التي لا تختلف عن صور التديّن الوضعية التي تكون للشعوب غير الكتابية، إلا ما يكون من اعتبار الأصل الرباني فحسب؛ لأن ما كان من وضع الله، لا يستوي أبدا بما يكون من وضع العباد. وعيسى، هو من سيدل على كيفية العمل بالشريعة الآن، ويدل على ما زاد على ظاهرها، مما هو مطابق للمرتبة الدينية الجديدة التي سيُدعى الإسرائيليون إليها. لكن المبتدئين، لا بد أن يبدأوا دائما من البداية، التي هي المرتبة الأولى من الدين؛ سواء أكانوا مع موسى أو مع عيسى أو مع محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وذلك لأن مراتب الدين، يترتّب بعضها على بعض، ويكون بعضها نتيجة لبعض؛ وليس الدين أجزاء منفكة، يتمكن المرء من ولوج أيِّها شاء، متى شاء.

وهذا يعني أن بني إسرائيل في عمومهم، قد صاروا أكثر استعدادا على زمن عيسى، مما كانوا عليه زمن موسى؛ رغم حال الانحطاط العام؛ وهو يعني أيضا، أنهم قد صاروا قابلين للترقي بالمدد العيسوي إلى مرتبة أعلى، بالنظر إلى استعداداتهم عند مقارنتها إلى أسلافهم. هذا فيما يتعلق بمن سيؤمن بعيسى منهم؛ وأما من سيكفرون به، فإنهم سينزلون بكفرهم عن مرتبة الإسلام العامة التي كانت لهم زمن موسى، إلى الكفر العام الذي يكون عليه جميع الكافرين والمشركين. وحال هؤلاء، هو كمن قطع شوطا من الطريق نحو غايته، ثم عاد وطفق راجعا على أدراجه، وإن بدا له أنه متمسك بما وصل إليه؛ كما يحدث في الغالب مع أصحاب العصبية الدينية. ولا يهم هنا أن يكون العبد مُدركا لما نقول، أم غير مدرِك له؛ لأن الحكم سارٍ سواء أَعَلِم العبد أم لم يعلم. ولهذا، فإن عملية اتباع الرسل ينبغي أن تكون على وجه الموافقة، ولو من دون فهم؛ لأن في اتباعهم ما لا تُدركه العقول من فوائد، وما لن تظهر نتائجه إلا في الآخرة. وقد جهل كثيرون، عندما نظروا إلى الرسل، كما ينظر المتأدلج إلى زعيمه؛ وقاسوا هذا على ذاك فضلوا. وما تفطنوا إلى أن الطريقيْن مختلفان، وبالتالي فإن أحكامهما لا تكون واحدة، ونتائجهما لا تكون واحدة أيضا. نقول هذا لأهل زماننا خصوصا، من أهل الملل الثلاث؛ لأنهم صاروا يخلطون بين الأحكام العقلية والأحكام الشرعية، فما عادوا يعلمون بذلك الخلط أين هم سائرون. بل إن جل المتديّنين، لا يستغنون عن أحكام عقلية في تديّنهم، بسبب اختلاط الطريقين عليهم، وبسبب ضعف إدراكهم. وهذا النمط من

التديُّن، قد أخرج كثيرين إلى الأيديولوجيا الدينية، من الدين؛ وهم يظنون أنهم باقون على الأصل. ولن نطيل في هذه المسألة، لأنها واضحة جلية، ولا تحتاج كثير كلام.

وإن عيسى عليه السلام، قد دعا إلى معاملة الله في رسالته، على وجهيْن: الأول عند تحقيق الإخلاص لله في جميع الأعمال، عند اعتبار باطنها؛ والثاني عند معاملة الحق في صورته، بعد أن كانت المعاملة غيبية بصورة شبه كلّيّة. ومن الوجه الأول كانت دعوته عليه السلام، إلى روح الأحكام، بدل الاكتفاء بصور الأعمال؛ وكان تبصيره بالنية وما لها من أثر في المآلات. ولهذا، نهى عليه السلام عن اتباع سبيل أحبار بني إسرائيل، الذين صاروا حُرّاسا لصور الأعمال وحدها، وحادوا عن روح التشريع فضلّوا. وهم بهذا الفعل، صاروا كأنهم يعبدون الشريعة، ولا يعبدون ربها؛ وصاروا يؤلّهون الدين لا ربه. ونعني من هذا، أن العباد عندما ينقلب الدين لديهم نمطا رتيبا، تُراعى فيه الأمكنة والأزمنة والأشخاص، ولا يُعامل فيه الله؛ فإنه يصير صنما معنويا يُعبد من دون الله، ويصير الفقهاء سدنة في معبد ذلك الصنم. وهذا الصنف من التديُّن، يقطع العباد عن ربهم، بعكس ما كانت الحكمة من الدين عند أصل وضعه. وهو ما يدعو إما إلى تجديد داخل الشريعة الواحدة، كما هي الحال مع الشريعة المحمدية في جميع القرون، وإما إلى تجديدٍ شامل، برسالة أخرى غير السابقة؛ كما حدث مع الرسل السابقين في تعاقبهم على إمامة الدين، عليهم السلام أجمعين. وهذا الذي وقع لبني إسرائيل قُبيل البعثة العيسوية، هو عينه ما سيقع للنصارى بعد القرون الستة الأولى منها، وما سيقع فيه المسلمون أيضا بعد القرون الأولى من البعثة المحمدية، وإن اختلفت الصور. ولو لم يكن أمر التجديد ضروريا لبقاء الدين حيّا، لما نص عليه التشريع المحمدي وهو التشريع الخاتم الكامل الغني عن إتيان رسالة بعده. ونعني من هذا، أن التجديد إن كان ضروريا مع التشريع المحمدي، فهو أكثر ضرورة مع الشرائع السابقة، التي لم تكن قد بلغت كمالها بالنظر إلى حقيقة الدين بعدُ. وقد جاء في هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ إِلَى هَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ، مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا.»[1].

ومن شدة دلالة عيسى على باطن الأعمال، توهم قوم من أتباعه أنه قلّل من قيمة الشريعة، فاستهانوا بها. فمنهم من نبذها كلية، مقتصرا على ما يُسميه إيمانا؛ ومنهم من أبقى على بعض معالمها. والحقيقة هي أن عيسى لم يترك العمل بالشريعة الموسوية، ولا دل على تركه؛ وإنما كان يحكم ببطلان الأعمال عند فقد النية أو عند تحريف الحكمة والقصد منها، ليس غير؛ أي، كان يحكم ببطلانها، عند فقد شروط صحتها، فحسب. وعلى العكس مما قد يفهمه الضالون، إن ما دل عليه عيسى من معاملة لله، لا يكون إلا في قوالب الأعمال المشروعة كلها لا خارجها؛ وإلا عاد الدين صياغة شخصية يستقل بها الفرد أو تستقل بها الجماعة. ونخُصّ هنا، ما كان منها ثابت الصورة (الشعائر)، وما كانت صورته منفتحة؛ كما هو الشأن مع أعمال البر التي لا يُنشئها العبد ابتداء، ويكون فيها مستنّا بسنن الأنبياء عليهم السلام. وهذا المعنى، هو ما يُشير إليه قول الله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠].

وأما من جهة معاملة الحق عن إيمان (عند فقد الشهود)، فإن عيسى قد دل على صورته التي هي مظهر الحق في زمانه، ليُقرّب الأمر إلى قومه. وهذا المعنى، هو ما ذكره الله عن نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} [البقرة: ١٨٦]؛ ليدل سبحانه على أنه هو الظاهر بالصورة، لا غيره. ولا قرب أقرب من هذا القرب، في المعاملة؛ إلا ما يكون من باب التحقُّق لأربابه. فكانت دعوة عيسى للناس، إلى أن يُعاملوه على أنه الحق. فمن الناس من فقه ذلك كالحواريين، وانتفع من ذلك الإيمان التفصيلي الجديد على بني إسرائيل؛ ومنهم من دخل عليه القياس العقلي والوحي الشيطاني؛ فإما قال بألوهية المسيح (من دون الله) من أحد الطرفين، وإما كفر بالمسيح من

[1]. أخرجه أبو داود والحاكم (في المستدرك)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الطرف الآخر؛ وكلا القولين كفر. وكما لا يخفى، فإن القائلين بألوهية المسيح، لم يسلموا من السطحية في النظر، ولا من التلفيق الذي هو حيلة الضعفاء، في مثل هذه الحال. والفرق بين الألوهية الأولى (الحق) والثانية (الباطلة)، هو أن الأولى تكون عن إيمان، وأن الثانية تكون عن إسلام وقع الارتداد عنه بفعل النظر. والعلامة الفارقة بين أهل الصنف الأول وأهل الصنف الثاني، هي أن الأولين الذين يُعاملون الحق في عيسى عن إيمان، لا يحتاجون إلى تقعيد للعقائد؛ لأن معاملتهم ستكون من أسلس المعاملات ومن أوضحها؛ ومن دون أن تُتكلّف العبارة لوصفها. وأما الآخرون، فإنهم يدخلون بعقولهم فيما سمعوا؛ وسواء أكانوا من المؤمنين بما سمعوا في البداية، أم من المسلّمين به جدلا، إلى أن يحكم عليه النظر؛ فإنهم لن يستغنوا عن إعمال عقولهم، بحسب منطقها وما ألفته من منهجيات في النظر؛ لإثبات ما وجب الإيمان به من كون المسيح هو "الله". وهذا كله سيكون خروجا عن طريق الإيمان، إلى طريق "الفكر الديني"؛ والذي يؤدي إلى الأيديولوجيا الدينية في النهاية؛ عند ثبات صورته في الأذهان، كما وقع مع الجماعات المسيحية الأولى. وهو ما سيكون سببا في اختلاف المسيحيين في حقيقة عيسى، فيما بينهم؛ ثم إلى إقرار صورة مطابقة منها لعقولهم، وردّ الصور الأخرى فيما بعد. وهذا بالتأكيد، ليس هو ما دعا إليه المسيح عليه السلام، ولا هو الغاية من الدين!...

وأما من جهة المخاطَبين، فإن عيسى لم يأت إلا إلى بني إسرائيل، كما بيّنّا في الجزء الأول من هذا الكتاب؛ خلافا لما يُشيعه المتعصبون من النصارى، الذي يزعمون أنه بُعث إلى الناس كافة. وذلك لسبب وجيه، هو أن بني إسرائيل وحدهم من كانوا مؤهلين لقبول دعوته، بعد أن أحكموا (شطرهم) مع موسى المرتبة الأولى من الدين، والتي قوامها: الإيمان المجمل، والعمل وفق الشريعة. ولو افترضنا أن رسالة عيسى توجهت إلى غيرهم، لكانوا غير مؤهلين للأخذ عنه، من جهة كلالة الاستعداد، ومن جهة غياب الإذن الإلهي معا. هذا باعتبار القاعدة، وإلا فقد توجد استثناءات لا تخضع للقاعدة دائما. وهذا أمر يُغفله الناس، ويظنون أن كل رسالة هي خطاب عام لكل الناس؛ لا لسبب إلا لأن الرسول من جنس بني آدم، ولأن المدعوّين من إخوانه في الآدمية؛ وكأن المعاني الدينية أمر مشترك متعلّق بالصورة الطينية، لا بالصورة المعنوية!... وهذا قياس خاطئ، قد تسبب في ضلال الشطر الأكبر من البشر، على مرّ العصور.

وبما أن لبّ الدعوة العيسوية هو الإيمان المُفصّل، فإن التديُّن بحسبها سيدور على أحوال الإيمان ومقاماته. وحتى يتضح الأمر، فإنه ينبغي أن نعود إلى التعريف المحمدي لمرتبة الإيمان، لكونه صلى الله عليه وآله وسلم الداعي إليها من وراء الصورة العيسوية، من جهة ختميته. يقول صلى الله عليه وآله وسلم في تعريف الإيمان: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.»[1]. ولا بد هنا من الإشارة –ولو باقتضاب– إلى هذه الأركان، حتى نتبيّن جوهر الدعوة العيسوية من الناحية العلمية.

١. الإيمان بالله: وأول ما ينبغي التنبه إليه، هو أن عيسى دعا إلى الله دعوة خاصة؛ تجعل المستجيب له من بني إسرائيل، على الرغم من إيمانه السابق، كأنه يؤمن لأول مرة؛ لأنه إيمان في إيمان، بعد أن كان إيمانا في إسلام. وهو ما يُشير إليه قول الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء: ١٣٦]. وهذا –كما أخبرنا مرارا– لا يُعرف إلا ذوقا؛ لأن الكلام من جهة ظاهره، لا يُعطي فرقا بين "الإيمان بالله" الأول و"الإيمان بالله" الثاني. وهذا ينبغي أن يدل الناظرين، على مفارقة العلوم الدينية للعلوم العقلية؛ حتى يفرقوا بعد ذلك بين طريق النظر وطريق التديّن تفريقا حقيقيا. وهذا الإيمان بالله الذي هو من المرتبة الثانية، هو ما سيمكّن المؤمنين بعيسى من معاملة الله معاملة أصدق من

[1] . أخرجه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الموسويين. والسبب في ذلك، هو أن الحجاب الذي بينهم وبين الله، قد صار أرق مما كان عليه؛ لكون القرب صار أشد. هذا، مع التأكيد على أن أهل المرتبة الثانية، ما زالوا على حجاب في معاملتهم، رغم ذلك كله؛ ولكن لا على الكثافة الأولى ذاتها، كما قلنا. ونحن نقول هذا، حتى يُدرك القارئ أن نهاية الدين (الطريق)، ليست هي هذه؛ وإنما هي ما سيدل عليه فيما بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم، عند اكتمال الدين وتمام النعمة به وعلى يديه. وعلى هذا، فإن أتباع عيسى عليه السلام، ونخص هنا الحواريين، لم يكونوا على شهود في معاملتهم؛ وإنما كانوا على إيمان فحسب. ولو أنهم كانوا على شهود، لما ضلوا بمقولاتهم المضطربة فيه؛ ولمَا دخل على أتباعهم النظر والوحي الشيطاني فيما بعد. وذلك لأن النظر العقلي، لا يخوض إلا في المعاني الغيبية (العقلية المجردة). وعندما تكون المعاني مشهودة، فإن العقل يكتفي بالمشاهدة والتعقّل. وهذا من أهم الفروق بين السبيليْن.

ولما كان الإيمان بالله من مرتبة الإيمان يُعطي حال التوكل، فإنه قد ظهر على المسيحيين، ما لم يكن للموسويين خبر عنه فيما قبل. وهذا هو ما جعل أتباع عيسى يثبتون في معاملة الله عند الشدائد والابتلاء، خلافا للموسويين الذين كانوا في كل مرة يُخالفون رسولهم ويخرجون عن طوعه؛ وربما يتبرأون منه ويتركونه وحده، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: {قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [المائدة: ٢٤، ٢٥].

٢. الإيمان بالملائكة: وهم الوسطاء بين الله وعباده في الأفعال. ونعني من هذا أن الله عندما يخلق فعلا من أفعاله، فهو يأمر الملائكة المسخرين بإبراز ما يُناسب من ذلك الفعل في عالم التكوين. ولما كانت الأفعال عائدة إلى الأسماء الإلهية، فإنه طبقا لذلك، يكون لكل اسم من الأسماء، ملائكة مخصوصون تحت تصرفه، بها يظهر أثره في الكون. ولقد كان الموسويون، يعلمون من الملائكة صفة التسبيح وحدها، بحسب ما يُعطيه الإيمان المجمل الذي كانوا عليه؛ وأما العيسويون، فإنهم سيؤمنون بأن الله يُسخر ملائكته في كل ما يتعلق بهم وبالعالم من حولهم. وهم (أي الملائكة) في مقابلة الشياطين، من جهة الدلالة على الخير، لا من جهة الفعل؛ لأن الشياطين لا فعل لهم في الأكوان كما للملائكة؛ بل هم من جملة المفاعيل؛ وإنما لهم الدلالة على الشر، أو لهم الفعل الطبيعي بحسب أصل خلقتهم النارية، كما يكون ذلك للآدمي في حدود طبيعته الترابية. ومن كان على هذا الإيمان، فإن توكله يزيد، لعلمه بأن الله مؤيّدُه بما لا تراه عينه، ولا تبلغه حواسه. وهو ما ذكره الله في مثل قوله تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ . بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [آل عمران: ١٢٣ – ١٢٦]. وهذه الآيات، فيها دلالة إيمانية لأهل الإيمان؛ وفيها دلالة شهودية لأهل الشهود والتوحيد الخاص. وأما الدلالات العددية، فهي تُعطي أن الثلاثة آلاف هم ستة وثمانون صفا من ملائكة العزيز، برؤسائهم؛ وأن الخمسة آلاف، هم ثمانية صفوف من ملائكة الحكيم برؤسائهم. ونسبة الثلاثة آلاف إلى الألف الذي كان عدد مقاتلي الكفار، تكاد تكون هي نسبة عدد الكفار إلى عدد مقاتلي المؤمنين؛ حتى يكون التأييد على قدر الفارق، حكمة إلهية. ولولا أن جل القلوب كانت تعمل على إيمان، إبان معركة بدر، ما احتاجت إلى شيء من الإخبار تطمئن به؛ لأنها سترى التأييد عيانا!...

٣. الإيمان بالكتب: والكتب كما ذكرنا في موضع سابق من هذا الكتاب، هي الصورة العلمية لحقائق الرسل. والاختلاف بين الكتب، هو من الاختلاف بين الرسل ولا بد. وكل مؤمن بكتاب، لا بد له من الإيمان بالكتب التي قبله، لكونه يتضمنها. وهذا من باب تضمن كل تجلٍّ، لكل التجليات التي قبله؛ وهو سر من الأسرار الإلهية. ومن لم يؤمن بالرسل

الذين يسبقون رسوله، لا يكون على الدين الحق المتسلسل عبر الزمان. ومن هنا كان لا بد للمسيحيين من الإيمان بموسى وكتابه؛ خصوصا وأن التوراة لم تُنسخ من قِبل عيسى، كما ذكرنا. وهذا يعني أن عيسى من جهة ظاهره، كان هو موسى ذاته؛ ولولا هذا الجمع في الظهور، ما ادّعيت فيه الألوهية عند مجاوزة موسى بالنظر. وذلك لأن اجتماع الصور يُعطي انتفاء معنى الصورة حكما؛ بسبب الاختلاف الذي بينها. وانتفاء الصورة يُعطي ظهور الحق من ورائها حُكما، مع بقاء شبهتها. وقولنا ببقاء شبهتها، هو للدلالة على امتناع مشاهدة الحق في غير صورة حسية أو عقلية. وأما الكتاب الخاص بعيسى فهو الإنجيل؛ وهو كما يدل عليه معنى اللفظ بشارة منه بتجلي الحق الأكمل. وهذا المعنى هو ما دل عليه قول الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [الصف: ٦]؛ فالتبشير هو بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي هو صورة الحق الأصلية والتي هي أكمل من كل صورة غيرها. ولو لم يكن عيسى من محمد، بمثابة اللفظ من المعنى في زمانه، ما صح له هذا التبشير، ولا فهم عنه أتباعه لبّ دعوته. وهذا يدل على أن الإنجيل، كما كان مكمّلا للتوراة، فإنه كان توطئة للقرآن بعده أيضا. ولهذا السبب كان التفريق بين الكتب والتفريق بين الرسل، من صور الكفر الصريحة، التي لا يجهلها إلا من لا علم له بالدين. يقول الله تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ} [البقرة: ١٣٦، ١٣٧]؛ والشقاق هنا: الكفر؛ لأن الإيمان مواصلة، كما سبق أن بيّنّا. وحال هذا الركن يُعطي قراءة صورة الرسول كما يُقرأ الكتاب، ويُعطي علم المطابقة بين الصورتيْن: الإنسانية والكتابية. ومن هذا الباب كان إخبار السيدة عائشة عليها السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، عندما سألها سعد بن هشام بن عامر (التابعي): "يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ! أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقالت: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ! أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}؟"[١]. ومعنى قول الله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤]، هو: إنك على خُلُقي؛ لأن الخُلق العظيم لله العظيم وحده. ولولا هذا، لم يكن صلى الله عليه وآله وسلم الصورة الأصلية التي دللنا عليها أكثر من مرة؛ وهي الصورة التي يراها عيسى عند مشاهدته لربه، فيُشير إليها بـ "أبانا الذي في السماوات"، عند الدعاء. ولم نر أحدا دل على هذه الحقيقة، كما دللنا عليها نحن بحمد الله.

٤. الإيمان بالرسل: وهو الإيمان بالصور الشخصية للكتب، كما سبق أن أوضحنا. وعلى هذا، فإنه يكون من العبث القول بالإيمان بالتوراة مع الكفر بموسى، والعكس؛ أو القول بالإيمان بالإنجيل مع الكفر بعيسى، والعكس. أما محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فالإيمان به وبالقرآن، متضمن لكل جنس الإيمان، ولكل ما تفرق في الأمم السابقة جمعاء؛ مع زيادة خصوصية الجمع المحمدي. لذلك، فإنه من المحال أن يجتمع هذا الإيمان، مع الكفر بواحد من الرسل السابقين، أو الأنبياء الأولين، أو أحد الكتب المنزلة من عند الله. ويجد ذلك المؤمنُ بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم من دون عناء، مع أنه لا يتنبه في غالب الأحيان لسببه. وهو من أقوى الدلالات الواقعية، على ختميته صلى الله عليه وآله وسلم. ومن أعجب ما يكون من ذلك، أن تجد المحمدي يؤمن بمن بلغه ذكرهم من الرسل والأنبياء، كما يؤمن بمن لم يبلغه ذكرهم!... إيمانا عاما جامعا... فالحمد لله على نعمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم الكبرى. ومن علم انتهاء الصور في زمانه، إلى صورة رسوله، فإنه سيجعل توجهه إليها؛ من وراء حجاب الإيمان في البداية؛ لتصح له المرتبة المدعو إليها. وأما من أدرك زمن البعثة المحمدية، فإنه لا بد له من اجتماع كل الصور الإلهية له في الصورة المحمدية. ومن لم يظفر بهذا المقام، فليعلم

---

[١]. أخرجه أحمد في مسنده.

أنه من يهود هذه الأمة أو من نصاراها أو غيرهم، من جهة المعنى؛ وليس من المحمديين إلا من جهة النسبة الظاهرة. وهذا عِلم قد انحجب عنه فقهاء الأمة، فانطمست بانطماسه معالم باطن الدين، فبقي الناس على تديّن صوري، لا يكفي في بلوغ ذرى الإسلام العلمية والشهودية المُتاحة.

٥. الإيمان باليوم الآخر: وهو ما كان عيسى يسميه "ملكوت السماوات". ولعل القارئ يذكر أن اليهود كانوا على اضطراب شديد فيما يتعلق بالآخرة، نظرا لكونهم على إيمان مُجمل، لا يحتمل التفصيل؛ وبالتالي فلا يؤاخَذ أهله على ما فوق طاقتهم، ما داموا داخل الزمن التشريعي الموسوي؛ وما داموا لا يدخلون بعقولهم في ذلك. ورغم أن هذا الإيمان من أركان الإيمان التفصيلي التي دعا إليها عيسى عليه السلام، فإن النصارى سيقعون في كثير من الخلط في ذلك، هم أيضا. وسنعرف ذلك بالتفصيل عند تتبع عقائد فرقهم، فيما سيأتي من هذا الجزء، إن شاء الله؛ وسنُبيّن حينها سبب قصورهم أو سبب ضلالهم، بإذن الله. ووقوع النصارى فيما هو نكوص عن العلم الذي جاء به عيسى في هذه المسألة على وجه الخصوص، يدل على أنهم أخطأوا طريقه، كما ذكرنا؛ لسبب من الأسباب، التي وعدنا بتبيينها في حينها إن شاء الله.

٦. الإيمان بالقدر: وبما أن هذا الإيمان، يأتي في ذروة مرتبة الإيمان، فإنه سيكون أقل صنف إيماني لدى النصارى؛ وسيكون أهله أقل النصارى عددا. وسيبقى جل النصارى من الجاهلين بالقدر، كما سنرى في حينه. وأما كبار المسيحيين، فهم من أهله، وهو ما أعطاهم حال "التسليم"، عند مشاهدتهم جريان القدر عليهم بما قُضي في السماء. وإن أبرز دليل إنساني على التمكن من هذا المقام (وهو جدير به)، ما فعله "بطرس" عندما أمر نيرون بصلبه، مِن طلَبه أن يُصلب مُنكّساً لا مستويا، أدبا مع عيسى الذي شُبِّه للناس صلبُه مستويا. ولولا أن "بطرس" كان متمكنا في مقام التسليم، ما تمكن من صرف نظره إلى مراعاة الأدب مع إمامه عليه السلام.

ومن أخص الأحوال الإيمانية، التي سنعرفها للمسيحيين عموما: الشكر والصبر؛ اللذان سيُثمران من جهة التفصيل إيثارا، وزهدا في الدنيا، وغير ذلك مما يمتاز به المسيحيون عن سابقيهم.

ولقد شكك كثير من الدارسين في المسيحية لأمور، هي:

١. قلة مدة الدعوة العيسوية، التي لا تتجاوز ثلاث سنوات؛ والتي -في نظرهم- لا تكون كافية لتأسيس تشريع ديني، يُعيد صياغة الدين كله، بحسب خصوصية مرحلته.

٢. قلة عدد الحواريين الذين لم يتجاوز عددهم الاثني عشر رجلا. وهذا أيضا -بحسبهم- لا يبلغ أن يكون أساسا لأمة تزعم أنها عالمية.

٣. خلوّ الحواريين من الفريسيين (فقهاء بني إسرائيل)، أو ممن له مكانة علمية وعقلية ترشحه لأن يكون مبلّغا عن السيد المسيح عليه السلام. وعلى العكس من ذلك يوصف الحواريون بأنهم من الطبقة الوضيعة، من أصحاب الحرف والمهن، التي لا يُنتظر من أهلها، ما نُسب إليهم من قيادة دينية، تأثيرها متصاعد مع الزمان.

وهنا لا بد من التذكير بأن الدين لا يخضع لمنطق الجماعات غير الربانية، والتي يحكمها المنطق العقلي المعتبِر للعوامل المؤثرة المعهودة، على العقليْن الفردي والجمعي. وقياس عيسى على القادة السياسيين -مثلا- لا يصح؛ لأن عيسى وجه رباني، يفعل ما لا يتمكن من فعله غيره. وهو مميَّز بين الرسل عليهم السلام أنفسهم، الذين يُشاركونه المجال التشريعي؛ فكيف لا يمتاز عن سواهم من بني آدم!... ثم إن مدد الرسول لا يكون محصورا في مدة عيشه في الدنيا، وإنما هو متعلّق بزمن شريعته. وعيسى عليه السلام، كان ممدا للمسيحيين من السماء إمدادا مباشرا، طيلة القرون التي تفصله عن البعثة المحمدية، حيث ينتهي زمنه التشريعي. ولن يبقى له بعد البعثة المحمدية، إلا ما بقي للرسل من قبله؛ وهو الإمداد بواسطة

محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وهذه الأحكام كما هي مجهولة للنصارى واليهود، هي مجهولة لجلّ المسلمين؛ لذلك يقع الناظرون إلى الدين بسببها، في أغلاط مهلكة، لا يخفى أثرها على من تتبعه.

وأما ما ذُكر عن صفات الحواريين، فإنه لا يدخل ضمن خصوصيات الدين؛ لأن الدين ليس طريقا للعقل، على ما يعهده العقلاء؛ وإنما هو طريق رباني خاص، يتقرب الناس فيه إلى ربهم بما شرع لهم من أعمال؛ لا بما يُستدلّ عليه من طريق البرهان. وإن كون الدين مخاطِبا للعقل الإنساني، لا يعني أنه أصبح عقلانيا بتلك المخاطبة؛ وإلا أصبح المفعول فاعلا، والفاعل مفعولا. وأما اتساع العقل بنور الإيمان، ليُدرك فيما بعدُ، ما لم يُدركه إبّان تجرُّده من معان؛ فهو تأكيد لتفرد الدين بما لا يكون للعقلاء وأهل النظر؛ وليس دليلا على عقلانية الدين. وعلى هذا، فإن الحواريين الذين لم ير الدارسون فيهم إلا طبقة عاميّة من جميع النواحي، سيُدركون مرتبة عقلية خاصة، تفوق ما يعرفونه لكبار الفلاسفة؛ وبذلك، سيكونون مؤهلين لإمامة الناس الذين دخلوا في المسيحية من بعدهم. وستتسع دائرة المدد العيسوي، لتشمل كل إنسان يؤمن به في القرون الستة التي تلي رفعه عليه السلام؛ من بني إسرائيل على الخصوص. وهذا الذي نقوله، ينبغي أن يجعل الناس يُقرّون بوجود أمة عيسوية (مسيحية)، متوسطة في الزمان بين الأمة الموسوية والأمة المحمدية. ولسنا نقصد هنا الإقرار المطابق للواقع التاريخي، ولكن نقصد المكانة التي للأمة العيسوية في الدين من حيث هو دين؛ أي من حيث هو تكميل للبشرية جمعاء. نقول هذا، ونحن نعلم أن اليهود لا يُقرّون بذلك، ونعلم أيضا أن جل المسلمين يؤمنون بذلك إيمانا منفصلا عن أصل معناه وحقيقته.

ولو نظرنا إلى التعريف الذي تُقدمه دائرة المعارف الأمريكية عن المسيحية، فإننا سنجده هكذا: [المسيحية هي الديانة التي أُسست في القرن الأول الميلادي، على يد المسيح الناصري، والتي تدور حول هدف حياته ورسالته.][١]. ونستخلص من هذا التعريف الأخطاء الآتية:

١. المسيحية ليست ديانة مستقلة، وإنما هي حلقة في سلسلة الدين الذي بدأ مع آدم عليه السلام.

٢. إن التعريف ينظر إلى عيسى وكأنه محور الدين، والحقيقة هي أنه محور الدعوة العيسوية وحدها؛ لأن الدين منوط بكل الوجوه الرسالية، المغطية للزمن الدنيوي كله؛ والتي يجمعها محمد صلى الله عليه وآله وسلم في صورته الأولى (حقيقته)، وفي صورته الآخرة (شخصه). ولو تفطن النصارى إلى منطقهم، لوجدوه ذاته الذي يعتمده اليهود في إنكار عيسى عليه السلام؛ وهو ما لا يقول به عاقل.

٣. إن المسيحية نفسها، لا تنحصر في حياة عيسى الأرضية قبل رفعه عليه السلام؛ وإنما تتسع لخلفائه فيها، الذين كانوا نوابا عنه، ووسطاء في الإمداد بينه وبين كل من دخل المسيحية. وعلى رأس هؤلاء الورثة العيسويين: "بطرس"، الذي قال عنه المسيح عليه السلام: "أَنْتَ بُطْرُسُ، وَعَلَى هذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيسَتِي، وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا."[٢]. وعلى هذا، فإن الجماعة المسيحية الشرعية (الكنيسة)، هي التي ستتبع بطرس وتأتمّ به. وأما المدد، فإنه سيكون عن طريق الروح القدس، كما أخبر المسيح نفسه عليه السلام. والروح القدُس، هو ما يُسميه بعض الصوفية السرّ، ويُسميه آخرون "روحانية الشيخ"؛ وعلى كل حال، فإن الروح القدس هنا، هو روحانية عيسى التي هي سر كل واحد من أتباعه، الحواريين على الخصوص. وهذا الذي نعنيه، هو حقيقة النفخة الإلهية في كل عبد آدمي؛ لكنّ هذه الحقيقة لا تظهر بحقيقتها الربانية، إلا بعد فناء وجهها النفسي الذي يلي البدن من الإنسان. وهكذا، سيكون عيسى في كل واحد من أتباعه، لكن على

---

[١] . دائرة المعارف الأمريكية، شيكاغو ١٩٦٠: المجلد: ٥، الصفحة: ٤٣٥.

[٢] . متى: ١٦: ١٨.

قدر التابع، لا على قدر عيسى؛ لأنه لا أحد من الأتباع يُطيق احتمال الروح العيسوي الأكبر، ولا أحد قد بلغ من التزكية تمامها. وهذا من الأسرار التي تجعل التابعين لا يبلغون متبوعهم قط، من الوجه الذي يكونون فيه تابعين؛ لا من كل وجه. ومن هذا الوجه يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم صدقا وحقّا: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ!»[1]. وذلك لأنه صلى الله عليه وآله وسلم، من وجه هو متبوع لإبراهيم، ومن وجه آخر هو تابع له؛ حقيقة لا مجازا. وكل من يحمل نظير ما نذكره هنا، من إقرار منه صلى الله عليه وآله وسلم بالفضل لسابقيه من الأنبياء والرسل عليهم السلام، على تواضعه صلى الله عليه وآله وسلم وحده، فهو جاهل بالمسألة من كل وجوهها. ونحن ندل على هذا الوجه المجهول، حتى يكمُل العلم لأهله، فيشكرونا عند الله بالمودة في قُرباه سبحانه.

ولما كان التلاميذ قد فقدوا أحدهم، والذي هو "يهوذا الإسخريوطي" المبلغ عن عيسى، فإنهم بعد رفعه (عيسى)، قد استخاروا الرب في تعويضه بـ "مَتّياس"، فكان لهم ذلك؛ ليكمل به عدد الاثني عشر، الذي هو عدد الأبراج. وذلك حتى يكون لهم الحكم من عيسى في العالم، بما يُعطيه القضاء السابق في العلم الإلهي.

لكن لا بد من أن نقرر أولا، أن بطرس نفسه، قد خالف المسيح عليه السلام من جهتيْن:

١ . من حيث تفسيره للرفع: وذلك لأنه كان ممن اشتبه عليه أمر عيسى، عند رؤية الصلب والقتل ظاهرا، وعند رؤيته يخاطب التلاميذ فيما بعد مشاهدة. وبما أن بطرس لم يكن له علم التمثُّل ولا علم المتشابه، ولا علم الشهود، فإنه لجأ إلى التفسير العقلي الذي أعطاه أن عيسى عليه السلام قام من بين الأموات. وهذا هو أصل هذه العقيدة، من ذلك الوقت، وإلى الآن. جاء في سفر الأعمال من كلام بطرس: "فَيَسُوعُ هذَا أَقَامَهُ اللهُ، وَنَحْنُ جَمِيعًا شُهُودٌ لِذلِكَ."[2]، ثم جاء بعد ذلك: "فَلْيَعْلَمْ يَقِينًا جَمِيعُ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ أَنَّ اللهَ جَعَلَ يَسُوعَ هذَا، الَّذِي صَلَبْتُمُوهُ أَنْتُمْ، رَبًّا وَمَسِيحًا."[3]. وهنا يظهر التكلف في التفسير؛ لأن الله الذي له الربوبية كلها، كيف يجعل يسوع ربا بعد الصلب؟!... فهل هو تنازل له عن الصفة؛ تعالى الله؟!... أم هو مشاركة له فيها؟!... حتما، لا هذا ولا ذاك!... ولو أن بطرس كان له علم بالحقيقة، لعلم أن عيسى كان مظهرا للربوبية، كما كان غيره من الربانيين؛ ولعلم أن صفة الربوبية هي لله وحده، لا يُشاركه فيها أحد من خلقه؛ وإن كان له مظهرا فيها. وكان من الأليق ببطرس أن يظهر بالصفة، على وجه التحقُّق، بدل أن يبقى فيها على هذا الخلط. وحيث لم يكن ذلك، فإننا علمنا أن بطرس لم ينل ما نسميه نحن "الوصول"، والذي يدخل به صاحبه مرحلة التحقق، التي بها يكون ربانيا. وعدم الوصول، بالنظر إلى خلفاء الأئمة في الجماعات الربانية، بغض النظر عن كون الإمام رسولا بالأصالة، كما هو الشأن هنا؛ أو عن كونه وارثا، كما هو الحال مع الأئمة من ورثة أمتنا؛ فإنه يكون سببا عظيما من أسباب انحجاب أفراد تلك الجماعات عن الحق. وذلك لأن غير الواصل، خصوصا إن كان له مرتبة في الفكر، وكان من العقلاء، فإنه يلجأ إلى التفسير بحسب منطقه هو؛ وهذا يكون بعيدا عن العلم الحق، وإن قاربه في العبارة أحيانا أو طابقه. ومن هذا الباب، كنا نحن نقرّ بعض عبارات المتكلِّمين، ولا نقر أصحابها على مرادهم منها. وهذا الصنف من العلم عزيز، يعلم به أصحابه مدى مطابقة الألفاظ للمعاني، ويعلمون المعاني التي لا تدخل في الألفاظ أبدا؛ وهو من أعجب صنوف العلم لنَوْطِه بالقدرة. والقصور المتعلّق بما ذكرنا، هو أصل كل الاعتقادات الفاسدة في الجماعات الدينية. وحتى لا يبقى الناظر في كلامنا، مع احتمال الاختلاف بين الملل، والذي قد يراه هو مستساغا، لسبب من الأسباب؛

---

[1] . متفق عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] . أعمال الرسل: ٢: ٣٢.

[3] . أعمال الرسل: ٢: ٣٦.

فإننا نؤكد تأكيدا جازما، أن العلم الحق لا اختلاف فيه، إلا من حيث الإجمال والتفصيل، ومن حيث مرتبة الناظر فيه. ونعني من هذا، أن الأعلم قد يُفصّل ما لا يعلمه مَن هو دونه في العلم، إلا مجملا. وأما الاختلاف في العلم نفسه، فمحال على أهل الحق. وهذا هو السبب الذي يجعل الرسل والأنبياء عليهم السلام، على الإدراك ذاته، وإن اختلفوا من جهة درجاتهم في النبوة؛ كما أخبر الله تعالى في قوله: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} [البقرة: ٢٥٣]. والسبب في عدم الاختلاف، هو أن المعلوم الذي هو الحق، واحد لا يتعدد؛ وإن تعددت مراتبه. ومن هذا الوجه، نحن نقيّم كلام بطرس عن حقيقة عيسى، ونحكم ببطلانه؛ لأننا على علم بالحق ولله الحمد؛ وهو يُعطينا غير ما فاه به بطرس، وغير ما عليه النصارى في اعتقاداتهم. وهذا وجه، غير العلم بالحق الذي ينطق به النصارى، من دون أن يعلموه أو يقصدوه بعباراتهم.

٢. من حيث دائرة الدعوة: فبعد أن كانت الدعوة مخصوصة ببني إسرائيل (اليهود)، عمل بطرس على أن تشمل الوثنيين واليونانيين والرومان؛ وهو اجتهاد منه، سنرى مدى نجاعته مع التقدم في الكتاب. وبعد أن عمل بطرس على تأسيس كنيسة أنطاكيا لمدة سبع سنين، وبعد انتقاله بين الشام وآسيا الصغرى واليونان، استقر به المقام أخيرا في روما، التي أسس فيها كنيستها في حوالي خمس وعشرين سنة؛ إلى أن قُتل على يد الإمبراطور "نيرون"، في الاضطهاد المسيحي، عام ٦٧م. وتذهب الكنيسة الكاثوليكية إلى أن "كاتدرائية القديس بطرس" قد شُيِّدت على قبره، بأمر من الإمبراطور "قسطنطين" بعد بضعة قرون.

ورغم أن العهد الجديد يشمل رسالتين منسوبتين إلى بطرس، فإن أغلب العلماء المعاصرين يذهبون إلى أنهما من تأليف عدة مؤلفين. وبالتشكيك في شخصية بطرس، وفي مكانته في العلم بين مسيحيي زمانه، فإن المسيحية ستفقد "صخرتها"، وستتسلل العقائد المخالفة إليها؛ وهو ما سيُمهّد لانشقاقها، ولظهور الكنائس الفرعية المتعددة فيما بعد.

وبما أن شطرا من المسيحيين الجدد، لم يتمكنوا من العمل وفق التوجيه العيسوي، بسبب فقدهم لأصل التوجيه؛ فإنهم سيُحرمون مدده بقدر ابتعادهم عنه. وحتى الحواريون (الرسل)، الذين كان يُفترض أن يكونوا نماذج للتعليم العيسوي، فإنهم سيتفرقون، وسيكون كل واحد منهم، على علم وعلى عمل يمتاز به عن غيره؛ بحيث لا يكاد يخرج الناظر المبتدئ إليهم، بشيء ينفعه في دينه. وكما لم يبق للناس أثر واضح عن عيسى، فكذلك لم يكن تعليم الرسل بالوضوح والقوة اللذيْن يُغنيان الأتباع اللاحقين. وهذا سيعرّض مختلف الأقوام –من غير شك– لاعتماد شيء من عقائدهم السابقة، أو من نظرهم السابق؛ أو سيجعلهم متأثرين بما يروج حولهم من آراء دينية أو فلسفية. وهذا هو الذي وصل بالإسكندريين إلى الانشقاق بسبب الاختلاف حول حقيقة المسيح. ولو أنهم كانوا يعلمون أن العلم بالمسيح هو فوق طورهم، لأراحوا أنفسهم من طلب شيء يعزّ عن أمثالهم.

ولما كانت آية المسيح بالغة التشابه[1]، طورا تظهر منها أفعال الربوبية من إحياء للموتى وغيره، حتى يجزم الناظر إليه بأنه الله؛ ثم تظهر منه طورا آخر، صفات البشرية، حتى يقطع الناظر إليه بأنه بشر كسائر البشر؛ له جسم بشري طبيعي يأكل ويشرب، كما أخبر الله عنه في قوله تعالى: {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ} [المائدة: ٧٥]؛ فإن إدراكها (الآية) كان عزيزا جدا، على مدى الأزمان. ومعنى يأكلان الطعام، في الآية، هو أنهما فقيران بالذات. ومن كان فقيرا بالذات، فكيف تُنسب إليه الألوهية؟!... ونحن هنا، لا نقول بعدم إمكان حل هذه المسألة علميا؛ ولكن نشترط لها شروطا، قد لا تتوافر لأيّ مؤمن، ولا لأي عاقل. وبما أن هذا

[1] . المتشابه في الاصطلاح الشرعي الإسلامي، هو ما لا تخلص حقيقته لوجه واحد.

التنازع لا يُرفع بالنظر العقلي وحده، فإن العقول التي رامت تأسيس العقائد المسيحية، قد عجزت، ولم تخلُص إلى طرف بعينه، رغم المكابرة. والتشابه الذي ذكرناه، سيكون ملتصقا بعيسى، في جميع أطوار حياته: فهو وُلد، لكن من غير أب بشري؛ وكان طفلا، لكنه أفحم قومه عند رده عن أمه؛ وكان يلعب كما يلعب الصبيان، ولكنه يخلق خلقا في لعبه؛ وكان رجلا ولم يتزوج لغلبة روحانيته؛ وهو غني بالله غنى أكبر، ولكن لم يتخذ بيتا ولا قرّ له قرار؛ وحَكم عليه أعداؤه بالقتل، فظنوا أنهم صلبوه وقتلوه، فارتفع إلى ربه، تاركا لهم في حيرتهم. فمن سيُطيق أن يعرف رسولا كهذا؟!... هذا، مع أن الرُّسل (الحواريين)، كانوا يدلون على معاملة الله فيه؛ وهو الأمر الذي لن يفهم منه السامعون إلا أنهم يؤلهونه، من دون أن يُدركوا مرامي كلامهم على الوجه المُدرَك لهم هم أنفسهم. وهذا كله أدى إلى ضلال المسيحيين في المسيح، ذلك الضلال الذي أشار الله إليه في فاتحة الكتاب، حيث يقول سبحانه: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: ٧]. فعن النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم قال: «الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى ضُلَّالٌ.»[١]. ولقد التبس معنى هذا الحديث على كثيرين، لذلك نرى أنه لا بد من الكلام فيه قليلا، فنقول:

١. إن قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن اليهود بأنهم مغضوب عليهم، وعن النصارى بأنهم ضُلال، لا يعني انحصار الغضب والضلال فيهم كما قد يروق ذلك لكثيرين؛ وإنما هو صلى الله عليه وآله وسلم، يُفسر بهم المغضوبية والضلال، من كونهم مظهريْن لهما، ومن كونهم أقرب الأمم إلينا فحسب.

٢. وهذا يجعل من الأمة الإسلامية قوما مغضوبا عليهم، وآخرين ضالين، إلى جنب المُنعم عليهم بلا شك. وهذا بسبب المطابقة الحاصلة بين أمتنا وجميع الأمم السابقة، مع التفرُّد الذي نحن مخصوصون به، كما نذكر دائما. وهذا قد يُسكّن من ثائرة اليهود والنصارى، عندما يسمعون وصفهم الذي أسلفنا؛ وليعلموا وجه العدل الإلهي في انطباق صفتيْ المغضوبية والضلال على غيرهم.

٣. حتى يُفهم معنى "المغضوب عليهم"، فلا بد أن نعلم أن الغضب يلحق المُعاند الجاحد؛ ولهذا أخبر الله عن حال المغضوب عليهم بقوله سبحانه: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ . بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ} [البقرة: ٨٩، ٩٠]. وأما الضلال، من قوله تعالى: {وَلَا الضَّالِّينَ}، فهو صفة لمن لم يقصد مخالفة الحق، ولا هو معاند له؛ وإنما هو طلب الحق، فأخطأ طريقه. وهذا من أثر العزة التي يتصف بها الحق، والتي لولاها، لكان كل من يطلب الحق يجده؛ هذا مع أن كل من يطلب الحق يجده، لكن من دون أن يعلمه. وهذا بعينه، هو معنى العزة!... والضلال الناتج عن العزة، هو ما وقع فيه النصارى، وهو ما يُخالفون به اليهود. وقد قيل في هذا المعنى: "ليس من طلب الحق فأخطأه، كمن طلب الباطل فأصابه!". والعزة المذكورة، هي صفة لعيسى عليه السلام؛ فلا يذهب ذهن القارئ بعيدا!...

وحتى نتبيّن موطن الضلال عند بطرس ويوحنا رفيقه، فإننا سنتناول إجابتهما للإسرائيليين بعد إحضارهما من السجن: جاء في سفر الأعمال: "وَبَيْنَمَا هُمَا يُخَاطِبَانِ الشَّعْبَ، أَقْبَلَ عَلَيْهِمَا الْكَهَنَةُ وَقَائِدُ جُنْدِ الْهَيْكَلِ وَالصَّدُّوقِيُّونَ، مُتَضَجِّرِينَ مِنْ تَعْلِيمِهِمَا الشَّعْبَ، وَنِدَائِهِمَا فِي يَسُوعَ بِالْقِيَامَةِ مِنَ الأَمْوَاتِ. فَأَلْقَوْا عَلَيْهِمَا الأَيَادِيَ وَوَضَعُوهُمَا فِي حَبْسٍ إِلَى الْغَدِ، لأَنَّهُ كَانَ قَدْ صَارَ الْمَسَاءُ. وَكَثِيرُونَ مِنَ الَّذِينَ سَمِعُوا الْكَلِمَةَ آمَنُوا، وَصَارَ عَدَدُ الرِّجَالِ نَحْوَ خَمْسَةِ آلاَفٍ. وَحَدَثَ فِي الْغَدِ أَنَّ رُؤَسَاءَهُمْ وَشُيُوخَهُمْ وَكَتَبَتَهُمُ اجْتَمَعُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ مَعَ حَنَّانَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ وَقَيَافَا وَيُوحَنَّا وَالإِسْكَنْدَرِ، وَجَمِيعِ

---

[١] . أخرجه الترمذي عن عدي بن حاتم، رضي الله عنه.

الَّذِينَ كَانُوا مِنْ عَشِيرَةِ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ. وَلَمَّا أَقَامُوهُمَا فِي الْوَسْطِ، جَعَلُوا يَسْأَلُونَهُمَا: «بِأَيَّةِ قُوَّةٍ وَبِأَيِّ اسْمٍ صَنَعْتُمَا أَنْتُمَا هذَا؟»"[1]؛ فكان الجواب هو: "حِينَئِذٍ امْتَلأَ بُطْرُسُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ وَقَالَ لَهُمْ: «يَا رُؤَسَاءَ الشَّعْبِ وَشُيُوخَ إِسْرَائِيلَ، إِنْ كُنَّا نُفْحَصُ الْيَوْمَ عَنْ إِحْسَانٍ إِلَى إِنْسَانٍ سَقِيمٍ، بِمَاذَا شُفِيَ هذَا، فَلْيَكُنْ مَعْلُومًا عِنْدَ جَمِيعِكُمْ وَجَمِيعِ شَعْبِ إِسْرَائِيلَ، أَنَّهُ بِاسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ النَّاصِرِيِّ، الَّذِي صَلَبْتُمُوهُ أَنْتُمُ، الَّذِي أَقَامَهُ اللهُ مِنَ الأَمْوَاتِ، بِذَاكَ وَقَفَ هذَا أَمَامَكُمْ صَحِيحًا. هذَا هُوَ: الْحَجَرُ الَّذِي احْتَقَرْتُمُوهُ أَيُّهَا الْبَنَّاؤُونَ، الَّذِي صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ. وَلَيْسَ بِأَحَدٍ غَيْرِهِ الْخَلاَصُ. لأَنْ لَيْسَ اسْمٌ آخَرُ تَحْتَ السَّمَاءِ، قَدْ أُعْطِيَ بَيْنَ النَّاسِ، بِهِ يَنْبَغِي أَنْ نَخْلُصَ»."[2]. ولنلاحظ ما يلي:

١. إن بطرس جعل الدليل على صدقه في دعواه بأن يسوع قام من بين الأموات، وبأن الخلاص يكون في اعتقاد ربوبيته، ما تحقق له (مع يوحنا)، من شفاء المُقعد الذي قام يمشي. وهو يتوهم هنا أنه يفعل نظير ما كان يفعل عيسى عليه السلام؛ والأمر ليس كذلك. فهو إن شفا، فإما أن يكون الشفاء بالروح القدس الذي عمل عند ذكر اسم يسوع؛ فيكون هذا أمرا مستقلا عن التفسير الذي يأتي به فيما بعد. وهذا الوجه أقرب إلى الصحة عندنا، لكون الصلة بين بطرس وعيسى ما زالت قائمة، وما زالت مُعتبرة. وإما أن يكون الشفاء من الشيطان، وهذا يحدث لمن لم تتحقق وراثته لإمامه، ويدعي الأمر بهواه؛ فيدخل عليه الشيطان من أجل تعضيده بما يُشبه الكرامات في الظاهر، ليستدرج بها قوما غيره إلى طريقه؛ وهذا كما ذكرنا، ننزه بطرس عنه. فلم يبق من سلطان للشيطان عليه، إلا فيما يعود إلى تفسيره لحقيقة عيسى ولحقيقة نيل الخلاص. وهو ما صار فيما بعدُ مجال جدل بين المسيحيين أنفسهم في القرنيْن الأوليْن على الخصوص، عندما اتسع مجال النظر، وصارت العقائد توزن بالمنطق العقلي. ونحن وإن كنّا نمنع من استناد العقائد إلى العقل، خلافا لما انتهجه المتكلمون منّا، إلا أننا لا ننفي وجود منطق خاص بالمعارف الإلهية، ينظُمها، وبه يُنظر من قِبل المؤهّلين في أنساقها. ونحن نجزم هنا، أن ما فسر به بطرس (ومن اتبعه في ذلك) حقيقة عيسى، وما ربط به الخلاص، هو من الباطل الذي دخل عليه.

ولقد استقر أساقفة المسيحية الأولون على ألوهية المسيح عليه السلام، حتى لا يُخالفوا منطوق الرسل عندهم؛ وأخذوها على أنها مسلمة يُبنى عليها ولا تقبل التمحيص. وهو من حيث المبدأ غلط؛ وإن كان أصحاب العقائد الدينية لا يستغنون في غالبيتهم عن هذا المنطق التلفيقي، بسبب خوفهم على ذهاب أصل إيمانهم. ولو علموا أن الله لم يُكلِّف أهل المرتبتيْن الأوليْن الخوض في العقائد من الأصل، لعلموا أنهم قد كلفوا أنفسهم ما لا طاقة لهم به؛ وأن الضرر الواقع عليهم، قد جاءهم من عدم التقيُّد بالتشريع. ولقد كان الأجدر بهم الاكتفاء بالإيمان المجمل، مع العمل الصالح؛ ليُحصّلوا الأجر والنور معا، من الله الوهاب. وإن كثيرا ممن يُنصّبون أنفسهم أئمة في مجال الإيمان، يدلفون إلى عقلنة العقائد، ظنّا منهم أنهم يعينون بذلك المؤمنين على البقاء في طريق الإيمان؛ وظنا منهم أن تقعيد العقائد يجعلها متينة، لا يتوقف العقل عندها فيما بعد، إما بالشك وإما بالرد. وهذا غلط فادح!... لأن العقائد عندما يُتكلم فيها بين العامة، لا يُمكن لأحد بعد ذلك إغلاق باب إعادة النظر فيها؛ لسبب بسيط، وهو أن العقول قد أُدخلت إليها وأُقحمت فيها، فلا يُمكن إخراجها بعد ذلك؛ إلا أن يشاء الله. والكلام -بسبب اختلاف درجات العقول- لن يتوقف أبد الدهر؛ لأنه سيأتي من يظن أنه قد أدرك ما لم يُدركه سابقوه، أو يظن أنه قد خُصّ بفهم لم يبلغوه، لخصيصة لديه. وما أسهل عمل الشيطان، بعد أن يكون الزمام قد أفلت من صاحبه!... وحتى يُدرك القارئ ما نقصده من كلامنا، فإننا نسأل أهل العقيدة الرسولية

[1] . أعمال الرسل: ٤: ١-٧.

[2] . أعمال الرسل: ٤: ٨-١٢.

قبل غيرهم من النصارى، من باب الجدل، وفرضا لصحة مُنطلَقهم؛ فهم لا بد لهم الآن -وبعد أن قالوا بألوهية عيسى عليه السلام- من أن يضبطوا نسبة عيسى إلى ربه: فهل هو إله ثان مساوٍ له؟... وهذا سيُدخلهم في القول بالندية وبالاثنينية، وسيذهب بمقولة الدين نفسها؛ لأنه كيف يصح دين بين إلهيْن؟!... والله تعالى يقول: {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} [النحل: ٥١]؛ ويقول سبحانه أيضا: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ} [المؤمنون: ٩١]. فإن لم يجدوا مخرجا إلا القول ببنوة عيسى لله (تعالى الله)؛ فهذه البنوة حتى يُعبد صاحبها على الأرض، لكونه المشهود للعابدين (واقعا لمن عاصره، وإيمانا لمن جاء بعده)، فلا بد من أن يكون على مرتبة واحدة مع الله، حتى يُحصَّل من ذلك على شُبهة توحيد، تشهد للعابدين أنهم على الحق. والمساواة لله في المرتبة، تقتضي أن يكون مشاركا له في القِدم (الأبدية)؛ وأن يكون مشاركا له أيضا في الجوهر[1]. ولكن جسد المسيح فرض عليهم اعتبارُ طبيعته -لكونه من الطبيعة وخاضعا لأحكامها- أن يجدوا له حُكما موافقا؛ فاضطُرّوا إلى القول فيه بطبيعتيْن (مع تحفظ على الإطلاق): إلهية وبشرية؛ سموهما لاهوتا وناسوتا. وهذا اللاهوت إن خالف الناسوت ولو عقلا، فإنه سيُفضي إلى القول بالتعدد في الألوهية (الذات)؛ وهذا باطل، لا يقول به مؤمن. فاضطُرّوا مرة أخرى إلى التلفيق، فقالوا بأن لاهوته لا يُخالف ناسوته، وبأن ناسوته لا يُخالف لاهوته. وهي عبارة جوفاء، لا تفيد علما عند العقلاء؛ وإنما هي من مُسكنات للعقل، تجعله يقبل المتناقضات ويُسلِّم لها، ولو وقتيا. ولقد كان متزعما بهذا المذهب السفسطائي بابا الإسكندرية "ألكسندروس الأول" (٢٥٠م-٣٢٦م). غير أنه برز من بين الأساقفة المعاصرين له، من قال بمخالفة المسيح لحقيقة الألوهية، وهو الكاهن "آريوس"، في الإسكندرية ذاتها (٢٥٦م-٣٣٦م). ولقد خالف "آريوس" القائلين باتحاد الآب والابن في الأبدية، وقال بتأخر الابن عن الآب، بحيث كان وقتٌ لا يوجد فيه إلا الآب. ونحن هنا، لا بد من أن نعيد هذه الألفاظ إلى أصلها، لكونها تدل على قلة خبرة صاحبها بالمعاني. فالمقصود من قوله: "كان وقت لا يوجد فيه إلا الآب"، هو أن الله يسبق عيسى بالمرتبة، لا بالزمن. وهذه الصفة التي يرونها لعيسى، إنما هي للحقيقة المحمدية الجامعة في الحقيقة؛ وأما شخص عيسى الذي يعرفونه، فهو من عالم الطبيعة ومتأخر في الزمان عن آدم وإبراهيم وموسى جميعا، مع كونهم مساوين له في الخلق؛ فكيف لا يتأخر عن الله بالمرتبة وهو الحق في تعاليه سبحانه؟!... ولا يُمكن أن يُكابر في هذا أحد!... ونحن نقول هنا بعودة الصفة إلى الحقيقة المحمدية، لأنها أول ما خلق الله، وأول ما امتاز عن الحق الصرف في الذات، مع تأخره عن الحق في المرتبة. وهكذا يكون المسيحيون الأولون، قد وقعوا في شَرَك العقل، وسيأتي إليهم الشيطان بوحيه الذي لا قِبل لهم بتفنيده، عند إخطائهم طريق النور وتحكيم الروح القُدس. ولا فرق عندنا هنا في العقلاء، بين من ينطلق من النصوص كالكتابيين جميعا، وأولئك الذين يعتمدون النظر الصرف (الفلاسفة) من اللاهوتيين فيما بعد؛ لأن الشيطان له سلطان عليهم جميعا، وإن لم يشعُروا.

ولقد انتهى الأمر ببابا الإسكندرية "ألكسندروس الأول"، إلى إعلان حرمان "آريوس" وطرده، ثم إلى الاستعانة بالإمبراطور الروماني عليه "قسطنطين الأول"؛ على عادة رجال الدين الذين يتخذون من الاستعانة بالحُكّام (الإرهاب بهم) وسيلة لتثبيت عقائدهم بين العامة. ولو أن المرء يكون على الحق المبين، ما كان يحتاج إلى فرضه على الناس؛ لأن الحق ناطق عن نفسه، وإن كان نُطقُه فوق إدراك العقول في الغالب، من جهة الضبط والدخول تحت العبارة.

ولما كانت الإمبراطورية الرومانية قد دخلت في المسيحية رسميا، بدخول إمبراطورها "قسطنطين الأول"، مع بداية القرن الرابع الميلادي، فإن المسيحية هناك، قد أخذت منحى غير الذي في الشرق؛ لكون الرومان أصحاب تراث زاخر

[1] . الجوهر مقولة فلسفية، تدل على أن المسيحيين قد بدأوا يرقعون عقيدتهم بالفلسفة.

في العبادة الوثنية المتساهلة، والمقرّة كل أهل دين على دينهم، إلى أن انتهى بهم الأمر إلى عبادة الإمبراطور نفسه في عهد "أغسطس"؛ وهو ما سيجعلهم يَقبلون ألوهية المسيح بسهولة وبسطحية، عند عرضها عليهم. ولقد كان ينبغي على المسيحيين الأولين، أن يفطنوا لضرر الرومان على المسيحية؛ وأن لا يتركوا السرور بكثرة أعداد وتوافر أجنادهم، يُعميهم عن سوء عاقبة صُحبتهم.

ولما احتدم الصراع بين أتباع "آريوس" وأتباع البابا "ألكسندروس"، قام "قسطنطين" –بطلب من "ألكسندروس"– بدعوة المسيحيين إلى مجمع مسكوني (مؤتمر عالمي)، حضره ما بين ٢٥٠ إلى ٣١٨ أسقف. ولقد كان يُرجى من وراء هذا المجمع، أن يخرج الأساقفة بقول واحد في المسيح؛ جمعا لكلمة الإمبراطورية أولا، على عادة السياسيين؛ وحتى لا تنقسم المسيحية وينقسم بانقسامها المسيحيون. وذلك لأن الانقسام، لا بد أن يعود على الإمبراطورية نفسها بالسوء، كما سنرى فيما بعد. فانتهى الرأي بالمؤتمرين، لأسباب غير خافية، إلى مساندة البابا ألكسندروس، وإلى نبذ مقولات آريوس الذي بقي مصرا على رأيه. ومن هناك اعتُمدت العقيدة المسيحية الرومانية، ونُبذت عقيدة آريوس إلى اليوم، وصُنِّف أصحابها أعداء للمسيحية. ولقد كان الأفضل للمسيحيين جميعا، أن يبقى الاختلاف ضمن المسموح به؛ وأن لا تُرسَّم العقيدة ترسيما يقتل التديّن ويميت الدين.

ومن غريب الأمر، أن مؤتمر نيقية لم يُغير شيئا آنذاك في الواقع عند الناس؛ لأن كل واحد من المؤتمرين، رجع إلى بلده برأيه السابق. وعندما خلف البابا "ألكسندروس"، تلميذُه "أثناسيوس الأول"، لم يلبث أن أُطيح به من منصبه في مجمع صور. في الوقت الذي أُعيد تنصيب "آريوس" في مجمع أورشليم، وأُرسل إلى الإسكندرية من جديد أُسقُفا عليها. ولم تكن هذه الخلخلة في مناصب الإمامة، مرة أخرى، بعيدة عن هوى الإمبراطور؛ من دون أن يحسب أحد حسابا لما سيؤول إليه أمر المسيحيين فيما بعد. نقول هذا من باب الجدل، وإلا فنحن نعلم علم اليقين، أن أهل الدين عندما يُصبحون ألعوبة في أيدي السلاطين، فإن ذلك يُعدّ بمثابة إعلان موت دينهم، وإن لم يعلموا؛ ونقوله ونحن نعلم أيضا في المقابل، أن أفرادا ممن يكونون محل عناية الله في أرضه، سيبقون على الدين الحق، وإن لم يشعر بهم إلا قليل من قومهم.

وأول ما سيُلاحظ في هذه المسيحية الرسمية المنفكّة، هو انقلاب الدعوة العيسوية التي كانت دعوة إلى الله (الرب)، إلى دعوة إلى المسيح ذاته بوصفه ربا. ولا شك أن هذا سيقلب الدين قلبا، لن يخرج منه النصارى الكاثوليك خصوصا، إلى الآن. وبدل أن يؤثر الشرق المسيحي في الغرب الروماني بعد دخوله المسيحية، فإنه سيتأثر هو بوثنية روما، التي تجلت في إعمار الكنائس بالصور والتماثيل هنا وهناك؛ وسيؤول أمر المتديّنين بذلك، إلى ما قبل العقل المجرد من حيث المرتبة، بعد أن كانوا قد قطعوا مرحلة مع موسى عليه السلام جعلتهم من زمرة الناجين. ولن نخوض نحن في تفاصيل التفاصيل لهذه العقائد المتقابلة الآن، وسنترك ذلك إلى أوانه؛ وسنكتفي بدل ذلك ببناء صورة المسيحية شيئا فشيئا، وبحسب مراحلها التاريخية. وما هذا الفصل إلا مدخل نبغي منه تحديد الإطار العام للعقيدة المسيحية، التي سنتناولها بالتفكيك، فيما سيأتي من الفصول إن شاء الله...

الفصل الثاني
العقائد الأساسية

بعد أن علِق النصارى في حقيقة عيسى المزدوجة، المتأرجحة بين اللاهوت والناسوت؛ فإنه سيكون لزاما عليهم إعادة صياغة العقائد، ليوفقوا فيها بين المظنون والموروث والمعقول، على قدر استطاعتهم. وإن أساس العقائد المختلفة في عيسى، جماعتان:

١. جماعة الإبيونيين (Ebionists): وهم من يرون في عيسى بشرا كسائر البشر، رفع الله درجته بسبب تقواه، عليه السلام. وهذا التصور بعيد عن معرفة حقيقة عيسى، كما هو واضح؛ لأنه في النهاية لن يكون عيسى الذي زلزل العالم، وأربك العقول. وعندما يظن جل المسلمين أنهم بجزمهم ببشرية عيسى كالإبيونيين، قد وافقوا بذلك النص القرآني، فإنهم يكونون واهمين!... فعندما يقول الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ} [المائدة: ١١٦]؛ فهذا لا يعني أن لا تُرى الألوهية في عيسى وأمه (وغيرهما)، وإنما يعني أن لا تكون ألوهيتهما غير ألوهية الله في عين المُشاهد فحسب. وعلى هذا، فإن الضالّ هو من لا يرى ألوهية في المظاهر، وهو من يرى ألوهية للمظاهر، ولا يرى ألوهية للظاهر. وأما من جمع بين رؤية المظهر والظاهر، وشاهد ألوهية واحدة هي ألوهية الله، فإنه يكون على الحق المبين. وإن مشاهدة الحق، كما ندل عليها، هي فوق طور المسيحيين، من كونهم أصحاب إيمان؛ ولهذا سيبقى هذا الشهود نادرا في الأمم السابقة كلها، إلى أن يأتي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الداعي إلى الإحسان، ليناله الأتباع من هذه الأمة الذين أهلهم الله له، دانيا هنيئا. لذلك، فنحن نعلم أن من أراد موافقتنا من النصارى الآن في أقوالنا، فإنه لن يتمكن؛ وإنما سيخرج إلى تصور فكري يحسبه الحق، بسبب فقد المقام. ونعني هنا (وهذا علم نادر بين المسلمين) أن العلوم منوطة بمراتبها وبمقاماتها. والتوحيد الخاص الذي ندل عليه، لا يناله المسلم حتى يكون في أعلى مرتبة الإحسان. أما قبلها، فلن يتمكن من ذلك، بل سيضل بمجرد محاولة تقمص ذلك، وإن كان مما جاء به القرآن. ومن هنا كانت التزكية، التي هي فُرصة الترقي إلى ذُرى الدين، واجبة في الشرع. وهي بسبب الجهل السائد لدى الفقهاء، رغم وجوبها، لا يكاد يهتم لها أحد ممن يدّعون الإيمان لأنفسهم؛ بل ويدعون موافقة السنة، وهيهات!...

٢. جماعة تقول بعدم تجسد المسيح بصورته الحقيقية، وأن جسده الذي ظهر به للناس، لم يكن إلا خيالا. وذلك لأن الجسد مادة، وكل مادة هي رديئة في أصلها. وإن هذا القول، رغم ميله لدى الناظرين إلى الشطح، فإنه أقرب من الأول إلى الحق بكثير؛ لأنه يدل على خصوصية عيسى من جهتيْن (ونحن سنعيد صياغة التعابير هنا بحسب ما يصح وما يليق):

ا- عدم ظهور حقيقة عيسى، لكل ناظر إلى صورته الترابية: وهذا صحيح، لأن الحقيقة تتجلى لمن اصطفاه الله، لا لكل أحد. ومن لم ير من عيسى إلا صورته، فلا بد أن يُساوي عنده كل أحد؛ لأن كل الصور متساوية فيما بينها عقلا. وهذا من الباطل البيّن!...

ب- خيالية جسد عيسى، والقول بأن المادة في أصلها سوء: وكان الأجدر أن يُقال: إن ظهور عيسى بصورته الطبيعية، لا ينفصل عن حقيقته العدمية؛ لذلك يكون ظهور الممكن ظهورا خياليا، بين مرتبتيْ الوجوب والعدم. وسيكون معنى السوء هنا، هو معنى العدم ذاته الذي به تُنسب الصورة إلى صاحبها؛ فيُقال هذا عيسى، عندما يقول آخر هذا الله.

ونعني من هذا، أن الأول مشاهد للعدم الذي هو صورة عيسى[1]، وأن الثاني مشاهد للوجود، لأن الوجود لله لا لغيره. وهذا المعنى شرعي، موافق لما جاء به القرآن من عند الله، كما نقول دائما. غير أن هذا التفريق بين حقيقة عيسى وجسده، هو عائد إلى الناظرين لا إليه؛ لأن الظاهر بالصور العدمية (عيسى وغيره)، هو الوجود الحق (الله) لا غيره، من مراتبه التي بدايتها من أحدية الحق، ونهايتها إلى آخر مخلوق بحسب الترتيب، وهو الإنسان. ومن كان يشهد الوجود، فإنه سيشهد الحق ذاته، وستكون الصورة العيسوية مظهرا وجوديا، لا صورة عدمية في حقه. كل هذا، لأن الإمكان له وجه إلى الوجود، ووجه إلى العدم، كما هو معلوم. وعلى وضوح العبارات، وعلى موافقتها للمنطق العقلي، فإنها ستبقى منغلقة عمن ليس من أهلها. ليمتاز العلماء من غير العلماء، فضلا من الله ونعمة؛ يقول الله تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر: ٩]. ولما عجز الفقهاء عن نيل هذا العلم، وتعمّدوا تحريف الكلِم حفاظا على مكانتهم لدى العامة، فإنهم جعلوا هذا العلم -الذي هو مناط المفاضلة والمفاصلة بين العلماء وغير العلماء- هو العلم بأحكام الدين (ظاهر الشريعة)؛ فضلوا ضلالا مبينا، وأضلوا من تبعهم من العوام. ولهذا كنا نحن نعتبر علماء الشريعة من عوام الناس، وإن كنا واعين بأن ذلك يغيظهم. لكننا لا نريد أن نَكْذِبَهم، وأن نتحمل أوزارهم، كما تحملوا هم أوزار العامة من المسلمين وغيرهم.

وهذان الاعتباران في عيسى، واللذان هما وجوده وعدمه، سيكونان أساس كل العقائد التي تفرعت عنهما؛ مثلما كان اعتبار الوجود والعدم في أصلهما، أصلا لكل العقائد في الألوهية من كل الأديان المعلومة وغير المعلومة. وسنعرض هنا، لأهم العقائد الأولى للمسيحية؛ والتي هي عقيدة "ماركيون"، والعقيدة الانتحالية، وعقيدة التبني، لنردها إلى أصلها بحسب المُستطاع:

١. عقيدة "ماركيون" (وُلد عام: ١٢٠م): ولقد أُعتُبر "ماركيون" أكبر هراطقة القرن الثاني الميلادي، عندما أنكر العهد القديم كله، وأنكر الأناجيل كلها، ما عدا إنجيل لوقا الذي عدّله، حتى لا يُحيل إلى العهد القديم. وامتاز "ماركيون"، بالتفريق بين إله العهد القديم، وإله العهد الجديد؛ فجعل الأول إلها عادلا قاسيا سريع الغضب، وجعل الثاني إلها طيبا. وهو يحوم هنا بين معنييْ الجمال والجلال، لكنه يسلك في ذلك مسلك المشركين، لا مسلك الموحدين؛ عندما لم يتمكن من تعقّل معنى المرتبة الجامعة للمعاني المتقابلة، والتي هي حقيقة مرتبة الألوهية. وبما أن "ماركيون" لا يعلم معنى الألوهية، فإن الألوهية عنده، ستكون هي الربوبية. وعدم التفريق بين المعنييْن، لن يُمكّنه من معرفة الحق، بله أن يدل عليه؛ وإنما سيكون كأمثاله من الضالين المضلّين، وما أكثرهم!...

وستنتشر عقيدة "ماركيون" بشكل سريع، وفي أماكن عدة، بسبب تفسيره لما سماه تجسُّد الإله من غير تعدد في الجوهر، وبسبب قوله بعدم التفريق بعد الرفع، بين "الرب" والروح القُدس. ورغم أن هذا المذهب يُناقض قوله الأول الذي يُفرّق فيه بين إله اليهود وإلهه هو، فإنه يقارب به معنى التجلي في عقيدة التوحيد؛ من دون أن يبلغه، بلا شك. وعلى كل حال فقد استمرت عقيدة "ماركون" من القرن الثاني إلى القرن الخامس، وكان يرى أنه لا خلاص خارج كنيسته. وعندما يحكم علماء الكريستولوجيا[2] بانتهاء عقيدة "ماركون" في القرن الخامس، فإن ذلك لا يعني انتهاء القول بتفاصيلها؛

---

[1] . قد يختلط على القارئ معنى الصورة في اصطلاحنا، فيظنه ما يوافق الفوتوغرافيا؛ والحقيقة أن الصورة هنا هي الذات العيسوية بما هي ذات. والتفريق بين معنى الذات في الاصطلاح الأول والمعنى الثاني هنا، يطول؛ لكن من يتتبع كلامنا، سيقع عليه إن كان من أهله. وأما إن لم يكن من أهله، فليعلم أنه غير مخاطب بكلامنا في هذه المسألة على الخصوص.

[2] . الكريستولوجيا: علم الاعتقادات في المسيح، وهو شعبة من شُعب اللاهوت العام.

لأن التفريق –مثلا– بين إله اليهود وإله النصارى، مستمر إلى يومنا هذا، كما سنرى فيما بعد. ولا بد هنا أن نذكر أمرا عن العقائد بما هي عقائد، ينفع في تتبعها عبر كل حقب التاريخ؛ وهي أنها قد تكون مركبة، فتظهر بذلك الصورة المركبة في زمن دون زمن؛ فيقال باختفاء تلك العقيدة بين القوم المخصوصين في زمن مخصوص. والحقيقة هي أن كل العقائد باقية من جهة تفاصيلها (عناصر تركيبها)، وقد تتخذ صورة مركبة ثانية تختلف عن الأولى، بسبب اختلاف العناصر المُرَكِّبة، فيُقال بأنها غيرها؛ وهي لا تُعتبر غيرا لها، إلا فيما طرأ أو ما اختفى، من العناصر التفصيلية فيها، فحسب. ومن اعتبر هذا الأصل عند نظره إلى العقائد، فإنه سيرى تحول العقائد في الصور، كما يتحول الحق نفسه سبحانه. وهذا علم عزيز، لا يكون إلا للأفراد!...

٢. العقيدة الانتحالية (Modalism): وأشهر الشخصيات الانتحالية هو "سابليوس"، وهو ليبيّ وُلد في نهاية القرن الثاني، ومات عام ٢٦١م. وكان يرى أن عقيدة التثليث صعبة الإدراك، وأنها غير مقبولة من طرف اليهود والوثنيّين جميعا؛ فأراد تبسيطها كما يلي:

ا– الله الأزلي، هو ذاته الله المتجسد في يسوع الناصري الذي ليس هو الابن أو اللوغوس المفارق، وهو الذي صُلب ومات. ومع تحفُّظنا على الإطلاقات هنا، فإنه لا يخفى ما في هذه العبارات من تناقض شديد!... ورغم هذا، فإن المعنى الذي يحوم حوله "سابليوس" من أقرب ما يُشار إليه من الحقيقة، لو أنه كان على نور فيه. وهذا يدل على أن المسيحيين الأولين كانوا في أعلى درجات الإيمان، ولكنهم بعدم ولوجهم مرتبة الإيمان، فقد أرادوا صياغة العقائد في صور عقلية تقبل الاندراج في التعابير. ولو أنهم علموا أن ذلك سيبعُد بهم عن الحق، بأكثر مما لو أنهم سكتوا (وهو مُستبعد لديهم)، لكانوا على الحق المبين. وذلك لأن المؤمنين (أصحاب المرتبة)، كُلِّفوا الإيمان، ولم يُكلّفوا التعبير عنه. ولقد دخل هذا الخلط على الناس، لقياسهم علم الإيمان على علم الشريعة؛ وكأن ما ينفع في هذا ينفع في ذاك!... وهو غلط فادح!... ثم يأتي بعد ذلك العامل النفسي، الذي يريد به الشخص غير المتزكي أن يُصبح إماما متبوعا في الدين، لتكون له المكانة على غيره من الأتباع، ممن يكونون عادة أقل مرتبة منه من حيث العقل، لا من حيث الإيمان. وهذا الخلط –مرة أخرى– قد جعل بعض أقوياء الإيمان، ممن لا يُعربون عن إيمانهم، في أسفل ترتيب الجماعة الدينية؛ وجعل الأذكياء ممن يحذقون التعبير اللساني والتصوير الخيالي، يُصنفون أئمة في الدين. وهذا كله باطل!... ومن خارج حدود الشرع!...

ولا يخفى عن ناظر، أن الجماعة الدينية، إن هي وقعت تحت تأثير علماء اللسان، وأخرت في الترتيب أهل الإيمان من البُسطاء؛ فإنها تتحول من جماعة ربانية إلى جماعة شيطانية؛ لأن الشيطان يستولي بسهولة على عقول أئمتها، ويجعلهم يتبعون وحيه من غير عناء؛ لا لقوة لديه يقهرهم بها على ما يريد، ولكن لكونهم يتبعون منطقا عقليا بعينه، يعتمده هو معهم ليتوحد بينهما الخطاب. وما رأينا من دل على هذا الباب من التلبيس الإبليسي، كما ندل عليه بحمد الله؛ وإن كنا نعلم أن كثيرين ممن تمادوا في الضلال، سيصعب عليهم التخلص من قبضة الشيطان بعد أن أمكنوه من أنفسهم. ونعني بالخصوص، أنهم لن يستطيعوا تخليص أنفسهم منه بأنفسهم، كما قد يتوهمون لوهلة؛ وأما إن أسلموا قيادهم للربانيين من الورثة، فإنهم يُخلصونهم في طرفة عين.

ب– تبدأ المرحلة الثالثة في نظر "سابليوس" (مرحلة الروح القدس) بعد الرفع. والروح الذي حلّ على التلاميذ يوم الخمسين في نظره، هو نفسه الشخص الذي كان يعمل في العهد القديم، وهو نفسه الذي صار ابنا، وبعد ذلك انتحل حقيقة الروح القدس. وهذا يعني أن "سابليوس" يؤمن بأن شخص الإله واحد، ولكنه اتخذ صورا ثلاثا في حقب زمنية ثلاث مختلفات. وقد لاقى التفسير السابليوني قبولا واسعا، تأثر به كثيرون من معلمي الكنيسة، لسهولته وعدم تعقيده. ونعني بسهولته، موافقته للمنطق العقلي للأتباع؛ وهو ما دللنا عليه في الفقرة السابقة. لكن البابا "كالستوس" قد قام بإصدار

حرمان ضد "سابليوس" عام ٢٢٠م، الذي يُختلف في بقائه في روما بعد الحرمان، أو عودته إلى مصر حيث واصل نشر تعاليمه. وهنا ينبغي أن نذكر أمرا مهما، قد يُفسر كثيرا من أحداث التاريخ: وهو إرغام البعض للبعض الآخر، على ترك عقيدته، وعلى اعتناق العقيدة الجديدة. ويحدث هذا الإرغام في الغالب ممن تكون لهم مناصب دينية تدل ألقابها على الرفعة، أو من الحُكام إن تعصبوا لعقيدة بعينها، أو لتحالف بين رجال الدين والسلطة. ولا يعلم هؤلاء، أن العقائد الإيمانية -وهي هنا أشد تماسكا من الأيديولوجيا، وإن كانت هذه الأخيرة تظهر بمظهرها عند إرادة قهر المعتقد لها- لا تُنتزع بالقوة من أصحابها، لأنها قد صارت منطقا تعمل عليه عقولهم. وكما يرى المستبد أنه على صواب في عقيدته صدقا، فالمُستبَدّ به، أيضا يرى نفسه على الحق في عقيدته. وبما أن الوضع هو على التساوي من الناحية العقلية، فإنه كان ينبغي فتح المحاورة العقلية المعيارية، ليظهر معها أي العقيدتيْن أقوى، بالنظر إلى مدى مُطابقتها لنصوص الوحي الإلهي؛ إن كانت العقيدة إيمانية. أما إن كانت أيديولوجيا، فإن المنطق العقلي وحده، كاف في الكشف عن حقيقتها؛ ما لم تتحول الأيديولوجيا إلى إيمان عند الفرد، بسبب ضعف عقله من جهة، وبسبب ثقته برؤسائه من جهة أخرى. وذلك لأن العقيدة الإيمانية، مع ضعف العقل، لا تنفع معها محاورة؛ لغياب المعيارية الضرورية. وعلى كل حال، فنحن لا نبحث سبل جعل الناس يُغيّرون عقائدهم هنا، وإنما ننظر في الأسباب التي تجعل الناس يحملون غيرهم على عقائدهم بالقوة. ولعل القارئ قد استشف من كلامنا، أنه لا ينفع مع أهل الإيمان من ضعفاء العقول، إن أُريد صرفهم لسبب وجيه عن عقائدهم، إلا القوة. وهذا ما نُسميه القوة المشروعة، التي لا ينبغي لأحد التذرُّع بها، إلا إن كان نبيا أو وارثا لنبي. وهذه القوة المستعملة من الأنبياء لإرغام ضعفاء العقول على تغيير عقائدهم، لم يشرعها الله، إلا لجعل المُرغمين يفوزون بالآخرة في النهاية؛ فهو إرغام لهم على ما ينفعهم عند الله. وقد يعلم المُرغَم بالذوق عند اعتناق العقيدة النبوية، عن قريب، ما كانت تجدر الاستجابة إليه من البداية، لو أنه كان راجح العقل!... وهذا علم، لم نر من الفقهاء من فصّل فيه القول؛ خصوصا في الأزمنة المتأخرة التي طغى عليها الخطاب الدجالي القائل بحرية المُعتقد وبالحق في اختيار من شاء لما شاء. وهو مذهب ضلالي منكشف من أول وهلة، لتغييبه المآلات في العقائد والأفعال. ولسنا نعني بالمآلات هنا، ما هو متعلق بالآخرة وحدها؛ بل إن من المآلات الدنيوية، ما هو واضح جلي؛ يصلح لأن يُعتبر عند النظر؛ لكن الدجاليين يُصرون على الحرية التامة (زعما)، التي يُهلك المرء بها نفسه بنفسه؛ بحيث لا يجد في النهاية من يلومه على ما أصابه، مع أنه كان ممكورا به، متلاعَبا بعقله، من دون أن يشعر. ومن لا يرى عمل الشيطان بارزا من وراء الصورة المدلول عليها، فلا يعد نفسه من العقلاء؛ وليعمل على أن يكون تحت حماية أحد الربانيين، لعله ينجو في الدنيا وفي الآخرة. وسنعود إلى أحوال زماننا في جزء مستقل إن شاء الله، لنفكك خطاباته، ونبيّن مآلاتها...

ولا بد من أن نُشير هنا، إلى عدم وضوح معان في عقل "سابليوس"، والتي ستتسرب إلى النصارى مشوهة عبر القرون، وإلى يومنا هذا. ومنها على التخصيص:

ا- التجسد: وهو معنى يعنون منه كون الجسد العيسوي هو الله نفسه؛ من دون أن يُقرّوا للروح العيسوي بمكانته إلى جنب الجسد؛ وهذا يعني أنهم في النهاية سيظنّون أن الروح العيسوي هو الله نفسه. وهم في هذا على تناقض، بسبب كونهم يرون الجسد متحيّزا في المكان والزمان؛ وهم يقرّون بوجود أجساد (أجسام) معه ومخالفة له، لا حظ لها معه في الاعتبار. وكان ينبغي أن يذكروا حقيقة الأجسام الأخرى، هل هي الله أيضا؟ فيكون الله بذلك متعدد الصور (التجسد)؟ أم هي غيره، فيُفضي ذلك إلى القول بوجود آخر غير وجود الله (الظاهر بصورة عيسى)، والذي يُمكن -من باب الجدل- أن يكون لآلهة لا نهاية لها. وهكذا سيكون القول بالتجسّد، من أشنع الأقوال الدالة على ضعف العقول القائلة به.

ب- الوحدة من وراء التثليث: وذلك بجعل الواحد مرة إلها ومرة ابنا ومرة روحا قدسا، من دون أن يُشار إلى أين يكون الابن والروح القدس، قبل ظهورهما؛ ما داما يختلفان عن الله من جهة أزليته؟ وأين يكون الإله عند ظهور الابن تارة وظهور الروح القدس تارة أخرى وعلى التوالي؟ فهل يكون مع الأول ومع الثاني، أم يكون مع أحدهما في كل مرة، لاعتباريْن مُختلفيْن. وهل هو بطون وظهور في ذات واحدة؟ أم هو ظهور لذات، عند بطون أخرى أو أخريات؟... فإن قيل بالذات الواحدة وتوالي الظهور والبطون عليها، فأين يكون البطون عند الظهور؟ والعكس؟... وإن قيل بتعدد الذات، فلمَ يُتكلّف في تفسير الوحدة الكامنة في التثليث، وهي غير موجودة؟... ثم: لماذا لا يقول أهل التثليث بالتثليث، من دون اعتبار لوحدة؟... لولا أن الوحدة تُفرض على عُقولهم من جهة غيبهم، لكونها الحق.

ثم لا بد هنا من أن نفرق بين ما يزعمه أهل التثليث من توحيد، وما ذمهم الله عليه من قول بثالث الثلاثة. ولقد رأيناهم عند إرادة دفع القول بثالث الثلاثة، لا يدلون إلا عليه، بسبب ضعف عقولهم. وذلك لأنهم يظنون أنهم باعتبار الأقانيم، وظنهم أن قولهم بأن الله في المرتبة الأولى، قد تجسد في عيسى في مرتبة ثانية (زمنية)، وقد صار الروح القدس في المرتبة الثالثة؛ هو تعبير عن وحدة الله كما هي في اصطلاح أهل التوحيد. والحقيقة هي أنهم بقولهم ذاك، يقولون بأن الله يكون عين الله طورا، ويكون عيسى طورا مع بقاء الله الأول على مرتبته، ومع عدم غيابه؛ ويكون روحا قُدسا، مع بقاء المرتبتيْن الأوليَيْن في الاعتبار. وهذا قول بتطوُّر الله في المراتب، عند ظهوره في بعضها، ومغادرته غيرها؛ وهو عينه القول بثالث الثلاثة ذاته، الذي أنكره الله عليهم في قوله تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المائدة: ٧٣ - ٧٥]. ولعلنا سنستفيض في الكلام عن معنى القول بثالث الثلاثة، في كل مرة سنحت الفرصة ودعا إلى ذلك داع؛ لأننا نعلم أن المعنى قد لا يُدرك من أول مرة، بسبب مخالفته المعتاد في الأذهان.

ج- عمل الروح القدس: وذلك لأن الروح الذي حل في التلاميذ (الرسل)، قد حل في كثيرين من بعدهم، بحسب أقوال المعلمين. فمن كان له هذا الفضل من المسيحيين الذين جاءوا بعد التلاميذ، على وجه التخصيص؟... وهل استمر ذلك في كل الأزمنة التي بعدهم، وإلى يومنا هذا؟... ثم كيف يدّعي حلولَ الروح القدس به، كثير من وجوه المسيحيين، ثم يختلفون في أقوالهم بعد ذلك في الألوهية وفي حقيقة المسيح؟... فهل الروح القدس متعدد، أم إنه يتأثر بالمحل؟...

ورغم أن هذه الأسئلة لها إجابات عندنا، إلا أننا سنترك الإشارة إليها، إلى حين استعراض مقولات اللاهوتيين عبر العصور. ولقد قلنا بالإشارة إلى الأجوبة، لا بتفصيل الكلام فيها؛ لأن التفصيل لا يحتمله هذا الكتاب دائما؛ ولا العقول الناظرة فيه.

٣. عقيدة التبني (Adoptionism): التي يقول أصحابها بأن الله تبنى عيسى إما بعد تعميده في نهر الأردن، وإما بعد رفعه. وهي مقولة سمجة متكلّفة، لا تنم عن بُعد غور صاحبها في المعاني. وأصحابها من غير شك يفرون من القول بالبنوة المبهم، على معناه المتعارف عليه لدى المخالفين من المسيحيين؛ وبالتالي يفرون من القول بتأليه عيسى. وهذا مذهب "آريوس" عند تحقيق اللفظ، ومذهب غيره من الظاهريين كـ "نسطور"، بطريرك الكنيسة في القسطنطينية إبان القرن الخامس الميلادي.

وأما إن عدنا إلى عقيدة الرسل (الحواريين) والكنيسة الأولى، فإننا سنلاحظ مشاركتهم لأهل زمانهم من اليهود في العقيدة المسيحانية، من حيث هي رجاء عام لهم جميعا؛ إلى الحد الذي سألوا المسيح في آخر لقاء لهم به، كما أخبر سفر

الأعمال: "أَمَّا هُمُ الْمُجْتَمِعُونَ فَسَأَلُوهُ قَائِلِينَ: «يَا رَبُّ، هَلْ فِي هذَا الْوَقْتِ تَرُدُّ الْمُلْكَ إِلَى إِسْرَائِيلَ؟»"[1]. وهذا يعني أن التلاميذ لم يكونوا يختلفون عن اليهود في النظر إلى المملكة (الدولة)، على الرغم من دلالة عيسى عليه السلام الغالبة، إلى ملكوت السماوات. والحقيقة هي أن العقيدة الرسولية، لم تُبن في وجود عيسى عليه السلام بين التلاميذ، وإنما تعود إلى ما ينسبونه إلى الروح القدس الذي نزل عليهم في العلّية التي ذهبوا إليها بأمر المسيح بحسب زعمهم. و"امتلاء" التلاميذ من الروح القدس بحسب تعبير النصارى، في العلّيّة، كانت له آثار عليهم، منها على الخصوص:

ا- وجود الشجاعة: فيُحكى عن "بطرس" الذي أنكر عيسى من قبل وفرّ من أمام الخادمة، أنه أصبح يكلم الرؤساء والجموع بعد الخمسين معلنا عقيدته، كما يُخبر عن ذلك سفر الأعمال: "فَوَقَفَ بُطْرُسُ مَعَ الأَحَدَ عَشَرَ وَرَفَعَ صَوْتَهُ وَقَالَ لَهُمْ: «أَيُّهَا الرِّجَالُ الْيَهُودُ وَالسَّاكِنُونَ فِي أُورُشَلِيمَ أَجْمَعُونَ، لِيَكُنْ هذَا مَعْلُومًا عِنْدَكُمْ وَأَصْغُوا إِلَى كَلاَمِي، لأَنَّ هؤُلاَءِ لَيْسُوا سُكَارَى كَمَا أَنْتُمْ تَظُنُّونَ، لأَنَّهَا السَّاعَةُ الثَّالِثَةُ مِنَ النَّهَارِ. بَلْ هذَا مَا قِيلَ بِيُوئِيلَ النَّبِيِّ. يَقُولُ اللهُ: وَيَكُونُ فِي الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ أَنِّي أَسْكُبُ مِنْ رُوحِي عَلَى كُلِّ بَشَرٍ، فَيَتَنَبَّأُ بَنُوكُمْ وَبَنَاتُكُمْ، وَيَرَى شَبَابُكُمْ رُؤًى وَيَحْلُمُ شُيُوخُكُمْ أَحْلاَمًا. وَعَلَى عَبِيدِي أَيْضًا وَإِمَائِي أَسْكُبُ مِنْ رُوحِي فِي تِلْكَ الأَيَّامِ فَيَتَنَبَّأُونَ. وَأُعْطِي عَجَائِبَ فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ وَآيَاتٍ عَلَى الأَرْضِ مِنْ أَسْفَلُ: دَمًا وَنَارًا وَبُخَارَ دُخَانٍ. تَتَحَوَّلُ الشَّمْسُ إِلَى ظُلْمَةٍ وَالْقَمَرُ إِلَى دَمٍ، قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ يَوْمُ الرَّبِّ الْعَظِيمُ الشَّهِيرُ. وَيَكُونُ كُلُّ مَنْ يَدْعُو بِاسْمِ الرَّبِّ يَخْلُصُ. «أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِسْرَائِيلِيُّونَ اسْمَعُوا هذِهِ الأَقْوَالَ: يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ رَجُلٌ قَدْ تَبَرْهَنَ لَكُمْ مِنْ قِبَلِ اللهِ بِقُوَّاتٍ وَعَجَائِبَ وَآيَاتٍ صَنَعَهَا اللهُ بِيَدِهِ فِي وَسْطِكُمْ، كَمَا أَنْتُمْ أَيْضًا تَعْلَمُونَ. هذَا أَخَذْتُمُوهُ مُسَلَّمًا بِمَشُورَةِ اللهِ الْمَحْتُومَةِ وَعِلْمِهِ السَّابِقِ، وَبِأَيْدِي أَثَمَةٍ صَلَبْتُمُوهُ وَقَتَلْتُمُوهُ. اَلَّذِي أَقَامَهُ اللهُ نَاقِضًا أَوْجَاعَ الْمَوْتِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ مُمْكِنًا أَنْ يُمْسَكَ مِنْهُ. لأَنَّ دَاوُدَ يَقُولُ فِيهِ: كُنْتُ أَرَى الرَّبَّ أَمَامِي فِي كُلِّ حِينٍ، أَنَّهُ عَنْ يَمِينِي، لِكَيْ لاَ أَتَزَعْزَعَ. لِذلِكَ سُرَّ قَلْبِي وَتَهَلَّلَ لِسَانِي. حَتَّى جَسَدِي أَيْضًا سَيَسْكُنُ عَلَى رَجَاءٍ. لأَنَّكَ لَنْ تَتْرُكَ نَفْسِي فِي الْهَاوِيَةِ وَلاَ تَدَعَ قُدُّوسَكَ يَرَى فَسَادًا. عَرَّفْتَنِي سُبُلَ الْحَيَاةِ وَسَتَمْلأُنِي سُرُورًا مَعَ وَجْهِكَ. أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِخْوَةُ، يَسُوغُ أَنْ يُقَالَ لَكُمْ جِهَارًا عَنْ رَئِيسِ الآبَاءِ دَاوُدَ إِنَّهُ مَاتَ وَدُفِنَ، وَقَبْرُهُ عِنْدَنَا حَتَّى هذَا الْيَوْمِ. فَإِذْ كَانَ نَبِيًّا، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ حَلَفَ لَهُ بِقَسَمٍ أَنَّهُ مِنْ ثَمَرَةِ صُلْبِهِ يُقِيمُ الْمَسِيحَ حَسَبَ الْجَسَدِ لِيَجْلِسَ عَلَى كُرْسِيِّهِ، سَبَقَ فَرَأَى وَتَكَلَّمَ عَنْ قِيَامَةِ الْمَسِيحِ، أَنَّهُ لَمْ تُتْرَكْ نَفْسُهُ فِي الْهَاوِيَةِ وَلاَ رَأَى جَسَدُهُ فَسَادًا. فَيَسُوعُ هذَا أَقَامَهُ اللهُ، وَنَحْنُ جَمِيعًا شُهُودٌ لِذلِكَ. وَإِذِ ارْتَفَعَ بِيَمِينِ اللهِ، وَأَخَذَ مَوْعِدَ الرُّوحِ الْقُدُسِ مِنَ الآبِ، سَكَبَ هذَا الَّذِي أَنْتُمُ الآنَ تُبْصِرُونَهُ وَتَسْمَعُونَهُ. لأَنَّ دَاوُدَ لَمْ يَصْعَدْ إِلَى السَّمَاوَاتِ. وَهُوَ نَفْسُهُ يَقُولُ: قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي: اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئًا لِقَدَمَيْكَ. فَلْيَعْلَمْ يَقِينًا جَمِيعُ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ أَنَّ اللهَ جَعَلَ يَسُوعَ هذَا، الَّذِي صَلَبْتُمُوهُ أَنْتُمْ، رَبًّا وَمَسِيحًا».[2]

ب- تعليم الروح القدس ما لم يعلّمه المسيح: وهذا يحتاج لأن يُفرّق فيه بين ما هو موافق لما أسسه السيد المسيح عليه السلام، وما هو مُبتدع؛ لأن الروح القُدس من جهة ليس هو غير عيسى بحسب المسيحيين أنفسهم؛ ومن جهة أخرى، لا بد من معايير يُرجع إليها فيما يُنسب إلى الروح القدس؛ وإلا قال من شاء بما شاء، كما هو الواقع عبر الأزمنة المتعاقبة. وقد جاء في رسالة "بولس" الأولى إلى أهل كورنيثوس: "لِذلِكَ أُعَرِّفُكُمْ أَنْ لَيْسَ أَحَدٌ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِرُوحِ اللهِ يَقُولُ: «يَسُوعُ

[1] . أعمال الرسل: ١: ٦.

[2] . أعمال الرسل: ٢: ١٤-٣٦.

أَنَاثِيمَا[1]». وَلَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَسُوعُ رَبٌّ» إِلاَّ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ."[2]. وهذا القول من "بولس" مصادرة على المطلوب. وسنخصص لبولس فصلا لوحده فيما بعد، لأنه مختلف عن الرسل، وإن عُدّ منهم من قِبل رجال الكنيسة. وسنرى لماذا أُدرج بولس بين الرسل؟ وما كانت الغاية من ذلك؟...

ج- انقلاب مفهوم المسيح المخلص: فبعد أن كان اليهود يرونه معيدا لأمجاد المملكة اليهودية، وبعد رفع المسيح، الذي يراه "بطرس" قيامة، فإنه صار ربا وفاديا ومسيحا ومخلّصا، في خلط سيزداد انبهاما مع مرور الزمان. وإن علماء النصارى يعترفون في كتاباتهم، أن العقيدة المسيحية انقلبت بعد رفع المسيح (القيامة في نظرهم)، مُرجعين ذلك إلى تعليم الروح القُدس، من دون أن يخطر في بالهم الحفاظ على الموروث العيسوي نفسه. ونعني من هذا، أن قولهم بانقلاب العقيدة المسيحية، لا ينفي احتمال إخطائهم لطريق عيسى؛ ولكنهم لا يعتبرونه. ونحن لا نرى باعثا على تقديم "تصديق" الروح القدس، الناطق على ألسنة التلاميذ، على تصديق عيسى نفسه فيما بلّغ بلسانه عليه السلام، ولا ترجيح ذلك التقديم، إلا من اتباع الهوى، الذي هو سبيل الشيطان، ومن تحقُّق الضلال الذي وصف الله به النصارى. يقول الله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [الجاثية: ٢٣].

ولنعد الآن إلى خطبة "بطرس" لنتناولها بشيء من الروية:

- "أَيُّهَا الرِّجَالُ الْيَهُودُ وَالسَّاكِنُونَ فِي أُورُشَلِيمَ أَجْمَعُونَ، لِيَكُنْ هذَا مَعْلُومًا عِنْدَكُمْ وَأَصْغُوا إِلَى كَلاَمِي، لأَنَّ هؤُلاَءِ لَيْسُوا سُكَارَى كَمَا أَنْتُمْ تَظُنُّونَ، لأَنَّهَا السَّاعَةُ الثَّالِثَةُ مِنَ النَّهَارِ": هذا إعلان عام، سيُعلن بطرس فيه العقيدة المسيحية التي لم يكن عليها مع معلمه المسيح؛ وإنما تلك التي ينسبها إلى الروح القدس (!). يعلم بطرس أنه سيخاطب الناس هنا، بما يُجاوز المنطق الديني المعهود لدى اليهود، وبما يجاوز المنطق العقلي، لدى من له إلمام به؛ وهو مُدرك أن ما سينطق به يُشبه هذيان المخمورين السكارى. ولكنه مع ذلك، يُنبه إلى أن التلاميذ (وهو معهم)، ليسوا سُكارى؛ لأن الساعة لم تتجاوز الثالثة بعد الزوال؛ وهو وقت لم يعتد الناس الشرب فيه. ولكن هذه المقدمة، ليست من القوة بحيث يُنتج سماع ما يُشبه الهذيان معنى صحيحا ثابتا، يعقد عليه الناس قلوبهم وهم مطمئنون؛ لا لشيء، إلا لأن بطرس مصرّ عليه. وكأنه صار نائبا عن الناس في اختياراتهم، لسبب من الأسباب؛ فإما أن يكون مُحتقرا لغيره من السامعين، وإما أن يكون مستبدا لا يُري الناس إلا ما يرى. من دون أن يُعْلِمهم أولا: هل هذه المسألة متسعة للاختلاف، كل بحسب دليله، أم لا؟ فإن لم تتسع للاختلاف، فلا بد أن يكون سنده في ذلك نص من عيسى قوي، معلوم الدلالة لدى الجميع؛ أو سيبقى الاختلاف حلا أمثل لجمع شمل الكنيسة على كل ما له سند من قول عيسى في المسألة. وإلا صار اتباع عيسى فارغا من معناه، كما يحدث عادة، عند خروج (فُسوق) المتدينين عن سواء الصراط.

- "بَلْ هذَا مَا قِيلَ بِيُوئِيلَ النَّبِيِّ. يَقُولُ اللهُ: وَيَكُونُ فِي الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ أَنِّي أَسْكُبُ مِنْ رُوحِي عَلَى كُلِّ بَشَرٍ، فَيَتَنَبَّأُ بَنُوكُمْ وَبَنَاتُكُمْ، وَيَرَى شَبَابُكُمْ رُؤًى وَيَحْلُمُ شُيُوخُكُمْ أَحْلاَمًا. وَعَلَى عَبِيدِي أَيْضًا وَإِمَائِي أَسْكُبُ مِنْ رُوحِي فِي تِلْكَ الأَيَّامِ فَيَتَنَبَّأُونَ.": وهنا يُريد بطرس التأسيس لما سيفوه به، من كلام النبوة السابقة (يوئيل)، حيث أخبر الله أنه سيسكب من روحه على البشر؛ والحال أن من سيزعمون الكلام باسم الروح اثنا عشرة فقط. ويُخبر الله بحسبهم أنه سيجعل بنات وبني إسرائيل يتنبأون؛ والحال أن من تنبأ الاثنا عشر في ذلك الوقت وحدهم. وهذا التأسيس من بطرس ليس بالمتانة التي تجعل

---

[1] . أناثيما كلمة يونانية معناها اللعنة.

[2] . رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس: ١٢: ٣.

الناس يقبلون منه كل ما سيُعلنه مؤسَّسا عليه، ولا يعدو الأمر أن يكون تهافتا منه بيّنا، كما لا يخفى عن عاقل. ولو تمعنّا في النص، لوجدناه يتكلم عن أشراط الساعة، التي ستحدث قبل أن يحل أجلها. وكثرة الرؤى للصالحين في آخر الزمان، علامة من علامات الساعة، يُخبر بها الراؤون عما يحتاجون إليه في زمانهم ذاك. وقد جاء في الحديث، في هذا المعنى، قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ، لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا الْمُسْلِمِ تَكْذِبُ، وَأَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا. وَرُؤْيَا الْمُسْلِمِ، جُزْءٌ مِنْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ.»[1]. فهذا، من ذاك الذي أخبر به "يوئيل"؛ ويؤكد ما نذهب إليه، قوله في بداية الكلام "وَيَكُونُ فِي الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ"...

- "وَأُعْطِي عَجَائِبَ فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ وَآيَاتٍ عَلَى الأَرْضِ مِنْ أَسْفَلُ: دَمًا وَنَارًا وَبُخَارَ دُخَانٍ. تَتَحَوَّلُ الشَّمْسُ إِلَى ظُلْمَةٍ وَالْقَمَرُ إِلَى دَمٍ، قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ يَوْمُ الرَّبِّ الْعَظِيمُ الشَّهِيرُ. وَيَكُونُ كُلُّ مَنْ يَدْعُو بِاسْمِ الرَّبِّ يَخْلُصُ.": وهذا أيضا متعلق بمقدمات القيامة، وهو صريح وواضح؛ وكأن بطرس أورد ذلك، على سبيل الوعيد. وأما الدعاء باسم الرب، فلا يعني من جهة الاصطلاح الدعاء باسم عيسى من حيث كونه ربا؛ إلا من باب التكلّف والتحكّم.

- "أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِسْرَائِيلِيُّونَ اسْمَعُوا هذِهِ الأَقْوَالَ: يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ رَجُلٌ قَدْ تَبَرْهَنَ لَكُمْ مِنْ قِبَلِ اللهِ بِقُوَّاتٍ وَعَجَائِبَ وَآيَاتٍ صَنَعَهَا اللهُ بِيَدِهِ فِي وَسْطِكُمْ، كَمَا أَنْتُمْ أَيْضًا تَعْلَمُونَ.": وهذا الكلام لا خلاف عليه، خصوصا وأنه يصف عيسى بالرجل؛ وإن كان اليهود يجحدونه من جهة المرتبة. والسؤال هنا هو: كيف يكون الرجل فيما بعد ربا؟!... فهل يكون كل رجل ربا؟... أم إن الأمر يخص عيسى وحده؟... وإن كان الأمر يخص عيسى، فما وجه التخصيص؟... كل هذا، مما ينبغي للعقل المسيحي فيما بعد التأسيس، أن يعيد النظر فيه؛ لأن التلاميذ كما سبق أن أخبرنا لا يبلغون من العقل ما يتناولون به ما يقولون. ومع هذا، فإننا دائما نميّز بين ما يكون عن عيسى وعن الروح القدس في الأصل، وما يكون عن تلبيس الشيطان. ولعل القارئ سيتبيّن ذلك معنا، في كل مرة، مع تقدمنا في الكتاب. وهذا يعني أننا لا نريد أن يُغمط المسيحيون حقهم، كما لا نريد أن نُسايرهم فيما لا أصل له من الحق.

- "هذَا أَخَذْتُمُوهُ مُسَلَّمًا بِمَشُورَةِ اللهِ الْمَحْتُومَةِ وَعِلْمِهِ السَّابِقِ، وَبِأَيْدِي أَثَمَةٍ صَلَبْتُمُوهُ وَقَتَلْتُمُوهُ. اَلَّذِي أَقَامَهُ اللهُ نَاقِضًا أَوْجَاعَ الْمَوْتِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ مُمْكِنًا أَنْ يُمْسَكَ مِنْهُ.": يلجأ هنا بطرس إلى التدليس، ويربط بين تسليم بعض اليهود بما فعل عيسى من معجزات، وما ظنوا أنهم نالوه منه بالصلب والقتل اللذيْن لم يثبُتا من جهة الوحي الإلهي. أما من جهة الواقع المحسوس، فالأمر أشد بعدا، لأنه حكم بالعادة فحسب؛ مع العلم بأن العقل غير مأمون دائما، على تفسير ما يأخذه من الحواس. وهذا أمر يطول الكلام فيه، وهو خارج عن موضوع الكتاب... ثم إن تنزيه عيسى عن الموت، والذي يختم به بطرس هذه الفقرة، لا يصح؛ لأنه من جهة كونه جسما طبيعيا، يجري عليه ما يجري على نظرائه في البشرية من أحكام الطبيعة، التي على رأسها الموت، بما هو فساد للصورة كما عبّر عن ذلك الفلاسفة الأقدمون، وتحليل للتركيب. ولقد أخبر الله عن هذه الحقيقة بقوله: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} [النساء: ١٥٩]؛ أي قبل موت عيسى، بعد نزوله وإكمال حياته الدنيوية. ولعل العقل المسيحي البدائي، رأى في الموت نقصا، ينبغي أن يُنزّه عنه من يحظى بالتعظيم؛ خصوصا إن نُسبت إليه الربوبية. وهذا خلط كبير في الأحكام، سنرى تفاصيله في كل مرة وبالتدريج، مع تقدمنا في الكتاب، إن شاء الله.

- "لأَنَّ دَاوُدَ يَقُولُ فِيهِ: كُنْتُ أَرَى الرَّبَّ أَمَامِي فِي كُلِّ حِينٍ، أَنَّهُ عَنْ يَمِينِي، لِكَيْ لاَ أَتَزَعْزَعَ. لِذلِكَ سُرَّ قَلْبِي وَتَهَلَّلَ لِسَانِي. حَتَّى جَسَدِي أَيْضًا سَيَسْكُنُ عَلَى رَجَاءٍ. لأَنَّكَ لَنْ تَتْرُكَ نَفْسِي فِي الْهَاوِيَةِ وَلاَ تَدَعَ قُدُّوسَكَ يَرَى فَسَادًا. عَرَّفْتَنِي سُبُلَ

---

[1] . أخرجه مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الْحَيَاةِ وَسَتَمْلأُنِي سُرُورًا مَعَ وَجْهِكَ.": وهذا خلط آخر، عندما يُحمَل كلام داود على أنه مناجاة لعيسى، بينما هو متأخر عنه في الزمان. وهذا الكلام على انحرافه، له سبب غيبي دعا إلى الوقوع فيه؛ وهو علم المتكلم بالحقيقة المحمدية، من وراء حجاب إيمانه بعيسى. ونعني أن الإيمان بعيسى، يُعطي من جهة خفية العلم بالحقيقة المحمدية، من دون أن يكون للعالِم علم بعلمه. وذلك بسبب دلالة عيسى الذاتية على محمد صلى الله عليه وآله وسلم، من كونه أحد وجوهها التي لها الإحاطة. وهذا يصدق على داود وغيره من الأنبياء عليهم السلام، لكن لا من الوجه الذي يدل عليه بطرس؛ بل من جهة ختمية عيسى للولاية العامة. وأما الوجه المشار إليه في كلام داود عليه السلام، فهو الوجه المحمدي الجامع، من غير شك. وهذا الكلام، وإن كان قد فات المسيحيين الأولين إدراكه، فإننا ندل عليه نصارى زماننا لعلهم يظفرون بما هو مخصوص بأهل آخر الزمان. ونحن نؤكد هنا على ضرورة تخلص المتأخرين من قيود السابقين، يهودا ونصارى ومسلمين؛ لأن التقيُّد بفهم الأقدمين دائما، يحرم من تجليات الوقت؛ وهذا باب من العلم ينبغي أن لا يُهمل. ومن العجب أن يعي الناس معنى التراكم العلمي في مجال العلوم التجريبية أو العلوم "الإنسانية"، ولا يتنبهون له في مجال الدين؛ وكأن المعارف الدينية قد جمدت على صورة واحدة لا تتغير!...

- "أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِخْوَةُ، يَسُوغُ أَنْ يُقَالَ لَكُمْ جِهَارًا عَنْ رَئِيسِ الآبَاءِ دَاوُدَ إِنَّهُ مَاتَ وَدُفِنَ، وَقَبْرُهُ عِنْدَنَا حَتَّى هذَا الْيَوْمِ. فَإِذْ كَانَ نَبِيًّا، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ حَلَفَ لَهُ بِقَسَمٍ أَنَّهُ مِنْ ثَمَرَةِ صُلْبِهِ يُقِيمُ الْمَسِيحَ حَسَبَ الْجَسَدِ لِيَجْلِسَ عَلَى كُرْسِيِّهِ، سَبَقَ فَرَأَى وَتَكَلَّمَ عَنْ قِيَامَةِ الْمَسِيحِ، أَنَّهُ لَمْ تُتْرَكْ نَفْسُهُ فِي الْهَاوِيَةِ وَلاَ رَأَى جَسَدُهُ فَسَادًا. فَيَسُوعُ هذَا أَقَامَهُ اللهُ، وَنَحْنُ جَمِيعًا شُهُودٌ لِذلِكَ. وَإِذِ ارْتَفَعَ بِيَمِينِ اللهِ، وَأَخَذَ مَوْعِدَ الرُّوحِ الْقُدُسِ مِنَ الآبِ، سَكَبَ هذَا الَّذِي أَنْتُمُ الآنَ تُبْصِرُونَهُ وَتَسْمَعُونَهُ. لأَنَّ دَاوُدَ لَمْ يَصْعَدْ إِلَى السَّمَاوَاتِ. وَهُوَ نَفْسُهُ يَقُولُ: قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي: اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئًا لِقَدَمَيْكَ. فَلْيَعْلَمْ يَقِينًا جَمِيعُ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ أَنَّ اللهَ جَعَلَ يَسُوعَ هذَا، الَّذِي صَلَبْتُمُوهُ أَنْتُمْ، رَبًّا وَمَسِيحًا.": وهذا تكلف واضح من بطرس الذي يبدو أنه يجهل حقيقة داود نفسه عليه السلام، ويبدو أنه لم يكن يعلم منه إلا ما كان يعلمه اليهود، من كونه ملِكا لهم. وهذا جهل ينبغي العمل على التخلص منه؛ خصوصا وأن القرآن قد جاء معرفا بحقيقة داود وحقيقة عيسى عليهما السلام. وأما من كانوا يتوهمون أن الوحي قد انقطع مع التوراة أو مع الإنجيل، فليتنبهوا إلى كون التوراة والإنجيل قد فُقد النصّ الأصلي منهما، ولم يبق إلا معناهما المتناقل شفويا. ومن عرف أن القرآن، لا يصح أن يُنقل بالمعنى، فإنه سيعلم لم اختصّه الله بالحفظ من عنده؛ وهو القائل سبحانه عنه: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ . أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: ٤٨ - ٥٠]. والكلام هنا عن أهل الكتاب، وعن موقفهم من القرآن، عند تمسكهم ظاهرا بشريعتهم. وأما الجاهلية فلا تعني هنا جاهلية المشركين المعروفة، وإنما تعني جاهلية أهل الكتاب، عندما يُصرّون على ما هم عليه من دين محرَّف، والقرآن يُتلى عليهم. ومثلهم فيما يكونون عليه من جهة المرتبة العقلية، التي ستظهر لهم أحكامها في الآخرة، كمثل المتمسك بشمعته عند طلوع الشمس وسطوع نورها. ونحن كما عوّدنا القارئ لنا، لا نقول هذا تعصبا للإسلام المحمدي، ولكن صدعا بالحق الأبلج الذي لا يقبل في وجوده لجاجا.

ولا بأس هنا، وبعد استعراض خطبة بطرس وهو من كان يُعوّل المسيح عليه في إمامة كنيسته، من أن نعرض لخطبة أبي بكر رضي الله عنه، بعد إعلان وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لنتبيّن الفرق بين المقامين. وقد ورد في حديث

عائشة عليها السلام: «أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَقْبَلَ عَلَى فَرَسٍ مِنْ مَسْكَنِهِ بِالسُّنْحِ حَتَّى نَزَلَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ فَلَمْ يُكَلِّمْ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ، فَتَيَمَّمَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُغَشًّى بِثَوْبِ حِبَرَةٍ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ وَبَكَى، ثُمَّ قَالَ: "بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! وَاللَّهِ لَا يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ؛ أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا." قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَحَدَّثَنِي أَبُو سَلَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُكَلِّمُ النَّاسَ، فَقَالَ: اجْلِسْ يَا عُمَرُ! فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ؛ فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: "أَمَّا بَعْدُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ؛ وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللَّهَ، فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ! قَالَ اللَّهُ: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ إِلَى قَوْلِهِ: الشَّاكِرِينَ}. وَقَالَ (ابن عباس): وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ؛ فَمَا أَسْمَعُ بَشَرًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا يَتْلُوهَا. فَأَخْبَرَنِي (القول للراوي) سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ أَنَّ عُمَرَ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا فَعَقِرْتُ حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلَايَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلَاهَا؛ عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ قَدْ مَاتَ."»[1]. ولنستخرج الآن بعض ما بهذه الألفاظ من الحِكم:

– القول بـ "أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَقْبَلَ عَلَى فَرَسٍ مِنْ مَسْكَنِهِ بِالسُّنْحِ حَتَّى نَزَلَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ فَلَمْ يُكَلِّمْ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ": يدل على ثبات الخليفة، وعلى جدّه في موطن الجد. وكان رضي الله عنه، قد سمع بخبر وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهو خارج المدينة، كما هو واضح.

– "فَتَيَمَّمَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُغَشًّى بِثَوْبِ حِبَرَةٍ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ وَبَكَى.": وهذا أدب الخليفة مع مستخلِفه صلى الله عليه وآله وسلم، من دون جزع ولا إنكار لمواجيده لفقده النبي صلى الله عليه وآله وسلم، الذي لن يبلغه فيها أحد من الصحابة رضي الله عنهم؛ إلا من كان من كبارهم، كعلي عليه السلام وعمر وعثمان رضي الله عنهما.

– "ثُمَّ قَالَ: "بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! وَاللَّهِ لَا يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ؛ أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا.": وهذا من علمه رضي الله عنه بوجوب الموت على الأجسام الطبيعية، خلافا لما كان من بطرس، الذي لم يرَ ذلك لائقا بعيسى؛ ولو لم يقع بعد. وأما بعد الموتة الطبيعية، فلا موت على الناس؛ إلا ما يكون من الموت المعنوي الذي يتكلم عنه أرباب التزكية، وهو أمر آخر يُذكر في سياقه. كل هذا، وموت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ليس كموت غيره، لكون مرتبته الفريدة لا تعطي المُشاركة إلا من جهة الظاهر. وهذا هو التنزيه الذي كان ينبغي أن يعلمه بطرس، مما يليق بعيسى عند موته عليه السلام لو مات؛ لا ما يُخرجه عن أوصاف البشرية بالكلية. وإن ما نذكره هنا، لا يقع لصحابة الأنبياء وحدهم؛ وإنما يقع لتلاميذ الربانيين من الشيوخ أيضا، بسبب خصوصيتهم (ولايتهم). ولكن العلم الكامل الصحيح، لا بد أن يعيد التلميذ إلى الحقائق كما هي في نفسها، لا كما يُظن فيها مع الإجمال.

– القول بـ "أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُكَلِّمُ النَّاسَ، فَقَالَ: اجْلِسْ يَا عُمَرُ! فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ؛ فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَتَرَكُوا عُمَرَ.": هو من علامات الخلافة، لأن الخليفة قائم في أموره بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ وهو يعلم أن له الحكم بذلك، على عمر وغيره علما محقّقا ذوقيا. وهذا الموقف يُظهر سر النبوة (الروح القدس)، الذي حل بأبي بكر رضي الله عنه. ومعنى الحلول هنا، ليس كما قد يفهمه الماديّون؛ وإنما هو إذن من جهة غيب المرء بولوج مرتبة خاصة، لم يكن له عنها خبر فيما قبل. وذلك لأن حقيقة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، محتوية للجميع من تلك الجهة الغيبية؛ وإن كان لا يؤذن لفتح بابها إلا لأهلها. وعلى هذا الأمر كان تلاميذ عيسى معه، بعد رفعه؛ لولا ما دخل عليهم من

---

[1] . أخرجه البخاري عن عائشة عليها السلام.

التأوُّل. وإقبال الصحابة رضي الله عنهم على أبي بكر، وتركهم لعمر، هو من آثار توجُّههم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فهم الآن ينجذبون إليه في مظهر أبي بكر رضي الله عنه، من جهة غيبهم، من دون أن يتبيّنوا ذلك على وجه التفصيل.

- "فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: "أَمَّا بَعْدُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ؛ وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللَّهَ، فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ! قَالَ اللَّهُ: {وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ إِلَى قَوْلِهِ: الشَّاكِرِينَ[1]}": وهذه هي الآية الكبرى من أبي بكر رضي الله عنه!... إنه يُميّز بين نور النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبين النور الإلهي الأول، ويُميّز بين الظاهر والمظهر؛ وهو علم نفيس لا يكون إلا للورثة. وهذا كله من علامات تحقق معرفته بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، الذي منه عرف ربه. ولنلاحظ كيف أنه نسب الموت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا إلى الله الحي الذي لا يموت، مع علمه بأن الظاهر بالصورة المحمدية هو الله لا غيره. وهذا هو علم الفرقان، الذي يكون بعد علم القرآن. ولنلاحظ الآن الفرق بين علم بطرس وعلم أبي بكر، لنعلم خصوصية هذه الأمة، وخصوصية نبيها صلى الله عليه وآله وسلم. ولننظر إلى أثر كلام بطرس، كيف كان سببا في ضلال أمة بكاملها، منذ الأسابيع الأولى من رفع عيسى عليه السلام؛ في مقابل التثبيت الذي ثبّت به أبو بكر الأمة المحمدية من يوم وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإلى قيام الساعة. فجزاه الله عن الأمة خير الجزاء، وشكر له حسن خلافته فيها بما يُرضيه في نفسه الشريفة وفي ذريته والأمة جمعاء.

- "وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا فَعَقِرْتُ حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلَايَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلَاهَا؛ عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ قَدْ مَاتَ.": وقد كان عمر في حال إنكار لموت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يكاد ينطق بما نطق به بطرس. وما ذلك إلا لعلمه بحقيقة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كما كان بطرس على إيمان بعيسى يقارب في قوته المشاهدة التي كانت لعمر. ولكن عمر رضي الله عنه وجد من يأخذ بيده، في مهامِه العلم بالله؛ وبطرس اختلط عليه الأمر فضل وأضلّ.

وبما أن معتقد يوحنا (الرسول)، يمثل العقائد الرسولية في إجمالها؛ وبما أن إنجيله قد كُتب ردا على هرطقات القرن الأول؛ فإننا سنتناول في الفصل القادم، عبارات "إنجيل يوحنا"، التي ينفع أن نُدلل بها على أصول العقيدة المسيحية الأولى في تفاصيلها. وسنعمل -بإذن الله- على تبيين معاني الألفاظ التي تكون أحيانا صوابا، ونميّزها عن المعاني المفهومة للمسيحيين من الألفاظ، والتي في الغالب تكون خاطئة. وسنبيّن إن شاء الله، أسباب تلك الأخطاء المعنوية؛ فإنها من أعجب ما يتعلّق به العلم.

ولا شك أن ذلك سينطبق على المسلمين في عقائدهم الكلامية نوع انطباق؛ ونحن لن ندخر وسعا في بيان تلك المطابقات، وبيان أسبابها أيضا؛ لأنها قد توافق الأسباب العاملة لدى المسيحيين، كما قد تُخالفها؛ إما كليا، وإما جزئيا...

---

[1] . الآية بتمامها، هي: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: ١٤٤].

الفصل الثالث
عقيدة يوحنا

يقول يوحنا في إنجيله:

- "فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ. هذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللهِ."[1]. لا شك أن هذه العبارة من وحي الروح القدس، على الرغم مما تبدو عليه من اضطراب؛ لكننا نحن، نتبع المعنى لا اللفظ!... وهي من أعلى ما يُقال في هذا المجال!... ويقصد يوحنا بـ "البدء"، بداية التجلي الحقي، وبداية التعيُّن الذاتي، وبداية الخلق في العالم العلوي، وقبل خلق الأرواح (الملائكة) نفسها. ونعني من هذا، أن البدء هنا بدء مراتب، لا بدء تكوين طبيعي؛ لأن العالم العلوي لم يُخلق بعد، فكيف بالعالم السُّفلي!... ومعنى الكلمة هنا صحيح؛ وقد ورد به القرآن الكريم في قول الله تعالى عن عيسى عليه السلام: {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ} [النساء: ١٧١]. ومعنى الكلمة في الآية جزئي، بحيث لا يكون عيسى الكلمة الكلية المشار إليها في قول يوحنّا، والتي هي أول ما خلق الله؛ وإنما هو بعضها. ويبقى المعنى الكلّي خاصا بالحقيقة المحمدية التي توصف بأنها الكلمة الجامعة. وقد نقبل وصف عيسى بالكلمة، من وجه أن الحقيقة الكلية لم يقع فيها التمايُز بين حقائقها التفصيلية. وعلى كل حال، فلا بد من تبيُّن ما ذكرناه، لضبط معنى الكلمة، حتى لا يقع الانحراف عن الحق في الإطلاق. وسُمِّيت كلمة، لظهورها في التعيّن الأول الخلقي بالأسماء الإلهية الحرفية كلها (الكلمة مجموعة حروف ذات معنى). وعلى هذا، تكون المخلوقات التي ظهرت بالترتيب عن الحقيقة المحمدية، كلمات تفصيلية، كما ذكرنا. ولسنا نعني أن عيسى هو من جملة الكلمات التفصيلية، حتى يتساوى مع غيره من الناس؛ ولكن نعني أنه وجه من وجوه الكلمة المحمدية، وهو الوجه الباطن، الذي ينظر إلى أحدية الحق. وهو بهذه المثابة، يأتي بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم في المرتبة عند الحق. وأما هؤلاء وأولئك من المسيحيين ومن المسلمين، الذين يتنازعون أمر الأفضلية بغير علم، فهم ممن لا ينبغي الالتفات إلى أقوالهم.

ومعنى قول يوحنا "وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ"، هو أن هذا التجلي الخلقي المحمدي الأول (وهو مسمى العقل الأول)، تجلٍّ ذاتي؛ تجلت به الذات بنفسها لنفسها. وهو وجود تام، ليس فيه من العدم إلا النسبة المحمدية الأزلية. وهذا التجلي الأول، الذي هو العقل الأول بلسان الشرع والفلسفة معا، هو أيضا "الإنسان" بلسان الشرع من وجه آخر. ونحن لا نرى طعن المحدثين في حديث «أَوَّلُ ما خَلَقَ اللهُ الْعَقْلَ؛ فَقالَ لَهُ: "أَقْبِلْ!" فَأَقْبَلَ؛ ثُمَّ قالَ لَهُ: "أَدْبِرْ!"، فَأَدْبَرَ؛ ثم قال اللهُ عزَّ وجلَّ: "وَعِزَّتِي وَجَلالِي، ما خَلَقْتُ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْكَ! بِكَ آخُذُ، وَبِكَ أُعْطِي؛ وَبِكَ أُثِيبُ، وَبِكَ أُعَاقِبُ!»، من جهة المتن، إلا بسبب قصور العقل الفقهي عن إدراك معنى العقل الأول الفلسفي. ونعني أن الفقهاء قد فهموا من "العقل" جنس العقول المعلومة لديهم، ملائكةً (العقول المجردة) وأناسيَ؛ والحقيقة هي أنه عقل ذاتي. وأما إقبال العقل وإدباره في الحديث، فليسا بمعنى الحركة داخل الحيّز المكاني، كما يُدرك أسارى الطبيعة؛ وإنما هي حركة إمكانية من حقيقة العقل بين وجوده وعدمه، ما دام هذا العقل أيضا، وبمعنى آخر: الممكن الأول. وأما قول الله بعد ذلك للعقل: "وَعِزَّتِي وَجَلالِي، ما خَلَقْتُ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْكَ! بِكَ آخُذُ، وَبِكَ أُعْطِي؛ وَبِكَ أُثِيبُ، وَبِكَ أُعَاقِبُ!"، فلأن جميع الخلق منبثقون عن العقل

---

[1]. يوحنا: ١: ١-٢.

الأول، من كونهم عقولا جزئية -كما أخبرنا سابقا عن الكلمة التي هي العقل نفسه من وجه آخر- لها مراتب ودرجات في سلم تراتبها؛ ولأن كل الأحكام الشرعية التي يترتب عليها الثواب والعقاب لجنسي الآدميين والجن، في التجلي الأخروي، هي نتيجة تلك الأحكام الأولى. فلهذا كان العقل الأول سببا في الخلق وسببا في معاملة الله لهم المعاملة اللائقة بهم. بل إن الأحكام الأخروية للكلمات الجزئية، هي نتيجة تحيّزها في الكلمة الجامعة. ولسنا نعني هنا إلا ما كان منها في جهة اليمين، وما كان في جهة الشمال، وما كان في جهة الصدر. وهذا التحيّز، هو ما يُشير إليه قول الله تعالى: {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً . فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ . وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ} [الواقعة: ٧ - ١١]؛ وأما معنى "الإنسان"، فقد أوضحناه في الجزء الأول من هذا الكتاب؛ وبيّنا معنى وصف عيسى المتكرر لنفسه بـ "ابن الإنسان". فبيّنا معنى الإنسان ومعنى البنوة له، التي اختلطت على المسيحيين، فجعلوها بنوة لله بالمعنى الطبيعي، فأخطأوا معنى لفظها.

وأما معنى "وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ"، فهو ما ذكرناه من كون تجلي الكلمة تجليا ذاتيا من الذات وإليها. وهذه الكلمة (الحقيقة المحمدية)، هي صورة الحق المسماة "الله". ولقد كانت لها هذه التسمية من جهتيْن: الأولى، لأن هذا الاسم علم على الذات؛ والثانية، لأن هذا الاسم علم على مرتبة الواحدية، التي تشمل جميع معاني الأسماء الإلهية التفصيلية. لهذا كان التفريق بين الله والكلمة تفريقا عقليا باعتبار حضرات الحق وحدها، وإلا فإن الذات واحدة لا تفريق فيها من جهة كونها ذاتا. وهذا يعني أن الله هو الكلمة، وأن الكلمة هي الله. ومن هنا كانت هذه الكلمة العلوية الجامعة صورة لله، وكانت أصلا صُوِّر على هيئته آدم. جاء في الحديث: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»[1]. وليست الصورة إلا ما يكون عليه صاحبها من صفات ظاهرة وصفات معنوية. وهكذا يكون آدم مخلوقا على صورة الحقيقة المحمدية، التي هي أصل الصورة العيسوية من جهتيْن: من الجهة الآدمية الترابية، ومن الجهة المحمدية الروحانية.

وأما قوله "هذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللهِ"، فهو تأكيد لكل المعاني المذكورة آنفا؛ والمقصود منه عدم الخروج في كل ذلك عن معنى الذات التي هي مسمى "الله". والعندية هنا عندية ذاتية لا تتعلق بالأسماء إلا من حيث هي غيوب في الاسم الله.

ورغم هذا الذي ذكرنا، فإننا نجزم أن يوحنا لم يكن على علم بتفاصيله المتعلقة حينا بالذات وحينا بالمرتبة. وسيأتي -إن شاء الله- ما سيُؤكد زعمنا، وسنذكّر به القارئ في حينه. وهذا يعني أن يوحنا علم لفظ الحقيقة إما من عيسى، وإما من الروح القدس؛ لكنه لم يُوفّق في معرفة تفاصيلها، فدخل عليه العقل التفسيري القاصر، الذي يكون مطية الشيطان في أحيان كثيرة. وهذا يعني أيضا، أن أصحاب عيسى، لم يكونوا معصومين في فهمهم وفي إيمانهم...

ثم يقول يوحنا: "كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ."[2]: وهذا معنى القيومية، الذي يقول الله فيه سبحانه: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥]. وهذا يعني أن كل ما سوى الله، هو ظاهر بالله لا بنفسه؛ وهي من أعوص المسائل على العقول. لكنّها عند أهل الكشف من أجلاها وأوضحها. وهذا الذي يذكره يوحنّا هنا، كان ينبغي أن يجعل المسيحيين يرون المسيح قائما بالله؛ وعند ذلك لن يضلّوا. ولكنهم عندما خاضوا في حقيقته، من غير إحكام لعلم الحقائق، اختلط عليهم الأمر، ودخل عليهم العقل. وهذا أصل ضلالهم، كما أخبر الله عنهم، وكما سنبيّن نحن في هذا الكتاب شيئا فشيئا.

---

[1] . متفق عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] . يوحنا: ١: ٣.

ثم يضيف: "فِيهِ كَانَتِ الْحَيَاةُ، وَالْحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ، وَالنُّورُ يُضِيءُ فِي الظُّلْمَةِ، وَالظُّلْمَةُ لَمْ تُدْرِكْهُ."[1]: والحياة هي ما رأينا الله يذكرها مع القيومية في قوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥]. ومعنى الحياة الإلهية، ليس هو كما يتوهمه الناس بالقياس إلى الحياة الطبيعية؛ ولكنه أصله الأول. وهو معنى ذاتي، به كان التجلي، الذي به ظهرت أعيان المخلوقات كلها، سابقها ولاحقها. وهذه الحياة هي أصل حياة المسيح، وكل عبد رباني فني عن نفسه وبقي بربه، قبل المسيح وبعده. ومن هذا الوجه، لا يجوز الموت على الربانيين، وإن ماتوا الميتة الطبيعية. وهو عينه ما دل عليه قول أبي بكر رضي الله عنه، الذي أوردناه في الفصل السابق، عندما خاطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! وَاللَّهِ لَا يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ؛ أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا.»؛ أي: إن الموت الذي هو خارج المعنى الطبيعي، لا يجوز عليك، صلى الله عليك وعلى آلك وسلم. ولقد أحسن يوحنّا بذكر الحياة قبل النور، لأن الاسم "النور" بالحياة ظهر حكمه في الذات. والنور والظلمة هنا أيضا ليسا ذيْنك المعلوميْن من الطبيعة؛ وإنما هما أصلاهما في الحقائق. ويعني يوحنا –رضي الله عنه– هنا، أن الله لما أراد أن يخلق الخلق، تجلى عليهم في ظلمة العدم، فظهروا بنوره لا بظلمتهم. وهذا هو معنى قول الصوفية: "ما في الوجود إلا الله!". وهو معنى قول يوحنا: "وَالنُّورُ يُضِيءُ فِي الظُّلْمَةِ". وأما معنى قوله: "وَالظُّلْمَةُ لَمْ تُدْرِكْهُ"، فهو أن حكم الظلمة عند ظهور المخلوقات، لم يُؤثر في معنى النور الوجودي شيئا؛ لأنها على عدميتها باقية. ومن هذه الحقيقة، كان النور القليل في عالم الطبيعة يغلب الظلمة الكثيفة؛ والظلمة لا تغلب النور أبدا. ولهذه العلة، ينفي أهل الله وجود المخلوقات مع الله، مع ظهور صورها، من غير شك. وحلُّ هذه المسألة، سر من الأسرار الإلهية، يكشفه الله لمن شاء. وأما من جهة العقل، فإنها أيضا من أعوص المسائل.

ثم يُضيف: "كَانَ إِنْسَانٌ مُرْسَلٌ مِنَ اللهِ اسْمُهُ يُوحَنَّا. هذَا جَاءَ لِلشَّهَادَةِ لِيَشْهَدَ لِلنُّورِ، لِكَيْ يُؤْمِنَ الْكُلُّ بِوَاسِطَتِهِ. لَمْ يَكُنْ هُوَ النُّورَ، بَلْ لِيَشْهَدَ لِلنُّورِ.": المقصود بـ "يوحنا" هنا: يحيى عليه السلام. ويوحنا صاحب الإنجيل يأتي بشهادته لعيسى الذي يجعله هو "النور". والحقيقة هي أن عيسى نور وأن يحيى أيضا نور، من كونهما رسوليْن يهديان الناس في عالم الظلمة والطبيعة، إلى النور الحق. وكل من كان هاديا، فله حظ من الاسم النور. ويقول الله تعالى في هذا المعنى: {فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [التغابن: ٨]. والنور المُنزل هنا بالتجلي، هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ليحل بحقائقه في جميع مراتبه. وهذا لا يُنافي القول بأن النور هنا هو القرآن، لأن ما أُنزل وحيا، هو صفة لما أُنزل تجلّيا. وكلا النزولين، صادران عن الحق؛ بل إن هذا من ذاك. وإن كان الأنبياء عليهم السلام أنوارا، فإن النور على جهة الإفراد هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم، المسمى في الآية بالاسم المُركّب "الله ورسوله" من مرتبة حقيقته. ولا ينطبق هذا الاسم بالأصالة إلا عليه، صلى الله عليه وآله وسلم، من جهة حقيقته كما أخبرنا، لا من جهة شخصه؛ إلا لمن كان من العارفين. وهذا التعريج من يوحنا على شهادة يحيى، لا يُبشّر بخير هنا؛ لأننا نراه يسلك في تقعيد العقائد مسلك بطرس الذي بيّنّاه في الفصل السابق. ومع ذلك، فنحن سنمضي معه إلى حيث يُريد.

ثم يُضيف: "كَانَ النُّورُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي يُنِيرُ كُلَّ إِنْسَانٍ آتِيًا إِلَى الْعَالَمِ. كَانَ فِي الْعَالَمِ، وَكُوِّنَ الْعَالَمُ بِهِ، وَلَمْ يَعْرِفْهُ الْعَالَمُ. إِلَى خَاصَّتِهِ جَاءَ، وَخَاصَّتُهُ لَمْ تَقْبَلْهُ. وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلاَدَ اللهِ، أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ. اَلَّذِينَ وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ جَسَدٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ رَجُل، بَلْ مِنَ اللهِ."[2]. يقصد يوحنا بالنور هنا عيسى، ونحن نعذره، لأنه لم يعرف غيره عليه السلام. ويعني من أن النور ينير كل إنسان، أن عيسى من كونه مظهرا للاسم "النور"، يُنير

[1] . يوحنا: ١: ٤-٥.

[2] . يوحنا: ١: ٩-١٣.

من آمن به. وهذا معنى من معاني التزكية التي يقوم بها الرسل لأتباعهم. ومعنى قوله "كَانَ فِي الْعَالَمِ"، هو أن العالم في زمن عيسى كان قائما به، من كونه روحه؛ أي إن العالم جسد عيسى، وعيسى روح العالم. كل هذا بالنيابة عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي لم ينزل نوره الأصلي بعد. وقوله: "وَلَمْ يَعْرِفْهُ الْعَالَمُ"، هو كقول الله تعالى عن الروح لما سأل عنها السائلون: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٨٥]؛ لأنه كيف يعلم العالم روحه، وهو مُدبّره؟!... ولو علم العالم عيسى، لعلم كل إنسان روحه!... والله قد بيّن أن الروح لا يُعلم للناس، ما داموا على حقيقتهم البشرية. وأما الخاصة الذين يعنيهم يوحنا، ويذكر عنهم أن عيسى جاء إليهم، فهم بنو إسرائيل. لذلك أعقب عنهم بأنهم لم يقبلوه؛ أي لم يقبلوه مسيحا عليهم. والذين قبلوه وآمنوا به، فقد جعلهم يؤمنون باسمه؛ أي بالاسم الذي كان مظهره، وهو "الله الرب". ويُشير يوحنا إشارة لطيفة إلى معنى البنوة التي أوردها في كلامه، ويجعلها مخالفة للمعنى الطبيعي الذي تكون الولادة فيه من دم؛ ويُنزهها عن النسبة إلى الجسد وإلى جنس الرجل، ويحصر نسبتها في الله. وهذا يجعل البنوة حاصلة عند استمداد النور من الاسم النور بواسطة مظهر الرسول النور، الذي هو هنا عيسى عليه السلام. وبما أن النور عندما يندرج في النور لا يمتاز عنه، فإن "الابن" عندما يُذكر، لا يُذكر مع الله، وإنما يُذكر فيه. وهذا المعنى صحيح لمن عقله!...

ثم يضيف: "وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا وَحَلَّ بَيْنَنَا، وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ، مَجْدًا كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ الآبِ، مَمْلُوءًا نِعْمَةً وَحَقًّا.": هذا الكلام صحيح لو أخذناه بظاهره، الذي يدل على أن الحقيقة المحمدية تنزلت إلى العالم السفلي بصور الأنبياء والورثة؛ ولكن الذي يفهمه المسيحيون من كلمة "جسد" و"تجسد"، لا يجاوز عالم الطبيعة. وهم في هذا يُشبهون الفيزيائيين ومن قبلهم الفلاسفة، بسبب قصور عقولهم عن إدراك ما هو خارج الطبيعة. ولهذا فهم عندما يُخبرون بالتجسُّد، فإنما يعنون أن الله صار جسدا؛ وهنا ينبغي أن نعود إلى معنى الصورة الذي كنا أخبرنا أنه الذات الإنسانية وكل ذوات المخلوقات. فصورة الله التي ظهر بها عيسى والتي هي ذاته، هي جسمه وروحه؛ وهذه الذات هي صورة من الصور الإلهية. وهذا لا يعني البتة، أن ذات عيسى صارت ذاتا إلهية!... هذا لا يقول به إلا جاهل أعمى البصيرة!... وذلك لأن عيسى إن كان بذاته الله، فما يكون حكم الصور الأخرى التي من جملتها اليهود المعاصرون له، والتلاميذ، وغيرهم؟... بل وما حكم الذوات التي بقيت على الأرض بعد غياب عيسى عنها؟... إلى اليوم، وإلى قيام الساعة؟... وما حكم ذوات أباطرة الرومان قبل ومع وبعد عيسى؟... فهل هم تجسد للإله ذاته؟ أم تجسد لآلهة أخرى متعددة؟ أم هم تجسد مُهمل لا حكم له؟... وكيف يستقيم ذلك؟...

ثم يُضيف يوحنا: "يُوحَنَّا شَهِدَ لَهُ وَنَادَى قَائِلًا: «هذَا هُوَ الَّذِي قُلْتُ عَنْهُ: إِنَّ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي صَارَ قُدَّامِي، لأَنَّهُ كَانَ قَبْلِي». وَمِنْ مِلْئِهِ نَحْنُ جَمِيعًا أَخَذْنَا، وَنِعْمَةً فَوْقَ نِعْمَةٍ."[1]. نعم، رغم كون يحيى وعيسى مشتركيْن في النبوة، إلا أن عيسى أعلى مرتبة من غير شك؛ وهو أعلى أولي العزم من الرسل مرتبة أيضا، إلا من محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ والذين هم: محمد (خارج الترتيب لكونه الأصل)، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى. غير أن كون عيسى أفضل من يحيى عند الله، لا يعني أن عيسى هو النبي بالأصالة، أو هو الصورة الإلهية الأصلية. ولقد تكلمنا مرارا في هذا المعنى، ونرجو أن يكون قد استقر في الأذهان. وأما من يخطر في باله: لم لا تكون هذه المرتبة العُليا لاثنيْن؟ فيكون عيسى مساويا لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، ونكون قد انتهينا إلى مسافة وُسطى في حوارنا، يمكن أن نلتقي عليها؟... فإننا نقول له: إن الله شاء أن تكون صورة واحدة في المرتبة العليا، غير متعددة. ونحن إن خالفنا ما قضى به سبحانه في خلقه بحكمته،

[1] . يوحنا: ١: ١٥-١٦.

نكون –ككثيرين من الحمقى– نعيد بناء الكون في أذهاننا على صورة غير صورته. وهذا لن يُغيّر من الواقع شيئا، غير أنه يهوي بصاحبه إلى أسفل دركات الجهل فحسب.

ثم يضيف: "أَنَّ النَّامُوسَ بِمُوسَى أُعْطِيَ، أَمَّا النِّعْمَةُ وَالْحَقُّ فَبِيَسُوعَ الْمَسِيحِ صَارَا."[1]. يعني يوحنّا أن الشريعة قد نالها اليهود والنصارى بفضل موسى عليه السلام، ولكن النعمة والحق، فلم يُنالا إلا بالمسيح. والحقيقة هي أن الشريعة نعمة من الله أيضا، ولكن المسيحيين يريدون أن تعم النعمة كل فضل لله، ويجعلونها تُنال بعيسى دون موسى أو غيره. وهذا سوء أدب مع الرسل عليهم السلام، ما كان ينبغي للأتباع أن يقعوا فيه. وقد نبه نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم إلى الأدب الواجب مع الأنبياء، بقوله: «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى وَلَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ، وَلَوْ لَبِثْتُ مَا لَبِثَ يُوسُفُ فِي السِّجْنِ، لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ.» وَقَالَ لِلَّذِي، قَالَ لَهُ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ: "ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ.»[2]. بل لقد قال صلى الله عليه وآله وسلم صراحة: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ؛ فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ.»[3]. وأما من وجد تعارضا بين ما دلت عليه هذه الأحاديث من آداب، وما جاء في مثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...»[4]، فليعلم أن التعليم الأول هو للأتباع، حتى لا يسقطوا في سوء الأدب والتعصب الجاهل؛ وأما الحديث الأخير، فهو تعريف بالمرتبة؛ وبين الأمرين فرق بيّن. وهذا يعني أن الإطراء الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، هو ما يكون عن جهل وعن هوى؛ وأما ما كان عن علم فلا يُعد إطراء، ولا يكون شبيها بإطراء النصارى على عيسى بن مريم؛ لأنهم أطروه من غير علم بحقيقته، كما بيّنّا مرارا. وأما مقصود يوحنا من الحق، في عبارته الأخيرة، فهو تجلي الحق. وهو أمر ذكرناه قبل هذا، وبيّنّا بعض أحكامه. وسنعود إن شاء الله كلما دعت الضرورة إلى إبرازه بحسب وجوهه.

ثم يضيف يوحنا: "اَللهُ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ. اَلابْنُ الْوَحِيدُ الَّذِي هُوَ فِي حِضْنِ الآبِ هُوَ خَبَّرَ."[5]: هذا الذي يذكره يوحنا هنا، هو ما جعلنا نقول سابقا: إن عيسى دعا بالأساس إلى مرتبة الإيمان، لأن المؤمنين هم من يعبدون الله اعتمادا على الإخبار النبوي (الوحي). وأما قوله بأن الله لم يره أحد قط، فهو يُخبر عن مقامه ومقام أمثاله؛ لا عن سائر العباد. وذلك لأن من الناس من يعبدون الله على مشاهدة، والأنبياء كلهم على رأس هذه الطبقة. وأما من الأتباع المحمديين، فأهل ذروة الإحسان من الدين (المرتبة الثالثة). والرؤية في هذا المقام تسمى اصطلاحا مشاهدة، لخصوصية الظهور الإلهي في الدنيا، ومخالفته لما يكون الأمر عليه في الآخرة بالنظر إلى العموم. وأما قوله عن الابن الوحيد، فلا يصح من جهة مفهوم المسيحيين من اللفظ؛ لأنهم لا يخرجون عن المعنى الطبيعي للبنوة، وإن حاولوا تجريده عقلا. وأما من جهة المرتبة، فتلك مرتبة الحقيقة المحمدية (العقل الأول)، التي هي أصل كل خبر عن الله، من كونها الواسطة العُظمى بين الحق والخلق؛ وساطة وجودية قبل التعريفية.

ثم يضيف: "وَهذِهِ هِيَ شَهَادَةُ يُوحَنَّا، حِينَ أَرْسَلَ الْيَهُودُ مِنْ أُورُشَلِيمَ كَهَنَةً وَلاَوِيِّينَ لِيَسْأَلُوهُ: «مَنْ أَنْتَ؟» فَاعْتَرَفَ وَلَمْ يُنْكِرْ، وَأَقَرَّ: «إِنِّي لَسْتُ أَنَا الْمَسِيحَ». فَسَأَلُوهُ: «إِذًا مَاذَا؟ إِيلِيَّا أَنْتَ؟» فَقَالَ: «لَسْتُ أَنَا». «أَلنَّبِيُّ أَنْتَ؟» فَأَجَابَ: «لاَ». فَقَالُوا لَهُ: «مَنْ أَنْتَ، لِنُعْطِيَ جَوَابًا لِلَّذِينَ أَرْسَلُونَا؟ مَاذَا تَقُولُ عَنْ نَفْسِكَ؟» قَالَ: «أَنَا صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ:

---

[1] . يوحنا: ١: ١٧.

[2] . ذكره القاضي عياض في كتاب "الشفا بتعريف حقوق المصطفى": ج:١، ص: ٨٨.

[3] . أخرجه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

[4] . أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[5] . يوحنا: ١: ١٨.

قَوِّمُوا طَرِيقَ الرَّبِّ، كَمَا قَالَ إِشَعْيَاءُ النَّبِيُّ». وَكَانَ الْمُرْسَلُونَ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ، فَسَأَلُوهُ وَقَالُوا لَهُ: «فَمَا بَالُكَ تُعَمِّدُ إِنْ كُنْتَ لَسْتَ الْمَسِيحَ، وَلاَ إِيلِيَّا، وَلاَ النَّبِيَّ؟» أَجَابَهُمْ يُوحَنَّا قَائِلًا: «أَنَا أُعَمِّدُ بِمَاءٍ، وَلكِنْ فِي وَسْطِكُمْ قَائِمٌ الَّذِي لَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ. هُوَ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي، الَّذِي صَارَ قُدَّامِي، الَّذِي لَسْتُ بِمُسْتَحِقّ أَنْ أَحُلَّ سُيُورَ حِذَائِهِ»[1]. ونحن قد سبق أن تكلّمنا عن تعريف عيسى بنفسه في الجزء الأول من هذا الكتاب، وانطلاقا من إنجيل "متّى"؛ ولن نكرر الكلام هنا، ولكن نؤكد على أن يوحنا (صاحب الإنجيل) يتحكم في تفسيره، ويقفز على المعاني. وإتيانه بكلام يحيى عليه السلام، هو نقل باللفظ؛ يُمكن لأي ناقل أن يُعدّل فيه، بحسب المعنى المقصود له. وهذا من أكبر ما لحق العقيدة المسيحية من أضرار، في جميع الأزمان. وسنقف من متأخري المسيحيين، على ما يدل على ما نذكره هنا...

ثم يضيف: "وَفِي الْغَدِ نَظَرَ يُوحَنَّا يَسُوعَ مُقْبِلًا إِلَيْهِ، فَقَالَ: «هُوَذَا حَمَلُ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ! هذَا هُوَ الَّذِي قُلْتُ عَنْهُ: يَأْتِي بَعْدِي، رَجُلٌ صَارَ قُدَّامِي، لأَنَّهُ كَانَ قَبْلِي. وَأَنَا لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ. لكِنْ لِيُظْهَرَ لإِسْرَائِيلَ لِذلِكَ جِئْتُ أُعَمِّدُ بِالْمَاءِ». وَشَهِدَ يُوحَنَّا قَائِلًا: «إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ الرُّوحَ نَازِلًا مِثْلَ حَمَامَةٍ مِنَ السَّمَاءِ فَاسْتَقَرَّ عَلَيْهِ. وَأَنَا لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ، لكِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي لأُعَمِّدَ بِالْمَاءِ، ذَاكَ قَالَ لِي: الَّذِي تَرَى الرُّوحَ نَازِلًا وَمُسْتَقِرًّا عَلَيْهِ، فَهذَا هُوَ الَّذِي يُعَمِّدُ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ. وَأَنَا قَدْ رَأَيْتُ وَشَهِدْتُ أَنَّ هذَا هُوَ ابْنُ اللهِ». وَفِي الْغَدِ أَيْضًا كَانَ يُوحَنَّا وَاقِفًا هُوَ وَاثْنَانِ مِنْ تَلاَمِيذِهِ، فَنَظَرَ إِلَى يَسُوعَ مَاشِيًا، فَقَالَ: «هُوَذَا حَمَلُ اللهِ!»[2]. ما يشير إليه يحيى عليه السلام، من فرق بين التعميد بالماء والتعميد بالروح القُدس، هو ما ذكرناه من فرق بين مرتبة الإسلام ومرتبة الإيمان فيما سبق؛ لأن التعميد الذي هو الطهارة الشرعية المؤهِّلة لعبادة الله، تكون بالماء في الأولى، وتكون بالروح القُدس من جهة المدد النوريّ لا من جهة التحقّق، في المرتبة الثانية. وهذا يعني أن الطهارة التي دعا إليها عيسى معنوية، تجعل العبد مؤهلا لمعاملة الله بقلبه في الأعمال المشروعة. ولا تعني العمادة بالروح القدس، ما حمّله لها المسيحيون من معان مخترعة سنقف عندها -إن شاء الله- في وقتها.

ثم يضيف: "وَقَالَ لَهُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مِنَ الآنَ تَرَوْنَ السَّمَاءَ مَفْتُوحَةً، وَمَلاَئِكَةَ اللهِ يَصْعَدُونَ وَيَنْزِلُونَ عَلَى ابْنِ الإِنْسَانِ»"[3]: يرى المسيحيون -بسبب حداثة عهدهم بالمعاني- أن نزول الملائكة، هو خصيصة عيسوية؛ وفي الحقيقة هو أمر يعمّ المؤمنين كلهم. ولقد كان عيسى يُشير إلى نزول الملائكة على الأتباع، لا عليه؛ لأن ذلك هو الدليل على مرتبته؛ وأما هو عليه السلام، فهو فوق ذلك. يقول الله تعالى عن نزول الملائكة: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} [فصلت: ٣٠]. وهذا عام في الأتباع، وليس خاصا بالمتبوعين. وتنزُّل الملائكة على المؤمنين، في الأصل غيبي؛ يؤيِّدون به من جهة الإمداد العلمي، ومن جهة الحفظ غيبا وشهادة، قلبا وبدنا. وقد يقع ذلك من باب الكرامة لبعض المؤمنين، فيرون بعض الملائكة ويعرفونهم، وإن تصوروا لهم في غير صورتهم الأصلية. ولقد كان معنا من المؤمنين من كان يرى الملائكة، وكنا نقبل منه إخباره عندما يخبرنا، لقرائن نعلمها. ولو كشف الله للناس عن الملائكة الذين يُساكنونهم، أو يقاسمونهم الطرقات، أو يقومون بتنفيذ ما يطلبه منهم أهل التصرف من الأولياء، لذهبت عقولهم في الذاهبين.

ثم يقول يوحنا: "فَصَنَعَ سَوْطًا مِنْ حِبَال وَطَرَدَ الْجَمِيعَ مِنَ الْهَيْكَلِ، اَلْغَنَمَ وَالْبَقَرَ، وَكَبَّ دَرَاهِمَ الصَّيَارِفِ وَقَلَّبَ مَوَائِدَهُمْ. وَقَالَ لِبَاعَةِ الْحَمَامِ: «ارْفَعُوا هذِهِ مِنْ ههُنَا! لاَ تَجْعَلُوا بَيْتَ أَبِي بَيْتَ تِجَارَةٍ!». فَتَذَكَّرَ تَلاَمِيذُهُ أَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «غَيْرَةُ

---

[1]. يوحنا: ١: ١٩-٢٧.

[2]. يوحنا: ١: ٢٩-٣٦.

[3]. يوحنا: ١: ٥١.

بَيْتِكَ أَكَلَتْنِي». فَأَجَابَ الْيَهُودُ وَقَالُوا لَهُ: «أَيَّةَ آيَةٍ تُرِينَا حَتَّى تَفْعَلَ هذَا؟» أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «انْقُضُوا هذَا الْهَيْكَلَ، وَفِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ أُقِيمُهُ». فَقَالَ الْيَهُودُ: «فِي سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً بُنِيَ هذَا الْهَيْكَلُ، أَفَأَنْتَ فِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ تُقِيمُهُ؟» وَأَمَّا هُوَ فَكَانَ يَقُولُ عَنْ هَيْكَلِ جَسَدِهِ. فَلَمَّا قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ، تَذَكَّرَ تَلاَمِيذُهُ أَنَّهُ قَالَ هذَا، فَآمَنُوا بِالْكِتَابِ وَالْكَلاَمِ الَّذِي قَالَهُ يَسُوعُ. وَلَمَّا كَانَ فِي أُورُشَلِيمَ فِي عِيدِ الْفِصْحِ، آمَنَ كَثِيرُونَ بِاسْمِهِ، إِذْ رَأَوْا الآيَاتِ الَّتِي صَنَعَ. لكِنَّ يَسُوعَ لَمْ يَأْتَمِنْهُمْ عَلَى نَفْسِهِ، لأَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ الْجَمِيعَ. وَلأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُحْتَاجًا أَنْ يَشْهَدَ أَحَدٌ عَنِ الإِنْسَانِ، لأَنَّهُ عَلِمَ مَا كَانَ فِي الإِنْسَانِ."[1]. وينخرط يوحنا هنا ضمن المعظِّمين للآيات (المعجزات)، التي جاء بها عيسى للدلالة على صدقه، ويرى ذلك أعلى ما يُمكن أن يكون. والحقيقة هي أن المعجزات الكونية، لا تنفع إلا أهل الإيمان، الذين يتقوّى إيمانهم بها؛ وأما أهل اليقين، فإن المعجزة الكبرى لديهم هي القرآن. ولا نعني بالقرآن هنا، ما يعلمه الناس من الكتابيين ومن عوام المسلمين؛ ولكن نعنيه من حيث هو الوحي المُطابق للمعلوم الحق بجميع مراتبه الحقيّة والخلقية، على التمام. ولهذا المعنى الذي نذكره، يقول الله تعالى عن كتابه: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: ٣٨]. ولقد سمعنا بعض الجاهلين، يقول: فإننا لا نجد المكروب أو الفيروس مذكورا فيه!!... ولم يعلموا أن المقصود من كلمة "شيء" في الآية، المظهر الاسمي على عمومه، والمراتب والمقامات، من حيث هي منازل، لا بالنظر إلى النازلين فيها. ولولا هذا، لكان القرآن -كما هو غير متناه في الدلالة- غير متناه في اللفظ؛ وهذا لا يقول به إلا جاهل. وإلى هذا الإطلاق في التقييد، يُشير قول الله تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} [الكهف: ١٠٩]؛ والكلمات، كما أوضحنا سابقا، هي أشخاص المظاهر، لا المظاهر من حيث هي جنس. وينبغي أن نذكر هنا، أن القرآن لا يتكلم عن الخلق، إلا من كونهم مظاهر حقية؛ لا كما يفهم المحجوبون. والآية القرآنية (القرآن)، هي المعجزة الكبرى المحمدية، التي لم يأت أحد بها قبله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا ينبغي ذلك. أما الآيات الكونية، فإن الأتباع من أهل الإيمان في أمتنا، أو من أهل الإحسان، يأتون بها على سبيل الكرامة من الله؛ ولا يقفون عندها، لعلمهم أن من عرف الحق اغتنى به عن كل دلالة، وكان هو سبحانه الدليل له على كل شيء. ولو تكلمنا بما جرى لنا من كرامات، أو بما وصلنا من أخبار تلاميذنا، لتعجب المسيحيون وغيرهم؛ ولكننا لا نرى للكرامة قيمة في وجود الحق، إلا من جهة الحكمة المثبتة لها في العالم.

وأما تحذيرنا من اعتماد المسيحيين على الآيات، فلأن الشيطان له مثلها. ولسنا هنا نسوّي بين عيسى والشيطان، معاذ الله! ولكننا نعلم أن الشيطان له ما يُشبه الكرامات، يُمدّ بها أتباعه، أو يستدرج من يريدهم أن يتبعوه؛ فلا يفرقون بينها وبين الآيات الأصلية التي للأنبياء والأولياء. ونعني من هذا، أن الصورة وإن تشابهت، فإن المدد الذي خلفها يختلف بين أهل النور وأهل الظلمة. ولقد أخذ الشيطان كثيرا من الكتابيين ومن المسلمين في طريقه، بإظهار الخوارق لهم أو على أيديهم، فيظنها المساكين تأييدات ربانية، فينحرفون. وإن كثيرا من المسيحيين (النصارى) اليوم، يتلاعب بهم الشيطان بسهولة، وهم يظنون أنهم في حماية عيسى منه. والحق، هو أنهم قد خرجوا عن طريق عيسى، وبذلك أصبحوا عُرضة لأن يتسلط عليهم الشيطان. والأمور لا تجري كما يشتهي الناس أو يتمنون، ولكن تجري وفق ناموسها بإرادة من الله. وكل من أراد أن يجعلها تسير وفق هواه، من دون أن يكون صادرا فيها عن الوحي يقينا، فهو أحمق من جملة الحمقى، وإن بدا لنفسه أو لأشباهه عاقلا. ونهاية كلام يوحنا في هذه الفقرة، لا يخلو من تكلف في التفسير؛ وهذا لا يمكن أبدا أن يندرج ضمن العلم. ولهذا السبب، ليست عقائد المسيحيين مبنية على العلم من أصلها؛ بل هي تصوّرات لمن لم يبلغ طور العلم من الناس. ولسنا نعني بالعلم هنا، إلا ما يكون من مطابقة التصور الذهني للمعلوم، كما نقول دائما. وهذه المطابقة، لا

---

[1]. يوحنا: ٢: ١٥- ٢٥.

تكون تامة؛ حتى يكون علم العبد بالله، لا بنفسه. وهذا العلم الحق نفسه، ليس على مرتبة واحدة؛ لأن أصحابه يتفاوتون فيه، كما قال ربهم سبحانه عنهم: {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} [يوسف: ٧٦].

ثم يضيف: "كَانَ إِنْسَانٌ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ اسْمُهُ نِيقُودِيمُوسُ، رَئِيسٌ لِلْيَهُودِ. هذَا جَاءَ إِلَى يَسُوعَ لَيْلًا وَقَالَ لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ مِنَ اللهِ مُعَلِّمًا، لأَنْ لَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَعْمَلَ هذِهِ الآيَاتِ الَّتِي أَنْتَ تَعْمَلُ إِنْ لَمْ يَكُنِ اللهُ مَعَهُ». أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللهِ». قَالَ لَهُ نِيقُودِيمُوسُ: «كَيْفَ يُمْكِنُ الإِنْسَانَ أَنْ يُولَدَ وَهُوَ شَيْخٌ؟ أَلَعَلَّهُ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ بَطْنَ أُمِّهِ ثَانِيَةً وَيُولَدَ؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ. اَلْمَوْلُودُ مِنَ الْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ، وَالْمَوْلُودُ مِنَ الرُّوحِ هُوَ رُوحٌ. لاَ تَتَعَجَّبْ أَنِّي قُلْتُ لَكَ: يَنْبَغِي أَنْ تُولَدُوا مِنْ فَوْقُ. اَلرِّيحُ تَهُبُّ حَيْثُ تَشَاءُ، وَتَسْمَعُ صَوْتَهَا، لكِنَّكَ لاَ تَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تَأْتِي وَلاَ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ. هكَذَا كُلُّ مَنْ وُلِدَ مِنَ الرُّوحِ». أَجَابَ نِيقُودِيمُوسُ وَقَالَ لَهُ: «كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هذَا؟» أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «أَنْتَ مُعَلِّمُ إِسْرَائِيلَ وَلَسْتَ تَعْلَمُ هذَا! اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّنَا إِنَّمَا نَتَكَلَّمُ بِمَا نَعْلَمُ وَنَشْهَدُ بِمَا رَأَيْنَا، وَلَسْتُمْ تَقْبَلُونَ شَهَادَتَنَا. إِنْ كُنْتُ قُلْتُ لَكُمُ الأَرْضِيَّاتِ وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ، فَكَيْفَ تُؤْمِنُونَ إِنْ قُلْتُ لَكُمُ السَّمَاوِيَّاتِ؟ وَلَيْسَ أَحَدٌ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ إِلاَّ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، ابْنُ الإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ فِي السَّمَاءِ."[1]: هذا المقطع يدور حول الولادة الروحية، التي تكون بالإيمان، وتتحقق عند ولوج العبد مجال المعاني (السماء). وهذه الولادة نبه إليها عيسى، بعد أن لم يكن الناس يعلمون من الولادة إلا الولادة الطبيعية السفلية (الأرضية). وإنّ جل المسلمين، لا خبر لهم عن هذه الولادة الروحية، بسبب بقائهم مع دين الفقهاء الذي هو من مرتبة الإسلام وحدها. وهذه الولادة الثانية، لا يعلمها الإنسان بالتصور العقلي، ولكن يعلمها عندما يولد في السماء، ويحيا حياة روحية، لا حياة نفسية كما كان فيما قبل. وعلى هذا، فإن الناس ينبغي أن يُصحّحوا معلومهم بخصوص الروح؛ لأنهم يحسبون أنهم يحيون بالروح، لأن الله نفخ فيهم من روحه، كما أخبر سبحانه بقوله عن آدم: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} [الحجر: ٢٩]. والحقيقة أن بني آدم في مُجملهم يعيشون بالنفس، التي هي مرتبة فوق النفس الحيوانية التي للحيوان؛ ولا يعيشون بالروح، لأن الروح مرتبة ينبغي أن يترقَّوْا إليها بالتزكية الشرعية. يقول الله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين: ٤]، وهذه مرتبة الصورة الإلهية العليا (الحقيقة المحمدية)؛ ثم يقول بعدها: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} [التين: ٥]، أي عند إنشائه نشأة طبيعية سُفلية، في المظاهر الجزئية، لا أسفل منها. ثم يقول سبحانه تعقيبا واستثناء بمعنى الاستنقاذ: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [التين: ٦]، ومعنى هذا، أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتزكون بالواردات النوريّة التي يأتيهم بها الإيمان والأعمال، ليعودوا إلى أصل مرتبتهم الإنسانية، من دون نقص في المرتبة؛ حتى لا يظن ظان أن السُّفل الذي كانوا فيه، سيبقى عليهم من أثره. ولكن هذا، لا يتحقق على هذا التمام إلا للواصلين، الذين أكملوا سيرهم الصعودي إلى الله. وأما من لم يُكمل، فإنه سيبقى ناقصا بقدر ما بقي عليه من الطريق. والواصلون أيضا متفاوتون، بحسب تحقق كلٍّ منهم بالحقيقة المحمدية.

والميلاد الروحي، ليس كما يتوهم المسيحيون، نهاية للطريق؛ وإنما هو بداية لها. وذلك لأن السالك لا يُعدُّ سالكا، حتى ينفصل عن المرتبة الأولى؛ وأما الباقون فيها، فإنهم لا سلوك لهم، بل لهم الأجر. وإن اعتقاد جل المسيحيين بأن البداية نهاية، سيجعلهم منحرفين عن علم معنى السلوك والترقي. وهكذا سيبقون في الخط الفاصل بين المرتبة الأولى والمرتبة

---

[1]. يوحنا: ٣: ١-١٣.

الثانية، والذي هو خط الانطلاق؛ من دون انطلاق. وهذا حرمان كبير، إن قورن بما يُمكن أن يُحصله الواصل عند قطعه الطريق؛ إما جزئيا بقطع بعض مراحله، وإما كليّا عند تحقق وصوله!...

ثم يقول: "لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ."[1]: معنى الهلاك والحياة الأبدية، ليس على أصله عند المسيحيين؛ ولكنه يدل على الغفلة وعلى الذكر (اليقظة). والغفلة في مآلها تُدخل صاحبها النار، وهي محل العذاب الأبدي؛ وأما الذكر، فإنه يُدخل صاحبه الجنة. لكن الذكر له بداية وله نهاية: وبدايته هي الولادة الروحية، وأما نهايته فهي الوصول كما ذكرنا، وما يليه من تحقق. والواصل يحيا بحياة الله، لا بحياة نفسه؛ لذلك لا يصح إطلاق الحياة الأبدية حقيقة إلا على أهل الوصول الذين لهم البقاء ببقاء الله. ولم يكن على هذه الصفة في زمن عيسى عليه السلام، إلا عيسى ذاته. ومن كونه باقيا ببقاء الله، كان روحا؛ ومن كونه روحا، كان يُحيي أجساد الموتى بحياة نفسية، وكان يُحيي القلوب بحياة إيمانية.

ثم يُضيف: "لأَنَّهُ هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ. لأَنَّهُ لَمْ يُرْسِلِ اللهُ ابْنَهُ إِلَى الْعَالَمِ لِيَدِينَ الْعَالَمَ، بَلْ لِيَخْلُصَ بِهِ الْعَالَمُ. اَلَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ لاَ يُدَانُ، وَالَّذِي لاَ يُؤْمِنُ قَدْ دِينَ، لأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِاسْمِ ابْنِ اللهِ الْوَحِيدِ."[2]: أما هذا الكلام، فهو تحكّم محض؛ لأن بنوة الله لا تُفهم لدى المسيحيين، إلا بالمعنى الطبيعي وانطلاقا منه، كما أسلفنا؛ وهو قصور في إدراك المعاني، لم نفتأ ننبه إليه. ثم أضاف يوحنا مبدأ آخر من عنده، وهو بذل الله لابنه (الوحيد)؛ ولا دليل على كون الابن وحيدا، ما دام الله قادرا على خلق غيره؛ هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فلا دليل على كون الله بذل ابنه وضحّى به كفارة، لتكون للعالم الحياةُ الأبدية. ثم يجعل يوحنا مع ذلك، الحياة الأبدية من نصيب المؤمنين بالابن، لا بغيرهم. وهذه المعاني، لم يرد بها وحي من عند الله، ولا أخبر بها نبي من الأنبياء؛ وإنما هي تنظير من قبل المسيحيين، لتُصبح العقيدة المسيحية فيما بعد أيديولوجيا؛ منفصلة عن المنطق الديني. وذلك لأن عيسى ليس بدعا من الرسل، حتى تكون عقيدة أتباعه مخالفة لمن سبقه ولمن لحقه؛ وكأن الدين قد اجتُزئ وقُطع عن ماضيه وعن مستقبله؛ لا لشيء، إلا ليكون أتباع المسيح في زعمهم راضين عن مآلهم في تصوّرهم. وكأنهم قد أعادوا بذلك صياغة الألوهية والنبوة وما يتعلق بالآخرة من ثواب وعقاب، كما يحلو لهم أن يروها؛ ولم يُكلّفوا أنفسهم الالتفات إلى مبدأ اتّباع الوحي من عند الله، الذي هو الأصل الأول في معرفة الدين وفي معرفة الرسل!... وهذا أمر لو قبلناه، فإننا سنفتح الباب على مصراعيْه لكل مفتر كذاب، ليزعم أنه نبي جديد وأنه يُعدّل في الدين (الواحد)، ما عنّ له أن يُعدّل، من دون مرجعية ولا معيارية تضبط العملية!... وقد حدث هذا مرارا مع المتنبئين الكذابين، الذين لا يكاد يخلو منهم عصر!...

يقول يوحنا: "وَهذِهِ هِيَ الدَّيْنُونَةُ: إِنَّ النُّورَ قَدْ جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ، وَأَحَبَّ النَّاسُ الظُّلْمَةَ أَكْثَرَ مِنَ النُّورِ، لأَنَّ أَعْمَالَهُمْ كَانَتْ شِرِّيرَةً. لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ السَّيِّآتِ يُبْغِضُ النُّورَ، وَلاَ يَأْتِي إِلَى النُّورِ لِئَلاَّ تُوَبَّخَ أَعْمَالُهُ. وَأَمَّا مَنْ يَفْعَلُ الْحَقَّ فَيُقْبِلُ إِلَى النُّورِ، لِكَيْ تَظْهَرَ أَعْمَالُهُ أَنَّهَا بِاللهِ مَعْمُولَةٌ»[3]: الدينونة عند يوحنّا وأصحاب العهد القديم، هي ما يُسمى عند المسلمين الحساب. ولقد جاء هذا المعنى بلفظ قريب من لفظ الإنجيل في سورة الفاتحة، عند قول الله تعالى: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة: ٤]؛ أي مالك يوم الحساب. ولقد بيّن يوحنا المعيار الذي يقوم عليه الحساب، عند اعتباره المسيح عليه السلام،

---

[1]. يوحنا: ٣: ١٥.

[2]. يوحنا: ٣: ١٦-١٨.

[3]. يوحنا: ٣: ١٩-٢١.

وشريعة موسى عليه السلام، نورا آتيا إلى العالم. ولقد ذكرنا الشريعة، لأن الأعمال لا توزن إلا بها عند الله؛ بخلاف من يقول بالخير والشر العقليين. وأما كون الناس اختاروا الظلمة على النور، فهو أمر واضح مع كل رسالة. وهذا معنى قول الله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ} [هود: ١٧]، وأمثاله. ومن لم يؤمن برسالة الرسول في زمانه، فإنه حتما سيعمل أعمال الشر؛ لأنه سيكون في الصف المقابل للنور، والذي ليس إلا صف أهل الظلمة من أتباع الشيطان. وأما قول يوحنا في آخر المقطع: "لِكَيْ تَظْهَرَ أَعْمَالُهُ أَنَّهَا بِاللهِ مَعْمُولَةٌ"، فإنه ليس من معاني التوحيد الخاص، التي يعلمها المسلمون من أعلى الإحسان، والتي تُسمّى في اصطلاحهم "توحيد الأفعال"؛ ولكنه يدل على أن أعمال المُوالي للرسول، يكون لها سند من الشريعة؛ وبالتالي فهي بالله معمولة، من جهة اعتبار الأمر الشرعي فحسب. وهذا يُشبه ما يكون عليه أهل مرتبتَيْ الإسلام والإيمان من المسلمين.

ثم يُضيف يوحنا، عند إيراده للحوار الذي دار بين عيسى عليه السلام والمرأة السامرية عند البئر، فيقول حكاية عن عيسى: "أَنْتُمْ تَسْجُدُونَ لِمَا لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ، أَمَّا نَحْنُ فَنَسْجُدُ لِمَا نَعْلَمُ. لأَنَّ الْخَلاَصَ هُوَ مِنَ الْيَهُودِ. وَلكِنْ تَأْتِي سَاعَةٌ، وَهِيَ الآنَ، حِينَ السَّاجِدُونَ الْحَقِيقِيُّونَ يَسْجُدُونَ لِلآبِ بِالرُّوحِ وَالْحَقِّ، لأَنَّ الآبَ طَالِبٌ مِثْلَ هؤُلاَءِ السَّاجِدِينَ لَهُ. اَللهُ رُوحٌ. وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهُ فَبِالرُّوحِ وَالْحَقِّ يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدُوا."[١]: ومعنى الكلام، أن عيسى يعبد الله عن علم، لا كما يعبده المقلدون من أهل الدين المترسمين. وهذا يُشبه ما أُثر عن علي عليه السلام، عندما سئل: أتعرف الله؟ فأجاب: أنا لا أعبد من لا أعرف!... وقد يستشكل هذا المعنى العامة من أهل الدين، لظنهم أن ما هم عليه معرفة. والحقيقة هي أن المعرفة هنا تكون بالمعنى الخاص، الذي يعلمه أهل التوحيد الخاص، كما سبق أن نبّهنا. ولقد أشار عيسى عليه السلام إلى أن هذه المعرفة، تكون من مقام الروح؛ وهذا يعني أنها معرفة من الله وبه سبحانه، بخلاف معرفة العوام التي تكون من تصوراتهم الإيمانية. وأما جعْلُ الله روحا، فلا يمكن أن يكون من كلام عيسى، وهو من هو في العلم بالله؛ وإنما هو من فهم السامعين لكلامه. وقد وقع الالتباس، بسبب نسبة الروح المنفوخ في آدم إلى الله، كما أخبر في قوله تعالى: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} [الحجر: ٢٩]، وبسبب وصف عيسى بكونه روحا منه، كما في قوله سبحانه: {وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ} [النساء: ١٧١]. والعقول الضعيفة عندما تعلم المنسوب، فإنها تقيس عليه المنسوب إليه؛ لجريان العادة في الغالب بذلك. والحقيقة هي أن الروح مخلوق لله، وليس الله روحا؛ وذلك لأن الروح يُقابله العالم أو الجسم. ولو كان الله روحا، لكان له مقابل في الأجسام؛ وهذا محال. وإن المسيحيين عندما نسبوا الربوبية إلى عيسى، وعلموا أنه روح الله، قد اختلط عليهم الأمر، فوصفوا الله بصفة عيسى. وهذا، كما قلنا لا يصح!... ولقد شاع هذا الاعتقاد في الكنائس إلى يومنا هذا، من دون أن يُحقّق أحد معنى الروح. وهذا الاعتقاد، سيجر المسيحيين إلى الشرك، من دون أن يعلموا. ومن هنا كان التفريق لديهم بين ما هو إلهي وما هو زمني (باصطلاحهم). وما علموا أن كل العوالم هي من الله، والاختلاف بينها، هو في المرتبة فحسب.

ثم يقول يوحنا في موضع آخر، حاكيا كلام عيسى: "أَنَا قَدْ أَتَيْتُ بِاسْمِ أَبِي وَلَسْتُمْ تَقْبَلُونَنِي. إِنْ أَتَى آخَرُ بِاسْمِ نَفْسِهِ فَذلِكَ تَقْبَلُونَهُ."[٢]: وهذا الكلام يُصرّح فيه عيسى بأنه قائم في دعوته بالله لا بنفسه؛ بخلاف من يدعو إلى الله بنفسه من عوام علماء الدين. وهو –عليه السلام– قد أخبر أن الناس لا يقبلونه مع أنه بالله جاء، وأخبر أن الناس يقبلون من يدعو إلى الله بنفسه، من علماء الشريعة. وهنا سر، ينبغي أن نذكره، ولقد بيّنه أهل الله منذ القرون الأولى؛ وهو أن

---

[١] . يوحنا: ٤: ٢٢-٢٤.

[٢] . يوحنا: ٥: ٤٣.

الناس يقبلون من يعرفون، ويرفضون من لا يعرفون. ولسنا هنا نعني بالمعرفة، كون الشخص الداعي معروفا لهم من كونه فلانا الفلاني؛ ولكننا نتكلم من جهة المقام، ونعني أن النفوس تقبل أصحاب النفوس، وتُنكر الربانيين. وذلك لأن الله غير معروف لديها المعرفة الاصطلاحية التي عرضنا لها في فقرة سابقة. ولقد حكى الصوفية في كتبهم عن شيخ رباني كان يقيم مع تلاميذه في زاوية (تكية)، وكانوا لانشغالهم بالله وبعبادته لا يتكسبون، ويُرسلون كل يوم واحدا منهم، ينوب عنهم في جلب القوت لإخوانه؛ وكان الشيخ يُدخل نفسه معهم في هذا الفعل عندما يأتي دوره. فلاحظ التلاميذ أن الرزق يكون وفيرا عندما يخرج أحدهم، ويكون بعكس ذلك شحيحا عندما يخرج الشيخ. فلم يُمسكوا أنفسهم عن سؤاله عن سبب ذلك، فأجابهم: أنتم تخرجون بأنفسكم، وعندما تأتون الناس تعرفكم أنفسهم، فيكون ذلك نسبا بينكم وبينهم، فيُحسنون إليكم؛ وأما أنا فأخرج بالله، فلا يعرفونني؛ لذلك لا يُعطونني إلا ما لا تشح به أنفسهم، كالخبز اليابس وما شابهه. والمعنى الوارد في هذه الحكاية صحيح جدا؛ ولقد جربناه نحن مع مختلف أصناف الناس، فكان الأمر كما أخبر عيسى وكما أخبر الأولياء.

ثم يقول عيسى بعد ذلك: "كَيْفَ تَقْدِرُونَ أَنْ تُؤْمِنُوا وَأَنْتُمْ تَقْبَلُونَ مَجْدًا بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَالْمَجْدُ الَّذِي مِنَ الإِلهِ الْوَاحِدِ لَسْتُمْ تَطْلُبُونَهُ؟"[1]: وهذا هو ما ذكرناه نحن في تفسير الفقرة السابقة. ولا بد هنا أن نبيّن لمَ كثُر أتباع عيسى عليه السلام بعد رفعه، ولمَ لمْ يقبله قبل الرفع إلا قليل من الناس، ومع المجاهدة لأنفسهم. ونعني بكلامنا، أن المسيحيين الذين جاءوا بعد الرفع، وجدوا الإيمان سهلا، بسبب غياب شخص عيسى عنهم؛ وهم مع هذا الغياب، يجدون فُسحة في تصوره كما تشتهي أنفسهم؛ لا كما يقول هو عن نفسه لو كان بينهم. ولهذا، فإن كل من آمن بعيسى بعد الرفع، فإنه ما آمن إلا بنفسه هو، ولو جزئيا. وهذا لم يحدث معه وحده عليه السلام، وإنما حدث مع كل الربانيين من أنبياء وورثة. وإن أقرب صورة يعرفها الناس، صور الأولياء في أزمنتهم، التي لا يكاد يقبلها أحد ممن يُعاصرهم؛ وإن رأوا عليهم دلائل الولاية الكبرى. فإن هم ماتوا، كثُر مصدّقوهم، وبُنيت لهم الأضرحة تعظيما لهم، وصار الناس يتوافدون عليها لزيارتهم والتبرك بهم؛ وكأنهم ليسوا هم من كانوا مستحقرين بينهم قبل ذلك!...

ومن خصائص النفوس أيضا، أنها تُتاجر فيما بينها بالتعظيم المتبادل. وقد يُدخل المخادعون لأنفسهم ذلك، ضمن الأخلاق؛ أو ضمن الاعتراف بالآخر؛ أو غير ذلك من التسميات. والحقيقة هي أن الباطل الذي يكون متعدد الصور، يريد أن يُقرّ له بمرتبة الحق. والدليل على ما نقول، هو أنك قد تجد صاحب النفس يغضب لنفسه إن هو رأى أنه لا يُحسب حسابها؛ ومع ذلك لا يتحرك له ساكن، إن حورب الحق من جميع الجهات. وهو مع ذلك كله، يزعم أنه من أهل الدين، وأنه ممن يستحق المثوبة من عند الله!...

ثم يضيف عيسى: "«لاَ تَظُنُّوا أَنِّي أَشْكُوكُمْ إِلَى الآبِ. يُوجَدُ الَّذِي يَشْكُوكُمْ وَهُوَ مُوسَى، الَّذِي عَلَيْهِ رَجَاؤُكُمْ. لأَنَّكُمْ لَوْ كُنْتُمْ تُصَدِّقُونَ مُوسَى لَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي، لأَنَّهُ هُوَ كَتَبَ عَنِّي. فَإِنْ كُنْتُمْ لَسْتُمْ تُصَدِّقُونَ كُتُبَ ذَاكَ، فَكَيْفَ تُصَدِّقُونَ كَلاَمِي؟»"[2]: إخبار عيسى عن عدم شكواه الناسَ إلى الرب، هو لأنه –عليه السلام– ينظر إليهم بعين الحقيقة التي هو منها. ومن نظر إلى الناس من هذا الوجه، فإنه لا يجد شيئا يؤاخذهم عليه. وفي الوقت نفسه أخبر عليه السلام –من تمام علمه– بشكوى موسى منهم؛ لأن موسى هو صاحب الشريعة. والشريعة لا بد لها من متابعة المخالفين، ليتم وزن الأعمال، ولتُفضي الأعمال إلى نتائجها. وهذا المعنى المذكور هنا، هو ما أخبر عنه الصوفية بقولهم: "من نظر إلى

---

[1] . يوحنا: ٥: ٤٤.

[2] . يوحنا: ٥: ٤٥-٤٧.

الناس بعين الشريعة مقتهم، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم.". ومعنى مَقَتهم هنا: آخذهم وحاسبهم؛ ومعنى عَذَرهم: تجاوز عنهم. وأما كلام عيسى في نهاية هذه الفقرة، فيشير إلى أن موسى من جهة الشريعة، هو من أخبر بحقيقة عيسى؛ ولو أن الناس صدقوا موسى في إخباره، لصدقوا عيسى فيما جاء به. وهذا يعني أن الحقيقة تشهد لها الشريعة، ولا يمكن للحقيقة أن تُعلَن بغير الشريعة أبدا؛ كما لا يمكن للشريعة من جهتها، أن تقوم بغير الحقيقة. وهذا هو أصل التكامل الذي بين موسى وعيسى، وهو (أي التكامل) الدليل على الكمال المحمدي الخاص.

ثم يقول يوحنا في موضع آخر: "فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَيْسَ مُوسَى أَعْطَاكُمُ الْخُبْزَ مِنَ السَّمَاءِ، بَلْ أَبِي يُعْطِيكُمُ الْخُبْزَ الْحَقِيقِيَّ مِنَ السَّمَاءِ، لأَنَّ خُبْزَ اللهِ هُوَ النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ الْوَاهِبُ حَيَاةً لِلْعَالَمِ». فَقَالُوا لَهُ: «يَا سَيِّدُ، أَعْطِنَا فِي كُلِّ حِينٍ هذَا الْخُبْزَ». فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ. مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ فَلاَ يَجُوعُ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِي فَلاَ يَعْطَشُ أَبَدًا. وَلكِنِّي قُلْتُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ قَدْ رَأَيْتُمُونِي، وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ. كُلُّ مَا يُعْطِينِي الآبُ فَإِلَيَّ يُقْبِلُ، وَمَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ لاَ أُخْرِجْهُ خَارِجًا. لأَنِّي قَدْ نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ، لَيْسَ لأَعْمَلَ مَشِيئَتِي، بَلْ مَشِيئَةَ الَّذِي أَرْسَلَنِي. وَهذِهِ مَشِيئَةُ الآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي: أَنَّ كُلَّ مَا أَعْطَانِي لاَ أُتْلِفُ مِنْهُ شَيْئًا، بَلْ أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ. لأَنَّ هذِهِ هِيَ مَشِيئَةُ الَّذِي أَرْسَلَنِي: أَنَّ كُلَّ مَنْ يَرَى الابْنَ وَيُؤْمِنُ بِهِ تَكُونُ لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ».[١]: وهذا هو أصل القول عند النصارى فيما بعد بأكل جسد المسيح وشرب دمه، في قُدّاسهم. وهذا يعني أنهم لم يفهموا قول عيسى الذي وصف فيه نفسه بأنه طعام المؤمنين وشرابهم. وعدم إدراكهم للمعنى المشار إليه، هو بسبب انحصار عقولهم في عالم الطبيعة (السُّفل)؛ فهم لم يعلموا من الخبز إلا الخبز، ومن الماء إلا الماء. والحقيقة هي أن الخبز والماء، يعنيان المدد الرباني بجميع صنوفه؛ والتي تسدّ كل خلاّت الفقر الذاتي من العباد. ونعني من كلامنا، أن المخلوقين من جهة عدمهم، لا تقوم لهم صورة في الشهود أبدا؛ لا في عالم الطبيعة ولا في غيره. ولكن عندما شاء الله أن يتجلى بصورهم، ألبسهم وجوده، فظهروا به لا بأنفسهم؛ فكان الوجود بهذا المعنى طعاما وشرابا (غذاء) للأعيان الثابتة. واستمرار المخلوقات على تناول الطعام طيلة أعمارهم، هو دليل واضح على تجدد فقرهم في كل وقت؛ ولا يتجدد الفقر إلا بعودتهم حكما إلى العدم. وهذا الذي نذكره هنا، هو أصل القول بتجدد الخلق في كل زمان فرد. وعيسى بكلامه، أراد أن يُخبر السامعين أنه الحق الذي يستمدون منه وجودهم؛ حتى يتمسكوا به في عالم السفل، كما تمسكوا به في عالم الحقيقة. ولكنهم لم يكونوا مؤهلين للفهم عنه، فبقوا مع الطبيعة وأحكامها، فانحجبوا عنه ولم يعرفوه وإن آمنوا به. ولقد ذكر عيسى المشيئة في كلامه، ليعرّف سامعيه أن حظه منهم، هو ما سبقت به المشيئة. وهذا يعني أن المشيئة هي التي اختصت من شاءت بالفهم عنه، وهي من حكمت بانحجاب المحجوبين عنه. وهو –عليه السلام– جاء ليظهر بأحكام المشيئة الإلهية التي أُرسل بها إلى بني إسرائيل، من غير زيادة ولا نُقصان. ولا بد هنا من أن نذكر أمرا تفصيليا، يجعل القارئ يفهم حقيقة ما تكلم عنه عيسى؛ وهو أن العبد الرباني المتحقق بالحق (وعيسى أعلى هؤلاء مرتبة بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم)، له أن يشاء الأشياء، فتكون عند ظهورها كما شاء؛ لكن هذه المشيئة، وإن كانت من عيسى أو غيره من الربانيين، فإنها لا تُنسب إليهم، ولكن تُنسب إلى الحق الظاهر بصورهم. وهم يعلمون هذا، ويلتزمونه من باب الأدب المناسب لعلمهم الخاص بالحق وبمراتبه وبأحكامه في جميع تلك المراتب. لكن قوم عيسى أو قوم أي رباني، إن كانوا على علم بحقيقة صاحبهم، فإنهم ينبغي أن يحتاطوا من مشيئته؛ لأنه قد يشاء خلاف ما هم عليه، أو خلاف ما يرجون منه، إن لم يتأدبوا معه، أو من غير سبب. ومن هذا الباب، يحكم الرباني على المؤمن بالكفر فيكفر، ويشاء للكافر أن يؤمن فيؤمن، أو يحب لأحد أتباعه الولاية فينالها. وما يفعل ذلك إلا من حضرة الحق الأول،

---

[١] . يوحنا: ٦: ٣٢–٤٠.

لا من صورته الطبيعية. ولقد رأينا للناس جهلا كبيرا بهذه التفاصيل، حتى لِمن عُدّ من خواصهم؛ ولم نر كلاما يتصل بما ذكرنا، إلا ما يُقال عن التصرف وأهله. والمعنى الذي يتكلم به الناس عن التصرف، قد يُداخله الشرك، إن وقع التفريق ولو قليلا، بين العبد الرباني وربه. ونعني، أن من يأخذ الأمر على أنه تصرف بإذن الله في العالم، من دون أن يعلم أن المتصرف هو الله ذاته، فإنه يكون مشركا بقدر جهله بذلك. وأما التصرف في نفسه، فهو بالنظر إلى العبد المتصرف، يكون من مرتبتيْن: مرتبة المشيئة، وهي التي كنا بصددها، ولا تكون إلا لأكابر الأولياء من الأنبياء أو من الورثة؛ وأما المرتبة الثانية، فهي مرتبة الإرادة التي يعيّن بها المتصرف المراد الذي سيخرج إلى الوجود. وكل أهل التصرف من الأولياء، ليس لهم إلا هذا التصرف المتعلق بالإرادة وحده؛ إلا القطب الغوث، فإن له تارة المشيئة وتتبعها الإرادة، عندما يكون حاله في الوقت الجمع؛ وتكون له مرتبة إنفاذ المشيئة والإرادة، كما هو شأن أهل التصرف الذين دونه، عندما ينزل عليه الأمر من الحضرة المحمدية، على سبيل الفرق. والجمع والفرق اللذان نتكلم عنهما هنا، ليسا بالمعنى الذي يفهمه أهل السلوك؛ وإنما هو جمع وفرق، خاص بمرتبة الخلافة، ويكونان حالا لا مقاما. وذلك لأن المشيئة والإرادة صفتان إلهيتان بالأصالة، والخليفة قائم فيهما لا بالأصالة. وهذا من لباب العلم، لمن كان يعقل.

وعندما توقف التلاميذ في معنى الكلام، ورأى عيسى ذلك منهم، قال لهم: "اَلرُّوحُ هُوَ الَّذِي يُحْيِي. أَمَّا الْجَسَدُ فَلاَ يُفِيدُ شَيْئًا. اَلْكَلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ هُوَ رُوحٌ وَحَيَاةٌ، وَلكِنْ مِنْكُمْ قَوْمٌ لاَ يُؤْمِنُونَ!"[١]: وهذا الكلام يدل على حقيقة المعنى الذي أشار إليه عيسى، ويُبيّن أنه لم يكن يكلمهم عن حياة الأجساد، ولا عن الخبز والماء اللذيْن هما غذاء لها. وإنما جعل كلامه نفسه روحا وحياة، لأنه يُحيي القلوب ويجعلها تعرف مُحييها؛ ولكنه مع ذلك، أخبرهم أنهم لا يؤمنون. ومعنى الإيمان هنا خاص، لأنه يتعلق بكلام عيسى لا بعيسى. وذلك لأن إيمان الأتباع بعيسى، كان مُجملا، في حين أن الإيمان بكلامه، يدخل في تفاصيل الإيمان التي لم يظفروا بها. وهذا المقام لا يكون لكل مؤمن، وإنما يكون لمن بلغ ذروة الإيمان، وحصّل كل علوم درجات الإيمان. ولا يبقى أمام من بلغ هذه الدرجة، إلا الإحسان. وأحكام الإحسان أحكام تخالف أحكام الإيمان، فلا داعي إلى ذكرها هنا.

ويُضيف عيسى عليه السلام: "فَقَالَ: «لِهذَا قُلْتُ لَكُمْ: إِنَّهُ لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ إِلَيَّ إِنْ لَمْ يُعْطَ مِنْ أَبِي». مِنْ هذَا الْوَقْتِ رَجَعَ كَثِيرُونَ مِنْ تَلاَمِيذِهِ إِلَى الْوَرَاءِ، وَلَمْ يَعُودُوا يَمْشُونَ مَعَهُ. فَقَالَ يَسُوعُ لِلاثْنَيْ عَشَرَ: «أَلَعَلَّكُمْ أَنْتُمْ أَيْضًا تُرِيدُونَ أَنْ تَمْضُوا؟» فَأَجَابَهُ سِمْعَانُ بُطْرُسُ: «يَا رَبُّ، إِلَى مَنْ نَذْهَبُ؟ كَلاَمُ الْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ عِنْدَكَ، وَنَحْنُ قَدْ آمَنَّا وَعَرَفْنَا أَنَّكَ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ الْحَيِّ». أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «أَلَيْسَ أَنِّي أَنَا اخْتَرْتُكُمْ، الاثْنَيْ عَشَرَ؟ وَوَاحِدٌ مِنْكُمْ شَيْطَانٌ!»"[٢]: هذا تعليم نفيس، ينبغي أن نمشي فيه بالتدرُّج:

١. عيسى يُخبر السامعين، أنه لا يتبعه إلا من أُعطي حكم الاتّباع من الله، لا مِن رغبة نفسه، كما يتوهم الغافلون. وحكم الله، قد يكون عُلويا (من حقيقة عيسى) واردا إلى عيسى الشخص، وليس لعيسى إلا العمل به. وقد يكون من عيسى الشخص في حال الجمع، كما ذكرنا آنفا. وعلى كل حال، ففي الحاليْن، ليس الاتباع من إرادة الأتباع.

٢. عندما سمع من لم يكن من أهل الاتّباع عند الله، كلام عيسى، تركوا مجاراة التلاميذ وتقليدهم بالظاهر؛ وانصرفوا عن عيسى. وذلك لأن كلام عيسى عند كشف حقيقة الاتّباع، جعلهم يعلمون أنهم ليسوا من أهله، فلا داعي لإتعاب أنفسهم فيما لا يُحصّل. وإن تركهم لعيسى، كان أدبا منهم من حيث لا يشعرون، مع نقصهم في العلم؛ لأنهم لو كانوا

---

[١] . يوحنا: ٦: ٦٣-٦٤.

[٢] . يوحنا: ٦: ٦٥-٧٠.

على علم، لعلموا أن اللحوق بعيسى مع تحقق عدم أهليتهم، قد يجعلهم يفوزون به فيما بعد، إن هو نظر إليهم نظرة قبول؛ لأن الحكم لا يكون نهائيا عند الله، إلا إن رضي العبد بما هو فيه. وهذا علم آخر، متعلق بمسألة أخرى، لن نستفيض فيه. ونظرة القبول من عيسى، هي ما يتعرض له المريدون من الصوفية مع الشيخ الرباني؛ كما هو معلوم من أدبياتهم.

٣. ولما بقي الاثنا عشر مع عيسى، وكلمهم: "أَلَعَلَّكُمْ أَنْتُمْ أَيْضًا تُرِيدُونَ أَنْ تَمْضُوا؟"، كان يريد أن يفتح لهم بابا جديدا في علم المسألة خاصا بهم، وهو فوق طور الأولين. فلما أجابوا: "يَا رَبُّ، إِلَى مَنْ نَذْهَبُ؟ كَلاَمُ الْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ عِنْدَكَ، وَنَحْنُ قَدْ آمَنَّا وَعَرَفْنَا أَنَّكَ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ الْحَيِّ."، كلمهم بما سيُرقّيهم من شهود أفعالهم، إلى شهود أفعال الحق، فقال لهم: "أَلَيْسَ أَنِّي أَنَا اخْتَرْتُكُمْ، الاثْنَيْ عَشَرَ؟ وَوَاحِدٌ مِنْكُمْ شَيْطَانٌ!". ومعنى الكلام هو: إن آمنتم بي وتبعتموني، فلأنني شئت ذلك منكم؛ فالفضل لي لا لكم. وحتى الواحد منكم الذي هو شيطان، فأنا شئته كذلك؛ ولم يكن ذلك مخالفة منه لي. وهنا كان ينبغي للتلاميذ أن يترقوا إلى ما دلهم عليه رسولهم عليه السلام، ليعلموا أن مشيئة الله حاكمة على الجميع. ولكن بحسب ما نرى في الأناجيل، فإن كثيرا من الظلمة قد دخلت عليهم من أنفسهم، فانحرفوا عن طريق المسيح، الذي صرنا نحن في هذا الكتاب ندفع عنه ما ليس منه، ليظهر كما كان أول مرة نقيا صافيا.

ثم يقول يوحنا: "فَنَادَى يَسُوعُ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِي الْهَيْكَلِ قِائِلًا: «تَعْرِفُونَنِي وَتَعْرِفُونَ مِنْ أَيْنَ أَنَا، وَمِنْ نَفْسِي لَمْ آتِ، بَلِ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ حَقٌّ، الَّذِي أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ. أَنَا أَعْرِفُهُ لأَنِّي مِنْهُ، وَهُوَ أَرْسَلَنِي». فَطَلَبُوا أَنْ يُمْسِكُوهُ، وَلَمْ يُلْقِ أَحَدٌ يَدًا عَلَيْهِ، لأَنَّ سَاعَتَهُ لَمْ تَكُنْ قَدْ جَاءَتْ بَعْدُ. فَآمَنَ بِهِ كَثِيرُونَ مِنَ الْجَمْعِ، وَقَالُوا: «أَلَعَلَّ الْمَسِيحَ مَتَى جَاءَ يَعْمَلُ آيَاتٍ أَكْثَرَ مِنْ هذِهِ الَّتِي عَمِلَهَا هذَا؟». سَمِعَ الْفَرِّيسِيُّونَ الْجَمْعَ يَتَنَاجَوْنَ بِهذَا مِنْ نَحْوِهِ، فَأَرْسَلَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَرُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ خُدَّامًا لِيُمْسِكُوهُ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «أَنَا مَعَكُمْ زَمَانًا يَسِيرًا بَعْدُ، ثُمَّ أَمْضِي إِلَى الَّذِي أَرْسَلَنِي. سَتَطْلُبُونَنِي وَلاَ تَجِدُونَنِي، وَحَيْثُ أَكُونُ أَنَا لاَ تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا.»"[١]: إن المسيحيين لا يعلمون حقيقة عيسى بعد الرفع، ويتصورون أنه موجود في السماء بجانب الرب؛ وهذا تصور شركي، يُشبه ما يقع فيه مجسمة المسلمين من تيميين وغيرهم. والسبب في هذا الانحراف العقدي، هو قياس الحق على الخلق في مسألة الذات. ونعني من هذا، أن ضعاف العقول، لا يتصورون الله أو الرب اسما يُخالف في حقيقته أسماء المخلوقات، من حيث معنى العلمية. ونحن عندما نقول إن الاسم "الله" علم على الذات، فإننا لا نجعل المطابقة الدلالية تصدق إلا إن حصرنا الكلام في الحقيقة المحمدية التي هي مسمى الإنسان، والتي هي أيضا حضرة الواحدية. أما الذات الصرف، فلا اسم لها؛ ولا دلالة عليها من جهة ظاهر الأسماء. ونقول هذا، حتى نستثني الاسم "الأحد" الذي به يتجلى الله لنفسه من باطن الواحدية، ونستثني الاسم "هو" أيضا، الذي يُشير إلى غيب الذات من وراء الاسم "الله". وهذا لا يعني أن الإشارة تبلغ كنه الذات، وإنما يعني أن أقصى ما يُنال من العلم بالذات، العلم بأنها غيب الغيوب. وإن كثيرا من الناس يجعلون الغيب في مقابل الاسم "الظاهر"، والحقيقة هي أن "الظاهر" مقابل لـ "الباطن"؛ وأن الغيب مقابل للشهادة كما هو معلوم. وأما غيب الغيوب، فهو من وراء الغيب ومن وراء الشهادة (أي من أمامها)؛ لأن له الإحاطة بكل شيء وبكل اسم وبكل تجلٍّ.

ولما كان المسيحيون لا يبلغون مرتبة العلم بالذات، فإنهم بقياسهم الحق على الخلق، وبتصورهم لوجود عيسى إلى جنب الرب، قد دخلوا في الشرك لا محالة. وأما عيسى عليه السلام، فلِمعنى رفعه مرتبتان:

---

[١]. يوحنا: ٧: ٢٨-٣٤.

١. الأولى: وهي المرتبة السماوية التي تجعل روحانية الأنبياء السابقين ساكنة لإحدى السماوات. وروحانيات الأنبياء هي بالترتيب من السماء الأولى إلى السابعة: آدم، وعيسى، ويوسف، وإدريس، وهارون، وموسى، وإبراهيم؛ عليهم السلام أجمعين. وأما يحيى عليه السلام، فله التردد بين السماوات؛ وقد وجده النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند عروجه الشريف مع عيسى في السماء الثانية. وهذه الروحانيات مترتبة في هذه السماوات لخصائصها المستمدة من الصفات الإلهية السبع؛ والتي هي: الحياة والعلم والقدرة والإرادة والكلام والسمع والبصر. والمناسبة تقتضي أن تكون الحياة ليحيى والكلام لموسى والسمع لهارون والعلم لإدريس والقدرة لعيسى والإرادة لإبراهيم والبصر ليوسف. وأما آدم فله التعيُّن بالأسماء، المسمّى ألوهية؛ وهو معنى الخلافة. وكما أنه عليه السلام أبو البشر، فكذلك تكون مرتبته الأولية في الروحانيات من جهة التفصيل، بسبب سبقه في الظهور بالخلافة. وأما من يخطر له السؤال عن روحانية محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أين موضعها؟ فإننا نخبره بأن لها الفلك المحيط ومستوى العرش؛ لأن السماوات لا تتسع لها.

٢. الثانية: وهي المرتبة الحقية التي أشار عليه السلام إليها بقوله: "بَلِ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ حَقٌّ، الَّذِي أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ". والحق هنا، هو الحقيقة المحمدية التي يوجد عيسى بحقيقته فيها. ولهذا قال عيسى بعد ذلك: "سَتَطْلُبُونَنِي وَلاَ تَجِدُونَنِي، وَحَيْثُ أَكُونُ أَنَا لاَ تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا". وعدم القدرة على الوصول إلى العلم بحقيقة عيسى، هو ما سيفتح باب الضلال على المسيحيين؛ وهو ما سنبيّنه في السطور القادمة. وهذا الحق الذي عاد إليه عيسى، ليس هو الحق المطلق عن الإطلاق والتقييد والذي هو ما أشرنا إليه سابقا باسم غيب الغيب؛ ولكن هو الحق الذي له الإطلاق المقابل للتقييد؛ ونعني أنه مقيد بالإطلاق. ولذلك سميناه الحقيقة المحمدية، ولم نسمه الذات؛ وإن كان هو الذات لكن بمعنى المرتبة. ومقصود عيسى عند إخباره بأن سامعيه لا يعرفون الحق، هو كونهم لا يتمكنون من بلوغ إدراك مرتبته (الحق) من جهة عيسى إلا إيمانا؛ وذلك لأن عيسى يحجب أمته بحقيقته عن إدراك الحق الذي وراءها. وهذا هو سبب جهل المسيحيين بالحق الذي وراء عيسى، إلى الحد الذي جعلهم يخلطون بين المرتبتيْن خلطا لا مخرج منه. ولو أنهم بقوا على الإيمان المحض، من دون إرادة تعقّل للمعاني التي أخبر بها عيسى عليه السلام، لكانوا على خير كبير. وأما نحن، فإننا نلنا العلم بالحق، من الحقيقة المحمدية، لكوننا من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ بحيث ليس بيننا وبينه حجاب. ونحن من هذا الوجه مساوون للأنبياء عليهم السلام، ونعني هنا مرتبة الاستمداد المباشر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حصرا. وهذا المعنى هو ما يُشير إليه حديث: «عُلَماءُ أُمَّتِي كَأَنْبِياءِ بَنِي إِسْرائيلَ.». ورغم أن هذا الحديث لم يثبت لا عند أهل السنة ولا عند الشيعة، فإن معناه من أصح المعاني. وسنذكر ما يُحتمل أن يكون سببا لإهمال المحدثين له:

١. لأنهم يرون أنه يُثبت النبوة لعلماء هذه الأمة، وهذا غلط؛ لأنه يُثبت مرتبة الاستمداد من غير واسطة فحسب. وحتى لا يتقوّل علينا فقهاء السوء من أمتنا، فإننا نؤكد على أن لا نبوة بعد نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ونجزم بأن كل مدّع للنبوة في الزمن التشريعي المحمدي، يكون كافرا كفرا أكبر.

٢. لأن المُدرَك من لفظ العلماء عرفا، الفقهاء؛ بينما المقصود هنا العلماء بالله، الذين يُطلَق عليهم اصطلاحا "العارفون".

٣. دخول علماء الحديث في تمحيص المتون؛ وقد كان يكفي أن يتكلموا في أسناد الأحاديث، إثباتا وردا بحسب درجاتها. ونحن نرى أن ينبري لتخريج الأحاديث علماء معاصرون، لا يعتبرون إلا السند؛ من الوجه التاريخي والاجتماعي السياسي خصوصا، لأننا نرى أن تصنيف الأحاديث لم يخلُ من هوى ومن جهل. وإنّ تناول المتن قبولا وردا، بحسب العقول والعقائد، لا يمكن أن يكون علميا خالصا؛ لأن المتن ينبغي أن يُمحصه العلماء بالله لا الفقهاء. ولكن مرتبة العلم بالله قد جُهلت منذ القرن الأول، وقد حورب أهلها على مر العصور، مما جعل الدين ينحرف عن أصله عند ائتمام الأمة بالقاصرين. هذا فيما مضى، وأما فيما هو آت، فإن الأمة ستعود إلى اتباع الربانيين حتى يعود إليها مجدها اللائق بها.

ولولا علمنا بالحق من المرتبة ذاتها التي يعلمه منها الأنبياء عليهم السلام، ما كنا ندل الموسويين أو المسيحيين على معاني كلام أنبيائهم؛ وما كنا لنعلمها من الأصل. فينبغي أن يُعتبر هذا الأصل في العلم، وعند إعادة ترتيب المعلومات (التجديد الذي ندعو إليه اليوم).

ثم يقول يوحنا: "قَالَ هذَا عَنِ الرُّوحِ الَّذِي كَانَ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ مُزْمِعِينَ أَنْ يَقْبَلُوهُ، لأَنَّ الرُّوحَ الْقُدُسَ لَمْ يَكُنْ قَدْ أُعْطِيَ بَعْدُ، لأَنَّ يَسُوعَ لَمْ يَكُنْ قَدْ مُجِّدَ بَعْدُ."[1]: وهذا تأويل منه لكلام عيسى الذي أوضحناه في الفقرة السابقة. وهو لا يخلو من تحكم، عندما قال بعدم تمجيد عيسى في الوقت الذي كان يُكلم فيه اليهود والتلاميذ. وهذا يعني أن الرُّسُل (التلاميذ) سيفرقون بين عيسى قبل الرفع، وهو بعد الرفع. وهذا لا يمكن أن يُقبل من جهة العلم، لأن حقيقة عيسى لم تتغير بالرفع، وإنما تغيرت مرتبة الظهور. وخلط التلاميذ في المعاني، الذي أعطاهم التفريق، هو سبب تأويلهم للكلام بحسب ما يُدركون. وكأن عيسى قبل الرفع كان بشرا متألها، وبعد الرفع صار إلها خالصا. وهذا أيضا هو ما دعاهم سابقا، إلى القول بأن الله (تعالى) روح. والحقيقة هي أن عيسى مظهر للحق، وليس هو الحق من جهة إطلاقه الحقي، ولا هو الحق من جهة تقييده الخلقي وإطلاقه الحقي، والذي هو الحقيقة المحمدية، أو مرتبة الألوهية والواحدية.

ثم يقول يوحنا: "أَمَّا يَسُوعُ فَمَضَى إِلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ. ثُمَّ حَضَرَ أَيْضًا إِلَى الْهَيْكَلِ فِي الصُّبْحِ، وَجَاءَ إِلَيْهِ جَمِيعُ الشَّعْبِ فَجَلَسَ يُعَلِّمُهُمْ. وَقَدَّمَ إِلَيْهِ الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ امْرَأَةً أُمْسِكَتْ فِي زِنًا. وَلَمَّا أَقَامُوهَا فِي الْوَسْطِ قَالُوا لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ، هذِهِ الْمَرْأَةُ أُمْسِكَتْ وَهِيَ تَزْنِي فِي ذَاتِ الْفِعْلِ، وَمُوسَى فِي النَّامُوسِ أَوْصَانَا أَنَّ مِثْلَ هذِهِ تُرْجَمُ. فَمَاذَا تَقُولُ أَنْتَ؟» قَالُوا هذَا لِيُجَرِّبُوهُ، لِكَيْ يَكُونَ لَهُمْ مَا يَشْتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ. وَأَمَّا يَسُوعُ فَانْحَنَى إِلَى أَسْفَلُ وَكَانَ يَكْتُبُ بِإِصْبِعِهِ عَلَى الأَرْضِ. وَلَمَّا اسْتَمَرُّوا يَسْأَلُونَهُ، انْتَصَبَ وَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلاَ خَطِيَّةٍ فَلْيَرْمِهَا أَوَّلاً بِحَجَرٍ!» ثُمَّ انْحَنَى أَيْضًا إِلَى أَسْفَلُ وَكَانَ يَكْتُبُ عَلَى الأَرْضِ. وَأَمَّا هُمْ فَلَمَّا سَمِعُوا وَكَانَتْ ضَمَائِرُهُمْ تُبَكِّتُهُمْ، خَرَجُوا وَاحِدًا فَوَاحِدًا، مُبْتَدِئِينَ مِنَ الشُّيُوخِ إِلَى الآخِرِينَ. وَبَقِيَ يَسُوعُ وَحْدَهُ وَالْمَرْأَةُ وَاقِفَةٌ فِي الْوَسْطِ. فَلَمَّا انْتَصَبَ يَسُوعُ وَلَمْ يَنْظُرْ أَحَدًا سِوَى الْمَرْأَةِ، قَالَ لَهَا: «يَا امْرَأَةُ، أَيْنَ هُمْ أُولئِكَ الْمُشْتَكُونَ عَلَيْكِ؟ أَمَا دَانَكِ أَحَدٌ؟» فَقَالَتْ: «لاَ أَحَدَ، يَا سَيِّدُ!». فَقَالَ لَهَا يَسُوعُ: «وَلاَ أَنَا أَدِينُكِ. اذْهَبِي وَلاَ تُخْطِئِي أَيْضًا».[2]: ولا بد هنا من توضيح أمور، نرى أنها قد التبست على المسيحيين، وهي:

١. لقد سبق لعيسى أن فرّق بين مرتبته ومرتبة موسى عليهما السلام؛ وسبق لنا نحن في تفسيرنا لكلامه، أن قلنا: إن عيسى ينطق من مرتبة الحقيقة، بينما كان موسى ينطق من مرتبة الشريعة. وبيّنّا أن الشريعة والحقيقة هما اعتباران في الأحكام وليسا شيئيْن متناقضيْن، كما يبدو ذلك لغير العلماء.

٢. إن عيسى في هذه الواقعة، لم يُلغ حكم شريعة موسى، الذي أخبر به الفرّيسيّون؛ ولو أنهم رجموا المرأة ولم يُخبروا عيسى، لكانوا على الحق.

٣. إن الفريسيين عندما جاءوا إلى عيسى يستفتونه، لم يأتوا بنية صادقة؛ وإنما جاءوا وهم يتمنون أن يُفتي بما يُخالف الشريعة، ليجدوا ممسكا عليه يُكذبونه به أمام الشعب. وهو عليه السلام أجلّ من أن يوقع به الفريسيون أو غيرهم من الناس، لأنه قائم بالحق؛ والحق يدمغ الباطل حيث كان. يقول الله تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} [الأنبياء: ١٨]. والحكم بالويل ينطبق على الفريسيين من غير شك، بسبب جرأتهم على الحق الذي هو عيسى. وبما أن عيسى له مرتبته التي لا ينزل عنها، فإنه خالف مقصود الفريسيين، من دون أن يخالف

---

[1]. يوحنا: ٧: ٣٩.

[2]. يوحنا: ٨: ١-١١.

الشريعة؛ وهذا دليل على علوّ مكانته في العلم عليه السلام. ولقد كان يتكلم وهو يخط على الأرض، كمن يلهو؛ ليظهر أنه يُجيب من غير روية من مقام الحق، لا من مقام العقل المفكر.

٤. إن إرجاع عيسى الناس إلى أنفسهم، ومطالبتهم بالنظر في حقيقتها، ليبقى من لم يُخطئوا منهم وحدهم، حتى يُقيموا الحد على المرأة (الرجم)، هو تبكيت للفريسيين فحسب. ولو أنهم كانوا على علم بحقيقة الشريعة، لأجابوه بأن إنفاذ حكم الشريعة لا يتعلق بأحوالهم، وإنما هو مجرد عنها؛ وبأن العمل بالشريعة واجب لا ينبغي تعطيله بالنظر إلى معصية العاملين في أنفسهم؛ ولكنهم لجهلهم، انصرفوا. والدليل على صحة تفسيرنا، هو عدم رفع عيسى رأسه إلا بعد انصرافهم، وكأنه لم يكن ينتظر منهم ذلك كلّهم. وهذا ليدل بالحال -عليه السلام- على مكانة الشريعة في نفسه الشريفة.

٥. ما يؤكد تعظيم عيسى للشريعة، هو مخاطبته للمرأة بقوله: "اذْهَبِي وَلاَ تُخْطِئِي أَيْضًا". وهذا يعني أنه لم يُبح لها فعل المعصية؛ وإنما هو عفا عنها من مرتبة الحقيقة، كما ذكرنا سابقا عدة مرات. وهذا العفو داخل في قول الله تعالى: {يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ} [آل عمران: ١٢٩]. وهذا يعني أيضا، أن عيسى له سلطة العفو عن العاصي من جهة الشريعة، لكونها ثابتة بالحقيقة ولا تنفصل عنها. فحكم عيسى هنا شرعي من مرتبته العليا عليه السلام، ومن باب تكميله للتشريع الموسوي. وهذا المستوى من الشريعة مجهول للفقهاء من اليهود ومن المسلمين، وإن كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد دل عليه بسنته الشريفة. ولسنا هنا في معرض الاستدلال، حتى نتوسع في المسألة؛ وسنترك ذلك إلى أن يأذن الله في الكلام عن أسرار السيرة في غير هذا الكتاب.

ويقول يوحنا بعد ذلك: " ثُمَّ كَلَّمَهُمْ يَسُوعُ أَيْضًا قَائِلًا: «أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ. مَنْ يَتْبَعْنِي فَلاَ يَمْشِي فِي الظُّلْمَةِ بَلْ يَكُونُ لَهُ نُورُ الْحَيَاةِ». فَقَالَ لَهُ الْفَرِّيسِيُّونَ: «أَنْتَ تَشْهَدُ لِنَفْسِكَ. شَهَادَتُكَ لَيْسَتْ حَقًّا». أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «وَإِنْ كُنْتُ أَشْهَدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي حَقٌ، لأَنِّي أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ أَتَيْتُ وَإِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلاَ تَعْلَمُونَ مِنْ أَيْنَ آتِي وَلاَ إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ. أَنْتُمْ حَسَبَ الْجَسَدِ تَدِينُونَ، أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ أَدِينُ أَحَدًا. وَإِنْ كُنْتُ أَنَا أَدِينُ فَدَيْنُونَتِي حَقٌ، لأَنِّي لَسْتُ وَحْدِي، بَلْ أَنَا وَالآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي. وَأَيْضًا فِي نَامُوسِكُمْ مَكْتُوبٌ أَنَّ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ حَقٌ: أَنَا هُوَ الشَّاهِدُ لِنَفْسِي، وَيَشْهَدُ لِي الآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي»."[١]: لقد سبق لنا أن بيّنّا معنى نور العالم، وأوضحنا أنه الشطر الوجودي من حقيقته؛ فلا داعي إلى المزيد هنا. وواضح أن من يتبع النور الذي هو عيسى سيستمد النور، وبيّنّا أن اكتمال استمداد النور، هو ما يحصل به الوصول. وعلى عادة الفقهاء المشككين، والذين يأتيهم شكهم من غلبة الظلمة عليهم، فإنهم خاطبوا عيسى بلغة فقهية تقتضي أن شهادة المرء لنفسه مجروحة؛ ولم يستحيوا، فذكروا له ذلك. ولكنه -عليه السلام- أجاب بجواب لا يصدر إلا عن أمثاله من كبار الربانيين:

١. فهو أثبت لهم أن شهادته في نفسها حق، لأنها من الحق؛ وهو يعلم هذا من نفسه الشريفة ذوقا، وليس في حاجة لأن يطلب ذلك منهم. وأما الفريسيون، فلا علم لهم بعيسى، مصدرا وموردا؛ لأنهم لا يعتبرون إلا الجسد الطبيعي، وعلى حسب إدراكهم لعالم سُفلهم فحسب، لا على حقيقته. وهو -عليه السلام- يطعن في دينونتهم للجسد (وهو يذكر هنا المرأة العاصية)، من كونهم بعيدين عن الشريعة التي يتمسحون بها. وما ذلك إلا لأن الشريعة نور، وهم ما يزالون على ظلمة وجهل.

٢. ويُضيف عيسى إلى شهادته، شهادة الحق الذي هو قائم به؛ ويجعلهما شهادتيْن في القيمة، ليوافق بهما حكم الشريعة القابلة لشهادة رجليْن؛ من باب إفحام الفريسيين، ومن باب الدلالة على أصل الحكم الشرعي في عالم الحقائق. ولقد

---

[١]. يوحنا: ٨: ١٢-١٨.

ذكرنا مرارا، أن جميع الأحكام الشرعية، هي صور لما تكون عليه الأحكام في عالم الحقائق. وهذا علم لا يكون إلا للورثة، وليس للصوفية ولا لعلماء الشريعة فيه قدم. وهذا الذي ذكره عيسى هنا، هو ما سبق أن حكمنا به نحن من كونه عليه السلام لم يخرج عند عفوه على المرأة عن حكم الشريعة، ولا ينبغي له!...

ثم يضيف يوحنا: "فَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ هُوَ أَبُوكَ؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «لَسْتُمْ تَعْرِفُونَنِي أَنَا وَلاَ أَبِي. لَوْ عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ أَبِي أَيْضًا»."[1]: ويظهر من سؤال اليهود، أنهم أرادوا أن يستنطقوا عيسى عما لا يريد أن يتكلم هو فيه؛ لا لأنه لا يُحسن الكلام، ولكن لأنه يعلم أنهم سيُكذبونه؛ لذلك أجابهم بما يليق بهم. ومعنى إجابته عليه السلام، هو: لو آمنتم بي لعرفتموني جزاء إيمانكم، وعرفتم أبي بمعرفتي؛ لأني لست غيره إلا من جهة نسبة صورتي العدمية.

ويضيف عيسى في تعريف نفسه: "فَقَالَ لَهُمْ: «أَنْتُمْ مِنْ أَسْفَلُ، أَمَّا أَنَا فَمِنْ فَوْقُ. أَنْتُمْ مِنْ هذَا الْعَالَمِ، أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مِنْ هذَا الْعَالَمِ."[2]: وهذه هي الحقيقة التي ينبغي لكل ناظر أن يعلمها، وهي أن عيسى من عالم الحق العلوي؛ وأما سائلوه ومكذبوه ومن يُشابهونهم في مرتبتهم من كل زمان، فهم من عالم السُّفل الأرضي. وكيف يعرف الأرضيّون من كان سماويا علويا؟!...

ثم يحكي يوحنا: "فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «مَتَى رَفَعْتُمُ ابْنَ الإِنْسَانِ، فَحِينَئِذٍ تَفْهَمُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ، وَلَسْتُ أَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ نَفْسِي، بَلْ أَتَكَلَّمُ بِهذَا كَمَا عَلَّمَنِي أَبِي. وَالَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ مَعِي، وَلَمْ يَتْرُكْنِي الآبُ وَحْدِي، لأَنِّي فِي كُلِّ حِينٍ أَفْعَلُ مَا يُرْضِيهِ»."[3]: كان عيسى عليه السلام يعلم أن رفعه، منوط بإرادة اليهود قتله. وأما ما أخبر به من أن الذي أرسله معه، ولا يتركه وحده، فهو أساس القول بعدم صلبه وقتله، كما أخبر الله عنه تعالى: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ} [النساء: ١٥٧]. وبما أن المعية مانعة عن القتل والصلب، علمنا منها أنها معية في جميع المراتب. وهذا خلاف ما يذهب إليه المفسرون المسلمون في تفسير مثل قول الله تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: ٤]، عندما يحصرون المعية في العلم. ومع أن المعية تكون بالعلم من حيث هو صفة، إلا أن الصفة لا تفارق الموصوف؛ لهذا فإن المعية هنا حقيّة. ولا تكون المعية من هذه المرتبة، حتى يكون العبد في حكم العدم (الفناء). فالحق هنا هو الذي مع الصورة العدمية التي للعبد؛ لأنه من المحال أن يكون الحق بمعية أحد له وجود مخصوص به عند نفسه. ومن يقول بالوجودين، فلا شك هو قائل بإلهيْن، علم ذلك، أم لم يعلم.

ويختم يوحنا الأصحاح الثامن بهذا الحوار: "فَقَالَ يَسُوعُ لِلْيَهُودِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ: «إِنَّكُمْ إِنْ ثَبَتُّمْ فِي كَلاَمِي فَبِالْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ تَلاَمِيذِي، وَتَعْرِفُونَ الْحَقَّ، وَالْحَقُّ يُحَرِّرُكُمْ». أَجَابُوهُ: «إِنَّنَا ذُرِّيَّةُ إِبْرَاهِيمَ، وَلَمْ نُسْتَعْبَدْ لأَحَدٍ قَطُّ! كَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ: إِنَّكُمْ تَصِيرُونَ أَحْرَارًا؟» أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ الْخَطِيَّةَ هُوَ عَبْدٌ لِلْخَطِيَّةِ. وَالْعَبْدُ لاَ يَبْقَى فِي الْبَيْتِ إِلَى الأَبَدِ، أَمَّا الابْنُ فَيَبْقَى إِلَى الأَبَدِ. فَإِنْ حَرَّرَكُمْ الابْنُ فَبِالْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ أَحْرَارًا. أَنَا عَالِمٌ أَنَّكُمْ ذُرِّيَّةُ إِبْرَاهِيمَ. لكِنَّكُمْ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي لأَنَّ كَلاَمِي لاَ مَوْضِعَ لَهُ فِيكُمْ. أَنَا أَتَكَلَّمُ بِمَا رَأَيْتُ عِنْدَ أَبِي، وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ مَا رَأَيْتُمْ عِنْدَ أَبِيكُمْ». أَجَابُوا وَقَالُوا لَهُ: «أَبُونَا هُوَ إِبْرَاهِيمُ». قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَوْ كُنْتُمْ أَوْلاَدَ إِبْرَاهِيمَ، لَكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ إِبْرَاهِيمَ! وَلكِنَّكُمُ الآنَ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي، وَأَنَا إِنْسَانٌ قَدْ كَلَّمَكُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي سَمِعَهُ مِنَ اللهِ. هذَا لَمْ يَعْمَلْهُ إِبْرَاهِيمُ. أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ أَبِيكُمْ». فَقَالُوا لَهُ: «إِنَّنَا لَمْ نُولَدْ مِنْ زِنًا. لَنَا أَبٌ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ». فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَوْ كَانَ اللهُ أَبَاكُمْ لَكُنْتُمْ

---

[1] . يوحنا: ٨: ١٩.

[2] . يوحنا: ٨: ٢٣.

[3] . يوحنا: ٨: ٢٨-٢٩.

تُحِبُّونَنِي، لأَنِّي خَرَجْتُ مِنْ قِبَلِ اللهِ وَأَتَيْتُ. لأَنِّي لَمْ آتِ مِنْ نَفْسِي، بَلْ ذَاكَ أَرْسَلَنِي. لِمَاذَا لاَ تَفْهَمُونَ كَلاَمِي؟ لأَنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَسْمَعُوا قَوْلِي. أَنْتُمْ مِنْ أَبٍ هُوَ إِبْلِيسُ، وَشَهَوَاتِ أَبِيكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَعْمَلُوا. ذَاكَ كَانَ قَتَّالًا لِلنَّاسِ مِنَ الْبَدْءِ، وَلَمْ يَثْبُتْ فِي الْحَقِّ لأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ حَقٌّ. مَتَى تَكَلَّمَ بِالْكَذِبِ فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ مِمَّا لَهُ، لأَنَّهُ كَذَّابٌ وَأَبُو الْكَذَّابِ. وَأَمَّا أَنَا فَلأَنِّي أَقُولُ الْحَقَّ لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِي. مَنْ مِنْكُمْ يُبَكِّتُنِي عَلَى خَطِيَّةٍ؟ فَإِنْ كُنْتُ أَقُولُ الْحَقَّ، فَلِمَاذَا لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِي؟ اَلَّذِي مِنَ اللهِ يَسْمَعُ كَلاَمَ اللهِ. لِذلِكَ أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَسْمَعُونَ، لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنَ اللهِ». فَأَجَاب الْيَهُودُ وَقَالُوا لَهُ: «أَلَسْنَا نَقُولُ حَسَنًا: إِنَّكَ سَامِرِيٌّ وَبِكَ شَيْطَانٌ؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «أَنَا لَيْسَ بِي شَيْطَانٌ، لكِنِّي أُكْرِمُ أَبِي وَأَنْتُمْ تُهِينُونَنِي. أَنَا لَسْتُ أَطْلُبُ مَجْدِي. يُوجَدُ مَنْ يَطْلُبُ وَيَدِينُ. اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْفَظُ كَلاَمِي فَلَنْ يَرَى الْمَوْتَ إِلَى الأَبَدِ». فَقَالَ لَهُ الْيَهُودُ: الآنَ عَلِمْنَا أَنَّ بِكَ شَيْطَانًا. قَدْ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ وَالأَنْبِيَاءُ، وَأَنْتَ تَقُولُ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْفَظُ كَلاَمِي فَلَنْ يَذُوقَ الْمَوْتَ إِلَى الأَبَدِ. أَلَعَلَّكَ أَعْظَمُ مِنْ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي مَاتَ؟ وَالأَنْبِيَاءُ مَاتُوا. مَنْ تَجْعَلُ نَفْسَكَ؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتُ أُمَجِّدُ نَفْسِي فَلَيْسَ مَجْدِي شَيْئًا. أَبِي هُوَ الَّذِي يُمَجِّدُنِي، الَّذِي تَقُولُونَ أَنْتُمْ إِنَّهُ إِلهُكُمْ، وَلَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ. وَأَمَّا أَنَا فَأَعْرِفُهُ. وَإِنْ قُلْتُ إِنِّي لَسْتُ أَعْرِفُهُ أَكُونُ مِثْلَكُمْ كَاذِبًا، لكِنِّي أَعْرِفُهُ وَأَحْفَظُ قَوْلَهُ. أَبُوكُمْ إِبْرَاهِيمُ تَهَلَّلَ بِأَنْ يَرَى يَوْمِي فَرَأَى وَفَرِحَ». فَقَالَ لَهُ الْيَهُودُ: «لَيْسَ لَكَ خَمْسُونَ سَنَةً بَعْدُ، أَفَرَأَيْتَ إِبْرَاهِيمَ؟» قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا كَائِنٌ». فَرَفَعُوا حِجَارَةً لِيَرْجُمُوهُ. أَمَّا يَسُوعُ فَاخْتَفَى وَخَرَجَ مِنَ الْهَيْكَلِ مُجْتَازًا فِي وَسْطِهِمْ وَمَضَى هكَذَا."[1]: ونحن سنبيّن معنى كلام عيسى الذي لم يتمكن اليهود –ولا التلاميذ من بعدهم– من أن يعقلوه:

١. إن الحرية التي يدل عليها عيسى هي الانعتاق من النفس؛ لأن العبد ما دام بنفسه، فهو عبد لها، وإن كان من جهة الظاهر حرا. واليهود لم يكونوا يعلمون من العبودية إلا الرق المعهود؛ لذلك سارعوا إلى إنكار ما يُدعَون إليه، بسبب انعدام محل الإيمان منهم. وأما من يعرف الحق، فإن الحق يتولاه، ويصير أمره كله بالله، فلا يقع عليه لسان ذنب. وهذا هو معنى العصمة الذي يحوم حوله المسلمون من غير أن يعلموه. فأهل السنة يُثبتون العصمة للأنبياء، من دون أن يعلموا مُتعلَّقها؛ ولكن حتى يعينوا أنفسهم على الإيمان، عند عدم تطرق الشك منهم في المبلِّغ. وهم هنا، لا يعظِّمون الأنبياء دائما، وإنما يحتالون لأنفسهم حتى لا تكفر فحسب. وأما الشيعة فينسبون العصمة للأئمة من أهل البيت، من دون أن يعلموا أيضا متعلَّقها؛ ليُقنعوا أنفسهم بالبقاء على عهدهم زعما. ولم يعلم الشيعة، أن عبادا كثيرين هم على مثل ما عليه الأئمة من جهة المرتبة. ولو علموا لوجب عليهم إدخالهم في دائرة العصمة هم أيضا، وهذا يشوش عليهم اعتقادهم. ونحن نعود في معنى العصمة، إلى ما أشار إليه عيسى، عند قوله بأن أعماله تُنسب إلى الحق؛ وبالتالي فإن حكمها، هو ما ذكره الحق عن نفسه في قوله تعالى: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: ٢٣]. وهذا الذي نقوله هنا، لا يعني أن الحق معصوم، لأنه سبحانه فوق معنى العصمة؛ ولكن يعني أن الظاهر به هو المعصوم. ولا شك أن عيسى كان من المعصومين في أعلى مكانة.

٢. إن معنى الحياة الذي دل عليه عيسى، هو الحياة بالروح المنفوخ، لا بالروح الحيواني الذي هو عماد حياة الأجساد. واليهود لم يكونوا يعلمون إلا هذا المعنى الأخير، لذلك حكموا بموت إبراهيم، مع كونه حيا في السماء، عليه السلام. وإنكار حياة إبراهيم، هو ما جعل عيسى يحكم على اليهود بأنهم ليسوا أبناءه حقيقة؛ لأنهم لو كانوا أبناءه، لعملوا بعمله، ولسارعوا إلى تصديقه. وهذ المعنى هو ما ذكره الله عن إبراهيم وذريته في قوله تعالى: {قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة: ١٢٤].

---

[1] . يوحنا: ٨: ٣١-٥٩.

٣. وبما أن المكذبين لعيسى قد انتفت بنوتهم لإبراهيم الحُكمية، فإنهم باءوا ببنوة إبليس، كما أخبر عنهم عيسى، صدقا وعدلا. وإبليس تكون أعماله من جنس الظلمة، لذلك هي مخالفة للتشريع الإلهي، وإن حافظ أتباعه على بعض معالمه، أو زعموا أنهم عليه. وهذا شائع بين الكتابيين وبين المسلمين أيضا.

٤. وأما قول عيسى بأنه موجود قبل إبراهيم، فقد كان من مرتبة الحق، لا من مرتبة الحقيقة؛ لأن الحق هو السابق بالمرتبة على جميع خلقه. وأما من جهة الحقيقة، فعيسى وإبراهيم متساويان؛ لكون الحقيقة ذات وحدة اعتبارية، لا يتفاوت فيها الخلق أجمعون. وأما من مرتبة الخلق، فلا شك أن إبراهيم سابق على عيسى بقرون، عليهما السلام. ولو كان اليهود يعلمون المراتب، لما توقفوا عند كلام عيسى وردّوه بعقولهم الأرضية.

ولقد كان على المسيحيين الأُول، أن يكونوا على علم بما ذكرنا، ليتبعوا كلام عيسى كما هو في أصله، ولا يُضطرّوا إلى تفسيره بحسب ما يُدركون؛ لأن تفسيراتهم وتأويلاتهم، قد أخذتهم في طريق غير طريق عيسى. وهذا من أعجب ما يقع للمؤمنين، لو كانوا يعقلون!...

ثم يقول يوحنا في الأصحاح التاسع: "وَفِيمَا هُوَ مُجْتَازٌ رَأَى إِنْسَانًا أَعْمَى مُنْذُ وِلاَدَتِهِ، فَسَأَلَهُ تَلاَمِيذُهُ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، مَنْ أَخْطَأَ: هذَا أَمْ أَبَوَاهُ حَتَّى وُلِدَ أَعْمَى؟». أَجَابَ يَسُوعُ: «لاَ هذَا أَخْطَأَ وَلاَ أَبَوَاهُ، لكِنْ لِتَظْهَرَ أَعْمَالُ اللهِ فِيهِ."[١]: وهذه المسألة متعلقة بالقضاء والقدر، وكثير من الناس تستغلق عليهم، ولا يفهمون لمَ يولد واحد سليما ويولد الآخر زَمِنا (معوقا)؛ لأن العقل يحكم بأن العدل يقضي أنْ يولد الناس متكافئين، حتى يُمكن بعد ذلك الحكم على أيّهم كان أفضل من غيره. ولما سألوا عيسى عليه السلام، لعلهم كانوا ينتظرون أن يجيبهم بأن عمى الرجل كان إما ناتجا عن معصية أبويه، وإما ناتجا عن معصيته هو. وهم ظنوا أن العمى هنا، كان عقوبة، في مقابل افتراض أن يولد كل إنسان مبصرا. فأخبرهم عيسى بأن العمى لم يكن عن خطيئة الأبوين، ولا عن خطيئة الابن؛ وإنما هو من القضاء الأول، الذي يُعيّن الله به صفات وأفعال كل عباده، من دون علة. وهذا القضاء من مرتبة المشيئة، التي هي ألصق الصفات بالذات. ولما كان التلاميذ لا يُدركون معنى القضاء، فقد دلهم عيسى على حكمه في الأشخاص، لتظهر حكمة الله فيهم. وهو ما عبّر عنه بـ "أعمال الله"، تقريبا له إلى الأفهام.

ثم يُضيف عيسى عليه السلام: "يَنْبَغِي أَنْ أَعْمَلَ أَعْمَالَ الَّذِي أَرْسَلَنِي مَا دَامَ نَهَارٌ. يَأْتِي لَيْلٌ حِينَ لاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَعْمَلَ. مَا دُمْتُ فِي الْعَالَمِ فَأَنَا نُورُ الْعَالَمِ»."[٢]: يعني عيسى بالنهار هنا: حكم زمان وجود وظهور العبد الرباني الكامل، لأنه يكون بالنظر إلى الناس نهارا يُبصرون فيه الحق ويهتدون إليه؛ ويعني بالليل زمن اختفاء الربانيين رغم وجودهم. وفي هذا الزمن، لا يتمكن أحد من معرفة الحق ولا من الاهتداء إليه. وأما قوله في البداية: "يَنْبَغِي أَنْ أَعْمَلَ أَعْمَالَ الَّذِي أَرْسَلَنِي مَا دَامَ نَهَارٌ"، فهو مرتبط بما جاء في آخر الفقرة: "مَا دُمْتُ فِي الْعَالَمِ فَأَنَا نُورُ الْعَالَمِ". والمُراد، هو أن عيسى وجود وحق؛ وما دام موجودا في العالم، فإنه يستطيع أن يعمل أعمال الرب بإذنه. وهذه الأعمال تتلخص في إمداد العباد بالمدد الوجودي المناسب لهم، ليزول فقرهم الذي هو عدمهم، في كل مرتبة من مراتبهم، وفي تفاصيل كل مرتبة. والرجل الأكمه الذي ولد أعمى، فقره هو عدم الإبصار؛ وعيسى في وُسعه أن يمنحه البصر من وجوده. كل هذا، لأن الزمن زمن نهار، حكم الله فيه بظهور عيسى النور.

---

[١]. يوحنا: ٩: ١-٣.

[٢]. يوحنا: ٩: ٤-٥.

ثم يقول يوحنا: "قَالَ هذَا وَتَفَلَ عَلَى الأَرْضِ وَصَنَعَ مِنَ التُّفْلِ طِينًا وَطَلَى بِالطِّينِ عَيْنَيِ الأَعْمَى. وَقَالَ لَهُ: «اذْهَبِ اغْتَسِلْ فِي بِرْكَةِ سِلْوَامَ» الَّذِي تَفْسِيرُهُ: مُرْسَلٌ؛ فَمَضَى وَاغْتَسَلَ وَأَتَى بَصِيرًا. فَالْجِيرَانُ وَالَّذِينَ كَانُوا يَرَوْنَهُ قَبْلاً أَنَّهُ كَانَ أَعْمَى، قَالُوا: «أَلَيْسَ هذَا هُوَ الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ وَيَسْتَعْطِي؟» آخَرُونَ قَالُوا: «هذَا هُوَ». وَآخَرُونَ: «إِنَّهُ يُشْبِهُهُ». وَأَمَّا هُوَ فَقَالَ: «إِنِّي أَنَا هُوَ».[1]: وفي عمل عيسى عند عجن الطين ببصاقه الشريف، وطلي عيني الأكمه به، إثبات للحكمة الإلهية، المستدعية للأسباب، ليستر بها فعل القدرة. لأن عدم ستر القدرة، يسير عكس المطلوب المناسب لأحكام دار البلاء التي هي الدنيا. وأمر عيسى بعدُ للرجل بأن يغتسل في البركة المعلومة، هو أيضا من الحكمة. فلما فعل الرجل ما طُلب منه، وعاد أدراجه مبصرا؛ صار الناس يتساءلون عنه، من شدة استغرابهم، إلى أن أخبرهم أنه هو من كان أكمه سابقا. وهذا سيكون فتنة على العقول المظلمة، لأنه سيفسد عليها رتابة العادة التي هي تمشي عليها في حياتها. وقد أخبر الله عن هذه المعجزة لعيسى في قوله تعالى: {وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي} [المائدة: ١١٠]. وينبغي أن نعلم هنا، أن عيسى كان لا بد أن يعود إلى مرتبة المشيئة الإلهية، حتى يتمكن من تغيير الحكم الأول. وهذه العودة لا تكون إلا لمن كان وجودا خالصا.

يقول يوحنا: "فَقَالُوا لَهُ: «كَيْفَ انْفَتَحَتْ عَيْنَاكَ؟» أَجَابَ ذَاكَ وقَالَ: «إِنْسَانٌ يُقَالُ لَهُ يَسُوعُ صَنَعَ طِينًا وَطَلَى عَيْنَيَّ، وَقَالَ لِي: اذْهَبْ إِلَى بِرْكَةِ سِلْوَامَ وَاغْتَسِلْ. فَمَضَيْتُ وَاغْتَسَلْتُ فَأَبْصَرْتُ». فَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ ذَاكَ؟» قَالَ: «لاَ أَعْلَمُ». فَأَتَوْا إِلَى الْفَرِّيسِيِّينَ بِالَّذِي كَانَ قَبْلاً أَعْمَى. وَكَانَ سَبْتٌ حِينَ صَنَعَ يَسُوعُ الطِّينَ وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ. فَسَأَلَهُ الْفَرِّيسِيُّونَ أَيْضًا كَيْفَ أَبْصَرَ، فَقَالَ لَهُمْ: «وَضَعَ طِينًا عَلَى عَيْنَيَّ وَاغْتَسَلْتُ، فَأَنَا أُبْصِرُ». فَقَالَ قَوْمٌ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ: «هذَا الإِنْسَانُ لَيْسَ مِنَ اللهِ، لأَنَّهُ لاَ يَحْفَظُ السَّبْتَ». آخَرُونَ قَالُوا: «كَيْفَ يَقْدِرُ إِنْسَانٌ خَاطِئٌ أَنْ يَعْمَلَ مِثْلَ هذِهِ الآيَاتِ؟» وَكَانَ بَيْنَهُمُ انْشِقَاقٌ."[2]: وإنّ تناول الفريسيين لخبر معجزة عيسى عليه السلام، سيكون على عادة الفقهاء المترسمين، من وجهيْن:

الأول: وهو أنهم يميلون إلى إنكار ما لا يبلغونه، من باب الحسد. فهم رغم علمهم بأن المعجزات تؤيد إيمان المؤمنين وتقويه، بما يُفترض أن يجعلهم يعتنون بها؛ ينحازون إلى طرف الإنكار المقابل، وكأنهم شياطين لا تهنأ إلا إذا لم يتوجه إلى الله من العباد أحد!...

الثاني: وهو عملهم على إيجاد سند شرعي لإنكارهم، وكأن الشريعة قد جاءت لتقطع الناس عن ربهم، لا لتصلهم به سبحانه!... وهم يُلاحظون هنا حرمة السبت، مع أن إعادة البصر إلى أكمه هي عمل استثنائي من شخص استثنائي. وهذا الفعل منهم، من دلالات الجمود المخالف لأصل الدين، ومن علامات استيلاء الظلمة على قلوبهم.

والانقسام الحاصل في جماعتهم، بين مُسارع إلى الإنكار، ومُستبعد لأن تصدر هذه المعجزات عن إنسان خاطئ، هو كالتردد الذي في باطن كل واحد منهم؛ بين إيمانه على ما به من ضعف، وشيطانه الذي يدعوه إلى السعي إلى إطفاء نور الله. يقول الله عن هذا الصنف: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [الصف: ٨، ٩]. وإن حال الفريسيين مع عيسى، هو كمن جاءه خطاب (رسالة) من أحد الأشخاص المعتبرين، ففرح به، وصار يتباهى به أمام الناس؛ ولما جاءه الشخص بعينه إلى بلده، وزاره في بيته، طرده وأنكره. وهذا يعني، لو أنهم كانوا على إيمان صحيح، لفرحوا بعيسى ولأكرموه؛ ولكنهم فعلوا ما يجعل المرء يتعجب من مبلغ سوء حالهم...

---

[1] . يوحنا: ٩: ٦-٩.

[2] . يوحنا: ٩: ١٢-١٧.

ثم يواصل يوحنا: "قَالُوا أَيْضًا لِلأَعْمَى: «مَاذَا تَقُولُ أَنْتَ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ فَتَحَ عَيْنَيْكَ؟» فَقَالَ: «إِنَّهُ نَبِيٌّ!». فَلَمْ يُصَدِّقِ الْيَهُودُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ أَعْمَى فَأَبْصَرَ حَتَّى دَعَوْا أَبَوَيِ الَّذِي أَبْصَرَ. فَسَأَلُوهُمَا قَائِلِينَ: «أَهذَا ابْنُكُمَا الَّذِي تَقُولاَنِ إِنَّهُ وُلِدَ أَعْمَى؟ فَكَيْفَ يُبْصِرُ الآنَ؟» أَجَابَهُمْ أَبَوَاهُ وَقَالاَ: «نَعْلَمُ أَنَّ هذَا ابْنُنَا، وَأَنَّهُ وُلِدَ أَعْمَى. وَأَمَّا كَيْفَ يُبْصِرُ الآنَ فَلاَ نَعْلَمُ. أَوْ مَنْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ فَلاَ نَعْلَمُ. هُوَ كَامِلُ السِّنِّ. اسْأَلُوهُ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ عَنْ نَفْسِهِ». قَالَ أَبَوَاهُ هذَا لأَنَّهُمَا كَانَا يَخَافَانِ مِنَ الْيَهُودِ، لأَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا قَدْ تَعَاهَدُوا أَنَّهُ إِنِ اعْتَرَفَ أَحَدٌ بِأَنَّهُ الْمَسِيحُ يُخْرَجُ مِنَ الْمَجْمَعِ. لِذلِكَ قَالَ أَبَوَاهُ: «إِنَّهُ كَامِلُ السِّنِّ، اسْأَلُوهُ». فَدَعَوْا ثَانِيَةً الإِنْسَانَ الَّذِي كَانَ أَعْمَى، وَقَالُوا لَهُ: «أَعْطِ مَجْدًا للهِ. نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ هذَا الإِنْسَانَ خَاطِئٌ». فَأَجَابَ ذَاكَ وَقَالَ: «أَخَاطِئٌ هُوَ؟ لَسْتُ أَعْلَمُ. إِنَّمَا أَعْلَمُ شَيْئًا وَاحِدًا: أَنِّي كُنْتُ أَعْمَى وَالآنَ أُبْصِرُ». فَقَالُوا لَهُ أَيْضًا: «مَاذَا صَنَعَ بِكَ؟ كَيْفَ فَتَحَ عَيْنَيْكَ؟» أَجَابَهُمْ: «قَدْ قُلْتُ لَكُمْ وَلَمْ تَسْمَعُوا. لِمَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ تَسْمَعُوا أَيْضًا؟ أَلَعَلَّكُمْ أَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَصِيرُوا لَهُ تَلاَمِيذَ؟» فَشَتَمُوهُ وَقَالُوا: «أَنْتَ تِلْمِيذُ ذَاكَ، وَأَمَّا نَحْنُ فَإِنَّنَا تَلاَمِيذُ مُوسَى. نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ مُوسَى كَلَّمَهُ اللهُ، وَأَمَّا هذَا فَمَا نَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ هُوَ». أَجَابَ الرَّجُلُ وَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّ فِي هذَا عَجَبًا! إِنَّكُمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ مِنْ أَيْنَ هُوَ، وَقَدْ فَتَحَ عَيْنَيَّ. وَنَعْلَمُ أَنَّ اللهَ لاَ يَسْمَعُ لِلْخُطَاةِ. وَلكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَتَّقِي اللهَ وَيَفْعَلُ مَشِيئَتَهُ، فَلِهذَا يَسْمَعُ. مُنْذُ الدَّهْرِ لَمْ يُسْمَعْ أَنَّ أَحَدًا فَتَحَ عَيْنَيْ مَوْلُودٍ أَعْمَى. لَوْ لَمْ يَكُنْ هذَا مِنَ اللهِ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا». أَجَابُوا وَقَالُوا لَهُ: «فِي الْخَطَايَا وُلِدْتَ أَنْتَ بِجُمْلَتِكَ، وَأَنْتَ تُعَلِّمُنَا!» فَأَخْرَجُوهُ خَارِجًا."[1]: واضح من هذا الكلام أن الفريسيين، صاروا يحققون مع الأعمى الذي صار مبصرا، ومع والديْه؛ وكأنهم ارتكبوا جناية ما. وهذا يدل على أن الفريسيين، والفقهاء على العموم، لهم سُلطة حقيقية في مجتمعاتهم؛ فهم يعاملون الناس هنا، كما تعاملهم الشرطة في أزمنتنا. وواضح أيضا، أنهم كانوا باستجوابهم هذا، يتمنون أن يجدوا ثغرة في القصة؛ أو يجدوا مخالفة واضحة تدل على أن عيسى كان من أتباع الشيطان (حاشاه!)؛ ليخرجوا إلى الناس بتفسير ينتصرون فيه لأهوائهم، ويزيدوا به من تثبيت مكانتهم فيهم. ولكنهم عندما وجدوا الأمر بعيدا عن كل شبهة، وعندما صار المُبصر يردهم بكلامه -وهو الشخص العامي- إلى الاستنتاجات المنطقية التي كان ينبغي أن يقدموها في اعتبارهم لو كانوا مؤمنين؛ فإنهم لجأوا إلى العنف الذي بدأ لفظيا عندما حكموا على الماثل أمامهم بأنه قد وُلد في الخطايا، وانتهى فعليا، عندما أخرجوه وطردوه من مجلسهم. ولقد أبانوا في تعابيرهم عن كبر غير خفي، هو شبيه بالكبر الذي يتلبس جلَّ فقهاء المسلمين أيضا؛ والذي يكفي وحده للدلالة على فساد طريقهم جميعا. وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ!»[2]. ولو تنبه الفقهاء، وعرفوا أنهم لن يدخلوا الجنة بكبرهم، لعملوا على العودة إلى سبيل الإيمان الذي تركوه عندما توهموا أنهم أوصياء على الدين؛ لأن الإيمان لا يُثمر الكبر في القلوب، بل على العكس من ذلك يُثمر التواضع.

ثم يضيف يوحنا: "فَسَمِعَ يَسُوعُ أَنَّهُمْ أَخْرَجُوهُ خَارِجًا، فَوَجَدَهُ وَقَالَ لَهُ: «أَتُؤْمِنُ بِابْنِ اللهِ؟» أَجَابَ ذَاكَ وَقَالَ: «مَنْ هُوَ يَا سَيِّدُ لأُومِنَ بِهِ؟» فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «قَدْ رَأَيْتَهُ، وَالَّذِي يَتَكَلَّمُ مَعَكَ هُوَ هُوَ!». فَقَالَ: «أُومِنُ يَا سَيِّدُ!». وَسَجَدَ لَهُ. فَقَالَ يَسُوعُ: «لِدَيْنُونَةٍ أَتَيْتُ أَنَا إِلَى هذَا الْعَالَمِ، حَتَّى يُبْصِرَ الَّذِينَ لاَ يُبْصِرُونَ وَيَعْمَى الَّذِينَ يُبْصِرُونَ». فَسَمِعَ هذَا الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ، وَقَالُوا لَهُ: «أَلَعَلَّنَا نَحْنُ أَيْضًا عُمْيَانٌ؟» قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَوْ كُنْتُمْ عُمْيَانًا لَمَا كَانَتْ لَكُمْ خَطِيَّةٌ. وَلكِنِ الآنَ تَقُولُونَ إِنَّنَا نُبْصِرُ، فَخَطِيَّتُكُمْ بَاقِيَةٌ."[3]: وهنا ينبغي أن نفصل القول قليلا:

---

[1] . يوحنا: ٩: ١٧-٣٤.

[2] . أخرجه مسلم، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

[3] . يوحنا: ٩: ٣٥-٤١.

١. يدل عيسى عليه السلام الرجل الذي أبصر بعد العمى، على الإيمان به؛ لأن الإيمان هو الأساس الذي تنبني عليه صلة العبد بربه. وذلك لأن عودة البصر إلى الأعمى، لن تنفعه إلا في دنياه؛ وأما في آخرته، فإن نور بصره يكون من إيمانه. ولقد أخبر الله عن عمى الآخرة في قوله تعالى: {وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا} [الإسراء: ٧٢]؛ أي من كان في دنياه أعمى من الكفر، فهو في آخرته أشد عمى من دنياه. ومن كان في الآخرة أعمى، فإنه لن يعلم شيئا من منازلها ومواضعها؛ وهو ما يكون عذابا عليه طول الوقت. ومن علامة عمى القلب، اعتماد العقلانية المنحرفة، التي تجعل المرء متوكلا على نفسه، بدل أن يعتمد على ربه في جميع أموره. ولم يسلم من هذا الانحراف لا الفقهاء ولا العوام؛ وهذا لأنهم عندما فقدوا أصل الإيمان، لم يجدوا سندا في تديّنهم المنحرف، إلا عقولهم، فظنوا أن ذلك يغنيهم. والحقيقة هي أن الإيمان لا يستند إلى العقل، وإنما يرجع فيه العبد إلى ربه بواسطة الرسول الذي يتبعه؛ وهذا يُشبه في نظر العقل (النفس)، من يقفز في الهواء من أعلى جبل. ونعني من هذا أن العبد يكون على توكل، من أول إيمانه؛ وإن كان هذا التوكل الأولي، يحتاج إلى تنمية وتقوية، ليصير مقاما بعد أن كان حالا. وأما من يخطئ طريق الإيمان من المتدينين، فإنهم يعودون إلى عقولهم، بالتنظير إن كانوا من أهل الفكر، أو بالترجيح عند اتباعهم لأئمتهم في الدين، إن كانوا من العامة. وهذا، يجعلهم في إيمانهم المزعوم يعودون إلى عقولهم (أنفسهم)، لا إلى الله؛ وهو أمر مخالف لأصل وجودهم، ما داموا في وجودهم مستندين -علموا أم لم يعلموا- إلى الوجود الحق (الله). ونعني من كل هذا، أن إيمانهم المزعوم، ليس إيمانا حقيقيا؛ وإنما هو دعوى باطلة.

٢. يُخبر عيسى عليه السلام، بأنه جاء ليدين العالم، ليُبصر الذين لا يُبصرون من باب المعجزة، ومن باب الهداية الإيمانية؛ وليَعمى العمى القلبي الذين يُبصرون بأعينهم، عندما يرفضون الإيمان به؛ كما حدث للفريسيين. ومعنى الدينونة الذي يتكلم عنه عيسى هنا، هو ما أخبر الله عنه في قوله تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ} [البقرة: ٢١٣]؛ وهذا يعني أن الناس لا يمتاز منهم السعداء عن الأشقياء، إلا بعد بعثة الرسل. وتبشير الرسل وإنذارهم، يدل على أن الفريقيْن لا بد من انتهاء أحدهما إلى الجنة، والآخرِ إلى النار. وهذا يعني أن المؤمنين بعيسى في زمانه، سيكونون من أهل البشارة والجنة؛ وأن الكافرين به كالفريسيين، سيكونون من أهل النذارة والنار. وإن بعثة الرسل عليهم السلام في زمانهم، يُشبه ما نسميه اليوم "تحديثا" في البرامج والتطبيقات؛ غير أنه تحديث في الدين. وهذا التحديث، يجعل العدّاد ينطلق في زمان الرسول المخصوص من الصفر؛ بحيث يكون من لا يؤمنون به، ممن كانوا مؤمنين سابقا في الحكم، كافرين متحققي الكفر. وقد لا يعلم هذا الحكم من انقلبوا كافرين بعد الإيمان، لعدم علمهم بهذه الخصيصة الرسالية، فيبقون على توهم الإيمان من أنفسهم مع كفرهم. ولكنهم من جهة الوجدان، لا بد من أن ينقلب حالهم من الإيمان إلى الكفر، فتصير قلوبهم مظلمة بعد أن كانت مستنيرة. وهذا الذي نقوله هنا، هو ما صار عليه اليهود بعد مجيء عيسى، وما صار عليه النصارى بعد مجيء محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وسنبيّن -إن شاء الله- فيما يأتي من الكتاب، وفي موضعه، ما يحدث لهؤلاء المنقلبين، وكيف يستمرون على تديّن مبني على اسم الإيمان من دون مسماه؛ ونُبيّن أيضا، ما الذي يعوض ذلك الإيمان، حتى يستمر أولئك القوم على تدينهم الصوري.

٣. وأما حكم عيسى على الفريسيين، عندما أنكروا منه عليه السلام، أن ينعتهم بالعمى؛ عندما قال لهم: "لَوْ كُنْتُمْ عُمْيَانًا لَمَا كَانَتْ لَكُمْ خَطِيَّةٌ. وَلكِنِ الآنَ تَقُولُونَ إِنَّنَا نُبْصِرُ، فَخَطِيَّتُكُمْ بَاقِيَةٌ."، فهو حكم تفصيلي؛ لأن حكمه عليهم سابقا بالعمى القلبي ثابت. وهو هنا يُجاريهم فيما يعقلون من جهة الظاهر، لعلمه بعدم فهمهم عنه في مجال القلب؛ فيخبرهم بأن أعينهم مع رؤيته عليه السلام، ستكتسب خطايا وآثاما، يُحاسبون عليها عند الله. وذلك لأنهم لو كانوا عميانا جدلا، فإنهم سيكونون أفضل حالا، بما أنهم لن يرتكبوا معاصي بأعينهم، وبالتالي فلن يُحاسبوا من أحد الوجوه؛ وإن حوسبوا من

غيره، ما دام العميان مكلفين بالإيمان بعيسى كالمبصرين. وفي كلام عيسى من جهة الظاهر، ما قد لا يفطن إليه الفريسيون من معنى؛ وهو أنهم من كونهم مبصرين من جهة الحس، فإنهم سيُحاسبون على عدم اعتبارهم للمعجزات الحسيّة التي أتى بها عليه السلام. وإن مقصودنا من اعتبار النظر إلى عيسى، هو بسبب مخالفته لغيره من الناس من جهة جسمانيته؛ لكونه نورا محضا، ودالا على الله بصورته. وهذا الذي نذكره، يعلمه من كان ينظر إليه بالله، لا بنفسه. وهذا يعني أيضا، أن التلاميذ الاثني عشر، لم يبلغوا هذه المرتبة من مشاهدة عيسى عليه السلام؛ وسيأتي ضمن الكتاب ما ندلل به على هذا الكلام في أوانه إن شاء الله. ولما كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم أعظم المظاهر الربانية، فإن هذه الخاصية كانت جلية فيه، بأكثر مما كانت في الرسل السابقين عليهم السلام. ومن هنا، كان الناظر إليه، ذو الاستعداد، يعرف اللهَ منه لأول وهلة. وقد كان بعض المشركين، على كفرهم، يعلم من وجهه صلى الله عليه وآله وسلم أنه ليس كغيره؛ وقد ينسب ذلك إلى صدقه أو ما شابهه من المحامد، كما كان شائعا قديما وحديثا. وإن كان الكافرون يعرفون منه –مِن وراء ظلمتهم– ما هو عليه من صفات الكمال، فما الظن بكبار أهل النور!... وإلى هذا المعنى يشير قول الله تعالى: {وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} [الأعراف: ١٩٨]؛ أي لا يُبصرونني، لأنني لست إلا أنت.

ثم يقول يوحنا في الأصحاح العاشر، حاكيا عن عيسى: "«اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ الَّذِي لاَ يَدْخُلُ مِنَ الْبَابِ إِلَى حَظِيرَةِ الْخِرَافِ، بَلْ يَطْلَعُ مِنْ مَوْضِعٍ آخَرَ، فَذَاكَ سَارِقٌ وَلِصٌّ. وَأَمَّا الَّذِي يَدْخُلُ مِنَ الْبَابِ فَهُوَ رَاعِي الْخِرَافِ. لِهذَا يَفْتَحُ الْبَوَّابُ، وَالْخِرَافُ تَسْمَعُ صَوْتَهُ، فَيَدْعُو خِرَافَهُ الْخَاصَّةَ بِأَسْمَاءٍ وَيُخْرِجُهَا. وَمَتَى أَخْرَجَ خِرَافَهُ الْخَاصَّةَ يَذْهَبُ أَمَامَهَا، وَالْخِرَافُ تَتْبَعُهُ، لأَنَّهَا تَعْرِفُ صَوْتَهُ. وَأَمَّا الْغَرِيبُ فَلاَ تَتْبَعُهُ بَلْ تَهْرُبُ مِنْهُ، لأَنَّهَا لاَ تَعْرِفُ صَوْتَ الْغُرَبَاءِ». هذَا الْمَثَلُ قَالَهُ لَهُمْ يَسُوعُ، وَأَمَّا هُمْ فَلَمْ يَفْهَمُوا مَا هُوَ الَّذِي كَانَ يُكَلِّمُهُمْ بِهِ."[1]: هذا المثل يضربه عيسى من حضرة الواحدية، لأنه يُثبت فيه الحق الذي هو صورته، ويُثبت المؤمنين به، وهم المقصودون من الخراف. ويدلهم على أنه راعيهم في حياتهم وفي كل ما يتعلق بهم من شؤونهم؛ وأنه وحده من يسعى إلى صلاحهم؛ لأنه يدخل عليهم من الباب. ومعنى الدخول من الباب هنا: هو الدعوة إلى الله بإذنه؛ كما يُخبر الله تعالى عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي هو الراعي الأكبر، فيقول: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا . وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا} [الأحزاب: ٤٥ – ٤٧]. وأما معرفة الخراف بصاحبها، فإنه يكون من غيبها لا من شهادتها؛ فهي تجد انجذابا إليه، لا تستطيع تفسيره. وأما من يدخل إلى الحظيرة من موضع غير الباب، فإنه يكون لصا. ويقصد عيسى باللصوص هنا، الأنبياء الكذبة والدعاة الكذبة؛ الذين لا يسعون إلى صلاح الخراف حقيقة، ولكن يسعون إما إلى بيعها وقبض ثمنها (كما يفعل الدعاة من بين المسلمين اليوم)، وإما لأكلها (معنويا) إن كان اللصوص من أهل القهر الذين يُدخلونها في صنوف الشرك. ويذكر عيسى خصيصة لا بد أن يجدها المؤمنون من أنفسهم، عندما يسمعون نداء الغريب عن حضرة الحق، وهي النفور من ذلك الخطاب. وكل من لا يجد نفورا من خطاب الغرباء، فإنه لا يكون من خرفان الراعي؛ أي لا يكون من أتباع الرسول المخصوص؛ وإنما يكون من أتباع الشيطان. ولقد كنا –بحمد الله– نجد انقباضا شديدا من خطاب أهل الضلال، من الذين يتكلمون في العقائد، قبل انخراطنا في السلوك؛ ومن دون فهم لفحوى الكلام من جهة العلم؛ فكان ذلك حفظا من الله لنا. فله الحمد سبحانه وله الشكر...

ثم يُضيف يوحنا: "فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيْضًا: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي أَنَا بَابُ الْخِرَافِ. جَمِيعُ الَّذِينَ أَتَوْا قَبْلِي هُمْ سُرَّاقٌ وَلُصُوصٌ، وَلكِنَّ الْخِرَافَ لَمْ تَسْمَعْ لَهُمْ. أَنَا هُوَ الْبَابُ. إِنْ دَخَلَ بِي أَحَدٌ فَيَخْلُصُ وَيَدْخُلُ وَيَخْرُجُ وَيَجِدُ مَرْعًى. اَلسَّارِقُ

---

[1]. يوحنا: ١٠: ١-٦.

لاَ يَأْتِي إِلاَّ لِيَسْرِقَ وَيَذْبَحَ وَيُهْلِكَ، وَأَمَّا أَنَا فَقَدْ أَتَيْتُ لِتَكُونَ لَهُمْ حَيَاةٌ وَلِيَكُونَ لَهُمْ أَفْضَلُ. أَنَا هُوَ الرَّاعِي الصَّالِحُ، وَالرَّاعِي الصَّالِحُ يَبْذِلُ نَفْسَهُ عَنِ الْخِرَافِ. وَأَمَّا الَّذِي هُوَ أَجِيرٌ، وَلَيْسَ رَاعِيًا، الَّذِي لَيْسَتِ الْخِرَافُ لَهُ، فَيَرَى الذِّئْبَ مُقْبِلًا وَيَتْرُكُ الْخِرَافَ وَيَهْرُبُ، فَيَخْطَفُ الذِّئْبُ الْخِرَافَ وَيُبَدِّدُهَا. وَالأَجِيرُ يَهْرُبُ لأَنَّهُ أَجِيرٌ، وَلاَ يُبَالِي بِالْخِرَافِ. أَمَّا أَنَا فَإِنِّي الرَّاعِي الصَّالِحُ، وَأَعْرِفُ خَاصَّتِي وَخَاصَّتِي تَعْرِفُنِي، كَمَا أَنَّ الآبَ يَعْرِفُنِي وَأَنَا أَعْرِفُ الآبَ. وَأَنَا أَضَعُ نَفْسِي عَنِ الْخِرَافِ. وَلِي خِرَافٌ أُخَرُ لَيْسَتْ مِنْ هذِهِ الْحَظِيرَةِ، يَنْبَغِي أَنْ آتِيَ بِتِلْكَ أَيْضًا فَتَسْمَعُ صَوْتِي، وَتَكُونُ رَعِيَّةٌ وَاحِدَةٌ وَرَاعٍ وَاحِدٌ. لِهذَا يُحِبُّنِي الآبُ، لأَنِّي أَضَعُ نَفْسِي لآخُذَهَا أَيْضًا. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْخُذُهَا مِنِّي، بَلْ أَضَعُهَا أَنَا مِنْ ذَاتِي. لِي سُلْطَانٌ أَنْ أَضَعَهَا وَلِي سُلْطَانٌ أَنْ آخُذَهَا أَيْضًا. هذِهِ الْوَصِيَّةُ قَبِلْتُهَا مِنْ أَبِي».".[1]: هذا الكلام، سيكون أساسا للعقائد المسيحية؛ ونحن سنبيّن هنا غثّه من سمينه بإذن الله.

١. قد يفهم أهل الأهواء، أن معنى "جميع الذين أتوا قبلي، هم سراق ولصوص"، ينطبق على الرسل السابقين عليهم السلام؛ وهذا محال، لأنهم مكلفون بالتبليغ من قِبل الله ربهم؛ وهم من هذا الوجه نظراء لعيسى عليه السلام.

٢. ومع ذلك، فإن عيسى -عليه السلام- يُشير إلى معنى في الجمع يخصه دون الأنبياء السابقين؛ وهو أنه عليه السلام يدعو أتباعه من مرتبة الحق، الذين هم صادرون عنه. لذلك هو يعتني بهم عناية خاصة، ولا يُعاملهم معاملة الأجير. والمقصود هنا من الأجير، هو الرسول الذي يدعو أتباعه من مرتبة الرسالة وحدها؛ فإنه في النهاية لا يهتم لمصائرهم، وإنما هو يبلغهم الأحكام والتعاليم، ويتركهم يختارون ما يشاءون من طاعة أو من عصيان. وهذا لا يعني أن هؤلاء الرسل، لا مكانة لهم في الحق؛ وإنما يعني أن خطابهم يكون لقومهم من ظاهرهم، في الوقت الذي يكون تصرفهم فيهم من جهة باطنهم. وهذا بخلاف عيسى الذي ظهر الحق على ظاهره، حتى كاد يطغى عليه. ولا شك أن الرسل عليهم السلام، يختلفون في هذه المعاملة فيما بينهم أيضا، بحسب ما يُعطيه مقامهم في الرسالة وفي الولاية معا. يقول الله تعالى في هذا المعنى، على لسان نوح عليه السلام: {وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ} [هود: ٢٩]. فهذا هو معنى الإجارة الذي ذكره عيسى. وأما من كان ينطق كعيسى من مرتبة الحق، فإنه يرحم الخلق جميعا، لأنهم جميعا منه. وإن كانت رحمة عيسى كبيرة، فإن رحمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أكبر؛ وهو الذي من حقيقته خلق الله جميع الخلق، وقال فيه ربه: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [فاطر: ٨]؛ وذلك عندما كان يحزن صلى الله عليه وآله وسلم على من لا يستجيب لدعوة الحق؛ وهذا هو الفرق بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم، من جهة السعة. ونعني أن عيسى كان يعلم خرافه، ويعلم من ليسوا خرافه؛ لذلك كان لا يتعب نفسه في مخاطبة اليهود؛ وأما محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فإن جميع الناس خرافه؛ ولذلك كان يحزن عليهم. ولكن الله خفف عنه، بإعلامه أنه لا بد للذئب (الشيطان) من حظ في الخراف؛ حتى يُسلّم لربه في مشيئته وحكمته. ولولا أن الله عزّى نبيه عند مُصابه في المعرضين، لتأذت نفسه الشريفة أذى بالغا، بسبب نظره إليهم بعين الرحمة الكبرى. وهذا المقام، لا قدم لأحد فيه من الخلق معه صلى الله عليه وآله وسلم. وهو سبب إيال كل صنوف الخلق في الآخرة، إلى رحمة تناسبهم، بعد انقضاء أحقاب العذاب.

٣. سيتخذ المسيحيون مقولة عيسى "وَأَنَا أَضَعُ نَفْسِي عَنِ الْخِرَافِ"، التي معناها: أنا أفديهم؛ أساسا لعقيدة الفداء التي سنعرض لها في حينها إن شاء الله. والحقيقة، هي أن الفداء من الكبار، لا يتعدى معنى الشفاعة المعلوم. وشفاعة عيسى لأمته ثابتة، كما هي ثابتة شفاعة كل رسول. والشفاعة تقتضي سؤال الرسول المخصوص ربَّه لأمته، ليعفو عن خطاياهم

---

[1]. يوحنا: ١٠: ٧-١٨.

وليكفر عنهم ذنوبهم؛ من دون أن يلحق من ذلك أذى بالرسول الشفيع، في الدنيا أو في الآخرة. وذلك لأنه لو لحق الأذى بالرسول في مقابل ذلك، فإن الأمر يكون مقايضة لا شفاعة بالمعنى التام؛ وأذى الرسول في نفسه أبلغ في السوء من تأذي أتباعه، لمن كان يعتبر المراتب. لهذا، فإننا لن نوافق المسيحيين على معنى الفداء الذي يقصدونه، ونقبل منه جزءا قد يصيب الرسول في حياته الدنيا، مما هو من قبيل التكفير عن القوم اختيارا، أو من قبيل التشديد على النفس في العبادة ليعم أجرها الأمة. ومن هذا الباب، كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يقوم الليل حتى تتورم قدماه الشريفتان، ويصوم حتى يُقال لا يُفطر، وهو من قال الله له: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا . وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا} [الفتح: ١ – ٣]. ونعني أن مبالغته صلى الله عليه وآله وسلم في العبادة تكون شكرا وتكون رجاء لأمته. وأما شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم، فهي شفاعتان: واحدة لأمته الخاصة، وواحدة لأمته العامة، التي هي البشرية جمعاء. ولقد أعطاه الله هذه الشفاعة، من دون أن يشترط عليه أن يُقتل أو يُصلب، كما يفهم من ذلك المسيحيّون.

ثم يقول يوحنا: "فَحَدَثَ أَيْضًا انْشِقَاقٌ بَيْنَ الْيَهُودِ بِسَبَبِ هذَا الْكَلاَمِ. فَقَالَ كَثِيرُونَ مِنْهُمْ: «بِهِ شَيْطَانٌ وَهُوَ يَهْذِي. لِمَاذَا تَسْتَمِعُونَ لَهُ؟» آخَرُونَ قَالُوا: «لَيْسَ هذَا كَلاَمَ مَنْ بِهِ شَيْطَانٌ. أَلَعَلَّ شَيْطَانًا يَقْدِرُ أَنْ يَفْتَحَ أَعْيُنَ الْعُمْيَانِ؟». وَكَانَ عِيدُ التَّجْدِيدِ فِي أُورُشَلِيمَ، وَكَانَ شِتَاءٌ. وَكَانَ يَسُوعُ يَتَمَشَّى فِي الْهَيْكَلِ فِي رِوَاقِ سُلَيْمَانَ، فَاحْتَاطَ بِهِ الْيَهُودُ وَقَالُوا لَهُ: «إِلَى مَتَى تُعَلِّقُ أَنْفُسَنَا؟ إِنْ كُنْتَ أَنْتَ الْمَسِيحَ فَقُلْ لَنَا جَهْرًا». أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ. اَلأَعْمَالُ الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا بِاسْمِ أَبِي هِيَ تَشْهَدُ لِي. وَلكِنَّكُمْ لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنْ خِرَافِي، كَمَا قُلْتُ لَكُمْ. خِرَافِي تَسْمَعُ صَوْتِي، وَأَنَا أَعْرِفُهَا فَتَتْبَعُنِي. وَأَنَا أُعْطِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً، وَلَنْ تَهْلِكَ إِلَى الأَبَدِ، وَلاَ يَخْطَفُهَا أَحَدٌ مِنْ يَدِي. أَبِي الَّذِي أَعْطَانِي إِيَّاهَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْكُلِّ، وَلاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْطَفَ مِنْ يَدِ أَبِي. أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ»."[1]: الانشقاق بين اليهود، سبق أن قلنا هو كالتردد من النفس الواحدة؛ ولكن الغالب عليهم كان الجحود والكفر. ولقد أخبرهم عيسى أنهم ليسوا من خرافه، حتى يعلموا أنهم ليسوا هم من لم يقبلوا دعوته، وإنما هو من لم يخترهم خرافا في الأزل. وهذا مما يزيد في حنقهم وتبكيتهم؛ لذلك سينتهون إلى إرادة رجمه بالحجارة عليه السلام.

يقول يوحنا: "فَتَنَاوَلَ الْيَهُودُ أَيْضًا حِجَارَةً لِيَرْجُمُوهُ. أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «أَعْمَالاً كَثِيرَةً حَسَنَةً أَرَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَبِي. بِسَبَبِ أَيِّ عَمَل مِنْهَا تَرْجُمُونَنِي؟» أَجَابَهُ الْيَهُودُ قَائِلِينَ: «لَسْنَا نَرْجُمُكَ لأَجْلِ عَمَل حَسَنٍ، بَلْ لأَجْلِ تَجْدِيفٍ، فَإِنَّكَ وَأَنْتَ إِنْسَانٌ تَجْعَلُ نَفْسَكَ إِلهًا» أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «أَلَيْسَ مَكْتُوبًا فِي نَامُوسِكُمْ: أَنَا قُلْتُ إِنَّكُمْ آلِهَةٌ؟ إِنْ قَالَ آلِهَةٌ لأُولئِكَ الَّذِينَ صَارَتْ إِلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللهِ، وَلاَ يُمْكِنُ أَنْ يُنْقَضَ الْمَكْتُوبُ، فَالَّذِي قَدَّسَهُ الآبُ وَأَرْسَلَهُ إِلَى الْعَالَمِ، أَتَقُولُونَ لَهُ: إِنَّكَ تُجَدِّفُ، لأَنِّي قُلْتُ: إِنِّي ابْنُ اللهِ؟ إِنْ كُنْتُ لَسْتُ أَعْمَلُ أَعْمَالَ أَبِي فَلاَ تُؤْمِنُوا بِي. وَلكِنْ إِنْ كُنْتُ أَعْمَلُ، فَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا بِي فَآمِنُوا بِالأَعْمَالِ، لِكَيْ تَعْرِفُوا وَتُؤْمِنُوا أَنَّ الآبَ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ». فَطَلَبُوا أَيْضًا أَنْ يُمْسِكُوهُ فَخَرَجَ مِنْ أَيْدِيهِمْ، وَمَضَى أَيْضًا إِلَى عَبْرِ الأُرْدُنِّ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ يُوحَنَّا يُعَمِّدُ فِيهِ أَوَّلاً وَمَكَثَ هُنَاكَ. فَأَتَى إِلَيْهِ كَثِيرُونَ وَقَالُوا: «إِنَّ يُوحَنَّا لَمْ يَفْعَلْ آيَةً وَاحِدَةً، وَلكِنْ كُلُّ مَا قَالَهُ يُوحَنَّا عَنْ هذَا كَانَ حَقًّا». فَآمَنَ كَثِيرُونَ بِهِ هُنَاكَ."[2]: ولنلاحظ ما يلي:

١. إن اليهود قد استجلبوا مقت الله ونقمته، بمعاملة عيسى هذه المعاملة الشنيعة. وسيجدون آثار هذه المعاملة في دنياهم وفي آخرتهم؛ فيهم وفي ذرياتهم، إلى قيام الساعة.

---

[1] . يوحنا: ١٠: ١٩-٣٠.

[2] . يوحنا: ١٠: ٣١-٤٢.

٢. إن تذرُّع اليهود في كفرهم، كان بزعم حرصهم على التوحيد؛ لأنهم قالوا له: "فَإِنَّكَ وَأَنْتَ إِنْسَانٌ تَجْعَلُ نَفْسَكَ إِلهًا!"، وكأنهم يعلمون شيئا من ذلك، وهم من ينكرون الألوهية التي نسبها الله إلى مظاهر أنبيائهم السابقين في كتابهم. وإن هم كذبوا بأنبيائهم، فلا شك في أنهم سيكونون أشد تكذيبا لعيسى؛ وهذا هو ما أراد تنبيههم إليه. ونعني، أنهم في النهاية ليسوا مع أحد من الرسل، عند تكذيبهم بجميعهم؛ ولكنهم مع الشيطان الذي هو عدو للرسل جميعا.

٣. إن عيسى قد دلهم على كفرهم بالله ربهم، بعد كفرهم بالرسل؛ لأن المعجزات هي من عمله هو سبحانه. ولقد كان إيمانهم بربهم، يقتضي منهم الإيمان بأعماله (المعجزات)، بغض النظر عن المظهر الذي يعملها. ولو آمنوا بالله، لجعلهم إيمانهم يؤمنون بمن ظهرت على يديه أعماله؛ لعدم انفكاك هذا المعنى عن ذاك. ولكنهم مع كل تنبيهات عيسى، وبسبب سبق شقائهم، يُصرون على ما هم عليه من الظلم والظلمة...

ثم يقول يوحنا: "وَكَانَ إِنْسَانٌ مَرِيضًا وَهُوَ لِعَازَرُ، مِنْ بَيْتِ عَنْيَا مِنْ قَرْيَةِ مَرْيَمَ وَمَرْثَا أُخْتِهَا. وَكَانَتْ مَرْيَمُ، الَّتِي كَانَ لِعَازَرُ أَخُوهَا مَرِيضًا، هِيَ الَّتِي دَهَنَتِ الرَّبَّ بِطِيبٍ، وَمَسَحَتْ رِجْلَيْهِ بِشَعْرِهَا. فَأَرْسَلَتِ الأُخْتَانِ إِلَيْهِ قَائِلَتَيْنِ: «يَا سَيِّدُ، هُوَذَا الَّذِي تُحِبُّهُ مَرِيضٌ». فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ، قَالَ: «هذَا الْمَرَضُ لَيْسَ لِلْمَوْتِ، بَلْ لأَجْلِ مَجْدِ اللهِ، لِيَتَمَجَّدَ ابْنُ اللهِ بِهِ». وَكَانَ يَسُوعُ يُحِبُّ مَرْثَا وَأُخْتَهَا وَلِعَازَرَ."[1]: الرباني لا يحب أحدا إلا بحب الله؛ و"لعازر" لا شك هو محبوب عند الله، حتى يعتني به وبأختيْه عيسى. ونحن سنورد هنا القصة كاملة، حتى لا يضيع شيء من معانيها.

ثم يضيف يوحنا: "فَلَمَّا سَمِعَ أَنَّهُ مَرِيضٌ مَكَثَ حِينَئِذٍ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ فِيهِ يَوْمَيْنِ. ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ قَالَ لِتَلاَمِيذِهِ: «لِنَذْهَبْ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ أَيْضًا». قَالَ لَهُ التَّلاَمِيذُ: «يَا مُعَلِّمُ، الآنَ كَانَ الْيَهُودُ يَطْلُبُونَ أَنْ يَرْجُمُوكَ، وَتَذْهَبُ أَيْضًا إِلَى هُنَاكَ». أَجَابَ يَسُوعُ: «أَلَيْسَتْ سَاعَاتُ النَّهَارِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ؟ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَمْشِي فِي النَّهَارِ لاَ يَعْثُرُ لأَنَّهُ يَنْظُرُ نُورَ هذَا الْعَالَمِ، وَلكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَمْشِي فِي اللَّيْلِ يَعْثُرُ، لأَنَّ النُّورَ لَيْسَ فِيهِ»."[2]: يعني عيسى بكلامه، أن الرباني الذي يكون نورا، فهو يمشي في أموره على نور؛ وبالتالي فإنه لا يعثر؛ أي لا يصيبه أذى أو مكروه في سيره؛ والسير هنا حسي ومعنوي. وهذا المعنى هو ما يقول الله تعالى عنه في القرآن: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} [الأنعام: ١٢٢]. فمن يكُنْ على نور، يعرفْ أولياء الله ويميّزهم عن الأعداء؛ ويعرف مكائد الشياطين فيتجنبها... بل إن الناس يخبرون الرباني عن مكنون قلوبهم، من غير أن يشعروا، بكل ما يصدر عنهم بإرادة وبغيرها؛ وكأنهم جواسيس له على أنفسهم. وهذا من مكر الله لأوليائه، حتى يجتنبوا المعاطب!... وهذا باب من العلم غريب، لا وجود للكذب فيه؛ وإن نطق الناطق أو تظاهر المتظاهر بما هو كذب وخداع في نفسه.

ثم يضيف يوحنا: "قَالَ هذَا وَبَعْدَ ذلِكَ قَالَ لَهُمْ: «لِعَازَرُ حَبِيبُنَا قَدْ نَامَ. لكِنِّي أَذْهَبُ لأُوقِظَهُ». فَقَالَ تَلاَمِيذُهُ: «يَا سَيِّدُ، إِنْ كَانَ قَدْ نَامَ فَهُوَ يُشْفَى». وَكَانَ يَسُوعُ يَقُولُ عَنْ مَوْتِهِ، وَهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ يَقُولُ عَنْ رُقَادِ النَّوْمِ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ حِينَئِذٍ عَلاَنِيَةً: «لِعَازَرُ مَاتَ. وَأَنَا أَفْرَحُ لأَجْلِكُمْ إِنِّي لَمْ أَكُنْ هُنَاكَ، لِتُؤْمِنُوا. وَلكِنْ لِنَذْهَبْ إِلَيْهِ!». فَقَالَ تُومَا الَّذِي يُقَالُ لَهُ التَّوْأَمُ لِلتَّلاَمِيذِ رُفَقَائِهِ: «لِنَذْهَبْ نَحْنُ أَيْضًا لِكَيْ نَمُوتَ مَعَهُ!». فَلَمَّا أَتَى يَسُوعُ وَجَدَ أَنَّهُ قَدْ صَارَ لَهُ أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ فِي الْقَبْرِ. وَكَانَتْ بَيْتُ عَنْيَا قَرِيبَةً مِنْ أُورُشَلِيمَ نَحْوَ خَمْسَ عَشْرَةَ غَلْوَةً. وَكَانَ كَثِيرُونَ مِنَ الْيَهُودِ قَدْ جَاءُوا إِلَى مَرْثَا وَمَرْيَمَ لِيُعَزُّوهُمَا عَنْ أَخِيهِمَا. فَلَمَّا سَمِعَتْ مَرْثَا أَنَّ يَسُوعَ آتٍ لاَقَتْهُ، وَأَمَّا مَرْيَمُ فَاسْتَمَرَّتْ جَالِسَةً فِي الْبَيْتِ. فَقَالَتْ مَرْثَا لِيَسُوعَ: «يَا سَيِّدُ، لَوْ كُنْتَ

---

[1]. يوحنا: ١١: ١-٥.

[2]. يوحنا: ١١: ٦-١٠.

ههُنَا لَمْ يَمُتْ أَخِي! لكِنِّي الآنَ أَيْضًا أَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا تَطْلُبُ مِنَ اللهِ يُعْطِيكَ اللهُ إِيَّاهُ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «سَيَقُومُ أَخُوكِ».[1]: واضح أن مرثا كانت مؤمنة بعيسى إيمانا خالصا، لأنها رغم مصابها تعلم أن عيسى مجاب عند الله، وأنه لا يحدث معه إلا الخير. فبشرها عيسى بأن أخاها سيقوم؛ ولكنها ظنت أنه يكلمها عن قيامة الآخرة، فأظهرت له أنها تؤمن بها، ولم يخطر في بالها غير ما يعطيه الإيمان.

ويضيف يوحنا: "قَالَتْ لَهُ مَرْثَا: «أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَقُومُ فِي الْقِيَامَةِ، فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا، وَكُلُّ مَنْ كَانَ حَيًّا وَآمَنَ بِي فَلَنْ يَمُوتَ إِلَى الأَبَدِ. أَتُؤْمِنِينَ بِهذَا؟» قَالَتْ لَهُ: «نَعَمْ يَا سَيِّدُ. أَنَا قَدْ آمَنْتُ أَنَّكَ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ، الآتِي إِلَى الْعَالَمِ»."[2]: إن عيسى يضرب مثلا بإحيائه الموتى من بعد الموت الطبيعي، بإحيائه القلوب حياة أبدية؛ لذلك يربط الحياة بالإيمان. وأما قوله "وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا"، فإنه لا يعني أن كل من آمن به سيعود إلى الحياة الطبيعية بعد الموت، كما سيعود "العازر"؛ ولكن يعني أن المؤمن يحيا حياة قلبية، يكون حاله فيها بين الأموات، كحال الأحياء مع الأموات. وحياة القلب يُصطلح عليها في الطريق بالـ "ذكر"، في مقابل الموت القلبي الذي يُصطلح عليه بالـ "غفلة". يقول الله تعالى عن الذاكرين: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [آل عمران: ١٩٠ – ١٩٤]؛ ويقول سبحانه عن الغافلين: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: ١٧٩]. ونستخلص من هذا، أن الذاكرين تُعطيهم حواسهم من جهة أرواحها، معاني المحسوسات؛ وأن الغافلين عند عدم مُجاوزتهم للمحسوس، ينحدرون إلى مرتبة البهائم بل أسفل منها. وإن نزول الغافلين إلى أسفل من الأنعام، ليس مبالغة (تعالى الله)، وإنما هو حقيقة؛ لأن الحيوانات في إدراكها للمحسوسات دون المعاني العليا، هي على ذكر خاص بها في مرتبتها؛ وليست غافلة، كما قد يُظنّ. ولو أن الناس رُزقوا بعض ما للبهائم من خشية لله، لانقطعوا عن معتاد معيشتهم. وإن هذا المجال يطول الكلام فيه، ونحن نريد الاختصار...

ثم يواصل يوحنا عرضه، فيقول: "وَلَمَّا قَالَتْ هذَا مَضَتْ وَدَعَتْ مَرْيَمَ أُخْتَهَا سِرًّا، قَائِلَةً: «الْمُعَلِّمُ قَدْ حَضَرَ، وَهُوَ يَدْعُوكِ». أَمَّا تِلْكَ فَلَمَّا سَمِعَتْ قَامَتْ سَرِيعًا وَجَاءَتْ إِلَيْهِ. وَلَمْ يَكُنْ يَسُوعُ قَدْ جَاءَ إِلَى الْقَرْيَةِ، بَلْ كَانَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي لاَقَتْهُ فِيهِ مَرْثَا. ثُمَّ إِنَّ الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهَا فِي الْبَيْتِ يُعَزُّونَهَا، لَمَّا رَأَوْا مَرْيَمَ قَامَتْ عَاجِلًا وَخَرَجَتْ، تَبِعُوهَا قَائِلِينَ: «إِنَّهَا تَذْهَبُ إِلَى الْقَبْرِ لِتَبْكِيَ هُنَاكَ». فَمَرْيَمُ لَمَّا أَتَتْ إِلَى حَيْثُ كَانَ يَسُوعُ وَرَأَتْهُ، خَرَّتْ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَائِلَةً لَهُ: «يَا سَيِّدُ، لَوْ كُنْتَ ههُنَا لَمْ يَمُتْ أَخِي!». فَلَمَّا رَآهَا يَسُوعُ تَبْكِي، وَالْيَهُودُ الَّذِينَ جَاءُوا مَعَهَا يَبْكُونَ، انْزَعَجَ بِالرُّوحِ وَاضْطَرَبَ، وَقَالَ: «أَيْنَ وَضَعْتُمُوهُ؟» قَالُوا لَهُ: «يَا سَيِّدُ، تَعَالَ وَانْظُرْ». بَكَى يَسُوعُ. فَقَالَ الْيَهُودُ: «انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ يُحِبُّهُ!». وَقَالَ بَعْضٌ مِنْهُمْ: «أَلَمْ يَقْدِرْ هذَا الَّذِي فَتَحَ عَيْنَيِ الأَعْمَى أَنْ يَجْعَلَ هذَا أَيْضًا لاَ يَمُوتُ؟»."[3]: بكاء الرباني رحمة، وليس انفعالا طبيعيا،

---

[1] . يوحنا: ١١: ١١-٢٣.

[2] . يوحنا: ١١: ٢٤-٢٧.

[3] . يوحنا: ١١: ٢٨-٣٧.

كما هو شأن العامة. ومن علم هذا، فإنه سيعلم من انفعالات الربانيين حكم الله في عباده: فإن بكى الرباني لموت أحد، فليُعلم أنه مرحوم؛ وقد يكون بكاء الرباني سبب الرحمة له أيضا، إن لم يُحكم له بها بداية. وأما من لا يأبه له الرباني عند موته، أو يُظهر انشراحا، فليُعلم أنه من الأشقياء. وهذا علم يعلمه المريدون الصادقون بداهة من أشياخهم؛ ولكنه قليل في المتأخرين. ولقد حرّك عيسى بواطن الحاضرين، حتى نطقوا بما نطقوا، من رجاء إحياء "العازر" قياسا على إبراء الأكمه؛ ليكون منهم كالتوسل له، فيستجيب. وهذا أيضا مما هو من شؤون الربانيين، من كونهم مرايا تصرفات الحق. ونعني من هذا، أن الرباني قد ينقبض، إن حضر معه المنكرون والكافرون، حتى قد يصير نقمة خالصة؛ وقد يرق وينشرح إن حضر معه المؤمنون، حتى قد يستجيب لرغباتهم ويجعلها تتحقق في الدنيا والآخرة. وعيسى لما سمع ما سمع من الحاضرين، فإنه سيأخذه الحال الذي يأخذ الربانيين فينجمع ليقول للشيء كن فيكون.

يقول يوحنا: "فَانْزَعَجَ يَسُوعُ أَيْضًا فِي نَفْسِهِ وَجَاءَ إِلَى الْقَبْرِ، وَكَانَ مَغَارَةً وَقَدْ وُضِعَ عَلَيْهِ حَجَرٌ. قَالَ يَسُوعُ: «ارْفَعُوا الْحَجَرَ!». قَالَتْ لَهُ مَرْثَا، أُخْتُ الْمَيْتِ: «يَا سَيِّدُ، قَدْ أَنْتَنَ لأَنَّ لَهُ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ»."[١]: ما وصفه يوحنا بأنه انزعاج، هو الحال الذي يأخذ الربانيين. وأمر عيسى برفع الحجر عن القبر، هو بالله من باب "كن"؛ وأما قول "مارثا"، فهو موافق للعادة، وليس من باب الإنكار؛ وكأنها خشيت على عيسى من التأذي برائحة العفن. وهذا من آثار التعظيم الذي سينفعها من غير شك.

ويقول يوحنا: "قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَلَمْ أَقُلْ لَكِ: إِنْ آمَنْتِ تَرَيْنَ مَجْدَ اللهِ؟». فَرَفَعُوا الْحَجَرَ حَيْثُ كَانَ الْمَيْتُ مَوْضُوعًا، وَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ إِلَى فَوْقُ، وَقَالَ: «أَيُّهَا الآبُ، أَشْكُرُكَ لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِي، وَأَنَا عَلِمْتُ أَنَّكَ فِي كُلِّ حِينٍ تَسْمَعُ لِي. وَلكِنْ لأَجْلِ هذَا الْجَمْعِ الْوَاقِفِ قُلْتُ، لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي»."[٢]: إن عيسى بهذا الدعاء، يريد أن يُعلم الحاضرين بأنه بالله، وليس هو الله؛ لأن ما سيشهدونه من معجزة، لا يقدر عليه إلا الله وحده؛ وهذا هو دأب الربانيين جميعا. ونعني أنهم يدلون على الله لا على أنفسهم؛ بل إن القفز في لهيب جهنم أفضل عندهم من الدلالة على أنفسهم، عليهم السلام. ومع هذا، فإن كثيرا من الغافلين، لا يفهمون منهم إلا عكس ما يريدون، بسبب سبق الشقاء لهم. وهذا هو سبب ضلال من يُعاصر الأنبياء والمرسلين، ويُعاين منهم الآيات البيّنات.

ويقول يوحنا: "وَلَمَّا قَالَ هذَا صَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «لِعَازَرُ، هَلُمَّ خَارِجًا!» فَخَرَجَ الْمَيْتُ وَيَدَاهُ وَرِجْلاَهُ مَرْبُوطَاتٌ بِأَقْمِطَةٍ، وَوَجْهُهُ مَلْفُوفٌ بِمِنْدِيل. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «حُلُّوهُ وَدَعُوهُ يَذْهَبْ»."[٣]: أمْر عيسى لـ "العازر" بالخروج من القبر، هو بالله، من باب قوله تعالى "كن"، كما أخبرنا سابقا. فما كان من الميّت إلا أن يُجيب، لأنه لا أحد في مقدوره معصية أمره سبحانه، كائنا ما كان. وهنا ينبغي أن نذكر لطيفة نبهنا إليها شيخنا الأكبر رضي الله عنه، عندما فرق بين أمر الله الذي لا يُقابل إلا بالطاعة قهرا، والأمر الذي تُمكن للعبد مخالفته؛ وقد جعل رضي الله عنه السبب في ذلك، هو أن الأمر الأول مباشر، كما هو الشأن هنا مع عيسى عليه السلام؛ وأن الأمر الثاني مع الواسطة (الرسول والملك). وهذا يعني أن الأمر الشرعي لو كان مباشرا، لآمن كل الناس؛ ولكن الله لم يشأ ذلك سبحانه، كما أخبر في قوله: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ

---

[١] . يوحنا: ١١: ٣٨-٣٩.

[٢] . يوحنا: ١١: ٤٠-٤٢.

[٣] . يوحنا: ١١: ٤٣-٤٤.

أَجْمَعِينَ} [هود: ١١٨، ١١٩]؛ أي إن الله شاء من بعض الخلق المعصية، ليكونوا لجهنم حظا، كما شاء من الآخرين الطاعة ليكونوا للجنة حظا؛ على ما في المسألة من تفصيل.

ويواصل يوحنا: "فَكَثِيرُونَ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ جَاءُوا إِلَى مَرْيَمَ، وَنَظَرُوا مَا فَعَلَ يَسُوعُ، آمَنُوا بِهِ. وَأَمَّا قَوْمٌ مِنْهُمْ فَمَضَوْا إِلَى الْفَرِّيسِيِّينَ وَقَالُوا لَهُمْ عَمَّا فَعَلَ يَسُوعُ."[١]: هذا المقطع، يوضح لنا مواقف مختلف الناس تجاه الربانيين وآياتهم (معجزات وكرامات): فطائفة منهم، وهي الأقل دائما، تذعن للرباني وتؤمن به؛ وطائفة، ممن هم على دين رسمي تقليدي، يعودون إلى فقهائهم يستفتونهم، وكأنهم لا قدرة لهم على تقييم ما يُشاهدون؛ أو كأنهم قد تنازلوا عن زمام عقولهم للفقهاء. وهذه طامة تحل بالبشر على مر العصور، ينبغي أن يتنبه إليها كل طالب للحق. وهل للفريسيين هنا صلاحية الحكم على عيسى؟!... بجميع المعايير؟!...

ثم يقول يوحنا: "فَجَمَعَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيُّونَ مَجْمَعًا وَقَالُوا: «مَاذَا نَصْنَعُ؟ فَإِنَّ هذَا الإِنْسَانَ يَعْمَلُ آيَاتٍ كَثِيرَةً. إِنْ تَرَكْنَاهُ هكَذَا يُؤْمِنُ الْجَمِيعُ بِهِ، فَيَأْتِي الرُّومَانِيُّونَ وَيَأْخُذُونَ مَوْضِعَنَا وَأُمَّتَنَا». فَقَالَ لَهُمْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ، وَهُوَ قَيَافَا، كَانَ رَئِيسًا لِلْكَهَنَةِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ: «أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَ شَيْئًا، وَلاَ تُفَكِّرُونَ أَنَّهُ خَيْرٌ لَنَا أَنْ يَمُوتَ إِنْسَانٌ وَاحِدٌ عَنِ الشَّعْبِ وَلاَ تَهْلِكَ الأُمَّةُ كُلُّهَا!». وَلَمْ يَقُلْ هذَا مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ إِذْ كَانَ رَئِيسًا لِلْكَهَنَةِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ، تَنَبَّأَ أَنَّ يَسُوعَ مُزْمِعٌ أَنْ يَمُوتَ عَنِ الأُمَّةِ، وَلَيْسَ عَنِ الأُمَّةِ فَقَطْ، بَلْ لِيَجْمَعَ أَبْنَاءَ اللهِ الْمُتَفَرِّقِينَ إِلَى وَاحِدٍ. فَمِنْ ذلِكَ الْيَوْمِ تَشَاوَرُوا لِيَقْتُلُوهُ."[٢]: يتضح من هذه الفقرة، أن الفقهاء لا يحسبون حسابا للدين، ولا يسعون بأقوالهم وأفعالهم إلى تحري مرضاة ربهم؛ ولكن لهم "أجندات" خاصة بهم؛ يحسبون فيها حسابات الربح والخسارة، والتسلط على الشعب ومن ورائه على الدولة والحكام؛ ويفعلون ذلك، من دون تفريق بين ما هو طاعة وما هو معصية، إلا من جهة الظاهر، حتى لا ينفضحوا. وإن تفكيرهم بقتل عيسى عليه السلام، وإن كان مطلبهم وغايتهم، لخشيتهم منه على مكانتهم؛ من خُبثهم، سيجعلونه رغبة لعيسى نفسه، فداء للأمة والشعب، كما يزعمون؛ وكما انطلى على المسيحيين أنفسهم فيما بعد. ومن هنا كان ينبغي النظر إلى فقهاء الدين المترسمين من كل أمة، على أنهم أعداء للدين والأمة في غالبيتهم، لا خدم لهما كما يريدون أن يُنظر إليهم من قِبل المغفلين.

ثم يختم يوحنا الأصحاح قائلا: "فَلَمْ يَكُنْ يَسُوعُ أَيْضًا يَمْشِي بَيْنَ الْيَهُودِ عَلاَنِيَةً، بَلْ مَضَى مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْكُورَةِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْبَرِّيَّةِ، إِلَى مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا أَفْرَايِمُ، وَمَكَثَ هُنَاكَ مَعَ تَلاَمِيذِهِ. وَكَانَ فِصْحُ الْيَهُودِ قَرِيبًا. فَصَعِدَ كَثِيرُونَ مِنَ الْكُوَرِ إِلَى أُورُشَلِيمَ قَبْلَ الْفِصْحِ لِيُطَهِّرُوا أَنْفُسَهُمْ. فَكَانُوا يَطْلُبُونَ يَسُوعَ وَيَقُولُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَهُمْ وَاقِفُونَ فِي الْهَيْكَلِ: «مَاذَا تَظُنُّونَ؟ هَلْ هُوَ لاَ يَأْتِي إِلَى الْعِيدِ؟» وَكَانَ أَيْضًا رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيُّونَ قَدْ أَصْدَرُوا أَمْرًا أَنَّهُ إِنْ عَرَفَ أَحَدٌ أَيْنَ هُوَ فَلْيَدُلَّ عَلَيْهِ، لِكَيْ يُمْسِكُوهُ."[٣]: ويظهر من هذا الكلام، الشرّ الذي أزمع على ارتكابه الفريسيون ومن يوافقهم من جواسيسهم. وينبغي هنا أن نذكّر أن هذا حال الربانيين في مُجملهم على مر الزمان؛ عند تواجدهم بين مناصرين "سلبيين"، وأعداء نشطين يسعون إلى إنفاذ مراداتهم بهمة وجد؛ وقلما يوجد مناصرون أقوياء الإيمان، يفْدون إمامهم بأنفسهم. ومن هذا الوجه، وجب علينا معرفة قدر الصحابة المرضيين من مهاجرين ومن أنصار، عندما وقفوا صفا واحدا لحماية نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، وقتال أعدائه تحت رايته؛ فإنه قد قل نظراؤهم في الأمم كافة، وقد ندر أن يوجد أحد على قدمهم فيمن أتى بعدهم من الأمة المحمدية؛ على الأقل من جهة العدد عند تمييز الصنف والمرتبة. ولنتأمل كيف أثنى

---

[١] . يوحنا: ١١: ٤٥-٤٦.

[٢] . يوحنا: ١١: ٤٧-٥٣.

[٣] . يوحنا: ١١: ٥٤-٥٧.

عليهم ربهم في قوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ١٠٠]؛ لنتأكد أنهم ما نالوا هذه المرتبة الرفيعة، إلا بسبب مناصرتهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وخدمته. وفي المقابل، فلنتأمل عقب ذلك قول الله تعالى عن قوم آخرين: {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ . وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١٠١، ١٠٢]. وهذا يجعل أغلبية الناس فيمن أتوا بعد الصحابة من هذين الصنفيْن: المنافقون والخالطون. فأما المنافقون فإنهم من ينحازون إلى شياطينهم، ولا يعتبرون إلا ما يحصلونه من متاع الدنيا من وراء الدين؛ وأما الخالطون، فهم السواد الأعظم، الذين يسيرون تارة يمنة وتارة يسرة؛ فهم بحسب ما يُعطي حالهم وما تُنتجه أعمالهم عند الله. وهذا يعني أن مجرد ادعاء الإيمان، وأن الإتيان بالحد الأدنى من الأعمال، لا يكفيان في إنجاء العباد من عذاب الله وحدهما. ولقد جاء في هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أَوْحَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ: "قُلْ لِفُلانٍ الْعَابِدِ: أَمَّا زُهْدُكَ فِي الدُّنْيَا، فَتَعَجَّلْتَ رَاحَةَ نَفْسِكَ؛ وَأَمَّا انْقِطَاعُكَ إِلَيَّ، فَتَعَزَّزْتَ بِي. فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا لِي عَلَيْكَ؟". قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا ذَاكَ عَلَيَّ؟ قَالَ: "هَلْ وَالَيْتَ لِي وَلِيًّا أَوْ عَادَيْتَ لِي عَدُوًّا؟"»[١]. وهذا الحديث، وإن ضعفه المحدثون؛ إلا أن معناه صحيح جدا. وذلك لأن الناس يعلمون العبادة المشروعة المعلومة، فيتقربون بها إلى الله على قدر وُسعهم؛ ولكن قليلا ما يعلم العبادة المخصوصة بمعاملة المظاهر الربانية من أنبياء وورثة؛ والتي هي لبها وروحها، غيبا وشهادة. وحتى نُقرّب هذا المعنى، فإننا نضرب مثلا: ولنفترض أن سلطانا من السلاطين، في بلد من البلدان، أعطى أمره بأن يعمل كلٌّ بحسب صنعته وحرفته في خدمة الدولة؛ وأن العامل سينال أجر عمله على قدر ما أتى فيه من إنجاز؛ وهذا كله معلوم، ومُدرك للعقول ومقبول. ولنفترض أن السلطان نزل بنفسه بعد ذلك، إلى وسط البلد متنكرا؛ وصار يتقصى من الأحوال والأقوال، ما يعرف به منزلته عند رعيته؛ فوجدهم ينتقصونه، ولا يقيمون له وزنا، بخلاف ما يواجهونه به وهو بين حاشيته وجنوده. فهل سيكون هذا السلطان راضيا عن هذا الصنف من الرعية؟ وهم لا يسعون في إطاعة أمره إلا لنيل غرضهم لا من باب تعظيمه؟!... فوجود الربانيين بين الناس في الزمان، هو بمثابة نزول ربهم متنكرا إليهم، لينظر كيف يعاملونه إن هم تيقنوا فقد الرقيب. هذا، وفي الحقيقة، إن من يكون على إيمان، لا يزال يرى الله رقيبا عليه في كل أعماله وأحواله. فلينظر الناس الآن إلى أحوال أنفسهم، وليزنوها بما ذكرناه لهم من معنى الحديث؛ وليُنزلوا أنفسهم منزلتهم الحقيقية، وليسارعوا إلى التوبة قبل حلول الموت وطيّ الصحف. فإن كانوا منافقين، فليقرّوا بينهم وبين أنفسهم بنفاقهم؛ وإن كانوا من المتخاذلين الضعاف، فليعرفوا من أنفسهم ذلك؛ ولكن مع التوبة كما ذكرنا. وأما إن كانوا من القلة الموالية للأولياء، والمعادية للأعداء، فليستبشروا بفعلهم، وليتهيأوا لكرامة ربهم في الدنيا والآخرة؛ وليشكروا ربهم على فضله. فوالله إنهم على قدم الصحابة سائرون، وعلى منازلهم وغرفهم وافدون؛ ليس بينهم وبين ذلك إلا أن يموتوا موتتهم الطبيعية. يقول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ} [فصلت: ٣٠ – ٣٢]. وقد يبحث الباحث في الآية، عن المعنى الذي ذكرناه في الحديث، ولعله يتقوى به من ضعّف الحديث، عن ظنه أن الإتيان بصور الأعمال كافٍ في التقرب إلى الله؛ عند جهله بشروط الفوز بالجنة والرضى، والتي هي:

---

[١] . أخرجه أبو القاسم الحلبي في حديثه، وابن عبد البر في التمهيد، وأبو نعيم في الحلية، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

١. أن يقولوا ربنا الله: والمقصود من القول هنا، ليس القول اللساني، كما قد يُفهم من ظاهر اللفظ؛ لأنه لو كان كذلك، لكان متاحا للمنافقين قبل المؤمنين. وهذا لا يقول به أحد. فلم يبق إلا أن القائل "ربنا الله" يكون مراعيا لأحكام الربوبية في كل معاملاته، ومراعيا للآداب فيها. فهذا هو المقصود من الكلام.

٢. وأما الاستقامة: فتعني أن لا يأتي العبد أمرا، حتى يعلم حكم الله فيه ويعمل عليه، وإن كانت المخالفة له من المباحات عند اعتبار الرخص. وعلى العموم فالاستقامة، هي الطريق السائر في اتجاه الوصول إلى الله، وحدها.

ومن أتى بالشروط على وجهها، فإنه سيعلم يقينا، أن الرباني في زمانه، سيكون مركز كل المعاملات، وإلا فإن العبد يكون جاهلا بمعنى الربانية، وبمعنى النسبة التي بينها وبين الرب سبحانه. وعلى كل حال، فإن من رزقه الله الفهم، سيفهم ما دللنا عليه؛ وأما من لم يفهم، فليعلم أنه غير مخاطب بما نقول. والله أعلم وأحكم.

ثم لا بد هنا من الإجابة عن سؤال قد يخطر للقارئين، وهو: لِمَ لَمْ يقم محمد صلى الله عليه وآله وسلم بإحياء الموتى، كما فعل عيسى؟... ونحن نجيب: إن إحياء الموتى لا يستعظمه إلا من كان تحت حكم العادة والطبيعة، كما كان اليهود والفريسيون. وأما من خرج عن ذلك، فإنه يرى خلق الله لحركة العين –مثلا– في عين أحد الأشخاص، هو على الدرجة ذاتها من إحياء الموتى. ونعني من هذا، أن أفعال الله واحدة في الاعتبار، ولا تختلف إلا في أعين الناظرين من العباد فحسب. ومن كون أفعال الله واحدة، كانت الكلمة المنتجة لها واحدة، وهي "كن". ونعني من هذا أن الله عند إحيائه للميت يقول سبحانه "كن"، وعند خلقه للشبع في بطن عبد جائع، يقول أيضا "كن". فالاختلاف هو من القوابل لا من الفاعل سبحانه. ومن علم هذا، فإننا نقول له بعده: لم يكن محمد صلى الله عليه وآله وسلم في حاجة إلى إحياء الموتى، لأن أصحابه كانوا على أفضل الاستعدادات. ولقد كان أحدهم –رضي الله عنهم– يكفيه النظر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وسماع كلامه، ويُغنيه حتى عن طعامه وشرابه. وأما في القرون المتأخرة، فإن الله قد جعل بين الغافلين من المسلمين من الأولياء من يُحيي الموتى كما أحياهم عيسى عليه السلام؛ لكن لا بالعلانية ذاتها. وإننا نعلم من أحدهم أنه بلغ به الأمر أن يُحيي الموتى عن بعد، ومن دون أن يحضر إلى مكانهم أو يخاطبهم بصوته. ولقد كان الإحياء يتم بعد تحقق الموت، وقبل الشروع في التجهيز للدفن. ويوجد صنف من الإحياء، يكون بتغيير الحكم في القضاء بإذن الله؛ فينسخ الولي الحكم بموت فلان في الوقت الفلاني، ليجعله في وقت آخر بحسب مشيئته. وعلى كل حال، فإن مرتبة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فوق كل المراتب، وبالتالي فإن أفعاله ومعجزاته فوق إدراك المُدركين. ومن علم قدر الخَدَم، فلعله يُقارب قليلا معرفة المخدوم صلى الله عليه وآله وسلم، بإذنه...

ثم يقول يوحنا على لسان عيسى: "وَإِنْ مَضَيْتُ وَأَعْدَدْتُ لَكُمْ مَكَانًا آتِي أَيْضًا وَآخُذُكُمْ إِلَيَّ، حَتَّى حَيْثُ أَكُونُ أَنَا تَكُونُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا، وَتَعْلَمُونَ حَيْثُ أَنَا أَذْهَبُ وَتَعْلَمُونَ الطَّرِيقَ». قَالَ لَهُ تُومَا: «يَا سَيِّدُ، لَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ تَذْهَبُ، فَكَيْفَ نَقْدِرُ أَنْ نَعْرِفَ الطَّرِيقَ؟» قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي. لَوْ كُنْتُمْ قَدْ عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ أَبِي أَيْضًا. وَمِنَ الآنَ تَعْرِفُونَهُ وَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ». قَالَ لَهُ فِيلُبُّسُ: «يَا سَيِّدُ، أَرِنَا الآبَ وَكَفَانَا». قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنَا مَعَكُمْ زَمَانًا هذِهِ مُدَّتُهُ وَلَمْ تَعْرِفْنِي يَا فِيلُبُّسُ! اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ، فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ: أَرِنَا الآبَ؟ أَلَسْتَ تُؤْمِنُ أَنِّي أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ؟ الْكَلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ لَسْتُ أَتَكَلَّمُ بِهِ مِنْ نَفْسِي، لكِنَّ الآبَ الْحَالَّ فِيَّ هُوَ يَعْمَلُ الأَعْمَالَ. صَدِّقُونِي أَنِّي فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ، وَإِلاَّ فَصَدِّقُونِي لِسَبَبِ الأَعْمَالِ نَفْسِهَا."[١]: هذا الكلام يقوله عيسى لتلاميذه، قبل القبض عليه؛ وهو وصية مودّع منه إليهم، كما هو واضح. وهو يُشبه من هذا الوجه، الخطبة النبوية في حجة الوداع؛

---

[١]. يوحنا: ١٤: ٣-١١.

حيث أجمل صلى الله عليه وآله وسلم أركان الدين، حتى يعيها عنه عموم الناس. وعندما بدأ عيسى يتكلم عن ذهابه، وبأنه سيعود ليأخذ أتباعه، بعد تعريفهم بالطريق؛ اتضح أن التلاميذ لا يفهمون من الكلام إلا ظاهره، وهو ما دعا "توما" إلى الإقرار بأنهم لا علم لهم بالطريق؛ وهنا سيجيب عيسى بأنه هو الطريق. وهذا الكلام لا يعلمه عوام المسلمين أيضا، كما لا يعلمه عوام المريدين الذين يكونون في صحبة الشيخ الرباني. ونقصد من كلامنا، أن المسلمين لا يعلمون أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الطريق، ونقصد أيضا أن المريدين لا يعلمون أن الشيخ هو الطريق؛ لتوهمهم أن الإمام المُرشد، كما هو مغاير من جهة الاسم للطريق، فهو غيره من جهة الحقيقة؛ والأمر على غير ذلك يقينا. وقبل أن نمضي في الكلام، لا بد من أن نقرر أن الشيخ الرباني هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه في صورته المتعلقة بالزمان المخصوص؛ لأن الشيخ ينبغي أن يكون قد فني عن نفسه وتخلص من كل ظلمته. وإذا تحقق بما نقول، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتولاه بدلا عن نفسه؛ فيصير هو الظاهر بمظهره. وهذا هو معنى "الولاية" الخاصة في الأمة المحمدية، ومعنى من معاني "البدَلية" المعروفة من مراتب الولاية. وقبل أن نواصل الكلام مرة أخرى، علينا أن نحل إشكالا قد يعرض للأذهان، وهو عند تعدد الربانيين من الشيوخ في الزمان الواحد؛ فهل يكون النبي ظاهرا في صورهم جميعا؟ أم يكون ظهوره مختصا بواحد منهم؟ والجواب، هو أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يكون ظاهرا في مظاهرهم جميعا، لكن لا بجمعيته؛ لأن الجمعية يُختصّ بها الغوث والأفراد؛ وأما مَن دونهم فإن الظهور النبوي يكون فيهم على قدرهم. وهذا يفضي بنا إلى القول بالتفاوت بين الأولياء، في التحقق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم. ومعنى التحقق هذا، هو ما أشار إليه عيسى بقوله: "أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ!"؛ من كونه لا يظهر إلا بالحقيقة المحمدية. ولكن هذا يحدث لعيسى من مكانة رفيعة، لا يقابله فيها إلا ختم ولايتنا الشيخ ابن العربي قُدّس سرّه. وظهور النبي صلى الله عليه وآله وسلم، مع وحدة حقيقته، في صور وحقائق الأولياء، هو كظهور نور الشمس في الكواكب. ولا يخفى أن أكبرها حجما (مكانة)، سيكون عاكسا لأكبر قدر من النور عند تمام المواجهة. وبعد كل هذا، فإن المريد الذي لا يعلم ذوقا أن شيخه هو طريقه عينه، فإنه يكون من القاعدين الذين لم يخطوا خطوة واحدة في الطريق إلى الله؛ وإن أمضى في الصحبة بحسب الظاهر عمره كله. وأما من عرف هذا، فإنه سيجد من شيخه في كل مرة –وبحسب تقدمه في السير– ما لم يكن يعرفه؛ وكأنه شاشة عارضة لصور مختلفة. ويستمر معه هذا التقدّم في السير واختلاف الشهود في شاشة شيخه، إلى أن يراه النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم يقينا. ولقد كنت من شدة تحققي بهذا المقام في صحبة شيخي رضي الله عنه وزاده رضى، أرى ذاته الشريفة ذات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأرى لباسه لباسه. وبعد مشاهدة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الشيخ يواصل المريد تقدمه في السير إلى أن يرى فيه الحق تعالى، من غير تكييف. وهذا من أعجب ما يحصل للعبد، لأنه من وراء إدراك العقل. وهذا هو ما قصده عيسى عليه السلام بقوله السابق. وهو كان يعلِّم تلاميذه، ما ينفعهم في مستقبل أيامهم في طريق الإيمان، الذي عليهم أن يُكملوا سيرهم فيه، بعد رفعه عليه السلام. وهذه هي نصيحة الأنبياء والمربين لأتباعهم، في زمن صحبتهم بالجسد، ليعملوا بها بعد انتقالهم. لكن الصحبة بعد الانتقال، تختلف بين الرسل والورثة من أمتنا؛ ما دام الورثة لا يخلو منهم زمان. ونعني من هذا، أنه لا تصح صحبة ولي ميت، مع وجود وارث حي؛ وإن كل من يزعم ذلك، يكون من أهل الضلال (الأصغر) في هذه الأمة. ومعنى كلام عيسى، هو أن من لم يصل إلى شهود الحق فيه، فإنه لا يكون واصلا إلى نهاية طريقه. وحتى يؤكد للمؤمنين من التلاميذ، الذين ليسوا على شهود لهذا المعنى، ليبقوا سائرين في اتجاهه بعده، ما يدلهم عليه؛ أخبرهم بأنه في الآب وبأن الآب فيه. وهنا لا بد من أن نعرّج على متأخري المتكلمين المسلمين، عندما تناولوا مسألة الحلول؛ لأننا نعلم أنهم سيرون في عبارات عيسى (أو فيما نُقل عنه) قولا بالحلول واضحا. وأول ما سنبدأ به، هو التنبيه إلى مرتبة القول ومرتبة السامع. ونعني من هذا أن القول المسموع، لا بد أن يكون صادرا من مرتبة

مخصوصة؛ وهو هنا –مع عيسى– صادر من أعلى مراتب الولاية والرسالة. ثم بعد ذلك، لا بد من النظر إلى مرتبة السامعين؛ وهم هنا التلاميذ ومن جاء بعدهم. فأما التلاميذ، فإنهم لا يتجاوزون مرتبة الإيمان؛ ما داموا لم يعقلوا كلام عيسى مرارا متتالية. وأما مَن بعدهم، فإننا نخص منهم هنا متأخري متكلمي المسلمين؛ وهؤلاء لا يُجاوزون مرتبة الإسلام العامة. وحتى يفهم السامع معنى الكلام، فإنه لا بد أن يكون من مرتبة الرسل (بالمعنى الشرعي)، أو أن يكون من مرتبة الوارثين لهم من جهتي الظاهر والباطن. وغير هؤلاء، لن يُدركوا مراد عيسى من كلامه؛ بل إنهم –كحال المتكلمين– سيجدونه منكرا من الأقوال الشركية والكفرية التي لا ريب فيها. ولنذكر أهم ما ينبغي استخلاصه من عبارة عيسى التي نحن بصددها الآن:

١. فهو عندما يقول –عليه السلام– إنه في الآب، فيعني أنه تجلٍّ من تجليات الذات. والذات بما هي ذات فإنها محيطة بكل تجلياتها، سواء أكانت صفات أم أفعالا. وهذا العلم لا يعلمه إلا الذاتيون من أهل الله، والذين هم أعلى طبقة فيهم. ولا يُمكن أن ينصرف الذهن إلى ما يعقله المتكلمون، من معنى حلول شيء في آخر، مع استواء الشيئيْن في المرتبة؛ فإن هذا المعنى مما تمجه عقول أسوياء الصبيان. وإن كل من يتكلم عن الحلول بالمعنى المنكر، لا يُبين إلا عن عدم أهليته للخوض في مثل هذه المسائل، وعن كونه في واد وكون العلم في واد آخر.

٢. وأما معنى أن الآب فيه: فهو يعني أن الحق هو حقيقته، وأنه لا وجود لعيسى مع الحق في الصورة العيسوية. وهذا أيضا، لا يعلمه إلا كبار الأولياء. ثم بعد هذا المعنى، يمكن للأتباع (المريدين) أن يعقلوا معنى آخر يُناسبهم، وهو معنى "الطريق"، الذي ذكره عيسى في أول هذه الفقرة. وذلك لأنه لا يوصل إلى الحق، إلا من عيسى في زمانه؛ وكأن الحق موجود في عيسى بالمعنى اللغوي المجازي، لكونه نتيجة علمية فيه. وكل هذا الذي نذكره عن عيسى، يصدق على الشيخ الرباني الكامل مع تلاميذه، فليُعتبر.

وأما سؤال "فيلبس": "يَا سَيِّدُ، أَرِنَا الآبَ وَكَفَانَا"، فهو سؤال كل مريد جاهل ينطلق من شركه الذي تعطيه مرتبته (الأولى). وكل من يجيب هذا السؤال من الشيوخ، بغير ما أجاب عيسى عليه السلام، فإنه يكون كاذبا في دعواه العلم بالله. وأما جواب عيسى: "أَنَا مَعَكُمْ زَمَانًا هذِهِ مُدَّتُهُ وَلَمْ تَعْرِفْنِي يَا فِيلُبُّسُ! اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ، فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ: أَرِنَا الآبَ؟ أَلَسْتَ تُؤْمِنُ أَنِّي أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ؟"، فيدل على أن المسألة من مستوى المشاهدة، لا من مستوى العلم الإيماني. والمشاهدة من المرتبة الثالثة في أعلاها، وواضح أن التلاميذ لم يكونوا من أهلها. لكن لعيسى حكمة في ذكر هذا الكلام لغير أهله، وهو أن يصل كل مؤمن به من الذين يأتون في القرون الستة بعد التلاميذ، ليطمئنوا إلى الحق إنْ وجدوه، أو يعلموا الطريق إليه فيسلكوه. وإن كل من يرى أن الحق غير عيسى وأن عيسى غير الحق، في تصوره الذهني، فليعلم أنه ليس من أهل ما يتكلم عنه عيسى. وهذا هو ما سيجعل عيسى يُنهي كلامه بقوله: " الْكَلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ لَسْتُ أَتَكَلَّمُ بِهِ مِنْ نَفْسِي، لكِنَّ الآبَ الْحَالَّ فِيَّ هُوَ يَعْمَلُ الأَعْمَالَ. صَدِّقُونِي أَنِّي فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ، وَإِلاَّ فَصَدِّقُونِي لِسَبَبِ الأَعْمَالِ نَفْسِهَا."؛ وذلك ليجعل لأهل الإيمان ممسكا يُمسكون به في طريق الحق. ولو أبقاهم –عليه السلام– مع الكلام الأول، لنبذوا الدين جملة، حين يرونه لا يعنيهم بسبب بعد معانيه عنهم. ونقصد بقولنا لا يعنيهم: لا يُجيب عن تساؤلاتهم بحسب مراتبهم. وهكذا، فإن من لم يكن من أهل التوحيد الخاص، فليُسلّم من باب الإيمان؛ ولينزل إلى مرتبة العوام، ليؤمن بأن الآيات التي تظهر عليه هي من ربه. وهذه فسحة، جعلها الله لعباده، حتى يَرحم أكبر عدد منهم. مرة كنت مع أحد الإسلاميين، الذين يُكثرون من التظاهر بالدين عن جهل، فقال: اللهم ارحمنا؛ وكأنها جملة اعتراضية لا دعاء. فأجبته: إن أردنا!... فنظر إلي متعجبا، فأكملت له: نعم، إن أردنا؛ لأن الرحمة كثيرا ما تنزل علينا، ونقوم نحن بردها. فسكت ولم يُعقّب!...

ثم يقول يوحنا على لسان عيسى: "وَمَهْمَا سَأَلْتُمْ بِاسْمِي فَذلِكَ أَفْعَلُهُ لِيَتَمَجَّدَ الآبُ بِالابْنِ. إِنْ سَأَلْتُمْ شَيْئًا بِاسْمِي فَإِنِّي أَفْعَلُهُ."[1]: وهذه خاصية كل رباني من الأنبياء ومن الورثة؛ ولقد وقع لتلاميذنا هذا كثيرا. فكانوا عندما يحزبهم أمر، أو تضيق عليهم السبُل لسبب من الأسباب، في ظروف الحرب أو المرض أو غيرها، يتوجهون إلينا فيما أهمهم، فلا يلبث أن يُرفع بإذن الله تعالى؛ وهذا كله من تحقق الرباني بربه. ونعني من هذا أن عيسى من شدة تحققه بالله، أصبح اسمه اسما لربه، يُدعى به فيُجيب؛ وأصبحت صورته قبلة يُتوجه إليها. وكل من يتوجه إليها، يسمعه الله مباشرة، ولا يكل دعاءه إلى الملائكة الموكلين بالأدعية ليرفعوه إليه سبحانه. ومن سمعه الله مباشرة (المسألة هنا اعتبارية)، فإنه يُجيب دعاءه من غير أدنى شك؛ لجوده سبحانه الواسع، الذي يتنزه عن التقيّد بالأسباب والعلل. ولو لم يكن للربانيين غير هذه المزية، فإنه كان ينبغي للناس أن يعرفوها لهم؛ ولكن لله حكما في إخفاء مثل هذا عن العوام.

ثم يُضيف عيسى: "إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي فَاحْفَظُوا وَصَايَايَ،"[2]: وهذا هو ما أشرنا إليه آنفا، من أن عيسى اغتنم وقت خروج "يهوذا" الإسخريوطي بعد العشاء، ليوصي تلاميذه بما ينفعهم في حياتهم، وبما يُبلّغونه إلى من يأتون بعدهم من المسيحيين، الذين قد يفضلونهم في المرتبة أو في الإيمان.

ويقول عيسى بعد ذلك: "وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّيًا آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الأَبَدِ، رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي لاَ يَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ أَنْ يَقْبَلَهُ، لأَنَّهُ لاَ يَرَاهُ وَلاَ يَعْرِفُهُ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَعْرِفُونَهُ لأَنَّهُ مَاكِثٌ مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ. لاَ أَتْرُكُكُمْ يَتَامَى. إِنِّي آتِي إِلَيْكُمْ. بَعْدَ قَلِيل لاَ يَرَانِي الْعَالَمُ أَيْضًا، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَرَوْنَنِي. إِنِّي أَنَا حَيٌّ فَأَنْتُمْ سَتَحْيَوْنَ. فِي ذلِكَ الْيَوْمِ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا فِي أَبِي، وَأَنْتُمْ فِيَّ، وَأَنَا فِيكُمْ. اَلَّذِي عِنْدَهُ وَصَايَايَ وَيَحْفَظُهَا فَهُوَ الَّذِي يُحِبُّنِي، وَالَّذِي يُحِبُّنِي يُحِبُّهُ أَبِي، وَأَنَا أُحِبُّهُ، وَأُظْهِرُ لَهُ ذَاتِي».[3]: يتكلم عيسى عند ذكر المعزي الذي سيسأل ربه أن يُعطيه للتلاميذ، عن الروح القدس، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه. وهذا يعني أن الروح القدس هو ما يُسميه الصوفية "السر"، والسر لا يُرى ولا يُعرف. ولكن يستثني عيسى تلاميذه، ويُخبرهم بأنهم سيعرفونه، لأنه يكون فيهم. وهذا يعني أن الروح القدس يُعرف بالذوق، لا بالخبر. وعندما يُخبر عيسى أنه بعد قليل (بعد الرفع) لا يراه العالم هو أيضا، ولكن التلاميذ يرونه؛ فإنه يجعل ذلك من الروح القدس، الذي سيحيا به التلاميذ كما هو حي به. ولقد وقَفَ عيسى معرفة التلاميذ للحقيقة، بـ "ذلك اليوم"، الذي يحل فيهم الروح القدس، لا قبله؛ لأن عيسى لا يُمكن أن يُعرف إلا بالحق. ومعنى قوله لهم: "وَأَنْتُمْ فِيَّ، وَأَنَا فِيكُمْ"، هو كونهم حقيقة واحدة، يكون فيها عيسى عيسى والتلاميذ التلاميذ، بالاعتبار فقط. وهذا المستوى من المعرفة، لا يتحقق لهم إلا في الحقيقة المحمدية التي يرجع إليها عيسى في ارتفاعه. ونجد عيسى يؤكد في ختام هذه الفقرة على حفظ وصاياه، للمعاني التي عدّدناها آنفا.

ثم يضيف يوحنا: " قَالَ لَهُ يَهُوذَا لَيْسَ الإِسْخَرْيُوطِيَّ: «يَا سَيِّدُ، مَاذَا حَدَثَ حَتَّى إِنَّكَ مُزْمِعٌ أَنْ تُظْهِرَ ذَاتَكَ لَنَا وَلَيْسَ لِلْعَالَمِ؟» أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «إِنْ أَحَبَّنِي أَحَدٌ يَحْفَظْ كَلاَمِي، وَيُحِبُّهُ أَبِي، وَإِلَيْهِ نَأْتِي، وَعِنْدَهُ نَصْنَعُ مَنْزِلًا. اَلَّذِي لاَ يُحِبُّنِي لاَ يَحْفَظُ كَلاَمِي. وَالْكَلاَمُ الَّذِي تَسْمَعُونَهُ لَيْسَ لِي بَلْ لِلآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي. بِهذَا كَلَّمْتُكُمْ وَأَنَا عِنْدَكُمْ. وَأَمَّا الْمُعَزِّي، الرُّوحُ الْقُدُسُ، الَّذِي سَيُرْسِلُهُ الآبُ بِاسْمِي، فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ، وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ. «سَلاَمًا أَتْرُكُ لَكُمْ. سَلاَمِي أُعْطِيكُمْ. لَيْسَ كَمَا يُعْطِي الْعَالَمُ أُعْطِيكُمْ أَنَا. لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ وَلاَ تَرْهَبْ. سَمِعْتُمْ أَنِّي قُلْتُ لَكُمْ: أَنَا أَذْهَبُ ثُمَّ

---

[1] . يوحنا: ١٤: ١٣-١٤.

[2] . يوحنا: ١٤: ١٥.

[3] . يوحنا: ١٤: ١٦-٢١.

آتِي إِلَيْكُمْ. لَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي لَكُنْتُمْ تَفْرَحُونَ لأَنِّي قُلْتُ أَمْضِي إِلَى الآبِ، لأَنَّ أَبِي أَعْظَمُ مِنِّي. وَقُلْتُ لَكُمُ الآنَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، حَتَّى مَتَى كَانَ تُؤْمِنُونَ. لاَ أَتَكَلَّمُ أَيْضًا مَعَكُمْ كَثِيرًا، لأَنَّ رَئِيسَ هذَا الْعَالَمِ يَأْتِي وَلَيْسَ لَهُ فِيَّ شَيْءٌ. وَلكِنْ لِيَفْهَمَ الْعَالَمُ أَنِّي أُحِبُّ الآبَ، وَكَمَا أَوْصَانِي الآبُ هكَذَا أَفْعَلُ. قُومُوا نَنْطَلِقْ مِنْ ههُنَا."[١]: لم يجب عيسى عن سؤال "يهوذا" لأنه سؤال غبي؛ وبدل ذلك مضى يؤكد على حفظ الوصايا، ويُبشّر بالروح القدس، ويودع أصحابه بكلام لا يخفى عن ذي عقل ما يتضمنه من محبة ومن رحمة، وإن كان التلاميذ لا يعلمون ذلك في الوقت. وفي أثناء إخبار عيسى بما يكون لكي يعرفه التلاميذ عندما يأتي وقت كينونته؛ أخبر بأنه لا يتكلم معهم كثيرا. وهو يعني أنه لن يُخبرهم بكل شيء مما سيحدث في الزمان؛ ولكنه أشار إلى شيء بارز سيقع في المستقبل، وهو أن رئيس هذا العالم سيأتي، وليس له فيه شيء (حظ). وهو يعني -عليه السلام- بقوله "هذا العالم" العالم السفلي، ولا يعني الكون المخلوق؛ ويعني برئيسه "الشيطان" من كونه رئيس حزب الظلام. ويعني بإتيان الشيطان، مجيء المسيح الدجّال إلى العالم في آخر الزمان، ليظهر بآياته الشيطانية ويدعو الأشقياء إلى اتّباعه. والقول بأنه ليس للشيطان حظ في عيسى، يشير من طرف خفي إلى الاشتراك في الاسم بين المسيح الحق والمسيح الدجال، وينفي أي صلة للمسيح الدجال بعيسى؛ حتى يكون السامعون للنصيحة من المؤمنين على حذر من هذا الالتباس اللفظي. وإن إخبار عيسى عن الدجال، هو من إخبار الأنبياء لأممهم؛ كما جاء في قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الْأَعْوَرَ الْكَذَّابَ...»[٢].

ويواصل عيسى وصيته: "«أَنَا الْكَرْمَةُ الْحَقِيقِيَّةُ وَأَبِي الْكَرَّامُ. كُلُّ غُصْنٍ فِيَّ لاَ يَأْتِي بِثَمَرٍ يَنْزِعُهُ، وَكُلُّ مَا يَأْتِي بِثَمَرٍ يُنَقِّيهِ لِيَأْتِيَ بِثَمَرٍ أَكْثَرَ. أَنْتُمُ الآنَ أَنْقِيَاءُ لِسَبَبِ الْكَلاَمِ الَّذِي كَلَّمْتُكُمْ بِهِ. اُثْبُتُوا فِيَّ وَأَنَا فِيكُمْ. كَمَا أَنَّ الْغُصْنَ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَأْتِيَ بِثَمَرٍ مِنْ ذَاتِهِ إِنْ لَمْ يَثْبُتْ فِي الْكَرْمَةِ، كَذلِكَ أَنْتُمْ أَيْضًا إِنْ لَمْ تَثْبُتُوا فِيَّ. أَنَا الْكَرْمَةُ وَأَنْتُمُ الأَغْصَانُ. الَّذِي يَثْبُتُ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ هذَا يَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ، لأَنَّكُمْ بِدُونِي لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئًا. إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يَثْبُتُ فِيَّ يُطْرَحُ خَارِجًا كَالْغُصْنِ، فَيَجِفُّ وَيَجْمَعُونَهُ وَيَطْرَحُونَهُ فِي النَّارِ، فَيَحْتَرِقُ. إِنْ ثَبَتُّمْ فِيَّ وَثَبَتَ كَلاَمِي فِيكُمْ تَطْلُبُونَ مَا تُرِيدُونَ فَيَكُونُ لَكُمْ. بِهذَا يَتَمَجَّدُ أَبِي: أَنْ تَأْتُوا بِثَمَرٍ كَثِيرٍ فَتَكُونُونَ تَلاَمِيذِي. كَمَا أَحَبَّنِي الآبُ كَذلِكَ أَحْبَبْتُكُمْ أَنَا. اُثْبُتُوا فِي مَحَبَّتِي. إِنْ حَفِظْتُمْ وَصَايَايَ تَثْبُتُونَ فِي مَحَبَّتِي، كَمَا أَنِّي أَنَا قَدْ حَفِظْتُ وَصَايَا أَبِي وَأَثْبُتُ فِي مَحَبَّتِهِ. كَلَّمْتُكُمْ بِهذَا لِكَيْ يَثْبُتَ فَرَحِي فِيكُمْ وَيُكْمَلَ فَرَحُكُمْ. «هذِهِ هِيَ وَصِيَّتِي أَنْ تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ. لَيْسَ لأَحَدٍ حُبٌّ أَعْظَمُ مِنْ هذَا: أَنْ يَضَعَ أَحَدٌ نَفْسَهُ لأَجْلِ أَحِبَّائِهِ. أَنْتُمْ أَحِبَّائِي إِنْ فَعَلْتُمْ مَا أُوصِيكُمْ بِهِ. لاَ أَعُودُ أُسَمِّيكُمْ عَبِيدًا، لأَنَّ الْعَبْدَ لاَ يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُ سَيِّدُهُ، لكِنِّي قَدْ سَمَّيْتُكُمْ أَحِبَّاءَ لأَنِّي أَعْلَمْتُكُمْ بِكُلِّ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي. لَيْسَ أَنْتُمُ اخْتَرْتُمُونِي بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ، وَأَقَمْتُكُمْ لِتَذْهَبُوا وَتَأْتُوا بِثَمَرٍ، وَيَدُومَ ثَمَرُكُمْ، لِكَيْ يُعْطِيَكُمُ الآبُ كُلَّ مَا طَلَبْتُمْ بِاسْمِي. بِهذَا أُوصِيكُمْ حَتَّى تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا."[٣]: يوصي عيسى هنا تلاميذه بالثبات في الحق، الذي لا يكون لهم (الثبات) حتى يكونوا فروعا لحقيقته. فإنهم إن كانوا فروعا له، فإنهم سيحظون بإثمار الإيمان فيهم. وثمرات الإيمان، هي مقاماته وأحواله التي ذكرناها في بداية هذا الباب، وهي أيضا القلوب التي سيدخلها الإيمان بواسطة التلاميذ، لكونهم سيُكتبون عند الله من أعمالهم. ورفْع عيسى للتلاميذ من مرتبة العبيد إلى مرتبة المحبوبين، هو أولا من فضل الله عليهم، ثم هو من ثمرة عبودية عيسى؛ لأن العبد كلما ازداد قربا من ربه، ازداد عبودية بعكس ما يظن الجاهلون. وعلامة محبة عيسى لأتباعه، هي إخباره لهم بما سيأتي مستقبلا، حتى يستعدوا له؛

---

[١] . يوحنا: ١٤: ٢٢-٣١.

[٢] . أخرجه مسلم، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

[٣] . يوحنا: ١٥: ١-١٧.

وهي إمدادهم بالروح القدس، ليعصمهم من الضلال. وهذا يعني، أن من ضل منهم، فإنما سيضل من قِبل نفسه، لا مما جاءه من عيسى. وهذا -بعكس ما يظن الجاهلون- يحدث، عندما تقصر الاستعدادات عن قبول المدد.

ثم يُضيف عيسى: "«إِنْ كَانَ الْعَالَمُ يُبْغِضُكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ أَبْغَضَنِي قَبْلَكُمْ. لَوْ كُنْتُمْ مِنَ الْعَالَمِ لَكَانَ الْعَالَمُ يُحِبُّ خَاصَّتَهُ. وَلكِنْ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنَ الْعَالَمِ، بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ مِنَ الْعَالَمِ، لِذلِكَ يُبْغِضُكُمُ الْعَالَمُ. اُذْكُرُوا الْكَلاَمَ الَّذِي قُلْتُهُ لَكُمْ: لَيْسَ عَبْدٌ أَعْظَمَ مِنْ سَيِّدِهِ. إِنْ كَانُوا قَدِ اضْطَهَدُونِي فَسَيَضْطَهِدُونَكُمْ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ حَفِظُوا كَلاَمِي فَسَيَحْفَظُونَ كَلاَمَكُمْ. لكِنَّهُمْ إِنَّمَا يَفْعَلُونَ بِكُمْ هذَا كُلَّهُ مِنْ أَجْلِ اسْمِي، لأَنَّهُمْ لاَ يَعْرِفُونَ الَّذِي أَرْسَلَنِي."[1]: ويريد عيسى من كلامه هذا، تنبيه التلاميذ إلى المشاق التي سيُلاقونها؛ وهذا أيضا من التثبيت لهم، حتى لا يُفاجأوا بما لا يسرهم، ويظنوا أن ذلك من غضب الله عليهم. والحقيقة هي أن كثيرا من الأتباع، يقعون في هذا الالتباس؛ وقد يرتدون عما كانوا عليه، بسبب تخويف الشيطان لهم وإيهامهم أنهم لو كانوا على الحق، لما سلّط الله عليهم أحدا من عباده؛ والحقيقة على غير ذلك وبالعكس. وذلك لأن تسليط الله للأشرار على الأتباع، هو من أجل تخليصهم من ظلمتهم من جهة، ومن أجل تحقيق انتسابهم إلى إمامهم من جهة أخرى. ويقول الله في هذا المعنى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: ٢١٤]. وبما أن الشيطان وحزبه، هم من يُسلَّطون بالأذى على المؤمنين حتى يصلحوا للجنة، فإنهم عاملون بعكس ما يريدون في ذلك، من دون أن يعلموا. وهذا، من أكبر دلائل التوحيد في العالم، لو كان الناس يتنبهون. ولو أن المؤمنين كانوا يفقهون، لعلموا أنه لو كان لأحد أن ينجو من الأذى، لكان الأئمة من الرسل ومن الورثة؛ لأن مرتبتهم أعلى من مرتبة أتباعهم. وهذا هو ما أراد عيسى أن يُفهمهم بقوله عليه السلام: "لَيْسَ عَبْدٌ أَعْظَمَ مِنْ سَيِّدِهِ". ولا بد هنا من أن نذكر كلاما يقوله جهلة المتصوفة لأتباعهم؛ كأن يعدوهم بالحفظ التام، وبنيل الحظوظ الدنيوية قبل الأخروية، وببلوغ أعلى الدرجات بمجرد الانتساب ومن دون جهاد ومجاهدة؛ لنؤكد على بطلانه، وعلى مخالفته للسنة النبوية، وعلى مخالفته لسنة الله الجارية في خلقه. يقول الله تعالى: {سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا} [الأحزاب: ٣٨]. وهذا يعني أن ما كان مقدرا على العبد، فإنه لا يرده راد. وأما من يقارن هذا، بما ذكرناه من قبل عن تغيير الربانيين لما كان مقضيا به، فإننا نخبره بأن لا تعارض؛ لأن القضاء المبْرم، هو ما لا يقبل التغيير؛ ولأن ما يأتيه أهل الله مما ذكرنا، هو على سبيل الكرامة والاستثناء، وليس قاعدة. نعوذ بالله من الزيغ والضلال!...

ثم يضيف عيسى: "لَوْ لَمْ أَكُنْ قَدْ جِئْتُ وَكَلَّمْتُهُمْ، لَمْ تَكُنْ لَهُمْ خَطِيَّةٌ، وَأَمَّا الآنَ فَلَيْسَ لَهُمْ عُذْرٌ فِي خَطِيَّتِهِمْ. اَلَّذِي يُبْغِضُنِي يُبْغِضُ أَبِي أَيْضًا. لَوْ لَمْ أَكُنْ قَدْ عَمِلْتُ بَيْنَهُمْ أَعْمَالاً لَمْ يَعْمَلْهَا أَحَدٌ غَيْرِي، لَمْ تَكُنْ لَهُمْ خَطِيَّةٌ، وَأَمَّا الآنَ فَقَدْ رَأَوْا وَأَبْغَضُونِي أَنَا وَأَبِي. لكِنْ لِكَيْ تَتِمَّ الْكَلِمَةُ الْمَكْتُوبَةُ فِي نَامُوسِهِمْ: إِنَّهُمْ أَبْغَضُونِي بِلاَ سَبَبٍ. «وَمَتَى جَاءَ الْمُعَزِّي الَّذِي سَأُرْسِلُهُ أَنَا إِلَيْكُمْ مِنَ الآبِ، رُوحُ الْحَقِّ، الَّذِي مِنْ عِنْدِ الآبِ يَنْبَثِقُ، فَهُوَ يَشْهَدُ لِي. وَتَشْهَدُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا لأَنَّكُمْ مَعِي مِنَ الابْتِدَاءِ."[2]: يفسر عيسى عليه السلام سبب بعثته، فيما يتعلق بمن يعادونه، ويذكر أنهم ما حقت عليهم المؤاخذة، حتى رأوه وشاهدوا آياته التي لا يقدر عليها إلا الله وحده. وهذا هو معنى قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥]. ولو لم يُبعث الرُّسل الذين من بينهم عيسى، ما كان الذنب يتعلق بأحد من الناس. ولكن عندما بُلّغوا أحكام الله، وخالفوها، وكفروا بمن جاءهم بها، هناك تعلقت بهم الذنوب التي ستُدخلهم النار. وإن الأعمال بشقيها

---

[1]. يوحنا: ١٥: ١٨-٢١.

[2]. يوحنا: ١٥: ٢٢-٢٧.

الخير والشر، لها طلب من جهة الغيب لجزاءاتها، كما تطلب الأسباب نتائجها في عالم الحكمة. ومن تفطن إلى هذه الحقيقة، فإنه يجهد في أن تكون حسناته كثيرة، ثم بعد ذلك يرجو ربه أن يرحمه بقبولها. وأما الجاهل فإنه يعمل السيئات، ويتوهم أنها لا أثر لها من نفسها في إهلاكه؛ والحقيقة كما ذكرنا، على غير ذلك. ولقد نبه الله إلى هذا الأصل في قوله تعالى عن بعض الأشقياء: {فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [التوبة: ٨٢]؛ أي فليضحكوا قليلا في دنياهم، ليبكوا في آخرتهم كثيرا؛ عندما نحكّم فيهم أعمالهم. فالأعمال تطلب جزاءاتها من ذواتها، لا كما يفهم الغافلون. ومن هذا الباب ظهور الأعمال والأقوال على هيئة صور في البرزخ وفي الآخرة، ليحصل بها إما تنعم صاحبها وإما عذابه. وقد جاء في حديث نبوي طويل عن العبد المؤمن: «...وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمْ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي!...»؛ وعن العبد الكافر: «...وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمْ السَّاعَةَ!»[1]. وأما طائفة من يزعمون العقلانية من المتأخرين المنكرين لمثل هذه الأخبار، فليسوا إلا عبادا أقفرت قلوبهم من الإيمان، وتمكن منهم الشيطان. وأما العقلانية، فلم تكن قط مناقضة للإيمان؛ لأن المؤمن أعقل من الكافر على كل حال. وهذه المسألة من المغالطات التي يراهن عليها الخبثاء عند مخاطبة ضعاف العقول.

ويواصل يوحنا: "تَكَلَّمَ يَسُوعُ بِهذَا وَرَفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ وَقَالَ: «أَيُّهَا الآبُ، قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ. مَجِّدِ ابْنَكَ لِيُمَجِّدَكَ ابْنُكَ أَيْضًا، إِذْ أَعْطَيْتَهُ سُلْطَانًا عَلَى كُلِّ جَسَدٍ لِيُعْطِيَ حَيَاةً أَبَدِيَّةً لِكُلِّ مَنْ أَعْطَيْتَهُ."[2]: يلاحظ القارئ أننا بدأنا نقفز على فقرات كثيرة من إنجيل يوحنا، لأننا لا نريد أن نكرر الكلام الذي ذكرناه سابقا (في الجزء الأول)، عندما تناولنا إنجيل متّى. وكلام عيسى هنا، يدل على أن ساعة رفعه قد اقتربت. ولا بد لنا من توضيح لعبارة "مَجِّدِ ابْنَكَ لِيُمَجِّدَكَ ابْنُكَ أَيْضًا" لأنها موحية في ظاهرها بالندية. ولا حضرة تعطي هذا في الحقائق إلا الحضرة الذاتية، باعتبار الوجود فيها من جهة، وباعتبار العدم من جهة أخرى. والندية هنا، جاءت من كون الوجود لا ظهور له بنفسه، ولكن بالصور العدمية. وهذا هو ما سميناه نحن في بعض كتاباتنا: "شرك الحقائق"، وجعلناه أساسا للشرك المذموم الظاهر في عالم السفل؛ لأن الشرك المنهي عنه، له أصل من الحقائق، لا بد أن يستند إليه في ظهوره؛ وليس إلا ما ذكرنا. وأما علماء الدين المترسمين، فلا مدخل لهم في هذا العلم؛ لذلك سوف لن يُدركوا ما نقول هنا. ومن هذا الباب، كان التمجيد متبادلا بين عيسى وربه؛ ولو كانت العقول تتسع، لذكرنا ما وقع لنا في هذه الحضرة.

ويضيف عيسى: "وَهذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ. أَنَا مَجَّدْتُكَ عَلَى الأَرْضِ. الْعَمَلَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لأَعْمَلَ قَدْ أَكْمَلْتُهُ. وَالآنَ مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ بِالْمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ."[3]: ها هو عيسى، يصرح بالمستوى الذاتي الذي يريد أن يتمجد فيه، كما كان قبل خلق العالم. وهذا المستوى، لا يُدركه عيسى، إلا من باطن الحقيقة المحمدية، من وجهها الأحدي؛ كما أخبرنا عدة مرات. ومن هذا المستوى أيضا يتكلم عن الذات كبار أولياء الأمة المحمدية، دون عوام العارفين والعلماء. ونعني من هذا أن المنع النبوي

[1] . الحديث بتمامه أخرجه أحمد في مسنده، عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

[2] . يوحنا: ١٧: ١-٢.

[3] . يوحنا: ١٧: ٣-٥.

لا يشملهم، لأنهم يتكلمون بالله لا بأنفسهم. وقد ورد المنع النبوي في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ، وَلا تَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ!»[1]. والمقصود من "الله" هنا الذات، لا المرتبة؛ لأن المرتبة يقوم عليها التوحيد، فلا بد من تعقُّلها؛ بخلاف الذات فإنها لا تُتعقَّل ولا يقوم على العلم بها التوحيد؛ بل إن الذات لا يتعلق بها العلم من الأصل. وهذا منتهى ما تبلغه العبارة في هذه المسألة.

ثم يقول عيسى: "«أَنَا أَظْهَرْتُ اسْمَكَ لِلنَّاسِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي مِنَ الْعَالَمِ. كَانُوا لَكَ وَأَعْطَيْتَهُمْ لِي، وَقَدْ حَفِظُوا كَلاَمَكَ. وَالآنَ عَلِمُوا أَنَّ كُلَّ مَا أَعْطَيْتَنِي هُوَ مِنْ عِنْدِكَ، لأَنَّ الْكَلاَمَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي قَدْ أَعْطَيْتُهُمْ، وَهُمْ قَبِلُوا وَعَلِمُوا يَقِينًا أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِكَ، وَآمَنُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي. مِنْ أَجْلِهِمْ أَنَا أَسْأَلُ. لَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ الْعَالَمِ، بَلْ مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي لأَنَّهُمْ لَكَ. وَكُلُّ مَا هُوَ لِي فَهُوَ لَكَ، وَمَا هُوَ لَكَ فَهُوَ لِي، وَأَنَا مُمَجَّدٌ فِيهِمْ."[2]: يسأل عيسى الله، أن يجعل لتلاميذه جمعية به، كما له هو جمعية بالحق؛ حتى يكونوا نوابا عنه في العالم. وهذا من جود عيسى وكرمه، لكونه متصفا بصفات ربه.

ثم يضيف عليه السلام: "وَلَسْتُ أَنَا بَعْدُ فِي الْعَالَمِ، وَأَمَّا هؤُلاَءِ فَهُمْ فِي الْعَالَمِ، وَأَنَا آتِي إِلَيْكَ. أَيُّهَا الآبُ الْقُدُّوسُ، احْفَظْهُمْ فِي اسْمِكَ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي، لِيَكُونُوا وَاحِدًا كَمَا نَحْنُ. حِينَ كُنْتُ مَعَهُمْ فِي الْعَالَمِ كُنْتُ أَحْفَظُهُمْ فِي اسْمِكَ. الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي حَفِظْتُهُمْ، وَلَمْ يَهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ ابْنُ الْهَلاَكِ لِيَتِمَّ الْكِتَابُ. أَمَّا الآنَ فَإِنِّي آتِي إِلَيْكَ. وَأَتَكَلَّمُ بِهذَا فِي الْعَالَمِ لِيَكُونَ لَهُمْ فَرَحِي كَامِلًا فِيهِمْ. أَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمْ كَلاَمَكَ، وَالْعَالَمُ أَبْغَضَهُمْ لأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ، كَمَا أَنِّي أَنَا لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ. لَسْتُ أَسْأَلُ أَنْ تَأْخُذَهُمْ مِنَ الْعَالَمِ بَلْ أَنْ تَحْفَظَهُمْ مِنَ الشِّرِّيرِ. لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ كَمَا أَنِّي أَنَا لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ. قَدِّسْهُمْ فِي حَقِّكَ. كَلاَمُكَ هُوَ حَقٌّ. كَمَا أَرْسَلْتَنِي إِلَى الْعَالَمِ أَرْسَلْتُهُمْ أَنَا إِلَى الْعَالَمِ، وَلأَجْلِهِمْ أُقَدِّسُ أَنَا ذَاتِي، لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضًا مُقَدَّسِينَ فِي الْحَقِّ. «وَلَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ هؤُلاَءِ فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِي بِكَلاَمِهِمْ، لِيَكُونَ الْجَمِيعُ وَاحِدًا، كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ فِيَّ وَأَنَا فِيكَ، لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضًا وَاحِدًا فِينَا، لِيُؤْمِنَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي. وَأَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمُ الْمَجْدَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي، لِيَكُونُوا وَاحِدًا كَمَا أَنَّنَا نَحْنُ وَاحِدٌ. أَنَا فِيهِمْ وَأَنْتَ فِيَّ لِيَكُونُوا مُكَمَّلِينَ إِلَى وَاحِدٍ، وَلِيَعْلَمَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي، وَأَحْبَبْتَهُمْ كَمَا أَحْبَبْتَنِي. أَيُّهَا الآبُ أُرِيدُ أَنَّ هؤُلاَءِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي يَكُونُونَ مَعِي حَيْثُ أَكُونُ أَنَا، لِيَنْظُرُوا مَجْدِي الَّذِي أَعْطَيْتَنِي، لأَنَّكَ أَحْبَبْتَنِي قَبْلَ إِنْشَاءِ الْعَالَمِ. أَيُّهَا الآبُ الْبَارُّ، إِنَّ الْعَالَمَ لَمْ يَعْرِفْكَ، أَمَّا أَنَا فَعَرَفْتُكَ، وَهؤُلاَءِ عَرَفُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي. وَعَرَّفْتُهُمُ اسْمَكَ وَسَأُعَرِّفُهُمْ، لِيَكُونَ فِيهِمُ الْحُبُّ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي بِهِ، وَأَكُونَ أَنَا فِيهِمْ»."[3]: ولنستخلص ما يلي:

١. معنى عبارة "التلاميذ ليسوا من العالم"، هو أنهم ينتسبون بالروح إلى العالم السماوي، لا إلى العالم الأرضي الطبيعي؛ وإن كانوا فيه. وهم على هذه الصفة، لأن عيسى أيضا لا ينتمي إلى العالم السفلي؛ والأتباع يلحقون بمتبوعهم حيثما كان. وهذا كله من باب الإلحاق العلمي المبني على العلم بالمقامات والمراتب.

٢. لا يسأل عيسى لأتباعه أن يأخذهم الله من العالم السفلي، لأن ذلك سيعني موتهم في الحال؛ ولكن يسأل لهم أن يُحفظوا من تسلُّط الشيطان؛ وهذا، حتى يبلّغوا دعوة عيسى بعده.

٣. عبارة "أن يكون التلاميذ في عيسى كما هو عيسى في الحق"، هي من الترتيب العقلي؛ حتى يفهموا عنه، ويفهم من يأتي بعدهم؛ وإلا فإن الحق واحد، وهذه كلها اعتبارات فيه.

---

[1] . أخرجه أبو عبد الرحمن السلمين في كتاب "أحاديث في ذم الكلام وأهله"، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] . يوحنا: ١٧: ٦-١٠.

[3] . يوحنا: ١٧: ١١-٢٦.

٤. معرفة عيسى بربه، لا يُشاركه فيها غيره؛ وسؤال عيسى لربه أن يُعرِّف تلاميذه بمرتبته، هو لينالوا عند تحقق فنائهم فيه، معرفة على قدرهم. وتحصيل التابع لعلم المتبوع، من هذا الوجه، سر من الأسرار، لا يعلمه إلا الوارثون للنبوة.

وأما قصة الصلب والقتل التي يختم بها يوحنّا إنجيله، فقد تكلمنا عنها في الجزء الأول، عندما تناولنا إنجيل متى؛ لذلك لن نعيد الكلام هنا. وبما أن عقائد التلاميذ الاثني عشر متقاربة فيما بينها، فإننا سنكتفي بما بيّنّاه منها، لنعود إلى العقائد الأخرى الموازية التي انتشرت في القرن الأول؛ من أجل إبراز الجذور الأولى للمسيحية (النصرانية) كما هي في أصلها. هذا رغم غياب الوثائق التي تؤرخ بالتفصيل للقرون الثلاثة الأولى من المسيحية، والتي لا زال علماء اللاهوت المسيحيون إلى الآن، يقفون حيالها بالتحفظ الواجب.

ويتضح من كل ما مررنا به، أن الرسل (التلاميذ)، قد وقعوا في خلط كبير في معرفة الحق، بسبب جهل مراتبه. وهذا وقع لليهود قبلهم بصورة بسيطة، ثم وقع للمسلمين بصورة عكسية بعدهم، عندما جهلوا حقيقة نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم. ولقد دخل الخلط على المسيحيين، أيضا من جهة الشريعة الموسوية التي لم تُنسخ؛ وهو ما جعلهم متأرجحين بين ظاهر النص الذي يزعم اليهود أنهم باقون عليه، ومعنى النص وروحه، الذي كان يدعو عيسى إليه. ونحن نعلم أن المدة التي قضاها التلاميذ مع عيسى، لم تكن كافية، حتى يتشربوا منه الدين على أصله؛ ونعلم من جهة أخرى أن تشويشات كثيرة قد دخلت على تعليم الروح القدس لهم، بما جعل قيادتهم للأمة المسيحية تفلت منهم، رغم حصرها من قبل عيسى فيهم صراحة، لو أنهم كانوا يوقنون. وإن هذا التعدد في العقيدة، الذي أصاب الجماعات المسيحية منذ رفع المسيح عليه السلام، سيجعل المسيحية في عمومها قابلة للضلال، كما أخبرنا عنها سابقا. وفي الفصل القادم، سنعمل على إبراز ذلك، بما لا يدع شكا للقارئ فيما نقول بإذن الله.

الفصل الرابع
بولس وأثره

قبل أن نتعرف على "بولس" الطرسوسي، وعلى ما حدا به إلى القيام بمهمة التلاميذ الأصليين؛ يجدر بنا أن نلقي نظرة شاملة على الخريطة العقدية المسيحية في القرن الأول. وبعد أن تعرفنا قليلا فيما قبل، على عقيدة الرسل (التلاميذ)، فإنه من اللازم الكلام عن مجموعتيْن رئيستيْن في مقابل من ذكرنا؛ هما:

١ . الغنوصية: وهي خليط بين الفلسفة الدينية الهيلينية، والثنوية الفارسية، واليهودية والمسيحية. ويعتقد الغنوصيون بأن الروح سماوية علوية، سقطت في هذا العالم السفلي، وسُجنت في هذا الجسد الحساس. ويعتقدون أن الله منزه عن مباشرة المادة، لذلك أرسل "المخلص" في صورة إنسانية، ليخلصها من هذا السجن. وقد أعلم المخلص "العارفين" بحقيقتهم السماوية، وعند انتهاء مهمته عاد إلى السماء بالقرب من الآب. وبهذا يكون قد فتح الباب أمام الأرواح الأخرى، عندما تتخلص من السجن الجسدي لتتبعه. ويُظن أن الغنوصية قد بدأت في القرن الأول، لكنها انتشرت وتوسعت في القرن الثاني، ويُذكر أن مؤسسها هو "سيمون" الساحر، وأن أرضها التي ازدهرت فيها هي مصر. وأما "بونيفاس" فيظن أن الغنوصية قد بدأت مع السبي البابلي، عندما اعتنق الإسرائيليون المرحَّلون عقائد الشعب البابلي وتقمصوا عاداته؛ وخاصة ما يتعلق بأصل العالم وتكوينه بين إلهيْ الخير والشر؛ وقد اشترك في هذه العقائد الوثنيون واليهود والمسيحيون. ومن أشهر الغنوصيين: "سرنت" (Cerinthe) اليهودي، الذي يُظن أنه عاش في آسيا الصغرى في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني؛ و"القديس إيريناوس" (Irenee) حوالي ١٤٠م. ويُذكر بأن "سرنت"كان يقطن المدينة نفسها التي كان يقيم بها "القديس يوحنا". ولقد كان "سرنت" يعتقد بأن الله وحده مطلق، وبأن كماله يفوق كل وصف. ويعتقد من الناحية الأخرى بوجود المادة غير المنظمة، والتي تشبه الخراب؛ وبين الله والمادة، تفصل هوة عظيمة (تعالى الله). ولقد كان من المستحيل أن يتصل الله بهذه المادة، دون أن يخفض نفسه قليلا (سبحان الله عما يصفون)؛ ولقد أخرج من ذاته (سبحانه) ذوات كانت أقل منه كمالا، هي الملائكة. ولقد كان إله اليهود (Demiurge) نصف إله، وهو آخر هذه الكائنات غير الكاملة وهو الأبعد عن الله؛ وهو الذي قام بتنظيم العالم، وبخلق الإنسان. ولقد أعطى الإله اليهودي (دائما بحسب سرنت) ناموسه غير الكامل للإنسان. وبما أن هذا الناموس غير كامل، فقد وعد بـ "مسيح"، وإن كان هذا المسيح نفسه غير كامل. ولذلك فقد أرسل الله إلى العالم واحدا من الملائكة الأُول، ولقد اتحد هذا الملاك بيسوع في لحظة العمادة. ولقد أوحى الملاك ليسوع بسر الآب الذي خرج منه، كما أعطاه أيضا الناموس الكامل والمعرفة الحقيقية، حتى يُعلنها للناس لكي يخلُصوا بها.

ونحن لو أردنا أن نقيّم عقيدة "سرنت"، فإننا سنجدها مضطربة، وعالقة بين المعاني التي هي حق في نفسها، والتصورات الذهنية للرجل، والتي لا تعني إلا أنه ليس من أهلها. وفي النهاية نجد "سرنت" قد أنتج تلفيقا لا ينطلي إلا على من هو أضعف منه عقلا وأقل منه نورا. ولو أردنا أن نُرجع كل مقولاته إلى أصلها من الحق وأصلها من الباطل، لفعلنا؛ حتى يعرف القارئ مدى قربها أو بعدها من الحقيقة؛ ولكننا ونحن نبغي استعراض عقائد القرن الأول المسيحي، لا نريد أن نُشعّب الحديث كثيرا؛ وسنترك القارئ يصل إلى ما كنا سنذكره بالتدريج، عند متابعتنا في الكتاب كله. ورغم ذلك، فإننا سنركّز هنا على ازدواجية النور والظلمة، لنعرف أصلها، ونعرف بعد ذلك مدى التوفيق الذي حالف أصحابها.

ونحن عندما نعود إلى الغنوصيين، فإننا نجدهم يجعلون المُلك في عالم النور للإله السامي (العليّ)، الذي لا يُعرف، والذي كان آخر ما خرج (ظهر) منه، إله اليهود، بحسب زعمهم. وأما مملكة الظلام، فيجعلون سلطانها لإبليس، الذي يُعينه شياطين غيره، يكونون تحت حكمه. وهذا شرك جلي، لا ينبغي أن يقع فيه أهل الدين من غير شك. ولنوضح بخصوص هذا، أمورا منها:

ا. النور الذي يقصده الغنوصيون، هو الوجود؛ والوجود لله وحده، لا يُشاركه فيه أحد. وهذا المعنى مجهول للعوام من أهل الدين، ونخص منهم هنا –من باب المقابلة– متكلمي المسلمين، الذين نخص منهم مرة أخرى متأخريهم، لكونهم أنزل في العقل من سابقيهم.

ب. وأما الظلمة، فهي العدم. والعدم قد اختلط على هؤلاء، فيحصرونه في عالم المادة (الطبيعة). والحقيقة هي أن الطبيعة لا يكون من العدم فيها إلا صورها. وهذه الصور التي هي من العدم، هي من صنف العدم القابل للظهور، والذي هو الإمكان. ويبقى العدم المحض، خارج الإدراك على التمام، لكونه لا مسمى له حقيقة.

ج. لا يمكن أن يكون الشيطان في مقابلة الله، إلا من جهة الأمر الشرعي، لكونه يأمر بخلاف ما يأمر به الله. لكن هذه المخالفة الشرعية، هي عن إذن إلهي؛ وليست تمردا على الله (سبحانه وتعالى)، كما يفهم الجاهلون. يقول الله تعالى: {قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ . قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ . قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ . قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ . قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ . إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ . لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ} [الحجر: ٣٢ – ٤٤]. وهذا يعني أن الشيطان لم يزل عبدا عاملا وفق مشيئة الله فيه، لا يستطيع أن يخرج عنها، كما لا يستطيع كل مخلوق أن يخرج عنها. وإنّ جعل الثنوية الشيطان "إلها للظلمة"، هو من غلبة ظلمة نفوسهم، ومن جهلهم بالحقائق؛ وبالخصوص من جهلهم بالتقابل الذي يكون بين الأسماء الإلهية.

د. ورغم أن الشيطان على ظلمة، إلا أنه لم يظهر إلا بالنور الإلهي، كسائر المخلوقات؛ ولولا النور لما درى أحد به، ولا درى هو بنفسه. وهذا هو ما يعود بالناس إلى التوحيد (القول بإله واحد).

هـ. ورغم أن النور ضد الظلمة، إلا أنه لا وجود للظلمة في نفسها؛ وإنما هي انعدام النور فحسب. ولقد نهى الله عن القول بإلهيْن وبيّن علة ذلك في قوله سبحانه: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} [الأنبياء: ٢٢]؛ والضمير في "فسدتا" يعود على السماوات والأرض. وهذا واضح، لأن افتراض كونهما بين إرادات متعددة يعني انفراط نظامهما وعودتهما إلى العدم. وهكذا يكون نظام العالم، واستمرار وجوده، من أدل الدلالات على التوحيد. ثم يقول الله تعالى: {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ . وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ . وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ . ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} [النحل: ٥١ – ٥٤]. والمعنى هو أنكم إذا أصابتكم آثار عدمكم الذي هو أصلكم، فإنكم لا تلجأون وقتها إلا إلى الله، لعلمكم بأنه وحده من لديْه ما تطلبون مما يغنيكم (الغنى عام كعموم الفقر). ولكن –بسبب جهل فريق منكم– إذا كشف الضر عنكم، بإمدادكم من الوجود بما يُغني حاجتكم، فإنكم تنسون، وتتوهمون أن ذلك لكم، وتُشركون به أنفسكم أو أحدا من المخلوقين من طبقتكم (الممكنات). وهذا كله مخالف للواقع!...

و. وبما أن الشيطان قد لُعن، وصار مُضِلا عن الإذن الإلهي؛ وبما أن الله قد أمده بما يناسب وظيفته في العالم؛ فإنه يستغل الثغرات العلمية والإيمانية (النورية) التي تكون للخلق، ويدخل عليهم منها، ليوقعهم في الشرك. ولذلك يقول الله عنه: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٦٨]. ومعنى عِدَة الشيطان الفقر، هو تخويفه الناس منه؛ لعلمه بأصلهم، وبأنهم أخوف ما يخافون العودة إلى العدم، الذي هو الفقر التام. ومن صفة الغنى التي لله، تكون المغفرة، لأن حقيقة المغفرة الأولى، هي سدّ خلة الفقر بما يُناسبها من الغنى. ومعنى مغفرة السيئات، معنى فرعي، عن هذا الذي نذكره. وأما الفحشاء التي يأمر بها الشيطان، فهي ادعاء الاستغناء عن الله؛ رغم أنه لا يصح لمخلوق البتة. وسُمي فحشاء لأنه مجاوزة للحد، وقد كان ينبغي للممكن، أن يعرف حدود إمكانه، ولا يتعداها في وهمه إلى ادعاء الوجود. ومن نظر إلى معاصي الخلق، وجدها تعود كلها إلى هذا الأصل، ووجد أصلها الجهل فحسب؛ والجهل عدم العلم، لذلك ما أُتي العباد إلا من أنفسهم. يقول الله تعالى: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} [النساء: ٧٩]. وهذا، لأن الحسنة وجود، ولأن السيئة عدم؛ حيث كانتا.

ولما دخل الغنوصيون إلى المسيحية، فإنهم وجدوا أنفسهم أمام معضلة، وهي التوفيق بين ألوهية المسيح، وجسده "المادي"؛ ما دامت المادة شرا في أصلها عندهم ومقارفتها خطيئة. وهذا هو ما أدى بـ "فلنتينوس" (Valentin) إلى القول بمخالفة جسد المسيح لسائر الأجساد، من باب التوفيق بين الأقوال. ولقد كان إنجيل "يوحنا" مهاجما لعقائد الغنوصيين، إما مباشرة فيما يتعلق بـ "سرنت" وكتاباته، وإما عموما في آسيا الصغرى كلها، انطلاقا من مدينة "أفسس"، حيث كان يقيم. ولقد عبر "يوحنا صراحة عندما قال بأن "الكلمة صار جسدا"، مستعملا للدلالة على الكلمة في اليونانية "Logos"، وللدلالة على الجسد "Sarx"؛ علما بأن هذه الأخيرة هي التي يستعملها الغنوصيون للدلالة على المادة. لهذا السبب، لم يقبل الغنوصيون الذين دخلوا المسيحية عقيدة "الكلمة صار جسدا". ورغم الاختلاف الظاهر بين الغنوصيين و"يوحنا"، بخصوص ما ذكرنا، فنحن نُرجعه إلى جهل الجميع بحقيقة ما يتكلمون فيه. ونحن نخص هنا أمريْن أساسيْن:

ا. وهو أن ما يراه الناس مادة كثيفة، مخالفة للروح اللطيف؛ لا يدل على اختلافهما إلا من جهة المرتبة. وذلك لأن العالم يحكم على الظاهر فيه بما تعطيه حقيقته؛ ومن هذا الباب كان ظهور جبريل على صورة رجل. وعلى هذا، فإن عيسى وهو روح الله، عندما نزل إلى عالم السفل، لم يكن له بد من أن يظهر في صورة جسد. ونعني من هذا، أن الخلاف بين الغنوصيين ويوحنا، صوري غير حقيقي. وحتى ننبه من يرون المادة ثابتة الوجود في نظرهم من كل وجوهها، ومنفصلة بحقيقتها عن الروح، فإننا ندلهم على ما يرونه في عالم الرؤيا: فهل عندما يرون شيئا ماديا هناك، يشكُّون في أنه خيال؟... كلا! ولكن يرونه ماديا؛ حتى إن كان صخرة مثلا، فإنهم يجدون لها ثقلا وصلابة. والآن: فما أدراهم أنهم في حال يقظتهم، يحكم عليهم عالم اليقظة كما حكم عليهم عالم الرؤيا، فيرون بحواسهم المادة أصيلة في وجودها، مع كونها لا تعدو أن تكون صنفا من الخيال؟!...

ب. وهو أن ما هو مادي في العادة، إذا صعد إلى العالم العلوي، فإنه لا يظهر إلا بصورة روحانية؛ بسبب خصوصية هذا العالم الحاكمة على الحاليْن فيه؛ ومن هذا الباب كان تعبير الرؤى، لدى العالمين بالتعبير. ونعني من هذا، أن المعبّر للرؤيا، لا بد أن يكون عالما بالصور المادية، وما تؤول إليه إن هي صعدت إلى مرتبة الأرواح. فإذا علم ذلك، فإنه يتجاوز الصورة المادية المرئية للرائي، ويستخرج المعاني التي فيها (روحها). وهذا التردد بين الصورة والمعنى في الرؤيا، هو عينه التردد الذي للحقائق بين عالميْ الغيب والشهادة: الروح والمادة. وإن كل من يتوهم الانفصال في هذه المسألة، لا يكون من أهل العلم،

وإنما يكون إما من أهل الإيمان، كما كان "يوحنا"؛ وإما من أهل الأيديولوجيا، كما هم الغنوصيون. وسنعود إلى مسألة الأيديولوجيا في العقائد فيما بعد إن شاء الله.

٢. المسيحيون المتمسكون بشريعة موسى: وهم مسيحيو أورشليم، الذين كان على رأسهم أقارب عيسى عليه السلام، وعلى الخصوص يعقوب أخوه. وهؤلاء هم من جاراهم بطرس وآخذه على مجاراتهم "بولس"؛ ومن هذا الوقت، انفصل المسيحيون عن اليهود وعن الشريعة. يقول بولس في رسالته إلى أهل غلاطية: "أَنَّهُ قَبْلَمَا أَتَى قَوْمٌ مِنْ عِنْدِ يَعْقُوبَ كَانَ يَأْكُلُ مَعَ الأُمَمِ، وَلكِنْ لَمَّا أَتَوْا كَانَ يُؤَخِّرُ وَيُفْرِزُ نَفْسَهُ، خَائِفًا مِنَ الَّذِينَ هُمْ مِنَ الْخِتَانِ. وَرَاءَى مَعَهُ بَاقِي الْيَهُودِ أَيْضًا، حَتَّى إِنَّ بَرْنَابَا أَيْضًا انْقَادَ إِلَى رِيَائِهِمْ! لكِنْ لَمَّا رَأَيْتُ أَنَّهُمْ لاَ يَسْلُكُونَ بِاسْتِقَامَةٍ حَسَبَ حَقِّ الإِنْجِيلِ، قُلْتُ لِبُطْرُسَ قُدَّامَ الْجَمِيعِ: «إِنْ كُنْتَ وَأَنْتَ يَهُودِيٌّ تَعِيشُ أُمَمِيًّا لاَ يَهُودِيًّا، فَلِمَاذَا تُلْزِمُ الأُمَمَ أَنْ يَتَهَوَّدُوا؟» نَحْنُ بِالطَّبِيعَةِ يَهُودٌ وَلَسْنَا مِنَ الأُمَمِ خُطَاةً، إِذْ نَعْلَمُ أَنَّ الإِنْسَانَ لاَ يَتَبَرَّرُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ، بَلْ بِإِيمَانِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ، آمَنَّا نَحْنُ أَيْضًا بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، لِنَتَبَرَّرَ بِإِيمَانِ يَسُوعَ لاَ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ. لأَنَّهُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ لاَ يَتَبَرَّرُ جَسَدٌ مَا. فَإِنْ كُنَّا وَنَحْنُ طَالِبُونَ أَنْ نَتَبَرَّرَ فِي الْمَسِيحِ، نُوجَدُ نَحْنُ أَنْفُسُنَا أَيْضًا خُطَاةً، أَفَالْمَسِيحُ خَادِمٌ لِلْخَطِيَّةِ؟ حَاشَا!"[١]. وهذا المنطق الذي تمكن "بولس" به من إقناع بطرس، ثم يعقوب بعده؛ لم يكن إلا سفسطة وتلفيقا، انطلى عليهما لعدم خبرتهما بأصول العمل العقلي. ومع ظهور "بولس" الذي سيطر على الريادة المسيحية، سينحسر أثر التلاميذ (الرسل)، بما يجعل الريبة تدب إلى الناظر في أمر المسيحية منذ عقودها الأولى.

وأما جمهور الناس فكانوا على خليط من عقائد الوثنيين واليهود والمسيحيين. ولقد تجلى ذلك في طائفة النيقولاويين، الذين هم أتباع "نيقولاوس" الأنطاكي، أحد الشمامسة السبعة. جاء في سفر الأعمال: "وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ إِذْ تَكَاثَرَ التَّلاَمِيذُ، حَدَثَ تَذَمُّرٌ مِنَ الْيُونَانِيِّينَ عَلَى الْعِبْرَانِيِّينَ أَنَّ أَرَامِلَهُمْ كُنَّ يُغْفَلُ عَنْهُنَّ فِي الْخِدْمَةِ الْيَوْمِيَّةِ. فَدَعَا الاثْنَا عَشَرَ جُمْهُورَ التَّلاَمِيذِ وَقَالُوا: «لاَ يُرْضِي أَنْ نَتْرُكَ نَحْنُ كَلِمَةَ اللهِ وَنَخْدِمَ مَوَائِدَ. فَانْتَخِبُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ سَبْعَةَ رِجَال مِنْكُمْ، مَشْهُودًا لَهُمْ وَمَمْلُوِّينَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ وَحِكْمَةٍ، فَنُقِيمَهُمْ عَلَى هذِهِ الْحَاجَةِ. وَأَمَّا نَحْنُ فَنُواظِبُ عَلَى الصَّلاَةِ وَخِدْمَةِ الْكَلِمَةِ». فَحَسُنَ هذَا الْقَوْلُ أَمَامَ كُلِّ الْجُمْهُورِ، فَاخْتَارُوا اسْتِفَانُوسَ، رَجُلًا مَمْلُوًّا مِنَ الإِيمَانِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ، وَفِيلُبُّسَ، وَبُرُوخُورُسَ، وَنِيكَانُورَ، وَتِيمُونَ، وَبَرْمِينَاسَ، وَنِيقُولاَوُسَ دَخِيلًا أَنْطَاكِيًّا."[٢]. والمعلومات عن النيقولاويين ضئيلة، يتلخص بعضها في أنهم كانوا يُبيحون أكل ما ذُبح للأوثان، وأنهم كانوا يُبيحون الاختلاط بين الرجال والنساء خارج رباط الزوجية، وأنهم كانوا يُنكرون خلق الله للعالم. ولقد حذر منهم يوحنا في رسائله إلى الكنائس السبع في سفر الرؤيا في قوله: "وَلكِنْ عِنْدِي عَلَيْكَ قَلِيلٌ: أَنَّ عِنْدَكَ هُنَاكَ قَوْمًا مُتَمَسِّكِينَ بِتَعْلِيمِ بَلْعَامَ، الَّذِي كَانَ يُعَلِّمُ بَالاَقَ أَنْ يُلْقِيَ مَعْثَرَةً أَمَامَ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنْ يَأْكُلُوا مَا ذُبِحَ لِلأَوْثَانِ، وَيَزْنُوا. هكَذَا عِنْدَكَ أَنْتَ أَيْضًا قَوْمٌ مُتَمَسِّكُونَ بِتَعْلِيمِ النُّقُولاَوِيِّينَ الَّذِي أُبْغِضُهُ. فَتُبْ وَإِلاَّ فَإِنِّي آتِيكَ سَرِيعًا وَأُحَارِبُهُمْ بِسَيْفِ فَمِي."[٣]. ولا شك في أن النيقولاويين، لم يكونوا إلا فئة من بين المتحللين من الشريعة الموسوية، ومن المنتسبين كذبا إلى المسيح عليه السلام، من دون أن يسلكوا طريقه؛ ولسنا نرى بولس مخالفا لهم إلا فيما اعتمده من تفسيرات مختلقة.

---

[١] . رسالة "بولس" إلى أهل غلاطية: ١٢-١٧.

[٢] . أعمال الرسل: ٦: ١-٥.

[٣] . الرؤيا: ٢: ١٤-١٦.

وفي هذا المناخ من عدم وضوح العقيدة المسيحية، لأسباب بعضها أمني، يتعلق بعدم تقبل السلطة الرومانية لها إلى جانب العقيدة اليهودية؛ وبعضها ناتج عن أثر التنازع الداخلي بين أقارب يسوع من جهة، وتلاميذه من جهة أخرى؛ سيظهر شخص "بولس" (شاول) الذي كان من المطارِدين للمسيحيين في أورشليم، ومن العاملين على إلقاء القبض عليهم وإيداعهم السجن (محاكم التفتيش). والغريب في هذا الشخص، أنه كان من الفريسيين، وكان من أعيان البلد والمواطنين الرومانيين؛ مما جعله في البداية مناهضا للمسيحية كما أسلفنا. ولكنه، وفي أثناء تتبعه للمسيحيين الفارين من أورشليم، وأثناء توجهه إلى دمشق في مهمة ملاحَقة؛ وقع له ما غير مسار حياته كله. وسننقل هنا ما جاء في سفر أعمال الرسل[1] عن هذه الحادثة، قبل أن نواصل الكلام: "أَمَّا شَاوُلُ فَكَانَ لَمْ يَزَلْ يَنْفُثُ تَهَدُّدًا وَقَتْلًا عَلَى تَلاَمِيذِ الرَّبِّ، فَتَقَدَّمَ إِلَى رَئِيسِ الْكَهَنَةِ وَطَلَبَ مِنْهُ رَسَائِلَ إِلَى دِمَشْقَ، إِلَى الْجَمَاعَاتِ، حَتَّى إِذَا وَجَدَ أُنَاسًا مِنَ الطَّرِيقِ، رِجَالًا أَوْ نِسَاءً، يَسُوقُهُمْ مُوثَقِينَ إِلَى أُورُشَلِيمَ. وَفِي ذَهَابِهِ حَدَثَ أَنَّهُ اقْتَرَبَ إِلَى دِمَشْقَ فَبَغْتَةً أَبْرَقَ حَوْلَهُ نُورٌ مِنَ السَّمَاءِ، فَسَقَطَ عَلَى الأَرْضِ وَسَمِعَ صَوْتًا قَائِلًا لَهُ: «شَاوُلُ، شَاوُلُ! لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي؟» فَقَالَ: «مَنْ أَنْتَ يَا سَيِّدُ؟» فَقَالَ الرَّبُّ: «أَنَا يَسُوعُ الَّذِي أَنْتَ تَضْطَهِدُهُ. صَعْبٌ عَلَيْكَ أَنْ تَرْفُسَ مَنَاخِسَ». فَقَالَ وَهُوَ مُرْتَعِدٌ وَمُتَحَيِّرٌ: «يَا رَبُّ، مَاذَا تُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ؟» فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «قُمْ وَادْخُلِ الْمَدِينَةَ فَيُقَالَ لَكَ مَاذَا يَنْبَغِي أَنْ تَفْعَلَ». وَأَمَّا الرِّجَالُ الْمُسَافِرُونَ مَعَهُ فَوَقَفُوا صَامِتِينَ، يَسْمَعُونَ الصَّوْتَ وَلاَ يَنْظُرُونَ أَحَدًا. فَنَهَضَ شَاوُلُ عَنِ الأَرْضِ، وَكَانَ وَهُوَ مَفْتُوحُ الْعَيْنَيْنِ لاَ يُبْصِرُ أَحَدًا. فَاقْتَادُوهُ بِيَدِهِ وَأَدْخَلُوهُ إِلَى دِمَشْقَ. وَكَانَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ لاَ يُبْصِرُ، فَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْرَبْ. وَكَانَ فِي دِمَشْقَ تِلْمِيذٌ اسْمُهُ حَنَانِيَّا، فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ فِي رُؤْيَا: «يَا حَنَانِيَّا!». فَقَالَ: «هأَنَذَا يَا رَبُّ». فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «قُمْ وَاذْهَبْ إِلَى الزُّقَاقِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْمُسْتَقِيمُ، وَاطْلُبْ فِي بَيْتِ يَهُوذَا رَجُلًا طَرْسُوسِيًّا اسْمُهُ شَاوُلُ . لأَنَّهُ هُوَذَا يُصَلِّي، وَقَدْ رَأَى فِي رُؤْيَا رَجُلًا اسْمُهُ حَنَانِيَّا دَاخِلًا وَوَاضِعًا يَدَهُ عَلَيْهِ لِكَيْ يُبْصِرَ». فَأَجَابَ حَنَانِيَّا: «يَا رَبُّ، قَدْ سَمِعْتُ مِنْ كَثِيرِينَ عَنْ هذَا الرَّجُلِ، كَمْ مِنَ الشُّرُورِ فَعَلَ بِقِدِّيسِيكَ فِي أُورُشَلِيمَ. وَههُنَا لَهُ سُلْطَانٌ مِنْ قِبَلِ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ أَنْ يُوثِقَ جَمِيعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ بِاسْمِكَ». فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «اذْهَبْ! لأَنَّ هذَا لِي إِنَاءٌ مُخْتَارٌ لِيَحْمِلَ اسْمِي أَمَامَ أُمَمٍ وَمُلُوكٍ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ. لأَنِّي سَأُرِيهِ كَمْ يَنْبَغِي أَنْ يَتَأَلَّمَ مِنْ أَجْلِ اسْمِي». فَمَضَى حَنَانِيَّا وَدَخَلَ الْبَيْتَ وَوَضَعَ عَلَيْهِ يَدَيْهِ وَقَالَ: «أَيُّهَا الأَخُ شَاوُلُ، قَدْ أَرْسَلَنِي الرَّبُّ يَسُوعُ الَّذِي ظَهَرَ لَكَ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي جِئْتَ فِيهِ، لِكَيْ تُبْصِرَ وَتَمْتَلِئَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ». فَلِلْوَقْتِ وَقَعَ مِنْ عَيْنَيْهِ شَيْءٌ كَأَنَّهُ قُشُورٌ، فَأَبْصَرَ فِي الْحَالِ، وَقَامَ وَاعْتَمَدَ. وَتَنَاوَلَ طَعَامًا فَتَقَوَّى. وَكَانَ شَاوُلُ مَعَ التَّلاَمِيذِ الَّذِينَ فِي دِمَشْقَ أَيَّامًا. وَلِلْوَقْتِ جَعَلَ يَكْرِزُ فِي الْمَجَامِعِ بِالْمَسِيحِ «أَنْ هذَا هُوَ ابْنُ اللهِ». فَبُهِتَ جَمِيعُ الَّذِينَ كَانُوا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا: «أَلَيْسَ هذَا هُوَ الَّذِي أَهْلَكَ فِي أُورُشَلِيمَ الَّذِينَ يَدْعُونَ بِهذَا الاسْمِ؟ وَقَدْ جَاءَ إِلَى هُنَا لِهذَا لِيَسُوقَهُمْ مُوثَقِينَ إِلَى رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ!». وَأَمَّا شَاوُلُ فَكَانَ يَزْدَادُ قُوَّةً، وَيُحَيِّرُ الْيَهُودَ السَّاكِنِينَ فِي دِمَشْقَ مُحَقِّقًا «أَنَّ هذَا هُوَ الْمَسِيحُ». وَلَمَّا تَمَّتْ أَيَّامٌ كَثِيرَةٌ تَشَاوَرَ الْيَهُودُ لِيَقْتُلُوهُ، فَعَلِمَ شَاوُلُ بِمَكِيدَتِهِمْ. وَكَانُوا يُرَاقِبُونَ الأَبْوَابَ أَيْضًا نَهَارًا وَلَيْلًا لِيَقْتُلُوهُ. فَأَخَذَهُ التَّلاَمِيذُ لَيْلًا وَأَنْزَلُوهُ مِنَ السُّورِ مُدَلِّينَ إِيَّاهُ فِي سَلّ. وَلَمَّا جَاءَ شَاوُلُ إِلَى أُورُشَلِيمَ حَاوَلَ أَنْ يَلْتَصِقَ بِالتَّلاَمِيذِ، وَكَانَ الْجَمِيعُ يَخَافُونَهُ غَيْرَ مُصَدِّقِينَ أَنَّهُ تِلْمِيذٌ. فَأَخَذَهُ بَرْنَابَا وَأَحْضَرَهُ إِلَى الرُّسُلِ، وَحَدَّثَهُمْ كَيْفَ أَبْصَرَ الرَّبَّ فِي الطَّرِيقِ وَأَنَّهُ كَلَّمَهُ، وَكَيْفَ جَاهَرَ فِي دِمَشْقَ بِاسْمِ يَسُوعَ. فَكَانَ مَعَهُمْ يَدْخُلُ وَيَخْرُجُ فِي أُورُشَلِيمَ وَيُجَاهِرُ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ. وَكَانَ يُخَاطِبُ وَيُبَاحِثُ الْيُونَانِيِّينَ، فَحَاوَلُوا أَنْ يَقْتُلُوهُ. فَلَمَّا عَلِمَ الإِخْوَةُ أَحْدَرُوهُ إِلَى قَيْصَرِيَّةَ وَأَرْسَلُوهُ إِلَى طَرْسُوسَ."[2]. وينبغي أن نلاحظ هنا أمورا منها:

---

[1] . ينسب البعض هذا السفر إلى "لوقا" صاحب الإنجيل المسمى باسمه، ويرى آخرون أن كاتبه مجهول.

[2] . أعمال الرسل: ٩: ١-٣٠.

١. بسهولة، صار "بولس" اليوم، "شاول" أمس، يُعدّ من الرُّسل لدى المسيحيين الأُول والمتأخرين؛ وكأنه كان من تلاميذ عيسى عليه السلام.

٢. إن "بولس" من طبقة المثقفين والفقهاء، يختلف عن طبقة الرسل الأصلية. ونعني أنهم لن يتمكنوا من غلبته في الجدل، ولن يتمكنوا من بلوغ قدرته على التنظير.

٣. إن الحادثة التي كانت البداية المسيحية لـ "بولس"، لم يتوقف عندها أحد بالتحليل وبالعرض على أصول الإيمان؛ بل استُقبلت بالتسليم في الغالب، خصوصا بعد اقتناع التلاميذ الاثني عشر (أو بعضهم) بها. بينما هي في الحقيقة استدراج من الشيطان لـ "بولس" نفسه، من غير أن يعلم. وهنا لا بد من توضيح ما يلي:

ا- إن للشيطان مثلما لحزب الله من تأييدات في ظاهر الصورة؛ ولولا ذلك، ما كان يتمكن من إضلال الناس من مختلف المراتب. ومما لديه -لعنه الله- أن يظهر للعباد في أي صورة شاء، وأن يتشبه بالله في بعض ظهوراته، وأن يخاطب الناس عن طريق الهاتف (الصوت)، كما يحدث لأهل الله أحيانا. ونذكر هنا قصة وقعت للشيخ الرباني عبد القادر الجيلاني، في فترة سياحته. وهي أنه ذات يوم، وهو في البرية وقد استبد به العطش، أظلته سحابة نزل عليه منها شيء يشبه الندى، ورأى في الأفق نورا قويا وصورة عظيمة، وجاءه صوت من قِبل الصورة يُخاطبه: "يا عبد القادر أنا ربك! وقد أحللت لك المحرمات!" فأجابه الشيخ عبد القادر: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، اخسأ يا لعين!" فإذا بالنور قد صار ظلامًا، والصورة دخانًا. ثم خاطبه الشيطان قائلًا: "يا عبد القادر نجوت مني بعلمك، وقد أضللتُ بهذه الواقعة سبعين من أهل الطريق."[1] وقد سئل الشيخ فيما بعد كيف عرف أنه الشيطان، فتلى قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ} [الأعراف: ٢٨]. ولولا علم الشيخ عبد القادر بهذا الأصل، لانخدع كما انخدع غيره من الضالين. ومن هنا تُعلم مرتبة الشريعة في الدين، التي لولاها لضل كل العالَمين. وأما بولس الذي كان من الفريسيين، فإنه لم يكن يعلم هذا الأصل، واكتفى بما سمعه من الصورة التي ظهرت له وزعمت أنها عيسى؛ وتأكد له ذلك باستمرارِ عماه ثلاثة أيام؛ وكل هذا، هيّن على الشيطان. ولو أن بولس، تريث قليلا، لعلم أن التلاميذ الاثني عشر، هم -على كل حال- أعلم منه بعيسى وبطريقه؛ ولكن الشيطان يبدو أنه أراد من إضلاله، ضرب دعوة التلاميذ في الصميم، وإبعادهم عن الواجهة؛ وذلك هو ما وقع.

ب- يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً. يَجِيءُ أَحَدُهُمْ، فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا... فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا! قَالَ: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ، فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ! قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ، وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ!»[2]. ووضع اللعين عرشه على الماء، هو للتشبه بالله فيما جاء في قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} [هود: ٧]. وإن كثيرين من الجهلة يجعلون الشيطان ندّا لله أو ندا لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم؛ فهم عندما رأوه يعصي الله الآمر، أو رأوه يعصي الرسول المبلّغ، ظنوا أن له من الاستقلالية ما يخوّله ذلك؛ قياسا على ما يعلمونه من أمور العادة، ممن يعصي السلطان -مثلا- ويعارضه؛ والحقيقة هي على غير ذلك. وذلك لأن الشيطان عبد لله، قد أقامه الله في مقام الإضلال وأمده بما يلزمه في ذلك. وأما معصيته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فهي من جهة الشريعة، كما هو شأن جميع العصاة؛ وأما

---

[1] . القصة أوردها ابن العماد الحنبلي في "شذرات الذهب"؛ وهي مشهورة.

[2] . أخرجه مسلم، عن جابر بن عبد الله بن حرام، رضي الله عنهما.

من جهة الباطن والحقيقة، فإن إبليس تحت حكم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، من كونه خليفة الله الأعظم، المتصرف فيه وفي سواه من المخلوقين.

ج- إن إبليس قد أضل كثيرا من الناس، خصوصا من المتصوفة الذين يُعظمون الكرامات وتتشوّف نفوسهم إليها. بل إن أكثرهم، يغنيه معهم أن يأتيهم بتأويلات توافق هواهم، فلا يحتاج لأن يظهر لهم في صورة أو أن يخاطبهم بصوت. ولقد رأينا من هذا الصنف كثيرا من الناس، لا ينفع معهم نُصح ولا تعليم.

٤. إن بولس سيتمكن من فرض نظرته على التلاميذ، وعلى مُجمل المسيحيين، لكونه أحكمهم لأصول الجدل والمناظرة. فهم قد وقعوا بسهولة تحت تأثيره، بعد أن انزاح السد الذي كان بينهم، والذي هو الإيمان بالمسيح عليه السلام. وهو بعد ذلك صار أكثرهم كلاما عن المسيح، وأعلمهم به!... هكذا، بين يوم وليلة!...

٥. لقد أحكم الشيطان قبضته على المسيحيين بأمريْن اثنيْن:

الأول: أنه فتح لهم باب العالمية في الدعوة، بعد أن كانت قومية ومحلّيّة؛ وقد ظنوا أن ذلك مما يُرضي عيسى عنهم. وهو محض توهّم منهم!...

الثاني: هو السماح للوثنيين بالدخول في المسيحية، من دون تقيُّد بالشريعة؛ وهذا يُغري من تكون غايته تكثير الأتباع. وهذا مع العلم بأن العالمية، تقتضي فتح الباب أمام الأغيار ولا بد.

ولم يتنبه التلاميذ والمسيحيون الأولون إلى أن تعاليم "بولس" قد نسخت تعاليم عيسى؛ وبهذا، فإن دين بولس سيصبح دينا آخر، غير دين عيسى. وآية ذلك أمور نذكر منها:

١. قد فرق بولس في التشريع، بين اليهود (بني إسرائيل) وغيرهم؛ مع أن التشريع لا ينقسم.

٢. إن تجويز بولس لغير اليهود، عدم التقيّد بالشريعة، والاكتفاء بالإيمان بالمسيح، هو هدم للدين من أساسه؛ لأنه لا دين من دون شريعة. ونعني من هذا، أن الشريعة طريق عملي إلى الله، كما هو الرسول طريق معرفي شهودي. ومن لا شريعة له، فإنه لا يمكن أن يتقرب إلى الله بالسير في طريقه أبدا؛ وسيكون كفاقد قدميه، وهو يريد السعي؛ وإن أوهمه إبليس بما شاء أن يوهمه. وهذا الذي نقوله، يشهد له حال كبار الرهبان في النصرانية، والذين يعيشون في حيرة وقلق رغم تثبيت بعضهم لبعض، منذ ذلك الزمان وإلى الآن!...

٣. إن عمل بولس، يجعل الشريعة أمرا ثقافيا، يتعلق ببعض الشعوب، ولا يتعلق ببعضها الآخر. وهذه مغالطة كبرى، لأن الشريعة (الناموس) نظام رباني مُحكم، يجعل حياة الناس تسير وفق حقائق إلهية، لا يبلغ إدراكُهم حقيقتها في الغالب. وبهذا، فهم يعيشون في انسجام مع العالم عند التزامهم بها، يذهب بالمشقة والحيرة اللتيْن تنتجان عن مصادمة الناموس العام الذي يخضع العالم (الكون) كله له.

٤. إن تركيز بولس -ومن سيتبعونه- على الإيمان وحده، وجعل هذا الإيمان يرتكز على ما لا يمكن أن يكون حقا من عند الله، هو إضلال للناس فحسب، وإخراج لهم عن الطريق المستقيم؛ ونعني أنه إخراج لهم من الدين بالدين. وهذا من أشد المكر كما لا يخفى!...

ومع تأثر الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية والأرثوذكسية بمذهب بولس، وبلوغ أثره أيضا، مختلف المسيحيين الإصلاحيين على مر الأزمنة؛ ومع الخلاف الواقع على صحة نسبة رسائله كلها إليه؛ فإننا سنختار نحن منها، ما نراه نموذجا مبرزا لخصوصيته، لنستخلص في النهاية أهم مرتكزات عقيدته؛ وإن كنا لا نجدها تستحق في الحقيقة التناول، لولا ما لها من أثر. وسنرد بعد كل هذا التقديم، على رسالته إلى أهل رومية، ونتخذها وسيلة لمعرفة طريقته ومذهبه...

رسالته إلى أهل رومية:

يقول بولس في رسالته إلى أهل رومية في الأصحاح الأول: "بُولُسُ، عَبْدٌ لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، الْمَدْعُوُّ رَسُولًا، الْمُفْرَزُ لإِنْجِيلِ اللهِ، الَّذِي سَبَقَ فَوَعَدَ بِهِ بِأَنْبِيَائِهِ فِي الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ، عَنِ ابْنِهِ. الَّذِي صَارَ مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ مِنْ جِهَةِ الْجَسَدِ، وَتَعَيَّنَ ابْنَ اللهِ بِقُوَّةٍ مِنْ جِهَةِ رُوحِ الْقَدَاسَةِ، بِالْقِيَامَةِ مِنَ الأَمْوَاتِ: يَسُوعَ الْمَسِيحِ رَبِّنَا."[١]: يذكر بولس عن نفسه أنه عبد ليسوع المسيح؛ ولم يحدد معنى العبودية: هل هو بالمعنى الشرعي الذي يكون فيه عيسى ربا وهو يكون عبدا له؛ أو هو بالمعنى العرفي الذي لا يعدو فيه أن يكون خادما له ولرسالته. ولا شك أن هذا الخلط، سيسم الصلة بين بولس والمسيح، وسيتعداها إلى كل من اتبعوه في عقيدته. ويُثبت بولس في كلامه عيسى، بذكر الكتب السابقة التي بشرت به؛ ولا يتردد في نسبته إلى الله بالبنوة، من جهة الروح القدس؛ في الوقت الذي يُثبت له البنوة من جهة الجسد لداود عليه السلام. ويجعل بولس قيامة المسيح من الأموات، دليلا على أنه ابن الله. وبما أن القيامة لا تصح، لسبب بسيط وهو أن المسيح لم يمت، كما يزعم المسيحيون؛ وبما أن النبوة المنشطرة بين الروح والجسد، لم يُبتَّ في حقيقتها وفي نصيب كل شطر منها بالمقابلة مع الشطر الآخر، فإن هذه العقيدة تبقى على ظنّيّتها، ولا ترقى إلى أن تكون عقيدة علمية يؤيدها الوحي الإلهي. وما سيأتي من الكلام، لا شك سيزيد من ظهور مدى ثبوت صحة عقيدة بولس، ومدى ثباتها للنقد الإيماني؛ لأننا لا نعتمد النقد العقلي وحده في هذا الكتاب.

ثم يقول بولس: "الَّذِي بِهِ، لأَجْلِ اسْمِهِ، قَبِلْنَا نِعْمَةً وَرِسَالَةً، لإِطَاعَةِ الإِيمَانِ فِي جَمِيعِ الأُمَمِ، الَّذِينَ بَيْنَهُمْ أَنْتُمْ أَيْضًا مَدْعُوُّو يَسُوعَ الْمَسِيحِ.": يقصد بولس أنه لأجل قبول اسم المسيح، قبل نعمة ورسالة، لإطاعة الإيمان في جميع الأمم؛ وأما معنى قبول النعمة، فهو التعرض للفضل الذي يأتي من الله إلى عبده جزاء إيمانه؛ وأما معنى الرسالة، فهو ما يتعلق بالأحكام العملية المطلوب من المؤمن العمل بها في نفسه وفي أسرته وفي أمته. وأما إطاعة الإيمان في الأمم، فقد كان يجدر به أن يُلحقهم فيها بمن سبقهم في الطريق من المسيحيين ومن ذرية إبراهيم عامة؛ ولكن يبدو أنه يفضل أن يجتهد لهم اجتهادا يخصهم، لا أساس له من تعاليم عيسى، ولكنه من بنات أفكاره.

ثم يضيف بولس: "إِلَى جَمِيعِ الْمَوْجُودِينَ فِي رُومِيَةَ، أَحِبَّاءَ اللهِ، مَدْعُوِّينَ قِدِّيسِينَ: نِعْمَةٌ لَكُمْ وَسَلاَمٌ مِنَ اللهِ أَبِينَا وَالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ. أَوَّلًا، أَشْكُرُ إِلهِي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ مِنْ جِهَةِ جَمِيعِكُمْ، أَنَّ إِيمَانَكُمْ يُنَادَى بِهِ فِي كُلِّ الْعَالَمِ. فَإِنَّ اللهَ الَّذِي أَعْبُدُهُ بِرُوحِي، فِي إِنْجِيلِ ابْنِهِ، شَاهِدٌ لِي كَيْفَ بِلاَ انْقِطَاعٍ أَذْكُرُكُمْ، مُتَضَرِّعًا دَائِمًا فِي صَلَوَاتِي عَسَى الآنَ أَنْ يَتَيَسَّرَ لِي مَرَّةً بِمَشِيئَةِ اللهِ أَنْ آتِيَ إِلَيْكُمْ. لأَنِّي مُشْتَاقٌ أَنْ أَرَاكُمْ، لِكَيْ أَمْنَحَكُمْ هِبَةً رُوحِيَّةً لِثَبَاتِكُمْ": بعد المقدمة، وبعد تمهيد بولس بالإشارة إلى أنه يعبد الله على طريقة الإنجيل، يقرر أنه أصبح ممدا بالإيمان لكل المؤمنين؛ وهذا فيه نظر:

١. لأن الإيمان ينقسم إلى صنفيْن: إيمان مُجمل، وهو ما كان عليه الموسويون في زمانهم، وما يكون عليه عوام المسيحيين؛ وإيمان مفصل، قد ذكرناه في بداية هذا الباب. وهذا لا يكون عليه، إلا كبار المسيحيين، وخواص المسلمين. وبما أن بولس قد مر مباشرة من إيمان باطل، هو إيمان الفريسيين في عهد عيسى، إلى إيمان بعيسى يزعم أنه أصبح فيه رسولا؛ فإن أمره يكون مشبوها وغير سليم من الدعوى. وذلك لأن المؤمنين من الأتباع (غير الأنبياء)، لا بد لهم من سلوك طريق التزكية، ليترقوا إلى المراتب والدرجات العليّة. وقد كان على بولس بعد أن كان فريسيّا، أن يدخل في الإيمان بالمسيح عليه السلام؛ وأن يعمل بتعاليمه، وينتظر إلى أن يُثمر له إيمانه ما يجعله مؤهلا لتكليم غيره.

٢. لأن المتكلم في الإيمان، لا بد له أن يكون على برهان من نفسه، يؤيده في ذلك الوحي من ربه. والبرهان من النفس، هو ما سميناه قبلاً ثمار الإيمان؛ وأما تأييدات الوحي، فهي ما يشهد للثمار بأنها نورانية، وليست من وحي الشيطان. ولقد

---

[١] . رسالة بولس إلى أهل رومية: ١: ١-٤.

أطال المسلمون الكلام في مسألة الكشف (التعليم الغيبي)، وكيف يُقبل؟... وأجاب عن ذلك أئمة الطريق أنفسهم، بما أن الفقهاء ليس في إمكانهم ذلك. وقال أحد كبار هؤلاء الأئمة (الجنيد): "علمنا مضبوط بالكتاب والسنة؛ ومن لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، لا يقتدى به."[1]. ومعنى الكلام هو أن كل علم ينكشف للسالكين، مما يندرج ضمن علوم الأحوال والمقامات أو علوم الأسماء والحضرات، فلا بد أن تشهد له آية من القرآن، أو حديث من السنة؛ لأنه لا يُعدم دليل من الوحي، لمواجيد القلوب. ومن لم يجد لعلمه دليلا مما ذُكر، فليعلم أنه من الشيطان. وحتى نزيد الأمر وضوحا نقول: قد يأتي الشيطان للسالك الجاهل بدليل من القرآن والسنة، على غير وجهه؛ وهنا ينبغي مراجعة العارفين من الشيوخ، حتى يردّوا الأمر إلى أصله. ولقد رأينا في زماننا كثيرا من المتصوفة، يستدلون بما لا يكون دليلا في المسألة، ثم لا يشكّون فيما يقولون. وهذا من أكبر الضلال!...

وهكذا، فإنه لا يكفي أن يقول بولس كلاما، ويعزوه إلى الكتب السابقة، ونقبله نحن بالتسليم؛ لأنه قد يكون ممكورا به في فهمه، وهو الواقع. وسنبيّن في كل مرة، كيف أنه قد خالف أصول الدين، كما هي في جميع الشرائع. وهذا لا يمكن أن يُقال بعده بأن معتمده يكون على الحق فيما يفوه به!... ولا بد هنا من أن نؤكد على وجوب وزن الأقوال في زماننا بالقرآن والسنة، من كونهما آخر وحي منزل من عند الله؛ ولا نكتفي بعرضها على الكتب السابقة، خصوصا بعد لحوق التحريف بها يقينا. ولسنا هنا ننكر كل ما جاء في التوراة أو في الإنجيل، بل نقول بعدم قبول كل ما ورد فيهما إلا بدليل من الله. ومن تتبع كلامنا عند تناولنا للكتب السابقة، فإنه -لا شك- سيلاحظ أننا نقبل ونرد بعلم؛ لا بهوى أو بعصبية.

ويقول بولس بعد ذلك: "أَيْ لِنَتَعَزَّى بَيْنَكُمْ بِالإِيمَانِ الَّذِي فِينَا جَمِيعًا، إِيمَانِكُمْ وَإِيمَانِي. ثُمَّ لَسْتُ أُرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنَّنِي مِرَارًا كَثِيرَةً قَصَدْتُ أَنْ آتِيَ إِلَيْكُمْ، وَمُنِعْتُ حَتَّى الآنَ، لِيَكُونَ لِي ثَمَرٌ فِيكُمْ أَيْضًا كَمَا فِي سَائِرِ الأُمَمِ.": هذا الخطاب ليس خطاب مؤمنين، بل هو خطاب أئمة الضلال، الذين ينفخ فيهم إبليس ويظنون أنفسهم على شيء. وذلك لأن الإيمان يُعطي التواضع، لا الكبر والدعوى. وبما أن الإيمان هبة من الله لعباده، فلا يُدرى من يكون فيه على أعلى المراتب، إلا إن كان الناظر إماما ربانيا (رسولا أو وارثا). وينبغي هنا أن نؤكد على أن المؤمنين يكونون من أهل التوجه إلى الله، ولا يكونون من أهل المواجهة؛ أي من الذين يتوجه إليهم غيرهم. وذلك لأن المواجهة مخصوصة بمن كان قائما في شؤونه بالله لا بنفسه، كعيسى في قومه، وكمحمد صلى الله عليه وآله وسلم في أمته، أو كالورثة من هذه الأمة، الذين ذكرنا عنهم سابقا أنهم يُشبهون أنبياء بني إسرائيل من عدة وجوه، هذا أحدها. وبما أن بولس ليس مؤهلا للإمامة (المواجهة)، فإنه سيُضل كل من تبعه بوحي من الشيطان؛ سواء أعلم هو ذلك، أم لم يعلم. ونقول هذا، لأن كثيرا من أئمة الضلال ينخدعون بشهادة إبليس لهم، وبإمداده لهم من جهة فكرهم بما يتوهمون أنه براهين على الحق، فيكونون مُضلين لغيرهم وهم لا يعلمون أنه متلاعَب بهم. وحسن النية لا يكفي وحده هنا، وإنما لا بد من برهان من الله أكيد، كما ذكرنا في الفقرة السابقة؛ حتى يسير العبد الداعي بمن يدعوهم على الطريق المستقيم.

ثم يضيف بولس: "إِنِّي مَدْيُونٌ لِلْيُونَانِيِّينَ وَالْبَرَابِرَةِ، لِلْحُكَمَاءِ وَالْجُهَلاَءِ. فَهكَذَا مَا هُوَ لِي مُسْتَعَدٌّ لِتَبْشِيرِكُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ فِي رُومِيَةَ أَيْضًا، لأَنِّي لَسْتُ أَسْتَحِي بِإِنْجِيلِ الْمَسِيحِ، لأَنَّهُ قُوَّةُ اللهِ لِلْخَلاَصِ لِكُلِّ مَنْ يُؤْمِنُ: لِلْيَهُودِيِّ أَوَّلًا ثُمَّ لِلْيُونَانِيِّ. لأَنْ فِيهِ مُعْلَنٌ بِرُّ اللهِ بِإِيمَانٍ، لإِيمَانٍ، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «أَمَّا الْبَارُّ فَبِالإِيمَانِ يَحْيَا»": يُعلن بولس عالمية دعوته عند وعده بالخلاص

---

[1] اللمع: للطوسي: ص: ١٤٤؛ والرسالة القشيرية: ١/١٠٧.

اليهودَ ثم اليونانيين؛ مع أن عيسى قال: «لَمْ أُرْسَلْ إلاَّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ»[1]. وسنرى فيما بعد، كيف سيُضطر بولس إلى إلغاء الشريعة، حتى يتمكن غير اليهود من الدخول في المسيحية.

ثم يقول بولس: "لأَنَّ غَضَبَ اللهِ مُعْلَنٌ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى جَمِيعِ فُجُورِ النَّاسِ وَإِثْمِهِمِ، الَّذِينَ يَحْجِزُونَ الْحَقَّ بِالإِثْمِ. إِذْ مَعْرِفَةُ اللهِ ظَاهِرَةٌ فِيهِمْ، لأَنَّ اللهَ أَظْهَرَهَا لَهُمْ، لأَنَّ أُمُورَهُ غَيْرَ الْمَنْظُورَةِ تُرَى مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ مُدْرَكَةً بِالْمَصْنُوعَاتِ، قُدْرَتَهُ السَّرْمَدِيَّةَ وَلاَهُوتَهُ، حَتَّى إِنَّهُمْ بِلاَ عُذْرٍ. لأَنَّهُمْ لَمَّا عَرَفُوا اللهَ لَمْ يُمَجِّدُوهُ أَوْ يَشْكُرُوهُ كَإِلهٍ، بَلْ حَمِقُوا فِي أَفْكَارِهِمْ، وَأَظْلَمَ قَلْبُهُمُ الْغَبِيُّ. وَبَيْنَمَا هُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ حُكَمَاءُ صَارُوا جُهَلاَءَ، وَأَبْدَلُوا مَجْدَ اللهِ الَّذِي لاَ يَفْنَى بِشِبْهِ صُورَةِ الإِنْسَانِ الَّذِي يَفْنَى، وَالطُّيُورِ، وَالدَّوَابِّ، وَالزَّحَّافَاتِ. لِذلِكَ أَسْلَمَهُمُ اللهُ أَيْضًا فِي شَهَوَاتِ قُلُوبِهِمْ إِلَى النَّجَاسَةِ، لإِهَانَةِ أَجْسَادِهِمْ بَيْنَ ذَوَاتِهِمِ. الَّذِينَ اسْتَبْدَلُوا حَقَّ اللهِ بِالْكَذِبِ، وَاتَّقَوْا وَعَبَدُوا الْمَخْلُوقَ دُونَ الْخَالِقِ، الَّذِي هُوَ مُبَارَكٌ إِلَى الأَبَدِ. آمِينَ. لِذلِكَ أَسْلَمَهُمُ اللهُ إِلَى أَهْوَاءِ الْهَوَانِ، لأَنَّ إِنَاثَهُمُ اسْتَبْدَلْنَ الاسْتِعْمَالَ الطَّبِيعِيَّ بِالَّذِي عَلَى خِلاَفِ الطَّبِيعَةِ، وَكَذلِكَ الذُّكُورُ أَيْضًا تَارِكِينَ اسْتِعْمَالَ الأُنْثَى الطَّبِيعِيَّ، اشْتَعَلُوا بِشَهْوَتِهِمْ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، فَاعِلِينَ الْفَحْشَاءَ ذُكُورًا بِذُكُورٍ، وَنَائِلِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ جَزَاءَ ضَلاَلِهِمِ الْمُحِقَّ. وَكَمَا لَمْ يَسْتَحْسِنُوا أَنْ يُبْقُوا اللهَ فِي مَعْرِفَتِهِمْ، أَسْلَمَهُمُ اللهُ إِلَى ذِهْنٍ مَرْفُوضٍ لِيَفْعَلُوا مَا لاَ يَلِيقُ. مَمْلُوئِينَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ وَزِنًا وَشَرّ وَطَمَعٍ وَخُبْثٍ، مَشْحُونِينَ حَسَدًا وَقَتْلًا وَخِصَامًا وَمَكْرًا وَسُوءًا، نَمَّامِينَ مُفْتَرِينَ، مُبْغِضِينَ للهِ، ثَالِبِينَ مُتَعَظِّمِينَ مُدَّعِينَ، مُبْتَدِعِينَ شُرُورًا، غَيْرَ طَائِعِينَ لِلْوَالِدَيْنِ، بِلاَ فَهْمٍ وَلاَ عَهْدٍ وَلاَ حُنُوٍّ وَلاَ رِضىً وَلاَ رَحْمَةٍ. الَّذِينَ إِذْ عَرَفُوا حُكْمَ اللهِ أَنَّ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ مِثْلَ هذِهِ يَسْتَوْجِبُونَ الْمَوْتَ، لاَ يَفْعَلُونَهَا فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا يُسَرُّونَ بِالَّذِينَ يَعْمَلُونَ.": وهذا الخطاب كما هو ظاهر، خطاب شرعي، يمكن لبولس أن يُخاطب به اليهود؛ ولكن كيف يُمكن له مخاطبة غيرهم به؟... إلا أن يخرج بخطابه من الخطاب الشرعي الذي يكون فيه أصحابه أتباعا لرسول من الرسل كموسى وعيسى عليهما السلام، إلى خطاب فلسفي يروم به تثبيت الأخلاق عن طريق العقل. هذا، إن لم يتخل عن القيم والأخلاق بصفة نهائية!... ولا شك أن بولس، سينتهج هذا النهج المخالف للشريعة، في دعوته؛ وإن طعّمه بعبارات إيمانية، مما اعتاد الناس سماعه من المسيح عليه السلام، أو من أحد أتباعه. ولقد سمعت بعض علماء النصارى يتكلمون عن "بولس"، ويبحثون مسألة اعتباره مؤسس اللاهوت المسيحي (ما يقابل علم الكلام عند المسلمين)؛ فوجدنا جُلّهم لا يعُدُّه كذلك، من دون أن يذكروا أنه مُنظّر لا "متكلم" لاهوتي. والتنظير، كما هو معلوم، يُنتج الأيديولوجيا لا الإيمان. ولقد كان حريا بالمسيحيين الأُول أن يُميّزوا بين الخطابيْن، لو أنهم كانوا على نور قوي، أو كانوا على دُربة بالفكر. وليس بولس وحده من خرج من الإيمان إلى الأيديولوجيا، لأن كل من يسلك طريق الفكر في تدعيم مساره الإيماني، عند عجزه عن فعل ذلك بالنور، يخرج بقدر ذلك إلى الأيديولوجيا. وقد وقع في ذلك مفكرو اليهود، ونخص الإصلاحيين منهم؛ ووقع في ذلك أيضا المسلمون بفرقتيْهم: أهل السنة والشيعة جميعا. والمفاضلة بين المتأدلجين من أهل الدين، تكون بالنظر إلى ما يغلب على عموم الخطاب: فإن غلب الإيمان نُسب أهله إلى الإيمان رغم الخلط الذي هم عليه، وإن غلب التنظير نُسبوا إلى الأيديولوجيا، وإن زعموا أنهم أهل إيمان. ونحن نرى أن بولس -بحسب ذلك- صاحب أيديولوجيا، لا صاحب إيمان. وبهذا تكون المسيحية المعلومة للمسيحيين من زمانه إلى اليوم، أيديولوجيا لا دينا. ولا يعني هذا الكلام أن الأيديولوجيا، تكون مؤسسة على فكر سليم دائما؛ بل قد تكون أيديولوجيا تلفيقية، كما هي النصرانية في عمومها. ولعلنا سنتبيّن مواطن التلفيق من كلام بولس نفسه، فيما سيأتي بإذن الله.

---

[1]. متى: ١٥: ٢٤.

ثم يقول بولس في الأصحاح الثاني من رسالته إلى أهل رومية: "لِذلِكَ أَنْتَ بِلاَ عُذْرٍ أَيُّهَا الإِنْسَانُ، كُلُّ مَنْ يَدِينُ. لأَنَّكَ فِي مَا تَدِينُ غَيْرَكَ تَحْكُمُ عَلَى نَفْسِكَ. لأَنَّكَ أَنْتَ الَّذِي تَدِينُ تَفْعَلُ تِلْكَ الأُمُورَ بِعَيْنِهَا! وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ دَيْنُونَةَ اللهِ هِيَ حَسَبُ الْحَقِّ عَلَى الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مِثْلَ هذِهِ. أَفَتَظُنُّ هذَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ الَّذِي تَدِينُ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مِثْلَ هذِهِ، وَأَنْتَ تَفْعَلُهَا، أَنَّكَ تَنْجُو مِنْ دَيْنُونَةِ اللهِ؟ أَمْ تَسْتَهِينُ بِغِنَى لُطْفِهِ وَإِمْهَالِهِ وَطُولِ أَنَاتِهِ، غَيْرَ عَالِمٍ أَنَّ لُطْفَ اللهِ إِنَّمَا يَقْتَادُكَ إِلَى التَّوْبَةِ؟ وَلكِنَّكَ مِنْ أَجْلِ قَسَاوَتِكَ وَقَلْبِكَ غَيْرِ التَّائِبِ، تَذْخَرُ لِنَفْسِكَ غَضَبًا فِي يَوْمِ الْغَضَبِ وَاسْتِعْلاَنِ دَيْنُونَةِ اللهِ الْعَادِلَةِ، الَّذِي سَيُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ حَسَبَ أَعْمَالِهِ.": يبدأ بولس كلامه هنا، بمقارنة منطقية، تجعل السامع يحاسب نفسه كما يُحاسب غيره؛ لأن حساب الله للجميع بعدله، ثابت. وهو عند تذكيره بمحاسبة الله، يعود إلى ركن إيماني أصيل، وهو الإيمان بالآخرة. ولو أن الأمر توقف عند هذا الحد، فإنه سيجعل الكلام موعظة دينية، يدعو فيها الواعظ الناس إلى العودة من المعاصي إلى الطاعات، كما يدعو غيره من الوُعاظ.

ثم يُضيف بولس: "أَمَّا الَّذِينَ بِصَبْرٍ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ يَطْلُبُونَ الْمَجْدَ وَالْكَرَامَةَ وَالْبَقَاءَ، فَبِالْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ. وَأَمَّا الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَهْلِ التَّحَزُّبِ، وَلاَ يُطَاوِعُونَ لِلْحَقِّ بَلْ يُطَاوِعُونَ لِلإِثْمِ، فَسَخَطٌ وَغَضَبٌ، شِدَّةٌ وَضِيقٌ، عَلَى كُلِّ نَفْسِ إِنْسَانٍ يَفْعَلُ الشَّرَّ: الْيَهُودِيِّ أَوَّلًا ثُمَّ الْيُونَانِيِّ. وَمَجْدٌ وَكَرَامَةٌ وَسَلاَمٌ لِكُلِّ مَنْ يَفْعَلُ الصَّلاَحَ: الْيَهُودِيِّ أَوَّلًا ثُمَّ الْيُونَانِيِّ. لأَنْ لَيْسَ عِنْدَ اللهِ مُحَابَاةٌ.": هذا كلام جيد في عمومه؛ لكنّ به إشكالا وهو: هل يُحاسب اليهود بالمعايير ذاتها التي يُحاسب بها اليونانيون؟ بحيث تكون الشريعة (الناموس) هي الميزان؟... نحن نجيب فيما يخصّنا بالإيجاب؛ ونُذكّر بقول الله تعالى: {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} [المائدة: ٦٨]. وقد يستغرب بعض الناس دعوة القرآن أهل الكتاب، إلى العمل بالتوراة والإنجيل؛ والحقيقة هي أن من أقام التوراة والإنجيل (أي عمل وفقهما)، فإنه لا بد أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ لكونه مكمّلا لهما. وإلى هذا المعنى، الإشارة بقول الله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: ١٥٧]. وأما بولس، فيبدو أن له رأيا آخر، وقبل حلول زمن التشريع المحمدي؛ بما سيجعل أتباعه، غير مؤهلين لقبول الرسالة المحمدية؛ في نقض سافر لما يزعمون أنهم عليه من هدي. نقول هذا، لأن لكل أمر مقدماته المنطقية، فيما سبقه من مراحل التاريخ؛ ولا يمكن أن يُنظر إليه مقتطعا، وكأنه وليد يومه!... ونحن الآن، سنمضي مع بولس إلى حيث يريد، من أجل تبيّن طريقه شيئا فشيئا...

ويضيف بولس: "لأَنَّ كُلَّ مَنْ أَخْطَأَ بِدُونِ النَّامُوسِ فَبِدُونِ النَّامُوسِ يَهْلِكُ. وَكُلُّ مَنْ أَخْطَأَ فِي النَّامُوسِ فَبِالنَّامُوسِ يُدَانُ. لأَنْ لَيْسَ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ النَّامُوسَ هُمْ أَبْرَارٌ عِنْدَ اللهِ، بَلِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِالنَّامُوسِ هُمْ يُبَرَّرُونَ.": وهذا كلام جيد جدا، وهو القول الفصل في هذه المسألة. لكن مع ذلك، وجب التحذير من معنى قوله: "لأَنَّ كُلَّ مَنْ أَخْطَأَ بِدُونِ النَّامُوسِ فَبِدُونِ النَّامُوسِ يَهْلِكُ"؛ لأن الميزان يوم القيامة هو الشريعة. وجعله هلاك من لا شريعة لهم بغير الشريعة، لا بد أن ينقل الوزن من الشريعة إلى سواها؟... فهل هو يقول بحلول العقل محل الشريعة؟... وهل العقل هنا، بمعنى الفطرة؟ أم بمعنى العقل الكسبي؟... ثم أنّى له أن يحكم على الأقوام الأخرى، بأنها على غير شريعة؟ والله سبحانه يقول: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ} [النحل: ٣٦]. ونحن نميل إلى القول ببعث رسول إلى كل أمة من الأمم، وإن لم تبق آثار كل الرسالات في تلك الأمم بعد وفاة رسلهم عليهم السلام. وقد تبقى بعض الآثار، لكن مقطوعة عن أصلها، كما يبدو من أحوال الأمم الآسيوية، أو الأمم الأوروبية؛ خصوصا منهم قدماء اليونان...

ثم يضيف بولس: "لأَنَّهُ الأُمَمُ الَّذِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمُ النَّامُوسُ، مَتَى فَعَلُوا بِالطَّبِيعَةِ مَا هُوَ فِي النَّامُوسِ، فَهؤُلاَءِ إِذْ لَيْسَ لَهُمُ النَّامُوسُ هُمْ نَامُوسٌ لأَنْفُسِهِمِ، الَّذِينَ يُظْهِرُونَ عَمَلَ النَّامُوسِ مَكْتُوبًا فِي قُلُوبِهِمْ، شَاهِدًا أَيْضًا ضَمِيرُهُمْ وَأَفْكَارُهُمْ فِيمَا بَيْنَهَا مُشْتَكِيَةً أَوْ مُحْتَجَّةً، فِي الْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ يَدِينُ اللهُ سَرَائِرَ النَّاسِ حَسَبَ إِنْجِيلِي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ.": أما هذا الكلام، فهو تنظير خطير، يُساوي فيه بولس بين من يكونون على شريعة إلهية، ومن يكونون على فلسفة أو أيديولوجيا. وهذا باطل جملة وتفصيلا؛ ولا استثناء فيه، إلا ما يكون من أهل الفترة الذين يعيشون في زمن بين رسالتيْن، من دون أن يُدركوا السابقة أو تُدركَهم اللاحقة؛ ويكونون مع ذلك على حال الفطرة، الذي يُبقيهم على الإسلام البدهي. وحيث إن بولس لم يُميّز بين هؤلاء، ومن يكونون في زمن الرسل من الأمم الأخرى، فإنه يكون خالطا خلطا خطيرا. والأصل في هذه المسألة أن الله يبعث إلى كل أمة من يهديها من الرسل منها لا من غيرها؛ كما دلت عليه الآية السابقة، من سورة النحل. ومعنى الآية أن الهداية محصورة في اتباع الرسل، وأن الضلالة منوطة بمخالفتهم عليهم السلام. وإن كان بولس لا يعلم من الشرائع إلا شريعة موسى التي أقرها عيسى، فليس له أن يحكّمها في قوم غير بني إسرائيل؛ ولا أن يدعو إليها الأمم الأخرى وهي مخصوصة ببني إسرائيل. وإن كانت الشرائع الأخرى لم تبلغ إلى علمنا من الأمم الأخرى، لطول عهد أو لغيره من الأسباب، فليس لنا أن نتجاوزها في حسابنا، والله معتبرٌ لها في محاسبة الأمم. وهذا الكلام يصدق على كل الشرائع السابقة، إلا على الشريعة المحمدية الخاتمة والجامعة. وقد ذكرنا فيما قبل بعض خصائص هذه الشريعة، فلا داعي إلى تكرار الكلام هنا.

ثم يُضيف بولس: "هُوَذَا أَنْتَ تُسَمَّى يَهُودِيًّا، وَتَتَّكِلُ عَلَى النَّامُوسِ، وَتَفْتَخِرُ بِاللهِ، وَتَعْرِفُ مَشِيئَتَهُ، وَتُمَيِّزُ الأُمُورَ الْمُتَخَالِفَةَ، مُتَعَلِّمًا مِنَ النَّامُوسِ. وَتَثِقُ أَنَّكَ قَائِدٌ لِلْعُمْيَانِ، وَنُورٌ لِلَّذِينَ فِي الظُّلْمَةِ، وَمُهَذِّبٌ لِلأَغْبِيَاءِ، وَمُعَلِّمٌ لِلأَطْفَالِ، وَلَكَ صُورَةُ الْعِلْمِ وَالْحَقِّ فِي النَّامُوسِ. فَأَنْتَ إِذًا الَّذِي تُعَلِّمُ غَيْرَكَ، أَلَسْتَ تُعَلِّمُ نَفْسَكَ؟ الَّذِي تَكْرِزُ: أَنْ لاَ يُسْرَقَ، أَتَسْرِقُ؟ الَّذِي تَقُولُ: أَنْ لاَ يُزْنَى، أَتَزْنِي؟ الَّذِي تَسْتَكْرِهُ الأَوْثَانَ، أَتَسْرِقُ الْهَيَاكِلَ؟ الَّذِي تَفْتَخِرُ بِالنَّامُوسِ، أَبِتَعَدِّي النَّامُوسِ تُهِينُ اللهَ؟ لأَنَّ اسْمَ اللهِ يُجَدَّفُ عَلَيْهِ بِسَبَبِكُمْ بَيْنَ الأُمَمِ، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ. فَإِنَّ الْخِتَانَ يَنْفَعُ إِنْ عَمِلْتَ بِالنَّامُوسِ. وَلكِنْ إِنْ كُنْتَ مُتَعَدِّيًا النَّامُوسَ، فَقَدْ صَارَ خِتَانُكَ غُرْلَةً! إِذًا إِنْ كَانَ الأَغْرَلُ يَحْفَظُ أَحْكَامَ النَّامُوسِ، أَفَمَا تُحْسَبُ غُرْلَتُهُ خِتَانًا؟ وَتَكُونُ الْغُرْلَةُ الَّتِي مِنَ الطَّبِيعَةِ، وَهِيَ تُكَمِّلُ النَّامُوسَ، تَدِينُكَ أَنْتَ الَّذِي فِي الْكِتَابِ وَالْخِتَانِ تَتَعَدَّى النَّامُوسَ؟ لأَنَّ الْيَهُودِيَّ فِي الظَّاهِرِ لَيْسَ هُوَ يَهُودِيًّا، وَلاَ الْخِتَانُ الَّذِي فِي الظَّاهِرِ فِي اللَّحْمِ خِتَانًا، بَلِ الْيَهُودِيُّ فِي الْخَفَاءِ هُوَ الْيَهُودِيُّ، وَخِتَانُ الْقَلْبِ بِالرُّوحِ لاَ بِالْكِتَابِ هُوَ الْخِتَانُ، الَّذِي مَدْحُهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ بَلْ مِنَ اللهِ.": أراد بولس في هذا الكلام، أن ينتهج نهج عيسى عليه السلام، في دلالته على المعاني وعلى روح التشريع؛ لكنه وقع في السفسطة، لأنه ظن أن كلام عيسى هو ضرب منها، وهو من التلاعب بالألفاظ، وحاشاه عليه السلام. أما هو فقد هدم الشريعة مرة واحدة، عند تفضيله "الأميّ"[1] الذي لا يسرق -مثلا- على اليهودي الذي يسرق؛ بينما الأصل في الاعتبار هو الكون على شريعة إلهية أم عدمه!... ونعني من هذا، أن اليهودي السارق في زمن الرسالة الموسوية (قبل البعثة العيسوية) هو مؤمن عاص؛ بينما الأمي الذي ليس على شريعة، ولا هو من أهل الفترة، فإنه يُعدّ كافرا. والمؤمن العاصي قد يؤاخذه الله بمعصيته وقد يغفرها له؛ وفي النهاية قد يدخل النار ليتخلّص فيها من أثر ذنوبه، ثم يخرج منها؛ وقد لا يدخل. وفي الحاليْن، فإن المؤمن لا يخلُد في النار، لكونها ليست داره؛ بعكس الكافر المخالف للشريعة.

---

[1]. الأمي: نسبة إلى الأمة؛ وهو أفصح من "الأممي" الذي يستعمله الكتابيون.

ثم يقول بولس في الأصحاح الثالث من رسالته إلى أهل رومية: "إِذًا مَا هُوَ فَضْلُ الْيَهُودِيِّ، أَوْ مَا هُوَ نَفْعُ الْخِتَانِ؟ كَثِيرٌ عَلَى كُلِّ وَجْهٍ! أَمَّا أَوَّلًا فَلأَنَّهُمُ اسْتُؤْمِنُوا عَلَى أَقْوَالِ اللهِ. فَمَاذَا إِنْ كَانَ قَوْمٌ لَمْ يَكُونُوا أُمَنَاءَ؟ أَفَلَعَلَّ عَدَمَ أَمَانَتِهِمْ يُبْطِلُ أَمَانَةَ اللهِ؟ حَاشَا! بَلْ لِيَكُنِ اللهُ صَادِقًا وَكُلُّ إِنْسَانٍ كَاذِبًا. كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «لِكَيْ تَتَبَرَّرَ فِي كَلاَمِكَ، وَتَغْلِبَ مَتَى حُوكِمْتَ».": يريد بولس مرة أخرى أن يكون منطقيا، ولكنه يخرج إلى السفسطة ثانية. والسبب هو أنه لا يعلم أن للإيمان نسقه الخاص؛ بل منطقه الخاص أيضا. ولقد انتهى إلى النتيجة الخاطئة ذاتها، عند تفضيله الكافر غير المرتكب لصورة الذنب، على المؤمن المرتكب لها. ونحن هنا نفرق بين الذنب وصورته، بسبب كون المغفرة الإلهية ماحية لأثر الذنب وإن ظهرت صورته سابقا في الواقع. ولقد كان هذا الفكر المعوج الذي يروج له بولس، موجودا في كل زمان، حتى في زماننا؛ عندما نجد الملاحدة يقارنون بين العقلانيين المتنزهين عن الآثام، ويُفضلونهم على المؤمنين المقارفين لها. وهذا -كما سبق أن بيّنّا- لا يستقيم!... وعلى الناس أن يعلموا أن الدين منظومة قائمة بذاتها (مستقلة)، الله هو من وضع قوانينها وجعل منطقها؛ وإن من لا يعلم ذلك من داخله وبالتجربة (الذوق عند الصوفية)، لا يمكنه أن يتصوره من خارجه. وهذا الذي نقوله، هو ما يجعل المفكرين غير قادرين على استكناه الدين؛ بل ويجعل الفقهاء المترسمين، لا يعلمون منه إلا بعض ظاهره. وأما من أراد أن يعرف الدين كله، وبجميع مراتبه، فعليه أن يسلك طريق التزكية الشرعية على يد إمام رباني كامل؛ حتى يُشاهد ذلك عيانا، ويخرج بمشاهدته عن تصوراته الذهنية المخالفة. وكل من يريد أن يسلك سبيلا غير التزكية، كالتفلسف الغالب على المتأخرين، فإنه يكون طالبا للمحال!... وهذا الذي نذكره سبب من أسباب ضلال بولس؛ ونعني أنه لم تحصل له التزكية بالشريعة وبالهدي العيسوي، ليبلغ ذروة الإيمان؛ حتى يكون كلامه بعد ذلك كلاما عن ذوق، لا عن تصور من خارج؛ كما هو شأنه في كلامه هذا، في رسالته هاته.

ثم يواصل بولس: "وَلكِنْ إِنْ كَانَ إِثْمُنَا يُبَيِّنُ بِرَّ اللهِ، فَمَاذَا نَقُولُ؟ أَلَعَلَّ اللهَ الَّذِي يَجْلِبُ الْغَضَبَ ظَالِمٌ؟ أَتَكَلَّمُ بِحَسَبِ الإِنْسَانِ. حَاشَا! فَكَيْفَ يَدِينُ اللهُ الْعَالَمَ إِذْ ذَاكَ؟ فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ صِدْقُ اللهِ قَدِ ازْدَادَ بِكَذِبِي لِمَجْدِهِ، فَلِمَاذَا أُدَانُ أَنَا بَعْدُ كَخَاطِئٍ؟": يقارب بولس هنا مسألة القدر، من دون أن يجرؤ على الإفصاح عنها. ولو أنه كان من أهل الإيمان المُفصّل، لكان على بعض إلمام بها؛ ولكنه ليس على إيمان. ولن نعرض نحن لهذه المسألة هنا، لأننا لسنا ملزمين منهجيا بذلك؛ ونعني أننا سنرجئ الكلام عنها إلى محلّها. وكل ما يُظهر بولس أنه يستنتجه من طريق فكري سليم، لا يعدو أن يكون سفسطة مُغرِقة. ولعله سيُبين فيما يأتي من كلامه عن فحوى رأيه...

ثم يواصل: "أَمَا كَمَا يُفْتَرَى عَلَيْنَا، وَكَمَا يَزْعُمُ قَوْمٌ أَنَّنَا نَقُولُ: «لِنَفْعَلِ السَّيِّآتِ لِكَيْ تَأْتِيَ الْخَيْرَاتُ»؟ الَّذِينَ دَيْنُونَتُهُمْ عَادِلَةٌ. فَمَاذَا إِذًا؟ أَنَحْنُ أَفْضَلُ؟ كَلاَّ الْبَتَّةَ! لأَنَّنَا قَدْ شَكَوْنَا أَنَّ الْيَهُودَ وَالْيُونَانِيِّينَ أَجْمَعِينَ تَحْتَ الْخَطِيَّةِ.": المقارنة بين اليهود الكتابيين واليونانيين الوثنيين، لا تصح في المنطق الإيماني. لكن بولس لا يعلم هذا، ولا يعلم أن الشيطان قد أضله عندما أخرجه إلى القياس، مع غياب وجه القياس في المقيس والمقيس عليه. وهو إن كان تلفيقه قد انطلى، على أغلب تلاميذ المسيح، بسبب ضعف نورهم وضعف عقولهم، فإنه لا يتمكن من إمرار هذه المغالطات على من له مُكنة في الدين وفي العقل. وإن تسويته بين المتشرعين وغير المتشرعين في الخطيئة، تشي بأنه يُمهد للتنظير بنبذ الشريعة. وذلك لأنها ستبدو في عين الناظر المقتنع بطرحه، زائدة وفاقدة لخصيصة الترجيح التي كانت لها في أصل وضعها.

ثم يضيف بولس: "كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «أَنَّهُ لَيْسَ بَارٌّ وَلاَ وَاحِدٌ. لَيْسَ مَنْ يَفْهَمُ. لَيْسَ مَنْ يَطْلُبُ اللهَ. الْجَمِيعُ زَاغُوا وَفَسَدُوا مَعًا. لَيْسَ مَنْ يَعْمَلُ صَلاَحًا لَيْسَ وَلاَ وَاحِدٌ. حَنْجَرَتُهُمْ قَبْرٌ مَفْتُوحٌ. بِأَلْسِنَتِهِمْ قَدْ مَكَرُوا. سِمُّ الأَصْلاَلِ تَحْتَ شِفَاهِهِمْ. وَفَمُهُمْ مَمْلُوءٌ لَعْنَةً وَمَرَارَةً. أَرْجُلُهُمْ سَرِيعَةٌ إِلَى سَفْكِ الدَّمِ. فِي طُرُقِهِمِ اغْتِصَابٌ وَسُحْقٌ. وَطَرِيقُ السَّلاَمِ لَمْ يَعْرِفُوهُ. لَيْسَ خَوْفُ اللهِ قُدَّامَ عُيُونِهِمْ».": يقصد بولس بالمكتوب: سفر المزامير (الأصحاح الرابع عشر). لكن لا يخفى أن هذا

التعميم في الحكم، لا يخلو من مبالغة. ولعل مُخاطَبيه وقتها (ولو في ذهنه)، كانوا من هذه العيّنة الساقطة. ولكن ذلك لا يمنحه الحق في التسوية بين أهل الشريعة وغيرهم من الوثنيين؛ كما ذكرنا مرارا. وإن تكرار بولس لهذا المعنى، بألفاظ مختلفة، وفي فقرات مختلفة، يؤكد ما ذكرناه آنفا، من أنه يُمهد لنتيجة، يريدها أن تبدو في عين الناظر حتمية...

ثم يضيف بولس: "وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا يَقُولُهُ النَّامُوسُ فَهُوَ يُكَلِّمُ بِهِ الَّذِينَ فِي النَّامُوسِ، لِكَيْ يَسْتَدَّ كُلُّ فَمٍ، وَيَصِيرَ كُلُّ الْعَالَمِ تَحْتَ قِصَاصٍ مِنَ اللهِ. لأَنَّهُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ كُلُّ ذِي جَسَدٍ لاَ يَتَبَرَّرُ أَمَامَهُ. لأَنَّ بِالنَّامُوسِ مَعْرِفَةَ الْخَطِيَّةِ.": يريد بولس هنا أن يبيّن قيمة الشريعة، وأنها الحجة على العباد. ولو أنه اكتفى بذلك، لوافقناه وانتهى الأمر؛ ولكنه يُلمّح تلميحا غير مقبول، إلى كون الخطيئة (المعصية) التي تنتهي في أعلى درجاتها إلى الكفر؛ لا تُعرف إلا بالشريعة (الناموس)؛ وكأنه يُريد بالمعرفة الثبوت. وهو يعني بقوله، أن المعصية تثبت وتنتفي بثبوت الشريعة وبانتفائها؛ مما يجعل الساعي في خلاص نفسه، ينفر من الشريعة، ويختار الطريق الآخر، وكأن هناك طريقا آخر!... والحقيقة هي أن بولس، بدأ يُفصح عن كفره؛ بل وبدأ يؤسس لدعوته إلى الكفر!...

ثم يضيف: "وَأَمَّا الآنَ فَقَدْ ظَهَرَ بِرُّ اللهِ بِدُونِ النَّامُوسِ، مَشْهُودًا لَهُ مِنَ النَّامُوسِ وَالأَنْبِيَاءِ، بِرُّ اللهِ بِالإِيمَانِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، إِلَى كُلِّ وَعَلَى كُلِّ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ. لأَنَّهُ لاَ فَرْقَ.": وها قد أفصح بولس في النهاية عن كفره، بما لا يدع مجالا للشك في عباراته. وهذا افتراء منه، وتجنّ على المسيحية؛ ومزايدة على الرسل (التلاميذ)، الذين يُفترض أنهم متبعون لوصايا عيسى عليه السلام. وذلك، لأنه لم يثبت عن عيسى أنه ألغى الشريعة؛ بل لقد كان يحض عليها ويهدي إلى الصدق في العمل بها. وأما بولس عند جعله الإيمان بالمسيح وحده، يقوم مقام الناموس، فإنه يكون خالطا بين الإيمان والعمل في المعنى. والإيمان وإن كان مخالفا للعمل في نفسه، فإنه لا يستقيم إلا به؛ وهذه مسألة قد أشبعها المسلمون بحثا. ولو أن الإيمان كان يُغني عن العمل، لما قرنه الله به في مثل قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [يونس: ٩]. ومعنى يهديهم ربهم بإيمانهم هنا، هو أن الإيمان من دون أعمال شرعية، لا يكون أبدا من الهداية، بل من الضلال. ولقد حصرنا الأعمال في المشروع منها، لئلا يُتحلَّل من الشريعة، بدعوى الإتيان بالبر العقلي، كما وقع في ذلك بولس، ولو من وجه ما. وكيف يستقيم هذا القول من بولس، وهو قبل قليل، كان يشهد بأن الناموس حجة الله على عباده!... فهل أنزل الله بعد عيسى مباشرة من الوحي، ما يجعل المستمعين لقول بولس يعتبرونه؟!... أم إن بولس يتكلم عن وحي شيطاني، لا يكتفي بهدم الهدي العيسويّ وحده، ويتعداه إلى هدم الدين كله من آدم إلى عيسى؟!... ثم إن من سينحرف هذا الانحراف الخطير، كيف يُنتظر منه أن يكون على استعداد للإيمان بالشريعة الخاتمة عند حلول زمانها؟!... ونعني من هذا، أنه من المحال، أن تكون حقبة شرعية ما، قاطعة عن الحقبة الشرعية التي تليها؛ إلا إن وقع الانحراف التام عن الشريعة الأولى، مما يجعل عدم قبول الشريعة الثانية فرعا عن الكفر الأول فحسب.

ثم يقول بولس: "إِذِ الْجَمِيعُ أَخْطَأُوا وَأَعْوَزَهُمْ مَجْدُ اللهِ.": لعل بولس هنا يؤسس لأيديولوجيته في الخطيئة الأصلية، التي يجعل بموجبها جميع البشر خُطاة. وهو إن كان يشير إلى المخطئ الأصلي، الذي هو آدم عليه السلام، فإنه مخطئ؛ لأن معصية آدم وإن كانت السبب المباشر في نزوله وزوجه إلى الأرض، فإن حكمها لم يستمر معه بعد توبته. يقول الله تعالى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: ٣٧]. وإن كانت المعصية لم تثبت لآدم بعد التوبة، فكيف تثبت لأبنائه وراثة؟ وهو ما يؤكده الله سبحانه في قوله: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام: ١٦٤]. وعلى هذا، فإن كل مولود من الإنس والجن، يولد طاهرا، على الفطرة؛ وإنما يقع له الإضلال بالتربية التي يتلقاها في البيت ومن المجتمع؛ كما أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: «كُلُّ إِنْسَانٍ تَلِدُهُ أُمُّهُ عَلَى الْفِطْرَةِ؛ وَأَبَوَاهُ بَعْدُ يُهَوِّدَانِهِ،

وَيُنَصِّرَانِهِ، وَيُمَجِّسَانِهِ. فَإِنْ كَانَا مُسْلِمَيْنِ، فَمُسْلِمٌ. كُلُّ إِنْسَانٍ تَلِدُهُ أُمُّهُ يَلْكُزُهُ الشَّيْطَانُ فِي حِضْنَيْهِ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا.»[1]. ولا يُعدّ العبد عاصيا في الشرع، إلا بعد البلوغ، وعند وقوع الخطاب التكليفي عليه. وبما أن بولس قد أسس لضلالة هنا، فإنه لا بد من أن يجد لها ضلالات أخرى تتبعها وتؤيّدها.

فيقول: "مُتَبَرِّرِينَ مَجَّانًا بِنِعْمَتِهِ بِالْفِدَاءِ الَّذِي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي قَدَّمَهُ اللهُ كَفَّارَةً بِالإِيمَانِ بِدَمِهِ، لإِظْهَارِ بِرِّهِ، مِنْ أَجْلِ الصَّفْحِ عَنِ الْخَطَايَا السَّالِفَةِ بِإِمْهَالِ اللهِ. لإِظْهَارِ بِرِّهِ فِي الزَّمَانِ الْحَاضِرِ، لِيَكُونَ بَارًّا وَيُبَرِّرَ مَنْ هُوَ مِنَ الإِيمَانِ بِيَسُوعَ.": يقصد بولس أن عيسى عندما مات على الصليب (وهو لم يمت)، قد فدى جميع العُصاة؛ سواء من حيث المعصية الآدمية الأصلية المزعومة، أم من حيث المعاصي الفردية. وهذه فرية لا أساس لها من الوحي، أو من كلام عيسى؛ إلا ما كان من كلام الرسل (التلاميذ)، عند انتهاجهم نهج بولس نفسه. ولعل هذه الفرية قد صادفت هوى في النفوس الدّنِسة، لأنها ستعزم بعدها على ارتكاب جميع شهواتها، وتعتقد مع ذلك أنها مغفورة لها بفداء المسيح عليه السلام. وهذا، وإن كان تنظيرا، فإنه من الطراز السمج، الذي تأباه العقول السليمة؛ بسبب التكلّف الواضح من جهة، ولغياب الصلة بين السبب والمُسبَّب. ولسنا نعني إلا أن الله أبى أن يؤخذ عبد من العباد بجريرة عبد آخر لعدله سبحانه؛ فكيف يجعل أحد أحبائه ومقربيه من المرسلين، يدفع ثمن معاصي أمة بأسرها!... وحيث إن بولس وأمثاله، كانوا يُريدون إبراز مكانة عيسى عند الله، فإنه كان يجدر بهم أن يقولوا (جدلا لا افتئاتا) إن الله بمحبته لعيسى قد غفر لكل مؤمن به؛ نعوذ بالله من التألي عليه سبحانه. فهذا أليق بكرم الله، وأليق بمكانة عيسى عنده!... ولكن القول بالفداء، يدل على أن العقول القائلة قاصرة عن إدراك المعاني الإيمانية، وهي أقرب إلى العقول المعاشية التي لا تعقل إلا المساومة والمقايضة في المبادلات. ثم إن تنظير بولس هذا، قد قضى قضاء مبرما على معنى التكليف، الذي هو أساس الدين من أوله إلى آخره؛ من آدم عليه السلام إلى قيام الساعة. وغياب معنى التكليف، يجعل التمييز بين مرتبتَيْ الربوبية والعبودية غير ممكن، إلا من جهة القدر. ولسنا نعني من كلامنا هذا، إلا المعنى الذي يذكره الله في قوله تعالى: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: ٢٣]. فإن صار العباد لا يُسألون بزعمهم، فقد خرجوا عن العبودية من جهة التكليف؛ وهذا كما نبهنا، لا يستقيم وحيا وواقعا. ونقصد بالواقع، ما يكون من جزاء الأعمال في الدنيا والآخرة. ولولا أن الكلام يطول، لفصلنا القول في هذا المعنى. ونرجو أن يكون القارئ قادرا على تبيّن بعض أوجه الجزاء في الدنيا خصوصا، ما دام الجزاء الأخروي معلوما بالضرورة.

ثم يقول بولس: "فَأَيْنَ الافْتِخَارُ؟ قَدِ انْتَفَى. بِأَيِّ نَامُوسٍ؟ أَبِنَامُوسِ الأَعْمَالِ؟ كَلاَّ. بَلْ بِنَامُوسِ الإِيمَانِ.": وهذا من بولس مصادرة على المطلوب؛ لأنه يتكلم وكأن الفداء قد ثبت، أو كأن الناس قد عاينوا فوزهم (خلاصهم) بسبب الإيمان وحده، كما يزعم هو؛ لا بسبب العمل بالشريعة. ونحن لا نَفْصل بين الإيمان والعمل بالشريعة، بل نراهما متكاملَيْن؛ وإنما نقول ما نقول من باب الجدل فحسب. وأما التواضع الذي يدعو إليه بولس هنا، فباطل؛ لأنه مؤسس على هدم الشريعة. وما لم يؤسس على الشريعة من أحوال، فلا يُعتبر عند الله، في باب الفوز والنجاة.

ويقول بولس أيضا: "إِذًا نَحْسِبُ أَنَّ الإِنْسَانَ يَتَبَرَّرُ بِالإِيمَانِ بِدُونِ أَعْمَالِ النَّامُوسِ. أَمِ اللهُ لِلْيَهُودِ فَقَطْ؟ أَلَيْسَ لِلأُمَمِ أَيْضًا؟ بَلَى، لِلأُمَمِ أَيْضًا. لأَنَّ اللهَ وَاحِدٌ، هُوَ الَّذِي سَيُبَرِّرُ الْخِتَانَ بِالإِيمَانِ وَالْغُرْلَةَ بِالإِيمَانِ. أَفَنُبْطِلُ النَّامُوسَ بِالإِيمَانِ؟ حَاشَا! بَلْ نُثَبِّتُ النَّامُوسَ.": إن كلام بولس أن الله لجميع عباده جيد؛ وهو مخالف لاعتقاد اليهود الشائع؛ ولكنه يُتبعه بمغالطة. وذلك لأنه يُثبت ما ينفي عينه، ويريد من السامع أن يقبل منه. ولقد سبق أن ذكرنا أن المقابلة بين اليهود والأميين، بغرض نفي مرتبة الشريعة، لا تصح.

---

[1]. متفق عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم يقول بولس في الأصحاح الرابع من رسالته إلى أهل رومية: "فَمَاذَا نَقُولُ إِنَّ أَبَانَا إِبْرَاهِيمَ قَدْ وَجَدَ حَسَبَ الْجَسَدِ؟ لأَنَّهُ إِنْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ قَدْ تَبَرَّرَ بِالأَعْمَالِ فَلَهُ فَخْرٌ، وَلكِنْ لَيْسَ لَدَى اللهِ. لأَنَّهُ مَاذَا يَقُولُ الْكِتَابُ؟ «فَآمَنَ إِبْرَاهِيمُ بِاللهِ فَحُسِبَ لَهُ بِرًّا». أَمَّا الَّذِي يَعْمَلُ فَلاَ تُحْسَبُ لَهُ الأُجْرَةُ عَلَى سَبِيلِ نِعْمَةٍ، بَلْ عَلَى سَبِيلِ دَيْنٍ. وَأَمَّا الَّذِي لاَ يَعْمَلُ، وَلكِنْ يُؤْمِنُ بِالَّذِي يُبَرِّرُ الْفَاجِرَ، فَإِيمَانُهُ يُحْسَبُ لَهُ بِرًّا. كَمَا يَقُولُ دَاوُدُ أَيْضًا فِي تَطْوِيبِ الإِنْسَانِ الَّذِي يَحْسِبُ لَهُ اللهُ بِرًّا بِدُونِ أَعْمَال: «طُوبَى لِلَّذِينَ غُفِرَتْ آثَامُهُمْ وَسُتِرَتْ خَطَايَاهُمْ. طُوبَى لِلرَّجُلِ الَّذِي لاَ يَحْسِبُ لَهُ الرَّبُّ خَطِيَّةً». أَفَهذَا التَّطْوِيبُ هُوَ عَلَى الْخِتَانِ فَقَطْ أَمْ عَلَى الْغُرْلَةِ أَيْضًا؟ لأَنَّنَا نَقُولُ: إِنَّهُ حُسِبَ لإِبْرَاهِيمَ الإِيمَانُ بِرًّا. فَكَيْفَ حُسِبَ؟ أَوَهُوَ فِي الْخِتَانِ أَمْ فِي الْغُرْلَةِ؟ لَيْسَ فِي الْخِتَانِ، بَلْ فِي الْغُرْلَةِ! وَأَخَذَ عَلاَمَةَ الْخِتَانِ خَتْمًا لِبِرِّ الإِيمَانِ الَّذِي كَانَ فِي الْغُرْلَةِ، لِيَكُونَ أَبًا لِجَمِيعِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ وَهُمْ فِي الْغُرْلَةِ، كَيْ يُحْسَبَ لَهُمْ أَيْضًا الْبِرُّ. وَأَبًا لِلْخِتَانِ لِلَّذِينَ لَيْسُوا مِنَ الْخِتَانِ فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا يَسْلُكُونَ فِي خُطُوَاتِ إِيمَانِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي كَانَ وَهُوَ فِي الْغُرْلَةِ. فَإِنَّهُ لَيْسَ بِالنَّامُوسِ كَانَ الْوَعْدُ لإِبْرَاهِيمَ أَوْ لِنَسْلِهِ أَنْ يَكُونَ وَارِثًا لِلْعَالَمِ، بَلْ بِبِرِّ الإِيمَانِ. لأَنَّهُ إِنْ كَانَ الَّذِينَ مِنَ النَّامُوسِ هُمْ وَرَثَةً، فَقَدْ تَعَطَّلَ الإِيمَانُ وَبَطَلَ الْوَعْدُ: لأَنَّ النَّامُوسَ يُنْشِئُ غَضَبًا، إِذْ حَيْثُ لَيْسَ نَامُوسٌ لَيْسَ أَيْضًا تَعَدٍّ. لِهذَا هُوَ مِنَ الإِيمَانِ، كَيْ يَكُونَ عَلَى سَبِيلِ النِّعْمَةِ، لِيَكُونَ الْوَعْدُ وَطِيدًا لِجَمِيعِ النَّسْلِ. لَيْسَ لِمَنْ هُوَ مِنَ النَّامُوسِ فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا لِمَنْ هُوَ مِنْ إِيمَانِ إِبْرَاهِيمَ، الَّذِي هُوَ أَبٌ لِجَمِيعِنَا. كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «إِنِّي قَدْ جَعَلْتُكَ أَبًا لأُمَمٍ كَثِيرَةٍ». أَمَامَ اللهِ الَّذِي آمَنَ بِهِ، الَّذِي يُحْيِي الْمَوْتَى، وَيَدْعُو الأَشْيَاءَ غَيْرَ الْمَوْجُودَةِ كَأَنَّهَا مَوْجُودَةٌ. فَهُوَ عَلَى خِلاَفِ الرَّجَاءِ، آمَنَ عَلَى الرَّجَاءِ، لِكَيْ يَصِيرَ أَبًا لأُمَمٍ كَثِيرَةٍ، كَمَا قِيلَ: «هكَذَا يَكُونُ نَسْلُكَ». وَإِذْ لَمْ يَكُنْ ضَعِيفًا فِي الإِيمَانِ لَمْ يَعْتَبِرْ جَسَدَهُ وَهُوَ قَدْ صَارَ مُمَاتًا، إِذْ كَانَ ابْنَ نَحْوِ مِئَةِ سَنَةٍ وَلاَ مُمَاتِيَّةَ مُسْتَوْدَعِ سَارَةَ. وَلاَ بِعَدَمِ إِيمَانٍ ارْتَابَ فِي وَعْدِ اللهِ، بَلْ تَقَوَّى بِالإِيمَانِ مُعْطِيًا مَجْدًا للهِ. وَتَيَقَّنَ أَنَّ مَا وَعَدَ بِهِ هُوَ قَادِرٌ أَنْ يَفْعَلَهُ أَيْضًا. لِذلِكَ أَيْضًا: حُسِبَ لَهُ بِرًّا». وَلكِنْ لَمْ يُكْتَبْ مِنْ أَجْلِهِ وَحْدَهُ أَنَّهُ حُسِبَ لَهُ، بَلْ مِنْ أَجْلِنَا نَحْنُ أَيْضًا، الَّذِينَ سَيُحْسَبُ لَنَا، الَّذِينَ نُؤْمِنُ بِمَنْ أَقَامَ يَسُوعَ رَبَّنَا مِنَ الأَمْوَاتِ. الَّذِي أُسْلِمَ مِنْ أَجْلِ خَطَايَانَا وَأُقِيمَ لأَجْلِ تَبْرِيرِنَا.": ونحن لا يمكننا أن نصف هذا الكلام إلا بأنه هذيان!... فلا رابط يربط معانيه، ولا منطق ينتظم مقدماته ويزفها إلى ما خلص إليه المتكلم من استنتاجات!... ولن نكلّف نفسنا نحن الرد على هذه الترهات بتفاصيلها، وسنكتفي بتبيين ما يغيب عن ذهن الرجل، وقد كان عليه أن يُلم به قبل الكلام:

١. إن بولس لا يعرف مرتبة الأنبياء عليهم السلام؛ ويتوهم أنهم على مثل ما هو عليه، وأنهم مكلفون بمثل ما هو مكلّف به؛ وهيهات!... ولقد سبق أن نبهنا كثيرا إلى مسألة المراتب، وقلنا إن اعتبارها يحل إشكالات كثيرة في العلم. وحتى يميّز القارئ ما نرمي إليه، فليعلم أن الدين ثلاث مراتب هي: الإسلام، والإيمان، والإحسان. وقلنا أيضا مرارا: إن اليهود تغلب عليهم مرتبة الإسلام، والمسيحيون تغلب عليهم مرتبة الإيمان. وأما الإحسان، فلا يكاد يعلمه إلا الخواص من أمة المسلمين. هذا كله بالنظر إلى الأتباع؛ أما بالنظر إلى الأنبياء، فهم فوق هذا كله، لأن مرتبتهم مرتبة مواجهة لا توجه. والورثة من أمتنا أيضا على هذه الصفة، لكن لا بالأصالة. وإذا نزل الأنبياء أو الورثة إلى مراتب الدين، فلأجل تعليم التابعين من جهة، ولأجل أداء الواجبات من الشرائع الواجبة، بالله لا بالنفس. وأما بولس –ومن هو على شاكلته– فإنه بسبب عدم تمييزه للمراتب، يجعل الأنبياء وأتباعهم على مرتبة سواء. وهذا لا يقول به عاقل!... وهو عندما يتكلم عن "تبرُّر" إبراهيم، فإنه يقيسه بحسب التكليف الذي يكون عليه المؤمنون؛ وهذا جهل فاضح!... لأن إبراهيم (وجميع الأنبياء) لهم من الله الفضل بداءة، من باب الاصطفاء؛ وقبل أن يُنزل عليهم سبحانه وحيه أو يكلفهم بعمل من الأعمال. يقول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} [آل عمران: ٣٣]. ومعنى اصطفاء الأنبياء –وإن كان لا يخلو منه المؤمنون باعتبار إيمانهم– هو من مرتبة غير مرتبة الأتباع؛ لأن الأتباع لا يتصفون بالإيمان، إلا إن هم

آمنوا بالرسل. ونعني أن مرتبة الرسل أصل، بينما مرتبة الأتباع فرع. والفرع لا يبلغ أصله في المرتبة أبدا!... ولهذا قلنا إن قياس بولس لا يستقيم...

٢. ما يذكره بولس عن نسل إبراهيم، لا يثبت لهم جميعا؛ وإلا لم يحتاجوا في خلاصهم، لا إلى موسى ولا إلى عيسى. وهذا تناقض من بولس، كان ينبغي أن يتفطن له. وإن الله تعالى يقول بخصوص ذرية إبراهيم: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة: ١٢٤]. ومعنى الآية، أنه لا يلحق من ذرية إبراهيم به، إلا من لم يتلبس بظلم؛ والظلم هنا الكفر والشرك. وعلى هذا، فإن من يكفر بموسى من بني إسرائيل لا يلحق بإبراهيم من جهة نسب الإيمان؛ ومن يكفر بعيسى منهم كذلك. ومن يكفر من اليهود والنصارى بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، لا يكون أيضا من أبناء إبراهيم في الإيمان. وأما تكرار بولس لسابق كلامه عن فداء عيسى فلا يستحق أن نرد عليه هنا.

ثم يقول بولس في الأصحاح الخامس من الرسالة ذاتها: "فَإِذْ قَدْ تَبَرَّرْنَا بِالإِيمَانِ لَنَا سَلاَمٌ مَعَ اللهِ بِرَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي بِهِ أَيْضًا قَدْ صَارَ لَنَا الدُّخُولُ بِالإِيمَانِ، إِلَى هذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا مُقِيمُونَ، وَنَفْتَخِرُ عَلَى رَجَاءِ مَجْدِ اللهِ.": إن بولس يقطع بأنه قد فاز عند الله، ويظن أن هذا القطع من دلائل قوة الإيمان؛ وما هو في الحقيقة إلا من الحمق، ومن الوثوق بالشيطان. وذلك لأن العلم يجعل العالِم لا يقطع بشيء، وإنما يرجو أن يكون عند الله من الفائزين. ومن أدب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهو من لا يُدانى في القرب والرفعة، أنه كان يقول لِما يعلم أنه ثابت له: «أرجو أن ...»، أدبا منه صلى الله عليه وآله وسلم مع ربه. وليت شعري من يتأدب بين يدي الله، إن لم يتأدب هو!... يقول صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الباب: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ، إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ؛ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ!»[1]. هذا مع علمه وعلمنا منه، بأن له ذلك!... ويقصد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أن كل نبي قد أوحى الله إليه، وآتاه من المعجزات مثل الذي يؤمن عليه البشر، تأييدا له؛ إلا هو صلى الله عليه وآله وسلم فإن الله اختصه بأعلى الوحي الذي هو القرآن؛ وهو يرجو بالقرآن (الجامع) أن يكون أكثر تبعا من كل نبي. وهذا المعنى واضحة مناسبته للقرآن، من جهة الشمول والهيمنة، لمن كان يعقل. ونحن هنا لا نريد الاستطراد، فلنعد إلى ما كنا بصدده. ورغم أن بولس لا يحق له ادعاء الرجاء من باب الأدب، كما لا يحق له الشكر على نعمة غير متيقّنة لديه؛ إلا أننا سنواصل معه متابعة كلامه.

يقول بولس: "وَلَيْسَ ذلِكَ فَقَطْ، بَلْ نَفْتَخِرُ أَيْضًا فِي الضِّيقَاتِ، عَالِمِينَ أَنَّ الضِّيقَ يُنْشِئُ صَبْرًا، وَالصَّبْرُ تَزْكِيَةً، وَالتَّزْكِيَةُ رَجَاءً، وَالرَّجَاءُ لاَ يُخْزِي، لأَنَّ مَحَبَّةَ اللهِ قَدِ انْسَكَبَتْ فِي قُلُوبِنَا بِالرُّوحِ الْقُدُسِ الْمُعْطَى لَنَا.": يريد بولس أن يفهمنا أن كلامه من وحي الروح القُدس، وهو ليس كذلك؛ وإن شابهَ كلام الروح القدس. وذلك لأن الشيطان عندما يوحي إلى أتباعه، فإنه لا يُعلن لهم أن الوحي منه، أو يجعله بأسلوب شيطاني خالص؛ لأن كثيرا من الأتباع سينصرفون عنه، بسبب الخوف على أنفسهم من عذاب الله، عند تمييز خطابه. لذلك هو يلجأ إلى تلبيس الحق بالباطل، وخلطه به، لكيلا يتمكن ضعاف النور والعقل من تمييز وحيه. والحق الذي ينطق به هنا بولس هو: كون الضيق يُنشئ صبرا، والصبر يُنتج تزكية، والتزكية تنتج رجاء، والرجاء لا يُخزي (عند الله). وهذا معروف لدى علماء السلوك معرفة يقينية ذوقية، وعليه تقوم الحكمة من السلوك. وسنضيف إلى هذه المسألة ما يُناسبها في محله، إن نحن وقفنا عليه، إن شاء الله... وحتى يكون القارئ على يقين من أن الروح القدس لا صلة لبولس به، فليعلم أنه من مرتبة الأنبياء والورثة وحدهم؛ دون سائر الأصناف من

[1]. أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

المؤمنين. نقول هذا من باب التحقُّق حصرا؛ وأما من باب الاستمداد فإن لأهل الإحسان منه أمدادا تناسبهم، في الغالب عن طريق الخدم من الملائكة، الذين يكونون له كالوجوه المواجهة للعبد من جهة غيبه. ويكفي أن يعلم المرء هنا أن جبريل عليه السلام، ليس إلا وجها من وجوه الروح القدس. ولم نجد من قال بقولنا هذا، إلا الشيخ عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي عليه السلام؛ إلا أن يكون ولم نعلم به، أو نسيناه، أو سهونا عنه.

ثم يقول بولس: "لأَنَّ الْمَسِيحَ، إِذْ كُنَّا بَعْدُ ضُعَفَاءَ، مَاتَ فِي الْوَقْتِ الْمُعَيَّنِ لأَجْلِ الْفُجَّارِ.": وبما أن المسيح لم يمت، فإن هذا الكلام ساقط برمته. ولو أننا تمعنّا في السبب الذي يدفع المسيحيين إلى القول بالصلب والقتل، فإننا لن نجده التشبيه وحده، الذي وقع لهم، والذي ذكره القرآن في قول الله تعالى: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ} [النساء: ١٥٧]؛ ولكن سنجد في مقابل ذلك، ضيق أفقهم، الذي منعهم من تصوُّر عبد يُعمل على قتله ولا يموت، من باب المعجزة. وكأن الله مسبب الأسباب، لا يتصرف فيها كما يشاء سبحانه!... وهذا يُشبه ما وقع لخالد بن الوليد رضي الله عنه، لما أتى الحيرة، فأُتي بسمّ، ثم سمَّى وشربه ولم يضره[١]. ونعني من هذا، أن المسيحيين لو كان إيمانهم قويا، لصدقوا برفع عيسى من غير موت؛ ولكن لما كانوا تحت أسر العادة، فإنهم لم يتمكنوا من الإيمان بالرفع، إلا بعد القول بالموت؛ وهو قصور بيّن. وبولس أيضا قد استعظم الموت إلى الحد الذي جعله في مقابل المعصية الأصلية؛ وجعل قيامة عيسى المزعومة تحرُّرا منه. والأمر، لم يكن يحتاج إلى هذا التنظير الملتفّ كله، بقدر ما كان يحتاج إلى العلم بأن الله على كل شيء قدير. فهو سبحانه قادر على إماتة كل حي، رغم كل أسباب الحياة؛ وقادر على إحياء الميّت رغم كل أسباب الموت. والخروج عن هيمنة رؤية الأسباب على النظر، لا يتأتى إلا في الدرجة الثانية من الإحسان، والتي هي درجة المشاهدة. ونحن قد قلنا سابقا إن المسيحيين لم يتجاوزوا في أفضل الأحوال مرتبة الإيمان. وبولس هذا، ما زال يتخبط بين ما يعطيه الإيمان المُجمل وما يعطيه النظر العقلي، على قصور؛ وهو في هذا يُشبه مقلدة أهل العقائد من المسلمين. ونحن نخصّ المقلدة بالكلام، لأن المتكلمين المسلمين، أكثر عقلانية من بولس بكثير. ولعلنا سنفصّل القول في عقلانيتهم عندما نصل إلى مرحلة ظهور علم الكلام من زمن التشريع المحمدي، إن شاء الله.

ثم يقول أيضا: "فَإِنَّهُ بِالْجَهْدِ يَمُوتُ أَحَدٌ لأَجْلِ بَارّ. رُبَّمَا لأَجْلِ الصَّالِحِ يَجْسُرُ أَحَدٌ أَيْضًا أَنْ يَمُوتَ. وَلكِنَّ اللهَ بَيَّنَ مَحَبَّتَهُ لَنَا، لأَنَّهُ وَنَحْنُ بَعْدُ خُطَاةٌ مَاتَ الْمَسِيحُ لأَجْلِنَا.": هذا الكلام منكوس، لأنه صيّر الفُجار مخدومين، وجعل القدميْن محل الرأس. وهذا وإن كان يصدق من باب الجود، على الله الذي يجعل شمسَه تُشرق على البر والفاجر كما أخبر عيسى، قبل عيسى؛ إلا أنه لا يصدق من كل وجه؛ وإلا انعكست الحقائق، واندرست الشرائع، وبطلت النبوات، ثم انحجبت بعد ذلك الألوهية. وهذا لا يقول به واحد من أهل الدين، بل يقول به فاسق مهرطق أو مختل عقل. ولو كان بولس على عقل سليم، لعلم أن ربطه بين "موت عيسى" المزعوم، وخلاص الخطاة به، يحتاج إلى ما لا يتطرق إليه الظن؛ حتى يُعتمد عقيدة إيمانية لأمة بأسرها. وبما أن الحال غير تلك، فإنه بفعله هذا، يفتح بابا لكل متقوّل لأن يحكم بظنه، ثم يطالب غيره بالتزامه. وهكذا، فإنه لن يضيع الدين وحده، وإنما سيضيع العقل معه أيضا. وحتى الواقعة التي يجعلها بولس سببا لانقلابه من "شاول" المُضطهِد للمسيحيين، إلى "بولس" الرسول (بحسب زعمه)، فإنها لا تلزمه إلا هو، إن صدقت؛ ونحن قد حكمنا عليها سابقا، بأنها لا تصدُق. ولو تأمل عقلاء المسيحيين تشدد المسلمين في قبول الحديث النبوي، ووضعهم معايير قلّما تُخطئ في روْزها، من أجل قبوله؛ لعلموا أن ما يتعلق بالإيمان من مسائل، لا ينبغي التساهل فيه؛

---

١ . هذه الواقعة أخرجها أحمد بن حنبل في فضائل الصحابة، والطبراني في المعجم الكبير، والأصفهاني في معرفة الصحابة، وابن أبي شيبة في المصنّف، واللالكائي في كرامات الأولياء، وابن عساكر في تاريخ دمشق.

خصوصا إن كان القائل لا يبلغ درجة الصحابي (تلميذ عيسى في المقابل) الملازم؛ وإنما هو مقتحم للعقيدة على أصحابها الأُصلاء؛ وهو بهذا الاعتبار، لا يبلغ حتى مرتبة التابعيّ لدى المسلمين. ويظهر من كل هذا، تهافت بولس في أقواله، وفي إلزامه غيره من المسيحيين بها. وهذا، وإن كان قد انطلى على المسيحيين الأُول، الذين لم يكونوا على دراية بالمنطق العقلي؛ فإننا نستغرب كيف ينطلي على متأخِّريهم، الذين خبروا صنوف الفلسفة والمنطق. وقد يتوقف بعضُ الناس، عندما يجدوننا نُحكّم العقل في مسائل الإيمان، ونحن من نكرر عند كل مناسبة، أن طريق الدين مخالف لطريق العقل من أصله؛ فنقول: نحن إلزامنا أهل الإيمان بالقواعد العقلية، ليس من باب تحكيم العقل في الدين؛ وإنما هو من باب عدم تجاوز مرتبة العقل المجرد، التي هي شرط في الإيمان المُجمل من مرتبة الإسلام خصوصا. وذلك لأننا لو تجاوزنا هذه المرتبة، لسوّينا بين الدين والخرافة، كما يفعل الجاهلون من المتدينين؛ وكما يتوهم المُفْرطون في العقلانية في الجهة المقابلة. ثم إن للعقل عقلانية عليا، يكون عليها أهل الكشف خصوصا، من مرتبة الوارثين حصرا؛ لا يعلمها كبار العقلاء. وذلك عند علمهم بالبرهان العقلي المتعلّق بالمسائل الإيمانية كلها، من طريق الكشف -كما ذكرنا- لا من طريق البرهان العقلي. وهذا الذي نقوله، هو السبب في عدم غلبة أهل البرهان لأهل الكشف في الجدل؛ ونقصد أن أهل البرهان مع أهل الكشف يكونون في الحال كالأعمى مع البصير؛ وإن بلغوا ما بلغوا في المكانة العقلية!... وعندما يعثر العبد على هذا المعنى، حينئذ فقط، سيعلم معنى قول الله تعالى: {إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ} [الأنعام: ٥٠]. وإن إحالة الله العباد في فهم الآية على التفكر، وهو عملية عقلية، هو إعجاز رباني من غير شك. وذلك لأن المتفكر في منطوق الوحي، لا بد أن يعثر على منطق مُحكَم، يتصاغر دونه كل منطق عقلي معلوم للعقلاء!...

ثم يقول بولس: "فَبِالأَوْلَى كَثِيرًا وَنَحْنُ مُتَبَرِّرُونَ الآنَ بِدَمِهِ نَخْلُصُ بِهِ مِنَ الْغَضَبِ! لأَنَّهُ إِنْ كُنَّا وَنَحْنُ أَعْدَاءٌ قَدْ صُولِحْنَا مَعَ اللهِ بِمَوْتِ ابْنِهِ، فَبِالأَوْلَى كَثِيرًا وَنَحْنُ مُصَالَحُونَ نَخْلُصُ بِحَيَاتِهِ! وَلَيْسَ ذلِكَ فَقَطْ، بَلْ نَفْتَخِرُ أَيْضًا بِاللهِ، بِرَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي نِلْنَا بِهِ الآنَ الْمُصَالَحَةَ.": إن كان ما سماه بولس "تبرُّرا" و"مصالحة" قد نيلا من باب الفضل (النعمة)، فعلى من يفتخر هو به، وقد ناله معه الفجار أيضا، بحسب زعمه. وهذا كلام مناقض للفقرة السابقة الموحية بعد الفداء بالتسوية في النعمة؛ إلا إن كان لبولس (أو لغيره) تفصيل كلام بعد الخلاص والمصالحة والتبرر؛ خصوصا ونحن نعلم أن أقصى ما ناله إبراهيم عليه السلام في نظره هو ذاك لا غيره!... ثم لنعد إلى مسألة البنوة التي يبني عليها بولس عقيدته، ولنفحصها. فإننا عندئذ سنجده يفهمها على ما يُعطيه معناها الطبيعي، وكأن عيسى والله قبله، محكوم بناموس الطبيعة!... وهذا لا يقول به أدنى المؤمنين درجة، بله من يزعم أنه "رسول" يُعلم الناس الإيمان!... ونحن نقول: إن بولس -ومن نحا نحوه- لا يذكر البنوة، إلا ليجعل العوام يتصورون ألم الأب لأجل موت ابنه؛ وهذا لا ينطبق على الله تعالى، ولا يليق بجلاله!... ونحن عندما تناولنا مسألة البنوة، في الجزء الأول من هذا الكتاب، قد جعلناها منوطة بحقيقة الصورة (المظهر) فحسب؛ والمظهر في أصله فانٍ (معدوم)، لا يحتاج لأن يموت حتى يفنى. وهذا المعنى هو ما يقصده الله بقوله تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. والمعنى هو: أن كل الصور المشهودة لجماعتيْ الإنس والجن (من كونهما المخاطبين في السورة) على صفحة الوجود، هي فانية ومعدومة، في حال شهودها. ومن تحقق بفنائها عند بلوغه مرتبة المشاهدة بدرجاتها الثلاث (الأفعال والصفات والذات)، فإنه سيُشاهد وجه ربه الباقي في المظاهر عينها. وهذا المعنى لا يُتصوّر للعقول، حتى تخرج من عقالها؛ ولذلك يُثنّي الله في الآية بذكر اسمه تعالى "ذو الجلال والإكرام"، الذي يعني أن وجه الرب المشهود أجلّ من أن يشهده الأغيار، وأكرم من أن تفقده الأبصار!... وأما عوام المسلمين، من مفسرين ومن غيرهم، فإنهم يغلطون عندما يفهمون من الفناء المذكور في الآية الموت؛ لأن الموت غير الفناء من جهة اللغة والمعنى. ونعني من هذا، أن الموت يعني تحلل التركيب، وانقلاب الصورة من صورة

طبيعية إلى صورة برزخية فحسب؛ ولا يعني انعدامها. وأما الفناء فهو ثبوت في الشهود، مع تحقق الانعدام. ونحن، رغم علمنا بعجز العقول عن إدراك ما نقول؛ إلا أننا نذكره، ليكون حجة لمن يروم به الحِجاج؛ وليكون مِرقاة لمن لم يكن من أهل الرسوخ في الشهود.

ثم يقول بولس: "مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَأَنَّمَا بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الْخَطِيَّةُ إِلَى الْعَالَمِ، وَبِالْخَطِيَّةِ الْمَوْتُ، وَهكَذَا اجْتَازَ الْمَوْتُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، إِذْ أَخْطَأَ الْجَمِيعُ. فَإِنَّهُ حَتَّى النَّامُوسِ كَانَتِ الْخَطِيَّةُ فِي الْعَالَمِ. عَلَى أَنَّ الْخَطِيَّةَ لاَ تُحْسَبُ إِنْ لَمْ يَكُنْ نَامُوسٌ. لكِنْ قَدْ مَلَكَ الْمَوْتُ مِنْ آدَمَ إِلَى مُوسَى، وَذلِكَ عَلَى الَّذِينَ لَمْ يُخْطِئُوا عَلَى شِبْهِ تَعَدِّي آدَمَ، الَّذِي هُوَ مِثَالُ الآتِي. وَلكِنْ لَيْسَ كَالْخَطِيَّةِ هكَذَا أَيْضًا الْهِبَةُ. لأَنَّهُ إِنْ كَانَ بِخَطِيَّةِ وَاحِدٍ مَاتَ الْكَثِيرُونَ، فَبِالأَوْلَى كَثِيرًا نِعْمَةُ اللهِ، وَالْعَطِيَّةُ بِالنِّعْمَةِ الَّتِي بِالإِنْسَانِ الْوَاحِدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ، قَدِ ازْدَادَتْ لِلْكَثِيرِينَ! وَلَيْسَ كَمَا بِوَاحِدٍ قَدْ أَخْطَأَ هكَذَا الْعَطِيَّةُ. لأَنَّ الْحُكْمَ مِنْ وَاحِدٍ لِلدَّيْنُونَةِ، وَأَمَّا الْهِبَةُ فَمِنْ جَرَّى خَطَايَا كَثِيرَةٍ لِلتَّبْرِيرِ. لأَنَّهُ إِنْ كَانَ بِخَطِيَّةِ الْوَاحِدِ قَدْ مَلَكَ الْمَوْتُ بِالْوَاحِدِ، فَبِالأَوْلَى كَثِيرًا الَّذِينَ يَنَالُونَ فَيْضَ النِّعْمَةِ وَعَطِيَّةَ الْبِرِّ، سَيَمْلِكُونَ فِي الْحَيَاةِ بِالْوَاحِدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ! فَإِذًا كَمَا بِخَطِيَّةٍ وَاحِدَةٍ صَارَ الْحُكْمُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ لِلدَّيْنُونَةِ، هكَذَا بِبِرّ وَاحِدٍ صَارَتِ الْهِبَةُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، لِتَبْرِيرِ الْحَيَاةِ. لأَنَّهُ كَمَا بِمَعْصِيَةِ الإِنْسَانِ الْوَاحِدِ جُعِلَ الْكَثِيرُونَ خُطَاةً، هكَذَا أَيْضًا بِإِطَاعَةِ الْوَاحِدِ سَيُجْعَلُ الْكَثِيرُونَ أَبْرَارًا. وَأَمَّا النَّامُوسُ فَدَخَلَ لِكَيْ تَكْثُرَ الْخَطِيَّةُ. وَلكِنْ حَيْثُ كَثُرَتِ الْخَطِيَّةُ ازْدَادَتِ النِّعْمَةُ جِدًّا. حَتَّى كَمَا مَلَكَتِ الْخَطِيَّةُ فِي الْمَوْتِ، هكَذَا تَمْلِكُ النِّعْمَةُ بِالْبِرِّ، لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ، بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ رَبِّنَا.": كلام بولس هنا يريد منه التنظير لأيديولوجيته القائمة من جهة على الخطيئة المتعدية، ومن جهة مقابِلة على غلبة الموت المتعدي أيضا. وهذا تكلف بالغ، ودخول في تناسبات وتماثُلات طفولية، لا بد من تعريتها:

١. نحن قد أكدنا سابقا على أن معصية آدم، لم تتعد آثارها إلى ذريته بفضل الله؛ بل إنها لم تثبت له هو نفسه، بعد توبته عليه السلام. وهكذا، يكون كل بناء على معصية آدم منهارا، لا يتمكن من القيام. وإن كل عقل، يخلص إلى غير ما نقرر نحن هنا، فإنه يكون غير مؤهل للنظر. ونعني بالنظر هنا النظر العقلي المجرد، كما نعني النظر العقلي داخل طريق الإيمان، والذي يسلكه اللاهوتيون والمتكلمون. ورغم أن طريق النظر ليس أصيلا في الدين، إلا أننا نعتبره، مجاراة لمن أراد الخلط بين السبيليْن.

٢. إن جعل المعصية الأولى، سببا في الموت، هو من التحكم البالغ؛ لأن هذا الحكم مما ينبغي أن يُؤخذ من الوحي. والوحي لم يأت بهذا المعنى، لا سابقا ولا لاحقا!... ولا ندري بعد ذلك عن أي موت يتكلم بولس: عن الطبيعي أم عن المعنوي؟ وإن إعادة ترتيب الأمور التي تعترض الآدمي في عمره، على هذه الشاكلة، تذكرنا بأولئك الذين يفرون باستعمال الأعشاب المخدرة من الواقع، ليعيشوا في عالم وهمي مواز، فيخسرون بذلك دنياهم وآخرتهم. والمصيبة هي أن كل ضلالة من بولس تتطلّب ضلالة أخرى تتبعها وتتولد عنها، لتتأكد بها. وهذا هو ما يُعبَّر عنه بأخذ الشيطان للعباد في طريق الضلال؛ ونعني أنه يترقى بهم في الضلال، ويُفرّع لهم فيه تفاريع لا بد لهم من اعتقادها. ولهذا السبب، كان ينبغي الحرص على عدم ولوج طريق الضلال، من البداية، ولو بخطوة واحدة؛ لأن الخطوات الأخرى، ستأتي تباعا، وتكون منطقية بالنظر إلى الخطوة الأولى. ولم نر من دل على هذه الخصيصة في الضلال، إلا الأنبياء عليهم السلام، وكبار الورثة؛ وأما من دونهم من علماء الدين، فإنهم لا خبر لهم عن هذا.

٣. وهو عندما يحسب لعيسى أنه غلب الموت، يجعل ذلك حاصلا لغيره به على وجه التعميم، في مقابل تعميم الموت سابقا بسبب المعصية الأولى. ومعنى هذا أن كل العباد سيحيون بحياة المسيح، ولن يموتوا بموت آدم. والآن، أين هذا من الواقع؟... فإن كان بولس يعني بالحياة الحياة الطبيعية، فمعنى هذا أنه لا ينبغي أن يكون قد مات شخص واحد من المسيحيين، منذ رفع المسيح؛ وإن كان يقصد الحياة المعنوية، فينبغي أن يكون كل الناس على ذكر تام لربهم. يقول النبي

صلى الله عليه وآله وسلم: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ، وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ!»[١]. ومعنى الذكر هنا، تحقُّق العبد بمقام الذكر، لا مجرد ذكر اللسان. وهو يُشبه قول الله تعالى: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: ٤٣]؛ ومعناه: فاسألوا عن الله أهل التحقُّق بذكره، الذين انتفت غفلتهم بمعرفته سبحانه؛ لا كما نسمع من الجهلة اليوم، الذين تأولوا الآية تأوُّلا بعيدا، جعلوا معنى الذكر معه، يتعلق بأهل التخصصات المختلفة من كل شعب العلوم الكونية!... والمعنى الذي قصده بولس سيجعل الناس كلهم من الأولياء، إبان حياتهم، أو بعد موتهم الميتة الطبيعية؛ وأيٌّ من هذيْن الأمريْن لم يقع!... ففي أي عالم يتكلم بولس، وعن أي بشر؟؟... وحتى من أراد أن يُنظِّر لأمر ما، فعليه أن يفقه قليلا في معناه؛ لا أن يبدأ في إنشاء العلاقات اعتباطا بين عناصر مجموعة، وعناصر مجموعات أخرى، على غير هدى؛ وكأن الأمر ضرب من اللعب أو من الرياضات الذهنية. وإن كان الناس في زمن بولس قد انطلت عليهم تعابير بولس لسبب من الأسباب، فعلى أهل زماننا من النصارى قبل غيرهم، أن يُعيدوا النظر في هذه التلفيقات، التي لو تقمصها حاكم من أعظم ملوك الأرض، أو فيلسوف من أكبر عقلاء البشر، لَما اعتبرها أحد!... ولردّوا عليهما أقوالهما في الحين... فكيف بعد ذلك يُصدَّق رجل من الآحاد، تثبت بالمقارنة، مخالفته لتعاليم عيسى عليه السلام، ولِما تيقَّنه تلاميذه منه!...

ثم يقول بولس في الأصحاح السادس: "فَمَاذَا نَقُولُ؟ أَنَبْقَى فِي الْخَطِيَّةِ لِكَيْ تَكْثُرَ النِّعْمَةُ؟ حَاشَا! نَحْنُ الَّذِينَ مُتْنَا عَنِ الْخَطِيَّةِ، كَيْفَ نَعِيشُ بَعْدُ فِيهَا؟ أَمْ تَجْهَلُونَ أَنَّنَا كُلَّ مَنِ اعْتَمَدَ لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ اعْتَمَدْنَا لِمَوْتِهِ، فَدُفِنَّا مَعَهُ بِالْمَعْمُودِيَّةِ لِلْمَوْتِ، حَتَّى كَمَا أُقِيمَ الْمَسِيحُ مِنَ الأَمْوَاتِ، بِمَجْدِ الآبِ، هكَذَا نَسْلُكُ نَحْنُ أَيْضًا فِي جِدَّةِ الْحَيَاةِ؟ لأَنَّهُ إِنْ كُنَّا قَدْ صِرْنَا مُتَّحِدِينَ مَعَهُ بِشِبْهِ مَوْتِهِ، نَصِيرُ أَيْضًا بِقِيَامَتِهِ. عَالِمِينَ هذَا: أَنَّ إِنْسَانَنَا الْعَتِيقَ قَدْ صُلِبَ مَعَهُ لِيُبْطَلَ جَسَدُ الْخَطِيَّةِ، كَيْ لاَ نَعُودَ نُسْتَعْبَدُ أَيْضًا لِلْخَطِيَّةِ. لأَنَّ الَّذِي مَاتَ قَدْ تَبَرَّأَ مِنَ الْخَطِيَّةِ. فَإِنْ كُنَّا قَدْ مُتْنَا مَعَ الْمَسِيحِ، نُؤْمِنُ أَنَّنَا سَنَحْيَا أَيْضًا مَعَهُ. عَالِمِينَ أَنَّ الْمَسِيحَ بَعْدَمَا أُقِيمَ مِنَ الأَمْوَاتِ لاَ يَمُوتُ أَيْضًا. لاَ يَسُودُ عَلَيْهِ الْمَوْتُ بَعْدُ. لأَنَّ الْمَوْتَ الَّذِي مَاتَهُ قَدْ مَاتَهُ لِلْخَطِيَّةِ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَالْحَيَاةُ الَّتِي يَحْيَاهَا فَيَحْيَاهَا للهِ. كَذلِكَ أَنْتُمْ أَيْضًا احْسِبُوا أَنْفُسَكُمْ أَمْوَاتًا عَنِ الْخَطِيَّةِ، وَلكِنْ أَحْيَاءً للهِ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا. إِذًا لاَ تَمْلِكَنَّ الْخَطِيَّةُ فِي جَسَدِكُمُ الْمَائِتِ لِكَيْ تُطِيعُوهَا فِي شَهَوَاتِهِ، وَلاَ تُقَدِّمُوا أَعْضَاءَكُمْ آلاَتِ إِثْمٍ لِلْخَطِيَّةِ، بَلْ قَدِّمُوا ذَوَاتِكُمْ للهِ كَأَحْيَاءٍ مِنَ الأَمْوَاتِ وَأَعْضَاءَكُمْ آلاَتِ بِرّ للهِ. فَإِنَّ الْخَطِيَّةَ لَنْ تَسُودَكُمْ، لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ تَحْتَ النَّامُوسِ بَلْ تَحْتَ النِّعْمَةِ. فَمَاذَا إِذًا؟ أَنُخْطِئُ لأَنَّنَا لَسْنَا تَحْتَ النَّامُوسِ بَلْ تَحْتَ النِّعْمَةِ؟ حَاشَا! أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي تُقَدِّمُونَ ذَوَاتِكُمْ لَهُ عَبِيدًا لِلطَّاعَةِ، أَنْتُمْ عَبِيدٌ لِلَّذِي تُطِيعُونَهُ: إِمَّا لِلْخَطِيَّةِ لِلْمَوْتِ أَوْ لِلطَّاعَةِ لِلْبِرِّ؟ فَشُكْرًا للهِ، أَنَّكُمْ كُنْتُمْ عَبِيدًا لِلْخَطِيَّةِ، وَلكِنَّكُمْ أَطَعْتُمْ مِنَ الْقَلْبِ صُورَةَ التَّعْلِيمِ الَّتِي تَسَلَّمْتُمُوهَا. وَإِذْ أُعْتِقْتُمْ مِنَ الْخَطِيَّةِ صِرْتُمْ عَبِيدًا لِلْبِرِّ. أَتَكَلَّمُ إِنْسَانِيًّا مِنْ أَجْلِ ضَعْفِ جَسَدِكُمْ. لأَنَّهُ كَمَا قَدَّمْتُمْ أَعْضَاءَكُمْ عَبِيدًا لِلنَّجَاسَةِ وَالإِثْمِ لِلإِثْمِ، هكَذَا الآنَ قَدِّمُوا أَعْضَاءَكُمْ عَبِيدًا لِلْبِرِّ لِلْقَدَاسَةِ. لأَنَّكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ عَبِيدَ الْخَطِيَّةِ، كُنْتُمْ أَحْرَارًا مِنَ الْبِرِّ. فَأَيُّ ثَمَرٍ كَانَ لَكُمْ حِينَئِذٍ مِنَ الأُمُورِ الَّتِي تَسْتَحُونَ بِهَا الآنَ؟ لأَنَّ نِهَايَةَ تِلْكَ الأُمُورِ هِيَ الْمَوْتُ. وَأَمَّا الآنَ إِذْ أُعْتِقْتُمْ مِنَ الْخَطِيَّةِ، وَصِرْتُمْ عَبِيدًا للهِ، فَلَكُمْ ثَمَرُكُمْ لِلْقَدَاسَةِ، وَالنِّهَايَةُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ. لأَنَّ أُجْرَةَ الْخَطِيَّةِ هِيَ مَوْتٌ، وَأَمَّا هِبَةُ اللهِ فَهِيَ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا.": وهنا نلاحظ أمورا منها:

١. أن بولس ما زال مقيما على سفسطته، وهو يقدمها على أنها برهان يستعمل فيه "لأن" التعليلية بكثرة، من غير جدوى.

---

[١] . أخرجه البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

٢. يريد بولس أن يُقنعنا أنه مات مع المسيح وحيِيَ معه؛ وأنّى له ذلك!... وهو من لا يعلم معنى الموت والحياة إلا من الطبيعة؟!... وهذه الدعوى من بولس كبيرة، ما كان يليق به أن يزعمها لنفسه؛ فكيف وهو يدعو إليها غيره! هكذا... في التصور السقيم، حتى لا نقول في التجريد. وإن هذه العقائد، التي لا يكون لها أساس صلب في الإيمان، لا بد أن تنتهي بمعتقديها، كلما أصروا عليها، إلى ما يُعرف عند المتأخرين بـ "الفُصام"؛ لأن العبد لا بد له عندئذ من العيش بتصوريْن لنفسه: أحدهما مطابق للواقع الذي تحكمه في الغالب الطبيعة، وثانيهما ذهني مفارق للواقع. وقد يتغلب أحد التصوريْن على الآخر، إلى حد إضعافه إضعافا شديدا، لسبب من الأسباب، فيبقى المرء مع ذلك على بعض تماسك عقلي، أو على جنون بيّن؛ وقد يتساوى التصوران في القوة أو يقتربان من ذلك، فتظهر على المرء أعراض المرض العقلي ولا بد.

٣. إن بولس تبعا لما ذكرنا، ما زال تحت حكم جسده الطبيعي، وتحت تحكم شهواته. وكان عليه لو أنه أراد الفلاح، أن يسوس نفسه بالشريعة التي -كما أوضح هو- تكشف له الخطايا، وتدله على أسباب الخلاص منها. وبدل ذلك، هو يفعل العكس: يفترض أنه مات وحيِيَ، وانتهى عمله بالشريعة، وبالتالي ارتفعت مطالبتها له؛ وهذا يعني أنه يعيش في الجنة هنا، قبل الآخرة!... ولا نظن أنه يعتقد بحسب هذه الهرطقات، أن هناك جنة في الآخرة؛ لأن الآخرة تثبت بعد الموت، وهو قد نفاه!... ونحن نؤكد لبولس حيث هو، ولأتباع بولس هنا في العالم الأرضي، أن عيسى سيكون خصمه الأول عند الله، لأنه قد قلب هدْيه رأسا على عقب، وجعل تعاليمه باطلة وكأنها لم تُقَل. ولو طُلب من شخص وقيل له: اجتهد في أن تنقض المسيحية، وفي أن تُكذِّب المسيح، وفي أن تجعل كلامه لا يلتفت إليه الصبيان من شدة التسفيه، لما بلغ ما بلغه بولس، إلا بالجهد الجهيد!...

٤. لو صح كلام بولس السابق، لكانت المعصية لا تجد طريقها لا إليه (وهو الإمام!) ولا إلى من يُصدّقه في ترهاته من أتباعه؛ ونعني من هذا أنهم يكونون جميعا معصومين، بالمعنى المعروف لدى المسلمين. ولكن إن رجعنا إلى الواقع، فإننا سنجد بولس على حاله الأول عندما كان فريسيا، بل أسوأ منه؛ لأنه قد نزل عنه بدل أن يرتقي. وسنجده بعد ذلك غارقا في الخطايا، وإن كان لا يعتبرها هو؛ وذلك لأن الشيطان قد استحوذ عليه، وصار يُريه السيئات حسنات. وهذا الذي يصدق عليه، يصدق على كل من يُصدقه في كلامه المنكوس هذا. يقول الله تعالى عن هذا الصنف من الناس: {وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ} [العنكبوت: ٣٨]، ويقول سبحانه: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ . كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [المجادلة: ١٩ - ٢١]. وعيسى غالب بموجب هذه الآية، لكل من خالفه ونسب إليه ما لم يقل؛ اليوم في الدنيا، وغدا في الآخرة. وهذا، لأن كلام بولس وأمثاله، مدحوض اليوم، بأقل جهد من أئمة الطريق إلى الله؛ وهو مدحوض أيضا عندما سينزل عيسى ثانية، ويُصحح للناس مقولاتهم فيه. وهذا قبل حلول الآخرة، حيث يكون الحكم العام من الله بين المتخالفين!...

ثم يقول بولس في الأصحاح السابع: " أَمْ تَجْهَلُونَ أَيُّهَا الإِخْوَةُ لأَنِّي أُكَلِّمُ الْعَارِفِينَ بِالنَّامُوسِ أَنَّ النَّامُوسَ يَسُودُ عَلَى الإِنْسَانِ مَا دَامَ حَيًّا؟ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ الَّتِي تَحْتَ رَجُل هِيَ مُرْتَبِطَةٌ بِالنَّامُوسِ بِالرَّجُلِ الْحَيِّ. وَلكِنْ إِنْ مَاتَ الرَّجُلُ فَقَدْ تَحَرَّرَتْ مِنْ نَامُوسِ الرَّجُلِ. فَإِذًا مَا دَامَ الرَّجُلُ حَيًّا تُدْعَى زَانِيَةً إِنْ صَارَتْ لِرَجُل آخَرَ. وَلكِنْ إِنْ مَاتَ الرَّجُلُ فَهِيَ حُرَّةٌ مِنَ النَّامُوسِ، حَتَّى إِنَّهَا لَيْسَتْ زَانِيَةً إِنْ صَارَتْ لِرَجُل آخَرَ.": هذا الكلام في الشريعة، تُعوزه الدقة؛ لأن المرأة بعد موت زوجها، لا تصير زانية إن هي تزوجت رجلا آخر؛ أما خارج علاقة الزواج فهي زانية. وبولس من كونه فريسيا، كان يعلم ذلك؛ لكن عدم تبيينه، يخدم التلفيق الذي اتخذه نهجا، يريد أن يُقنع به كل من يستمع إليه. وقياس علاقة الناس بالمسيح،

على علاقة المرأة بزوجها، لا يصح؛ لأن العلاقة بين الزوجين علاقة طبيعية تحكمها الشريعة؛ وأما العلاقة بين المسيح والمؤمن، فهي علاقة اتباع (ائتمام)في الطريق إلى الله. وحكم الطبيعة وإن كان مشابها لأحكام الشريعة من بعض الوجوه، فإن ذلك لا يدل على التماثل الذي يتوهمه بولس، ويريد أن يجعله قاعدة لا تتخلف. وإن فشل هو في التمثيل للمعاني التي يُريد إبرازها بمثال واحد واضح، فكيف عند كثرة التمثيل، وهو يجهل المُمَثَّل والمُمَثَّل به ووجه التمثيل!...

ثم يقول: "إِذًا يَا إِخْوَتِي أَنْتُمْ أَيْضًا قَدْ مُتُّمْ لِلنَّامُوسِ بِجَسَدِ الْمَسِيحِ، لِكَيْ تَصِيرُوا لآخَرَ، لِلَّذِي قَدْ أُقِيمَ مِنَ الأَمْوَاتِ لِنُثْمِرَ للهِ. لأَنَّهُ لَمَّا كُنَّا فِي الْجَسَدِ كَانَتْ أَهْوَاءُ الْخَطَايَا الَّتِي بِالنَّامُوسِ تَعْمَلُ فِي أَعْضَائِنَا، لِكَيْ نُثْمِرَ لِلْمَوْتِ. وَأَمَّا الآنَ فَقَدْ تَحَرَّرْنَا مِنَ النَّامُوسِ، إِذْ مَاتَ الَّذِي كُنَّا مُمْسَكِينَ فِيهِ، حَتَّى نَعْبُدَ بِجِدَّةِ الرُّوحِ لاَ بِعِتْقِ الْحَرْفِ.": هذا الكلام هنا، لا يخلو من مسحة حمق! لأن بولس يُعبّر بقوله "لما كنا في الجسد" وكأنه قد خرج منه أو خرج عن حكمه؛ وهو لم يقع له الأمران. وهو بعد هذه الطامة، يُقنع سامعيه أنهم مثله؛ فإلى أين يسير بجموح خياله؟... نحن لا نستبعد أن يكون قد تخرج على يدي بولس مجانين حقيقيون... وأما التحرر من الناموس فلا يصح لأحد إلا بعد الموت الطبيعي، وإن كل من يقول غير ذلك يكون ممكورا به من الأشقياء الفاسقين. يقول الله تعالى: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر: ٩٩]، وقد فُسِّر اليقين هنا بالموت، لأنه آت لا ريب في قدومه. والعبادة، التي هي تحكيم أحكام الشريعة في النفس، لا تنقطع إلا بالموت الطبيعي. وهذا أمر لا يحتمل الجدال، وهو أعم من أن يقال بالاستثناء فيه!...

ثم يقول: "فَمَاذَا نَقُولُ؟ هَلِ النَّامُوسُ خَطِيَّةٌ؟ حَاشَا! بَلْ لَمْ أَعْرِفِ الْخَطِيَّةَ إِلاَّ بِالنَّامُوسِ. فَإِنَّنِي لَمْ أَعْرِفِ الشَّهْوَةَ لَوْ لَمْ يَقُلِ النَّامُوسُ: «لاَ تَشْتَهِ». وَلكِنَّ الْخَطِيَّةَ وَهِيَ مُتَّخِذَةٌ فُرْصَةً بِالْوَصِيَّةِ أَنْشَأَتْ فِيَّ كُلَّ شَهْوَةٍ. لأَنْ بِدُونِ النَّامُوسِ الْخَطِيَّةُ مَيِّتَةٌ. أَمَّا أَنَا فَكُنْتُ بِدُونِ النَّامُوسِ عَائِشًا قَبْلًا. وَلكِنْ لَمَّا جَاءَتِ الْوَصِيَّةُ عَاشَتِ الْخَطِيَّةُ، فَمُتُّ أَنَا، فَوُجِدَتِ الْوَصِيَّةُ الَّتِي لِلْحَيَاةِ هِيَ نَفْسُهَا لِي لِلْمَوْتِ. لأَنَّ الْخَطِيَّةَ، وَهِيَ مُتَّخِذَةٌ فُرْصَةً بِالْوَصِيَّةِ، خَدَعَتْنِي بِهَا وَقَتَلَتْنِي. إِذًا النَّامُوسُ مُقَدَّسٌ، وَالْوَصِيَّةُ مُقَدَّسَةٌ وَعَادِلَةٌ وَصَالِحَةٌ. فَهَلْ صَارَ لِي الصَّالِحُ مَوْتًا؟ حَاشَا! بَلِ الْخَطِيَّةُ. لِكَيْ تَظْهَرَ خَطِيَّةً مُنْشِئَةً لِي بِالصَّالِحِ مَوْتًا، لِكَيْ تَصِيرَ الْخَطِيَّةُ خَاطِئَةً جِدًّا بِالْوَصِيَّةِ. فَإِنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ النَّامُوسَ رُوحِيٌّ، وَأَمَّا أَنَا فَجَسَدِيٌّ مَبِيعٌ تَحْتَ الْخَطِيَّةِ. لأَنِّي لَسْتُ أَعْرِفُ مَا أَنَا أَفْعَلُهُ، إِذْ لَسْتُ أَفْعَلُ مَا أُرِيدُهُ، بَلْ مَا أُبْغِضُهُ فَإِيَّاهُ أَفْعَلُ. فَإِنْ كُنْتُ أَفْعَلُ مَا لَسْتُ أُرِيدُهُ، فَإِنِّي أُصَادِقُ النَّامُوسَ أَنَّهُ حَسَنٌ. فَالآنَ لَسْتُ بَعْدُ أَفْعَلُ ذلِكَ أَنَا، بَلِ الْخَطِيَّةُ السَّاكِنَةُ فِيَّ. فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ سَاكِنٌ فِيَّ، أَيْ فِي جَسَدِي، شَيْءٌ صَالِحٌ. لأَنَّ الإِرَادَةَ حَاضِرَةٌ عِنْدِي، وَأَمَّا أَنْ أَفْعَلَ الْحُسْنَى فَلَسْتُ أَجِدُ. لأَنِّي لَسْتُ أَفْعَلُ الصَّالِحَ الَّذِي أُرِيدُهُ، بَلِ الشَّرَّ الَّذِي لَسْتُ أُرِيدُهُ فَإِيَّاهُ أَفْعَلُ. فَإِنْ كُنْتُ مَا لَسْتُ أُرِيدُهُ إِيَّاهُ أَفْعَلُ، فَلَسْتُ بَعْدُ أَفْعَلُهُ أَنَا، بَلِ الْخَطِيَّةُ السَّاكِنَةُ فِيَّ. إِذًا أَجِدُ النَّامُوسَ لِي حِينَمَا أُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ الْحُسْنَى أَنَّ الشَّرَّ حَاضِرٌ عِنْدِي. فَإِنِّي أُسَرُّ بِنَامُوسِ اللهِ بِحَسَبِ الإِنْسَانِ الْبَاطِنِ. وَلكِنِّي أَرَى نَامُوسًا آخَرَ فِي أَعْضَائِي يُحَارِبُ نَامُوسَ ذِهْنِي، وَيَسْبِينِي إِلَى نَامُوسِ الْخَطِيَّةِ الْكَائِنِ فِي أَعْضَائِي. وَيْحِي أَنَا الإِنْسَانُ الشَّقِيُّ! مَنْ يُنْقِذُنِي مِنْ جَسَدِ هذَا الْمَوْتِ؟ أَشْكُرُ اللهَ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ رَبِّنَا! إِذًا أَنَا نَفْسِي بِذِهْنِي أَخْدِمُ نَامُوسَ اللهِ، وَلكِنْ بِالْجَسَدِ نَامُوسَ الْخَطِيَّةِ.": رغم أن بولس يتخفى خلف أسلوبه الملتوي، إلا أن رأيه بخصوص الشريعة قد اتضح. فهو يجعل الشريعة سببا في ظهور المعصية، ويستند في ذلك على أصل صحيح؛ وهو ما قررناه نحن سابقا بارتكازنا على الوحي، عندما أخبر الله عن انقسام الناس بعد إرسال الرسل في قوله تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ} [البقرة: ٢١٣]. ولقد لبس إبليس على بولس في ضلاله، عندما أبرز له الأصل الواحد للناس من جهة الخلق، وأبرز له في المقابل العدل الإلهي والرحمة الإلهية العامة. فأراد بولس بإيعاز من الشيطان، أن ينفي الرحمة الخاصة بالمؤمنين المتشرعين، بفتح بابها أمام غير المتشرعين بواسطة "إيمانه" المزعوم. وهذا يُشبه كثيرا، ما يدل عليه إبليس اليوم أتباعه من مبادئ الإنسانية العامة، التي ينبغي أن تكون متجاوزة للدين. وكما انطلى الخطاب الشيطاني على

بولس نفسه، ثم على أتباعه بعده؛ كذلك ينطلي الآن على كثير من أهل الدين، وعلى الخصوص من المسلمين. فنجدهم من هذا الوجه، يُقرّون بالإيمان لكل من زعم أنه مؤمن، من غير اعتبار لحكم الله في ذلك؛ ونجدهم في النهاية يتحكمون بعقولهم حتى في الآخرة، عند حكمهم لجُلّ الناس (إن لم نقل كلهم) بدخول الجنة. ولقد بلغ الأمر من شيوع الخطاب الشيطاني، إلى الحد الذي أصبح فقهاء الدين أنفسهم، لا يجرؤون على التمييز بين مؤمن وكافر، ولا بين دين ودين. وإن بولس بحرصه على قبول إيمان اليونانيين الوثنيين، وبطعنه في تمسك اليهود بالشريعة في مقابل ذلك، يدعو إلى تسوية بين حق جزئي وباطل تام؛ في انتظار بلوغ تسوية تامة تُفرغ الدين من كل معانيه، وإن أبقى هو له على غطاء باهت يُسميه الحياة بالمسيح، المقتضية لانتفاء معنى المعصية بالكلّيّة. هذا، مع أن عيسى عليه السلام، لم يقصد من دعوته للفريسيين في زمانه، إلى نبذ شريعة موسى، كما نكرر دائما؛ بل إلى إضافة الإيمان به إليها فحسب، ليكتمل تديُّنهم. وهكذا يتبيّن بأوضح دليل، أن بولس استحدث عقيدة خاصة به، ولا صلة لها بالمسيح عليه السلام، أو بالدين الواحد المؤسَّس قبل ميلاده هو نفسه. وبما أن المسيحيين الأُول، قد غطت مبالغتهم في تعظيم عيسى، على اعتبار توسُّطه سلسلة الرسل عليهم السلام، كما تتوسط الحلقة الواحدة العِقد الواحد؛ فإنهم لم يتنبهوا إلى أن بولس –ومن سيتبعه في تنظيره– سيجعلهم منقطعين عن الدين الواحد المستمر بحقيقته في البشرية جمعاء، بكل أطوار تاريخها، المعلوم منها وغير المعلوم. وهم –المسيحيين– بانقطاعهم عن الدين الواحد، سيخرجون عن فئة المتدينين بالمعنى المتعارف عليه، ويدخلون ضمن المجموعات الدينية والطوائف (Sects)، وإن كثُر عددهم، وتُوُهِّمت وحدتهم في الظاهر.

ويعرض بولس في الجزء الثاني من هذه الفقرة، لمسألة القدر، ليؤكد بها مذهبه. وخلاصة نظريته أن العبد إما أن يكون مخيرا، وبالتالي فلا معنى لتكليفه، من جهة الروح؛ وهو يزعم أنه بالإيمان قد خلص (تزكى) ولم يعد للشر (الموت) حظ فيه؛ وإما أن العبد غير مخير، وبالتالي فإنه لا معنى لتكليفه أيضا، ما دام الفاعل على التحقيق غيره لا هو. وهنا ينبغي أن نوضح أمورا، التبست على بولس، وتلتبس على كثيرين ممن لا علم لهم ولا نور؛ وهي:

١. إن بولس يختلط عليه معنى الاختيار بمعنى الإرادة؛ ونحن نقول: الاختيار: معناه أن يكون للعبد حرية في الترجيح بين أمرين أو أكثر؛ من الناحية الوجدانية، بأن يرى أحد الأمور أنسب له؛ أو من الناحية العملية، عندما يفعل أمرا بعينه، ويترك ضده. ولعل القارئ سيلاحظ أننا لم نجعل الاختيار للعقل، وذلك لأن العقل ملزم بالمنطق الذي يسلك عليه؛ وبهذا ينتفي لديه الاختيار من هذا الوجه. وهذا الذي نذكره هنا، من أكبر دلائل التوحيد، لو أن الناس كانوا يتفطنون!... ونعني من كلامنا أن العبودية ثابتة للعقل بعدم ثبوت حريته. يقول الله تعالى: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [القصص: ٦٨]. ومعنى الآية أن الله وحده المختار فيما يشاء من خلقه، وأما العباد فلا حرية لهم في مستوى المشيئة؛ لأن مشيئتهم هي مشيئة الله عينها. يقول الله تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير: ٢٩]. والآية من سورة القصص تدل دلالة جلية، على أن الله هو الخالق لجميع الخلق؛ ومن ضمن الخلق أفعال العباد وخواطرهم (الأفكار). وهذا هو المعنى الذي يلتبس على الجاهلين من أمثال بولس، والذين يجعلونه منافيا لإرادة المخلوق، وبالتالي هادما لأساس الشريعة. وما علموا أنهم يتكلمون في مرتبتيْن متمايزتيْن، بما يجعل اتصال النسق لديهم ممتنعا، وبالتالي استنتاجاتهم خاطئة. ونعني بالمرتبتيْن: مستوى المشيئة، ومستوى الإرادة.

٢. إن بولس يجهل التفريق بين المشيئة والإرادة، ويجعلهما معنى واحدا؛ والحقيقة هي أن المشيئة غير الإرادة بالنظر إلى الأشياء ذاتها. ونعني أن الأشياء لا تكون إلا بالمشيئة، والمشيئة بهذا الاعتبار سابقة عليها في المرتبة؛ وأما الإرادة فتأتي بعد العلم بالأشياء لا قبل ذلك. وإن نحن عدنا إلى العبد، فإننا نجده يشاء الأشياء بمشيئة الله نفسها، ويُريدها بصنفيْن من الإرادة: الصنف الأول: وهي إرادة الله ذاتها التي يقول الله عنها سبحانه: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}

[يس: ٨٢]؛ وهذه يُسميها بعضهم إرادة تكوينية، ولكنهم يخلطون بينها وبين المشيئة. وأما الصنف الثاني: فهو ما تتعلق به الشريعة، وهو توجه العبد إلى إبراز المعدوم من العدم إلى الذهن ثم إلى الفعل. ومؤاخذة الشريعة منوطة بالتوجه في الإبراز، في المستويَيْن الذهني والفعلي، لا بغيره. وحتى هذا المستوى، فإنه لا يخرج عن إرادة الله؛ لكن يختلف الناس في العلم به والجهل؛ بسبب شهود النفس. ومن باب الإبراز الذهني، ما هو داخل في النيات، إن هي بلغت طور العزم؛ يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ! فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ.»[1]. وأما إن لم تبلغ النية العزم، فإن الله يتجاوز عنها لهذه الأمة خصوصا؛ إكراما لنبيها صلى الله عليه وآله وسلم. ويقول صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا وَسْوَسَتْ، أَوْ حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا؛ مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ، أَوْ تَكَلَّمْ.»[2]. وهذا يعني أن الشرائع السابقة، كانت تتعلق بحديث النفس أيضا؛ وهو ما كان يسميه عيسى كثيرا "شر القلب". وبولس، لم يكتف بمخالفة الشريعة في مستوى القلب وحده، ولكن وصل إلى مخالفتها بالفعل. وهذا أمر شنيع، لم يجرؤ على القول به حتى الفسقة من اليهود وعُصاتهم.

٣. يبقى الآن، أن نسأل: ما هو السبب في تعلق المؤاخذة الشرعية بالمخالف، إذا كان الله هو من شاء المعصية وهو من أرادها سبحانه؟ فنقول:

ا- ينبغي أن نقرر هنا أن الله تعالى رغم إرادته للمعصية، فإنه لم يأمر بها. يقول الله تعالى: {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ} [الأعراف: ٢٨، ٢٩]. وعلى هذا، فإن كل من يفهم من الإرادة الأمر، فليعلم أنه من الأسلم له أن لا يخوض في هذه المسائل؛ لأن العطب فيها قريب. وفي المقابل، إن من يحرص على اتباع الأمر، يكون على خير كثير، وإن قلّ علمه بما نذكر؛ لأن المطلوب من العبد القيام بالأمر الإلهي، لا العلم به. وأما من يحوز فضل العلم وفضل العمل بالأمر، فإنه يكون في أرفع المنازل. ولسنا نعني هنا بالعلم إلا ما يكون من تعليم الله، لا مما دخل فيه الناس من باب الفضول وتحكّم الأهواء!...

ب- إن الله لم يُكلّف الناس امتثال الأمر، حتى أقروا على أنفسهم جهلا، بأنهم يفعلون ويختارون. وهذا وجه من وجوه معنى قول الله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا . لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الأحزاب: ٧٢، ٧٣]. وحمل الأمانة، له مقتضيات؛ منها العلم بها وبكيفية حملها. وهذا لا يتوافر إلا لمن كان في كل شؤونه قائما بالله؛ أي من كان خليفة عن الله. وهذا يحمل من بين بني آدم الأمانة بالفعل، في الوقت الذي يبقى غيره حاملا لها بالقوة (قابلا لحملها). والحامل لها بالقوة، لا يتمكن من أدائها، كما استلمها؛ ومن هنا تتوجه المطالبة عليه. يقول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [النساء: ٥٨]؛ وأهلها هنا هو الله. وبما أنه لم يدَع أداءَ الأمانة إلا الإنس والجن، من بين كل المخلوقين، فإنه لم يكلف من المخلوقين غيرهم؛ مع اعتبار الجن ملحقين بالإنس في الحكم، وليسوا أُصلاء. وذلك لأن الله عندما حمّل آدم الأمانة، اعترض إبليس (وهو من الجن) وزعم أنه أولى بها منه. فكانت هذه الدعوى سببا في تكليف الجن، من باب الإلحاق كما ذكرنا.

ج- إن الدعوى التي ظهرت من الإنس والجن، لم تظهر حتى غفلوا عن شهود الحق في أنفسهم. ولو تنبه المكلفون إلى حال سائر المخلوقين، لوجدوهم فانين عن أنفسهم في أفعالهم. ولو افترضنا أن أحدا سأل نمرا عن سبب افتراسه لشخص

---

[1] . متفق عليه، عن أبي بكرة رضي الله عنه.

[2] . متفق عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

من الأشخاص، كما يحدث في البلاد التي توجد بها كالهند، وأجاب النمر بما عنده، لظهر أنه لا يرى أنه افترس أحدا؛ لأنه لا يشهد فعله. ولهذا لم يتعلق التكليف به وبأمثاله من الدواب والحيوانات. ولو نظرنا إلى الملائكة، لوجدناهم في واقعة تنصيب آدم خليفة، يقولون: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [البقرة: ٣٢]. وهذا يعني أنهم فانون عن صفاتهم وبالتالي عن أفعالهم. وهذا يعني أنهم في سؤالهم ربهم قبل ذلك: {قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} [البقرة: ٣٠]، كانوا فانين عن شهود علمهم وكلامهم منهم؛ ولهذا لم يكن التكليف يتعلق بهم. يقول الله تعالى عنهم عليهم السلام: {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: ٦]. وهذا يعني أن المعصية لا تُتصوَّر منهم!... وأما الإنسان (أغلب الجنس)، فإنه انحجب عن شهود صفات ربه وأفعاله، وصار يشهدها من نفسه، فنزل عليه الخطاب التكليفي، ليرده عاجلا وآجلا إلى الحق. وهذا الكلام يجرنا إلى الحديث عن العصمة، لأننا نراها مجهولة لدى القائلين بها من المسلمين.

د- إن معنى العصمة، ليس هو كما يفهمه العامة من عدم التلبس بالمعصية؛ لأن المعصية قد ارتكبها آدم أبو البشر، ثم ارتكبها بالوراثة جميع أبنائه. ولسنا نعني بالوراثة هنا، ما يقوله بولس عن تحمل الأبناء لتبعات أبيهم أصالة؛ ولكننا نعني استعداد الأبناء المركوز فيهم، والذي يجعلهم قابلين لأن تظهر منهم المعصية. ولما كانت المعصية بهذا العموم، كان لا بد للعصمة من معنى خاص تقوم عليه؛ وليس إلا فناء العبد عن شهود الفعل من نفسه، وإن ظهر منه على صورة معصية. ونعني من هذا، أن العبد المعصوم، لا تعني عصمته عدم ارتكابه صورة المعصية؛ وإنما تعني أنه لا يشهدها منه، بل يشهدها فعلا من الحق؛ وفعل الحق لا يوصف بطاعة ولا بمعصية، بل يوصف بأنه حق. ومن كان هذا شهوده -من الأنبياء ومن الأولياء- فإن المؤاخذة الشرعية لا تتعلق به. وهذا هو معنى قول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا . وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا} [الفتح: ١ - ٣]. وقد غلط كثير من العلماء عند تفسيرهم مغفرة الذنب المتقدم والمتأخر، بعدم تعلق صورة الذنب به صلى الله عليه وآله وسلم؛ وذلك لأن الله قد أثبته، وما أثبته الله، فلا نافي له. ولا فرق هنا بين الذنب الصغير والكبير، كما يتوهم ذلك الجاهلون. ومن هذا الباب قال القائل: إن كل الذنوب كبائر لا صغيرة فيها، بالنظر إلى من عُصي بها سبحانه. ومغفرة الذنب المتقدم والمتأخر في حق النبي صلى الله عليه وآله وسلم، هي لشهوده الله في كل أفعاله. وإذا لم يكن هذا الشهود له صلى الله عليه وآله وسلم، فلمن يكون بعده؟!... وإذا تحقق هذا للأنبياء عليهم السلام، فإنه يتحقق للأولياء عندما يرثون شهودهم؛ ومن هنا كان بعض الأولياء معصومين أيضا. وإن نحن اعتبرنا معنى العصمة الذي بيّنّاه، فإننا سنجد القائلين بها من أهل السنة في حق الأنبياء، ومن الشيعة في حق الأئمة من أهل البيت؛ جاهلين بمعناها، منزلين إياها على غير وجهها. وبما أن بولس ومن عداه من التلاميذ وأئمة النصارى الذين أتوا بعدهم في الزمان، لم يكونوا من أهل مرتبة شهود أفعال الله؛ فإن كلامهم عن عدم تعلّق المؤاخذة الشرعية بهم، لمجرد إيمانهم المبهم بعيسى عليه السلام (زعما)؛ ليس إلا دليلا على جهلهم بمعنى التكليف الشرعي، وبتوابعه من الأحكام.

هـ- ومن باب التوسع، سنسأل: ما حكم من ينسب أفعاله كلها (صالحها وطالحها) إلى الله، بعد سماع كلامنا، عن سر عدم توجه المؤاخذة الشرعية على المعصومين؟ هل يكون معصوما أيضا، بهذا الصنف من الاحتيال؟... فنجيب:

أولا: نحن لم نتكلم عن نسبة أفعال العبد إلى الله، بل عن شهود العبد فعل الله؛ وبين الأمرين فرق بيّن.

ثانيا: إن الله يحكم على عبده، بما يشهد، لا بما ينسبه اعتقادا. وهذا، لأن المؤمنين جميعا يُفترض فيهم أن ينسبوا خلق الأفعال إلى الله، بغض النظر عن حكم الشرع فيها؛ وهذا هو مُستنَد الإيمان بالقدر خيره وشره من المرتبة الأدنى. ولهذا، فإن المعصوم، هو من لم يصدر عنه الفعل، وإن صدر منه. وكلامنا هذا يعني، أن الأمور متواصلة بين المراتب؛ لكن بغير

ما يُتوقَّع منها، وإنما بما تُعطيه المرتبة من نفسها في المسائل. وهذا، علم مستقل لوحده، يُعطي تتبع العلوم في المراتب. ولكن لا يحوزه إلا من يكون قد فرغ منه ذوقا، كما هو شأن كل علوم التزكية.

ثالثا: إن المسألة منوطة بالمراتب، بحيث لا يمكن لغير أهلها ادعاؤها؛ ومن ادعاها وصدّق نفسه، فإنه يكون جاهلا غاشا لنفسه فحسب. لهذا، فلا مجال لأن يتقمص أحدهم كلامنا، وهو دونه في المرتبة؛ وإن اعتقده اعتقادا. ومن هذا الوجه، كنا نقول بعدم نفع العقائد المصطنعة لأصحابها، بل بتحقُّق ضررها. وذلك لأن المرء يُحاسب على عقائده، خصوصا إذا كانت ضلالات من اختلاق وهمه، أو وهم أئمته في الضلال. ولو علم المتكلمون والمنظّرون، ما ينتظرهم عند ربهم من حساب، لتمنوا أن يكونوا من البلهاء لا من العقلاء!...

ثم يقول بولس في الأصحاح الثامن: "إِذًا لاَ شَيْءَ مِنَ الدَّيْنُونَةِ الآنَ عَلَى الَّذِينَ هُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ، السَّالِكِينَ لَيْسَ حَسَبَ الْجَسَدِ بَلْ حَسَبَ الرُّوحِ. لأَنَّ نَامُوسَ رُوحِ الْحَيَاةِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ قَدْ أَعْتَقَنِي مِنْ نَامُوسِ الْخَطِيَّةِ وَالْمَوْتِ. لأَنَّهُ مَا كَانَ النَّامُوسُ عَاجِزًا عَنْهُ، فِي مَا كَانَ ضَعِيفًا بِالْجَسَدِ، فَاللهُ إِذْ أَرْسَلَ ابْنَهُ فِي شِبْهِ جَسَدِ الْخَطِيَّةِ، وَلأَجْلِ الْخَطِيَّةِ، دَانَ الْخَطِيَّةَ فِي الْجَسَدِ، لِكَيْ يَتِمَّ حُكْمُ النَّامُوسِ فِينَا، نَحْنُ السَّالِكِينَ لَيْسَ حَسَبَ الْجَسَدِ بَلْ حَسَبَ الرُّوحِ. فَإِنَّ الَّذِينَ هُمْ حَسَبَ الْجَسَدِ فَبِمَا لِلْجَسَدِ يَهْتَمُّونَ، وَلكِنَّ الَّذِينَ حَسَبَ الرُّوحِ فَبِمَا لِلرُّوحِ. لأَنَّ اهْتِمَامَ الْجَسَدِ هُوَ مَوْتٌ، وَلكِنَّ اهْتِمَامَ الرُّوحِ هُوَ حَيَاةٌ وَسَلاَمٌ. لأَنَّ اهْتِمَامَ الْجَسَدِ هُوَ عَدَاوَةٌ للهِ، إِذْ لَيْسَ هُوَ خَاضِعًا لِنَامُوسِ اللهِ، لأَنَّهُ أَيْضًا لاَ يَسْتَطِيعُ. فَالَّذِينَ هُمْ فِي الْجَسَدِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُرْضُوا اللهَ. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلَسْتُمْ فِي الْجَسَدِ بَلْ فِي الرُّوحِ، إِنْ كَانَ رُوحُ اللهِ سَاكِنًا فِيكُمْ. وَلكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَيْسَ لَهُ رُوحُ الْمَسِيحِ، فَذلِكَ لَيْسَ لَهُ. وَإِنْ كَانَ الْمَسِيحُ فِيكُمْ، فَالْجَسَدُ مَيِّتٌ بِسَبَبِ الْخَطِيَّةِ، وَأَمَّا الرُّوحُ فَحَيَاةٌ بِسَبَبِ الْبِرِّ.": يواصل بولس تنظيره السقيم، بإبرازه لازدواجية الجسد والروح، من دون أن يعلمها على حقيقتها. ونعني من كلامنا، أنه عندما يتكلم عن مقام الروح، فهو لا يعلمها، ولم يبلغ مرتبتها حتى يكون من المعصومين الذين تكلمنا عنهم آنفا. وعلى هذا، فإنه يغش هنا نفسه، ويغش كلّ من يُصدّقه. ودليلنا على ما نقول، هو جهله بالجسد وبأحكامه نفسها؛ لأنه يذهب به إلى حكم الغنوصيين الذين يعتبرونه شرا. والحقيقة على غير ذلك؛ لأن الجسد لا يكون شرا إلا في حق من وقعوا تحت أسره، وكانوا عبيدا لطبيعتهم، وحدهم. وأما من تزكّوا بالإيمان والعمل الصالح، على أيدي الربانيين من الرسل أو من الورثة، فإنه يصير في حقهم خيرا. وذلك لأن الخيرات التي تبلغها النفس في نهاية عروجها، لم تكن لتبلغها لولا استعمالها للجسد وتسخيرها له. وهنا ينبغي أن نشير إلى أمر خطير، يتعلّق بتنعم الناس في الآخرة وبعذابهم؛ وهو أنه لولا ذوقهم عيّنات من ذلك كله وإحساسهم له بأجسادهم، كيف كانوا سيتمكنون من ذوق محسوسات الآخرة؟ فعندما يقول الله تعالى (على سبيل المثال): {وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ} [الواقعة: ٢٠، ٢١]؛ فهل كانت الروح ستعلم ذلك من دون الجسد؟... وهذا يؤدي بنا إلى الكلام عن حقيقة العذاب والنعيم في الآخرة؛ وهل هما حسّيّان؟ أم معنويان؟... ولعل القارئ قد علم من خلال كلامنا السابق أنهما حسّيّان؛ ولكن هذا لا يعني أنهما محصوران في المحسوس وحده، لأن من العذاب والنعيم ما هو معنوي، في الدنيا والآخرة. وإن كل من ينظر إلى الآخرة، على أنها مخالفة للدنيا في كل شيء، يكون مخطئا؛ لأن افتراض الفصل التام بينهما يجعل الدنيا غير ذات قيمة، بينما هي مقدمة للآخرة وأمّ لها. ثم إن القارئ قد يلاحظ أننا استعملنا مصطلح "النفس"، ولم نستعمل مصطلح "الروح"، كما فعل بولس. وهذا لأن الروح الإنساني، بمجرد تكليفه بتدبير الجسد، فإنه يُصبح نفسا وتنتفي عنه صفة الروحيّة، إلا إن كان كعيسى منذ ولادته مؤيدا بروح القدس. وكل من لم يكن كذلك، فإنه يصير إلى مرتبة النفس، التي تختلف أطوارها، من أمّارة بالسوء، إلى لوّامة، إلى مطمئنة؛ ثم بعد ذلك يترقى إلى مقام الروح، عند تحقُّق وصوله لا قبله. وبما أن بولس وأمثاله من المسيحيين لا يبلغون في أحسن أحوالهم إلا النفس اللوامة، فإن كل كلامهم عن الروح، الذي يُقلدون فيه عيسى عليه

السلام، هو باطل لا أساس له. ولو أن بولس والمسيحيين من بعده، كانوا يُعظمون عيسى عن علم، لعلموا أنهم يُخالفونه في المرتبة مخالفة كبيرة؛ ولعلموا أن كلامه لهم كان من باب الدلالة على ما ينبغي أن يسعوا إليه، لا على ما هم عليه عند انطلاقهم، إن هم انطلقوا. وتبعا لما ذكرنا كله، فإن بولس عندما يتكلم عن الحياة بالروح، يتكلم بكلام مجرد، يتصوره في ذهنه، ولا مصداق له من واقعه. وهذا يخرج به من دون أن يعلم، عن طريق الإيمان إلى طريق الأيديولوجيا، كما أوضحنا سابقا. والدليل على ما نقول، هو أن العبد إذا بلغ مقام الروح في سلوكه (عروجه)؛ فإن جسده يأخذ حكم الروح هناك. وإن كان الأمر على هذه الشاكلة، فإن التبري من الجسد عندئذ لا يصح؛ بل إن العلم يقتضي أن يُراعى الجسد وأن يُنظر في تلبية حاجاته بما يوافق الشريعة دائما. وهذا يعني أن حكم الواصل بالنظر إلى الجسد، هو مخالف على التمام لحكم السالك، الذي ما يزال في طور المجاهدة؛ لأن السالك يطلب ترويض نفسه بالمخالفات، بينما الواصل قد تخلص منها (النفس)، وبالتالي فإن حكمه يكون قد تبدّل. ولن نطيل في تبيان الفرق بين السالك والواصل، لأن الكلام لن يكون في متناول إدراك غالبية من يقرأه؛ وبالتالي فإنه سيكون لغوا وعبثا. وكل الكلام الذي انتهى إليه بولس بزعمه، إلى عدم دينونته هو ومن جاراه في ضلاله، فإنه باطل بطلانا تاما، لا شبهة فيه.

ثم يضيف بولس: "وَإِنْ كَانَ رُوحُ الَّذِي أَقَامَ يَسُوعَ مِنَ الأَمْوَاتِ سَاكِنًا فِيكُمْ، فَالَّذِي أَقَامَ الْمَسِيحَ مِنَ الأَمْوَاتِ سَيُحْيِي أَجْسَادَكُمُ الْمَائِتَةَ أَيْضًا بِرُوحِهِ السَّاكِنِ فِيكُمْ. فَإِذًا أَيُّهَا الإِخْوَةُ نَحْنُ مَدْيُونُونَ لَيْسَ لِلْجَسَدِ لِنَعِيشَ حَسَبَ الْجَسَدِ.": وهذا تنظير، يقوم على تصور خاطئ لما هو عليه عيسى عليه السلام. وأين بولس من عيسى، حتى يتشبه به؟!... لأن النعمة نفسها التي يتكلم عنها، لا تجعله من مرتبة عيسى؛ وإنما تفتح له الباب لكي يتبعه فحسب. وهو بدل الاتباع، ترامى على المرتبة والمقام؛ وكأن ذلك متاح له!... وهذا من عمل النفس الأمارة بالسوء، التي تريد التربّب من دون أن تقطع أطوار العبودية. ولو نظر بولس إلى حقيقة نفسه، لوجد إبليس أخشى لله منه؛ لأنه مع سوئه الكبير، لم يجرؤ على مواجهة ربه بمزاحمته في ربوبيته!...

ثم يقول بعد ذلك: "لأَنَّهُ إِنْ عِشْتُمْ حَسَبَ الْجَسَدِ فَسَتَمُوتُونَ، وَلكِنْ إِنْ كُنْتُمْ بِالرُّوحِ تُمِيتُونَ أَعْمَالَ الْجَسَدِ فَسَتَحْيَوْنَ. لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَنْقَادُونَ بِرُوحِ اللهِ، فَأُولئِكَ هُمْ أَبْنَاءُ اللهِ.": ما زال بولس متأثرا بالمذهب الغنوصي، وما زال يتصور معاملة الجسد، على غير أصلها. وهو عندما يتكلم عن إماتة أعمال الجسد، يظن أنها منفصلة عن النفس، ويظن أن الروح لديه باق على مرتبته الأصلية؛ وهذا غلط، كما سبق أن بيّنّا. والمعنى الذي يقصد إليه بولس من "إماتة أعمال الجسد"، سيكون ضارا، غير نافع؛ بل لا يمكن أن يتحقّق على الوجه الذي يرومه. وذلك لأن النفس لا انفكاك لها عن الجسد البتة، فهي مرتبطة به ارتباطا أبديا؛ وهنا أيضا لا بد من التعريج على مسألة البعث، وهل هو بالروح؟ أم بالروح والجسد؟... والجواب واضح: وهو أنه بهما معا؛ لكن لا على هذه النشأة، بل على نشأة أخرى. والنشأة هنا، لا تعني الصورة، كما قد يفهم من لا علم له؛ لأن الصورة أبدية، وبها يُعرف المرء في الدنيا والآخرة. وأما ما ينبغي أن يكون عليه أصحاب التزكية من مجاهدة في بداية أمرهم، فليس هو بغرض إماتة أعمال الجسد، وهي أمر غير متاح؛ وإنما هو بغرض كسر تحكمه في النفس، وليعود إليها الحكم كما تُعطي مرتبتها. وفي أثناء ترقي النفس، يقع التطوُّر لها في الأطوار التي ذكرناها آنفا، والتي يدل عليها القرآن في ثلاثة مواضع، نوردها هنا بحسب الترتيب السلوكي:

١. النفس الأمارة بالسوء: يقول الله تعالى: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ} [يوسف: ٥٣]. والسوء في الشرع، هو ما يكون من أثر العدم الأصلي. وفي هذا المعنى جاء قول الله تعالى تعليما لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ} [الأعراف: ١٨٨]. وهذا السوء، يعود بنا إلى مسألة العصمة، ليتبيّن أن ما يفهمه الناس منها،

مخالف لمدلول هذه الآية، في جزء منه. والنفس في هذا الطور تكون تحت حكم الجسد، الذي هو تحت حكم الطبيعة. فلا تأمر في هذا الطور، إلا بما يخدم طبيعة الجسد، من دون مراعاة لحكم الشريعة الدال على أحكام الوجود. وإن أسلم العبد لنفسه قيادها هنا، وتركها تسير على هواها، فإن السوء يحيط به، إلى الحد الذي ينزل معه عن مرتبة الآدمية، ويبقى حيوانا شيطانيا. فإذا بلغ هذا الدرك، فإنه يفقد النور، ويصير ظلمة، تطلب الرجوع إلى عالمها إن هي غادرت الدنيا. وليس موطن الظلمة في الآخرة إلا النار التي لا نور فيها. وأما الاستثناء في آخر الآية من سورة يوسف، فهو لفتح الباب أمام المترقّين، من أهل الطورين الأعليين؛ لأن الترقي دخول في الرحمة الخاصة.

٢. النفس اللوامة: يقول الله تعالى: {وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} [القيامة: ٢]. ولا تكون النفس لوامة إلا بعد الإيمان، وعندما تصير محاسبة لصاحبها على أعماله: فإن كان خيرا موافقا للشرع، حمدته؛ وإن كان شرا مخالفا للشرع، لامته عليه؛ ومن هنا أتت تسميتها باللوامة. ومن هنا يتضح أن بولس عند نبذه للشريعة، يكون قد سدّ باب الترقي على نفسه وعلى من يتبعه من الناس؛ لأن هذه المرتبة لا تُنال إلا بها. والنفس في هذا الطور، تكون موزعة بين النور والظلمة؛ فتارة يغلب هذا، وتارة تغلب تلك؛ وهي في النتيجة، بحسب ما يغلب عليها. يقول الله عن هذا الصنف: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١٠٢]. ويقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنه: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا؛ فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ؛ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ؛ وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ.»[١]. والمقصود بالفتن في الحديث، ليس المعنى العام الذي يتبادر إلى الأذهان؛ ولكن هو الابتلاء الشرعي الذي يكون في كل ما يعرض للإنسان في كل أوقاته. فمن كان موفقا، أنكر الفتنة وباء بالنور المقابل لها؛ ومن كان مخذولا قبلها وباء بالظلمة على قدرها. وفي النتيجة، إما أن يصير القلب منيرا بنور الشرع؛ وإما أن يصير مظلما بظلمة الطبع. ومآله في الآخرة، إلى ما يُناسب حاله؛ وداره هي أمه من جهة المدد السابق له. يقول الله تعالى في حق الكافر: {وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ . فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ . نَارٌ حَامِيَةٌ} [القارعة: ٨ - ١١]؛ فهي أمه لأن مدده كان منها، كما تكون الأم أما عند إرضاعها لطفلها. وهذا يعني أن النار تربي أبناءها غيبا، وأن الجنة كذلك تربي أبناءها غيبا. وأما الربانيون الذين هم فوق هذا الطور، فحضرة الألوهية هي مربيتهم، من فوق ذلك كله. وعلى كل حال، فلوم النفس لصاحبها، معدود من جملة حسناتها؛ لذلك فإنه لا يخلد في النار، من يكون من أهل هذا الطور، وإن دخلها.

٣. النفس المطمئنة: يقول الله تعالى: {يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً . فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَادْخُلِي جَنَّتِي} [الفجر: ٢٧ - ٣٠]. وهذا يعني أن هذا الصنف من النفوس، قد غلب نوره ظلمته؛ وبالتالي قد رجع إلى ربه "النور" الحق. والدخول في العباد هنا، هو الكوْن ضمن فريقهم، وهم من اتصفوا بالعبودية؛ فكانوا لا يقبلون الربوبية المقابلة لها، ويرفضونها رفضا تلقائيا بسبب تحقُّقهم بعبوديتهم الأصلية. وهؤلاء العباد، يحرُمون على النار، كما تحرم الجنة على الكفار.

والانتقال بالنفس من طور السوء إلى الطمأنينة، مرورا بطور اللوم، هو ما يُسمى في الشرع تزكية؛ لأن التزكية طهارة ونماء، وهما معا متحققان بالترقي. والعبد كلما تقدم في سلوكه، يزداد نوره (وهو معنى النمو في الزكاة)؛ ويتخلص من ظلمته، وهو معنى الطهارة فيها. وأما بولس، فإنه لم يمنح نفسه فرصة الترقي، ولا دلها عليه؛ بل هو قد حكم لنفسه بأعلى

---

[١]. أخرجه مسلم، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

المراتب، من دون أن يصح له ذلك عملا وعلما. وهذا الطريق الذي سلكه، هو طريق أهل الضلال، لا طريق أتباع الأنبياء. وإن من بين المسلمين قوما يُشبهونه، سمعوا عما يصل إليه أهل الله بعد تخلصهم من نفوسهم، واستصعبوا مع ذلك سلوك طريقهم، ففعلوا مثلما فعل بولس من ادعاء المقام زورا؛ ومنهم من صار شيخا (إماما) لغيره، كما فعل بولس؛ فضلوا وأضلوا، وخسروا أنفسهم وأَخسروا غيرهم. ومن هنا يظهر أن الدين ليس مجالا خرافيا، يستطيع كل واحد أن ينسب إلى نفسه فيه ما يشاء؛ ولكنه مجال علمي دقيق، له مراتب ودرجات، لا يقطعها العبد إلا بعلم خاص وببرهان خاص؛ يشهد له بهما الوحي من وجهه الخاص، الذي لا قدم فيه لفقهاء الأحكام من مرتبة الإسلام. وهذا الخفاء، الذي يجعل هذه العلوم لا تُنال من الوحي إلا بإذن من الله وحده، هو ما يجعل الخواص ممتازين عن العوام. ونعني من هذا، لو أن القرآن والسنة كانت علومهما متاحة لكل ناظر، لادعاها من ليس من أهلها؛ ولَاختلط الأمر على السامع، حين يسمع الشيء نفسه من المتحققين ومن الكاذبين؛ ولكن الله منع غير السالكين على النهج القويم، من الاطلاع على تلك العلوم؛ وهكذا بقيت عزيزة إلا على أهلها، وبقي الطريق ظاهرا لمن طلب الاستدلال عليه؛ وهذا من رحمة الله العظيمة، المستوجبة للشكر. وإلى هذا المعنى يُشير قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ؛ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا؛ لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي، إِلَّا هَالِكٌ. مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا؛ فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ؛ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ. وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا؛ فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنِفِ، حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادَ.»[1]. والمحجة البيضاء المذكورة، هي بيضاء في حق أهل النور؛ أما العُمي، فإنهم لا يُميّزون بياضا من سواد. فلا يغترّنّ بالوصف فاقد البصر، كما نرى ذلك من الغافلين المشتغلين بزعمهم بالعلوم الشرعية؛ فإنهم عُمي وإن اشتغلوا بها. ومن رام منهم رؤية بياض المحجة فليعمل على تنوير بصيرته، على يد طبيب رباني ماهر.

ثم يقول بولس: "إِذْ لَمْ تَأْخُذُوا رُوحَ الْعُبُودِيَّةِ أَيْضًا لِلْخَوْفِ، بَلْ أَخَذْتُمْ رُوحَ التَّبَنِّي الَّذِي بِهِ نَصْرُخُ: «يَا أَبَا الآبُ». اَلرُّوحُ نَفْسُهُ أَيْضًا يَشْهَدُ لأَرْوَاحِنَا أَنَّنَا أَوْلاَدُ اللهِ. فَإِنْ كُنَّا أَوْلاَدًا فَإِنَّنَا وَرَثَةٌ أَيْضًا، وَرَثَةُ اللهِ وَوَارِثُونَ مَعَ الْمَسِيحِ. إِنْ كُنَّا نَتَأَلَّمُ مَعَهُ لِكَيْ نَتَمَجَّدَ أَيْضًا مَعَهُ. فَإِنِّي أَحْسِبُ أَنَّ آلاَمَ الزَّمَانِ الْحَاضِرِ لاَ تُقَاسُ بِالْمَجْدِ الْعَتِيدِ أَنْ يُسْتَعْلَنَ فِينَا. لأَنَّ انْتِظَارَ الْخَلِيقَةِ يَتَوَقَّعُ اسْتِعْلاَنَ أَبْنَاءِ اللهِ. إِذْ أُخْضِعَتِ الْخَلِيقَةُ لِلْبُطْلِ لَيْسَ طَوْعًا، بَلْ مِنْ أَجْلِ الَّذِي أَخْضَعَهَا عَلَى الرَّجَاءِ. لأَنَّ الْخَلِيقَةَ نَفْسَهَا أَيْضًا سَتُعْتَقُ مِنْ عُبُودِيَّةِ الْفَسَادِ إِلَى حُرِّيَّةِ مَجْدِ أَوْلاَدِ اللهِ. فَإِنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الْخَلِيقَةِ تَئِنُّ وَتَتَمَخَّضُ مَعًا إِلَى الآنَ. وَلَيْسَ هكَذَا فَقَطْ، بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ لَنَا بَاكُورَةُ الرُّوحِ، نَحْنُ أَنْفُسُنَا أَيْضًا نَئِنُّ فِي أَنْفُسِنَا، مُتَوَقِّعِينَ التَّبَنِّيَ فِدَاءَ أَجْسَادِنَا. لأَنَّنَا بِالرَّجَاءِ خَلَصْنَا. وَلكِنَّ الرَّجَاءَ الْمَنْظُورَ لَيْسَ رَجَاءً، لأَنَّ مَا يَنْظُرُهُ أَحَدٌ كَيْفَ يَرْجُوهُ أَيْضًا؟ وَلكِنْ إِنْ كُنَّا نَرْجُو مَا لَسْنَا نَنْظُرُهُ فَإِنَّنَا نَتَوَقَّعُهُ بِالصَّبْرِ. وَكَذلِكَ الرُّوحُ أَيْضًا يُعِينُ ضَعَفَاتِنَا، لأَنَّنَا لَسْنَا نَعْلَمُ مَا نُصَلِّي لأَجْلِهِ كَمَا يَنْبَغِي. وَلكِنَّ الرُّوحَ نَفْسَهُ يَشْفَعُ فِينَا بِأَنَّاتٍ لاَ يُنْطَقُ بِهَا. وَلكِنَّ الَّذِي يَفْحَصُ الْقُلُوبَ يَعْلَمُ مَا هُوَ اهْتِمَامُ الرُّوحِ، لأَنَّهُ بِحَسَبِ مَشِيئَةِ اللهِ يَشْفَعُ فِي الْقِدِّيسِينَ. وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعًا لِلْخَيْرِ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَ اللهَ، الَّذِينَ هُمْ مَدْعُوُّونَ حَسَبَ قَصْدِهِ. لأَنَّ الَّذِينَ سَبَقَ فَعَرَفَهُمْ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ لِيَكُونُوا مُشَابِهِينَ صُورَةَ ابْنِهِ، لِيَكُونَ هُوَ بِكْرًا بَيْنَ إِخْوَةٍ كَثِيرِينَ. وَالَّذِينَ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ، فَهؤُلاَءِ دَعَاهُمْ أَيْضًا. وَالَّذِينَ دَعَاهُمْ، فَهؤُلاَءِ بَرَّرَهُمْ أَيْضًا. وَالَّذِينَ بَرَّرَهُمْ، فَهؤُلاَءِ مَجَّدَهُمْ أَيْضًا. فَمَاذَا نَقُولُ لِهذَا؟ إِنْ كَانَ اللهُ مَعَنَا، فَمَنْ عَلَيْنَا؟": وكما ذكرنا سابقا، فإن ضلال بولس لا بد أن يجره إلى ضلالات متسلسلة؛ نراها هنا تبدأ بمقولة أبوة الآب في قوله: "يَا أَبَا الآبُ"؛ وهذا يجعل الأبوة متسلسلة لديه. وفي المقابل فإن البنوة ستصير أيضا متسلسلة بحسب الحاجة، وهو ما يُشير إليه قوله: "اَلرُّوحُ نَفْسُهُ أَيْضًا يَشْهَدُ لأَرْوَاحِنَا أَنَّنَا أَوْلاَدُ اللهِ. فَإِنْ كُنَّا أَوْلاَدًا فَإِنَّنَا

[1] . أخرجه ابن ماجة وأحمد والحاكم في المستدرك، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه.

وَرَثَةٌ أَيْضًا، وَرَثَةُ اللهِ وَوَارِثُونَ مَعَ الْمَسِيحِ.". غير أن البنوة التي يزعمها بولس، ليست بنوة لعيسى؛ وإنما هي بنوة لله. ولو أنه كان على علم بمعنى الأبوة والبنوة من جهة المعنى -وهو ما لا يصح له- لقلنا بأنه يعلم ما يقول، ولأحسنّا به الظن؛ ولكنه يُصرح بمراده عند قوله: "فَإِنْ كُنَّا أَوْلاَدًا فَإِنَّنَا وَرَثَةٌ أَيْضًا، وَرَثَةُ اللهِ وَوَارِثُونَ مَعَ الْمَسِيحِ.". وغلطه في قوله هذا، من وجهيْن: الأول، هو أن وراثة الله لا تصح لأحد من العباد؛ ما دامت الوراثة تستصحب معها معنى موت الموروث، والله سبحانه لا يموت!... ولهذا كان هو الوارث سبحانه لعباده، لا العكس. يقول الله تعالى: {وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ} [الحجر: ٢٣]؛ أي بعد موت العباد. ويقول سبحانه أيضا: {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} [مريم: ٤٠]؛ وهذا بعد الموت العام عند الصعقة الكبرى. ومن أسمائه سبحانه "الوارث". وأما الوجه الثاني، فإن بولس لو كان على الهدى، لكان وارثا لعيسى عليه السلام، لا وارثا معه. وبهذا الانحراف الشنيع، يكون بولس قد أعلن أنه من أتباع الشيطان؛ وأنه منصَّب من قِبله لإضلال الناس، لا لهدايتهم كما يزعم!... وإن هذه المعاني، يعلمها من كان من أهل المرتبة الأولى للدين؛ وبفقدها يكون بولس ومَن على شاكلته فاقدين لأصل الدين نفسه، بما هو دين. وإن البنوة التي يزعمها بولس لنفسه، كان الأجدر به أن ينتسب فيها إلى عيسى من جهة المعنى، لو أنه كان يعقل؛ وهو بمزاحمته فيها لعيسى، فإنه يكون خارجا عن نهجه ومفارقا لطريقه بالقطع. فكيف بعد هذا، يعُدُّه المسيحيون مسيحيا؟!... ولن نقبل هنا مغالطة أحد من القائلين بأن عيسى هنا هو الرب ذاته؛ لأن هذا سيجعل الكلام غير ذي معنى. ونعني من هذا، أن من أراد أن يتفنن في الكلام على وجوه المسائل، فعليه أن يُميّزها، وأن يخص كلاً منها بما يُناسبها؛ لا أن يجعلها في صعيد واحد، فينقض بعضها بعضا، كما هو الشأن هنا. وإن ما نشير إليه، لا يدل إلا على أن المسيحيين -في مجملهم- فاقدون للمعايير الدينية، مُغرقون في السُّريالية. وهم قد وقعوا في هذا الخلط الكبير، عند اجترائهم على الكلام في المعاني، من غير أهلية، كما هو واضح. ولكن الفرق بينهم وبين من يقع فيما وقعوا فيه من أمة الإسلام، هو أن جهالتهم صارت عامة فيهم، ولم تقتصر على فئة من بينهم. وهذا أمر عجيب، يتساءل المرء حياله عن مكانة أئمتهم فيهم، وعما جرى، لكي ينحرفوا كل هذا الانحراف؟!... ويظهر تنظير بولس جليا، عندما يُقرّ بأنه لم يُدرك ما يتكلّم عنه، وإنما يتوقعه؛ وبأنه لا يعلم ما يُصلي لأجله كما ينبغي. وهذا تلفيق يريد به أن يجعل لنفسه ولأتباعه مخرجا مما يدّعونه، إن طالبتهم أنفسهم بالبرهان عليه، في حالة صفاء. ولم يُفلح بولس بقوله هذا، إلا في إسقاط كل المعايير الدينية، التي بها تكون الشهادة للعباد بصحة حال من الأحوال أو مقام من المقامات. وهكذا فإن كل واحد سيدّعي ما يشاء من غير حساب!... ولقد سمعنا من بعض معاصري النصارى، مقولات في الإيمان بحسب الزعم، ليست إلا دليلا على المرض النفسي، لو أنهم اهتدوا إلى طبيب معالِج، خبير بحالهم. وهذا الخلط، كما أنه لا يصح في الأمور الدنيوية، أو في العلوم الكونية، فإنه في الأمور الدينية أشد امتناعا وأبعد عن الوقوع، ما التُزم الصراط المستقيم. نقول هذا، ونحن نعلم أن العامة -بسبب جهلهم- يتوهمون العكس؛ وهو ما يجعلهم عرضة لتلاعب الشيطان. ولقد رأينا من هذا الصنف، من لا يبلغ أن يكون سليم العقل، وهو يزعم الخصوصية الكبرى!... ويتكلم بالمصطلحات الخاصة في غير محلها من دون أن يشعر!... والأعجب من هذا، أن هؤلاء يجدون لهم من طبقتهم أتباعا كُثرا، يحسبهم الناظر إلى عددهم أنهم على شيء!... وبولس، لم يكن بخلاف هؤلاء؛ ولا ينفعه في مزاعمه أن يكون أتباعه كثيرين، كما لا ينفع أحدا من الضالين المُضلّين ذلك. وأما تمسح بولس بعيسى، فهو يُشبه تمسح ضُلال المتصوفة منا، عندما تجدهم مع ضلالهم، يُصرّون على أنهم قادريّون أو رفاعيّون!... وإن كان هذا الفعل ينطلي على عوام العوام، فإنه لا ينبغي بالأحرى، أن ينطلي على العقلاء من أهل المرتبة الأولى من الدين. وأما أصحاب المراتب العليا، فإنهم يعلمون مقام المتكلِّم، وإن خالف كلامُه حاله؛ لأنهم يكونون على نور. ونعني من هذا، أن المريدين الصادقين، لا يتمكن أحد من استغفالهم؛ فكيف بمن هو أعلى مرتبة منهم!...

ثم يضيف بولس: "اَلَّذِي لَمْ يُشْفِقْ عَلَى ابْنِهِ، بَلْ بَذَلَهُ لأَجْلِنَا أَجْمَعِينَ، كَيْفَ لاَ يَهَبُنَا أَيْضًا مَعَهُ كُلَّ شَيْءٍ؟": هذا الكلام باطل، لا مُستند من الحق له!... وعبارة "اَلَّذِي لَمْ يُشْفِقْ عَلَى ابْنِهِ"، لا تليق بالله، كما لا تليق بمكانة عيسى عند الله. والمُصيبة هي أن العوام من أمثال بولس، يرون أنفسهم الغاية من معاملة الله لعيسى؛ وكأنهم أرفع مكانة منه عليه السلام!... ولم يسأل بولس نفسه، إن كان الله لم يُشفق (يرحم) على عيسى رسوله، فكيف يُرحم هو وأمثاله؟!... ونحن نقول هذا، لا من باب تناول المسألة كما هي في العلم؛ ولكن لمحاجة بولس فحسب. والقاعدة هي أن الله يختص برحمته عباده المقربين، ثم يشمل بها غيرهم، بحسب قُربهم منهم. وبولس، لم يراع هذه القاعدة، ولا حسب حساب المراتب والمقامات. فهو يتحرك في مجال المعاني على غير هدى، كمن يأخذه الموج قهرا إلى حيث يريد، وتارة يرفعه وتارة أخرى يخفضه. كل هذا، لأنه دخل البحر من غير علم بالسباحة، ولا آلة (وسيلة) تُغنيه عنها.

ثم يُضيف بعد ذلك: "مَنْ سَيَشْتَكِي عَلَى مُخْتَارِي اللهِ؟ اَللهُ هُوَ الَّذِي يُبَرِّرُ.": يعني من كلامه: من سيُحاسبه على كلامه، وكثرة دعاواه، والله هو الشاهد له بها. وهذا تقوُّل على الله وافتراء، لعله استصحبه معه من فرّيسيّته، حيث كان يعتقد إبانها -كما يعتقد أمثاله من اليهود- أنه مختار وأنه مُفضّل على جميع بني البشر. ولقد رد الله على هذه الدعوى صراحة في قوله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ؟} [المائدة: ١٨]. ومعنى التعذيب بالذنوب، يشمل الدنيا والآخرة. فمن عذاب الدنيا، الطبع على القلوب، وطمس البصائر، والحكم بالضنك في العيش؛ وأما عذاب الآخرة، فهو دخول النار، وذوق صنوف العذاب فيها، من غير أمل خروج. ولو أن اليهود والنصارى تأملوا أحوالهم، لوجدوا أنفسهم معذَّبين هنا قبل هناك؛ ومع ذلك لا يعودون إلى أنفسهم بسؤالها: لمَ يُعذّبنا الله ونحن أبناؤه وأحباؤه؟... ثم يجيب الله عن هذا السؤال، إتماما للآية السابقة: {بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [المائدة: ١٨]. وهذا يجعل بولس من حيث المبدأ، كغيره من الناس؛ لا فضل له ببنوة مزعومة، ولا بتبرير (تخليص) مكذوب!... وأما خواص المقربين، الذين يُريد بولس أن يجعل نفسه منهم، فإن الله يقول عنهم: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس: ٦٢]؛ ومعنى هذا، أن العذاب لا يطلبهم في الدنيا ولا ينالهم في الآخرة. وهو معنى قوله تعالى: {لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ}، وهذا لأن الخائف معذب؛ ومعنى قوله سبحانه أيضا: {وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}. والحزن غير الخوف، لأنه متعلّق بالعذاب بعد تحقُّقه واليأس من رفعه؛ لذلك كان يصدق على الآخرة، بأكثر مما يصدق على الدنيا. ثم يقول الله بعد ذلك في صفات هؤلاء الأولياء: {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس: ٦٣]؛ وبولس لم يكن مؤمنا بالمعنى الشرعي، ولا كان متقيا؛ لأن أساس التقوى العمل بالشريعة، وهو قد نبذها. ثم يُكمل الله قوله سبحانه: {لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [يونس: ٦٤]. وهذا يعني أن الأولياء، يعلمون بولايتهم في الدنيا وفي الآخرة، ويعلمون -فضلا من الله- أنهم غير معذبين هنا وهناك. بينما بولس، ما زال يرجو رجاءً، أن ينال ما يزعمه لنفسه، في تناقض جليّ. وأما إن خطر في أذهان العامة: أنه لا أحد يكون على يقين من حكم الله فيه من الناس؛ فإننا نُخبرهم بأن ذلك بحسب مرتبتهم، إن كانت الأولى أو الثانية أو الثالثة. وأما الواصلون، فيعلمون مكانتهم عند الله في الدنيا قبل الآخرة؛ وهي البشارة لهم من الله، التي اختصهم الله بها من دون الناس، والتي ذكرها في الآية التي مررنا بها. وأما من يخطر له في مُقابل كلامنا قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم (وأمثاله): «لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ. قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ...»[1]، فلجوابه وجهان: الأول: أن المعنى الذي كنا بصدده، غير المعنى الذي يريده الحديث. والعمل لا يُدخل العبد الجنة، لأن دخولها

---

[1] . متفق عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يكون بالسابقة لا بالعمل. وأما العمل فيُعتبر بعد دخول الجنة، وبه يكون اقتسام أهلها لدرجاتها. ويقول الله في أمر السابقة: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} [الأنبياء: ١٠١]؛ أي مبعدون عن النار، ومن أُبعد عن النار، دخل الجنة؛ لأنه لا منزلة بينهما. يقول الله تعالى: {فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ} [آل عمران: ١٨٥]. وأما الوجه الثاني: فهو من باب أدب النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع ربه؛ وذلك لأنه يعلم أن المشيئة مطلقة. وهو مع علمه بأنه أفضل الخلق عند الله -صلى الله عليه وآله وسلم- لا يحكم لنفسه بنفسه بذلك؛ ولكن يترك ربه يحكم له. وهذا الأدب لا يكون إلا له صلى الله عليه وآله وسلم ولنوابه من الأنبياء، وخلفائه من الورثة. ومن فهم ما قدّمنا، فإنه سيعلم أن الولي عندما يحكم لنفسه بشيء، فإنه يحكم بالله لا بنفسه؛ ولأن دائرة الولاية أوسع من دائرة النبوة التي تكلم منها نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم. ولو تكلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم من دائرة ولايته، لضلت أمته ضلالا أكبر من ضلال النصارى. والكلام يطول في هذه المسألة، ونحن لسنا بصددها؛ وإنما جاءت عرضا في هذا الموضع، فلنعُد.

ثم يضيف بولس: "مَنْ هُوَ الَّذِي يَدِينُ؟ اَلْمَسِيحُ هُوَ الَّذِي مَاتَ، بَلْ بِالْحَرِيِّ قَامَ أَيْضًا، الَّذِي هُوَ أَيْضًا عَنْ يَمِينِ اللهِ، الَّذِي أَيْضًا يَشْفَعُ فِينَا.": هذا الكلام شرك لا ريب فيه؛ لأن الله لا أحد يستوي على عرشه معه، لا عن يمين ولا عن يسار. وهو الله وحده المتصف بالألوهية، كما أخبر هو سبحانه في قوله: {إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} [النحل: ٢٢]. ويقول سبحانه عن العباد كلهم: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [مريم: ٩٣ - ٩٥]. ويقول سبحانه، قبل ذلك، مما ينطبق على بولس وأمثاله: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا} [مريم: ٨٨ - ٩٢]. ومعنى {وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا}، هو أنه لا يصح؛ لا أنه لا يقدر سبحانه؛ لأن المسألة لا تعلُّق لها بالقدرة، كما تذهب إلى ذلك عقول القاصرين من المتكلمين؛ بل هي منوطة بالحقيقة. والحقيقة تمنع أن يكون لله ولد، لأنه سيكون شبيها له؛ ومن هذا الباب يُقال: "من أشبه أباه فما ظلم!". والله سبحانه، لا ندّ له ولا شبيه ولا مثيل. يقول سبحانه عن نفسه وهو الأعلم بنفسه سبحانه: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]. وفي هذا الجزء من الآية، معنى آخر ليس هذا محله. ويُريد بولس من كلامه الشركي، أن عيسى هو من سيتولّى محاسبتهم؛ وبالتالي فهو من سيشهد لهم بالبرّ. وهذا، وإن كنا نحن قد ذكرنا له وجها، في الجزء الأول من هذا الكتاب، إلا أنه لا يصح بهذا المعنى المُراد لبولس البتة.

ثم يختم بولس الأصحاح بقوله: "مَنْ سَيَفْصِلُنَا عَنْ مَحَبَّةِ الْمَسِيحِ؟ أَشِدَّةٌ أَمْ ضِيْقٌ أَمِ اضْطِهَادٌ أَمْ جُوعٌ أَمْ عُرْيٌ أَمْ خَطَرٌ أَمْ سَيْفٌ؟ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «إِنَّنَا مِنْ أَجْلِكَ نُمَاتُ كُلَّ النَّهَارِ. قَدْ حُسِبْنَا مِثْلَ غَنَمٍ لِلذَّبْحِ». وَلكِنَّنَا فِي هذِهِ جَمِيعِهَا يَعْظُمُ انْتِصَارُنَا بِالَّذِي أَحَبَّنَا. فَإِنِّي مُتَيَقِّنٌ أَنَّهُ لاَ مَوْتَ وَلاَ حَيَاةَ، وَلاَ مَلاَئِكَةَ وَلاَ رُؤَسَاءَ وَلاَ قُوَّاتِ، وَلاَ أُمُورَ حَاضِرَةً وَلاَ مُسْتَقْبَلَةً، وَلاَ عُلْوَ وَلاَ عُمْقَ، وَلاَ خَلِيقَةَ أُخْرَى، تَقْدِرُ أَنْ تَفْصِلَنَا عَنْ مَحَبَّةِ اللهِ الَّتِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا.": مسألة المحبة التي يتكلم عنها بولس، ليست من دون برهان؛ وبرهانها طاعة المُحب لمحبوبه؛ حيثما كانا. وحال بولس، يشهد عليه أنه مخالف لعيسى؛ فكيف بعد هذا تصح له الدعوى!... وإنما ما يقع لبولس هو تلبيس من إبليس، يوهم به كلّ مُدّعٍ للمحبة من المسيحيين ومن اليهود والمسلمين، ويجعلهم يجدون في قلوبهم حالا كاذبة يُقنعهم بأنها المحبة. ولقد رأينا أناسا كثيرين -من المتصوفة خصوصا- يزعمون المحبة، وهم أبعد الناس عنها. وأما المتسلّفة من المسلمين، فإنهم يحكمون لأنفسهم بمحبة الله ورسوله من غير بيّنة؛ وهذا جهل منهم بلا شك؛ ولكنهم لبقائهم على أدنى درجات التديُّن، لا يبلغون في ادعاء المحبة المتصوفة، الذين نراهم أشبه بالنصارى من هذا الوجه. وأما من كان على محبة صحيحة، فإنه يكون متبعا للشريعة في

الصغيرة وفي الكبيرة، ويكون معظما لأهلها وإن كانوا غافلين. غير هذا لا يكون!... وأما المغلوبون على عقولهم من أهل المحبة، فلا كلام عليهم.

وقد يعجب قوم من احتمال بولس وغيره للأذى، بل وللقتل في سبيل "إيمانهم"، ويظن أن ذلك شاهد صدق على دعواهم؛ ونحن نقول: إن أمر الأيديولوجيا يختلط كثيرا بأمر الإيمان، من جهة الأحوال الخارجية التي يكون عليها أصحابهما. وذلك لأن الأيديولوجي من الناس، قد يبلغ في اعتقاده مبلغا يُقارب الإيمان؛ بل هو إيمان، غير أنه مقطوع. فيظهر من أهل الأيديولوجيا من الصبر ومن احتمال الأذى في سبيل ما يعتقدون، ما يُشبه ما يكون عليه أهل الإيمان. والفرق بين الفريقيْن يكون من جهتيْن: الجهة الأولى: هي أن المؤمن يكون له من الله برهان في باطنه، يجده ويطمئن به. وهذا هو ما يجعل المُقبلين على الشهادة في سبيل الله، يُقبلون عليها فرحين مستبشرين؛ بخلاف المتأدلج، فإنه يكون على مجاهدة ومصابرة، وعلى وجدان انقباض في باطنه. وأما الجهة الثانية: فإن تثبيت إبليس لأتباعه يكون إبّان المحنة، وينقطع بالموت إن وقع؛ ليظهر لصاحبه أنه لم يكن على شيء. وأما المؤمن، فإنه إن مات، يجد من الأحوال ما هو من النعيم المعجّل؛ فيعلم أنه من الفائزين عند ربه بالحال وبالقرائن. ولقد بلغَنا عن اليساريين في بلدنا، زمن اضطهادهم، من الإسلاميين الذين شاركوهم السجن والعذاب، ما يجعل الناظر إلى ظاهر الحال منهم يحتار. وكم من يساريّ تقبل الموت والعذاب الشديد، من دون أن يتنازل أو يلين. ولا بد هنا، من ذكر شيء، يعتمده إبليس في تثبيت هذا الصنف من الناس، ألا وهو نظر الناس إليهم، الذي يصيرون به من كبار المناضلين، ومن الأبطال؛ وهذا مما يتأيّد به الشرك الذي يكون متمكنا من القلوب. وأما المؤمن، فلا يُتصوّر منه النظر إلى غير ربه؛ فإن وقع منه التفات إلى الناس، وإن كان في الظاهر من المتديّنين، فإنه لا يكون من أهل الإيمان؛ بل يكون من أهل الشرك الذين يُختم لهم عليه. وهنا لطيفة، لا بد من ذكرها؛ وهي إن كان المُلتفَت إليه عند الموت ربانيا (رسولا أو وارثا)، فإنه لا خوف على المؤمن منه؛ لأن الرباني ما سُمي ربانيا إلا لخصيصة الإيصال إلى الله؛ عُلم ذلك أم لم يُعلم. وقد ورد في الحديث: «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً؛ أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ."»[١]. وما ذكرناه عن بلاء اليساريين وأضرابهم، يدخل في القتال شجاعة، والقتال حميّة، والقتال رياء، كما هو واضح. وقد خصصنا الرياء، بالذكر، عند تثبيت إبليس لأتباعه، فليُقس عليه في غيره. ولا بد هنا، من أن نذكر أحوال الإسلاميين، الذين يُخدعون من قِبل أئمتهم، ويظنون أنهم على طريق الإيمان، وهم على طريق الأيديولوجيا. وذلك لأنهم يتوهمون أنهم بمجرد إتيان صور الأعمال المشروعة، قد بلغوا مرتبة الإيمان، وأنهم يُشبهون في ذلك الصحابة رضي الله عنهم؛ وشتّان!... وقد كنّا نحن نحذّرهم قبل نزول البلاء بهم في السنوات الماضية؛ ولكنهم لم يكونوا يسمعون، بسبب وقوعهم تحت حكم الأيديولوجيا الإخوانية. فلما نزل بهم ما نزل، ظهر لهم، ولأتباعهم من ورائهم، أنهم لم يكونوا على الصراط المستقيم. بل إن بعضهم قد راوده الشك في الدين جملة، لخلطه بين ما كان عليه والدين؛ وهذا من أخطر ما يقع للمتديّنين من الضلال!... ولقد أحببنا أن نذكر هذا هنا، من باب استكمال الكلام في المسألة، وإن كان الكتاب لا يحتمل أكثر مما ذكرنا منها.

ثم يقول بولس في الأصحاح التاسع: "أَقُولُ الصِّدْقَ فِي الْمَسِيحِ، لاَ أَكْذِبُ، وَضَمِيرِي شَاهِدٌ لِي بِالرُّوحِ الْقُدُسِ":: قد يكون بولس صادقا في توهُّم الصدق في نفسه، لأن الملبوس عليه لا يكون عالما باللبس الذي هو واقع فيه دائما. وهذا يحدث للعوام كثيرا، ويطمئنون به، ظانّين أن ذلك هو البرهان من جهة الإيمان، بأنهم على الحق. والحقيقة هي أن هذا لا

---

[١] . متفق عليه، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

يمكن أن يُعدّ برهانا إيمانيا؛ لأن البرهان الإيماني "وجود"، وهذا "ظن". ويقول الله في هذا، سبحانه: {وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} [يونس: ٣٦]. فجعل سبحانه الظن في مقابل الحق (الوجود)، وجعله أيضا مِن فعل الناس (يفعلون). والظن المقابل للحق بهذا، هو من طور الإمكان والشك، لا من طور اليقين. وزعْم كل ظانّ أنه على الحق واليقين، هو من غش النفس المنبني على الجهل بمراتب العلم. نقول هذا، لأن العوام لا يُميّزون بين تلك المراتب، ويجعلونها مرتبة واحدة، هي ما يجدون في قلوبهم (عقولهم). وهم بهذا الفعل، من دون أن يشعروا، ينسبون العصمة لأنفسهم. والبرْد الذي يجده العامي في نفسه، ويظنه من أثر اليقين، هو من أثر الجهل فحسب، لا من أثر الطمأنينة. وأما إبليس فيتلاعب بهؤلاء كما يشاء، لأنهم لا يعلمون طرائق ما يجدون في قلوبهم؛ ولا يعلمون صنوف الإلقاء. بل إن المريدين في بداية أمرهم، قد يقع لهم ذلك؛ ومن هنا وجب الرجوع إلى الشيخ، لتوضيح ما قد يلتبس عليهم.

ثم يضيف بولس: "إِنَّ لِي حُزْنًا عَظِيمًا وَوَجَعًا فِي قَلْبِي لاَ يَنْقَطِعُ. فَإِنِّي كُنْتُ أَوَدُّ لَوْ أَكُونُ أَنَا نَفْسِي مَحْرُومًا مِنَ الْمَسِيحِ لأَجْلِ إِخْوَتِي أَنْسِبَائِي حَسَبَ الْجَسَدِ، الَّذِينَ هُمْ إِسْرَائِيلِيُّونَ، وَلَهُمُ التَّبَنِّي وَالْمَجْدُ وَالْعُهُودُ وَالاشْتِرَاعُ وَالْعِبَادَةُ وَالْمَوَاعِيدُ، وَلَهُمُ الآبَاءُ، وَمِنْهُمُ الْمَسِيحُ حَسَبَ الْجَسَدِ، الْكَائِنُ عَلَى الْكُلِّ إِلهًا مُبَارَكًا إِلَى الأَبَدِ. آمِينَ.": يعني بولس بكلامه، أنه كان يود أن يفتدي بني إسرائيل بنفسه، ليكونوا هم من أهل الإيمان بالمسيح، ويحق عليه هو العذاب. وهذا المعنى، رغم انطلائه على العامة، لظنهم أنه من أثر محبة الخير للغير؛ إلا أنه في الحقيقة من أثر الجهل. وذلك، لأنه لا يصح لأحد أن يفتدي أحدا بهذه الطريقة، بسبب الأنانية المركوزة في النفس، والتي وإن ضعفت فإنها لا تغيب. هذا فيما يتعلق بالمؤمنين، وأما ما يعود إلى الواصلين بعد تحقُّق فناء نفوسهم؛ فإنهم يكونون فيه قائمين بالله، والله هو من يحكم على قوم بالضلال، وعلى آخرين بالهداية. ونعني من هذا، أن الربانيين يكونون موافقين للحق في أحكامه، فيريدون الضلال من الضالين، والهداية من المهتدين. ولأجل هذه الحقيقة، لم يقل الأنبياء عليهم السلام، أنهم يودون أن يفتدوا أقوامهم من العذاب!... فليُعتبر...

وفي كثير من الأحيان، يصدر هذا الخطاب عن أئمة الضلال، بحضور من يبغون إضلالهم من الناس؛ ليظهروا في أعينهم بمظهر المُشفقين الذين لا يمكن أن يسعوا في هلاك تابعيهم. وهذا هو ما يبتغيه بولس هنا، وإن لم يكن واعيا بما يعمل فيه إبليس. وإن من "دعاة" المسلمين اليوم، من يُشبه بولس أو يفوقه كذبا؛ لأنهم يأتون ما أتى بولس، وهم يعلمون أنهم كاذبون. فتجدهم لا يأسفون على "خرفانهم الضالة"، بل يبكون بحرقة؛ وهذا كله من الحمق الذي يكون عليه العوام من "المتأممين" (الذين يريدون أن يكونوا أئمة بأي ثمن).

ومن علامات هذا الصنف من أئمة الضلال، أنهم يُذكّرون سامعيهم بمحاسنهم، كما يفعل بولس هنا. فكأنه يقول لبني إسرائيل: أنتم من اصطفاكم الله على الناس، وأنتم من أكرمكم بشريعته، وأنتم سليلو الأنبياء، وأنتم من بُعث عيسى فيكم؛ فلا ينقصكم إلا أن تصدقوني أنا فيما أزعم لكم، لتكونوا كاملين. وهذا من الخطاب الإضلالي البيّن، الذي يعتمده صغار أئمة الضلال، ليستدرجوا من هم أجهل منهم بصنوف الخطاب. وأما إن جاء مِثل هذا الخطاب من الله ورسوله، فإنه يكون تذكيرا بنعم الله السابقة واللاحقة؛ كما في قوله تعالى: {يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ . وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ} [البقرة: ٤٠، ٤١]. والفرق بين الخطابين، هو أن الخطاب الحق يدعو إلى اتباع الرسول الحق؛ وأما خطاب الضلال، فيدعو إلى اتباع إمام الضلال. وهذه الغاية، كفيلة بأن تجعل الناس يتنبهون إلى حقيقة من يخاطبهم، لو كانوا يعودون إليها. ولا يكفي أن يزعم إمام الضلال أنه متبع للرسول الحق، حتى يُصدَّق؛ لأنه لا يقول غير ذلك بلسانه؛

ولكن ينبغي أن يُنظر أين تصبّ دعوته حقيقة: فإنها إن كانت إلى اتباع الرسول الحق، فإنه سينمحي من أمام المـُخاطبين، وسيتركهم مستقلين في معاملتهم لربهم؛ أما إن صار يُدقق في أفعالهم، ويتابعهم كما يتابع الفضولي والجاسوس غيره، ويتلصص على ما في جيوبهم، فليُعلم أنه يُريد مُخاطَبيه لنفسه؛ وبهذا يكون إمام ضلال حقّا. وبولس من هذا الصنف، لمن أمعن النظر!...

ثم يُضيف بولس: "وَلكِنْ لَيْسَ هكَذَا حَتَّى إِنَّ كَلِمَةَ اللهِ قَدْ سَقَطَتْ. لأَنْ لَيْسَ جَمِيعُ الَّذِينَ مِنْ إِسْرَائِيلَ هُمْ إِسْرَائِيلِيُّونَ، وَلاَ لأَنَّهُمْ مِنْ نَسْلِ إِبْرَاهِيمَ هُمْ جَمِيعًا أَوْلاَدٌ. بَلْ «بِإِسْحَاقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ». أَيْ لَيْسَ أَوْلاَدُ الْجَسَدِ هُمْ أَوْلاَدَ اللهِ، بَلْ أَوْلاَدُ الْمَوْعِدِ يُحْسَبُونَ نَسْلًا. لأَنَّ كَلِمَةَ الْمَوْعِدِ هِيَ هذِهِ: «أَنَا آتِي نَحْوَ هذَا الْوَقْتِ وَيَكُونُ لِسَارَةَ ابْنٌ». وَلَيْسَ ذلِكَ فَقَطْ، بَلْ رِفْقَةُ أَيْضًا، وَهِيَ حُبْلَى مِنْ وَاحِدٍ وَهُوَ إِسْحَاقُ أَبُونَا. لأَنَّهُ وَهُمَا لَمْ يُولَدَا بَعْدُ، وَلاَ فَعَلاَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا، لِكَيْ يَثْبُتَ قَصْدُ اللهِ حَسَبَ الاخْتِيَارِ، لَيْسَ مِنَ الأَعْمَالِ بَلْ مِنَ الَّذِي يَدْعُو، قِيلَ لَهَا: «إِنَّ الْكَبِيرَ يُسْتَعْبَدُ لِلصَّغِيرِ». كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «أَحْبَبْتُ يَعْقُوبَ وَأَبْغَضْتُ عِيسُوَ». فَمَاذَا نَقُولُ؟ أَلَعَلَّ عِنْدَ اللهِ ظُلْمًا؟ حَاشَا! لأَنَّهُ يَقُولُ لِمُوسَى: «إِنِّي أَرْحَمُ مَنْ أَرْحَمُ، وَأَتَرَاءَفُ عَلَى مَنْ أَتَرَاءَفُ». فَإِذًا لَيْسَ لِمَنْ يَشَاءُ وَلاَ لِمَنْ يَسْعَى، بَلْ للهِ الَّذِي يَرْحَمُ. لأَنَّهُ يَقُولُ الْكِتَابُ لِفِرْعَوْنَ: «إِنِّي لِهذَا بِعَيْنِهِ أَقَمْتُكَ، لِكَيْ أُظْهِرَ فِيكَ قُوَّتِي، وَلِكَيْ يُنَادَى بِاسْمِي فِي كُلِّ الأَرْضِ». فَإِذًا هُوَ يَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُقَسِّي مَنْ يَشَاءُ. فَسَتَقُولُ لِي: «لِمَاذَا يَلُومُ بَعْدُ؟ لأَنْ مَنْ يُقَاوِمُ مَشِيئَتَهُ؟» بَلْ مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ الَّذِي تُجَاوِبُ اللهَ؟ أَلَعَلَّ الْجِبْلَةَ تَقُولُ لِجَابِلِهَا: «لِمَاذَا صَنَعْتَنِي هكَذَا؟» أَمْ لَيْسَ لِلْخَزَّافِ سُلْطَانٌ عَلَى الطِّينِ، أَنْ يَصْنَعَ مِنْ كُتْلَةٍ وَاحِدَةٍ إِنَاءً لِلْكَرَامَةِ وَآخَرَ لِلْهَوَانِ؟ فَمَاذَا؟ إِنْ كَانَ اللهُ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُظْهِرَ غَضَبَهُ وَيُبَيِّنَ قُوَّتَهُ، احْتَمَلَ بِأَنَاةٍ كَثِيرَةٍ آنِيَةَ غَضَبٍ مُهَيَّأَةً لِلْهَلاَكِ. وَلِكَيْ يُبَيِّنَ غِنَى مَجْدِهِ عَلَى آنِيَةِ رَحْمَةٍ قَدْ سَبَقَ فَأَعَدَّهَا لِلْمَجْدِ، الَّتِي أَيْضًا دَعَانَا نَحْنُ إِيَّاهَا، لَيْسَ مِنَ الْيَهُودِ فَقَطْ بَلْ مِنَ الأُمَمِ أَيْضًا. كَمَا يَقُولُ فِي هُوشَعَ أَيْضًا: «سَأَدْعُو الَّذِي لَيْسَ شَعْبِي شَعْبِي، وَالَّتِي لَيْسَتْ مَحْبُوبَةً مَحْبُوبَةً. وَيَكُونُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فِيهِ: لَسْتُمْ شَعْبِي، أَنَّهُ هُنَاكَ يُدْعَوْنَ أَبْنَاءَ اللهِ الْحَيِّ». وَإِشَعْيَاءُ يَصْرُخُ مِنْ جِهَةِ إِسْرَائِيلَ: «وَإِنْ كَانَ عَدَدُ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَرَمْلِ الْبَحْرِ، فَالْبَقِيَّةُ سَتَخْلُصُ. لأَنَّهُ مُتَمِّمُ أَمْرٍ وَقَاضٍ بِالْبِرِّ. لأَنَّ الرَّبَّ يَصْنَعُ أَمْرًا مَقْضِيًّا بِهِ عَلَى الأَرْضِ». وَكَمَا سَبَقَ إِشَعْيَاءُ فَقَالَ: «لَوْلاَ أَنَّ رَبَّ الْجُنُودِ أَبْقَى لَنَا نَسْلًا، لَصِرْنَا مِثْلَ سَدُومَ وَشَابَهْنَا عَمُورَةَ». فَمَاذَا نَقُولُ؟ إِنَّ الأُمَمَ الَّذِينَ لَمْ يَسْعَوْا فِي أَثَرِ الْبِرِّ أَدْرَكُوا الْبِرَّ، الْبِرَّ الَّذِي بِالإِيمَانِ. وَلكِنَّ إِسْرَائِيلَ، وَهُوَ يَسْعَى فِي أَثَرِ نَامُوسِ الْبِرِّ، لَمْ يُدْرِكْ نَامُوسَ الْبِرِّ! لِمَاذَا؟ لأَنَّهُ فَعَلَ ذلِكَ لَيْسَ بِالإِيمَانِ، بَلْ كَأَنَّهُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ. فَإِنَّهُمُ اصْطَدَمُوا بِحَجَرِ الصَّدْمَةِ، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «هَا أَنَا أَضَعُ فِي صِهْيَوْنَ حَجَرَ صَدْمَةٍ وَصَخْرَةَ عَثْرَةٍ، وَكُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ لاَ يُخْزَى».": هذا الكلام في ظاهره جيد، وهو يُحيل على القضاء السابق في العباد، والذي يكون بموجبه بعض الناس سعداء، ويكون بعضهم الآخر أشقياء؛ ولكنه من جهة باطنه خطاب ضلال. وذلك لأن الرسول الحق، يحق له أن يذكر قضاء الله في عباده، ليدل على أن من لم يتبعه يكون من الأشقياء الذين سبق لهم الحكم بالشقاء أزلا؛ وأما غير الرسول، فلا يحق له أن يذكر ذلك في معرض دعوته للناس؛ لأنه سيكون شاهدا لنفسه بأنه إمام حق، وهو في الحقيقة إمام ضلال. وهذا من التلبيس الذي يسلكه أئمة الضلال، أمام الجاهلين بصنوف الخطاب. وحتى لا يشك أحد فيما نقول، فليعلم أن الرسل الأحقاء -عليهم السلام- يعلمون أنهم من كبار السعداء عند الله، وهم على بيّنة في ذلك؛ أما غيرهم، فلا علم لهم بحقيقة سابقتهم أو حقيقة مآلهم؛ لهذا لا يكون من حقّهم الاستدلال بالقضاء في دعوتهم. وأما الورثة الربانيون، فحكمهم في هذا حكم موروثهم، فلا داعي إلى تكرار الكلام عنهم.

وأما مسألة القضاء، فإنها لا تُعلم بهذا التقديم الذي قدم به بولس، أو يقدم به عوام الفقهاء من المسلمين؛ وذلك لأن هذه المسألة من مرتبة المشيئة، كما سبق أن ذكرنا مرارا. والمشيئة مجهولة، للعامة؛ لذلك لا ينفعهم هذا الاستدلال

كثيرا؛ وإنما ينفعهم الإيمان بأن الله يحكم بما يشاء، من غير علة سابقة أو لاحقة. ولسنا نعني بالعلة اللاحقة إلا الأعمال، التي تحكم عليها الشريعة بأنها إما من أسباب النجاة، وإما من أسباب الضلال. وحكم الشريعة لاحق، بينما حكم القضاء سابق. والجمع بينهما لا يكون إلا باعتبار اختلاف الحضرتيْن: ولسنا نعني إلا أن حكم القضاء يكون من حضرة المشيئة، وأن حكم الشريعة يكون من حضرة الحكمة. وكل من لا يُفرق هذا التفريق، فليعلم أن الصمت أولى به، وليشغل نفسه بما ينفعه عند ربه...

ثم يقول بولس في الأصحاح العاشر: "أَيُّهَا الإِخْوَةُ، إِنَّ مَسَرَّةَ قَلْبِي وَطَلِبَتِي إِلَى اللهِ لأَجْلِ إِسْرَائِيلَ هِيَ لِلْخَلاَصِ. لأَنِّي أَشْهَدُ لَهُمْ أَنَّ لَهُمْ غَيْرَةً للهِ، وَلكِنْ لَيْسَ حَسَبَ الْمَعْرِفَةِ. لأَنَّهُمْ إِذْ كَانُوا يَجْهَلُونَ بِرَّ اللهِ، وَيَطْلُبُونَ أَنْ يُثْبِتُوا بِرَّ أَنْفُسِهِمْ لَمْ يُخْضَعُوا لِبِرِّ اللهِ. لأَنَّ غَايَةَ النَّامُوسِ هِيَ: الْمَسِيحُ لِلْبِرِّ لِكُلِّ مَنْ يُؤْمِنُ. لأَنَّ مُوسَى يَكْتُبُ فِي الْبِرِّ الَّذِي بِالنَّامُوسِ: «إِنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي يَفْعَلُهَا سَيَحْيَا بِهَا». وَأَمَّا الْبِرُّ الَّذِي بِالإِيمَانِ فَيَقُولُ هكَذَا: «لاَ تَقُلْ فِي قَلْبِكَ: مَنْ يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ؟» أَيْ لِيُحْدِرَ الْمَسِيحَ، «أَوْ: مَنْ يَهْبِطُ إِلَى الْهَاوِيَةِ؟» أَيْ لِيُصْعِدَ الْمَسِيحَ مِنَ الأَمْوَاتِ لكِنْ مَاذَا يَقُولُ؟ «اَلْكَلِمَةُ قَرِيبَةٌ مِنْكَ، فِي فَمِكَ وَفِي قَلْبِكَ» أَيْ كَلِمَةُ الإِيمَانِ الَّتِي نَكْرِزُ بِهَا: لأَنَّكَ إِنِ اعْتَرَفْتَ بِفَمِكَ بِالرَّبِّ يَسُوعَ، وَآمَنْتَ بِقَلْبِكَ أَنَّ اللهَ أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ، خَلَصْتَ. لأَنَّ الْقَلْبَ يُؤْمَنُ بِهِ لِلْبِرِّ، وَالْفَمَ يُعْتَرَفُ بِهِ لِلْخَلاَصِ. لأَنَّ الْكِتَابَ يَقُولُ: «كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ لاَ يُخْزَى».": ما زال بولس يدور في الحلقة نفسها، والتي يروم منها إعادة صياغة الدين؛ بحيث يُصبح الخلاص متاحا للجميع، بشرط تصديقه هو في هذيانه. ولا بد هنا أن نتوقف قليلا عند معنى الخلاص، وإن كنّا قد مررنا به كثيرا؛ فهذه مناسبة جيدة لاستكناه معناه. ونحن إن نظرنا إلى كلام بولس ذاته، حيث يقول: "لأَنِّي أَشْهَدُ لَهُمْ أَنَّ لَهُمْ غَيْرَةً للهِ، وَلكِنْ لَيْسَ حَسَبَ الْمَعْرِفَةِ."، فإننا سنعلم أنه مع فتحه باب الخلاص أمام جميع الناس، لا يزال يحرم اليهود منه، ويجعل سبب ذلك –حتى يكون منسجما مع مذهبه– أنهم لا معرفة لهم، وإن كانت لهم غيرة. ويعني بولس بالغيرة، موافقة اليهود لظاهر الشريعة، التي لا ترقى عنده إلى أن تكون سببا في الخلاص وحدها. وما يريده بولس من اليهود، هو الإيمان بالمسيح عليه السلام؛ لكن لا من وجه كونه مسيحا كما هو في الحقيقة عند الله، ولكن من كونه "الشخص" الذي يدعو إليه هو. ونحن نقول هذا، لعلمنا بأن الشخص الذي يدعو إليه بولس، ليس هو المسيح؛ وإنما هو صورة الشيطان التي رآها.

وحتى نستكمل الكلام عن الخلاص، الذي هو المعبّر عنه في الشريعة الإسلامية بالفوز؛ فلا بد أولا من إبراز معناه، عن طريق إبراز مرتبتيْه، واللتيْن هما:

١. مرتبة النجاة من النار ودخول الجنة: وهذه هي التي أراد بولس حرمان اليهود منها، بغير وجه حق. وقولنا بغير وجه حق، هو لإثبات حق اليهود في الدين باعتبارهم المرحلة الأولى منه؛ ولا تبقى عليهم مؤاخذة بعد ذلك، إلا بسبب رفضهم للمسيح؛ وقد سبق لنا التفريق بين المسيح عيسى، ومسيح بولس. وأما ربطنا بين دخول الجنة والنجاة من النار، فذلك لأنهما لا ينفصلان في حقيقتهما؛ ما دام داخلُ الجنة لا يُحكم له بذلك، حتى تنقطع عنه مطالبة النار. وهذا يستثني في البداية المؤمنين الذين يدخلون الجنة ابتداء، من بين أولئك المؤمنين الذين يدخلون النار ثم يؤولون إلى الجنة. ويقول الله في اقتران دخول الجنة بالنجاة من النار: {قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ} [الأنعام: ١٥، ١٦]؛ ويقول سبحانه: {وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [غافر: ٩]؛ ثم يقول سبحانه: {فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ} [آل عمران: ١٨٥].

٢. مرتبة نيل العلم بالله: وهذه هي التي سماها بولس في قوله بـ "المعرفة"؛ وهذه التسمية منه في محلّها، وهي موافقة لما اصطلح عليه أهل الطريق عندنا. والمعنى الذي يدل على الفوز في هذه المرتبة، هو ما جاء في قول الله تعالى عن الأولياء:

{لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [يونس: ٦٤]. وهذا المعنى من الفوز، متضمن للمعنى الأول، كما هو غير خاف؛ لأن المعرفة الحق، لا تُنال إلا من طريق الشريعة، كما لا نفتأ نذكر. وأما المعرفة العامة، التي تكلم الجيلي في إنسانه الكامل عن بعض أهلها ممن يكونون محل نظر الله في النار، فهي غير هذه؛ وهي لم تُسمَّ معرفة إلا من باب التجوّز بالمقارنة إلى الأولى. ولكنها مع ذلك تُسمّى في الاصطلاح العقلي -لا اصطلاح أهل الطريق- معرفة؛ كما يُقال عن معرفة أهل الكلام أنها عقلية، في مقابل المعرفة التي للربانيين. وإنّ تفريق بولس بين هاتيْن المرتبتيْن، أمر جيد، يمتاز به عن اليهود فيما هو من العلم الديني؛ ولكنه مع ذلك، قد أخطأ الطريق، وخسر المرتبتيْن معا؛ لكون الموسويين الذين لم يُدركوا زمن عيسى، أفضل منه وأعلى مرتبة. وهذا التفصيل، مما يُغفل إبليس عنه أهل الدين، ليلبس عليهم الأمر ويسهُل عليه إضلالهم؛ خصوصا، عندما يجد الضالّ نفسه أعقل من المتديّن العامي، وأكثر جمعا للمعلومات منه (لكيلا نقول أعلم). وتبعا لما نقول: فإن كثيرا من العوام سيكونون من أهل الجنة، بينما كثير من العقلاء المتدينين سيكونون من أهل النار؛ وهذا لأن السعادة (دخول الجنة)، والشقاء (دخول النار)، منوطان باتباع الشريعة قبل المعرفة؛ وما نقرره هنا، من لباب العلم، لو أن الناس كانوا يعلمون. وقد بيّن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، على عادته، في عبارة جامعة هذا المعنى، عندما قال: «أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلْهُ.»[1]؛ وهو حديث قد استشكله كثير من أهل العلم، ظنّا منهم أن صفة البَلَه جاءت للذم فيه. والحقيقة، هي أن معنى البله هنا موافق للسذاجة التي يكون عليها أهل الإيمان الصرف؛ بخلاف ما يظنه عقلاء المؤمنين، الذين يدخلون في الإيمانيات بنظرهم العقلي. وهذا يعني، أن أهل النظر من أهل الإيمان على خطر؛ حتى إن هم أُدخلوا الجنّة بفضل الله، فإنهم سيكونون أقلية باعتبار أهلها الأُصلاء. والصنف الساذج من الإيمان، قوي لا يعصف به تشكيك؛ لأنه متنزه عن أصل التشكيك نفسه؛ وهو ما سماه بعضهم "إيمان العجائز"؛ في إشارة إلى ثبات العجائز على ما يَعِشن عليه، وفي مفارقتهن الأسباب الدنيوية بالحال، والتي قد تكون داعية إلى غيره. ويُروى عن الجويني -رحمه الله- أنه قال في مرضه الذي مات منه: "اشْهَدُوا عَلَيَّ أَنِّي قَدْ رَجَعْتُ عَنْ كُلِّ مَقَالَةٍ تُخَالف السُّنَّة، وَأَنِّي أَمُوْتُ عَلَى مَا يَموتُ عَلَيْهِ عجَائِز نَيْسَابُوْر!"[2]. ومما يؤكد المعنى الذي نذهب إليه، عبارة مدرجة في الحديث المذكور آنفا، تُنسب إلى ابن أبي الحواري، وهي: "وَعِلِّيُّونَ لِذَوِي الْأَلْبَابِ". وهذا يعني أن الفردوس الذي هو أعلى الجنان، يكون للعارفين لا للبُله. ومرة أخرى يظهر نفع العلم بالمراتب في فهم النصوص، ويظهر في المقابل التخبط الذي يكون عليه الفقهاء كعادتهم، بسبب فقدهم لذلك العلم.

ثم يقول بولس: "لأَنَّهُ لاَ فَرْقَ بَيْنَ الْيَهُودِيِّ وَالْيُونَانِيِّ، لأَنَّ رَبًّا وَاحِدًا لِلْجَمِيعِ، غَنِيًّا لِجَمِيعِ الَّذِينَ يَدْعُونَ بِهِ. لأَنَّ «كُلَّ مَنْ يَدْعُو بِاسْمِ الرَّبِّ يَخْلُصُ». فَكَيْفَ يَدْعُونَ بِمَنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ؟ وَكَيْفَ يُؤْمِنُونَ بِمَنْ لَمْ يَسْمَعُوا بِهِ؟ وَكَيْفَ يَسْمَعُونَ بِلاَ كَارِزٍ؟ وَكَيْفَ يَكْرِزُونَ إِنْ لَمْ يُرْسَلُوا؟ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «مَا أَجْمَلَ أَقْدَامَ الْمُبَشِّرِينَ بِالسَّلاَمِ، الْمُبَشِّرِينَ بِالْخَيْرَاتِ». لكِنْ لَيْسَ الْجَمِيعُ قَدْ أَطَاعُوا الإِنْجِيلَ، لأَنَّ إِشَعْيَاءَ يَقُولُ: «يَا رَبُّ مَنْ صَدَّقَ خَبَرَنَا؟» إِذًا الإِيمَانُ بِالْخَبَرِ، وَالْخَبَرُ بِكَلِمَةِ اللهِ.": وجعْل ثبوت ألوهية الله للجميع، دليلا على نجاة الجميع، لا يصح؛ لأن الله رب أهل الجنة كما هو رب أهل النار، وهو رب العالمين. وهذا التصور بأن الملعونين لا نسبة لهم إلى الله، هو تصور مؤسَّس على الجهل. ولا يُستغرب هذا الخلط من بولس، لأنه ترك الميزان، الذي هو الشريعة وحدها، مع الإيمان بالمسيح الحق عليه السلام. ولعل بولس يُقابل بكلامه كلام اليهود أنفسهم، عندما كانوا يجعلون الله مخصوصا بهم، ويرون أن الأمم الأخرى لها آلهتها الخاصة الأخرى. وهذا تصور

[1] . أخرجه البزار في مسنده، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

[2] . "سير أعلام النبلاء" للذهبي: ج: ١٨، ص:٤٧٤، و"طبقات الشافعية" للسبكي: ج:٥، ص: ١٩١.

شِركي لا يخفى، ولا يصح أن يُردّ عليه من الوجه الذي يقصده بولس؛ بل من وجه عموم الخطاب الشرعي لكل أمة من الأمم، أو للبشرية جمعاء مع الشريعة المحمدية الخاتمة وحدها.

ثم يقول بولس: "لكِنَّنِي أَقُولُ: أَلَعَلَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا؟ بَلَى! «إِلَى جَمِيعِ الأَرْضِ خَرَجَ صَوْتُهُمْ، وَإِلَى أَقَاصِي الْمَسْكُونَةِ أَقْوَالُهُمْ». لكِنِّي أَقُولُ: أَلَعَلَّ إِسْرَائِيلَ لَمْ يَعْلَمْ؟ أَوَّلًا مُوسَى يَقُولُ: «أَنَا أُغِيرُكُمْ بِمَا لَيْسَ أُمَّةً. بِأُمَّةٍ غَبِيَّةٍ أُغِيظُكُمْ». ثُمَّ إِشَعْيَاءُ يَتَجَاسَرُ وَيَقُولُ: «وُجِدْتُ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَطْلُبُونِي، وَصِرْتُ ظَاهِرًا لِلَّذِينَ لَمْ يَسْأَلُوا عَنِّي». أَمَّا مِنْ جِهَةِ إِسْرَائِيلَ فَيَقُولُ: «طُولَ النَّهَارِ بَسَطْتُ يَدَيَّ إِلَى شَعْبٍ مُعَانِدٍ وَمُقَاوِمٍ».": يُذكّر بولس هنا بني إسرائيل بأخلاقهم مع أنبيائهم، ليعلموا أن إعراضهم عن عيسى ليس استثناء منهم، وإنما هو القاعدة المطّردة لديهم. وهو لا يقصد عيسى نفسه –عليه السلام– هنا؛ ولكن يعني نفسه، ما دام قد استولى على دعوة عيسى واستحوذ عليها من دون إذن من صاحبها. فإن اعترض على كلامنا معترض، ممن يتبعون بولس في زعمه، وذكروا أن عيسى قد أذن له في طريقه إلى دمشق؛ فإننا نذكّرهم بما رددنا به سابقا على هذا الزعم، ونزيد عليه هنا بقولنا: إن الإذن الذي يكون من الرسل عليهم السلام في التبليغ عنهم، ليس من صنف الإذن الذي يكون لشيوخ التزكية عندنا؛ حتى يُقاس عليه من قِبل النصارى أو من قِبل المسلمين. ونعني من هذا أن الإذن في التربية يكون من الشيخ المربي، لمن تحقق له الوصول من تلاميذه وصار أهلا لتزكية غيره. ونعني أيضا بالأهلية، انتفاء النفس وما يتعلق بها من هوى ومن جهل؛ وإلا كان المتصدّر للتربية كالممرض الحامل للميكروب، وهو يسير بين غرف المستشفى يزعم أنه يسعى في شفاء المرضى!... وهذا يعني أن هذا الإذن قد يبقى مُحاطا ببعض الإبهام، ما دام ليس في متناول كل أحد معرفته ومعرفة أثره. وهذا، لأن دعوة التزكية تبقى دعوة خاصة، ضمن الدعوة الدينية العامة. وأما الإذن في تبليغ الرسالة، فليس من هذا القبيل؛ وإنما هو من الإذن العام للأتباع. وذلك لأن تبليغ الرسالة، يتعلق بظاهر الدين، لا بباطنه كما هو الشأن في التزكية. ومن هذا الباب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً؛ ...»[1]؛ ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم أيضا، في ختام خطبة حجة الوداع: «فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ!»[2]... وهكذا، فإن عيسى يُبلّغ عنه كلُّ من سمع منه، ولو مرة واحدة؛ وأما أن يُنصّب بولس نفسه رسولا حصريا منه، من دون أن يتحقق له ذلك، فليعلم أن ذلك كله ليس من عيسى، ولا هو مما يتعلّق بالرسالة. ولقد عُرف بين المسلمين بتبليغ الرسالة علماء الدين قاطبة، على اختلاف علومهم ودرجاتهم فيها، على مر القرون. ولعلّنا قد سبقنا –بحسب علمنا– إلى تسمية الفقهاء اصطلاحا بـ "ورثة الرسالة"، في مقابل وراثة النبوة والولاية. ونحن عندما كنا ننكر كثيرا على الفقهاء في كلامنا، فإنما كنا ننكر خوضهم فيما لا يعلمون فحسب؛ وهو مما لم يُكلّفوا تبليغه. وهذا أيضا من أثر الخلط الذي لديهم، والذي ينبغي عليهم العمل على التخلص منه على وجه الوجوب.

ثم يقول بولس في الأصحاح الحادي عشر من هذه الرسالة: "فَأَقُولُ: أَلَعَلَّ اللهَ رَفَضَ شَعْبَهُ؟ حَاشَا! لأَنِّي أَنَا أَيْضًا إِسْرَائِيلِيٌّ مِنْ نَسْلِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ سِبْطِ بِنْيَامِينَ. لَمْ يَرْفُضِ اللهُ شَعْبَهُ الَّذِي سَبَقَ فَعَرَفَهُ. أَمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ مَاذَا يَقُولُ الْكِتَابُ إِيلِيَّا؟ كَيْفَ يَتَوَسَّلُ إِلَى اللهِ ضِدَّ إِسْرَائِيلَ قَائِلًا: «يَا رَبُّ، قَتَلُوا أَنْبِيَاءَكَ وَهَدَمُوا مَذَابِحَكَ، وَبَقِيتُ أَنَا وَحْدِي، وَهُمْ يَطْلُبُونَ نَفْسِي!». لكِنْ مَاذَا يَقُولُ لَهُ الْوَحْيُ؟ «أَبْقَيْتُ لِنَفْسِي سَبْعَةَ آلاَفِ رَجُل لَمْ يُحْنُوا رُكْبَةً لِبَعْل». فَكَذلِكَ فِي الزَّمَانِ الْحَاضِرِ أَيْضًا قَدْ حَصَلَتْ بَقِيَّةٌ حَسَبَ اخْتِيَارِ النِّعْمَةِ. فَإِنْ كَانَ بِالنِّعْمَةِ فَلَيْسَ بَعْدُ بِالأَعْمَالِ، وَإِلاَّ فَلَيْسَتِ النِّعْمَةُ بَعْدُ نِعْمَةً. وَإِنْ كَانَ بِالأَعْمَالِ فَلَيْسَ بَعْدُ نِعْمَةً، وَإِلاَّ فَالْعَمَلُ لاَ يَكُونُ بَعْدُ عَمَلًا. فَمَاذَا؟ مَا يَطْلُبُهُ إِسْرَائِيلُ ذلِكَ لَمْ يَنَلْهُ. وَلكِنِ الْمُخْتَارُونَ

[1] . أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

[2] . متفق عليه عن أبي بكرة رضي الله عنه.

نَالُوهُ. وَأَمَّا الْبَاقُونَ فَتَقَسَّوْا، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «أَعْطَاهُمُ اللهُ رُوحَ سُبَاتٍ، وَعُيُونًا حَتَّى لاَ يُبْصِرُوا، وَآذَانًا حَتَّى لاَ يَسْمَعُوا إِلَى هذَا الْيَوْمِ». وَدَاوُدُ يَقُولُ: «لِتَصِرْ مَائِدَتُهُمْ فَخًّا وَقَنَصًا وَعَثْرَةً وَمُجَازَاةً لَهُمْ. لِتُظْلِمْ أَعْيُنُهُمْ كَيْ لاَ يُبْصِرُوا، وَلْتَحْنِ ظُهُورَهُمْ فِي كُلِّ حِينٍ».": ما زال بولس يؤسس لضلاله، عند التفريق بين النعمة والعمل بالشريعة؛ وما ذلك إلا لأنه لم يعرف رسالة عيسى على وجهها، ولأنه كان مقاوما لها عندما كان فرّيسيا. ونعني أنه عندما انتقل من الشريعة الموسوية إلى العيسوية، فإنه قد ظن أن لا مشترك بينهما؛ وكأنه قد قفز من ضفة نهر إلى أخرى؛ وهذا جهل منه بحقيقة الأمر، وتعميم لحاله على جميع بني إسرائيل. وهو لا يُخفي هذا التعميم، عندما يذكر لقومه أنه إسرائيلي مثلهم؛ وكأنه يريد منهم أن يكونوا على مثل حاله، لأنهم إسرائيليون. وهذا مرة أخرى، سفسطة، لا يقبلها عقل سليم. ولا يُقدم على هذا الفعل، إلا من كان متضخِّم النفس، يراها مركزا للعالم. وقد يعجب المرء عندما يرى بعض السفهاء على هذه الحال، من دون شائبة عقل لديهم. ولقد رأينا من هذا الصنف كثيرا من الناس في زماننا، زمان الانحطاط الشامل. وأما العقلاء، فحيثما كانوا، هم يعتبرون احتمال الخطأ لديهم. وهذا عينه، هو ما يجعلهم على استعداد لتغيير مسارهم في كل مرة. نقول كل هذا، من باب الجدل العقلي، لا من جهة العلم الديني؛ لأن العلم يجعل الإيمان منوطا بالإذن الإلهي للعبد، لا بمرتبته العقلية. والكلام السابق عن البُله، يؤيد ما نذكره هنا!...

ثم يختم بولس هذا الأصحاح بقوله: "فَأَقُولُ: أَلَعَلَّهُمْ عَثَرُوا لِكَيْ يَسْقُطُوا؟ حَاشَا! بَلْ بِزَلَّتِهِمْ صَارَ الْخَلاَصُ لِلأُمَمِ لإِغَارَتِهِمْ. فَإِنْ كَانَتْ زَلَّتُهُمْ غِنىً لِلْعَالَمِ، وَنُقْصَانُهُمْ غِنىً لِلأُمَمِ، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ مِلْؤُهُمْ؟ فَإِنِّي أَقُولُ لَكُمْ أَيُّهَا الأُمَمُ: بِمَا أَنِّي أَنَا رَسُولٌ لِلأُمَمِ أُمَجِّدُ خِدْمَتِي، لَعَلِّي أُغِيرُ أَنْسِبَائِي وَأُخَلِّصُ أُنَاسًا مِنْهُمْ. لأَنَّهُ إِنْ كَانَ رَفْضُهُمْ هُوَ مُصَالَحَةَ الْعَالَمِ، فَمَاذَا يَكُونُ اقْتِبَالُهُمْ إِلاَّ حَيَاةً مِنَ الأَمْوَاتِ؟ وَإِنْ كَانَتِ الْبَاكُورَةُ مُقَدَّسَةً فَكَذلِكَ الْعَجِينُ! وَإِنْ كَانَ الأَصْلُ مُقَدَّسًا فَكَذلِكَ الأَغْصَانُ! فَإِنْ كَانَ قَدْ قُطِعَ بَعْضُ الأَغْصَانِ، وَأَنْتَ زَيْتُونَةٌ بَرِّيَّةٌ طُعِّمْتَ فِيهَا، فَصِرْتَ شَرِيكًا فِي أَصْلِ الزَّيْتُونَةِ وَدَسَمِهَا، فَلاَ تَفْتَخِرْ عَلَى الأَغْصَانِ. وَإِنِ افْتَخَرْتَ، فَأَنْتَ لَسْتَ تَحْمِلُ الأَصْلَ، بَلِ الأَصْلُ إِيَّاكَ يَحْمِلُ! فَسَتَقُولُ: «قُطِعَتِ الأَغْصَانُ لأُطَعَّمَ أَنَا!». حَسَنًا! مِنْ أَجْلِ عَدَمِ الإِيمَانِ قُطِعَتْ، وَأَنْتَ بِالإِيمَانِ ثَبَتَّ. لاَ تَسْتَكْبِرْ بَلْ خَفْ! لأَنَّهُ إِنْ كَانَ اللهُ لَمْ يُشْفِقْ عَلَى الأَغْصَانِ الطَّبِيعِيَّةِ فَلَعَلَّهُ لاَ يُشْفِقُ عَلَيْكَ أَيْضًا! فَهُوَذَا لُطْفُ اللهِ وَصَرَامَتُهُ: أَمَّا الصَّرَامَةُ فَعَلَى الَّذِينَ سَقَطُوا، وَأَمَّا اللُّطْفُ فَلَكَ، إِنْ ثَبَتَّ فِي اللُّطْفِ، وَإِلاَّ فَأَنْتَ أَيْضًا سَتُقْطَعُ. وَهُمْ إِنْ لَمْ يَثْبُتُوا فِي عَدَمِ الإِيمَانِ سَيُطَعَّمُونَ. لأَنَّ اللهَ قَادِرٌ أَنْ يُطَعِّمَهُمْ أَيْضًا. لأَنَّهُ إِنْ كُنْتَ أَنْتَ قَدْ قُطِعْتَ مِنَ الزَّيْتُونَةِ الْبَرِّيَّةِ حَسَبَ الطَّبِيعَةِ، وَطُعِّمْتَ بِخِلاَفِ الطَّبِيعَةِ فِي زَيْتُونَةٍ جَيِّدَةٍ، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ يُطَعَّمُ هؤُلاَءِ الَّذِينَ هُمْ حَسَبَ الطَّبِيعَةِ، فِي زَيْتُونَتِهِمِ الْخَاصَّةِ؟ فَإِنِّي لَسْتُ أُرِيدُ أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْ تَجْهَلُوا هذَا السِّرَّ، لِئَلاَّ تَكُونُوا عِنْدَ أَنْفُسِكُمْ حُكَمَاءَ: أَنَّ الْقَسَاوَةَ قَدْ حَصَلَتْ جُزْئِيًّا لإِسْرَائِيلَ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ مِلْؤُ الأُمَمِ، وَهكَذَا سَيَخْلُصُ جَمِيعُ إِسْرَائِيلَ. كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «سَيَخْرُجُ مِنْ صِهْيَوْنَ الْمُنْقِذُ وَيَرُدُّ الْفُجُورَ عَنْ يَعْقُوبَ. وَهذَا هُوَ الْعَهْدُ مِنْ قِبَلِي لَهُمْ مَتَى نَزَعْتُ خَطَايَاهُمْ». مِنْ جِهَةِ الإِنْجِيلِ هُمْ أَعْدَاءٌ مِنْ أَجْلِكُمْ، وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الاخْتِيَارِ فَهُمْ أَحِبَّاءُ مِنْ أَجْلِ الآبَاءِ، لأَنَّ هِبَاتِ اللهِ وَدَعْوَتَهُ هِيَ بِلاَ نَدَامَةٍ. فَإِنَّهُ كَمَا كُنْتُمْ أَنْتُمْ مَرَّةً لاَ تُطِيعُونَ اللهَ، وَلكِنِ الآنَ رُحِمْتُمْ بِعِصْيَانِ هؤُلاَءِ هكَذَا هؤُلاَءِ أَيْضًا الآنَ، لَمْ يُطِيعُوا لِكَيْ يُرْحَمُوا هُمْ أَيْضًا بِرَحْمَتِكُمْ. لأَنَّ اللهَ أَغْلَقَ عَلَى الْجَمِيعِ مَعًا فِي الْعِصْيَانِ، لِكَيْ يَرْحَمَ الْجَمِيعَ. يَا لَعُمْقِ غِنَى اللهِ وَحِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ! مَا أَبْعَدَ أَحْكَامَهُ عَنِ الْفَحْصِ وَطُرُقَهُ عَنِ الاسْتِقْصَاءِ! «لأَنْ مَنْ عَرَفَ فِكْرَ الرَّبِّ؟ أَوْ مَنْ صَارَ لَهُ مُشِيرًا؟ أَوْ مَنْ سَبَقَ فَأَعْطَاهُ فَيُكَافَأَ؟». لأَنَّ مِنْهُ وَبِهِ وَلَهُ كُلَّ الأَشْيَاءِ. لَهُ الْمَجْدُ إِلَى الأَبَدِ. آمِينَ.": كلام بولس هنا، هو من سفسطته المعهودة، والتي يظن أنه بها يخوض في المعاني، كما كان يفعل عيسى عليه السلام؛ وهيهات!... ولا يُشبه ما يأتيه بفعله هذا، إلا ما نراه عند المتصوفة من هذيان، يتوهّمون أنهم يخوضون به في الحقائق كما يفعل المتحقّقون. وإني لأذكر الآن أحد الحمقى، من المنتسبين إلى طريقة صوفية منقلِبة، عندما جاءني مرة يطرق عليَّ

بابي، يدعوني إلى جلسة في بيت من البيوت. فلما ذهبت معه، صار يُكلّمني بأن الله هو من جاءني وطرق بابي؛ وكأنه يُعْلمني بمكانته. وهذا كله، ليس إلا من الحمق، الذي ينبغي أن يؤدب عليه المجاهرون به!... وبولس هنا يختلق منطقا، لا يسوغ إلا عنده: فهو يجعل معصية بني إسرائيل سببا في هداية الأمم الأخرى؛ ثم يجعل هداية الأمم الأخرى سببا في هداية جميع بني إسرائيل؛ ويُرتّب على ذلك نتيجة نهائية، هي أن لله حكمة في كل ذلك لا تُعلم. وكأنه يفرّ من أن يجادله في أقواله أحد بمنطق العقل، أو بمنطق الشريعة؛ ليُبقي على بُنيانه قائما في الأوهام، وإن رَدّته العقول. وهذا المنطق، لا يختلف في فساده، عن منطق عوام العوام، عندما يكونون مقيمين على المعصية، ولا يقبلون نصيحة الناصحين؛ بل يردونها بمنطق سقيم، تتضمنه عبارات لهم من مثل: "وما يُدريك أن الله يغفر لي، ولا يقبل منك أعمالك؛ فإنه على كل شيء قدير!"، أو كقولهم: "إن الحقيقة لا تظهر إلا في الآخرة، وما يُدريك أنني من أهل الجنة وأنك من أهل النار!"، أو كقولهم: "إن الأعمال بخواتيمها، فلعلي أتوب وأصير إلى خير؛ ولعلك تنقلب إلى المعصية أو ربما الكفر، فتكون من الخاسرين!". وهذا كله، وإن كان له مستند من وجهه، فإنه في محل النُصح لا يكون إلا من وحي الشيطان ونفخه. وكلام بولس، وإن كان يبدو منه التنزيه لله في علمه؛ فإنه يشي بأنه وحده من يعلم من الله ما خفِي عن غيره. وهذا -كما لا يخفى- من الإرهاب الفكري الذي يعتمده المدلسون، وإن كان لا ينطلي إلا على السفهاء والجهلة. ثم إن عبارة "لأَنْ مَنْ عَرَفَ فِكْرَ الرَّبِّ"، لا تصح! وذلك لأن الفكر هو عمل العقل المخلوق، الذي يحكُم عليه إمكانه. ونعني أن الفكر، هو تردد العقل بين أمرين أو أكثر. ولولا أن أصله عدم، وأن خوضه لا يكون إلا في الممكن الذي هو من أحد وجهيْه عدم، ما وقع في ذلك. وأما الله سبحانه، فله العلم لا الفكر؛ لأن العلم صفة وجودية تليق به وحده. ولن نفصّل القول هنا في مسألة نسبة العلم إلى العباد في الوحي، ولا في صنوف العلم؛ لأن ذلك سيخرج بنا عن الغرض.

ثم يقول بولس في الأصحاح الثاني عشر: "فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ بِرَأْفَةِ اللهِ أَنْ تُقَدِّمُوا أَجْسَادَكُمْ ذَبِيحَةً حَيَّةً مُقَدَّسَةً مَرْضِيَّةً عِنْدَ اللهِ، عِبَادَتَكُمُ الْعَقْلِيَّةَ. وَلاَ تُشَاكِلُوا هذَا الدَّهْرَ، بَلْ تَغَيَّرُوا عَنْ شَكْلِكُمْ بِتَجْدِيدِ أَذْهَانِكُمْ، لِتَخْتَبِرُوا مَا هِيَ إِرَادَةُ اللهِ: الصَّالِحَةُ الْمَرْضِيَّةُ الْكَامِلَةُ.": هذه العبارات، تُفصح عن حقيقة دعوة بولس، والتي أخبرْنا عنها سابقا بأنها أيديولوجيا، لا إيمان. وهذا لأن العبادة ليست عقلية، كما يظنها بولس، أو غيره من أهل الدين؛ وإنما هي اتباع للوحي الذي يأتي به الرسول من عند الله. والعمل بالشريعة، صنفان لا ثالث لهما: عمل بدني، وعمل قلبي. فإن قال قائل: ألا تُسوّون في كلامكم أحيانا بين العقل والقلب؟... فكيف تنفون كلام بولس الذي يجعل العمل عقليا، مع ذلك؟... فإننا نجيب: نحن عندما نسوّي في كلامنا أحيانا بين العقل والقلب، ونجعلهما شيئا واحدا؛ فلأن إشارتنا تكون إلى المسمى لا إلى صفة القلبية أو صفة العقلية؛ وبين المعنييْن فرق. وأما بولس، فإشارته هي إلى فعل العقل؛ والفعل في المرتبة أدنى من الصفة؛ لذلك لم نقبل منه كلامه!... ولقد وقع شطر من المسلمين فيما وقع فيه بولس، لكنهم لم يبلغوا مبلغه في السوء؛ لأنهم لم يُنكروا مرتبة الشريعة، بل زادوا عليها فِعلهم العقلي. وأما إن سأل سائل: لمَ يقع أهل الدين في هذه الآفة، مع أن الدين لم يدُل عليها إلا من وجه مخصوص ومحصور؟ فإننا نجيب: لا يقع ذلك من الناس، إلا بعد أن يفقدوا نور الدين. وهذا لا يحدث إلا بعد انتقال الرسل عليهم السلام ومفارقتهم لأقوامهم. وهذا يعني أيضا، أن الأعمال الشرعية التي يكونون عليها تكون مقطوعة عن أصلها؛ لأنها لو بقيت على أصلها، لكانت تأتيهم بالنور (المدد). يقول الله تعالى في معنى إثمار الأعمال: {وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ} [الحديد: ١٩]. والمقصود من الشهداء هنا، الذين قُتلوا في سبيل الله؛ والموت في سبيل الله عمل من الأعمال الشرعية، كما هو معلوم. وهذا يعني، أن كل الأعمال الشرعية لها أجر ولها نور، على قدرها. فإنْ عمِل العامل، ولم يجد نورا في قلبه، فليعلم أنه مقطوع عن أصل الشريعة؛ ولا يُقطع العبد عن أصل الشريعة، إلا إن قُطع عن رسوله الذي يتبعه في زمانه؛ ولا ينقطع عن رسوله إلا إن فسد فيه اعتقاده. ولهذا

السبب، كنا نحن نحذر الوهابية التيميين، ونُخوّفهم من عاقبة أمرهم؛ ولم نكن نعني إلا أنهم مقطوعون عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهو ما يذهب بأجور أعمالهم وبنورها. ولقد استمعنا إلى كثير من أقوال هذه الطائفة، فعَلِمنا يقينا أنهم مقطوعون ولا نور لهم. وإن أتباع الرسل عندما يطول بهم العهد، وينقطعون عن أصل الوحي، فإنهم لا يجدون نورا يستضيئون به إلا أنوار عقولهم. ونور العقل، نور طبيعي أيّد الله به الإنسان في مجالات مخصوصة؛ ولم يجعله العُمدة في طلب الحق؛ بعكس ما يُظنّ. ونعني من هذا، أن أتباع الرسل عند فقدهم النور الديني، رجعوا إلى طريق الفلاسفة ولو جزئيا. وهذا هو سبب كونهم من جهة العقائد على أيديولوجيا، وإن كانوا لا يعلمون. وذلك لأن التفريق بين العقيدة الإيمانية والأيديولوجيا، ليس في متناول كل الناس؛ ولقد وجدنا كبار أئمة المتكلمين من المسلمين، لا يعلمون هذا الفرق، وإن كان بعضهم في نهاية أعمارهم، وعند استعدادهم للقاء ربهم، تذهب عنهم غشاوة الفكر ويصحو فيهم نور إيمانهم الذي كان يوقد من زيت صدقهم في أعمالهم المشروعة، من وراء عقولهم. وأما غير الصادقين، من أئمة الضلال، فإنهم يبقون على عماهم، وقد يموتون على غير الملة، والناس يحسبونهم على خير. وحتى نظهر حقيقة ما الناس عليه، فإننا نقول: إن كل أهل العقائد الكلامية، على خطر؛ وهذا الخطر، يزداد بقدر تعمُّق العبد في التنظير لعقيدته، بعكس ما يتوهم الناس. ولهذا، فنحن دائما نُعيد: إن العامة من المسلمين أقرب إلى النجاة من الفقهاء. نقول هذا، لأن الفقهاء، لم يلتزموا الحد في إعمال عقولهم، وخرجوا بها إلى تناول ما لا يدخل تحت هيمنتها، وليس إلا الله والوحي.

ثم يضيف بولس: "فَإِنِّي أَقُولُ بِالنِّعْمَةِ الْمُعْطَاةِ لِي، لِكُلِّ مَنْ هُوَ بَيْنَكُمْ: أَنْ لاَ يَرْتَئِيَ فَوْقَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَرْتَئِيَ، بَلْ يَرْتَئِيَ إِلَى التَّعَقُّلِ، كَمَا قَسَمَ اللهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِقْدَارًا مِنَ الإِيمَانِ. فَإِنَّهُ كَمَا فِي جَسَدٍ وَاحِدٍ لَنَا أَعْضَاءٌ كَثِيرَةٌ، وَلكِنْ لَيْسَ جَمِيعُ الأَعْضَاءِ لَهَا عَمَلٌ وَاحِدٌ، هكَذَا نَحْنُ الْكَثِيرِينَ: جَسَدٌ وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ، وَأَعْضَاءٌ بَعْضًا لِبَعْضٍ، كُلُّ وَاحِدٍ لِلآخَرِ. وَلكِنْ لَنَا مَوَاهِبُ مُخْتَلِفَةٌ بِحَسَبِ النِّعْمَةِ الْمُعْطَاةِ لَنَا: أَنُبُوَّةٌ فَبِالنِّسْبَةِ إِلَى الإِيمَانِ، أَمْ خِدْمَةٌ فَفِي الْخِدْمَةِ، أَمِ الْمُعَلِّمُ فَفِي التَّعْلِيمِ، أَمِ الْوَاعِظُ فَفِي الْوَعْظِ، الْمُعْطِي فَبِسَخَاءٍ، الْمُدَبِّرُ فَبِاجْتِهَادٍ، الرَّاحِمُ فَبِسُرُورٍ. اَلْمَحَبَّةُ فَلْتَكُنْ بِلاَ رِيَاءٍ. كُونُوا كَارِهِينَ الشَّرَّ، مُلْتَصِقِينَ بِالْخَيْرِ. وَادِّينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِالْمَحَبَّةِ الأَخَوِيَّةِ، مُقَدِّمِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فِي الْكَرَامَةِ. غَيْرَ مُتَكَاسِلِينَ فِي الاجْتِهَادِ، حَارِّينَ فِي الرُّوحِ، عَابِدِينَ الرَّبَّ، فَرِحِينَ فِي الرَّجَاءِ، صَابِرِينَ فِي الضَّيْقِ، مُواظِبِينَ عَلَى الصَّلاَةِ، مُشْتَرِكِينَ فِي احْتِيَاجَاتِ الْقِدِّيسِينَ، عَاكِفِينَ عَلَى إِضَافَةِ الْغُرَبَاءِ. بَارِكُوا عَلَى الَّذِينَ يَضْطَهِدُونَكُمْ. بَارِكُوا وَلاَ تَلْعَنُوا. فَرَحًا مَعَ الْفَرِحِينَ وَبُكَاءً مَعَ الْبَاكِينَ. مُهْتَمِّينَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ اهْتِمَامًا وَاحِدًا، غَيْرَ مُهْتَمِّينَ بِالأُمُورِ الْعَالِيَةِ بَلْ مُنْقَادِينَ إِلَى الْمُتَّضِعِينَ. لاَ تَكُونُوا حُكَمَاءَ عِنْدَ أَنْفُسِكُمْ. لاَ تُجَازُوا أَحَدًا عَنْ شَرّ بِشَرّ. مُعْتَنِينَ بِأُمُورٍ حَسَنَةٍ قُدَّامَ جَمِيعِ النَّاسِ. إِنْ كَانَ مُمْكِنًا فَحَسَبَ طَاقَتِكُمْ سَالِمُوا جَمِيعَ النَّاسِ. لاَ تَنْتَقِمُوا لأَنْفُسِكُمْ أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، بَلْ أَعْطُوا مَكَانًا لِلْغَضَبِ، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «لِيَ النَّقْمَةُ أَنَا أُجَازِي يَقُولُ الرَّبُّ. فَإِنْ جَاعَ عَدُوُّكَ فَأَطْعِمْهُ. وَإِنْ عَطِشَ فَاسْقِهِ. لأَنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ هذَا تَجْمَعْ جَمْرَ نَارٍ عَلَى رَأْسِهِ». لاَ يَغْلِبَنَّكَ الشَّرُّ بَلِ اغْلِبِ الشَّرَّ بِالْخَيْرِ.": يحرص بولس على إبراز مكانته في الجماعة بقوله: "فَإِنِّي أَقُولُ بِالنِّعْمَةِ الْمُعْطَاةِ لِي"؛ لأنه يتكلم وكأنه نبي أو رسول، وليس هو لا ذا ولا ذاك. ثم بعد ذلك يوزع المراتب الباقية على المستمعين، في عملية وعظ عامة، يقارب فيها تعاليم عيسى عليه السلام، من باب التدليس. وأمر تنظيم الجماعة لا ينفرد به أهل الدين وحدهم؛ بل يتجاوزهم إلى أصحاب الأيديولوجيات وأصحاب التنظيمات السرية وغير السرية؛ المحقة والمبطلة. فلا يغترَّ أحد بكلام بولس هذا، لأنه لا يفيد خصوصية في نفسه!...

ثم يقول بولس في الأصحاح الثالث عشر: "لِتَخْضَعْ كُلُّ نَفْسٍ لِلسَّلاَطِينِ الْفَائِقَةِ، لأَنَّهُ لَيْسَ سُلْطَانٌ إِلاَّ مِنَ اللهِ، وَالسَّلاَطِينُ الْكَائِنَةُ هِيَ مُرَتَّبَةٌ مِنَ اللهِ، حَتَّى إِنَّ مَنْ يُقَاوِمُ السُّلْطَانَ يُقَاوِمُ تَرْتِيبَ اللهِ، وَالْمُقَاوِمُونَ سَيَأْخُذُونَ لأَنْفُسِهِمْ دَيْنُونَةً. فَإِنَّ الْحُكَّامَ لَيْسُوا خَوْفًا لِلأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بَلْ لِلشِّرِّيرَةِ. أَفَتُرِيدُ أَنْ لاَ تَخَافَ السُّلْطَانَ؟ افْعَلِ الصَّلاَحَ فَيَكُونَ لَكَ

مَدْحٌ مِنْهُ، لأَنَّهُ خَادِمُ اللهِ لِلصَّلاَحِ! وَلكِنْ إِنْ فَعَلْتَ الشَّرَّ فَخَفْ، لأَنَّهُ لاَ يَحْمِلُ السَّيْفَ عَبَثًا، إِذْ هُوَ خَادِمُ اللهِ، مُنْتَقِمٌ لِلْغَضَبِ مِنَ الَّذِي يَفْعَلُ الشَّرَّ. لِذلِكَ يَلْزَمُ أَنْ يُخْضَعَ لَهُ، لَيسَ بِسَبَبِ الْغَضَبِ فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا بِسَبَبِ الضَّمِيرِ. فَإِنَّكُمْ لأَجْلِ هذَا تُوفُونَ الْجِزْيَةَ أَيْضًا، إِذْ هُمْ خُدَّامُ اللهِ مُواظِبُونَ عَلَى ذلِكَ بِعَيْنِهِ. فَأَعْطُوا الْجَمِيعَ حُقُوقَهُمُ: الْجِزْيَةَ لِمَنْ لَهُ الْجِزْيَةُ. الْجِبَايَةَ لِمَنْ لَهُ الْجِبَايَةُ. وَالْخَوْفَ لِمَنْ لَهُ الْخَوْفُ. وَالإِكْرَامَ لِمَنْ لَهُ الإِكْرَامُ.": لقد سبق أن عرفنا أن اليهود كانوا على مذاهب في معاملة الحاكم اليوناني والروماني: أولا، بحسب ما يُعاملهم أولئك وبحسب سماحهم لهم بإقامة شعائرهم؛ وثانيا، لأن الشريعة الموسوية لم تكن تتكلم إلا عن الملوك من بني إسرائيل. لذلك ستبقى معاملة الحكام من غير الإسرائيليين جديدة عليهم، ولذلك ستكون اجتهادات فقهائهم تجاهها بحسب المجتهد، وبحسب الحاكم ومقدار قبوله لليهود واليهودية. ولقد كان عيسى علمهم أن يُعطوا لقيصر ما لقيصر ولله ما لله، في فصل بين ما يأمر به الحاكم من جباية للأموال، وما هو من شريعة الله في العبادات والمعاملات. وهذه ليست علمانية، بالمعنى المعروف اليوم، بقدر ما هي اعتبار للسلطة الحاكمة وعدم دخول في مواجهتها. وبهذا التشريع السياسي العيسوي الجديد على اليهود، سيزداد عدم فقه اليهود للتشريع العيسوي؛ خصوصا عندما يرون أنفسهم غير معنيين به. ولو أنهم أدركوا أن الحقبة التاريخية التي بُعث فيها عيسى، كانت مخالفة من هذا الوجه لحقبة موسى، لسهل عليهم تتبع الدليل الشرعي حينها؛ ولكن بدل أن تتسع عقولهم لأحكام عيسى، صارت تشكك فيها وتزداد تمسكا بالمتجاوز من الأحكام الأولى. ومسألة إدراك الصلة بين الأحكام والحقب والأزمان، لا يتنبه إليها كثير من فقهاء المسلمين أنفسهم، عندما يجمدون على النص حرفيا؛ وبهذا يخسرون تطور شريعتهم مع الأزمان وفي كل شؤون الحياة. وكلامنا هذا يعني، أن عيب مصادمة الشريعة لشيء من الواقع، لا يكون ناشئا عن قصور في الشريعة عياذا بالله؛ ولكن عن قصور إدراك للأحكام وأدلتها. ولو اتسع المجال لذكرنا أمثلة عن هذا التخلف الفقهي، والذي سببه عدم مرونة عقول الفقهاء فحسب. وكلامنا هنا هو عن الفقهاء المعتبرين، لا عن الفقهاء باللقب أو بالمظهر.

وعندما يعلن بولس أن الحكام هم من ترتيب الله ومن جعله، وينهى عن مقاومتهم وعن عصيانهم، فإنه يكون محقا؛ بحسب مبلغ الشريعة لديهم. لأن الشريعة المحمدية الكاملة، مع اعتبارها ذلك كله، فإنها تعتبر عمل الحاكم في الرعية: فإن كان عاملا فيها بالشريعة، وجبت عليها الطاعة؛ وإن كان عاملا بهواه، وبمعصية الله، فلا طاعة له. وهذا، لأن بولس افترض أن يكون السلاطين كلهم عاملين لخير أهل البلاد؛ وهو أمر قد لا يصدُق دائما. وهكذا ستغطي الشريعة جانبا كان مُغفلا، ومنظورا إليه بحسب تطور معنى الحكم وتطور مظاهره. وهذا من الفوارق الموجودة بين المسلمين والكتابيين إلى الآن. وأما اعتناء النصرانية بمسألة الحكم، وربطها بسلطة الكنيسة في حقب تاريخية مخصوصة، وفي بلاد مخصوصة، فإنه كان أمرا مستحدثا، سنعمل على تناوله في محله بإذن الله.

ثم يواصل بولس: "لاَ تَكُونُوا مَدْيُونِينَ لأَحَدٍ بِشَيْءٍ إِلاَّ بِأَنْ يُحِبَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، لأَنَّ مَنْ أَحَبَّ غَيْرَهُ فَقَدْ أَكْمَلَ النَّامُوسَ. لأَنَّ «لاَ تَزْنِ، لاَ تَقْتُلْ، لاَ تَسْرِقْ، لاَ تَشْهَدْ بِالزُّورِ، لاَ تَشْتَهِ»، وَإِنْ كَانَتْ وَصِيَّةً أُخْرَى، هِيَ مَجْمُوعَةٌ فِي هذِهِ الْكَلِمَةِ: «أَنْ تُحِبَّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ». اَلْمَحَبَّةُ لاَ تَصْنَعُ شَرًّا لِلْقَرِيبِ، فَالْمَحَبَّةُ هِيَ تَكْمِيلُ النَّامُوسِ. هذَا وَإِنَّكُمْ عَارِفُونَ الْوَقْتَ، أَنَّهَا الآنَ سَاعَةٌ لِنَسْتَيْقِظَ مِنَ النَّوْمِ، فَإِنَّ خَلاَصَنَا الآنَ أَقْرَبُ مِمَّا كَانَ حِينَ آمَنَّا. قَدْ تَنَاهَى اللَّيْلُ وَتَقَارَبَ النَّهَارُ، فَلْنَخْلَعْ أَعْمَالَ الظُّلْمَةِ وَنَلْبَسْ أَسْلِحَةَ النُّورِ. لِنَسْلُكْ بِلِيَاقَةٍ كَمَا فِي النَّهَارِ: لاَ بِالْبَطَرِ وَالسُّكْرِ، لاَ بِالْمَضَاجعِ وَالْعَهَرِ، لاَ بِالْخِصَامِ وَالْحَسَدِ. بَلِ الْبَسُوا الرَّبَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ، وَلاَ تَصْنَعُوا تَدْبِيرًا لِلْجَسَدِ لأَجْلِ الشَّهَوَاتِ.": إن ما يذكره بولس هنا، هو تأسيس لمبادئ الرهبنة، التي قال الله عنها: {وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ

وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد: ٢٧]. ويظهر من الآية أن الرهبانية التي ابتدعها المسيحيون، من دون أن يكون عيسى قد شرعها لهم؛ لم يكونوا يقصدون منها إلا التقرب إلى الله بأقصى ما يستطيعون؛ لكنهم لم يرعوها حق رعايتها، عندما خالفوها فيما بعد، وصاروا يختانون أنفسهم في مخالفتها. وقسم الله بذلك المسيحيين إلى قسمين: قسم أصغر، هو قسم المؤمنين، الذين سيُجازون عن إيمانهم خيرا؛ وقسم أكبر، هو قسم المخطئين للطريق الخارجين عن أحكامه؛ وهؤلاء -لا شك- سيكون لهم العذاب في العقبى. وإن تلخيص المعاملات الشرعية في المحبة من بولس، هو أمر جيد؛ لأن المحبة هي أساس كل عمل صالح؛ ولقد صدق عندما أخبر أنها مكملة للناموس. ونحن نزيد عليه بأن نقول: إن المحبة هي أصل الناموس وأساسه، وليست مكملة له فحسب. وهذا المعنى يجهله كثير من المسلمين، خصوصا أولئك الذين ينظرون إلى الشريعة نظرة آلية تُشبه نظرة اليهود لها. والمحبة هنا، ليست هي محبة القريب في الدم وفي الإيمان فحسب، بل هي محبة الله ورسوله في المرتبة العليا؛ ما دامت الأعمال المشروعة، لا تكتمل إلا بمحبة الله ورسوله في المعاملة. ولقد اعتنى بهذا الجانب الصوفية، فأحسنوا إلى الدين باعتنائهم ذاك، وأبرزوا مكانته التي كادت تندرس مع غيرهم؛ جزاهم الله خيرا.

ثم يقول بولس في الأصحاح الرابع عشر: "وَمَنْ هُوَ ضَعِيفٌ فِي الإِيمَانِ فَاقْبَلُوهُ، لاَ لِمُحَاكَمَةِ الأَفْكَارِ. وَاحِدٌ يُؤْمِنُ أَنْ يَأْكُلَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَمَّا الضَّعِيفُ فَيَأْكُلُ بُقُولًا. لاَ يَزْدَرِ مَنْ يَأْكُلُ بِمَنْ لاَ يَأْكُلُ، وَلاَ يَدِنْ مَنْ لاَ يَأْكُلُ مَنْ يَأْكُلُ، لأَنَّ اللهَ قَبِلَهُ. مَنْ أَنْتَ الَّذِي تَدِينُ عَبْدَ غَيْرِكَ؟ هُوَ لِمَوْلاَهُ يَثْبُتُ أَوْ يَسْقُطُ. وَلكِنَّهُ سَيُثَبَّتُ، لأَنَّ اللهَ قَادِرٌ أَنْ يُثَبِّتَهُ. وَاحِدٌ يَعْتَبِرُ يَوْمًا دُونَ يَوْمٍ، وَآخَرُ يَعْتَبِرُ كُلَّ يَوْمٍ. فَلْيَتَيَقَّنْ كُلُّ وَاحِدٍ فِي عَقْلِهِ: الَّذِي يَهْتَمُّ بِالْيَوْمِ، فَلِلرَّبِّ يَهْتَمُّ. وَالَّذِي لاَ يَهْتَمُّ بِالْيَوْمِ، فَلِلرَّبِّ لاَ يَهْتَمُّ. وَالَّذِي يَأْكُلُ، فَلِلرَّبِّ يَأْكُلُ لأَنَّهُ يَشْكُرُ اللهَ. وَالَّذِي لاَ يَأْكُلُ فَلِلرَّبِّ لاَ يَأْكُلُ وَيَشْكُرُ اللهَ. لأَنْ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَّا يَعِيشُ لِذَاتِهِ، وَلاَ أَحَدٌ يَمُوتُ لِذَاتِهِ. لأَنَّنَا إِنْ عِشْنَا فَلِلرَّبِّ نَعِيشُ، وَإِنْ مُتْنَا فَلِلرَّبِّ نَمُوتُ. فَإِنْ عِشْنَا وَإِنْ مُتْنَا فَلِلرَّبِّ نَحْنُ.": هذا الكلام جيد، في عمومه، وإن كان فوق طور الأتباع من جهة العلم. لأن الشخص يحكم على غيره بحسب علمه من الشريعة، وعلم الشريعة لا يُعطي من نفسه اعتبار الشيء ونقيضه. ولعل بولس قد بلغه من كلام عيسى ما صار يُكرّره، من دون أن يفقه حقيقته. ونحن نقول هذا، لأنه من الصعب أن يرى الزاهد المتقلل، أن المُقبل على المباحات والمستكثر منها على خير من جهة العمل حصرا؛ وأما من جهة حكم الله العام في العباد، فهو معلوم للجميع. وهذا الكلام من بولس يكون إما تنظيرا بحتا منه، وإما كلاما مجهولا له هو نفسه، بلغه من دون أن يعلمه، فصار يردّده. وأما ما يختم به هذه الفقرة من أن العبد ينبغي أن يترك الحكم على عبد آخر للرب، فإنه من عيون الحكمة والأدب الشرعي. وقد زل كثير من المسلمين بمجاوزتهم له، وباحتقار العُصاة منهم على الخصوص. وليس للعبد أمام معصية أخيه، إلا النصيحة بلسانه؛ وأما قلبه، فينبغي أن لا يحكم بشيء، ما دام حكم الله على عبده غيبا من الغيوب. وأما تنبيه بولس إلى أن العبد ينبغي أن يعيش لسيده، وأن يموت لسيده، فهو جيد جدا؛ وهو معنى قول الله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. وهذا المعنى مجهول لكثير من المسلمين، الذين صارت عباداتهم وحياتهم ومماتهم لأنفسهم في العاجلة وفي الآخرة، لا لله. ولقد اختلط عليهم معنى إخلاص العبادة لله، بمعنى غناه سبحانه عنهم وعن أعمالهم؛ فلما رأوا أن ربهم غنيّ، وأنهم فقراء لنتائج الأعمال في الدنيا والآخرة، جعلوا ذلك لهم قصدا؛ وما علموا أنهم بهذا، قد خالفوا التشريع، وأنهم قد دخلوا في الشرك. وذلك لأن العامل من أجل نفع نفسه، هو عامل لها لا لربها. وليس للنفس من مطلوباتها، إلا ما أباحه الشرع لها، وبالقدر الذي أباحه. وكل ما يدل على غير هذا، فإنه يكون فكرا فاسدا، وإفتاء من إبليس حيث لا يحق له الإفتاء. ولعل بولس لم يكن يعلم هذا التفصيل، لأنه عندما طلب من العامل أن لا يدين غير العامل، لم يجعل الحكم في ذلك للشريعة؛ وإنما أطلقه، وجعله يُشبه ما يشترعه لأنفسهم أصحاب الديانات الوضعية، وأصحاب الأيديولوجيات والفلسفات. وحتى يفهم

عنا القارئ ما نرمي إليه، فلنأخذ مثالا مما يشيع في أزمنتنا، ونقول: هب أن رجليْن أحدهما كافر، كثير الإحسان إلى المحتاجين؛ والآخر مسلم، لا ينفع أحدا. وهب أن كلاً منهما سيموت على ما عاش عليه، فمن منهما يكون ناجيا عند الله، ومن منهما يحيق به الهلاك؟... والأمر ينبغي أن يكون واضحا، ومع ذلك فإن بعض المنتسبين إلى العلم يغلطون فيه. ونعني بالوضوح هنا، أن المعتبر عند الله أولا إسلام العبد في نفسه؛ وبهذا يكون الناجي من الاثنيْن المسلم الذي لا نفع له لغيره. ولقد جهل بعض الناس، فاستعظموا بعض الإحسان الذي يكون للكفار، مع ما يبدو عليهم من حسن الخلق، فحكموا بهواهم، وخالفوا الشريعة فقالوا: لا يُمكن أن يهلك أمثال هؤلاء!... وكان غلطهم من وجهيْن: الأول، أنهم قالوا في حكم لا يعلمه إلا الله "لا يُمكن"؛ وهذا تألّ على الله وسبق له في الحكم. والثاني: أنهم لم يعتبروا الشريعة وترتيبها للأحكام. ونعني من هذا أن غير المسلم، يُحكم عليه بدخول النار؛ فإن اعتُبر له عمل من أعمال الخير التي فعلها، فإن ذلك يكون في النار ذاتها؛ كأن يُخفف عنه صنف من العذاب... ولقد بلغ الجهل بأحدهم أن حكم على "باستور" مكتشف المضادات الحيوية، بدخول الجنة يقينا. والغريب أنه استدل على حكمه بقول الله تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} [المائدة: ٣٢]. وقال: إن باستور قد أحيا نفوسا عديدة لا نفسا واحدة. وعلى فرض أن الإحياء قد فُهم على وجهه الصحيح، فإنه يبقى المفتاح الذي لا يُنظر في أعمال العباد إلا به، ألا وهو شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله. أَلا يعلم صاحبنا، أنه لا يُنظر في أعمال من لا تكون الشهادة ضمن أعماله؟!... وكيف يُسوّى بين المفتاح، وصنوف البر التي تأتي بعده في المرتبة؟!... أما ما تراه العقول السقيمة، من أن كل ما ذكرناه لا يمت إلى العدل بصلة؛ فليعلم أصحابها، أن الحكم ليس لعقولهم، وإنما هو لله. ومن جهة أخرى، فمن أخبرهم أنهم يُميّزون حقيقة بين العدل والظلم؟!... وحتى نعين إخواننا على تبيّن أصل المسألة، فإننا سنعود بهم إلى ما كنا ذكرناه عن حكم القضاء والقدر آنفا. ونقول لهم: إن الحكم على العباد بالسعادة أو بالشقاء، هو من مرتبة المشيئة؛ وهو حكم من غير علة، وإلا انتفى معنى المشيئة. وهذا المعنى، هو ما جاء في الخبر عن الله، في قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ حِينَ خَلَقَهُ، فَضَرَبَ كَتِفَهُ الْيُمْنَى، فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً بَيْضَاءَ، كَأَنَّهُمْ الذَّرُّ (لعله الدُّرّ)؛ وَضَرَبَ كَتِفَهُ الْيُسْرَى، فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً سَوْدَاءَ كَأَنَّهُمْ الْحُمَمُ. فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَمِينِهِ: إِلَى الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي، وَقَالَ لِلَّذِي فِي كَفِّهِ الْيُسْرَى: إِلَى النَّارِ وَلَا أُبَالِي.»[1]. ومعنى "لا أبالي"، هو ما ذكرناه من غياب العلة. وهذه هي السابقة التي ذكرها الله في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} [الأنبياء: ١٠١]. ورغم أن الحكم في هذه المرتبة بالنجاة وبالهلاك، من دون علة، إلا أنه من العدل الإلهي. فهل تتمكن العقول القاصرة من إدراك هذا العدل، أم يغيب عن إدراكها؟... ثم لما قضى الله على خلقه بما شاء، تعلق العلم الإلهي بالمقضي لينسبه إلى أصحابه كما ظهر من مشهد الذرية اليمنى واليُسرى. فلما استقر الحكم لأصحابه في العلم، جاءت الحكمة اختطت طريقا لكل صنف من الذُّرّيّتيْن، يوصلهما إلى غايتهما في الآخرة. ولم يكن الطريقان إلا طريق الإسلام والبر، وطريق الكفر والشر. وهذا يُخالف ما تعلمه العامة من أن الحكم على العباد، لا يكون إلا بعد وزن أعمالهم والنظر فيها. وهذا صحيح، لكنه يُسمى بالنظر إلى السابقة لاحقة؛ ويُسمى الحكم فيه في مقابل القضاء قدرا. ومن لم يكن يُميّز بين هذه المعاني، فخير له أن يسكت عنها. وأما من آمن بها كما ذكرناها هنا، فليعلم أن القدر لا يُخالف القضاء، وأن اللاحقة لا تخالف السابقة؛ ثم ليقل بعد ذلك ما يشاء في معنى العدل. ومن هذا الباب قول الصوفية:

---

[1] . أخرجه أحمد والبزار والطبراني، عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

"العوام يخافون اللاحقة، والخواص يخافون السابقة". ونحن نزيد: "وأهل التحقيق لا يخافون سابقة ولا لاحقة، ولكن يخافون الله". وخلف هذا الكلام بحر من التحقيق، لا يخوضه إلا الدهريون.

ثم يضيف بولس: "لأَنَّهُ لِهذَا مَاتَ الْمَسِيحُ وَقَامَ وَعَاشَ، لِكَيْ يَسُودَ عَلَى الأَحْيَاءِ وَالأَمْوَاتِ.": وهذا الاستنتاج من بولس، ليس في محله؛ بل هو مُقحَم إقحاما. وهل موت المسيح –حين يموت– كموت غيره!... أم حياته كحياة غيره!... هذا لا يقول به إلا أحمق، لا يفرق بين الملِك وسائس دوابه.

ثم يُضيف: "وَأَمَّا أَنْتَ، فَلِمَاذَا تَدِينُ أَخَاكَ؟ أَوْ أَنْتَ أَيْضًا، لِمَاذَا تَزْدَرِي بِأَخِيكَ؟ لأَنَّنَا جَمِيعًا سَوْفَ نَقِفُ أَمَامَ كُرْسِيِّ الْمَسِيحِ، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «أَنَا حَيٌّ، يَقُولُ الرَّبُّ، إِنَّهُ لِي سَتَجْثُو كُلُّ رُكْبَةٍ، وَكُلُّ لِسَانٍ سَيَحْمَدُ اللهَ». فَإِذًا كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا سَيُعْطِي عَنْ نَفْسِهِ حِسَابًا للهِ. فَلاَ نُحَاكِمْ أَيْضًا بَعْضُنَا بَعْضًا، بَلْ بِالْحَرِيِّ احْكُمُوا بِهذَا: أَنْ لاَ يُوضَعَ لِلأَخِ مَصْدَمَةٌ أَوْ مَعْثَرَةٌ.": هذا الكلام من جنس الذي مرّ قبله، مع إضافة المشهد الأخروي الملتبس على النصارى. فهم يتكلمون عن عيسى وكأنه الله، من دون أن يفرقوا بين مرتبتيْ العبودية والربوبية فيه. وهذه مسألة عويصة في اللاهوت، لا نوافقهم عليها من كل وجه، ولا نخالفهم عليها من كل وجه. وأما العامة من المسلمين، فهم أجهل من النصارى بها؛ بسبب انحصار إدراك جُلّهم فيما هو من مرتبة الإسلام من الدين، وظنهم أن لا شيء وراء ذلك؛ وهيهات!... ثم ينبه بولس في آخر هذه الفقرة إلى أمر مهم، ينبغي أن يحرص عليه الإخوان (العِباد) فيما بينهم: وهو "أَنْ لاَ يُوضَعَ لِلأَخِ مَصْدَمَةٌ أَوْ مَعْثَرَةٌ."؛ أي أن لا تُصعَّب عليه طاعة، أو تُسهَّل عليه معصية. وهذا الأمر من أهم مناطات التشريع الجماعية، التي تؤسس لمجتمع سليم متعاون على الخير وحده. يقول الله تعالى في هذا المعنى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة: ٢]. ولو عمل الناس بهذيْن الأمريْن (أمر ونهي)، لخلا مجتمعهم من كل آفة، ظاهرة وباطنة، صغيرة وكبيرة؛ ولكن فقه معنى هذا الخطاب عزيز، لا تُدركه إلا قلة من الناس؛ ومن هذه القلة لا تتمكن من العمل به إلا قلة أخرى. ومن وفقه الله إلى العمل بهذا الأصل، فليعدّ نفسه من المُصطفيْن الأخيار، وليسأل الله التثبيت والقبول فحسب.

ثم يقول بولس: "إِنِّي عَالِمٌ وَمُتَيَقِّنٌ فِي الرَّبِّ يَسُوعَ أَنْ لَيْسَ شَيْءٌ نَجِسًا بِذَاتِهِ، إِلاَّ مَنْ يَحْسِبُ شَيْئًا نَجِسًا، فَلَهُ هُوَ نَجِسٌ.": نحن نعلم أن بولس لا يُدرك حقيقة ما يقول، وإنما يوافقه من جهة المعاملة الظاهرة فحسب. ومن جهة المعاملة، الأمر مُقيّد بالشريعة، لا بأهواء الناس؛ وسنرى ذلك من كلامه اللاحق. ولنعد إلى المعنى الذي بنى عليه بولس، ولم يكن له به علم، ولسنا نعني إلا مرتبة الحكم الشرعي من ضمن مجموعة الأحكام. ونعني من هذا مرة أخرى، أن الأشياء لها حكم أصلي لا توصف فيه إلا بأنها حق (أي ثابتة)، ولا توصف بحسن ولا قبح، ولا صلاح ولا فساد. وهذا يعني، أن الحكم الوجودي للأشياء، لا تفاضل فيه، ولا اختلاف. وأما الأحكام المُفاضلة، فهي تعود إلى أمريْن: العقل، من حيث هو ميزان رباني باطن؛ والشرع، بما هو ميزان رباني ظاهر. فمن مستوى العقل يُمكن أن نحكم بأن إعانة الملهوف خير من الإجهاز عليه (من دون أن نطيل في البرهنة على ذلك)؛ ومن مستوى الشريعة نعلم أن أكل لحم الضأن حلال، وأن أكل لحم الخنزير حرام. وبولس من دون أن يدري، هو يعتبر الحكم الأصلي في الأشياء وحده. وإن اعتباره من جهة الباطن، مع عدم العمل به من جهة الظاهر إن حكم الشرع بالخلاف، هو من أنفع الأعمال القلبية. نقول هذا، ونحن نعلم الصعوبة التي يلاقيها ضعفاء العقول في ذلك. ولو أن بولس أثبت هذا المبدأ، وأثبت معه الشريعة، لكان على الصراط المستقيم؛ ولكن من اعتباره لما ذكر، من دون اعتبار للشريعة، نعلم أنه ممكور به ومخذول.

ثم يُضيف: "فَإِنْ كَانَ أَخُوكَ بِسَبَبِ طَعَامِكَ يُحْزَنُ، فَلَسْتَ تَسْلُكُ بَعْدُ حَسَبَ الْمَحَبَّةِ. لاَ تُهْلِكْ بِطَعَامِكَ ذلِكَ الَّذِي مَاتَ الْمَسِيحُ لأَجْلِهِ. فَلاَ يُفْتَرَ عَلَى صَلاَحِكُمْ، لأَنْ لَيْسَ مَلَكُوتُ اللهِ أَكْلًا وَشُرْبًا، بَلْ هُوَ بِرٌّ وَسَلاَمٌ وَفَرَحٌ فِي الرُّوحِ

الْقُدُسِ. أَنَّ مَنْ خَدَمَ الْمَسِيحَ فِي هذِهِ فَهُوَ مَرْضِيٌّ عِنْدَ اللهِ، وَمُزَكًى عِنْدَ النَّاسِ. فَلْنَعْكُفْ إِذًا عَلَى مَا هُوَ لِلسَّلاَمِ، وَمَا هُوَ لِلْبُنْيَانِ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ. لاَ تَنْقُضْ لأَجْلِ الطَّعَامِ عَمَلَ اللهِ. كُلُّ الأَشْيَاءِ طَاهِرَةٌ، لكِنَّهُ شَرٌّ لِلإِنْسَانِ الَّذِي يَأْكُلُ بِعَثْرَةٍ. حَسَنٌ أَنْ لاَ تَأْكُلَ لَحْمًا وَلاَ تَشْرَبَ خَمْرًا وَلاَ شَيْئًا يَصْطَدِمُ بِهِ أَخُوكَ أَوْ يَعْثُرُ أَوْ يَضْعُفُ. أَلَكَ إِيمَانٌ؟ فَلْيَكُنْ لَكَ بِنَفْسِكَ أَمَامَ اللهِ! طُوبَى لِمَنْ لاَ يَدِينُ نَفْسَهُ فِي مَا يَسْتَحْسِنُهُ. وَأَمَّا الَّذِي يَرْتَابُ فَإِنْ أَكَلَ يُدَانُ، لأَنَّ ذلِكَ لَيْسَ مِنَ الإِيمَانِ، وَكُلُّ مَا لَيْسَ مِنَ الإِيمَانِ فَهُوَ خَطِيَّةٌ.": واضح من هذا المقطع، أن بولس كان يقصد بكلامه السابق هدم الشريعة، لا الدلالة على باطنها؛ لأن ما يتكلم عنه هنا من عدم إهلاك ذلك الذي مات المسيح لأجله بالطعام، هو حضّ على موافقة أهواء الناس في مسألة الطعام خصوصا، وفيما عداها بعد ذلك. وإن ووفقت الأهواء في الطعام وفي غيره، فاقرأ على الدين السلام؛ لأن الله ينهى نهيا باتّا عن اتباع الهوى، فيقول سبحانه لنبيه داود عليه السلام: {يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} [ص: ٢٦]، ويقول لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الجاثية: ١٨]. ومن هنا يظهر أن ما دل عليه بولس، هو من التنظير العقلي، الذي يُشبه ما يفعله الدجاليون في زماننا؛ وليس من دين عيسى ولا من هديه. وأما الإيمان الذي يتكلم عنه في ختام الفقرة، فليس هو الإيمان الشرعي، ولكن هو الاعتقاد الأيديولوجي. والأمران مختلفان على التمام، وإن عُمل على تسميتهما باسم واحد. والتسمية باسم واحد لمسميات مختلفة، باب من أبواب علم الشيطان، يُضل به مَن لا علم له بالنِّسب والمناطات.

ثم يقول بولس في الأصحاح الخامس عشر: "فَيَجِبُ عَلَيْنَا نَحْنُ الأَقْوِيَاءَ أَنْ نَحْتَمِلَ أَضْعَافَ الضُّعَفَاءِ، وَلاَ نُرْضِيَ أَنْفُسَنَا. فَلْيُرْضِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا قَرِيبَهُ لِلْخَيْرِ، لأَجْلِ الْبُنْيَانِ. لأَنَّ الْمَسِيحَ أَيْضًا لَمْ يُرْضِ نَفْسَهُ، بَلْ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «تَعْيِيرَاتُ مُعَيِّرِيكَ وَقَعَتْ عَلَيَّ». لأَنَّ كُلَّ مَا سَبَقَ فَكُتِبَ كُتِبَ لأَجْلِ تَعْلِيمِنَا، حَتَّى بِالصَّبْرِ وَالتَّعْزِيَةِ بِمَا فِي الْكُتُبِ يَكُونُ لَنَا رَجَاءٌ. وَلْيُعْطِكُمْ إِلهُ الصَّبْرِ وَالتَّعْزِيَةِ أَنْ تَهْتَمُّوا اهْتِمَامًا وَاحِدًا فِيمَا بَيْنَكُمْ، بِحَسَبِ الْمَسِيحِ يَسُوعَ، لِكَيْ تُمَجِّدُوا اللهَ أَبَا رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَفَمٍ وَاحِدٍ. لِذلِكَ اقْبَلُوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا كَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ أَيْضًا قَبِلَنَا، لِمَجْدِ اللهِ. وَأَقُولُ: إِنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ قَدْ صَارَ خَادِمَ الْخِتَانِ، مِنْ أَجْلِ صِدْقِ اللهِ، حَتَّى يُثَبِّتَ مَوَاعِيدَ الآبَاءِ. وَأَمَّا الأُمَمُ فَمَجَّدُوا اللهَ مِنْ أَجْلِ الرَّحْمَةِ، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «مِنْ أَجْلِ ذلِكَ سَأَحْمَدُكَ فِي الأُمَمِ وَأُرَتِّلُ لاسْمِكَ» وَيَقُولُ أَيْضًا: «تَهَلَّلُوا أَيُّهَا الأُمَمُ مَعَ شَعْبِهِ» وَأَيْضًا: «سَبِّحُوا الرَّبَّ يَا جَمِيعَ الأُمَمِ، وَامْدَحُوهُ يَا جَمِيعَ الشُّعُوبِ» وَأَيْضًا يَقُولُ إِشَعْيَاءُ: «سَيَكُونُ أَصْلُ يَسَّى وَالْقَائِمُ لِيَسُودَ عَلَى الأُمَمِ، عَلَيْهِ سَيَكُونُ رَجَاءُ الأُمَمِ». وَلْيَمْلأْكُمْ إِلهُ الرَّجَاءِ كُلَّ سُرُورٍ وَسَلاَمٍ فِي الإِيمَانِ، لِتَزْدَادُوا فِي الرَّجَاءِ بِقُوَّةِ الرُّوحِ الْقُدُسِ.": إن بولس يصرح في هذا المقطع، بأنه مخالف لعمل عيسى، عندما يذكر أن عيسى قد صار خادم الختان حتى يثبت مواعيد الآباء؛ وأما هو (بولس)، فهو يُسقط الشريعة كلها، لأجل رحمة الأمم. وهذه مغالطة كبيرة، تتضمن مخالفات لا بد من أن نبيّنها:

١. يتكلم بولس عن عيسى، وكأنه أعلى منه مرتبة؛ عندما يذكر دافعه في العمل، ثم يتجاوزه بعد ذلك. وهذا سوء أدب كبير، يكفي وحده لأن يجعله عند الله من الكافرين.

٢. إن بولس، بإفهامه الناس، أنه أكثر رغبة في رحمة الأمم من عيسى نفسه؛ يُعلن -لمن كان يعي الخطاب- أنه رسول ناسخ لشريعة عيسى عليه السلام. وبما أن الله لم يُخبرنا بوجود رسول بين عيسى ومحمد، فإن بولس بذلك يكون من الأنبياء الكذبة، الذين حذر منهم عيسى والأنبياء جميعا عليهم السلام. ولا أضر على الناس، من هؤلاء الأنبياء الكذبة،

لأنهم يلبسون للناس لباس زور، فيُضلونهم أبعد ضلال. وإن بولس من دون أن يعلم، يضع أسس الديانة الشيطانية (Satanism)؛ بل هو -على الأصح- مجدد لها، ما دامت هي قديمة وضاربة في التاريخ.

٣. يُظهر بولس بقوله وعمله، أن الشريعة الموحى بها إلى موسى ناقصة؛ وأنه سيكملها هو بتنظيره. والشريعة الإلهية لا توصف بالنقص إلا بالمقارنة إلى الشريعة الإلهية الخاتمة، وأما في زمانها فهي كاملة. وهذا أصل، لم نر من يدل عليه من المسلمين عند النظر إلى الشرائع السابقة.

٤. إن زعم العمل من أجل أكبر عدد من الناس (الأمم)، لا يُعتبر إلا عند إبليس، الذي يريد أن يظهر للناس بمظهر الشفوق الناصح؛ وأما عند الله فلا يُعتبر، لأنه سبحانه خلق الخلق وجعل شطرهم ينتهي إلى الجنة، وشطرهم الآخر (وهو الأكبر) ينتهي إلى النار. وكل من يزعم أنه أرحم بالعباد من ربهم، فهو جاهل جهلا كبيرا؛ لأن النار وأهلها، لا تخرج عن حُكم الرحمة الرحمانية العامة. ولكن بولس استهواه إبليس، وجاءه من جهة جهله، فأخذه إلى طريق الضلال، ثم جعله إماما فيه.

ثم يُضيف بولس: "وَأَنَا نَفْسِي أَيْضًا مُتَيَقِّنٌ مِنْ جِهَتِكُمْ، يَا إِخْوَتِي، أَنَّكُمْ أَنْتُمْ مَشْحُونُونَ صَلاَحًا، وَمَمْلُوؤُونَ كُلَّ عِلْمٍ، قَادِرُونَ أَنْ يُنْذِرَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا. وَلكِنْ بِأَكْثَرِ جَسَارَةٍ كَتَبْتُ إِلَيْكُمْ جُزْئِيًّا أَيُّهَا الإِخْوَةُ، كَمُذَكِّرٍ لَكُمْ، بِسَبَبِ النِّعْمَةِ الَّتِي وُهِبَتْ لِي مِنَ اللهِ، حَتَّى أَكُونَ خَادِمًا لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ لأَجْلِ الأُمَمِ، مُبَاشِرًا لإِنْجِيلِ اللهِ كَكَاهِنٍ، لِيَكُونَ قُرْبَانُ الأُمَمِ مَقْبُولًا مُقَدَّسًا بِالرُّوحِ الْقُدُسِ. فَلِي افْتِخَارٌ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ مِنْ جِهَةِ مَا للهِ.": وكعادة كل مُضل، منفوخ فيه من إبليس، فإن بولس يبغي تثبيت مكانته بين الناس؛ حتى تسهل عليه قيادتهم، إلى حيث يُريد. وإلا فأي نعمة هذه التي وُهبت له؟!... ومن جعله خادما للمسيح لأجل الأمم؟!... لأنه لا يقصد بهذه العبارة، إلا أنه خادم للمسيح، على طريق آخر؛ ما دام المسيح كان داعيا لبني إسرائيل، وهو يطمح إلى دعوة الأمم (العالم). ويظهر من هذه النية، أنه ليس خادما للمسيح حقيقة، وإنما هو خادم للشيطان؛ ولكنه يأتي باسم المسيح في كلامه، ليستغفل به ضعفاء العقل من المستمعين. ولقد جعل بولس نفسه كاهنا في دينه بنفسه، بخلاف كهنة بني إسرائيل الذين كانوا يُمسحون كهنة من قِبل الأنبياء عليهم السلام. وأما الروح القدس الذي يتكلم عنه، فإنه أقدس من أن يفتح بابه له ولأمثاله من أهل الدنس القلبي.

ثم يضيف: "لأَنِّي لاَ أَجْسُرُ أَنْ أَتَكَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ مِمَّا لَمْ يَفْعَلْهُ الْمَسِيحُ بِوَاسِطَتِي لأَجْلِ إِطَاعَةِ الأُمَمِ، بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، بِقُوَّةِ آيَاتٍ وَعَجَائِبَ، بِقُوَّةِ رُوحِ اللهِ. حَتَّى إِنِّي مِنْ أُورُشَلِيمَ وَمَا حَوْلَهَا إِلَى إِللِّيرِيكُونَ، قَدْ أَكْمَلْتُ التَّبْشِيرَ بِإِنْجِيلِ الْمَسِيحِ. وَلكِنْ كُنْتُ مُحْتَرِصًا أَنْ أُبَشِّرَ هكَذَا: لَيْسَ حَيْثُ سُمِّيَ الْمَسِيحُ، لِئَلاَّ أَبْنِيَ عَلَى أَسَاسٍ لآخَرَ. بَلْ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «الَّذِينَ لَمْ يُخْبَرُوا بِهِ سَيُبْصِرُونَ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْمَعُوا سَيَفْهَمُونَ». لِذلِكَ كُنْتُ أُعَاقُ الْمِرَارَ الْكَثِيرَةَ عَنِ الْمَجِيءِ إِلَيْكُمْ.": مرة أخرى، يُصرح بولس أنه على غير طريق المسيح؛ وقد دل على هذا المعنى بعبارتيْن:

الأولى: قوله "لأَنِّي لاَ أَجْسُرُ أَنْ أَتَكَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ مِمَّا لَمْ يَفْعَلْهُ الْمَسِيحُ بِوَاسِطَتِي لأَجْلِ إِطَاعَةِ الأُمَمِ، بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ"؛ لأنه لا يعني بها أنه مُلزم باتباع المسيح، بل يُعلن حريته عن اتباعه وتحلله منه، بزعم أن المسيح هو العامل فيه وبواسطته. وهذا يعني أن كل ما يظهر من بولس، فهو من المسيح؛ وهذا لا يقبله عقل ولا دين، لأنه لا أحد يُطابق غيره من جميع الوجوه؛ بل ولا من وجه واحد. لذلك فإن عيسى هو عيسى، وبولس هو بولس!... وقد أوضح بولس مراده من هذا التلبيس، في رسالته لأهل غلاطية، عندما قال: "مَعَ الْمَسِيحِ صُلِبْتُ، فَأَحْيَا لاَ أَنَا، بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا فِيَّ."[١]، ولقد انخدع المسيحيون بهذا القول، وعدّوه فضلا له، لأنهم فهموا منه الاتحاد بالمسيح الذي دلهم عليه هو كثيرا؛ وهيهات!... فإن قول بولس

[١]. رسالة بولس إلى أهل غلاطية: ٢: ٢٠.

باطل، ما قاله إلا لاستغفال الناس، وقد نال مراده منهم؛ لأنه لا يعلم معنى الاتحاد بعيسى في الحق، ولم نسمعه يتكلم عنه. وعندما اقتنع من اقتنع، أن عيسى هو الناطق على لسان بولس، انقادوا له انقياد العُميان، فأخذهم إلى عبادة الشيطان، وهم يظنون أنهم يتقربون إلى الله. وحتى يؤكد لهم المعنى، يظهر في أعينهم بمظهر من لا يجسر على قول ما قال، لولا أنه ليس هو القائل في الحقيقة بل عيسى. فأي ضلال بقي، لم يركبه بولس بعد هذا؟!...

والثانية: هي قوله: "وَلكِنْ كُنْتُ مُحْتَرِصًا أَنْ أُبَشِّرَ هكَذَا: لَيْسَ حَيْثُ سُمِّيَ الْمَسِيحُ، لِئَلاَّ أَبْنِيَ عَلَى أَسَاسٍ لآخَرَ."، وهذا يجعله مُصرِّحا بأنه لا يبني على بناء المسيح، لأن بناء المسيح بناء آخر؛ لا اعتبار فيه للأمم، ولا قول فيه بنبذ الشريعة. وبولس رغم ضلاله، فإنه يَصدُق الناس، ويُخبرهم أنه كان حريصا على التبشير بطريقته وإن سماها إنجيلا، لا على التبشير بطريقة عيسى. وهذا من أغرب ما يقع للناس، مع أهل الضلال الأكبر. وهو يُذكّرنا بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبي هريرة رضي الله عنه، عن الشيطان: «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ! ذَاكَ شَيْطَانٌ.»[1]. وإن الشياطين تفعل هذا، لا لأنها تريد نفع الناس؛ وإنما لظنها أن ذلك قد ينفعها عند ربها يوم الحساب. ألم يحك الله لنا قول الشيطان في قوله تعالى: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [الحشر: ١٦]؛ فهو لعنه الله عندما يتبرأ من أتباعه، يظن أن ذلك سينفعه عند الله؛ لكنه لا يتبرأ إلا بعد أن يكفُر التابع!... وهذا يعني أن لا أحد يكفر الكفر الأكبر، وهو لا يعلم؛ لأنه حتى إن كان لا يعلم في البداية، فإنه بعد تبرؤ الشيطان منه فيما بينه وبينه، لا بد أن يعلم ذلك. وهذه حجة لله على عباده، من حيث لا يشعرون!... وأما الشيطان، فإنه يقع فيما هو من جنس ما يَكيد به الناس، جزاء له؛ وهو لا يشعر!...

ثم يضيف بولس: "لِذلِكَ كُنْتُ أُعَاقُ الْمِرَارَ الْكَثِيرَةَ عَنِ الْمَجِيءِ إِلَيْكُمْ.": يعني بولس بكلامه هذا، أنه لم يكن مرحَّبا بدعوته في مهد الدعوة الموسوية والعيسوية من كل الناس؛ لأنه قد ثبت للبعض على الأقل، أنه مخالف لموسى ولعيسى. لهذا هو يفكر في مغادرة فلسطين والشام وما حولهما، ليلتحق بروما عاصمة الإمبراطورية؛ خصوصا وهو مواطن روماني. ولا يخفى أنه كان يقصد روما، من أجل بلوغ العالمية التي كان يتوق إليها؛ إلا أنه –وعلى العكس من ذلك– سيلاقي نتيجة بطرس نفسها؛ وإن كانت مواطَنتُه ستَعدِل به من القتل صلبا إلى القتل بقطع رأسه. وهكذا ينتهي مسار أحد كبار المُضلّين في العالم.

ثم يواصل بولس: "وَأَمَّا الآنَ فَإِذْ لَيْسَ لِي مَكَانٌ بَعْدُ فِي هذِهِ الأَقَالِيمِ، وَلِي اشْتِيَاقٌ إِلَى الْمَجِيءِ إِلَيْكُمْ مُنْذُ سِنِينَ كَثِيرَةٍ، فَعِنْدَمَا أَذْهَبُ إِلَى اسْبَانِيَا آتِي إِلَيْكُمْ. لأَنِّي أَرْجُو أَنْ أَرَاكُمْ فِي مُرُورِي وَتُشَيِّعُونِي إِلَى هُنَاكَ، إِنْ تَمَلأْتُ أَوَّلًا مِنْكُمْ جُزْئِيًّا. وَلكِنِ الآنَ أَنَا ذَاهِبٌ إِلَى أُورُشَلِيمَ لأَخْدِمَ الْقِدِّيسِينَ، لأَنَّ أَهْلَ مَكِدُونِيَّةَ وَأَخَائِيَةَ اسْتَحْسَنُوا أَنْ يَصْنَعُوا تَوْزِيعًا لِفُقَرَاءِ الْقِدِّيسِينَ الَّذِينَ فِي أُورُشَلِيمَ. اسْتَحْسَنُوا ذلِكَ، وَإِنَّهُمْ لَهُمْ مَدْيُونُونَ! لأَنَّهُ إِنْ كَانَ الأُمَمُ قَدِ اشْتَرَكُوا فِي رُوحِيَّاتِهِمْ، يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَخْدِمُوهُمْ فِي الْجَسَدِيَّاتِ أَيْضًا. فَمَتَى أَكْمَلْتُ ذلِكَ، وَخَتَمْتُ لَهُمْ هذَا الثَّمَرَ، فَسَأَمْضِي مَارًّا بِكُمْ إِلَى اسْبَانِيَا. وَأَنَا أَعْلَمُ أَنِّي إِذَا جِئْتُ إِلَيْكُمْ، سَأَجِيءُ فِي مِلْءِ بَرَكَةِ إِنْجِيلِ الْمَسِيحِ. فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ، بِرَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، وَبِمَحَبَّةِ الرُّوحِ، أَنْ تُجَاهِدُوا مَعِي فِي الصَّلَوَاتِ مِنْ أَجْلِي إِلَى اللهِ، لِكَيْ أُنْقَذَ مِنَ الَّذِينَ هُمْ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ فِي الْيَهُودِيَّةِ، وَلِكَيْ تَكُونَ خِدْمَتِي لأَجْلِ أُورُشَلِيمَ مَقْبُولَةً عِنْدَ الْقِدِّيسِينَ، حَتَّى أَجِيءَ إِلَيْكُمْ بِفَرَحٍ بِإِرَادَةِ اللهِ، وَأَسْتَرِيحَ مَعَكُمْ. إِلهُ السَّلاَمِ

[1] . أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه. وتمام حديث أبي هريرة: «وَكَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَ الحَدِيثَ. فَقَالَ: "إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ، لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ! ذَاكَ شَيْطَانٌ».

مَعَكُمْ أَجْمَعِينَ. آمِينَ.": يُخبر بولس كنيسة روما، أنه قبل أن يأتيهم، هو ذاهب إلى المسيحيين الذين هم من أصل يهودي في أورشليم، ليوصل إليهم مساعدات مالية من كنائس الأمميين. وهو يرى أن الأمميين من المسيحيين (على طريقته)، مدينون لإخوانهم الذين هم من أصل يهودي. ولقد كان مسيحيو أورشليم في ذلك الوقت يُعانون مجاعة حلّت بهم. وذِكر بولس لإسبانيا، وأنها ستكون نهاية رحلته بعد المرور بروما، يدل على أنها كانت محل كنيسة معتبرة لديه؛ أو أنه كان بعد تحقيق عالميته من روما، يُريد أن يبلغ أقصى العالم؛ والذي لم يكن إلا الساحل الغربي لأوروبا، بما أن أمريكا لم تكن قد اكتُشفت بعد. ولقد رجح المؤرخون أن بولس لم يُجاوز روما، حيث قُتل؛ وإن كان بعضهم يرى أن مرحلة ما بعد الوصول إلى روما، تبقى كلها مجهولة من حياة بولس.

ثم يُنهي بولس رسالته إلى أهل رومية بالأصحاح السادس عشر، حيث يقول: " أُوصِي إِلَيْكُمْ بِأُخْتِنَا فِيبِي، الَّتِي هِيَ خَادِمَةُ الْكَنِيسَةِ الَّتِي فِي كَنْخَرِيَا، كَيْ تَقْبَلُوهَا فِي الرَّبِّ كَمَا يَحِقُّ لِلْقِدِّيسِينَ، وَتَقُومُوا لَهَا فِي أَيِّ شَيْءٍ احْتَاجَتْهُ مِنْكُمْ، لأَنَّهَا صَارَتْ مُسَاعِدَةً لِكَثِيرِينَ وَلِي أَنَا أَيْضًا. سَلِّمُوا عَلَى بِرِيسْكِلاَّ وَأَكِيلاَ الْعَامِلَيْنِ مَعِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ، اللَّذَيْنِ وَضَعَا عُنُقَيْهِمَا مِنْ أَجْلِ حَيَاتِي، اللَّذَيْنِ لَسْتُ أَنَا وَحْدِي أَشْكُرُهُمَا بَلْ أَيْضًا جَمِيعُ كَنَائِسِ الأُمَمِ، وَعَلَى الْكَنِيسَةِ الَّتِي فِي بَيْتِهِمَا. سَلِّمُوا عَلَى أَبَيْنِتُوسَ حَبِيبِي، الَّذِي هُوَ بَاكُورَةُ أَخَائِيَةَ لِلْمَسِيحِ. سَلِّمُوا عَلَى مَرْيَمَ الَّتِي تَعِبَتْ لأَجْلِنَا كَثِيرًا. سَلِّمُوا عَلَى أَنْدَرُونِكُوسَ وَيُونِيَاسَ نَسِيبَيَّ، الْمَأْسُورَيْنِ مَعِي، اللَّذَيْنِ هُمَا مَشْهُورَانِ بَيْنَ الرُّسُلِ، وَقَدْ كَانَا فِي الْمَسِيحِ قَبْلِي. سَلِّمُوا عَلَى أَمْبِلِيَاسَ حَبِيبِي فِي الرَّبِّ. سَلِّمُوا عَلَى أُورْبَانُوسَ الْعَامِلِ مَعَنَا فِي الْمَسِيحِ، وَعَلَى إِسْتَاخِيسَ حَبِيبِي. سَلِّمُوا عَلَى أَبَلِّسَ الْمُزَكَّى فِي الْمَسِيحِ. سَلِّمُوا عَلَى الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَهْلِ أَرِسْتُوبُولُوسَ. سَلِّمُوا عَلَى هِيرُودِيُونَ نَسِيبِي. سَلِّمُوا عَلَى الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَهْلِ نَرْكِيسُّوسَ الْكَائِنِينَ فِي الرَّبِّ. سَلِّمُوا عَلَى تَرِيفَيْنَا وَتَرِيفُوسَا التَّاعِبَتَيْنِ فِي الرَّبِّ. سَلِّمُوا عَلَى بَرْسِيسَ الْمَحْبُوبَةِ الَّتِي تَعِبَتْ كَثِيرًا فِي الرَّبِّ. سَلِّمُوا عَلَى رُوفُسَ الْمُخْتَارِ فِي الرَّبِّ، وَعَلَى أُمِّهِ أُمِّي. سَلِّمُوا عَلَى أَسِينْكِرِيتُسَ، فِلِيغُونَ، هَرْمَاسَ، بَتْرُوبَاسَ، وَهَرْمِيسَ، وَعَلَى الإِخْوَةِ الَّذِينَ مَعَهُمْ. سَلِّمُوا عَلَى فِيلُولُوغُسَ وَجُولِيَا، وَنِيرِيُوسَ وَأُخْتِهِ، وَأُولُمْبَاسَ، وَعَلَى جَمِيعِ الْقِدِّيسِينَ الَّذِينَ مَعَهُمْ. سَلِّمُوا بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِقُبْلَةٍ مُقَدَّسَةٍ. كَنَائِسُ الْمَسِيحِ تُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ. وَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْ تُلاَحِظُوا الَّذِينَ يَصْنَعُونَ الشِّقَاقَاتِ وَالْعَثَرَاتِ، خِلاَفًا لِلتَّعْلِيمِ الَّذِي تَعَلَّمْتُمُوهُ، وَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ. لأَنَّ مِثْلَ هؤُلاَءِ لاَ يَخْدِمُونَ رَبَّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحَ بَلْ بُطُونَهُمْ. وَبِالْكَلاَمِ الطَّيِّبِ وَالأَقْوَالِ الْحَسَنَةِ يَخْدَعُونَ قُلُوبَ السُّلَمَاءِ. لأَنَّ طَاعَتَكُمْ ذَاعَتْ إِلَى الْجَمِيعِ، فَأَفْرَحُ أَنَا بِكُمْ، وَأُرِيدُ أَنْ تَكُونُوا حُكَمَاءَ لِلْخَيْرِ وَبُسَطَاءَ لِلشَّرِّ. وَإِلهُ السَّلاَمِ سَيَسْحَقُ الشَّيْطَانَ تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ سَرِيعًا. نِعْمَةُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ مَعَكُمْ. آمِينَ. يُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ تِيمُوثَاوُسُ الْعَامِلُ مَعِي، وَلُوكِيُوسُ وَيَاسُونُ وَسُوسِيبَاتْرُسُ أَنْسِبَائِي. أَنَا تَرْتِيُوسُ كَاتِبُ هذِهِ الرِّسَالَةِ، أُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ فِي الرَّبِّ. يُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ غَايُسُ مُضَيِّفِي وَمُضَيِّفُ الْكَنِيسَةِ كُلِّهَا. يُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ أَرَاسْتُسُ خَازِنُ الْمَدِينَةِ، وَكَوَارْتُسُ الأَخُ. نِعْمَةُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ مَعَ جَمِيعِكُمْ. آمِينَ. وَلِلْقَادِرِ أَنْ يُثَبِّتَكُمْ، حَسَبَ إِنْجِيلِي وَالْكِرَازَةِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، حَسَبَ إِعْلاَنِ السِّرِّ الَّذِي كَانَ مَكْتُومًا فِي الأَزْمِنَةِ الأَزَلِيَّةِ، وَلكِنْ ظَهَرَ الآنَ، وَأُعْلِمَ بِهِ جَمِيعُ الأُمَمِ بِالْكُتُبِ النَّبَوِيَّةِ حَسَبَ أَمْرِ الإِلهِ الأَزَلِيِّ، لإِطَاعَةِ الإِيمَانِ، للهِ الْحَكِيمِ وَحْدَهُ، بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، لَهُ الْمَجْدُ إِلَى الأَبَدِ. آمِينَ.": ورغم أن هذا الأصحاح يغلب عليه الطابع الشخصي، فإننا أبينا إلا أن نثبته في كتابنا، حتى نكون قد أوردنا رسالة بولس إلى أهل رومية كاملة، ومن دون زيادة أو نقصان.

وسنعمل -إن شاء الله- على تتبع آثار بولس في كل الكنائس التي سنعرض لها في هذا الكتاب؛ كما سنعمل على تتبع أقوال من كانوا على علم بضلالاته، وسنتبيّن مع ذلك مبلغ التصدي لها في العقائد المسيحية المختلفة. ولنترك الآن السياق التاريخي يأخذنا إلى حيث يُريد، حتى لا يكون عرضنا للعقائد المسيحية من قبيل المقارنة المجردة. ونحن على يقين من أن ما سيأتي، سيكون أكثر ثراء مما مضى...

الفصل الخامس
الآباء الأولون (القرن الأول والثاني)

بعد نهاية الحقبة الرسولية التي استمرت طيلة القرن الأول وبداية القرن الثاني، والتي كان أهم رجالها تلاميذ عيسى الاثني عشر، الذين كان آخرهم وفاة "يوحنا" الذي تمكن من الرد على بعض "الهرطقات" في إنجيله؛ على ضعفه في تفسير رفع المسيح عليه السلام؛ ومع استثناء "بولس" الذي عرفنا فيما قبل أنه دخيل ومُدّع، شوّش على العقيدة المسيحية الأصلية، ووضع أساس الانحراف الأكبر عنها؛ ستبدأ حقبة ثانية هي حقبة آباء الكنيسة، الذين سيمتد زمنهم من القرن الثاني إلى القرن الرابع الميلاديَيْن. وإن كان "الرسل" يُشبهون طبقة الصحابة لدى المسلمين، فإن الآباء يأتون في مقابل طبقة التابعين. وكما أن الإسلام بقي مع الصحابة والتابعين موحّدا، رغم إرهاصات الفُرقة المذهبية التي كانت تظهر في صورة آراء فقهية ومقولات عقدية أولى متنامية؛ فكذلك مع طبقة الرسل والآباء، ستبقى المسيحية موحدة في مجملها، رغم بروز إرهاصات الافتراق الكنسي، المعلوم فيما بعد عبر التاريخ. ويُطلق على الحقبة التي جاءت بعد الحقبة الرسولية "ما بعد الحقبة الرسولية" (POST-APOSTOLIC).

ولقد واجه الآباء الأولون في دعوتهم أمريْن اثنين أساسيْن، هما:

١. التوحيد اليهودي، الذي يعتمد في جوهره على التنزيه، وهو ما يُسمّى عند الدارسين من المفكرين: التعالي والمفارقة؛ ثم بعد ذلك المسيحانية البشرية، المتعلقة بالخلاص الأرضي، التي لم يكن اليهود يعرفون غيرها. وهذا يعني أن المسيحيين سيدعون اليهود إلى الشرك الذي يكون فيه عيسى عيسى والله الله، ثم يجعلونهم بعد ذلك يعتقدون أن الله هو عيسى وأن عيسى هو الله، من وجه آخر. وهذا أمر معقد، كما هو واضح؛ لكن بعض الآباء سيعملون عليه، من باب ضرورة العمل بمبدأ الارتقاء، بحسب إدراكهم.

٢. التعدد الوثني الذي كان شائعا لدى الأمم الأخرى، والذي كان من الصعب معه الدعوة إلى إله واحد؛ من دون أن يُنظَر إليه على أنه واحد من بين الآلهة الأخرى. وهؤلاء على عكس اليهود، ستكون صعوبة دعوتهم إلى المسيحية، في ضمان انضباطهم لها. وما الاضطهاد الذي عرفه المسيحيون الأولون على أيدي الرومان خصوصا، إلا معيار لمدى رفض عقيدة التوحيد المسيحية، التي هي في أصلها لدى الرسل والآباء المدافعين، أقل ما يقال عنها إنها مبهمة، ومخالفة للمنطق العقلي. وإن ذكرنا للمنطق العقلي، في معرض تناول العقائد، هو لعلمنا بأن أول أساس تنبني عليه العقيدة السليمة، العقلُ السليم. ويكفي أن نعلم أن أول شروط التكليف المعلومة بالضرورة للمسلمين، هو العقل؛ لأنه من دون العقل (وهذا يضمن الالتزام بمنطقه)، لا يصح الخطاب الديني ولا يتحقق. ولسنا نعني هنا ما قد يُفهم خطأ، من تحكيم للعقل في الدين؛ ولكننا نعني بإثبات العقل إثبات المخاطَب للدين، الذي سيُصبح مكلّفا عن قريب. ولا شك أن انتفاء المُخاطَب للدين، سيكون سببا في انتفاء الدين نفسه؛ لكونه الغاية منه. ومرة أخرى، وحتى لا يُحرّف كلامنا، فنحن بجعل الإنسان غاية للخطاب الديني، لا نتبع المنطق الدجالي، الذي بهذا المنطق، يشترط على الدين أن يُلبيّ حاجات الإنسان المادية والمعنوية، في دين معاكس لحقيقة الدين في أصله، ليس إلا الدين الشيطاني الذي سبقت الإشارة منا إليه.

وسنبيّن بحسب التسلسل التاريخي، تقديم الآباء للكريستولوجيا، في مقابل العقائد (الهرطقات) السائدة في عهدهم؛ وسنحصر الكلام في هذا الفصل، في القرنيْن الأول والثاني وحدهما؛ وذلك لتكون الطبقات متمايزة ومتراتبة. ومن أهم الآباء المرموقين، داخل هذه الحقبة الزمانية، من سنذكرهم تباعا:

١. إغناطيوس الأنطاكي:

يُقال إن إغناطيوس، قد دخل في المسيحية على يد بطرس (الرسول) نفسه؛ وقد كان من أصل سوري يوناني، وُلد في عام ٣٥م؛ وقد تلقّب باسم "ثيوفوروس"، أي حامل الإله. ويُعتبر إغناطيوس ثالث أساقفة أنطاكية بعد "بطرس" و"إيفوديوس"، التي نُصِّب فيها سنة ٦٩ أو ٧٠م. وضمن حملة الاضطهاد التي شنّها الإمبراطور الروماني "تراجانوس" ضد المسيحيّين، فقد أُستُنطِق الحاكم السوري "إغناطيوس"، الذي أقر بعقيدته أمام الملأ. فما كان من الحاكم الروماني إلا أن أوثقه، وبعث به موثقا إلى روما للمحاكمة هناك. ولقد انتهج إغناطيوس نهج بولس في دعوة من يمر بهم في طريقه، إلى ما يؤمن به. وهكذا فقد التقى بالأسقف الشاب "بوليكاربوس" أسقف مدينة سميرنا؛ كما استطاع أن يكتب رسائل إلى بعض الكنائس في آسيا الصغرى واليونان ومقدونية. وعندما علمت بعض الكنائس بمروره ببلادها، خرجت إليه، واستقبلته بحفاوة وتعظيم. وعندما وصل إلى روما، وجد في انتظاره عددا كبيرا من المسيحيين، الذين رغب إليهم في أن لا يُعيقوا شهادته (موته) بتوسطهم لدى الحكام. وهكذا ففي سنة ١٠٧م، وفي أثناء الاحتفال بانتصار الإمبراطور "تراجانوس" على أعدائه، أُلقي عدد كبير من الأسرى والمجرمين إلى الوحوش المفترسة، وكان من بينهم "إغناطيوس". ولم يبق من كتابات إغناطيوس إلا رسائله السبع، التي بعث بها إلى كنائس: إفسوس، ومغنيزيا، وفيلادلفيا، وسميرنا، وترالس، وروما؛ وتلك التي خص بها "بوليكاربوس"، أسقف كنيسة سميرنا.

ومن أهم معالم عقيدة إغناطيوس، والتي كان فيها تابعا ليوحنا وبولس، ما يلي:

ا. القول بتجسُّد الله (تعالى) بجسد المسيح؛ وهي عقيدة تدل على عدم تمكن صاحبها من مُجاوزة الحس في إدراكه. وإن انتشارها بين العوام من المسيحيين، هو الدليل على ما نقول.

ب. القول بثبوت موت المسيح وقيامته؛ هذا مع العلم بأن إثبات ذلك لا يمكن أن يكون بالكلام وحده. والقول بالموت والقيامة، ما هو إلا عجز عن القول بالرفع. وهذا أيضا بسبب عدم خروج المعتقِدين، عن هيمنة الحس.

ج. ربط الخلاص بموت المسيح وقيامته؛ وهذا مما أسس له بولس من غير دليل. بل إن القائلين بهذا القول، يهدمون به الدين من الضربة الأولى، عند انتفاء التكليف الشرعي، وعند انتفاء الحساب في الآخرة تبعا لذلك. وكل من يعتقد بعقيدة الخلاص هذه، فإنه يكون على دين غير دين عيسى الأصلي؛ ولا يُهم هنا، أن يُزعم اتباع عيسى، أو أن تُزعم محبته. ومثل هذا الكلام بالنظر إلى المقولات العقلية، هو كمن ينطق بما يخالف المنطق العقلي. ومن كان مخالفا للمنطق العقلي، فلا يُجازَف بقبول كلامه وعَدّه من الأقوال الراجحة، بحال من الأحوال!...

د. تسميته المسيح "الله" عدة مرات في رسائله، بخلاف يوحنا الذي لم يثبت عنه ذلك إلى ثلاث مرات. ويظهر من إطلاق اسم "الله" على المسيح، أن إغناطيوس كان يتصدى لمقولات الإبيونيين، الذين لا يقرّون بلاهوت المسيح؛ بالقوة ذاتها التي كان يواجه بها الغنوصيين الرافضين لناسوته. وبهذا الفعل يكون إغناطيوس قد أسس للقول بالطبيعتيْن اللتيْن للمسيح، قبل ظهوره (القول) بمدة؛ مع تحفُّظنا على مصطلح الطبيعتيْن القاصر. ومن مقولات إغناطيوس المؤسِّسة، قوله: "إن المسيح مخلوق بالتجسُّد، وغير مخلوق باللاهوت". وهذا القول –رغم غموضه– هو من أدق العبارات التي بدأت تتبلور في العقيدة المسيحية. ويريد إغناطيوس من كلامه، أن عيسى من جهة صورته مخلوق؛ وأما من جهة حقيقته، فغير مخلوق. ويأتي اضطراب عبارات المسيحيين، في التعبير عن هذه المعاني، بسبب غلبة الحس عليهم. وذلك لأن ما يُسمونه جسدا،

لا يخالف معنى الصورة في الاصطلاح المعرفي. ونعني من هذا، لو أنهم سمعوا أحدنا يتكلم عن صورة عيسى، لَما فهموا منها جسده كله، ولحصروها فيما هو معروف من ملامح للوجه ومن هيئات تكون للجسد. ولقد عجز المسيحيون عن ضبط المصطلحات في هذه الحقبة، ومن بينهم الآباء "المدافعون"؛ وبذلك سيعملون جميعا -ولو من غير قصد- على تقييد اللاهوت المسيحي وتحريف معانيه جزئيا، إلى أن يأتي المسلمون بمتكلميهم وبعارفيهم، ليُخَلّصوا المصطلحات مما علق بها، وليعودوا إلى المعاني السليمة المقصودة منها. وسنرى هل سيستفيد المسيحيون من إنجاز المسلمين؟ وإلى أي حدّ؟...

هـ. اعتقاد أن الإنسان هو هيكل الله، كما سبق أن قال بولس؛ ومن هذا المنطلق كان تَسَمّيه بال "ثيو فوروس". وهذا المعنى، وإن كان يوافق ظاهرا، ما دل عليه عيسى، فإنه شركي هنا من غير شك. وعدم مطابقة حقيقة حال المتكلم لما ينطق به في حال كونه صوابا، هو من العوارض التي ينبغي تفكيكها؛ خصوصا لأولئك الذين يأخذون علمهم من الأقوال. وهذا الباب من العلم نفيس، لم نر في زماننا واحدا من أهله.

٢. إكليمندوس الروماني:

ومع أن الجزء الأول من حياة "إكليمندوس" من ولادته إلى شبابه، ليس معروفا؛ فإن الجزء الثاني كان حافلا. فلقد نُصّب "إكليمندوس" أسقفا على روما، إبان حكم "دومتيانوس"، ويعُدّه "إيريانوس" الذي وضع أول قائمة بأسماء أساقفة روما ثالثاً بعد "بطرس"؛ ما بين سنة ٩٢ و١٠١م. ويتمسك "إيريانوس"، ومعه "أريجانوس" اللاهوتي الإسكندري، و"أسابيوس"، بأن "إكليمندوس" عاش في زمن بطرس وبولس، وأنه كان شريكا لبولس في الخدمة؛ وأنه مذكور صراحة في كلام بولس: "نَعَمْ أَسْأَلُكَ أَنْتَ أَيْضًا، يَا شَرِيكِي الْمُخْلِصَ، سَاعِدْ هَاتَيْنِ اللَّتَيْنِ جَاهَدَتَا مَعِي فِي الإِنْجِيلِ، مَعَ أَكْلِيمَنْدُسَ أَيْضًا وَبَاقِي الْعَامِلِينَ مَعِي، الَّذِينَ أَسْمَاؤُهُمْ فِي سِفْرِ الْحَيَاةِ."[١]. ولكن "داين كاسيوس"، يعتقد بأن "إكليمندوس" هو القنصل "تيطس فلافيوس" عينه، الذي هو من عائلة الإمبراطور، والذي حُكم عليه بالقتل سنة ٩٥ أو ٩٦م، بسبب اعتناقه للمسيحية.

ولقد كتب "إكليمندوس" رسالة إلى أهل كورنثوس، تُعد من أهم الرسائل ومن أقدمها. ويبدو أن الانشقاقات التي بدأت في كنيسة كورنثوس على عهد بولس، والتي أشار إليها في رسالته (رسالة بولس إلى كورنثوس)، لم تكن إلا إرهاصات لِما حدث في زمن "إكليمندوس". وذلك لأن كثيرا من أهل هذه الكنيسة تمردوا على رعاتها، وبلغ الأمر بهم أن طردوا بعضا منهم؛ وهو ما دعا "إكليمندوس" -بطلب من كنيسة كورنثوس أو من غيره- إلى كتابة رسالته. وقد تناول فيها مشاكل الكنيسة، وعالجها لاهوتيا وتعليميّا؛ وذكر إقامة بطرس في روما، وزيارة بولس لإسبانيا؛ مع اضطهاد نيرون للمسيحيين ومقتل "الرسوليْن".

وأما أهم معالم عقيدة "إكليمندوس"، فهي:

ا. عقيدة الخلاص، كما هي لدى التفسيريين جميعا.

ب. القول بأن المسيح موجود مع الله، وبأنه أُرسل إلى العالم بوصفه رئيسا للكهنة. وهذا يدل على أن إكليمندوس قد أخذ الألفاظ على ظاهرها، وهو ما فتئنا ندل على عدم صوابيته دائما.

٣. بوليكاربوس:

---

[١] . رسالة بولس إلى أهل فيلبي: ٤: ٣.

ولد "بوليكاربوس" سنة ٦٩ في مدينة سميرنا، ورغم جهل تفاصيل نشأته، فإنه يكاد يُقطع بلقائه ليوحنا (الرسول). ويقول "أسابيوس"، إن الرسل أنفسهم هم من عيّنوه أسقفا على مدينة سميرنا. ولقد كان أسقفا لهذه المدينة، عندما مرّ بها "إغناطيوس" في طريقه إلى روما؛ وتسلم منه رسالته المشهورة، فوصلت سمعته الحسنة إلى مسمع البابا "أنيست" (ANICET) أسقف روما. ولذلك فقد دعاه للذهاب إلى هناك سنة ١٥٥م، للنظر في بعض المسائل الكنسية، خصوصا تحديد تاريخ القيامة. وبعد عودة "بوليكاربوس" إلى سميرنا، قام الحاكم "استاتيوس كوادراتوس" ضمن اضطهاده للكنيسة باستدعائه؛ ولما رأى وقاره، أراد أن يجد له مخرجا من الموت، فقال له: "أقسم لي بأن تلعن المسيح، وأنا أطلق سراحك الآن!". فأجاب "بوليكاربوس": "منذ ستة وثمانين عاما، وأنا له وأخدمه، ولم يُسئ إليّ أبدا ولو بإساءة واحدة؛ فكيف يمكن أن أجدف على ملكي ومخلّصي؟!". وهكذا قبِل الرجل الموت في سنة ١٥٦م، وفيا لما عاش عليه.

ومن تعاليم بوليكاربوس، التي كتبها في رسالة إلى أهل فيلبي، ما يُفيد بأنه سار على خطى يوحنا، وأنه واصل جهاده الدفاعي ضد الغنوصيين والإبيونيين جميعا، ليُثبت لاهوت وناسوت المسيح. يقول بوليكاربوس في رسالته هذه: "من لا يعترف بأن يسوع المسيح قد جاء في الجسد، فهو ضد المسيح؛ ومن لا يعترف بالصليب، فهو من الشيطان؛ وكل من يحوّل أقوال الرب إلى رغباته الشخصية، وكل من ينكر القيامة والدينونة، فهو بكر إبليس.". وكما أن يوحنّا قد عرف المعلم الكاذب "سرنت"، فإن بوليكاربوس قد عرف شبيها له يُدعى "ماركيون" (MARCION). وواضح من كلام بوليكاربوس السابق، أنه من التفسيريين، لا من العلماء. ونحن، وإن كنا نعلم بعدم وجود علماء بالعقيدة المسيحية بالمعنى الصحيح التام، فإننا نذكر هذا من أجل التمييز بين الأمريْن؛ ولكي يعلم القارئ أنه لا أحد من المسيحيين بإمكانه الكلام على العقيدة المسيحية من الناحية العلمية. ولهذا السبب، نجدهم يعتمدون الإيمان (التصديق) وحده، وإن كانت المسائل المدعّو إليها مما يصعب الإيمان به، من دون تعضيد شبه برهاني. وما وصفناه بشبه البرهاني، ليس إلا التفسير الذي يروم إقناع العقل بما لا يمكن أن يقتنع به. ولسنا هنا ندعو إلى جعل الدين منطقيا، لأن ذلك سيهدمه من أساسه؛ ولكن نريد أن نكشف أولئك الذين يريدون الظهور بمظهر العلماء، ويريدون أن يكون ذلك منهم كافيا وحده، للدعوة إلى عقيدتهم؛ وهيهات!...

٤. إيريناوس:

يُعتقد أن أسقف "ليون"، قد وُلد بين ١٣٠ و١٥٠م. ومما لا شك فيه، أنه قد عرف "بوليكاربوس" شخصيا، في مدينة سميرنا التي هي مسقط رأسه. ولقد أصبح أسقفا لمدينة ليون في عام ١٧٧م، بعد عودته من روما، وحيث خلف "بوتن" الذي قُتل على أيدي الوثنيين. ولقد قسم "إيريناوس" وقته، بعد توليه أسقفية ليون، بين التبشير ببلاد الغال (فرنسا حاليا)، وبين الكتابة في العقيدة المسيحية. ويُجهل تاريخ موته، الذي قد يكون بين ١٩٠ و٢٠٢م، أثناء الاضطهادات التي شنّها "سبيتيموس سفريوس".

كتب "إيريناوس" كتبا عديدة، ولكن لم يبق من كتاباته إلا كتابان. ورغم أنه كان يكتب بلغته (اليونانية)، إلا أن الكتابين الباقييْن هما باللاتينية. ويتناول إيريناوس في كتابه الأول، الغنوصية من الناحية التاريخية ومن الناحية العقدية؛ وأما في الثاني (يُدعى شرح تعليم الرسل)، فيحاول أن يشرح الإيمان المسيحي الصحيح. فهو يتكلم عن الثالوث، وسقوط الإنسان، والفداء، وغير ذلك...

أما تعاليم إيريناوس الكريستولوجية، فتتلخص في الآتي:

١. في أثناء تحليل إيريناوس لعقيدة الغنوصيين، الذين يُطيلون في وصف أصل وجود ابن الله، يحتج بشدة ضدهم، ويصفهم بأنهم لم يكونوا حاضرين عند ولادته. ثم يقول: "إن هذه الأشياء لا يمكن وصفها، لأنها تفوق كل وصف؛ والإنسان لا

يمكن أن يفهمها أو يشرحها؛ ولا أحد يعرف سرّ ميلاد ابن الله إلا الآب والابن.". ورغم أن هذا الكلام صحيح، إلا أنه يصدق على المسيحيين أيضا. ونحن نرى أن هذا الرأي،كان ينبغي أن يُفهم في الاتجاهيْن، لا في اتجاه واحد. وهو يلحق بما ذكرناه عن منهج التفسيريين في مجال العقائد. ولكننا نخالف إيريناوس فيما ذهب إليه من أن العقائد لا تُعلم حقيقتها؛ لأن هذا لو كان يصح، لصار الدين كله معلّقا، لا يثبت بشيء. والواقع غير ذلك، لأن العقائد تُعلم لأهلها، وتُعلم حقيقتها (ما سماه هو سرّا)؛ ولكن لا من باب العقل، ولا من غير المؤهلين.

ب. لقد رد إيريناوس على الخلاص في تصور الغنوصيين، الذي يكون معرفيا بحسب مذهبهم؛ بإبراز الخلاص المستند إلى الفداء. وفي عبارة غامضة، يقول إيريناوس: "إن لم يكن المسيح إنسانا حقا، وإلها حقا، لأصبح خلاصنا مستحيلا!". ويُظهر إيريناوس بهذا، مخالفته لعقيدة الدوسينيين أيضا، الذين يقولون بألوهية المسيح فقط. ويرى إيريناوس أن ازدواجية حقيقة المسيح، هي السبب في مصالحة الإنسان والله؛ بما أن الإنسان الخاطئ، لا يمكن أن يقترب من الله. ولا يخفى أن هذا الكلام أيضا تفسير للعقيدة المسيحية، وليس موضحا لها أو ذاكرا أُسسها في العلم. وكثيرا ما يُخطئ المفسرون، ويظنون أن ما يكتبونه أو يقولونه يرقى إلى أن يكون علما. وكل هذا، هو بسبب غلبة الأيديولوجيا، والتي يرونها إيمانا. ولقد سبق لنا أن تكلمنا في الفرق بين الأيديولوجيا والإيمان، في الفصل السابق.

ج. قام إيريناوس بمقارنة بين آدم الأول وآدم الأخير، الذي هو بحسبه المسيح عليه السلام؛ لكن بتكلف كبير، لا يختلف عما ذكرناه من اعتماده أسلوب التفسير. ورغم أن مفهوم الخطيئة والفداء عند إيريناوس يختلف عنه لدى بولس، إلا أنه لم يحد في مُجمل خطابه عن مذهبه.

د. يلخص إيريناوس عملية الخلاص في ثلاث نقط: - لأنه لو كان ذاك الذي انتصر على عدو الإنسان ليس بإنسان، لأصبح انتصاره بلا قيمة؛ - ولو لم يكن الله هو نفسه المانح لهذا الخلاص، لأصبح هذا الخلاص مهددا وغير مضمون؛ - ولو لم تتم عملية مصالحة الإنسان مع الله، لظل الإنسان مائتا. ولهذا كانت وساطة المسيح ضرورية: فهو يُمثل الإنسان أمام الله، ويمثل الله أمام الإنسان؛ وهكذا تتم المصالحة. ولا يخفى ما في هذا الكلام من تكلف، لا يقوم إلا على موافقة عقائد مسبقة، أو على منطق باهت منقطع.

ويتضح مما سبق، أن أعمال المسيح الفدائية، قد احتلت الحيّز الأكبر من تعاليم إيريناوس؛ ولكنه تكلم أيضا عن انبثاق الابن من الآب، ووصفه بأنه سر يجب قبوله بالإيمان وحده؛ وهذا يُحسب له، لأنه صدق بخصوصه. ولو أنه اعتمد النهج نفسه عند تناوله سائر العقائد، لأحدث ثورة في الكنيسة منذ ذلك الحين. ولكن يبدو أنه كان يتردد في عقائده، بين الإثبات والنفي، وبحسب اعتبارات أخرى لا ينبغي أن تُغفلها الأذهان. ورغم ذلك فإن إيريناوس يخالف يوستينوس في مسألة أزلية الابن؛ فيوستينوس يُبقي على الفرق الزمني بين الله والابن، وإيريناوس يُساوي في ذلك. وهذه المسألة وهمية من كليْهما؛ لأنهما لا يعلمان بمعنى المراتب في الوجود من جهة، كما لا يعلمان بحقيقة الزمان من الجهة الأخرى.

هـ. من أهم عبارات إيريناوس، قوله: "فالمسيح اللوغوس صار مثلنا لكي يُصيّرنا مثله، ولكن في صيرورته مثلنا لم يفقد لاهوته، بل ظل هو هو نفس المسيح الواحد.". وستصير هذه العبارة مشهورة، ومعروفة في مجمع خلقدونية، إذ إنها ستُسجل في قرارات هذا المجمع حوالي سبع مرات.

٥. يوستينوس الشهيد:

ولد يوستينوس سنة ١٠٠ أو ١٠٥م في نابلس (سكيم القديمة)، من أبوين وثنيّيْن يونانييْن. ودفعه حبه للمعرفة إلى الالتحاق بمدرسة رواقية، ثم درس فلسفة الأكاديميين والفيثاغوريين؛ لكن الفلسفة لم تستطع أن تروي غليله فيما يتعلق بالله. فتوجه يوستينوس إلى دراسة كتب الأنبياء، فبدا له أنه قد وجد ضالّته. ومما تأثر له يوستينوس ودفعه إلى طلب

"العماد"، وهو في الثلاثين من عمره، إقبال المسيحيين على الموت، من دون رهبة. وبعد أن حصل يوستينوس على التجديد الذي يبدو أنه كان في أفسس، وقف حياته على الدفاع عن المسيحية، من دون أن يتخلى عن لباس الفلاسفة المعتاد له. وبعد طوافه في بلاد كثيرة، انتهى إلى روما، حيث أنشأ مدرسة في عهد "أنطونيوس التقيّ" (١٣٨-١٦١م)؛ وكان من بين تلاميذه "تاتيانوس"، الذي سيصير فيما بعد من المدافعين عن المسيحية. وقد انتهت حياة يوستينوس قتلا، مع ستة مسيحيين آخرين، في عهد الإمبراطور "مرقس أوريليوس"، في سنة ١٦٥م في روما.

إن "أسابيوس" المؤرخ الكنسي المعروف، يُخبر بأن يوستينوس قد ترك عدة مؤلفات، لكنه لم يبق منها إلا ثلاثة في مجلد واحد، هي: "دفاعان عن المسيحية ضد الوثنيين"، و"حواره مع تريفون" اليهودي.

أما تعاليم يوستينوس الكريستولوجية، فتتلخص في الآتي:

اللوغوس: في نظر يوستينوس، إن اللوغوس هو القنطرة التي أُلقيت على الهوة الفاصلة بين الله والإنسان؛ ويعني بهذا أن اللوغوس واسطة. ولقد عرّف يوستينوس اللوغوس بأنه كان قوة ساكنة في الله، وبأنه انبثق من الله قبل الخليقة، ومنه كان الخلق. وهذا الكلام من أعلى ما قيل في هذا المعنى، وهو يُشبه ما تصل إليه العقول الكبيرة في اللاهوت عادة (الكلام لدى المسلمين)، المؤيّدة بالنور. ونحن وإن كنا لا نعد هذا معرفة صحيحة تامة، إلا أننا لا نجعله ضمن المقولات الأخرى الدينية، التي تبقى أقل منه في الدرجة بكثير. ولعل تفلسف يوستينوس قبل تديّنه، قد هذب عقله، وجعله يتجاوز بولس والتلاميذ في المقدرة على صياغة هذه المسألة. ويضرب يوستينوس أمثلة حسيّة على مسألة انبثاق الابن عن الآب، ويخلص إلى أن ذلك الانبثاق لم يُنقص من ألوهية الآب شيئا. ورغم أن يوستينوس يقصر عن معرفة الله، ويقصر عن إدراك نسبة "العقل الأول" (المسمى لهم ابنا مع الجهل بنسبة عيسى إليه)؛ فإن مقارباته، تبقى أعلى ما توصل إليه مسيحيٌّ إلى الآن. ومن أهم المعاني التي يتناولها يوستينوس، والتي نرى جُلّ المسلمين يقصرون عنها، معنى "إشراك" الله للوغوس في الخلق وفي التدبير. ويُنبه إلى ذلك في الخطاب الوارد من الله بصيغة جمع المتكلم؛ ويذكر مثالا على ذلك: "وَقَالَ اللهُ: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا،..."[1]. ولقد ورد هذا الأسلوب في القرآن مرات عديدة، من دون أن يتنبّه إليه علماء الدين؛ وذلك كقول الله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [القدر: ١]، في مقابل قوله سبحانه: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [آل عمران: ٧] وأمثاله. ونحن هنا لا نريد أن ندخل في تفاصيل المسألة، لتبيين السبب في الجمع تارة وفي الإفراد أخرى؛ غير أننا نذكر أن هذا مما سميناه في كتاباتنا "شرك الحقائق". وشرك الحقائق هذا، هو بالنظر إلى معنى التوحيد العام، كالتفاصيل والجزئيات. ونعني من هذا مرة أخرى، أنه لولا وجود كثرة توهم بالتعدد في الذات، ما كان توحيد؛ ولولا هذا التوحيد، ما تكثرت معاني الذات. ولعلنا نعود إلى هذه المسألة في موضع آخر، لأن هذا لا يحتملها. ومرادنا من إيرادها هنا، كان للدلالة على علوّ مرتبة يوستينوس فقط. وعلى خلاف المسيحيين الذين ظنوا أن يوستينوس قد أضعف "أبدية" اللوغوس بكلامه، أو أنه كان يطعن من طرف خفي في مقولات "إغناطيوس"، فإننا نرى أنه تناول الأمر بدقة أكبر ومن وجه أخص.

غير أن يوستينوس عندما أراد شرح العلاقة التي بين الآب والابن، فإنه لم يستطع تفادي القول بخضوع الابن للآب؛ وهذا لأنه لم يصل إلى الحقائق كما هي في نفسها، وإنما رام تعقُّل معاني المسيحية انطلاقا من الحس. وهذا أمر لا يُفقده مكانته العقلية التي سبق أن أشرنا إليها.

---

[1]. تكوين: ١: ٢٦.

ومن أهم ما توصّل إليه يوستينوس أيضا، وفي توابع اللوغوس مرة أخرى، قوله بأن الوثنيين وجميع البشر، لم يكونوا خالين من معرفة الحق؛ إلا أنهم لم يكونوا يعرفونه بالوضوح الذي ظهر في المسيح عليه السلام. وهذا -رغم محدوديته بالنسبة إلينا- هو من أروع ما قيل إلى الآن من قِبل المسيحيين. وعلى هذا، فإن يوستينوس لا يعتبر هيراقليطوس وميزونيوس ملحديْن، ولا غيرهما ملحدين؛ بل يعتبرهم مسيحيين، غير عالمين بعمل اللوغوس فيهم. وذلك لأن كل المبادئ الحسنة والقوانين العادلة التي اهتدى إليها الفلاسفة، كانت من اللوغوس ذاته. ومما لا شك فيه عنده، أنها ناقصة، ما دامت تعكس معرفتهم باللوغوس، التي هي ناقصة على كل حال. وهو يرى أن المسيحيين وحدهم هم من تكون معرفتهم باللوغوس كاملة، بسبب إعلانه بذاته لهم. ونحن وإن كنا نخالف يوستينوس في معنى المعرفة الكاملة، فإننا نثني على علو إدراكه، وعلى انفتاح عقله الذي يقل نظيره لدى المتدينين.

وعلى الرغم من أن يوستينوس يُعد من أكبر لاهوتيي القرن الثاني، ومن أتقى الرجال المتعمقين في العبادة وفي الدرس؛ فإن مقولاته العالية، قد أثارت حفيظة الجامدين من الآباء، واتهموه بالتأثُّر بالأفلاطونية وأحيانا بالوثنية؛ خصوصا عندما يقول: "إن الله اللوغوس، هو إله وسيد، أقل من الله الخالق للكون."[1]، وعندما يتكلم عن الثالوث، يضع الله السامي في المرتبة الأولى، والمسيح في المرتبة الثانية، والروح القدس في المرتبة الثالثة[2]. ومن الغريب، أن ينظر المسيحيون إلى يوستينوس، الذين هم أقل علما منه على كل حال، وأكثر دخولا في الشرك، على أنه لم يتخلص من شوائب الفلسفة والشرك. وهذا يُذكرنا بمقولات عوام المسلمين في أكابر أوليائهم، عندما يرمونهم بالشرك والكفر صراحة، لا لشيء إلا لأنهم أعلى منهم مرتبة؛ وهو من سنة الله المتجددة في كل زمان.

٦. تاتيانوس السوري:

وُلد تاتيانوس سنة ١١٠م في سوريا من عائلة وثنية، ثم ذهب إلى اليونان طلبا للعلم، ومن هناك إلى روما. وبعد دراسته لديانات وفلسفات اليونان والرومان، لم يجد الطمأنينة التي كان يبحث عنها؛ وفي روما قابل يوستينوس وتتلمذ له. ورغم هذه الصلة التعليمية التي بين الرجليْن، فإن بينهما فروقا في مجال العقيدة والمبادئ. فيوستينوس، رغم مسيحيته بقي منفتحا على الفلسفة اليونانية، بخلاف تاتيانوس الذي رفض كل ما هو غير مسيحي؛ إلى الحد الذي جعله يرفض اللغة اليونانية ذاتها. وقد أسس تاتيانوس "جماعة الممتنعين"، الذين جعلوا من مبادئهم الامتناع عن الزواج، وعن أكل اللحم، وعن شرب الخمر. أما كتابات تاتيانوس، فلم يبق منها إلا كتابان: "محاضرة لليونان" و"الدياطسرون". ولقد بقيت عقيدة اللوغوس من الأمور الغامضة لدى تاتيانوس، بحيث ستفتح الكلام فيما بعد عن أزلية المسيح؛ مما هو معدود لدى المسيحيين من الهرطقات. ولا بد هنا من الإشارة إلى أن عدم تبيُّن معنى الزمن، كان من أهم أسباب الاختلاف في مسألة الأزلية؛ ولا زال هذا العائق ماثلا أمام جلّ العقول، إلى زماننا هذا. والسبب في ذلك هو أن الزمن رغم كونه معتبرا للعقول، فإنه غير معلوم الحقيقة. ولقد وقع الخلط لدى الفلاسفة واللاهوتيين، القدامى والمحدثين، من خلْطهم بين معنى التراتب في الوجود والتتابع في الزمان. ولم نر من أوشك على تجاوز هذه العقبة، إلا يوستينوس سابق الذكر؛ لذلك فنحن نعتبره قطبا من أقطاب المسيحية الكبار على مر الأزمان.

٧. أثيناغوراس:

---

[1] . دفاع ١: ١٣.

[2] . دفاع: ٣: ٤.

لقد كان أثيناغوراس معاصرا لتاتيانوس، غير أنه كان أقرب في الاعتقاد إلى يوستينوس. ولقد كتب كتابا إلى الإمبراطوريْن "مرقس أوريليوس" (الأب)، و"ليسيوس أوريليوس" (الابن)، عنوانه "التماس لأجل المسيحيين"؛ يدعوهما فيه إلى وقف التنكيل بالمسيحيين وإلى عدم تصديق الوشاة في اتهامهم.

ومن أهم ما تكلم عنه أثيناغوراس في معتقده الكريستولوجي، زيادة على المعالم الكبرى التي أثبتها يوستينوس، ما فُهم منه أنه جعل الابن (الحكمة) صفة لله لا ذاتا معه؛ وإن كان مدلول الذات والصفة، لم يبلغ في العقيدة المسيحية تمامه، كما هو لدى المسلمين.

٨. ثيوفيلوس الأنطاكي:

ويذكر أسابيوس عنه أنه كان الأسقف السادس لكنيسة أنطاكية، ومن كتاباته يُعرف أنه وُلد بالقرب من الفرات لأبويْن وثنيين. ولقد نُصّب أسقفا على مدينة أنطاكيا في النصف الثاني من القرن الثاني؛ ويُحتمل أنه مات سنة ١٨٠م. ولقد بقيت من كتاباته ثلاثة كتب، هي التي تُسمى "ضد أوتوليكوم". أما تعاليمه بخصوص شخص المسيح، فتجدر الإشارة فيها إلى أنه أول من استعمل مصطلح "الثالوث" (TRIAS). ولقد استعمل هذا المصطلح في عبارة غريبة، هي: "ثالوث الله". ويعتقد "كاستين" بأن ثيوفيلوس هو أول من فرق بين اللوغوس في الداخل، واللوغوس في الخارج أو منطوقا. وبما أن ثيوفيلوس ليس له من المقدرة ما يجعله متمكنا في عالم المعاني، فإن تفريقه هذا، سيفتح بابا إلى القدح في أبدية اللوغوس. ولسنا نعني إلا أن معنى الداخل والخارج، لديه ولدى من سيتناول كلامه، لا يخلو من شائبة الحسّ. وهذا ما كنا نقوله عن الفلاسفة في كتاباتنا، من أنهم لا يُدركون المعاني إلا من الحسّ، ومرتبطة به. وهذا عندنا من عوائق المعرفة، التي تعترض الفلاسفة واللاهوتيين جميعا؛ مسيحيين ومسلمين على السواء.

٩. ميلتون الساردسي:

كان "ميلتون" أسقفا لكنيسة ساردس، وقد ذكره أسقف إفسس "بوليكارب" في خطابه إلى البابا "فيكتور" (١٨٩-١٩٩م)، عند وصفه نجوم آسيا اللامعة، والأبطال العظام في الإيمان الذين رقدوا في الرب منتظرين القيامة، وخصّ منهم "ميلتون الأعزب"، الذي كان يحيا كليا وجزئيا في الروح وللرب. ومع أن كتابات ميلتون قد اندثرت، ولم يبق منها إلا نُقول معدودة، فإن عقيدته في المسيح لا تختلف عن غيره من متأخِّري الملفِّقين؛ فهو يقول -مثلا-: "لأنه وُلد كابن، وسلك كحمل، وذُبح كشاة، ودُفن كإنسان، وقام من الأموات كإله؛ فهو إله وإنسان بالطبيعة... فهو آب لأنه قد وَلد، وهو ابن لأنه مولود، وهو كشاة لأنه ذُبح أو تألّم؛ ودُفن لأنه إنسان، وقام لأنه الله. هذا هو يسوع المسيح الذي له المجد في كل العصور.". ويقول في أزلية المسيح: "هو بكر الله، ولد قبل بزوغ نجمة الصبح. فهو الذي أمر بأن يُشرق النور، وأن يطلع النهار؛ وهو الذي فصل الظلام عن النور، وهو الذي علق الأرض واضعا أساساتها الأولى، وهو الذي نظّم العالم.". وهذا الكلام من الطبقة الدنيا من العقائد التي لا أساس لها من العلم؛ وإنما هي تكرار لمقولات لغيره من المعلمين. ولا يُخفي ميلتون المقابلة بين المسيح وإله إسرائيل "يهوه"، وكأنه يفاضل بينهما، ويجعل خلاص المسيحيين بزعمه أكبر من خلاص شعب إسرائيل عن طريق تقديم القربان. ورغم أن هذه الصورة شائعة لدى النصارى، إلا أنه لا يخفى ما بها من تكلف وسوء أدب؛ لا يوجدان إلا عند انقطاع الدين. ويُعد ميلتون أيضا، من أول من تناول علاقة الكنيسة بالإمبراطورية؛ ولا بد من العودة إلى هذه العلاقة في موضعها من هذا الكتاب بإذن الله، لأنه لا يخفى ما لها من أهمية في العقائد وفي الواقع السياسي للشعوب، قديما وحديثا.

ومع بلوغنا نهاية القرن الثاني، وقبل أن نبدأ مرحلة القرن الثالث، لا بد لنا من الإشارة، إلى أن العقيدة المسيحية، أخذت منحى واحدا عاما، هو منحى "بولس". نقول هذا، لأن عقيد التلاميذ (الرسل) لم تتبلور بقدر عقيدة بولس

نفسها، للأسباب التي ذكرناها مفصلة في الفصل السابق. ولم يظهر في القرنيْن الأوليْن بحسبنا، وعلى وجه الإطلاق، من بين الآباء من بلغ مكانة يوستينوس؛ لو أن الكنيسة اتخذته إماما بدل بولس. نقول هذا، ونحن نعلم أن العقول الضعيفة داخل الدين، تتبع دائما الأئمة الذين يُلزمونها بما يقولون. فهذا أهون عليها، من أن تتحمل عبء البحث لنفسها، واتخاذ القرار من نفسها. وينبغي للدارسين أن يميّزوا هذه الأمور، إن هم أرادوا الخروج بما ينفعهم من دراساتهم. ونعني هنا على الخصوص، أن الإمام الذي يكون كثير الأتباع داخل الدين، لا يعود ذلك دائما إلى كونه أكثر الأئمة علما، أو كونه أبلغهم تفسيرا؛ بقدر ما يعني أن أتباعه أشد من غيرهم ميلا إلى الكسل العقلي، وإلى التقليد الصوري...

الفصل السادس

العقائد والهرطقات ما بين القرنين الثاني والرابع

ترجع الهرطقات التي ظهرت في الكنيسة في عمومها، إلى رافديْن اثنيْن، هما: اليهودية والوثنية. فاليهود الذين دخلوا المسيحية، لم يتخلوا كلهم عن عقائدهم في الإله؛ والوثنيون الداخلون في المسيحية، لا يختلفون عنهم في الحفاظ على عقائدهم، ولو جزئيا. ومن هذا التجذر اليهودي-الوثني، ستظهر عقائد توفيقية بين المسيحية وما كان عليه محيطها من عقائد. ورغم أن الهرطقات بحسب المسيحيين هي ما يخالف الحق في نظرهم، فإنها ليست كذلك دائما، ولا من كل وجه؛ ما دامت العقيدة المسيحية نفسها، لم تخل من اضطراب ومن تلفيق؛ مما يجعلها بالنظر إلى المسيحية الأصلية هرطقة من جملة الهرطقات. ونحن سنعرض هنا، لأهم الهرطقات، ونبيّن جذورها ونتائجها، بقدر ما نستطيع؛ وفي مقابل ذلك، نبيّن الحق الذي كان يُعوز الكنيسة عند نظرها إلى مجال "الهرطقة". وكلامنا يعني في النهاية أن الحق نسبي بين المدافعين والهراطقة، ونحن علينا في كل مرة، الحرص على معرفة مقدار الحق ومقدار الباطل في الكلام، برده إلى أصوله العامة، التي قد يتطلب الوقوع عليها جهدا من قِبل الناظر. وهكذا، فإن تناولنا لهذه المسائل، سيُخالف من غير شك، تناول الكنيسة وعلماء اللاهوت لها...

١. الغنوصية:

وبما أن الغنوصية كانت لها حصة الأسد من العقائد، بسبب التنزيه الذي يغلب عليها، فإنها ستكون المهدّد الأكبر للكنيسة في تشبيهها المتطرف. ولقد كانت الكنيسة مهيأة لقبول الغنوصية، بسبب اليونان والرومان المنضمّين إليها، والذين كانوا لا يزالون على ثقافة يونانية ترى المادة شرا، وتعتبرها سجنا للروح. وبما أن الله في تصورهم منحاز إلى جانب الخير، فإنه من المحال لديهم أن يكون له اتصال ما بهذا العالم، ولو من باب الخَلق. لذلك هم يرون أن الله لم يخلق هذا العالم، ولا يؤمنون بالتالي بالإله السامي الخالق (إله اليهود)، ولا بالمسيح الرب[١]. وقبل أن نستمر في تعقّب الغنوصية داخل الكنيسة، لا بد لنا من الوقوف عند صنفيْ الألوهية لدى الغنوصيين:

١. الإله السامي: والاعتقاد بسمو الإله يعني التنزيه المتطرف، الذي يقطع الصلة بين الإله والعالم. وهذا القول له سند من الحقائق، لمن كان له علم بمراتب الذات؛ نشير إليه هنا، ولا ندخل فيه، بسبب كونه خارجا عن غرض الكتاب. ولكن، ولضرورة تفسير وجود العالم، فإن الغنوصيين قالوا بترأس الإله السامي لسلسلة من الآلهة أو "العوالم" (EONS)، تكون منبثقة عنه، أو منبثقا بعضها من بعض بالتسلسل. وكل هذه الآلهة المزعومة، كونت ما يُسمى "المجموعة الإلهية" أو "الملأ الإلهي" أو "الطقم الإلهي". ولقد حدث خلل في هذه المنظومة الإلهية، بحسب هؤلاء الغنوصيين، فسقط أحد الآلهة؛ مما ترتب عليه وجود طريق رجعة، يعيد إليه طهارته الأصلية بالفداء. وهذا التفسير، وإن كان منطقيا، بسبب مطابقته لوجود واسطة بين الحق والخلق، عنها يصدر العالم، لا عن الحق تعالى؛ إلا أنه وبسبب جهل أصحابه بالحقائق، لا يُمكن أن يُعتبر لدى العلماء الإلهيين. وحتى يعلم القارئ ما نتكلم عنه هنا، فعليه أن يفترض أن الحقيقة المنظور إليها واحدة،

---

[١] . نحن نجاري القائلين جدلا في أقوالهم، ونستعمل اصطلاحاتهم بحسب ما يرون هم؛ لذلك، فلا ينبغي التسرع في الحكم على مرادنا، إلا بعد الفراغ من كل مسألة مسألة.

ولكن عقول الناظرين متفاوتة. ومن هنا لا يُمكن أن نسوي بين كامل العقل في وصفها، مع وصف الصبيان، أو مع من يبعد في المسافة كثيرا؛ حتى إذا وصف خرج وصفه شائها.

٢. الإله الشرير: ويعتقد الغنوصيون، أنه في مقابلة المنظومة الإلهية الخيّرة، توجد آلهة شريرة يترأسها إله شرير. وهذا الإله في نظرهم، هو من خلق المادة. وهكذا يكون الصراع مستمرا بين آلهة الخير وآلهة الشر. ويظهر جليا من هذا التفسير، أن الغنوصيين يبغون احتواء الصراع بين الأسماء الإلهية المتقابلة، وإن كانوا لا علم لهم بها. وما زال هذا التفسير محور كل التفسيرات الحجابية لأهل الظلمة، التي لا يهمنا هنا قربها أحيانا منه أو بعدها؛ وإنما الخلاصة في الأساس الذي تقوم عليه. وحتى أولئك الذين يرفضون -بحسب زعمهم- الإيمان بالله، فإنهم لا يجدون مناطا للشر الذي في العالم، إلا الإنسان من كونه لديهم فاعلا مختارا. ولن نرد على هذا القول الآن، وإنما رغبنا في الإشارة إليه، ليظهر قصوره عن مقولات "الثنوية" في العصور الأولى نفسها، والتي برزت في البداية ببلاد فارس.

ولا بد لنا من رد هذه المعاني إلى أصلها في النقط التالية:

١. إن التنزيه والتشبيه معنيان لا يلتقيان لدى الغنوصيين، بسبب الامتياز العقلي. وهذا لا يخصهم وحدهم، وإنما سيشيع لدى الفريقيْن (المنزهة والمشبهة) من المسلمين أيضا. وهم قد أخطأوا، عندما جعلوا الامتياز العقلي بينهما، امتيازا وجوديا. وحتى يظهر معنى ما نقول، فلنجعل المقابلة هنا بين الظهور والبطون، ليصح القياس عليهما. فلو نحن نظرنا إلى معنى البطون، لوجدناه معاكسا على التمام لمعنى الظهور من جهة العقل؛ ونعني ظاهر العقل. ولكن، إن نحن تعمقنا في البطون إلى ما دون الحد، فإننا نجده ينقلب ظهورا؛ كما أننا لو تتبعنا معنى الظهور إلى ما يفوق الحد، لوجدناه ينقلب بطونا؛ وهذا بسبب أحدية الذات المتجلية بالصفات. وعلى هذا، فإن التقابل بين التنزيه والتشبيه، لا يكون إلا عقلا لا وجودا؛ لأن التنزيه ينقلب تشبيها عند اشتداده، والتشبيه ينقلب تنزيها، عند مجاوزة حده. ومن هذا الباب صح قول القائل: إذا فاق الشيء حده، انقلب ضده. فالأضداد أضداد بالصفة لا بالذات!...

٢. إن ما دعا الغنوصيين إلى القول بتعدد الآلهة، رغم انتهاء رئاستها إلى واحد، هو إدراكهم لمعاني الأسماء. وإن نحن اعتبرنا أمهات الصفات وحدها، فإننا نجد "الحي" -مثلا- غير "العليم"، ونجد "القدير" غير "المريد"، و"السميع" غير "البصير"... والغنوصيون لم يتمكنوا من إدراك الأسماء بمعانيها منفصلة عن معنى الذات؛ فجعلوها ذوات (آلهة) متعددة. ونحن عندما نذكر هذا عن الغنوصيين، نعلم أن اليهود (الموسويين) رغم تعقّلهم لبعض معاني الأسماء، فإنهم لم يبلغوا مرتبة التمييز بينها وبين الذات من جهة العلم. وأما المسيحيون، فإن الخلط لديهم بين الذات والأسماء، هو ما جعلهم يعلقون في الثالوث المبهم إلى الآن. والخلاصة في هذه المسألة، هي أن الخطأ دخل على الناظرين، بسبب قياسهم الحق على الخلق. وفي عالم الخلق، لا يوجد اسم يُعقل من دون تعقُّل لمسماه (ذاته). ولقد وقع متكلمو المسلمين في هذا الخطأ عينه، فأنتج لهم ضلالات مستعصية إلى اليوم. ونحن عندما نتكلم عن الأخطاء المؤدية إلى المقولات المختلفة، لا نتجاهل الصعوبة التي كان يلاقيها الناظرون إليها من أهل الدين، في جميع الشرائع، ومن جميع الأزمنة؛ لأننا سنكون غير منصفين لهم. ولكنّنا نريد بذكرها، التنبيه إلى مخالفتهم أصل الدين من البداية؛ وذلك لأن الدين لم يكلّف أهله النظر العقلي، وإنما كان ذلك ابتداعا منهم، عن جهل؛ وكان استعجالا منهم للمعرفة المتوهَّم تحصيلها من طريق العقل، قبل قطف معارف طريق الإيمان، الذي عمدته التصديق والعمل الصالح (وفق الشريعة).

٣. إن ما رآه الغنوصيون منظومتيْن إلهيتيْن، إحداهما للخير والأخرى للشر، ليس إلا بسبب إدراكهم لمعنى الجمال والجلال. ولكن إدراكهم هذا ضعيف، إلى الحد الذي لم يتمكنوا من نسبة المنظومتيْن إلى إله واحد. ولو تأمل المرء الآيات الدالة على التوحيد من القرآن الكريم، من مثل قوله تعالى: {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا

الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا . لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [النساء: ١٧١ – ١٧٥]، وقوله أيضا سبحانه: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ . وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ . ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [الأنعام: ١٩ – ٢٤]. وفي هذه الآيات سرّ، سنظهره الآن، لكونه متعلقا بما كنا بصدده من تقابل الأسماء؛ ولسنا نعني إلا قول المشركين يوم القيامة جوابا عن سؤال الله لهم: {ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ؟}، فأجابوا: {قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ!}. فهم لم يكونوا يقصدون بردهم هذا، الكذبَ على الله والوقت ليس وقت كذب؛ ولا راموا إنكار أقوالهم السابقة التي كانوا يعتقدونها، لأنهم يعلمون ما كانوا عليه؛ ولكن عندما علموا حقيقة نسبة الأسماء المتقابلة هناك، ورجوعها كلها إلى الله الواحد؛ علموا أنهم لم يكونوا مشركين في الحقيقة، وإنما كانوا يتوهّمون الشرك. وهذا هو سبب قسمهم لأنفسهم أنهم لم يكونوا مشركين. لكن هذا العلم حصل لهم في الآخرة، حيث انقطع الامتحان وخُتم على الكتب؛ لذلك فإنهم لن ينتفعوا بهذا العلم، بحيث يُخرجهم من النار؛ ولكن ينتفعون به في النار إذا دخلوها، من غير شك. وذلك لأن لأهل النار معاملة لله، من وراء الحجاب، يُحصّلونها بعلمهم الصحيح غير النافع. وهذا الذي نقوله هنا، هو ما أشار إليه شيخنا الأكبر، من أن الله لا يغفر أن يُشرك به، لعدم وجود الشريك الذي يتعلق به الغَفر. فلله دره من عالم بالله!... وحتى يعلم المطالع لكلامنا مزيد علم، فإننا نرده إلى قول الله قبل جواب المشركين: {ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ...}، ليعلم أن العلم التوحيدي الذي حصل للمشركين في الآخرة، هو فتنة لهم؛ ووجه فتنته أنه نافع لأهله ممن كانوا عليه في دنياهم، غير نافع لهم. ثم يؤكد الله المعنى بقوله تعالى: {انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}، ومعناه أنهم بشركهم ما كذبوا إلا على أنفسهم، بما أن الشريك لا وجود له؛ وهو سبب ضلال مقولاتهم عنهم وتلاشيها، كما يتلاشى كل ما لا حقيقة له. وهذا يجرنا إلى ما يُسميه الشيخ الأكبر "علم المواطن"، لأن للمواطن عملا في العلم نفسه، كما هو واضح هنا، فضلا عن العمل في غيره!... وهذا الذي نقوله، لم يتمكن من إدراكه المسيحيون، رغم أن المسيح قد دلهم عليه؛ وفهموا من كلامه –عليه السلام– ما وافق إدراكهم وهواهم، فجعلوا المسيح ربا للخير، وجعلوا الشيطان (الشرير) ربا للشر. وهذه العقيدة من عند أنفسهم، كما ذكرنا؛ ولا تمكن نسبتها إلى المسيح بوجه من الوجوه. ونعني هنا، أن المسيح عندما كان يدل على الحق في مظهره، دل على تصرفه في تلاميذه الاثني عشر بالهداية، وفي "الإسخريوطي" بالإضلال؛ ليُغلق على السامعين حينذاك، ومن كل زمن، باب القول بإلهيْن. ولكن المسيحيين بسبب قصورهم عن إدراك حقيقة المسيح، حكموا عليه بما تُعطي الطبيعة، لا ما تعطي الحقيقة. وكما أسلفنا، فإن جلّ المسلمين على العقيدة ذاتها، وإن لم يُفصحوا عنها فيما يعود إلى عامتهم؛ بخلاف المتكلمين الذين فتحوا بابا سيعصف بإيمانهم، إن لم يتداركهم الله برحمة من عنده. وحتى ندلل من الواقع على ما نقول، فإننا نذكر أحد "علماء" المتسلفة في زماننا، زعم أنه أعاد ترتيب أسماء الله

التسعة والتسعين؛ فرد بذلك كثيرا من الأسماء الثابتة لدينا من مختلف الطرق؛ منها الاسم "المضل". ولم يكن رده لهذا الاسم بحسب زعمه، إلا لأن الله يتنزه عن هذه الصفة، التي لا تليق إلا بالشيطان. وهذا المسكين عند قوله هذا، لا يعلم أنه قد جعل الشيطان إلها للشر في مقابل إله الخير. والتنزيه الذي يظن أنه سيرفعه عند الله، لم يزد على أن أدخله الشرك من أوسع أبوابه. كل هذا حدث لهذا الشخص، ويحدث لآخرين، لأنهم يريدون بلوغ العلم الحق من طريق العقل؛ ولو من داخل الدين. وكأن الدين قد عقم عن إبلاغهم وحده بحر العلم الذي لا ساحل له. فما أعجب حال العباد!... يقولون شيئا، ويعملون بعكسه؛ ومع ذلك لا يشكون في عقولهم!...

ومن أبرز الغنوصيين المسيحيين:

١. بازِليدوس:

بدأ بازليدوس تعليمه حوالي عام ١٣٠م، وقضى معظم حياته في الإسكندرية. ونظريته عن الله وعن المادة طويلة ومعقدة، يُهمنا نحن هنا منها قوله في المسيح؛ إذ يراه واحدا من المجموعة الإلهية الكونية، وروحا من الأرواح السامية، التي يقول بها الغنوصيون.

٢. فالنتينوس:

وكل ما يقوله أبيفانوس عنه إنه يُحتمل أن يكون مصريا، درس الفلسفة في الإسكندرية على يد بازليدوس السوري. ولقد جاء إلى روما في عهد "أنطونيوس بيوس" (١٣٨–١٦١)، وقام بالتدريس في روما ثم قبرص. ويدّعي فالنتينوس بأنه أخذ تعاليمه عن اثنين من تلاميذ بولس. ونظريته أيضا طويلة ومعقدة، فهو يؤمن بالإله والمنظومة الإلهية، ويؤمن بنصف الإله أو إله اليهود، الذي يرى أنه لا يعرف الإله العظيم. ولا يخفى ما في عقيدة فالنتينوس من شطح مُبعد، أساسه الجهل بهذه المسائل.

ويرى فالنتينوس أن المسيح السماوي، قد اتحد بـ "المسيا" النفسي الذي وعد به نصف الإله، وعندئذ جاء المسيح السماوي في صورة إنسان بشري، وعلّم الأفراد الروحيين، وأعلن لهم عن الإله الحقيقي، وعن كيفية الاتحاد به. ولقد علّم فالنتيسنوس والفالنتيّون من بعده، أن المسيح السماوي لم يتخذ جسدا حقيقيا بشريا، ولكنه ظهر على هيئة إنسان. كما علّموا أيضا، بأن المعرفة (الغنوص)، هي الأساس في الحصول على الخلاص؛ وهم يعنون بذلك التحرر من المادة وقيودها. فالمسيح عندهم هو من يعلن للإنسان طريق المعرفة، الذي يُمكنه منه الرجوع إلى مصدره الإلهي الذي سقط منه. ولقد سبق لنا أن تكلمنا عن معنى الرجوع هذا، وذكرنا قول الله تعالى فيه: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} [التين: ٤ – ٦]. فالخلاف ليس على مبدأ الرجوع، ولكن على كيفيته وطريقته؛ لأن هذا الرجوع منوط بكل رسالة على حدة. وكل رسالة تدعو إلى مرحلة من الطريق، لا إلى الغاية الكبرى؛ لأن الغاية الكبرى، لا تُدرك إلا مع خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم، وباتباع شريعته في زمنه التشريعي، الممتد من بداية البعثة إلى قيام الساعة.

٣. ماركيون:

وُلد ماركيون حوالي ١٢٠م، في مدينة سينوب التي تقع على شاطئ البحر الأسود. وما يُميّز ماركيون من بين الهراطقة والمدافعين جميعهم (المدافعون أضداد الهراطقة)، هو نشوءه في بيئة مسيحية تقية؛ كان أبوه فيها أسقفا لمدينة سينوب. وعلى الرغم من ذلك، فإنه معدود ضمن الهراطقة، بسبب انحرافه عن العقيدة المسيحية المعروفة للمدافعين. ولقد كان ماركيون في شبابه معروفا بذكائه الحاد، الذي كان سببا في نجاحه في التجارة. ولقد اغتنى فيما بعد وأصبح مالكا لعدد من المراكب التي يؤجرها لنقل البضائع. ويبدو أن الأب الأسقف لم يكن على وفاق مع ابنه في مسائل العقيدة، إلى الحد

الذي جعله يحرم ابنه من الاشتراك في كنيسته. وعقب هذا الخلاف العائلي، توجه ماركيون إلى روما التي وصلها حوالي سنة ١٤٠م، في عهد "أنطونيوس بيوس". وعند وصوله سارع ماركيون بالانضمام إلى إحدى كنائس روما، وأظهر "غيرة" وحماسة في التعليم والعمل؛ ولكن مجلس هذه الكنيسة، لاحظ عدم أرثوذكسية تعاليمه، ولاحظ انحراف عقيدته فيما يتعلق بالكريستولوجي ومسائل أُخر. ولذلك فقد طلبت الكنيسة من الشاب، أن يقدم إقرار إيمان عما يعتقده؛ وكانت النتيجة أن ماركيون قد حرم من عضوية هذه الكنيسة، وذلك في عام ١٤٤م. ويُظن أن ماركيون كان يتردد على مدرسة "سردون" الغنوصي في روما، حيث كانت هذه التعاليم تنتشر كانتشارها في آسيا. ورغم أن ماركيون قد عُدّ لدى كثير من اللاهوتيين ومن مؤرخي المسيحية من الغنوصيين، إلا أنه يختلف عنهم؛ لأنه لم ينشغل بمسألة الخير والشر، كما انشغل بها الغنوصيون الذين اختلقوا لها تفاسير انتهت إلى القول بتعدد الآلهة، والقول بإله الخير في مقابل إله الشر؛ ولكنه انشغل بالفرق بين إله إسرائيل وإله المسيح؛ وكأنه على مذهب في الغنوصية خاص به.

وبعد أن أصدرت الكنيسة حرمانها ضد ماركيون، لم يبق الشاب مكتوف اليدين؛ بل استعمل علمه وماله في نشر تعاليمه. ولم يكتف في ذلك بالتعليم كما فعل غيره من "المنحرفين"، ولكنه عمد إلى تأسيس كنيسته الخاصة، ووضْعِ دستور هرمي لها، يبدأ من الأساقفة في الأعلى، ويمر عبر الكهنة، لينتهي إلى الشمامسة. ولقد اتبع ماركيون في كنيسته "ليتيرجية" (نظام عبادة وطقوس)، يشبه كثيرا الليتيرجية الكاثوليكية؛ لذلك انضم إليه عدد أكبر ممن انضموا إلى غيره من الغنوصيين. ويقول "يوستينوس" بأنه بعد مرور عشر سنوات على حرمان ماركيون، انتشرت كنيسته في أنحاء العالم، واستمرت إلى القرن الخامس الذي عرف عددا من الكنائس الماركيونية، في الشرق وخصوصا في سوريا؛ بل إن بعض هذه الكنائس ظل قائما إلى القرون الوسطى.

وأما تعاليم ماركيون، التي اجتذبت الكثيرين إليها، فقد امتازت بخلوّها من ازدواجية منظومتيْ آلهة الخير وآلهة الشر؛ وحلول القول بإلهين محلَّها: أحدهما إله خير ومحبة، والآخر إله عدل وغضب. وينسب ماركيون خلق العالم إلى هذا الإله الثاني، في حين يبقى الإله الأول باطنا وغير معروف. وبعد خلق العالم، اختار الإله شعبا ليكون شاهدا له، وهو الشعب اليهودي الذي أُعطي الناموس. ولقد عاقب الذين اعتدوا على الناموس، وترك الشعوب الأخرى فريسة للمادة والوثنية. وهذا الإله الثاني هو إله اليهود، بحسب ماركيون؛ وهو يجهل الإله الأول السامي والعظيم والمحب. ويعتقد ماركيون أن هذا الإله ظل مجهولا، إلى أن ظهر المسيح في هيئة بشرية، وبدأ يُعلن للناس عن إله المحبة السامي. ويرى ماركيون أن هذا الإله محال أن يُعرف من الناموس أو من الطبيعة، لأنه فوقهما من جهة الإدراك؛ وليس هو الخالق لهما. ويقول كاستن إن ماركيون يعتقد بأن المسيح هو غير المسيا الذي تنبأ به "العهد القديم"، وليس هو ذاك الذي وُلد من العذراء مريم عليها السلام؛ بل هو الذي ظهر بطريقة فجائية في عهد "طيباريوس" الإمبراطور، واحتفظ بهيئته البشرية، إلى أن مات على الصليب. أما بونيفاس، فيظن بأن ماركيون كان يعتقد بأن الإله السامي والمحب، قد ظهر هو نفسه في يسوع المسيا، الذي أرسله إله اليهود، في وقت العماد؛ وهذه العملية يمكن أن تُسمّى عملية التجسّد. وهي تختلف عن التجسد الذي تقول به الكنيسة، من وجوه، هي:

- أن ماركيون يقول بالتجسد وقت العماد، لا وقت الحمل.
- أن التجسد مظهر لا حقيقة؛ لأن ماركيون يمنع من اتصال ما هو إلهي، بما هو مادي.
- أن ماركيون يعتقد بأن المتجسد في المسيح هو الله نفسه، وليس ابنه الكلمة الأبدية.

ولقد كانت الغاية من التجسد، بنظر ماركيون، أن يُحرر الله البشر من ناموس الإله الأدنى إله اليهود، وليقودهم إلى الخلاص. وهو يرى أن هذا هو السبب الذي دفع إله اليهود إلى إثارتهم ضد عيسى، إلى أن قبضوا عليه وقتلوه. وبعد

الموت، يقول ماركيون بأن المسيح ذهب إلى "الهادس"، لإعلان الإنجيل للوثنيين ولأسرى الإله اليهودي. وبعد القيام بهذه المهمة، صعد مباشرة إلى السماء، ومن دون قيامة على الأرض. ومذهب ماركيون هذا، جعله يرفض رفضا باتا "العهد القديم"، لأنه يراه كتاب ذلك الإله المنتقم لا الإله المحب. وكما هو واضح الآن، فإن ماركيون يسير على خطى بولس؛ وهذا سيجعله لا يقبل من "العهد الجديد"، إلا عُشرا من رسائل بولس، مع إنجيل "لوقا"، الذي حذف منه نصوصا كثيرة جدا. ولعل القارئ سيتفطن إلى أن النصوص المحذوفة من رسائل بولس ومن إنجيل لوقا، هي النصوص التي يُذكر فيها الآب من حيث كونه خالقا؛ لأن ماركيون لا يؤمن كما ذكرنا بأن الإله المحب، هو الإله الخالق ذاته. ويعتقد ماركيون بأن اليهود قد حرفوا الإنجيل، وأدخلوا فيه ما هو من عقائدهم؛ ولذلك فقد اختار المسيحُ "الرسولَ بولس"، لإظهار الإنجيل الصحيح، لكونه هو وحده من علم الحقيقة ونادى بها (وهذا انحياز تام إلى بولس). ولما منحت ماركيونَ كنيستُه الحقَّ بوضع قائمة للكتب القانونية، فإنه لم يتردد في وضع "رسالة بولس إلى غلاطية" على رأسها، والتي يراها أساسا للإيمان؛ لا لسبب إلا لأن بولس رفض فيها "انحرافات" بطرس (الرسول) وعدّها من ميوله اليهودية، ومن رجوعه إلى الطقوس والناموس. ولهذا السبب أيضا، أعلن ماركيون في تلاميذه أن تعاليمه أوثق من تعاليم الرسل أنفسهم، الذين ظلوا –بحسبه– يهودا في قرارة أنفسهم. ولما انفصل ماركيون بكنيسته عن كنيسة روما، أعلن –كما هو شأن الضُّلال دائما– أن لا خلاص خارج كنيسته وتعاليمها. ولقد قام لماركيون بوليكاربوس الذي يُظن أنه قابله؛ بل يُظن أن كثيرين من أتباع ماركيون قد انصرفوا عنه، بعد زيارة بوليكاربوس لروما سنة ١٥٥م. وكل ما يُعرف اليوم من عقيدة ماركيون، لم يثبت إلا في كتابات المدافعين الذين تصدوا لها؛ من أمثال "إيريناوس" و"ترتليانوس". أما الكتاب الوحيد الذي يُشار إلى أن ماركيون كتبه، والذي كان بعنوان "المتناقضات" (the antitheses)، فقد ضاع، كما ضاع إقرار إيمانه الذي طلبته منه كنيسة روما. ولقد عُدّ ماركيون بسبب ضلالاته الكبرى، وبسبب انشقاقه الكبير أيضا عن الكنيسة، "لوثر" الزائف.

ورغم إضرار ماركيون بالكنيسة، إلا أنه فتح عينها على مسألة لم تكن قد خطرت ببالها بعد؛ وهي توحيد الأناجيل التي كانت مقروءة في الكنائس، وجمعها في كتاب واحد، منعا للتفرقة؛ كما فتح أيضا عين الكنيسة وأعين المدافعين، على أن مكمن الخطر قد لا يكون دائما من خارج الكنيسة، بل في الداخل أيضا. وإن انشقاق ماركيون الموجع، كما هو واضح، سيكون أول الانشقاقات المعتبرة، ولن يكون آخرها، كما لا يخفى...

وحتى نتبيّن هرطقة ماركيون، فإنه لا بد من تلخيصها في نقط مركّزة، كما يلي:

ا. إن ماركيون، وإن تجاوز بولس من جهة التفصيل، فإنه ليس إلا امتدادا له من جهة الأسس العامة. وإن كنا قد ذكرنا فيما قبل عن بولس أنه منتحل ومفترٍ، فإن ماركيون لن يقل عنه في ذلك؛ بل سيزيد عنه، بما لن تحتمله الكنيسة.

ب. إن نظرية ماركيون في الوجود، رغم تعقيدها، ليست إلا ركاما من الهذيان والاختلاق؛ من دون أدنى رابط منطقي عقلي أو إيماني.

ج. إن قوله بإلهين: أحدهما سامٍ ومحب، وثانيهما عادل ومحب للانتقام، هو من مقاربته لصفات الجلال والجمال التي تكلمنا عنها سابقا، مع عدم تمييزه لِما هو من مرتبة الذات، مما هو من مرتبة الصفات. ولقد ذكرنا آنفا أن هذا التمييز، لا يتمكن منه المسيحيون من مرتبتهم العقلية الإيمانية؛ كما لا يتمكن منه جل المسلمين من مرتبة الإيمان وحدها. لهذا فإن القول بإلهين من جهة المرتبة ممتنع، كما أخبر الله تعالى بقوله: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} [الأنبياء: ٢٢]؛ والضمير من فسدتا عائد على السماء والأرض. ومعنى الفساد المشار إليه في الآية، انهداد السماء والأرض، بسبب المنازعة في التدبير. وهذا يعني أن تماسك العالم وحده، دليل على وحدانية الله؛ ويعني أن من يقول بالتعدّد ضعيف العقل، لا يجدر به الخوض في العقائد. وكلامنا هذا، لا يعني أنه لا ينبغي عليه أن يتديّن، كما

قد يفهمه كثيرون؛ ولكن يعني حصرا عدم الخوض في العقائد، مادام الخوض فيها يخالف اعتقادها والإيمان بها. وهذا هو ما كان دائما، يجعلنا نفضل العوام، على طبقة اللاهوتيين والمتكلمين إجمالا.

د. لا يُعد ماركيون غنوصيا خالصا، بقدر ما يُعدّ صاحب كنيسة جديدة، مفارقة للكنيسة الأم، التي ليس لها من المسيحية هي أيضا إلا الاسم. ونحن هنا ندعو القارئ إلى التريّث في متابعة كلامنا، إلى أن يبين له صدق زعمنا؛ لأن ذلك سيضح شيئا فشيئا عند تناولنا للعقائد "المسيحية". وهذا يعني، أننا لسنا من المتقصّدين لهدم عقائد الكنيسة، ونحن من لا غرض لنا في ذلك؛ وعلى العكس من ذلك، نحن سنُرجع العقائد إلى أصولها، ليظهر بعد ذلك مدى مطابقتها لها أو مدى انحرافها عنها. وهذا، لأن الأصول المعرفية في جميع العقائد المقول بها، واحدة؛ وإن لم يعلم ذلك إلا الراسخون في العلم، الذين يقول الله تعالى عنهم: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} [آل عمران: ٧]. والمعنى هو أن الراسخين يعيدون -بعلم- كل شيء وإن بدا في الظاهر من الباطل، إلى الله وحده. وهذا أيضا من دلائل التوحيد في الوجود؛ لأنه لو رجعت الأمور إلى غير الواحد، لصح الإشراك بالله، وبالتالي لانهار الدين من أساسه؛ وهو ما لا يقول به أهل الدين قبل غيرهم.

وأما الكنيسة فإنها قد أخطأت مرّتيْن: مرة، حينما جهلت انتحال بولس، وعدّته رسولا فيها، من دون أن تكون له الأهلية لذلك، ولو من وجه واحد؛ والثانية، هي عندما "حرمت" ماركيون، وكأنه مخالف لبولس. وذلك لأنها ستقع في التناقض الصارخ، ما دام ماركيون نفسه، ليس إلا امتدادا لبولس. وهذا، إن دل على شيء، فإنما يدل على ضعف الكنيسة إبان القرون الأولى -على الأقل- في مجال اللاهوت. ولسنا نعني باللاهوت هنا، إلا المعنى المعتبر فيه، لا كل كلام يُظن أنه منه. وإن الكنيسة بعملها هذا، ستُثبت أنها ليست على المسيحية الأصلية، وأنها مجانبة للدين الذي دل عليه المسيح عليه السلام؛ وإن هي رفضت الهرطقات، فلا يعني ذلك أنها متمسكة بالحق في مقابلها؛ بل يعني أنها على هرطقة بولُسية فحسب. ولقد تأكد، مع ماركيون -بما لا يدع مجالا للشك- أن بولس قد خالف تلاميذ عيسى في تعاليمه، وأنه غطّى عليهم، إلى الحد الذي صار يُنظر إليهم وكأنهم أتباع له؛ بعكس ما يُعطيه النسق التاريخي والتوجيه العيسوي.

٢. القول بالتبني:

لقد ذكرنا في فصل سابق، أن القائلين بالتبني يأتون في مقابل القائلين بالبنوة (بنوة عيسى). وهؤلاء كما هو واضح، وإن أقروا بميلاد المسيح العذراوي، فإنهم يُنكرون أزليته ويعتبرونه إنسانا كالناس؛ إلى أن جاء يوم العماد حيث نزل عليه الروح القدس. ويعنون بهذا نزول المسيح على عيسى، ومنْحه قوة على عمل المعجزات.

ومن الذين نادوا بهذا التعليم، رجل شرقي يُدعى "ثيودوتيوس"، الذي جاء إلى روما في نهاية القرن الثاني (١٨٩-١٩٩م)؛ على عهد الأسقف فيكتور أسقف روما. وكل ما يُعرف عن ثيودوتيوس الدباغ والشيخ البيزنطي، أنه كان شرقيا ومثقفا جدا، ومجيدا للغة اليونانية. ومن الواضح أن ثيودوتيوس قد جاء إلى روما بعد ماركيون (١٤٠م)، ولذلك فقد وجد الحال مناسبا لإلقاء الهرطقات في كنيسة روما. والفرق جلي بين الرجليْن: فماركيون رفض العهد القديم، وكل ما يمت إلى اليهود بصلة، وأما ثيودوتيوس فقد حاول التمسك بالعهديْن: القديم والجديد؛ وبالرجوع إليهما تحقق له التمسك باليهودية.

وأما عقيدة ثيودوتيوس فترتكز على كون عيسى ليس ابنا لله بالطبيعة، وإنما الله تبناه؛ فصار ابنا له بالتبني. وقد حدث ذلك عند العماد، كما سبقت الإشارة إليه. وإن ثيودوتيوس بمقولته هاته، يُريد أن ينزه الله عن الولد؛ ما دام لا يعلم ذات الله، ليقطع بالبنوة لها؛ وهذا التحفظ منه، دليل عقل لديه. وعندما علم أن الله مخالف من حيث الذات لما هي عليه المخلوقات، رفض انتساب المخلوق إلى الخالق بالبنوة، التي لا يُفهم منها إلا البنوة الطبيعية. ولم يبق أمامه بعد قيام التنزيه في عقله، إلا أن يجد للبنوة معنى، لا يجعله يُكذب ما ورد في الإنجيل؛ فلم يجد إلا البنوة بالتبني، لأنها تُثبت الصلة

من وجه، وتنفيها من وجه آخر. وهذا يُشبه في الظاهر قول الله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]. ونعني أن الشطر الأول من الكلام الإلهي {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، ينفي الصلة (نفي التشبيه)، والشطر الثاني {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، اشتراك في الأسماء، وإثبات للشبيه (نفي التنزيه). لكن ثيودوتيوس، لم يكن يعلم فيمَ يكون الاشتراك، وفيمَ يكون الانفصال؛ لأنه كان يقيس على الطبيعة وحدها. ومع ذلك، فقد أداه عقله إلى مقاربة الحقيقة. وما جعل ثيودوتيوس يبحث عن هذا المخرج، هو تصديقه بما سمع من الإنجيل الوارد بمعنى البنوة. وأما لو عرف أنه بإمكانه مجاوزة لفظ البنوة، إلى معناها اللائق بالله، فإنه كان سيقع على العقيدة الصحيحة، التي يقول الله فيها: {وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ} [البقرة: ١١٦]. ولم يبق له بعد ذلك إلا تصديق الله في قوله: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [التوبة: ٣٠]. وأما سبب الوقوع في هذه المقولة التي لا يعلمون منها إلا دلالتها الطبيعية، فيذكره الله بعد هذا مباشرة، فيقول سبحانه: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ} [التوبة: ٣١]. فظهر أن السبب في ضلالهم، هو اتخاذ الرهبان أربابا يأخذون عنهم تعاليمهم (ولنذكر بولس هنا)، ثم اتخاذهم المسيح ربا مع نسبته إلى مريم بالبنوة؛ ولو أنه كان ربا ما كان يصحّ ذلك؛ وإلا لأصبحت لدينا أسرة إلهية تُعبد بدل الإله الواحد. ولهذا يقول الله بعد ذلك تتمة للآية: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}. وهذا يعني أن الله من وراء مظاهر الرهبان والمسيح ومريم، لا ينبغي أن يُشرك به شيء، وهو وحده من يقوم به كل شيء. وعلى هذا، فإن ثيودوتيوس، كان على أصل المسيحية الأول، لكن كان لديه تشوُّش بسبب عدم إدراكه للبنوة. وهو على كل حال، لا يُمكن أن يُعتبر مهرطقا كسابقيه؛ ولكن يُعتبر أقلَّهم ضلالا وأقربهم إلى الحق. ولعلنا سنزيد في توضيح مسألة التنزيه والتشبيه فيما بعد، ليزداد الكلام به وضوحا؛ لكن في موضع آخر يبعث على تناول التفاصيل.

ومع أن أسقف روما قد حكم بضلال هذا التعليم، إلا أنه لم يستطع وقف انتشاره؛ وهكذا ظهر من التلاميذ، من يذكر التاريخ منهم "ثيودوتيوس" آخر؛ "وناتاليوس"، الذي أصبح أسقفا لكنيسة في روما سنة ٢٠٠م؛ ثم "أرتيمون"، الذي احتفظ أوسابيوس بخطابه.

لا شك أن الاختلاف حول حقيقة المسيح، جاء من الاشتباه الحاصل عندما نُسبت إليه الألوهية. والأجوبة من كل الأطراف كانت محاولة للجمع بين الألوهية والعبودية في مظهر واحد. ومع علمنا بأن اليهود، لم يكن لهم علم بالتجلّي الإلهي في الصور، ولا للمسيحيين الذين لم يكونوا في الأصل إلا يهودا، فإننا سنُدرك أن أقرب جواب وأصوبه، هو القول برسالة المسيح، مع الإبقاء على ألوهية إله إسرائيل. ولقد انحاز إلى هذا الجواب، كل المتمسكين بالناموس؛ ومن هنا تظهر قيمة الناموس وعصمته لأتباعه عن الزلل؛ بعكس ما وقع لبولس المتحلل، ولماركيون المتأول. ومن الجماعات التي نحت منحى الناموس:

- جماعة "الإخوة الضعفاء"، الذين ذكرهم بولس في قوله: "وَلكِنِ انْظُرُوا لِئَلاَّ يَصِيرَ سُلْطَانُكُمْ هذَا مَعْثَرَةً لِلضُّعَفَاءِ."[1].
- جماعة "الإخوة الكذبة"، الذين يذكرهم بولس أيضا في قوله: "وَلكِنْ بِسَبَبِ الإِخْوَةِ الْكَذَبَةِ الْمُدْخَلِينَ خُفْيَةً، الَّذِينَ دَخَلُوا اخْتِلاَسًا لِيَتَجَسَّسُوا حُرِّيَّتَنَا الَّتِي لَنَا فِي الْمَسِيحِ كَيْ يَسْتَعْبِدُونَا، اَلَّذِينَ لَمْ نُذْعِنْ لَهُمْ بِالْخُضُوعِ وَلاَ سَاعَةً، لِيَبْقَى عِنْدَكُمْ حَقُّ الإِنْجِيلِ."[2].

[1] . رسالة بولس إلى كورنثوس الأولى: ٨: ٩.

[2] رسالة بولس إلى أهل غلاطية: ٢: ٤-٥.

- "المعلمون الكذبة"، الذين ظهروا في كولوسي وأفسس: "كَيْ لاَ نَكُونَ فِي مَا بَعْدُ أَطْفَالًا مُضْطَرِبِينَ وَمَحْمُولِينَ بِكُلِّ رِيحِ تَعْلِيمٍ، بِحِيلَةِ النَّاسِ، بِمَكْرٍ إِلَى مَكِيدَةِ الضَّلاَلِ."[1].

- "الناصريون"، ومع أن هذه الجماعة قد تمسكت بلاهوت المسيح، والميلاد العذراوي، والعمل الفدائي، إلا أنهم تمسكوا أيضا وبشدة بالناموس الموسوي، والتعاليم الربانية والوطنية (تأسيس مملكة إسرائيل).

- "جماعة الإبيونيين"، وهم يُشبهون إلى حد كبير "الإخوة الكذبة" سابقي الذكر. ولقد ظهرت هذه الجماعة بعد سنة ٧٠م، أي بعد سقوط أورشليم. ولقد تمسكت هذه الجماعة بالناموس، واعتبروا عيسى كالمسيح، ولكنه في الوقت نفسه إنسان كسائر الناس. ويختلفون عن غيرهم بالقول بولادة المسيح ولادة طبيعية من مريم ويوسف. ويعتقدون أن عيسى حصل على نعمة خاصة وقت العماد، ولا يرون في أعماله وتعاليمه إلا تكميلا لأعمال موسى. لهذا هم ينتظرون المسيح الثاني، الذي يمحو بمجيئه عثرة الصليب المخجلة. ولا يقبلون بولس كرسول حقيقي. وهنا لا بد من أن نذكر القرب الشديد لهذه الجماعة، مما أخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، عندما قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلام حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ؛ وَيَفِيضُ الْمَالُ، حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ.»[2]. وعلى كل حال، فإن هذه العقيدة، كانت منتشرة بين اليهود المتنصرين؛ الذين يُعدّون بحق أتباع عيسى عليه السلام. ونعني من هذا، أن هؤلاء هم مسلمو ذاك الزمان ومؤمنوه؛ لا أولئك الذين انفصلوا بـ "مسيحيتهم" عن ميراث الأنبياء السابقين، واختطوا طريقا منحرفا خاصا بهم.

وعندما نجد بولس هو من "حرم" هذه الجماعات، في رسائله المختلفة، التي أصبحت إنجيل الكنيسة المنحرفة؛ فإننا سنقف على أثره المدمر فيها، والذي لم يبلغه أحد من كل حزب الشيطان. فهو بعد أن أخرج تلاميذ عيسى من مركز القيادة والتعليم، تتبع كل من بقي على الهدى العيسوي؛ وحكم عليهم بأنهم الشر الموجود داخل الكنيسة، والذي ينتظر من الله أن يجتثه وأن يخلِّص الكنيسة منه. وهذا المنزلق، لا يقع فيه بولس وحده مع أتباعه، ولكن يقع فيه أهل الضلالات جميعا. ونعني من هذا، أن إبليس يُغطي مكيدته عن أعين هؤلاء الضالين، بجعلهم يُبالغون في رفع مكانة عيسى عليه السلام فوق ما يستحق. وهذا الرفع، يكون مُسكتا لعقولهم، إن هي أرادت تمحيص مقولاتها، بزعم أنها على التعظيم التام؛ والتعظيم لا يأتي إلا بخير. والحقيقة هي أن تعظيم الرسل والمعظَّمين جميعا من الصالحين، ينبغي أن يكون بعلم لا مطلقا؛ وإلا انقلب كفرا كما هو الشأن هنا. ولهذا السبب أمر نبينا صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ؛ فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ.»[3]. ومعنى الإطراء، هو مجاوزة الحد في التعظيم. وقد يستغرب هذا الكلامَ منا، من يقرأ لنا كلاما في تعظيم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ككلامنا عن الحقيقة المحمدية ومكانتها بين الحق والخلق، فيظن أننا من أولئك الذين نهاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك النهي. والحقيقة، هي أننا نحن نتكلم بعلم، ونعرف ما هو لله من حقوق، وما هو للعبد من حقوق؛ ونسير في ذلك على صراط أحد من السيف وأدق من الشعرة. فمن بلّغه الله معاني ما نتكلم به، ارتقى أعلى الدرجات في العلم؛ كما يقول الله تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [المجادلة: ١١]. وأما من لم يبلغ علم ما نقول، فليكتف بالتسليم، فإنه ينفعه؛ ولا يسلك طريق الإنكار بغير علم، لأن إنكاره يضره. ومن أجل كل هذا، كنا نقول إن المعظمين لعيسى لا ينفعهم

---

[1] . رسالة بولس إلى أهل أفسس: ٤: ١٤.

[2] . متفق عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[3] . أخرجه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

تعظيمهم، إلا إن كان موافقا للحق الذي عند الله؛ وهو ما ندل عليه نحن، من مختلف المراتب؛ حتى يهتدي به كل من شاء الله له الهداية. وأما بقاء أغلبية النصارى على عقيدة بولس، فإنه يُعرّضهم من غير شك لغضب عيسى نفسه عليه السلام. ومن أصر منهم على ما هو عليه، قلنا له: لم يبق كثير وقت حتى ينزل عيسى عليه السلام؛ وستسمعون منه عندئذ ما يُرجّح أحد القولين. وليس لنا إلا أن نقول ما أمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله، في قوله تعالى: {وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ . وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ} [هود: ١٢١، ١٢٢].

وبعد ذكر القائلين بالتبني، الذين لا يُقرّون بأزلية المسيح، ولا بمشاركته لله في طبيعته الإلهية[١]، لا بد لنا من أن نذكر جماعة أخرى، قد اتفقت مع هؤلاء في هذه العقائد، وليسوا إلا "اللالوغوسيين". وهذا الاصطلاح يعني: الأذكياء، وفي الوقت ذاته يعني: مخالفة عقيدة اللوغوس. وكان يرأس هذه الجماعة كاهن روماني، يُدعى "غايوس"، ظل على قيد الحياة حتى عام ٢٠٠م. ولقد شن "غايوس" حربا شعواء على جماعة "المونتانيين"، وهم أتباع شخص يُدعى "مونتانوس"، كان يقاطع الوثنيين مقاطعة تامة، ويحن إلى الزمن الذي كان فيه المسيحيون جماعة صغيرة تحرص على دينها. ولقد انقطعت أخبار "اللالوغوسيين" من مصادر التاريخ، فلم يعرف متى اختفوا من آسيا، ولا لم؟...

٣. كبار المعلمين المسيحيين وخصوصياتهم:

١. اكليمندوس الإسكندري:

هو تيطوس فلافيوس اكليمندوس الإسكندري، ويُظن أنه وُلد في اليونان من أبويْن وثنيّيْن سنة ١٥٠م. ولقد كان حبه لطلب العلم خلف هجرته من اليونان إلى جنوب إيطاليا وسوريا، ثم إلى فلسطين، فالإسكندرية التي استقر بها. هذه المدينة العظيمة، التي كانت تُعدّ مركزا تلتقي فيه الحضارات المختلفة، والثقافات المتنوعة. وبسبب موقعها الجغرافي، أصبحت الإسكندرية "أثينا" الثانية، لربطها بين القارات الثلاث المعروفة في ذلك الوقت. وهذا جعلها تكون جامعة يلتقي فيها الطلبة والمعلّمون، فكثرت فيها بسبب ذلك المدارس الفلسفية والدينية.

إلى هذه المدينة جاء اكليمندوس باحثا عن العلم وعن الحق. وبصفته طالبا، التحق بالمدرسة التي كانت تُسمى: "مدرسة اللاهوت المسيحي"، التي أسسها وأدارها "باتنيوس". وأغلب الظن، أن اكليمندوس دخل المسيحية على يد باتنيوس ذاته. وبعد عماده، أصبح المساعد الأول له في إدارة المدرسة، التي تركها له في النهاية؛ ليذهب خارج مصر، ناشرا للإنجيل.

تولى اكليمندوس إدارة المدرسة اللاهوتية، بعد رحيل أستاذه فيما بين (١٩٠- ٢٠٠م). ولقد اضطر إلى ترك مصر إبان حكم "سبتيميوس سفريوس"؛ ويُقال إنه لجأ إلى أورشليم، عند "ألكسندر" تلميذه، الذي احتل فيما بعد كرسي أسقفية أورشليم. ومات (اكليمندوس) هناك سنة ٢١٥م، دون أن يرى مصر مرة أخرى. غير أن بونيفاس يقول بأنه رجع واستأنف تدريسه فيها، إلى أن مات على أرضها سنة ٢١٧م.

وكان اكليمندوس من الكتاب اللامعين، رغم أن كتاباته لم تكن مرتبة ترتيبا منطقيا. وإن كانت الكنيسة لا تقبل كل آرائه، فإنها تعتبره نموذجا لما كان عليه بعض أهل القرنيْن: الثاني والثالث. والدارس لتاريخ العقائد، سيجد من دون عناء تشابها كبيرا بين اكليمندوس ويوستينوس في أشياء كثيرة، لكن على الخصوص في القول بوجود أثر اللوغوس في فلسفة اليونان وتعاليمهم. ولقد ذهب اكليمندوس أبعد من هذا، عندما قارن بين فلسفة اليونان والعهد القديم، عندما

---

[١]. نحن لا نقول بالطبيعة الإلهية، لأن هذا المصطلح لا يدل إلا على قصور القائل به. وذلك لأن الطبيعة مخلوقة لله، ولا يصح قياسه سبحانه على مخلوقاته أبدا. لذلك فللإشارة إلى ما تكون عليه الألوهية من صفات، ينبغي أن نتكلم عن الحقيقة الإلهية أو الحقائق الإلهية، فهو أليق.

كانت البشرية تستعد لاستقبال المسيح عليه السلام. ولقد انتهى اكليمندوس إلى قول غاية في الرقيّ، مفاده: "أن الفلسفة على أهميتها، لا تبلغ أن تكون عديلا للوحي؛ ولا يُمكنها إلا أن تُعِدّ الطريق أمام الإيمان."[1]. ويُضيف اكليمندوس إلى درته السابقة درة أخرى، مفادها: "أنه لا تناقض بين العلم والدين، بل إن الأول خادم أمين ومساعد عظيم، له أهمية لا تُقدّر، على شرط معرفة استخدامه استخداما حسنا.". ويرى صاحبنا أن المسيحية هي تاج ومجد كل الحقائق (وهو الحق في زمانها)، التي تكتشفها كل المذاهب الفلسفية المختلفة. غير أن هذا مخصوص بالمتفلسفين من المسيحيين لا مطلقا؛ لأن الفلسفة كما أخبر اكليمندوس سابقا، لا توصل إلا إلى باب الإيمان؛ بينما الحقائق الدينية هي من وراء ذلك كله. ولم يقتصر اكليمندوس في كتاباته على معالجة المسائل اللاهوتية والدينية، بل تعداها إلى المسائل الاجتماعية والفلسفية، التي كان يعيشها مجتمعه في زمنه. وبسبب موسوعيته، نال اكليمندوس لقب "رائد العلوم المسيحية"؛ وقد كان وراء دفع الكنيسة إلى الاعتناء بالعلوم الكونية والعقلية فيما بعد، وانفتاحها عليها.

ونحن عند تتبعنا لأنساق العقائد داخل الكنيسة، نُلحق اكليمندوس بـ "يوستينوس"، ونراه على كثير من الحق في آرائه ومقولاته؛ كما ألحقنا ماركيون بـ "بولس"، في الخط الضلالي المقابل. وعَجَبنا متزايد من الكنيسة، التي تقبل وترد، بغير معيار ثابت...

ومن أشهر كتب اكليمندوس:

- كتاب "حث اليونان": ويحاول الكاتب فيه حث اليونان على قبول اللوغوس الحقيقي، الذي ظهر في المسيح، والذي تنبأ به -مِن قبل- الأنبياء عليهم السلام؛ ويدعوهم إلى نبذ الوثنية، وقبول المسيحية.
- كتاب "المعلِّم": وهذا الكتاب يحتوي ثلاثة مجلدات، ويُعد تكملة لكتابه السابق. يقدم فيه نصائح للذين قبلوا الإيمان المسيحي، ويشرح بالتفصيل أن اللوغوس هو المعلم الذي يُرشد الذين "تجددوا"، إلى الطريق الصحيح الذي ينبغي أن يسلكوا فيه. ويعني من هذا، أن اللوغوس يقوم بمهمة روحية لا ثقافية؛ لأنه يهيء النفس لحياة روحية سامية. وعند مخاطبة الوثنيين بالتجدُّد، فإنه كان يعني قبول المسيح وإدراك عملية الفداء؛ فعندئذ -فقط- كان الوثني يعمد. ويتضح من هذا، أن طريق الوثني، مخالف لطريق اليهودي في التجدُّد. وهذا، كما يذكر القارئ، من آثار بولس على المسيحية. ومسألة التجدد متعلّقة بباطن من عرف الإيمان، ثم بظاهره عند إعلانه في الناس.
- كتاب "الطرازة أو الحياكة": وتحتوي هذه السلسلة على ثمانية كتب، يتعرض فيها الكاتب لمجموعة قضايا: كالعلاقة بين الدين المسيحي، والديانات والفلسفات الأخرى.
- كتابان: عبارة عن اقتباس من كتب الغنوصيين والتعليق عليها.
- عظة عنوانها: "من هو الغني الذي سيخلص؟"...

ولاكليمندوس كتب مفقودة، أهمها تفسيره للكتاب المقدس بعهديه. وعنوان هذا التفسير الذي هو من ثمانية أجزاء "مسودة". ولقد أشار إلى هذا التفسير أوسابيوس، وذكر معه، أنه كتب كتابا آخر عن الفصح. ويذكر أوسابيوس كتابا آخر له بعنوان: "حث المتعمدين حديثا".

أما تعاليم اكليمندوس الكريستولوجية، فقد كانت تتمحور حول اللوغوس وظهوراته في الزمان؛ فهو يقول بأن اللوغوس هو الذي أخبر به العهد القديم، وهو الذي ظهر عند "تجسد" المسيح، وهو الذي علّم الفلاسفة. وحتى نوضح نحن هذه المسألة، فإننا نقول:

---

[1] . يبقى الفلاسفة المتأخرون، دون هذا المستوى من العقل؛ مما يجعل الرفعة العلمية لا تسير حتما في اطّراد مع الزمن، وإنما قد تعاكسه في أحيان كثيرة.

اللوغوس أو الكلمة، هو ما سميناه عدة مرات: "الحقيقة المحمدية". أما لماذا لم يكن يعرف الأقدمون بهذه الحقيقة، فلأن الشخص المحمدي لم يكن قد ظهر من بين ذرية آدم بعد. وما يتكلم عنه اكليمندوس هنا، وما تكلم عنه غيره من وجوه مختلفة للوغوس، هو تجليات الحق في الزمان، والتي ليست إلا ظهورات للحقيقة المحمدية ذاتها. وما ينبغي أن نلاحظه في هذه التجليات، هو طابعها التراكمي، الذي يجعلها تسير من البساطة (نسبيا) إلى التركيب. وما ظنه اكليمندوس وعلماء اللاهوت المسيحي، من أن المسيح هو أكمل ظهور للحقيقة المحمدية، ليس مطابقا للواقع؛ لأنه لا أكمل في مظاهر الخلفاء الإلهيّين الذين ظهروا بالصورة الإلهية في العالم، من محمد صلى الله عليه وآله وسلم. ولقد سبق لنا أن أخبرنا أن جميع الأنبياء كانوا على علم بهذه الحقيقة، من جهة الإعلام الإلهي (العلم اللدني)؛ لكونهم عليهم السلام أجمعين، يعلمون أنها مُستندهم الوجودي. ولقد كان أعلمهم بهذا الأمر عيسى -عليه السلام- الذي بشر بمقدم الشخص المحمدي من بعده، كما أخبر الله عنه في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [الصف: ٦]. ورغم أن النصارى لا يؤمنون بهذه الحقيقة، فإن ذلك لا يُغيّر منها شيئا؛ وإنما هم يحرمون أنفسهم من الحق فحسب. ونحن عندما نبيّن هذه الأسرار، فإننا لا نقلد فيها أحدا؛ ولكن نأخذها من مصدرها. وعلى هذا، فإن كل من أدركه زمن محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وسواء أكان على كتاب أم لا، ولم يؤمن به صلى الله عليه وآله وسلم، وبما أُنزل عليه، فإنه لا حظ له في الحق. وهنا ينبغي أن نبيّن حكم المسلمين، الذين لا علم لهم بمرتبة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من جهة الحقيقة، لنقول: أما العوام الذين لا يعلمون إلا ظاهر الرسالة، فإن إيمانهم بها واتباعهم لها، يجعلهم من أهل السعادة من غير شك؛ وأما الخواص الذين هم على علم بالحقيقة، فإن مرتبتهم تتحدد بحسب مكانتهم من تلك الحقيقة. ونعني أن منهم من هو من ظاهرها، ومنهم من هو من باطنها، ومنهم من له الجمع على قدر ما. وهؤلاء الخواص يلتقي بعضهم ببعض في هذه الحقيقة، ومن هناك يُخبرون عن تلك اللقاءات والمحاورات، كما أخبر الشيخ الأكبر عليه السلام، بلقاء الخلفاء الراشدين وبعض الأنبياء عليهم السلام. ولقد كان لنا بفضل الله نصيبنا من ذلك كله...

ووقوف علماء المسيحيين في كلامهم عن اللوغوس، عند المسيح عليه السلام، لا يُنقص من مرتبتهم، إن كانوا من أهل القرون الستة التي تفصل المسيح عن البعثة المحمدية؛ بل إنهم يكونون من أهل الحق وقتها، بلا خلاف. وأما من أتَوا بعد البعثة المحمدية، فحكمهم مختلف؛ لأنهم ملزمون بمعرفة الحق في الصورة المحمدية، التي هي أكمل -كما ذكرنا- من الصورة العيسوية. وكل من لم يؤمن من النصارى بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، فإنه يكون كاذبا في زعمه اتباع عيسى عليه السلام؛ وذلك لأن الحق لا يتعدد. ومَثل هؤلاء وأولئك، كمن يزعم أنه من أهل الإبصار في الحسّ، ويُثبت رؤيته للقمر، ثم يُنكر وجود الشمس. فهذا، لا يُعتدّ برؤيته للقمر، لأن القمر مستند في ظهوره هو نفسه إلى الشمس. ومن أنكر الفرع المعرفي (الأصل)، فإنه يُنكر الأصل المعرفي بالتبَع (الفرع)؛ علم أم لم يعلم. وهذه الضلالة يقع فيها إلى جانب النصارى، متصوفة المسلمين، الذين يقرّون بوجود أئمة التصوف الأولين، ويُنكرون المتأخرين؛ وقد يكون بعض المتأخرين أعلى مرتبة من بعض الأولين. وهذه مسألة يطول الكلام فيها، ويسهل على إبليس إضلال الناس منها، بسبب عدم ضبط الناس لمفرداتها. ونحن قد أردنا الكشف عن حقيقة كلام اللاهوتيين المسيحيين هنا، لنسهّل على متتبعينا معرفة أصل ذلك كله؛ وإن كنا لا بد أن نعود إلى تفصيل ما ذكرنا، عندما نتكلم عن الإسلام المحمدي في محله. ثم لا بد من أن نقرر أن العباد باتباعهم للمظاهر الإلهية، لا يقصدون المظاهر لذاتها؛ ولكن مقصودهم من ورائها الله وحده. ومن كان مقصوده الله، فإنه يسهل عليه مُجاوزة المظهر الذي كان متمسكا به، إلى مظهر آخر يأذن الله بظهوره بعده. ولهذا السبب، قلنا إن من يزعم أنه متبع لعيسى، وفي الوقت ذاته يرفض محمدا صلى الله عليه وآله وسلم، فإنه لا يكون إلا كاذبا. ولو

عدنا إلى المثل المضروب سابقا، فإننا نقول إن الإبصار متعلق بالنور الذي له مظهران: شمس وقمر؛ لا بجرم الشمس أو بجرم القمر.

ولقد أخطأ اكليمندوس في التعبير عن المسألة، كما أخطأ غيره، عندما يجعل اللوغوس موجودا مع الآب، قبل تعيّن وجودات العالم والأنبياء والمسيح. ولو أنه كان على علم صحيح، لعلم أن الآب هو اللوغوس ذاته؛ والفرق بين الآب (الإله) واللوغوس هو الاعتبار وحده. ونعني من هذا، أن اللوغوس حق من جهة وخلق من الجهة الأخرى؛ لذلك هو الآب من جهة حقّه، وهو اللوغوس من جهة خلقه (جمعه). وأما المرتبة التي قبل اللوغوس من الحق، فلا تتعيّن إلا لنفسها. ونعني من هذا، أنه لا ذكر للخلق فيها؛ وبالتالي، فلا يعلمها من هذا الوجه أحد من المخلوقين. والكلام يطول في هذه المسألة، ونحن نبغي إرجاع كلام اكليمندوس إلى أصله فحسب. ثم يعتبر اكليمندوس أن "التجسد"، هو ظهور للوغوس الذي كان قبل كل الظهورات مع الآب. والسبب في إشراك اكليمندوس، وقوله بوجوديْن: أحدهما للوغوس والثاني للآب، هو عدم إدراكه للوجه العدمي للوغوس؛ وهي مسألة فوق متناول عقله. والعظمة التي ينتهي اكليمندوس إلى التسوية فيها بين الآب والابن، ليست إلا معنى الذات؛ الذي يُقاربه من جهة الصفات، بسبب عدم بلوغه المستوى الأعلى من العلم. والعظمة، صفة ذاتية، كما يعلم أهل الله منّا؛ لذلك قلنا بعلم اكليمندوس (وأمثاله) بمعنى الذات من وراء الصفات. وهذا يعني أن العلم بمعنى الذات الحق، لا يكون إلا لكبار الأولياء المحمديين!...

ويتكلم اكليمندوس عن معنى جيد في اللوغوس، وهو الصورة؛ ويقول بأنه كان صورة للآب قبل "التجسد" وبعده. ولا يقصد بكونه صورة قبلا وبَعدا، إلا ما يكون من الصورة في عالم المعنى، وما يكون منها في عالم الحسّ؛ وإن لم يتمكن من التعبير عن ذلك بوضوح. وهذا يعني أن للحق ظهورا في عالم المعنى، وظهورا في عالم الحس، مع بقائه من جهة الذات وراء الحس والمعنى، محيطا بهما معا.

ثم يتكلم اكليمندوس عن معنى المرتبة (الألوهية) في اللوغوس، من دون أن يعلمها على وجه التفصيل؛ وإنما يجعلها سيّد العالم، ومنزل التشريع، والمخلّص. ويتكلم عن بلوغ الإنسان مرتبة التأله بعد سلوكه طريق المحبة. وهو معنى جيد لـ "الوصول" باصطلاح أهل الطريق عندنا؛ ولكنه مجمل غاية الإجمال. ولقد فاق كلام اكليمندوس مستوى إدراك كثيرين، ممن اعتبروه "دسوتيا"، قائلا بلاهوت المسيح دون ناسوته. وهو في الحقيقة لم يكن كذلك، وإنما كان جامعا في المسيح بين الحق والخلق على جهة الإيمان لا على الشهود. وهذا، لأن تمييز المعاني التي تكلم عنها بعبارات غير دقيقة، لا يكون إلا لمن بلغ مرتبة الشهود؛ والشهود يُعطي من العلم في لمحة واحدة، ما لا تسعه المجلدات. ولكن الكلام عن الشهود لغير أهله، هو ككلام اللاهوتيين عن ألوهية المسيح لمن كانوا من أهل الحس. ويدخل ضمن مرتبة أهل الحس، الفلاسفة والمفكرون أيضا؛ لكونهم لا يعلمون من المعاني إلا ما كان منوطا بالحس، ولا بد. وهذا هو السبب الذي يجعل الفلاسفة، لا يعلمون اللوغوس، إلا من كونه معنى كلّيا مستخلصا من الحس. وسيبقى الفلاسفة وراء حجاب الحس، مهما علت فلسفتهم، أو ظن من لا علم له بالأمر، أنهم ارتفعوا عن الحس. وكما أن الحس حجاب، فإن المعنى أيضا حجاب؛ وإن كان ألطف منه؛ وهذا ما لا يُدركه إلا قلة من الناس. ومن هنا كان غلط بعض أهل التصوف، بتوهمهم معرفة الحق، عند دخولهم عالم المعنى. والحق -كما ذكرنا- منزه عن الحس وعن المعنى، لأنه خالق الحس والمعنى، والمُقيم لهما. ولقد وردت الإشارة إلى المعنى في مقابل الحس، في الخطاب الشرعي، بلفظ السماء والأرض. ونعني منه، أن كل ما هو سماوي هو معنى، وكل ما هو أرضي هو حس؛ والله هو الخالق لهما والمدبر لهما، كما أخبر سبحانه عن نفسه: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [النمل: ٢٦]. ومعنى {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، أي: لا هو إلا هو، في مرتبة الحق للحق؛ ومعنى {رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}، أي: رب السماوات والأرض وما بينهما؛ لأن العرش محيط بكل ذلك. والعرش على إحاطته بكل شيء،

وعِظمه، هو مخلوق لله، من جملة المخلوقات. وكما اتُّهِم اكليمندوس بالدسوتية، فقد اتهم أيضا بالرواقية، خصوصا في مسألة آلام المسيح؛ التي انتهى فيها، إلى أنه عليه السلام، لم يكن يشعر بها كباقي الناس. وأتذكر هنا كلاما لرفيق لي في الطريق، حدثني يوما، عن شيء يشبه هذا فيما يتعلّق بالأولياء. ووجدته يظن أن الأولياء يحتملون الأذى الكبير، لأنهم لا يشعرون به، بسبب خصوصيتهم؛ وكأنه من وراء هذا يجد عذرا لنفسه الراكنة إلى الدعة والاستسلام. وتعجبت من عقيدته، وجادلته فيها؛ فلما استدل بحال النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أخبرته بأنه يُكذِّب النبي من حيث يظن أنه يُعظمه. وذلك لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لما أخبر عن نفسه الشريفة وآلامها وأحزانها، فإنه كان يُخبر عما يجده حقيقة. والأنبياء لم يُفارقوا الناس من جهة بشريتهم أبدا، وهم لا يفارقونهم إلا من جهة كونهم يوحى إليهم. ومعنى هذا، أن الناس أحرار في آرائهم، وفي الترجيح بين الأقوال بحسب عقولهم؛ لكن الأنبياء ليس لهم شيء من ذلك، ولا يُفتون في أمر إلا عن وحي إلهي. ونبينا صلى الله عليه وآله وسلم أكثر الأنبياء خضوعا للوحي، وبهذا أخبر الله عنه في قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: ١١٠]؛ وهذا يعني أنه صلى الله عليه وآله وسلم، يبرأ من كل أحد يظن فيه الألوهية من دون الله. ويقول الله عن عيسى وأمه عليهما السلام: {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} [المائدة: ٧٥ – ٧٧]. ومعنى قول الله عن عيسى وأمه أنهما كانا يأكلان الطعام، هو أنهما فقيران إلى الله، ولا غنى لهما من ذاتيْهما. وسمى الله هذه المسألة تبيينا للآيات، لأنه سبحانه يُميِّز للنصارى بين حكم الألوهية التي هي باطن عيسى، وصورته التي هي جسده. والسؤال هنا هو: ماذا يعرف النصارى من عيسى؟ والجواب سيكون صورته لا ألوهيته (حقيقته). ولكنهم بعد أن علموا صورته، نسبوا إليها الألوهية إيمانا؛ فلم تنسلك في عقولهم، فظهرت كل هذه المقولات التي يزعم كل واحد فيها، بأنه جاء أمته بالخبر اليقين. وفي الحقيقة، ما ازداد النصارى بالكلام في اللاهوت، إلا بُعدا عن عيسى وعن حقيقته. ببساطة، لأنهم سلكوا طريقا غير الذي يوصل إليها. والطريق الموصل هو الإيمان وحده، مع العمل الصالح المشروع؛ فتركوا ذلك كله، وعادوا إلى عقولهم يُنظّرون بها ما يظنون أنه أقرب إلى الإحاطة بحقيقة عيسى، وهيهات!...

ويدخل اكليمندوس في مسألة أخرى، يعلق فيها كما علق في الأخريات، وهي: من يدبر جسد المسيح؟ اللوغوس (الإنسان الداخلي) أم الإنسان المعتاد (الإنسان الخارجي)؟... وهذه مغالطة منه، لا شك؛ لأن الجسد من حيث هو جسد، له في الناس حكم واحد؛ والفرق بينهم، هو من جهة الروح المدبِّر. والروح المدبر في الناس له مراتب هي:

الأولى: النفس: وهي الروح عندما يكون متوجها إلى الجسد. ومراتب النفس الثلاث، التي عرفناها سابقا، توجد كلها ضمن هذه المرتبة. ونعني منها: النفس الأمارة بالسوء، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة.

الثانية: الروح: ولا يبلغ هذه المرتبة إلا من تجاوز مرتبة النفس المطمئنة. وعلامة بلوغ هذه المرتبة الروحانية، أن يصير الجسد متوجها إلى الروح، بعكس ما كان الشأن عليه مع طور النفس؛ وفي هذه المرتبة يقع التروحن للولي. ومعنى التروحن، هو أن يكتسب الجسد خصائص الروح؛ فيصير قادرا على قطع المسافات البعيدة عنده في لمح البصر، ويصير من غير وزن يحلق في الهواء ولا يسقط، أو يمشي على الماء ولا يغرق؛ ويلطُف حتى يعود متمكنا من خرق الجدران والانعتاق من الأغلال. ومن هذا الباب كان الأولياء يطيرون في الهواء ويمشون على الماء، وإذا سُجنوا وُجدوا خارج السجن... ولعل اكليمندوس عندما أراد أن يُنزه عيسى عن الإحساس بالآلام، كان يريد هذا الذي نقوله. وهو صحيح، لكنّ حكمه لا

يكون مستمرا على الدوام، من باب مراعاة الحكمة؛ ولا يكون إلا من باب المعجزات للأنبياء، والكرامات للأولياء. وهذه مسألة تتعلق بأحوال الأولياء، ومتى يجوز لهم الظهور بما تعطيه الروحانية، ومتى لا يجوز. وهذا لأن الشريعة حاكمة في كل وقت من الأوقات، وفيما يتعلق بالأنبياء، فإن الله يوحي إليهم بما يريد إظهاره منهم، فيكون أمر الله لهم في الوقت، حكما خاصا في المسألة، يجب عليهم الالتزام به.

الثالثة: الروح القدس: وهو كما يدل عليه اسمه الروح إذا عاد إلى مستوى الحق الذي كان فيه قبل الأمر بالتدبير. يقول الله تعالى: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} [الحجر: ٢٩]. وعلى هذا، فالروح القدس، لم يعد الروح الإنساني المدبر للجسد؛ وإنما صار الروح الإلهي المدبر بالتدبير الإلهي. وهذه المرتبة كانت لعيسى منذ ولادته، وهو منذئذ كان إلهيا في صورة بشرية. ومعنى صفة القدس، هو نزاهة الروح عن صفة الحدوث؛ بخلاف الروح المنفوخ فإنه حادث. وهذه مسألة معقدة، لن نواصل الكلام فيها، لبعدها عن متناول العقول. لكن رغم كل هذا الذي أثبتناه للروح في مرتبتيْه العلويتيْن، فإن الجسد تبقى له أحكامه، بحسب قوانين الطبيعة الحاكمة على الأجساد. وهذا البوْن بين أحكام الجسد وحكم الروح القدس على الخصوص، هو ما جعل النصارى يتيهون بين المتناقضات والمتقابلات، ويلجأون إلى التفسير التلفيقي ليُبقي لهم على إيمانهم، بحسب ظنهم. ولقد كانوا مخطئين في ذلك، كما سبق أن أخبرنا. ومما زاد من تعقيد هذه المسألة لديهم، ولدى غيرهم من أهل الكتاب، أنهم عندما يعتبرون الجسد والروح، فإنهم يعتبرانهما ضمن عالم واحد، هو عالم السفل والطبيعة؛ بينما كان ينبغي أن يُلحقوا الروح بالسماوات، على قدر ارتقائه؛ وأن يُبقوا على الجسد في العالم الأرضي؛ هذا إن كان الروح ليس قدُسا. وأما إن كان الروح قدسا، فينبغي اعتبار مستوى العرش فيه، مع بقاء الجسد في العالم الأرضي. ولقد دخل هذا الوهم على الناظرين، لكونهم لا يشهدون بأعينهم إلا الجسد، فحكموا بوجود الروح معه حيث هو. والحقيقة أن الروح (لا النفس) يكون حيث هو من عالمه السماوي، ومن هناك يُدبّر الجسد بالتوجه فحسب. وأما النفس، بعكس ذلك، فإنها عند شدة التصاقها بالجسد تصير أرضية؛ وبهذا النزول تستحق مرتبة أدنى من مرتبة الأنعام. يقول الله تعالى عن هذا الصنف: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} [الفرقان: ٤٤]. وإن اكليمندوس لما ارتقى إلى حيث صار يقارب مطالعة ما ذكرنا، قد انحجب عن اللاهوتيين المسيحيين الذين أرادوا فهم مقولاته، وهم أدنى منه مرتبة؛ فصاروا ينسبونه تارة إلى هذه الجهة، وتارة أخرى إلى جهة أخرى؛ وهو لم يكن إلا مسيحيا حقيقيا، بلغ ما لم يبلغه غيره؛ وإن كنا نحكم بقصوره بالنظر إلى أهل الله منّا. وسنرى، هل ستُوفّق الكنيسة في إيلاء اكليمندوس المكانة التي يستحقها فيها، أم سيكون شأنه شأن يوستينوس معها؟... هذا، ولا بد أن نذكر هنا سرورنا بمن يكون على مرتبة علمية مرموقة من المسيحيين، ونسجل احتفاءنا بهم ونترحم عليهم؛ لأننا نعتبرهم إخواننا الذين سبقونا بالإيمان. يقول الله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: ١٠]. ورغم أن الآية المذكورة نزلت فيمن سيأتي من مؤمني هذه الأمة، بعد السابقين من المهاجرين والأنصار المرضيين في الزمان؛ فإننا نراها تتسع لمن سبقنا من مؤمني الأمم السابقة أيضا؛ من الوجه القرآني المهيمن على سائر الكتب. ولهذا فنحن نُسلّم على أولئك الرجال ونترحم عليهم، ونسأل الله لهم مزيد الترقي حيث هم. ونُحذّر إخواننا من أبناء أمتنا، من انطواء قوبهم على قليل غل لأولئك المؤمنين؛ لأن الإيمان لا يُعادي نفسه!... ولنحمد الله أننا لم نُختبر اختبارهم، ولم نعش زمانهم؛ فإنهم كانوا على استعدادات تليق بذلك كله. وجزى الله عنا شيخنا الأكبر خيرا، إذ علمنا أن كل فاضل مفضول... فاللهم لك الحمد على جميع نعمائك، كما تحب وترضى. آمين.

٢. ترتليانوس:

ترتليانوس، هو أحد المعلمين الأفارقة، ضمن آخرين كـ "كيبريانوس" و"أغسطينوس"، وغيرهما... وهذا يعني أن المسيحية لم تبق محصورة في أورشليم، ولا في أنطاكيا أو مصر أو إفسس وروما وسميرنا وبلاد الغال (فرنسا)؛ بل تجاوزتها إلى أفريقيا. وترتليانوس هذا (واسمه بالكامل في اللاتينية: كنتينوس سبتينوس فلورنتوس ترتليانوس) ولد في قرطاجنة، من شمال أفريقيا، ما بين سنة ١٥٥ و١٦٠م، من والديْن وثنييْن؛ حيث كان أبوه يشغل منصب رئيس فرقة الوالي الروماني في هذه المدينة. نشأ ترتليانوس في قرطاجنة، وتعلم في مدارسها، وعلى أيدي معلميها؛ ثم توجه بعد ذلك إلى روما لكي يدرس الحقوق، فتم له ذلك بنجاح تام. وبعد أن أنهى دراسته بقي مقيما في روما، يُمارس المحاماة؛ حيث صار محاميا مشهورا وذائع الصيت. وتختلف الظروف التي تجدد (دخل المسيحية) فيها ترتليانوس، عن تلك التي تجدد فيها يوستينوس واكليمندوس؛ فهذان الآخران لم يدخلا المسيحية، إلا بعد بحث ونظر استثنائييْن؛ أما هو، فإن الشجاعة –التي كان المسيحيون يستقبلون بها الموت: ليس بلا خوف فحسب، بل بالفرح والابتهاج– هي ما دعاه إلى دراسة الإنجيل واكتشاف المسيحية. ومنذ حوالي ١٩٣م، أصبح ترتليانوس محاميا عن المسيحيين، في المحاكم الرومانية. ومن أشهر كتبه الدفاعية: "the apologetic writings"؛ وفي سنة ١٩٧م، كتب كتابيْن هما: "Apology" و"to the pagans"، ضمنهما موقف المسيحية من الدولة، وموقف الدولة من المسيحية. ولقد خاطب ترتليانوس في كتابيْه الحكام والشعب جميعا، ليبيّن لهم أن لا حق لهم في اضطهاد المسيحيين؛ كما بيّن أن سبب ذلك الاضطهاد هو الجهل وحده؛ لأن المسيحيين لم يكونوا أعداء للدولة ولا للإمبراطور، ولا للجنس البشري...

رجع ترتليانوس إلى بلده، ورُسم كاهنا فيها؛ واحتل مكانة عظيمة في التعليم والإرشاد. فأُسند إليه "التعليم المسيحي"، أي تعليم المسيحيين وغير المسيحيين تعاليم المسيحية. غير أن صلته بالكنيسة الكاثوليكية، قد ساءت، بسبب مساندته لجماعة "المونتانيين"، التي انضم إليها رسميا في سنة ٢٠٧م. ولقد تأثرت هذه الجماعة بترتليانوس، إلى الحد الذي صار معه فيها رئيسا لإحدى فصائلها؛ بل إلى الحد الذي صارت الجماعة تتسمى باسمه، فأصبحوا يُدعون "الترتليانوسيين". ولقد ظلت هذه الجماعة قائمة في قرطاجنة إلى وقت ظهور أغسطينوس. ويُظن أن ترتليانوس لم يمت قبل سنة ٢٢٠م، وقبل أن يُخلِّف تراثا زاخرا، يرى بعض اللاهوتيين معه، أنه إليه يرجع الفضل في تقدم التعاليم اللاهوتية الكريستولوجية الغربية على نظيرتها الشرقية.

ولقد خالف ترتليانوس يوستينوس واكليمندوس كليهما في الموقف من الفلسفة، ورفض المزاوجة بينها وبين المسيحية، واكتفى بالإنجيل والإيمان. ورغم أن موقفه صحيح من الناحية العملية والتربوية التديُّنيّة، فإن موقف سابقيْه، لم يكن لِيُهمَل من الناحية المعرفية. وعلى كل حال، فإن اختلاف وجهات النظر، كثيرا ما يكون سببا في اختلاف الآراء مآلا. وإن لم يكن الناظر من الجامعين بين مختلف الوجوه في نظره، فإنه غالبا ما ينحاز إلى رأي في مقابل آخر، مع أن الأمر أوسع من ذلك بلا شك. وحتى نعلم الفرق بين يوستينوس وترتليانوس، فلنتأمل رأيهما في سقراط: فالأول يصفه بـ "المسيحي"، والثاني يقول عنه "مفسد الشباب". وشتان ما بين القولين!...

ومع أن كتب ترتليانوس كثيرة، وواسعة الأثر على جيله والأجيال التي بعده، فإننا سنكتفي بذكر بعضها بحسب تصنيفها:

الكتب الدفاعية:

– كتابا: "إلى الأمم" و"الدفاع": وقد كتبهما في سنة ١٩٧م، وتناول فيهما الدفاع عن حقوق المسيحيين، ودعوة الحكام الإقليميين إلى المسيحية.

- "خطابه المفتوح إلى اسكابولا" (اسكابولا هو حاكم أفريقيا ما بين ٢١١ و٢١٣م): وقد كان شديدا في اضطهاد المسيحيين. فكان الكتاب دعوة إلى إنصاف المسيحيين وإعطائهم حقوقهم.
- كتاب "ضد اليهود": وقد دفعه إلى كتابة هذا الكتاب، حوار دار بين مسيحي ويهودي يراه هو دخيلا على المسيحية. ولقد كان الممهد للفصل بين اليهود والمسيحيين، فصلا لا وصل معه، بولس ببدعته البعيدة. وترتليانوس، رغم مكانته الشخصية، فإنه لم يكن ليتخلّص من كل موروث بولس؛ بسبب تقديم الكنيسة له، واعتباره رسولا فوق العادة. وهكذا سيبقى بولس حجر عثرة، أمام كل مُقبل على المسيحية، طيلة القرون.

الكتب الجدلية:

- "حق الهراطقة في استعمال الكتاب": يشرح فيه ترتليانوس قانونيا أن الهراطقة لا يملكون حق استعمال الكتاب المقدس. ويجدر التنبيه هنا إلى أن تعريف الهرطقة وأصحابها، قد يختلف فيه الناظرون؛ ما دامت الأمور لا تخرج بالكلية عن الأهواء والعصبيات.
- كتاب "ضد ماركيون": ويُعدّ هذا الكتاب أضخم كتب ترتليانوس وأهمها، لأنه وثيقة تاريخية لدراسة هرطقة ماركيون. وفيه يفند الكاتب الازدواجية بين إله العهد القديم وإله العهد الجديد.
- كتاب "ضد هِرموجين": وهرموجين رسام غنوصي من أهل قرطاجنة، كان يعتقد بأزلية المادة مع الله. وهذه مسألة متجددة في الزمان، بسبب غلبة الحس على جل العقول. ولا أحد أكثر تأثرا بما نقول هنا، في زماننا، من علماء الفيزياء، الذين لا يعلمون من العالم إلا مادته. وإن الرغبة تحدونا، إلى مجادلتهم في نظرياتهم، لنفتح لهم بابا لا طريق لهم إليه، إن شاء الله.
- كتاب "ضد الفالنتينوسيين": وهو نقد لاذع للغنوصية الفالنتينوسية، يقتبس فيه الكاتب كثيرا من آراء إيريناوس ويوستينوس وميلتيادوس.
- كتاب عن العماد: وهو يُعتبر من الوثائق الثمينة التي تتكلم عن لتيرجية العماد وفائدته.
- كتاب عن جسد المسيح: وفيه يُسمِّي جسد المسيح "جسم المسيح" (flesh of christ)، وينتقد المذاهب الغنوصية الأربعة: الماركيونية والأَبليسيّة والبازِليدوسية والفالنتينوسية. ويُثبت ترتليانوس من وراء ذلك أن جسد المسيح كان كأجساد الناس في كل شيء إلا في الخطيئة، كما يرفض مقولة الغنوصيين بأن المسيح وُلد عن طريق العذراء، ويُثبت أنه وُلد منها.
- كتاب قيامة الأجساد: ويتكلم فيه عن الطوائف التي تُنكر قيامة الأجساد كالصدوقيين والهراطقة والوثنيين، ويُثبت أن الله خلق الجسد، وأن المسيح فداه؛ فينبغي أن يُدان (يحاسب) في الآخرة مع الروح (النفس). وهذه العبارة مضطربة، وإن كانت تسعى إلى إثبات حقيقة البعث والحساب.
- كتاب "ضد براكسياس": وكُتب هذا الكتاب ضد عقيدة كانت منتشرة في ذلك الوقت هي "الانتحالية". وتتلخص تعاليم براكسياس التي رد عليها ترتليانوس في: كون الآب هو الذي نزل في بطن مريم ووُلد منها؛ وهو الذي تألم. ويعتبر رد ترتليانوس هذا في غاية الأهمية، لكونه أول كاتب لاتيني يستعمل مصطلح "الثالوث"؛ ولأنه يشرح الوحدة القائمة بين الآب والابن والروح القدس. وهو يُنبه إلى أن هذه الوحدة، قائمة على التميّز لا على الانقسام؛ وهذا يعني لدينا أن ترتليانوس كان يتكلم عن توحيد عقلي بحت، وهو ما يليق بمرتبته. ومع أن ترتليانوس حاول تجنب الوقوع في الهرطقات التي كانت تهدد الكنيسة، فقد مال ميلا قليلا نحو القول بـ "التابعية" (subordinatianism)، عند شرحه لعلاقة الآب بالابن. وهو أمر -على كل حال- لا مندوحة له عنه، بسبب انتهاجه نهج التفسير التسويغي، بدل التفسير العلمي.

- كتاب عن الروح: وهو يُعدّ ثاني أضخم كتبه؛ ويرفض فيه القول بسبق الروح للجسد. ويعتقد بأن كل الأرواح تذهب إلى الهاوية بعد الموت، إلا أرواح الشهداء؛ فهي وحدها التي تذهب مباشرة إلى الفردوس. وأما مسألة سبق الأرواح في الخلق للأجسام، فلها وجهان: الوجه العام: وهو يُعطي سبق الأرواح العلوية في الخلق للأجسام السّفلية؛ والوجه الخاص بالإنسان الشخص: ومن هذا الوجه يكون السبق للأجسام. يقول الله تعالى في هذا المعنى: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} [الحجر: ٢٩]؛ أي: فإذا خلقت جسده، وخلقت روحه (النفخ). فبالنظر إلى الشخص الإنساني، فإن الجسد أب للروح؛ لأنه بسبقه له في التقدير (الخلطة الطينية المخصوصة)، فإنه يكون المؤثر في الروح بما يُخصص النفس. ولنمسك عن هذا الاسترسال، ونعُدْ إلى ما كنا فيه.

كتب عن النظام والآداب والزهد: وهي:

"إلى الشهداء"، "الملاهي"، "زينة النساء"، "الصلاة"، "الصبر"، "التوبة"، "الطهارة"، "غطاء وجه العذارى"، "الهروب أثناء الاضطهاد"، "عبادة الأصنام"، "التواضع".

وأما تعاليم ترتيليانوس فسنخص بالذكر منها مقولاته الكريستولوجية. وكما أن ترتليانوس هو أول لاتيني استعمل مصطلح "تثليث"، فإنه كان أول من استعمل أيضا، مصطلح "PERSONA"، الذي يمكن أن نترجمه بـ "أُقنوم". وسيتردد هذا المصطلح فيما بعد كثيرا، إبان انعقاد المجالس المسكونية، كما لا يخفى. ويعتقد ترتليانوس أن اللوغوس ظهر بالتدريج، وهو يستعمل لفظَيْ "الحكمة" و"الكلمة"، ليجعلهما صفتيْن للأقنوم الثاني؛ ولكنه يُفرق بين الحكمة التي هي قبل الخلق، والكلمة التي هي الخلق. وترتليانوس كسابقيه، لا يعلم معنى "حكمة"، وإن كان يقصد من ورائها صفة "العلم"؛ وهو يعني بكل كلامه هنا: أن اللوغوس له وجود في العلم، ووجود في العين. ثم يقول بعد ذلك بعمل الكلمة "مع الله" في خلق العالم؛ وهذا المعنى شركي، كما هو جليّ. ولو أنه كان يعلم معنى الوِساطة في الخلق، لقال به، ولكان أفضل له. وهذا المعنى، هو المُشار إليه في قول الله تعالى: {مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} [الأحقاف: ٣]؛ ويُعبر أهل الله عنه بمصطلح "الحق المخلوق به". ولا شك أن القارئ قد صار يعلم أن هذا الحق المخلوق به، هو الحقيقة المحمدية، لا غيرها. ودلالة تسمية هذه الحقيقة هنا حقا، هي من أجل اعتبارها مرتبة من مراتب الذات (مرتبة حقّيّة)، وإن كان لها معنى خلقيّ مع ذلك. وقد تكلمنا سابقا عن وجهيْ هذه الحقيقة، فليُرجع إليه في محله.

ويسقط ترتليانوس في ازدواجية الكلي والجزئي، من جهة الجوهر، عند الكلام عن الآب والابن؛ وهذا لا يدل إلا على قصوره من وجهيْن: الأول، هو جهله بمعنى الإطلاق، وقوله في مقابل ذلك بالكليّ؛ والثاني، قوله بالجوهر؛ ولا يعني إلا أنه تحت هيمنة الحس في كل المعاني التي يخوض فيها. والأمران لو أنه كان يعاصر أهل الكمال من المحمديين، يُلزمانه بالصمت وعدم الدخول فيما لا يُحسن؛ ولكن بالنظر إلى مكانته ومكانة معاصريه، فإن ذلك كان أقصى ما يُتوصّل إليه. ونعني من هذا، أن هؤلاء اللاهوتيين، لم يكونوا يعلمون مواطن قصورهم؛ وبالتالي فهم كانوا ينظرون إلى مقارباتهم بوصفها إنجازات يتفاوتون فيها، ولا يقطعون فيها بشيء؛ بسبب عدم الوضوح الملازم للإجمال. والإجمال من هذه المرتبة، هو كإجمال الإجمال لبعده، ولدخول الظلمة على صاحبه، من جهة عقله، ومن جهة اعتقاداته الباطلة، وعلى قدرها.

ويلجأ ترتليانوس عند تعرضه لمعنى البنوة، إلى صورها في الحس: فهو يرى أن الشعاع ابن للشمس، والنهر ابن للمنبع، والفرع ابن للشجرة. ورغم أن هذا المعنى صحيح، لكنه لا يصدُق على الله بالتصور المادي الحسي؛ ونعني: هل يظنّ ترتليانوس وأمثاله أن الابن شيء زائد على الآب، كما هو الشعاع شيء زائد على الشمس؛ أو كما هو النهر زائد على المنبع، أو كما هو الفرع زائد على الجذع؟!... أما من الناحية العقلية، التي سماها ترتليانوس سابقا تميّزا، فنعم؛ وأما من الناحية الوجودية الذاتية، فلا. وهذا التفريق بين الأمريْن، هو ما يُعوز العامة عند خوضهم في المعاني العلوية. وإن

الانطلاق من الحس، مع إيجاد مطابقات أولية للمعنى، لا يخدم المعرفة في شيء؛ إلا إن كان المتكلم يريد الانتهاء إلى الشرك الصريح...

ويسقط ترتليانوس، عند بسطه لقوله في الثالوث، في التلفيق والتكلُّف؛ فهو يُثبت أن الله هو سيد العالم، ولكنه منح سلطانه للابن؛ والابن يتصرف بهذا السلطان بحسب مراد الآب. ولكنه ينسى أنه لا من تمييز بين سلطان الآب وسلطان الابن، وبين إرادة الآب وإرادة الابن، حقيقة؛ فهو كمن يتكلم عن شيء واحد ويعطيه اسمْين وصفتيْن. يقول الله تعالى في هذا المعنى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [الإنسان: ٣٠]. وترتليانوس يجعل الروح القدس ينفذ ما يريده الابن، بالطريقة ذاتها؛ ويحكم بأنه لا صراع في داخل الله، بل انسجام ومحبة؛ وهذا كله تلفيق، كما أسلفنا. وكأنه يعلم أنه ينبغي أن ينتهي إلى التوحيد، لكن لا يعلم طريقا واضحا إليه. وكأنه -مرة أخرى- يريد أن يخالف الوثنيين، الذين كانوا يألفون صراع الآلهة وتعددها، شكليا فحسب. والمسألة ليست بهذه السطحية، حتى يُسلك فيها هذا المسلك. ومما كان لا بد من تمييزه، قبل الخوض في كل هذا، معنى الذات ومعنى الصفة والاسم؛ لأن المُدرَك للخلق هو معاني الأسماء والصفات، لا غير. ومع ذلك، هم يُعاملونها على أنها ذوات متعددة، وأنها مرتبة واحدة من جهة أخرى؛ إن كانوا من أهل التوحيد. ثم بعد ذلك يسعون إلى بلوغ التوحيد الذي دل عليه الأنبياء عليهم السلام (وعيسى منهم)، من غير طريقهم، بل من طريق العقل؛ وهو ما سميناه نحن تفلسفا من داخل الدين. وهذا تناقض بيّن، وتعسير بالغ!... وترتليانوس الذي كان يقول بالفصل بين الدين والفلسفة فصلا تاما، لم يعمل بقوله هو نفسه؛ لأن كل ما أنتجه ليس إلا تفلسفا (فكرا) من داخل المسيحية. وهو إن كان يختلف عن الفلاسفة، فبسبب حصر مجال تفلسفه فحسب؛ وسيكون الفلاسفة الأحقاء بذلك، أوسع منه دائرة؛ أحب أم كره؛ وإن كان هو أعلى منهم مرتبة.

ويدخل بعد ذلك ترتليانوس في مسألة، سيفتح بها بابا للجدل يتسع مع مرور الأيام؛ وهي: طبيعة المسيح. وهل هي سماوية أم أرضية؟ ويعني بالأرضية البشرية، مع كون البشرية في جانب منها سماوية؛ ولكنه لا يميّز هذه الأمور. وتفريقنا بين الإلهي والسماوي واضح؛ لأن السماوات وأهلها مخلوقون لله، والله هو الخالق الغني. وترتليانوس يُسارع -على عادته- إلى الإجابات البسيطة السهلة، والتي تُهدّئ من ثائرة العقول، ولو لفترة؛ فيقول: إن نور الله الذي أخبر عنه الأنبياء الأولون، هو الذي نزل إلى بطن مريم، وصار جسدا؛ وعند الميلاد، وُلد إلها وإنسانا معا. وهنا لا يتمكن ترتليانوس من التمييز بين المعنييْن في المسيح: فهل صار اللوغوس جسدا؟... فيعني ذلك أنه تطور، وانتفت صورته الأولى؛ أم إن اللوغوس لبس الجسد، وبقيت ازدواجيته مستمرة بعد "التجسد"؟... وهو يميل إلى القول الثاني، لأنه يسمي وضع ما بعد التجسد: حالة مزدوجة (double status). ويعني بذلك وجود طبيعتيْن في جسد المسيح: طبيعة إلهية (مع التحفظ على المصطلح)، وطبيعة بشرية؛ وقد احتفظت كل طبيعة بميزاتها. وهذا كله تجديف وخرْص. يقول الله تعالى: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [الأنعام: ١١٦]. ولقد غلط ترتليانوس ومن سار على دربه في أمريْن:

الأول: هو أن ما يُسمّى طبيعة إلهية، ينزل بالحقيقة الإلهية إلى الطبيعة، وإن توهم القائل أنه يُشير إليها في عَليائها. وذلك لأنه في مرتبة الحق، لا ذكر لشيء اسمه "طبيعة". وهذ القول من ترتليانوس يُشبه قول أحد العوام، بعد سماعه لموعظة يبدو أنها أثرت فيه، يُخاطب الواعظ: "لعلّ الله الذي كلمتنا عنه رجلٌ صالح!". وكما أن الله ليس رجلا، فكذلك لا طبيعة له، سبحانه!...

الثاني: هو أن تخصيص عيسى وحده بالحقيقة الإلهية، لا يصح؛ لأن كل الموجودات تُشاركه في هذه الصفة. وما يمتاز به عيسى والربانيون من أمثاله، هو حيازتهم للصورة الإلهية كاملة فحسب؛ بخلاف باقي أجزاء العالم، والذين من ضمنهم بنو

آدم الذين هم بنو آدم بالصورة لا بالحقيقة. وفي مسألة كمال الصورة، جاء قول الله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب: ٧٢]. فالأمانة هنا، هي الصورة الإلهية، وإباية حمل العالم لها، هي قصوره عن حملها؛ بخلاف الإنسان المخلوق عليها. والمقصود من الإنسان، كل من كان على الصورة المحمدية العليا، كعيسى عليه السلام. ومن هذا الوجه، كان كل من حاز الصورة في زمانه بالفعل (لأنه لا يكون عليها بالفعل في العالم إلا واحد)، يُدعى آدم زمانه. ولقد صدق اللاهوتيون الذين رأوا في عيسى آدم، ولكنهم أخطأوا عندما ظنوه آدم الأوحد الآخر؛ بينما هو آدم من ضمن سلسلة من الآدَمِين، الذين يكون أكملهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ ويكون آخرهم، رجل إذا مات، قامت قيامة العالم بموته. وعلى هذا، فإن كلام اللاهوتيين المسيحيين في مسألة الطبيعتيْن الإلهية والبشرية، هو كلام طفولي، لا يرقى إلى مرتبة العلم. ولقد كان على كل هؤلاء الخائضين، قبل خوضهم، أن يعلموا مسائل أولية لا بد من علمها، ومنها: الوجود والعدم، والحق والصورة، والعالم العلوي والطبيعة، والحس والمعنى؛ علما تفصيليا دقيقا، لأن العلم الإجمالي فيها لا يفي بالغرض.

ورغم أن ترتليانوس رام بكلامه في كتبه وفي تعليمه الرد على ما يراه هو هرطقة، فإن كلامه ذاته لا يخلو من هرطقة، وإن كان يبدو أقرب إلى التوفيق بين مختلف المقولات. وعلى كل حال، فإنه يُحسب له أنه مع إثبات ألوهية المسيح، لم ينف بشريته؛ بل أثبتها على الوجه التام، الذي يكون فيه عيسى كسائر الناس. وهذا، على الرغم من عدم تقبل العقل له، من جهة الاستدلال والفكر، فإنه يدل على مستوى إيماني لدى ترتليانوس وطبقته. غير أن هذا الإيمان، مشوب بالنظر العقلي، كما سبق أن ذكرنا؛ وهذا، يحول بينهم وبين الكلام في العقائد، الذي وقعوا فيه من غير أن يشعروا، عندما وجدوا أنفسهم مُضطرّين إلى الرد على المخالفين والدخلاء؛ الذين يتكلمون بعفوية، كما الذين يقصدون هدم العقيدة المسيحية وتشتيت الكنيسة...

٣. أوريجانوس:

تُثبت الوثائق التاريخية أن أوريجانوس المصري، لم يكن وثنيا؛ فقد كان أبوه "ليونيداس"، رجلا تقيا، يعرف الكتب المقدسة؛ وفي الوقت ذاته، كان مثقفا مطلعا على كتابات الوثنيين. وُلد أوريجانوس ليونيداس، حواليْ: ١٨٥م، في الإسكندرية، وقد جرب وهو ابن سبع عشرة سنة، فظاعة اضطهاد "سفريوس" للمسيحيين، سنة ٢٠٢م؛ والتي كان أحد ضحاياها والده ذاته. ولقد كان من توابع مقتل والده، مصادرة أملاك عائلته؛ مما اضطره إلى الترزق من تعليم الأطفال. وبما أن كثيرين من قادة المسيحية ومعلميها، قد فروا من أمام الاضطهاد، ومن بينهم اكليمندوس؛ فقد أصبحت مدرسة الإسكندرية المسيحية، مهددة بالغلق. ولأن مكانة هذه المدرسة، ما كانت لتسمح للمسيحيين بقبول هذه الكارثة، فإن الأسقف "ديمتريوس"، عيّن الشاب أوريجانوس مديرا لها. وتنقسم حياة أوريجانوس التعليمية إلى مرحليتيْن:

<u>المرحلة الأولى:</u>

وتبدأ من سنة ٢٠٣م، عندما كلّفه أسقف الإسكندرية بإدارة المدرسة، وتنتهي في سنة ٢٣١م. ولقد عكف أوريجانوس خلال هذه المرحلة، على تعليم الطبيعة والحساب والفلك والهندسة والفلسفة (اليونانية خاصة)، بالإضافة إلى الكتاب واللاهوت. ولقد أسند في ذلك تدريس المستويات التحضيرية والابتدائية، إلى تلميذه "هراكلاس"؛ ليحتفظ هو بتدريس المستويات العليا من اللاهوت والكتاب المقدس والفلسفة.

ولم يكن أوريجانوس حبيس الإسكندرية ولا رهين مدرسته، بل كان يقوم برحلات بين الفينة والأخرى؛ قادته إحداها إلى روما في سنة ٢١٢م؛ حيث قابل اللاهوتي الشهير "هيبوليتوس"، الذي يُحتمل أنه حاوره في بعض المسائل. وفي سنة ٢١٥م، قام برحلة أخرى هذه المرة إلى الشرق، وإلى العربية تحديدا؛ بطلب من حاكمها الروماني، الذي رجاه أن يحضر

إلى بصرة لتعليمه قليلا عن المسيحية؛ ويُحتمل أن يكون هذا الحاكم "فورينوس جُليانوس". ثم قام برحلة تعليمية أخرى إلى فلسطين، بعد أن كان "كاراكالا"، قد أمر بغلق المدارس فيها وسلبها. فرحب الأساقفة بأوريجانوس، ورجوه أن يلقي المواعظ في كنائسهم، وأن يُعلّم فيها. وعندما علم أسقف الإسكندرية بهذا الأمر، عاتب زملاءه الأساقفة في قيصرية فلسطين، لأنهم سمحوا لعلماني غير مترسّم، بأن يُعلم في حضرتهم؛ وطلب من أوريجانوس العودة فورا إلى الوطن. وأطاع أوريجانوس أمر أسقفه، وعاد يستأنف عمله في الإسكندرية. ولقد ذاع صيت أوريجانوس، ليتجاوز قادة الكنيسة والحكام، وليصل بعد ذلك، إلى أسماع الأباطرة أنفسهم. ومن بعض ما كان من هذا الأمر، أن والدة الإمبراطور "ألكسندر سفريوس" طلبت أن تسمع هذا المعلم المسيحي الإسكندري؛ فحضر أوريجانوس إلى أنطاكيا، محفوفا بالحرس الإمبراطوري. ويُحتمل أن تكون هذه الرحلة، قد تمت في سنة ٢٢٤م؛ كما أرسله الأسقف ديمتريوس إلى بلاد اليونان، لكي يواجه هرطقة ظهرت هناك. وبعد أن أنهى المعلّم مهمته، توقف في طريق عودته بأورشليم من أجل زيارة معارفه. ولما علم بذلك الأساقفة والكهنة والشعب، أرادوا الاستفادة من وجوده؛ ولكن الحائل الذي وقف في وجهه، هو أنه لم يكن كاهنا، كما حدث معه سابقا. ولكي يتجنب ألكسندر أسقف أورشليم وثيوكتيستوس أسقف قيصرية ملامة أسقف الإسكندرية هذه المرة، فقد قاما بـ "سيامة" أوريجانوس كاهنا، حتى يتمكن كل الشعب من سماع وعظه ومن حضور تعليمه. وعندما علم ديمتريوس بسيامة أوريجانوس كاهنا، غضب غضبا شديدا، واعترض على هذه السيامة واعتبرها باطلة. ويبدو أن شهرة التلميذ لم يُطقها أستاذه، الذي عمل على قطعه من عضوية كنيسة الإسكندرية بعد طلبه انعقاد المجمع الخاص بها؛ ثم انعقد مجمع آخر في المدينة نفسها، جرّده من الكهنوت؛ وكان ذلك سنة ٢٣١م. وفي سنة ٢٣٢، عندما خلف هراكلاس أستاذه ديمتريوس على كرسي أسقفية الإسكندرية، ظن أوريجانوس أن بإمكانه الرجوع إلى بلده؛ ولكن هراكلاس جدد حرمانه له، فاضطر إلى أن يعود أدراجه إلى قيصرية.

المرحلة الثانية:

عندما رجع أوريجانوس إلى فلسطين، وجد الكنائس والقلوب مفتوحة في وجهه؛ فطُلب منه زيادة على التعليم هذه المرة، أن يُنشئ مدرسة للاهوت. ولقد تأسست هذه المدرسة، وعلَّم بها أوريجانوس لمدة عشرين سنة، وتخرج منها رجال عديدون نشروا المسيحية في المنطقة. وممن تخرجوا من هذه المدرسة: "غريغوريوس العجائبي" الذي خالف أوريجانوس في بعض العقائد، و"أثندوروس"، و"فرميليانوس". ولقد تعرض المعلم المصري لصنوف من العذاب، إبان الاضطهاد الذي شنه الإمبراطور "دسيوس" (٢٤٩-٢٥١م)، والذي شمل الإمبراطورية كلها. فقد اقتيد المعلم في محنته بالسلاسل، وزُج به في سجن مظلم وكوي بالنار؛ وكانت غاية القاضي إبقاءه حيا لإطالة عذابه. ولقد كان لهذه العذابات أثرها على صحة المعلم، الذي ما لبث أن مات بعد خروجه من السجن بصور، ودُفن فيها سنة ٢٥٣م.

ولقد كان أوريجانوس غزير الكتابة، إلى الحد الذي يبلغ معه عدد كتبه المعروفة ثمانمائة كتاب، عدّها "جيروم" في كتابه إلى "بولا". والسبب في بلوغ الكتب هذا العدد الضخم، هو أنه كان لأوريجانوس صديق اعتنق المسيحية على يديه، بعد أن ترك الغنوصية. ولقد كان هذا الصديق غنيا، فاستأجر سبعة من أسرع الكَتَبة، وطلب منهم أن يُدوّنوا كل عظات المعلم ودروسه؛ فكانت النتيجة هذه الكتب كلها. ويُعدّ أوريجانوس مع ذلك، أعظم مفسر للكتاب المقدس إلى زمانه؛ ومن أهم إنجازاته:

١. الكسابلا (sixfold bible): أي الكتاب المقدس ذو الأعمدة الستة؛ فوضع في العمود الأول النص العبري بأحرف عبرية، وفي العمود الثاني النصَّ نفسه بحروف يونانية، وفي الثالث يذكر الترجمة اليونانية التي قام بها "أكيلا" اليهودي، وفي

الرابع الترجمة اليونانية التي وضعها "سيماك"، وفي الخامس وضع الترجمة السبعينية، وفي السادس وضع ترجمة "ثيودوثيانوس" اليهودي، والتي أنجزها عام ١٨٠م. ولم يبق من هذا الكتاب، إلا نصوص معدودة.

ب. تفسير لكل أسفار الكتاب المقدس: وكحال الكتاب الأول، فإن هذا الكتاب أيضا، لم يبق منه إلا أجزاء متفرقة.

ج. وأهم ما كتب أوريجانوس في الدفاع، كتابه ضد سلس، ثم أربعة كتب عقديّة.

د. أهم كتب العقائد لديه "المبادئ الأولى": وهذا الكتاب يكاد يكون الكتاب الأول الذي تُشرح فيه العقيدة اللاهوتية، بطريقة نظامية متسلسلة؛ وهو أربعة مجلدات: الأول، ويتناول فيه العالم غير الطبيعي، ووحدة الله والثالوث. والثاني، وهو خاص بالعالم الطبيعي والإنسان، والسقوط والفداء والقيامة والدينونة. وأما الثالث فيتكلم فيه عن اتحاد الجسد بالروح، وعن الصراع بينهما. وفي الرابع يعرض لمشكلة الكتب المقدسة.

هـ. لقد كشفت الأبحاث التي أُجريت في طُرة سنة ١٩٤١م، عن كتاب يحتوي على حوار دار بين أوريجانوس وهراقليطوس في بصرة في العربية، عندما دعاه إخوة الكنيسة لرد هيراقليطوس إلى الصواب؛ وكان موضوع الحوار الثالوث.

أما تعاليم أوريجانوس الكريستولوجية، فتتلخص في استعماله لمصطلح جديد هو "الله الإنسان"، ليدل على أن الله لم يكن الله فقط، بل كان إنسانا أيضا. وهذا الاسم المركب، رغم ما سيجره على أوريجانوس من انتقادات، إلا أنه يدل على معنى يعود إلى الحقيقة المحمدية بوصفها حقا متجليّا في الصورة. وقد تكلمنا نحن أيضا في بعض كتاباتنا، عن الاسم المركب الوارد في القرآن، والذي هو "الله ورسوله"، وأشرنا إلى أنه اسم للحقيقة المحمدية. وما عناه أوريجانوس بأن الله لم يكن الله فقط، هو ما عبر عنه بعض أهل الله بأن الحضرة المحمدية أوسع من حضرة الله. ومن كان يعلم مناط الوجود والعدم في هذه الحقيقة، سيعلم بمَ تتعلّق السعة المذكورة. وذلك لأن أخذ الكلام على ظاهره، لا شك هو كفر، ينبغي أن يحترز المؤمنون منه.

ولقد كان أوريجانوس -بخلاف اكليمندوس ويوستينوس- يُرجع كل شيء إلى الله، لا إلى اللوغوس. فهو يؤكد بأن الله هو الأول، وهو الخالق، وإن كان خلقه بواسطة الكلمة. وهذا لا ينبغي أن يكون محل خلاف، ما دامت الكلمة (اللوغوس) لا وجود لها من نفسها، بل هي مخلوقة لله، وما دام الله هو الوجود الحق الغني بذاته عن جميع خلقه. غير أن أوريجانوس لا يرى أن العالم الذي خلقه الله، هو هذا العالم المشهود؛ بل يرى أنه عالمان: الأرواح (الملائكة)، وإن كان لا يُدركها على حقيقتها؛ والمادة (الطبيعة)، ويرى أنها كانت لطيفة وشفافة في بدايتها. وإيال المادة إلى الشر، يراه أوريجانوس عائدا إلى اختيار الأرواح، التي كانت حرة في الترجيح بين الخير والشر. ويجعل أوريجانوس الأرواح العاصية لله، صنفا من الملائكة، اختار الشر، وسكن في نهاية أمره في الأماكن الضيقة والنجسة. ونرى هنا خلطا لدى أوريجانوس في أصل الملائكة، الذين يقول الله تعالى عنهم: {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: ٦]؛ فهو لا يميّزهم عن الشياطين التي تكون من الجن (العنصر الناري). ولا بد أن هذا الخلط، قد دخل على أوريجانوس لكون الملائكة والجن جميعا من عالم الغيب (من وراء المادة المشهودة)؛ وهو ما أدى به إلى اعتبارهم صنفا واحدا. والحقيقة هي أن الملائكة بما هم وسائط للأسماء الإلهية، فإنهم مجبولون على الطاعة، وغير مكلفين بالمعنى الشرعي؛ وأما الشيطان الذي عصى وسنّ المعصية لشطر من بنيه، فجنسه مكلف كما هم الآدميون مكلفون، لا فرق. وإن العلم بهذه المسألة قليل في اليهود والنصارى، وقد قصُروا عنها وخلطوا؛ وكانت نتيجة خلطهم القول بأحكام لا تصح، واعتقاد اعتقادات شِركية مخالفة للدين. وأما مسألة الشر التي حيرت الأولين والآخرين، فلعلنا نعود إليها في موضع آخر من هذا الكتاب، لنميط عنها اللثام، بما يشفي ويكفي بإذن الله. وهذا، لأننا لا نريد أن نستبق تطور العقائد، ونشوء الجدليات؛ فنحن سنتكلم على قدر المسائل المعروضة في الزمن المخصوص، أو من الشخص المخصوص.

ويجد أوريجانوس أن جنس البشر، يأتي بين جنسيْ الملائكة والشياطين (مع خلطه بينهم)؛ ويقول عنه إنه لم "يتحد بالله" كالملائكة، ولا ناصبه العداء كالشياطين؛ ولكن انطوى على نفسه محبا لذاته، وهذا هو السقوط البشري في نظره. ولا يخفى أن هذه النظرة إلى هذه العوالم، بدائية ومبسّطة تبسيطا مخلا؛ لأن أوريجانوس، لا يعلم أنها كلها قائمة بالله؛ وأن الاتحاد الذي يراه للملائكة ليس كما يُدرِك؛ ولا معاداة الشياطين لله هي على ما يفهم؛ كما أن حال البشر ليس على ما وصف، وإن كان وصفه لا يخلو من وجه حق. وإن الانبهام الذي وقع لديه، قد بدأ مع عدم العلم بحقيقة الخلق؛ لأنه يظهر أن أوريجانوس، وكثيرين غيره، يرون أن الخلق مستقل بوجوده عن الله؛ وهذا غلط. لكن العلم بحقيقة ما الأمر عليه، لا يُنال من طريق العقل، كما سبق أن كررنا؛ ولكن يُنال من طريق الكشف الإلهي. والمسيحيون، لم تكن لهم قدم في الكشف المنزّه عن الفكر؛ فلهذا وقعوا في هذه الاضطرابات والتعقيدات.

ويرى أوريجانوس أن سقوط النفوس البشرية ليس جماعيا منوطا بالجنس؛ وإنما هو سقوط فردي، استوجب أن تسكن أرواح الأفراد الساقطين، هذه الأجساد الطبيعية عقوبة لها. وهو من غير شك يخلط هنا، لأن الجنس البشري مختلف عن جنس الملائكة من جهة التكليف كما سبق أن بيّنّا. بالإضافة إلى أن نزول الأرواح الآدمية إلى تدبير الأجساد في العالم السفلي، لم يكن عقابا لها؛ وإنما هو إكمال لدائرة الخلق. والإنسان لم يكن آخر المخلوقات وجودا، إلا ليختم الله به الدائرة التي بدأت بخلق الحقيقة المحمدية (الكلمة أو العقل الأول). فهذه الحقيقة ذروة القوس العلوي من العالم (ما سوى الله)، والإنسان الآدمي هو حضيض القوس السفلي. يقول الله تعالى عن نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم، الذي هو حقيقة الذروة والحضيض: {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ} [النجم: ٨، ٩]. وأما الألوهية الباطنة في المظهريْن، فعنها يقول الله: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ} [الزخرف: ٨٤]. ويقول عنها الحديث النبوي: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّكُمْ دَلَّيْتُمْ رَجُلًا بِحَبْلٍ إِلَى الْأَرْضِ السُّفْلَى، لَهَبَطَ عَلَى اللَّهِ!»[١]. وقد يستشكل هذا الحديث من كان لا يعلم من العوالم إلا عالم الطبيعة، فيظن أن الله منزه عن مثل هذا الوصف؛ ولكن الأمر هنا، كما ذكرنا في فصل سابق عن الظهور والبطون وعن الجلال والجمال، من أنهما ينتهي أحدهما إلى الآخر دوريا، بعد مجاوزة الحد. والأمر هنا متعلق بالعلو الذي كان منسوبا إلى عالم الأرواح، والسفل الذي هو من صفات عالم الأجساد. ونعني من هذا أننا إذا نزلنا إلى أسفل السفل، فإننا سنصل إلى أعلى العلو؛ ومنتهى العلو لا يكون إلا لله من جهة المرتبة، لذلك يكون أسفل السفل له أيضا. لكن هذه المعرفة السفلية، من أغمض المعارف، بسبب وقوعها في مقابل التنزيه العقلي. ومن هنا تظهر أهمية التخلّص من هيمنة العقل في مجال المعرفة، لأنه لا يدل إلا على شطر منها، وعلى قصور.

ويلجأ أوريجانوس في أثناء شرحه لعملية "التجسد"، إلى القول بتوسط الروح البشري بين الله والجسد، بما أنه من المحال اتحاد الله بالجسد مباشرة. وهذا لغو من القول، وتنظير لا يدل إلا على عدم إدراك القائل لما يخوض فيه؛ وإن كان للكلام وجه حق كالمعتاد. وينفرد أوريجانوس بالقول باتحاد اللوغوس وروحه البشرية بعد الخلق مباشرة، وأثناء السقوط؛ أي قبل التجسد؛ لأن الله دعا كل الأرواح المخلوقة، مباشرة بعد الخلق، إلى الاتحاد به سبحانه. وهذا التنظير ينطوي على أغلاط منها:

١. أن الله لم يتجسّد، وإنما خلق جسدا. وفي تناول هذه المسألة مستويان: الأول: المستوى الخلقي، حيث لا يُقال إلا بخلق الله للجسد؛ والثاني: المستوى الحقي، ومنه يمكن القول بأن الله تجلى في الصورة. فالتجلي هو الخلق منسوبا إلى الحق، والخلق هو التجلي منسوبا إلى الحق.

---

[١] . أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ب. أن معنى السقوط، النزول. يقول الله تعالى: {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} [طه: ١٢٣]. والصعود في مقابل ذلك أوبة إلى الله، بعد الابتلاء التكليفي. يقول الله عقب قوله السابق: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [طه: ١٢٣، ١٢٤]. وهذا يعني أن النزول وإن كان ظاهره يوحي بالتسافل حسا ومعنى، فإن باطنه يؤسس للخلافة في الأرض، التي هي المرادة بقوله تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ} [الزخرف: ٨٤].

ج. أن الله لما خلق الأرواح، أخذ عليها ميثاق العبودية، ولم يدعُها إلى الاتحاد به؛ لأن المخلوق لا يتحد بالخالق، ولا يصح له ذلك. يقول الله تعالى في هذا المعنى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ . وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٤]. والرجوع المقصود هنا، هو الرجوع إلى الحقيقة، لا إلى الاتحاد بالحق. ورغم أن النصارى بكلامهم عن الاتحاد بالله، يتوهمون أنهم يتكلمون في مستوى علوي لا يبلغه غيرهم، إلا أنهم يدلون بذلك على جهلهم بالحق وبالحقائق. ونعني من هذا، أنه كَمْ من تسافُل هو تعالٍ، وكم من تعال هو تسافل؛ والحكم هنا ليس للعقل، بل لربه سبحانه.

ويُكمل أوريجانوس تنظيره، بإخباره عن روح واحدة لم تقبل السقوط، وبقيت ملتصقة باللوغوس في العالم السماوي؛ وهذه الروح، هي الروح العيسوية، التي كانت واسطة بين الله والجسد؛ ولذلك كانت معصومة عن الخطأ والخطيئة. ويجعل أوريجانوس اللوغوس عاملا في جسد عيسى عن طريق روحه المطيع المحب، ليُرقيه ويسمو به. وهنا يقع أوريجانوس في تناقض سببه الجهل، وهو: جعله عيسى محتاجا لأن يترقى، وهو خُلق كاملا، ومؤهلا لحمل الصورة الإلهية. وهو بهذا غني عن الترقي الإيماني الذي كان يدعو أتباعه إليه. وأما ترقيه في الحق، فهو ثابت دائما من وجه يخصه هو، ومن هم على شاكلته من الأنبياء عليهم السلام. بل إن نبينا وهو أفضل الأنبياء، صلى الله عليه وآله وسلم، لا يستغني عن هذا الترقي الخاص. وهذا هو ما دله عليه ربه، عند أمره له بقوله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: ١١٤]. والعلم هنا، بخلاف ما يفهمه القاصرون، هو العلم بالحق حصرا؛ وهذا، لأن الحق لا يُحاط به، ولا نهاية للعلم به. ومع أن أوريجانوس، لم يكن يعلم حقيقة عيسى كما هي في نفسها، إلا أن ما قال به، ليس باطلا من كل وجه. ولو أنه استعمل مصطلح النفس بدل الروح في المحل اللائق، لكان أقرب إلى الحق. ولا شك أن أوريجانوس، كانت له نفحات من الروح القدس، من دونها لم يكن ليُقارب ما تكلم فيه. ولما تعالى أوريجانوس في شرحه لـ "التجسد"، فإنه اتُّهم بالميل إلى تأليه جسد المسيح، على غرار ما اتُّهم به اكليمندوس؛ وهو ما عُدّ غنوصية مسيحية في مقابل الغنوصية الوثنية. والأمر على غير ما قيل، بل هو إدراك منه لحقيقة الجسد والروح معا، من وراء حجابيْهما؛ وهو أمر يُحسب له، لا عليه.

ويظهر من الكلام السابق، حذر الكنيسة من مقولات أوريجانوس، التي رأتها تشي بوجود هرطقة لديه، تمكن من إخفائها بإحسانه لتوظيف العبارات. ويؤاخذ أوريجانوس الشرقي، على أنه بالغ في تأليه المسيح، إلى الحد الذي خيف معه على ناسوته من الفناء. والحقيقة هي أن أوريجانوس دل على التوحيد، الذي لم تحتمله الكنيسة الغربية المعتادة على الشرك. ونعني أن إثبات الروح وإثبات الجسد على درجة واحدة، ليس إلا قولا بالثنوية، التي هي انعكاس للقول بإلهين: إله للخير وآخر للشر. وأوريجانوس، من دون أن يصرح، قد بدأ يُجيب عن سؤال الشر الشائك؛ والذي وعدنا نحن بتناوله عندما يحين حينه.

وأما فيما يعود إلى مكانة الابن (اللوغوس) من الآب، فإن أوريجانوس يخلط: فهو أولا لا يُفرّق بين التراتب العائد إلى المرتبة، وذاك العائد إلى الزمان؛ فيقول بأزلية الابن، ويسقط من دون أن يشعر في القول بالتكثر الذاتي، الذي هو

محال. ثم هو يحدد مكانة الابن في نظر الآب، فيقول: الابن هو الحق في نظر (عِلم) الآب. ثم يقول مخالفا لذلك بأن الابن هو صورة الله غير المنظورة، وهو أيضا حكمة الله. وهذا كله جهل بالمتكلَّم فيه. ويبدو من هذا، أن أوريجانوس يُخالف أريوس الذي قال فيما بعد بوجود فاصل زماني بين الآب والابن؛ ويخالف أيضا القول بعقيدة التبني التي يكون المسيح بها ابنا لا بالطبيعة (!). وكما يظهر من هذا الخلط المركب، فإن التفريق بين الكلمة (الحقيقة المحمدية) والحق، هو بالمرتبة، كما سبق أن ذكرنا مرارا. وإخواننا المسيحيون، مهما تطاولوا، فإنهم لم يبلغوا علم مسألة المراتب؛ شأنهم في ذلك شأن عوام المسلمين. وكل من لا يعلم المراتب، فلا يمكنه أبدا الخروج مما ذُكر بشيء معتبر.

ولقد انفرد أوريجانوس بصياغة اصطلاح يُفيد بأن الابن لا يخالف الآب من حيث الطبيعة، هو "أموزيوس"؛ الذي سيتأكد في تاريخ العقائد المسيحية كلها، خصوصا في مجمع نيقية، سنة ٣٢٥م. ولقد سبق لنا نحن أن رددنا جواز نسبة الطبيعة إلى الله من الأصل، وقلنا إن ذلك هو من الدلائل البيّنة على القصور في معرفة الله، لدى القائل به.

وإن كان أوريجانوس يُعد مطورا للعقائد المسيحية، بإلباسها عبارات ومصطلحات لم يكن الأقدمون قد قالوا بها؛ فنحن نراه على مكانته من عموم المعلمين، قد تقدّم في طريق التنظير للأيديولوجيا المسيحية فحسب؛ ولم يتجاوز -بل لم يُدانِ- في المعرفة أفرادا من سابقيه كـ "يوستينوس" و"اكليمندوس". ورغم التنظير الذي نزل به عن مرتبة هذيْن على الخصوص، فإن أوريجانوس يبقى أقرب إلى طريقهما، مما ابتدعه بولس وأكده ماركيون.

ومع هذا، فإن أوريجانوس لم يسلم من تهمة القول بـ "التابعية" (تابعية الابن للآب التي ترفضها الكنيسة)؛ واختلف في ذلك الدارسون بين متهم ومبرئ؛ ولكن هذا إن دل على شيء، فإنه يدل على أنه لم يكن يقول بالاتحاد المطلق، وأنه حافظ على وحدة الألوهية إلى حد ما. ويُبعِد أوريجانوس أيضا، عند قوله بتقدم الخلاص على العالم، وبأن الخلاص متاح للشياطين أيضا؛ وإن كان لا يعلم حقيقة الشياطين، كما سبق أن بيّنا. لكن، رغم ذلك، يبقى قوله بابا من ضرب الإطلال على معنى ذاتي مجهول، لا يقول به أحد وإن عُلم؛ لأنه يُفضي إلى انهيار العلم وفناء كل المعلومات. وهو أمر مخالف للواقع، ولِما هو من الجود الإلهي العام. وكأن أوريجانوس تفطن إلى نتيجة ما يذهب إليه، فعمد إلى القول بالدوْر؛ أي بخلق عالم جديد ثم بسقوط ثم بفداء ثم بخلاص، وهكذا دواليك. وهو يُشبه في تنظيره هذا، ما يقول به أهل التناسخ في الفلسفات الشرقية. وفي الغالب لا يُقال بالدور، إلا تفاديا للقول بالتناهي؛ وهو معنى صحيح، من غير هذا الوجه. ولو أن هؤلاء القائلين علموا أن الآخرة عالم خالد واسع، مخالف لما يعلمونه من شأن الدنيا الضيقة المحدودة، لكُفوا تكلف القول بالدوْر، كما هو واضح.

وبعد موت أوريجانوس -وبسبب تأثيره على عقائد مَن بعده- قد قامت "المجادلات الأوريجانوسية" المعروفة من تاريخ المسيحية، بين مؤيديه ومعارضيه. ولقد كان من أبرز معارضيه: "متوداوس" الفيلبي، و"بطرس" الإسكندري؛ وأما موالوه فكان من بينهم: "بامفيلوس" القيصري. ثم جاء بعد ذلك "إيبفانس" السلاميني (٤٠٠م)، و"ثيوفيلوس" بطريرك الإسكندرية، لمهاجمة عقائده ولإصدار قرار سنودسي ضدها. على أن السنودس (المجمع)، الذي عُقد في القسطنطينية عام ٥٤٣م، قد أصدر قرارا بخمسة عشر حرمانا على بعض تعاليم أوريجانوس؛ ووقّع هذه الحرماناتِ البابا "فيجل" وكل البطاركة. وبالرغم من ذلك كله، فلقد ظل أوريجانوس مؤثرا في الكنيسة الأولى وفي كثير من الآباء والمعلمين. وليس ذلك من فراغ، ولكن من المكانة التي تكلم منها، رغم أنه لم يبلغ صريح العلم في المسائل التي تناولها.

٤ . هيبوليتوس:

بعد أن مررنا بشخصيات مسيحية شرقية، أسست علم اللاهوت وعلّمته، سنبدأ الآن في تناول نشاط الكنيسة الغربية الرومانية؛ والتي يُعد هيبوليتوس أول معلم فيها مع بداية القرن الثالث. ولكن رغم عَدّه معلما غربيا، فإن المؤرخين

المسيحيين يرونه شرقيا، بسبب إتقانه للفلسفة اليونانية واطّلاعه على العقائد المسيحية الشرقية، الإسكندرية منها على الخصوص؛ كما يُعتبر آخر مسيحي روماني، كتب باليونانية. ويُحتمل أن يكون هيبوليتوس قد وُلد في سردينيا، ما بين سنتيْ ١٧٠ و١٧٥م، وقد رسم فيما بعد كاهنا في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وأما تلمذته، فكانت لـ "إيريناوس" اليوناني، كما يُحتمل أنه التقى أوريجانوس وحاوره، عند زيارة هذا الأخير لروما سنة ٢١٢م.

ومما يُعرف لهيبوليتوس أنه قام للبابا "كاليستوس"، متهما إياه بالسابلينية، عندما سهل أمر العودة إلى المسيحية على من فارقها بسبب الاضطهاد أو بغيره. وبسبب هذا الموقف، التف حول هيبوليتوس عدد من أفراد كنيسة روما، وانفصلوا عنها مُتَّخِذِينَ إياه أسقفا. فأصبح بهذا هيبوليتوس، أول مَن سيُسمَّوْن في التراث الكنسي "أضداد البابا" (antipopes). وقد استمر هذا الانقسام في الكنيسة الرومانية في عهد البابا "أُربانيوس" (٢٢٣-٢٣٠م)، والبابا "بونتينوس" (٢٣٠-٢٣٥م). وظل الخلاف قائما، إلى أن قابل هيبوليتوس البابا بونتينوس في سردينيا في المنفى، حيث يبدو أنهما تصالحا. وفي سبتمبر من سنة ٢٣٥م، استقال البابا بونتينوس من منصبه، وتنازل هيبوليتوس أيضا عن منصبه وعن مواقفه؛ وهكذا عادت الكنيسة الرومانية إلى الوحدة التي كانت عليها في سابق عهدها، وانتُخب "أَنتِروس" بابا جديدا لها.

ومع أن كتابات هيبوليتوس كانت كثيرة، إلا أنها كغيرها من كتب المعلمين، آلت إلى الضياع، ولم يبق منها إلا القليل؛ خصوصا ما كان باللغة اليونانية:

– وأهم ما كتب هذا المعلم الروماني، مجموعة من عشرة كتب عنوانها "رفض كل الهرطقات"، التي ضاع منها الكتابان الثاني والثالث. أما بقية هذه المجموعة، فقد اكتشفها "منواد ميناس" سنة ١٨٤٢م، مكتوبة باليونانية في أسلوب القرن الرابع عشر. وعندما قام "ميلر" بطباعتها في سنة ١٨٥١م، نسبها إلى أوريجانوس. وهو الأمر الذي استدركه "دنكر" في الطبعة التي أنجزها في سنة ١٨٥٩م.

– وقد كتب هيبوليتوس كتابا آخر عنوانه "ضد المسيح" (Antichrist)؛ وهو الكتاب العقدي الوحيد الذي وصل إلى المتأخرين كاملا. ويتكلم فيه هيبوليتوس عن المسيح الدجال، وعن أوان ظهوره. والعلم بالمسيح الدجال، هو داخل ضمن العلم بالمسيح؛ لأن هذا المخلوق الشرير، سيرغب في الظهور بصفة المسيح الحق، من أجل إضلال أكبر عدد من الناس. وهو لا شك من أكبر خلفاء الشيطان، الذين سيظهرون في التاريخ؛ ولكن نهايته قد جعلها الله على يد ابن مريم قتلا، ليُخلِّص البشرية من شره وضلاله. وفتنة الدجال من أكبر الفتن التي حذَّر كل الأنبياء منها أقوامهم، وكان آخرهم تحذيرا، محمد صلى الله عليه وآله وسلم. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الْأَعْوَرَ الْكَذَّابَ!»[1]

– وكتب هيبوليتوس عدة كتب في تفسير العهديْن، واتبع فيها الطريقة المجازية نفسها التي سلكها معلم الإسكندرية.

– ثم يأتي كتابه عن الفصح: وقد كتبه حوالي سنة ٢٢٠م.

– ثم عظات وتعاليم ضد الهرطقة.

– ثم كتاب ضد اليهود.

– ثم كتاب التقليد الرسولي: وهو كتاب يصف النظام في الكنيسة القديمة.

وأما تعاليم هيبوليتوس الكريستولوجية، فتتمحور حول نظرية اللوغوس، التي انفرد فيها عن غيره بقوله بالتطور. والتطور في رأيه كان على ثلاث مراحل:

---

[1] . متفق عليه، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

الأولى: كان الله وحيدا، ولكن اللوغوس كان فيه فكرا (سبحانه). ويتضح من هذا الكلام، أن هيبوليتوس يجهل معنى مرتبة الأحدية من جهة، ويجهل معنى بطون الصفات في الذات. وأما الفكر، كما سبق أن نبهنا، فلا تصح نسبته إلى الله؛ ولا يجوز قياسه تعالى فيه على خلقه. ويؤكد هيبوليتوس: بما أن اللوغوس كان "باطنا" (المصطلح من عندنا) في الله (الذات الأحدية)، فإنه مساوٍ له في الأزلية. وهذا المعنى صحيح، لكن لا ينبغي أن يُذكر فيه اللوغوس؛ لأنه لم يخرج إلى الظهور بعد.

الثانية: يقول هيبوليتوس بإخراج الله للوغوس (نطقه به)، وكان انبثاق اللوغوس عن الله كانبثاق النور عن النور. وفي هذه المرحلة الأولى صار اللوغوس مشهودا لله، وأما بعد الخلق، فإنه أصبح مشهودا أيضا للخلائق. ويجعل هيبوليتوس اللوغوس مدبرا لعالم الخلق، منفذا لإرادة الله. وكحاله مع المرحلة الأولى، فإنه لا يُحسن التعبير عن المعاني؛ لأن تدبير العالم، لا يكون عن اللوغوس من جهة وصفه بالمخلوق، وإنما من وجه الحق الذي ظهر به؛ وليس ذلك إلا لمرتبة الألوهية. ونعني من هذا، أن ظهور مرتبة الألوهية، كان من الحقيقة المحمدية، بوصفها ذاتا متعيّنة؛ لأن الألوهية تعيّن ثانٍ (من مرتبة الصفات) في التعيّن الأول الذاتي؛ أو هي مرتبة التعيّن الأول. ولقد أحسن هيبوليتوس بذكره لنطق الله باللوغوس، وإن كان الكلام الإلهي لن يصدر إلا عن الحقيقة المحمدية (اللوغوس) من الاسم الرحمن، لا من غيره. ولكن معنى الكلام الإجمالي حاضر في خلق العقل الأول، من غير شك؛ لكن من وجه مخلوقيته، لا من الوجه المقابل. وهذا حتى لا نقع في التناقض، ونقول بخلق الحق لنفسه، كما يقول بذلك بعض الحمقى. ويُسمّي هيبوليتوس هذه المرحلة التي يظهر فيها اللوغوس بغير جسد "اللوغوس أساركوس" (LOGOS ASARKOS).

الثالثة: وهذه المرحلة عند هيبوليتوس، هي عندما يأمر الله اللوغوس بمشاركة الأجساد حياتهم (ظهور الحقيقة في المظاهر) (LOGOS-SARX). وعلى خلاف ما يفهم هيبوليتوس، فإن أول ظهور للوغوس، كان مع آدم عليه السلام، الخليفة الإلهي الأول. وهكذا يكون عيسى أحد هذه المظاهر، لا أوحدها؛ ويكون أكمل المظاهر المظهرُ المحمدي، من كونه المطابق على التمام للحقيقة. وأما آخر هذه المظاهر، فإنه يكون الغوث الذي تقوم بعد موته الساعةُ، من الورثة المحمديين. وذلك، لأنه بعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، تكون مرتبة الخلافة لورثته من أمته، لا من خارجها. ونعني من هذا، أن ما يروم المسيحيون مقاربته من جهة العلم، هو موجود لدى الأمة المحمدية من جهة المرتبة والعين.

ويسقط هيبوليتوس في ثنائية اللوغوس والجسد، كما سقط غيره، ويقول بالطبيعتيْن في المسيح، كما قال غيره. وهو وإن كان بنظرية التطور هاته، قد أراد تفنيد نظرية "الموداليسم" (MODALISM) التي تقوم على اختلاف الأقانيم الثلاثة فيما بينها، وتقول بأن الله في مرحلة الآب، هو الابن ذاته في مرحلة التجسد، وهو الروح القدس أيضا في مرحلة الخمسين يوما (بعد القيامة المزعومة) ومرحلة تأسيس الكنيسة؛ فإنه يُشدد على أن الله ليس الابن، وأن الابن ليس هو الروح القدس. وعندما سلك هيبوليتوس طريقه الفكري، فإنه لم يقع في معارضة نظرية "الموداليسم" وحدها؛ ولكنه وقع في معارضة "زيفرنيوس" ثم البابا "كاليستوس"، اللذيْن كانا يُدافعان عن الإيمان البسيط التقليدي. والخطأ الأول الذي يُنسب إلى هيبوليتوس، هو القول بالتطور في شخص اللوغوس. فهو يُقدم اللوغوس في البداية بوصفه فكرا لله، وهذا الفكر يتطور إلى حقيقة خارجة عن الله (بحسبه)، ثم يتطور إلى جسد فيما بعد. فهو مع إثباته لأزلية اللوغوس، يقول بالتطور في اللاهوت نفسه. والخطأ الثاني الذي يُنسب إلى هيبوليتوس، هو قوله بأن انبثاق الابن عن الله، كان عملية حرة من الله، لا تطورا حتميا وعضويا. وأما نحن فنرى المعترضين على هيبوليتوس، هم من لم يتمكنوا من إدراك أقواله. فبالنظر إلى الخطأ الأول، فإن هيبوليتوس يُثبت به المراتب، وإن كان لا يتمكن من تبيُّن معنى المرتبة حقيقة، ولا يُحسن التعبير عنه. وبالنظر إلى الخطأ الثاني، فإن هيبوليتوس كان محقا في كلامه الذي يُشير فيه إلى المشيئة الإلهية الحاكمة على كل مخلوق. ولو لم

يشأ الله خلق الحقيقة المحمدية، ولا خلْق العالم من بعدها، ومن ضمنه عيسى وغيره؛ لكان له ذلك سبحانه. ولكنه اختار بمحض مشيئته أن يخلق الخلق، وأن يجعل ذلك عبر مراتب وجودية تتدرج من الأعلى إلى الأدنى، فضلا منه ومنّة. وإلى هذا المعنى يُشير قول الله تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [المائدة: ١٧]. ومعنى قول إن الله هو المسيح ابن مريم هنا، هو أن وجوده حتميّ؛ والأمر على غير ذلك، منوط بالمشيئة كما ذكرنا. ومن هذا الباب كل قول في القرآن يتضمن عبارة "ولو شاء الله ما..."، كما في قوله سبحانه: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ} [البقرة: ٢٠]، وقوله: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ} [البقرة: ٢٥٣]، وقوله: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ} [النساء: ٩٠]، وقوله: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} [المائدة: ٤٨]، وقوله: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا} [الأنعام: ١٠٧]، وقوله أيضا: {وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا} [الفرقان: ٤٥]. وهذا يُظهر مدى عودة المظاهر من جميع مراتبها، إلى المشيئة، الذي يُبطل القول بالحتمية الذاتية (العضوية). ويقاطع هيبوليتوس ترتليانوس، عند قوله بأن اللوغوس ليس إلها ثانيا، وإنما الله إله واحد؛ وهو ما جعل البعض ينسبونه إلى القول بالتابعية. ولو علم معارضوه، لقالوا بقوله، لأنه أقرب إلى الحقيقة؛ وإن كنا نحن نعدل عن مصطلح التابعية، إلى مصطلح الفقر الذاتي، الذي هو في مقابل الغنى الذاتي. ولا يخفى الاضطراب الشديد في أقوال هيبوليتوس، بسبب تناوله للحقيقة وهو دونها في المرتبة. ولكنه مع ذلك، قد قاربها مقاربة تجعله يلحق بكبار اللاهوتيين المسيحيين.

وأما عقيدة هيبوليتوس في الخلاص، فإنها لا تختلف عن غيره؛ ونعني أنها تلفيقية لا أساس لها من العلم. ولعله يمكننا أن نقسم بحسب ذلك اللاهوت المسيحي إلى شطريْن: شطر متعلق بالله وتجليه في الإنسان (المسيح لدى المسيحيين)، وشطر بالعودة إلى الله والترقي في سلّم الدين، عن طريق الإيمان والعمل الصالح. وعقيدة الخلاص -وإن كانت باطلة- فهي تتعلق بالشطر التديُّني من المسيحية. وهذا الذي نقوله هنا، يشترك فيه كل المعلمين وإن لم يقولوا بالتقسيم الذي أثبتناه نحن. ولعلهم في ذلك، كانوا يخافون من تقسيم العقيدة إلى قسميْن، فيُمكن التحلل من أحدهما متى أُريد ذلك، مع الهرطقات المتتالية في الظهور. ولعلنا سنعود إلى مسألة "الخلاص" مرة أخرى، لبسط القول فيها، ولِردّ عباراتها إلى ما هو جائز شرعا.

وفي آخر الكلام عن هيبوليتوس، لا بد من أن نذكر أنه انفصل عن الكنيسة الكاثوليكية، ثم عاد إليها في آخر عمره؛ وهو ما يُطابق حاله على التمام، ويُطابق مواقفه.

٥. نوفاتيانوس:

وهو يُشبه هيبوليتوس في انفصاله عن الكنيسة الرومانية وفي حرمانه منها. غير أن الخلافات التي دبّت بين الرجلين وأساقفتهما، كانت في غالبيتها تتعلق بالنظام، وقليل منها كان متعلقا بالعقيدة. ونوفاتيانوس سعى في ظروف الانقسام إلى منصب الأسقفية، وهكذا تجدد الانقسام في الكنيسة، ونشب الخلاف بين الأسقف الجديد وأتباعه، والبابا "كورنيليوس"، الذي نُصّب سنة ٢٥١م.

وأما تعاليم نوفاتيانوس الكريستولوجية، فتتلخص في مواجهته لتعاليم الدوسوتية والموداليسم والقول بالتبني، التي كانت منتشرة في روما في نهاية القرن الثاني، وبداية القرن الثالث. ولقد كتب الرجل كتبا عديدة، أهمها كتاب:"عن الثالوث"؛ وقصد فيه شرح عقيدة الثالوث، وتبيين صلة كل أقنوم بالآخر. ولقد سبق أن عرفنا عند هيبوليتوس حرصه على التفريق بين الآب والابن والروح القدس، بسبب انتشار العقائد المذكورة آنفا؛ فاستمر نوفاتيانوس على النهج نفسه لهيبوليتوس، لكن مع تشديد أكبر. فهو يقول بأن المسيح كان إنسانا حقا، وكان إلها حقا، منذ الأزل. وحتى يخالف ما

كان يراه انحرافا وهرطقات، فإنه قال بأن اللوغوس لم يكن الآب، بل كان مع الآب قبل كل بداية؛ ويعني بذلك سبقه للزمان؛ مع أنه (الكاتب) ما يزال حبيس الزمن من حيث إدراكه للمعاني. ورغم ذلك، فإن قوله بسبق الزمن، يُعد تقدما في طريق التنظير على من سبقه. وعندما يصل نوفاتيانوس، إلى وحدة الآب والابن الوجودية، فإنه لا يجد بدا من أن يفرق بينهما من جهة كون الآب أصلا أولا، وكون الابن فرعا عنه. وواضح هنا أن الرجل يريد الإشارة إلى معنى المرتبة، ولكنه لم يهتد إلى ذكرها عند عدم تعقُّلها. ولو أنه اهتدى إليها، لفتح فتحا عظيما في اللاهوت المسيحي، ولاختصر كثيرا من الأقوال التي ستواصل اجترار المعاني غير المكتملة، التي أثبتها الآباء الأولون. وبعد الغموض الذي يكتنف تعريف نوفاتيانوس للآب، فإنه لم يبق له شيء يقوله عن الابن، إلا أنه أقل من الآب، وأنه يأتي في المرتبة الثانية منه، ضمن الثالوث. وتجدر الإشارة إلى أن معنى المرتبة التي يقصده نوفاتيانوس هنا، ليس هو معنى المرتبة الذي أومأنا إلى غيابه لديه، نحن قبل أسطر؛ والفرق بينهما هو أن هذا الذي يقصده نوفاتيانوس، لا ينفصل عن تصوره العقلي، والذي لا ينفصل هو أيضا عن مُدرَكه الحسي. وقد كنا تكلمنا عن هذه الأمور فيما يتعلق باللاهوتيين وبالفلاسفة جميعا، في مواضع مختلفة؛ فلا داعي إلى تكرار الكلام هنا. ولقد وقع نوفاتيانوس في خلط كبير عندما جعل المسيح ملاكا (هو من نادى هاجر من السماء)، وهو في الآن ذاته الله؛ لكنه ليس الآب؛ وهذا خلط كبير، لم يسبقه إليه أحد. والسبب في ذلك، هو البعد الزماني عن نور نبوة عيسى، مما سيجعل العقول مع توالي السنين، تلجأ إلى التنظير الظنّي. ولعلنا سنتبيّن هذا، مع تقدمنا في الزمان، ومع عرضنا لمختلف المقولات اللاهوتية، فيما بعد. وهذه سنة سارية على كل الأمم، ستجعلنا نقف عليها، عند تناولنا لعقائد المسلمين أيضا، فيما يعقُب. وحتى يسهل على القارئ إدراك ما نرمي إليه، فليتصور شخصا بقرب سراج (مثال نور النبوة)، وليفترض أن الشخص سيبتعد مع مرور الزمان عن السراج؛ فإنه سيُدرك لا محالة أن رؤيته للأشياء ستضعف بسبب نقص النور، إلى أن يصير إلى ظلمة طامسة، أو قريبة من ذلك. ومع أن نور النبوة، لا يُشبه في الحكم نور السراج، إلا أن العقول تنظر إليه النظرة ذاتها؛ ومن هنا تدخل عليها الظلمة مع المدة (البعد). وهذه الآفة بعينها، هي المستدعية للتزكية الشرعية، ليعود معها العبد إلى نور النبوة الأصلي، وكأنه في زمانها. ولو لم يكن الدين على هذه الصفة، فإنه لا يكون مُجديا من الناحية المعرفية؛ وبالتالي فإنه سيفقد أهم خصائصه. ورغم أهمية ما نقول هنا، فإن جُل رجال الدين لا يتفطنون إليه، وتبعا لذلك فهم لا يعتبرونه. فما أفدحها من خسارة!...

ومما وقع فيه نوفاتيانوس وكثير من المعلمين، جعلهم الروح القدس في المرتبة أقل من المسيح؛ وذلك عندما أثبتوا البنوة له، وكأنهم يفرون من أن يُثبتوا بين الآب والابن مرتبة أخرى؛ بينما المسيح الشخص، هو أدنى من مرتبة الروح القدس من غير شك. يقول الله تعالى: {وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ} [البقرة: ٨٧]. والتأييد –كما هو غير خاف– يكون من الأعلى إلى الأدنى؛ وهذا يجعل الروح القدس هو اللوغوس (الكلمة) نفسه. أو لنقل إن الروح القدس، هو باطن الحقيقة المحمدية، والذي هو الروح المحمدي نفسه. وحتى تمتاز المرتبتان: المسيح والروح القدس، فإنه ينبغي أن نعلم أن الروح القدس منزه عن الحدوث؛ بينما المسيح حادث. والروح القدس في النهاية، هو الروح المنفوخ إذا عاد إلى أصله؛ لأنه بالنفخ كان الحدوث، وبالرجوع إلى الأصل تقدس الروح. وحتى نعلم هذا على وجهه، فلنرجع إلى حديث الولاية الذي يقول فيه الله على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم: «... فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا؛ ...»[١]. فإذا علمنا كون الله أعضاء العبد الرباني عينها، فإنه لا يخفى أنه سبحانه روح العبد أيضا. ولسنا هنا نُسبِق مرتبة الروح على مرتبة الجسد، كما يفعل غيرنا؛ بل

[١] . أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

إن الله من كونه الظاهر في المرتبتيْن، يجعلهما لا تتفاضلان، فتصيران مرتبتيْن في الظهور لا في الظاهر. ومن كان الله روحه، فإنه يُنسب إلى الروح القدس المنزه عن الحدوث، والمتصف بالقِدم، ولا بد. وإن من أعوص المسائل على غير المتحققين، ظهور القديم في صورة الحدوث؛ وهو ما أعطى كل هذه الاختلافات لدى المسيحيين. ولو أن المسيحيين كانوا من أهل هذه العلوم، لعلموا أن الروح القدس هو باطن المسيح، كما هو الجسد ظاهره. وأما نسبة الروح القدس إلى أي شخص، فهي تعدل مقدار روحه في الحقيقة المحمدية الجامعة. ومن هنا يختلف الروح القدس من شخص لآخر، من حيث الحجم الروحاني، كما هي الأرواح المنفوخة متفاوتة. وبما أن الروح القدس المنسوب إلى عيسى، هو أقرب في الحجم الروحاني إلى الروح المحمدي، فإنه يكون أكبر من كل مَن سواه من الأولياء والأنبياء. وعلى هذا، فإن كان لا بد من ترتيب، فإن الروح القدس، يكون بين الآب والابن إن قُصد بالابن عيسى؛ أو بين الابن وعيسى، إن قُصد بالابن الحقيقة المحمدية (اللوغوس).

ولقد زاد نوفاتيانوس بعدا، عندما فرق بين "ابن الله" و"ابن الإنسان"؛ ورغم أنه يحكم باتحادهما معا في الجسد، إلا أنه يقصُر عن الكلام عن روح المسيح. ونحن نقول هذا من باب النقد المجرد، لا من باب المُطالبة؛ لأننا نعلم أنه دون مرتبة الخوض في هذه المسائل.

٦. ديونيسيوس الإسكندري:

لقد اختير ديونيسيوس لإدارة مدرسة الإسكندرية، بعد هيراكلاس؛ وكلاهما من تلاميذ أوريجانوس. ثم تولى ديونيسيوس أسقفية الإسكندرية من سنة ٢٤٨، إلى ٢٦٥م. وقد كانت عائلته غنية، فشب منذ صباه على حب العلم والمعرفة. وبعد تولي ديونيسيوس الأسقفية، مرت كنيسة الإسكندرية -كغيرها ضمن الإمبراطورية- بامتحانات الاضطهاد التي شنّها الإمبراطور "دسيوس" على المسيحيين؛ مما اضطر أسقف الإسكندرية إلى مغادرة المدينة، إلى حين موت الإمبراطور. وفي أثناء حكم الإمبراطور "فالريانوس"، نُفي الأسقف المصري إلى ليبيا، وبعد عودته إلى مصر، دخلت البلاد فيما لا يقل عن الاضطهاد السابق: الحرب الأهلية ثم الطاعون. وبعد حياة مليئة بالعمل والجهاد والصبر، تُوُفي ديونيسيوس سنة ٢٦٥م، في أثناء انعقاد مجمع أنطاكيا، الذي لم يتمكن من حضور جلساته بسبب مرضه. وقد سمي أسقف الإسكندرية بـ "ديونيسيوس العظيم"، بسبب صلابته في مواجهة الشدائد.

وقد امتد تأثير ديونيسيوس إلى خارج مصر، وبلغ منه أن راسل نوفاتيانوس في روما ناصحا له بالعودة إلى الكنيسة. ولقد عالج الرجل في كتبه مسائل عدة كانت تعرض للكنيسة في عصره؛ فكتب كتابا عن الطبيعة، وآخر عن المواعيد. ولقد كان القصد من ورائهما، تصحيح بعض العقائد التي نادى بها الأسقف المصري "نيبوس"، الذي رفض تعاليم أوريجانوس "المجازية"؛ وكان يؤمن بقبول المواعيد المذكورة في الكتاب بطريقة ظاهرية حرفية. فهو -مثلا- يرى أن الألف سنة التي يذكرها سفر الرؤيا، لا بد منها حقيقة. ولقد ذهب ديونيسيوس إلى مقر نيبوس وحاوره وأتباعه حوارا مفتوحا، دام ثلاثة أيام. ثم كتب أربع رسائل إلى أسقف روما، ينفي عن نفسه اتهام بعض الكهنة له بمخالفة الأرثوذكسية. وهذا يقودنا إلى تقصي عقيدة ديونيسيوس في المسيح.

كان ديونيسيوس تلميذا متحمسا لتعاليم أوريجانوس، بعد أن تأثر به تأثرا بالغا. ولهذا، فإننا سنجده كمعلمه، يقول بأن اللوغوس هو إله ثان، أو أقل درجة من الآب. وقد اتهمه بعضهم بالهرطقة في بعض محاوراته، حيث تلفظ بأن المسيح ليس ابنا لله بالطبيعة؛ ولكنه مخلوق يختلف جوهره عن "جوهر" الله. وعلاقة الابن بالآب، هي كعلاقة الكرمة بالكرّام، وعلاقة السفينة بصانعها. وعندما وصل ذلك إلى مسامع البابا ديونيسيوس الروماني، فإنه كتب إلى ديونيسيوس الإسكندري (سَمِيّه)، رسالة يرفض فيها التعبيرات التي استعملها، والتي توحي بانقسام في جوهر اللاهوت؛ لأن اللاهوت عنده، غير

منقسم الذات، ولأن الابن "مولود" منذ الأزل؛ وهما (الآب والابن) من الجوهر ذاته. ويُقال إن ديونيسيوس الروماني هو أول من استعمل اصطلاح "من الجوهر نفسه" (HOMOOUSIA)، وإن كان البعض يظنون أن أول من استعمله هو أوريجانوس. ومع أن ديونيسيوس الإسكندري قد تابع أوريجانوس، إلا أنه شدد في المقابل على أزلية الابن، في كلام مضطرب، على عادة أغلب اللاهوتيين. ولا بد هنا من تذكيرنا بأن هؤلاء المعلمين جميعا، ما كانوا يُميّزون السبق في المرتبة، عن السبق في الزمان؛ ولا المراتب الذاتية المحيطة بما هو حق وبما هو خلق. ولعل الكلام الذي مررنا به لديونيسيوس، يُذكّرنا ببعض كلام المتكلمين المسلمين، عند تشديدهم على عدم الانقسام في الذات الإلهية وعدم التكثر، بحسب ما فهموه من كلام مخالفيهم. ونحن ننزه الله تعالى عن وصف الجوهر: أولا لأن الوحي لم يرد به، بل هو من مقولات الفلاسفة؛ وثانيا، لأن الجوهر لا يستغني عن قيام العرض به. فهما مرتبتان متلازمتان عقلا، وإن قيل بظهور الواحدة (الجوهر) دون الأخرى في بعض المراتب كالهيولى قبل ظهور الصور. والله سبحانه ليس بينه وبين خلقه تلازم، وإلا فإن الخلق سيكون ظهوره حتميا لا اختياريا؛ ونحن قد سبق لنا أن أثبتنا أن الله فاعل بالاختيار. يقول سبحانه عن نفسه، وهو الأعلم بها: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [القصص: ٦٨]. وهذا يقودنا إلى التأكيد على أن اللوغوس أو الكلمة أو الحقيقة المحمدية، مخلوق لله، وإن كان انبثاق المخلوقات الأخرى عنه (الأوّليّة). ومن هذا الوجه، لا يمكن للوغوس أو للابن أن يكون أزليا (قديما)؛ لأن الله من حيث هذه الصفة لا يُشارَك. وتأخر المخلوق الأول عن الحق الخالق هنا، هو بالمرتبة لا بالزمان. ومن لم يكن قادرا على تعقل التراتب من غير زمان، فإنه غير مؤهل للخوض في مثل هذه المسائل. ولو تنبه المسيحيون إلى ما نقول، لوجدوا أن عقائدهم هي وليدة عقولهم القاصرة، وليست مطابقة للحق، كما هو في نفسه.

وبما أننا بصدد الكلام عن معلمي الإسكندرية، الذين كان لهم الأثر الأكبر في صياغة العقائد المسيحية، فإنه لا بد من ذكر رجال من مثل:

– ثيوغنوسطوس: الذي خلف الأسقف ديونيسيوس في إدارة مدرسة الإسكندرية، من سنة ٢٦٥ إلى سنة ٢٧٢م.

– بياريوس: الذي تولى الإدارة بعده، والذي كان يتصف بالتقوى والعلم؛ إلى الحد الذي لقب معه بـ "أوريجانوس الصغير".

– بطرس الإسكندري: الذي جاء بعده مشرفا على مدرسة الإسكندرية، والذي ظل يعلّم فيها، إلى أن اختير أسقفا للإسكندرية في حوالي سنة ٣٠٠م؛ ومات هذا الأسقف شهيدا، سنة ٣١١م. ومما يُذكر عن بطرس هذا، أنه كان في العقائد على نقيض أوريجانوس؛ لقوله بالطبيعتيْن، على ما في هذا القول من غموض، كما سبق أن بيّنّا. ولم يكن بطرس يخشى إلا من قول أوريجانوس بسبق الروح للجسد من جهة الخلق. وهذا لأن المسيحيين لم يكونوا يعلمون حقيقة الروح، وكانوا يلحقونها بالحق، وإن لم يُصرّحوا دائما.

٧. بولس الساموساطي:

كانت تعاليم الوحدانية والانتحالية، منتشرة في الشرق وفي الغرب؛ ولقد وجدت بيئة خصبة في الأوساط اليهودية المسيحية، لموافقة هذه العقائد لما عليه اليهود من توحيد وعدم قول بالتقسيم. ولقد نادى "نوتوس" في نهاية القرن الثاني بوحدانية الله، وفي بداية القرن الثالث ظهرت جماعة الانتحاليين، وعلى رأسهم الكاهن الليبي "سابليوس". ولقد لاقت هذه العقائد انتشارا واسعا وقبولا متزايدا بين اليهود المسيحيين، إلى الحد الذي سيطرت معه على بعض الكهنة والأساقفة في الشرق وفي الغرب؛ ويرى المثلِّثون أن بولس الساموساطي، كان أحد ضحاياها.

وقد كان بولس هذا، خطيبا وسياسيا ماكرا وإداريا محنكا؛ ولذلك فقد حاز مكانة مرموقة لدى الملكة "زنوبيا". وبما أن هذه الملكة كانت تسعى إلى انفصالها عن روما، فقد وجدت في بولس معينا لها على مآربها، فأعانته بنفوذها على

بلوغ منصب أسقف أنطاكيا في سنة ٢٦٠م. ولقد ظل بولس بعد أسقفيته، مضطلعا بالمهام المدنية التي كانت له قبلها، والتي من بينها الإشراف على الأمور المالية والجبائية في الدولة.

وأما تعاليم بولس الساموساطي، فقد أثبتها كل من "بولس البيزنطي" و"يوستيفيانوس" و"بطرس الشماس"، الذين ذكروا طرفا من الحوار الذي دار بينه وبين الكاهن "مالكيون"، الذي يُقال إنه اكتشف هرطقة بولس الساموساطي وأعلنها. ويُنسب إلى الساموساطي أنه كان يقول بأن الله أقنوم واحد، وفي هذا الأقنوم يُماز اللوغوس والحكمة، وهما صفتان لا أقنومان. ويقول أيضا بأن اللوغوس هو الذي كان عاملا في الأنبياء، وفي المسيح؛ ويرى هنا وجوب التمييز بين اللوغوس وعيسى، لأن الأول أعظم من الثاني. وظل عيسى بشرا –بحسبه– إلى وقت عماده، حيث اتصل به اللوغوس اتصال محبة واتحاد. ويرى الساموساطي بأن هذه المحبة قد مكنت المسيح من الانتصار على خطيئة أجداده، ومن تأهيله لكي يكون فاديا ومخلصا. ولأجل هذا كله، فإن الله قد رفعه فوق كل مكانة وأعطاه اسما فوق كل اسم.

ولقد حذف بولس كل الترانيم التي تصف المسيح بالألوهية والأزلية، موجودا قبل العالم. ويعتقد "كاستن" (المؤرخ الكنسي) أن بولس كان يعلّم العقيدة الانتحالية الرافضة لعقيدة الثالوث. ولقد اكتفى بولس بأن سمى الله بالآب الذي خلق كل شيء والابن الذي صار إنسانا، وجعل عيسى أفضل من موسى والأنبياء؛ ولكنه لم يكن الكلمة. ويتضح من هذه المقولات، أن التهمة التي وُجّهت إلى بولس الساموساطي كانت مزدوجة: الأولى، وهي إيمانه بعقيدة الانتحاليين؛ والثانية، وهي قوله بالتبني، ما دام عيسى لم يُصبح المسيح إلا بعد العماد. ويكمن خلف هذا الاعتقاد –بحسب بعض اللاهوتيين– القول بابنيْن لله، وهو ما يُسمى: الأرطومونية (ARTEMONISM).

ورغم أن عقائد بولس الساموساطي لا تختلف كثيرا من حيث جوهرها عن غيره من الآباء والمعلمين؛ ورغم أنها تجمع بين التلفيق والتنظير، كمثيلاتها؛ إلا أنها وبسبب مخالفتها لأصول بولس الطرسوسي، التي صارت أساسا لكل العقائد الرسمية؛ سيُنظر إليها على أنها خطر مهدد لوجود الكنيسة، وسيقوم لها من يرون أنفسهم مدافعين عنها، كـ "مالكيون" سابق الذكر، الذي بمهاجمته لبولس الساموساطي سيكون مهاجما لرئيسه الروحي ورئيسه المدني في الآن ذاته. ويُقال إن "لينوس" أسقف طرسوس، هو من دعا لعقد السنودس (المجمع) سنة ٢٦٤م في أنطاكيا، ويُحتمل أن يكون قد ترأّسه بولس نفسه، بوصفه أسقفا لأنطاكيا. ويُذكر أن هذا المجمع لم يتوصّل إلى نتيجة عملية بخصوص ما اجتمع له، وقد عُقد بعده مجمع آخر، كانت نهايته كالأول في عدم الجدوى؛ وهو ما دعا إلى عقد مجمع ثالث سنة ٢٦٨م في أنطاكيا مرة أخرى، وكان عدد من حضره بين السبعين والثمانين نائبا؛ وقد أوكل الحاضرون فيه إلى "مالكيون" المعروف بعلمه ومنطقه، محاورة بولس. وبعد نقاش طويل، استطاع هذا الكاهن أن يُظهر هرطقة الأسقف، فحكم المجمع بقطعه عن الكنيسة، وبتعيين أسقف جديد بدلا له. وقد كتب الحاضرون بنتيجة المجمع، إلى كل من "ديونيسيوس" أسقف روما، و"ماكسيموس" أسقف الإسكندرية، كذلك إلى كل كنائس المقاطعات والبلاد الأخرى. غير أن بولس لم ينصع لقرارات المجمع، وظل في منصبه، بفضل دعم الملكة له. فاستمرت الحال على ما كانت عليه، لمدة أربع سنوات أخرى. وعندما تولى "أوريليانوس" الحكم بعد سقوط زنوبيا، زال نفوذ بولس، من دون أن تزول العقائد التي كان يدعو إليها.

ونحن هنا لا بد من أن نشير إلى ازدياد اضطراب العقائد المسيحية، مع طول العهد والمدة، ومع دخول التنظير العقلي عليها من جانب المدافعين، كما من جانب "الهراطقة". ثم لا بد من ملاحظة دخول النفوذ السياسي للملوك والأباطرة على العقائد، إما تأييدا وإما مهاجمة؛ مما سيجعل العقائد من الآن فصاعدا، لا تخدم الدين وحده؛ وسيجعل المجامع المنعقدة لا تتغيّى الحق وحده. وهذا –لا شك– سيكون له أثره البالغ على الكنيسة على طول تاريخها.

٨. لوقيانوس:

إن الكنائس كانت تتبارى في الإجابة عن سؤال المسيح عليه السلام، في قيصريّة فيلبُّس: "«مَنْ يَقُولُ النَّاسُ إِنِّي أَنَا ابْنُ الإِنْسَانِ؟»"[١]. ولكنها لم تكن تعلم أن إجابة هذا السؤال الخطير، لا تكون عن طريق إعمال العقل، أو عن طريق التقليد الإيماني؛ لأن هذيْن الطريقيْن، لا يعكسان إلا مرتبة صاحبهما. وأما الطريق الوحيد الموصل إلى العلم الصحيح، فهو طريق الكشف (عن طريق الروح القدس)، عندما يرتقي العبد إلى أعلى مقام الإحسان. وبما أن المسيحيين لا قدم لهم في الإحسان إجمالا، فإنهم بقوا مع عقولهم، التي على سموّ بعضها، فإنها لا تتجاوز ما هو من قبيل الإيمان، إن اعتُمد الوحي؛ أو ما هو من قبيل النظر، فيما عدا ذلك. وإن المعلمين الذين اشتغلوا باللاهوت، وأنشأوا عقائد ذات منطق مقبول لدى من هو من طبقتهم العقلية، لم يُضيفوا إلى العقائد المسيحية التي ينبغي أن يجتمع عليها جل المسيحيين، إلا تشويشات، تجعلها تارة تصعد بها وتارة تنزل. كل هذا، وقت كونه محتملا، وضمن ما يُطيقه الشعب؛ أما إن صار تعليما يُدرّس للعموم، فإنه سيصير تعسيرا في الدين، من غير شك.

ولقد كانت كنيسة أنطاكيا كنيسة قديمة، لذلك فإنها ستواكب جل الطروحات النظرية التي يقول بها المعلمون، وستتلقاها إما بالقبول وإما بالرفض. ولما كان أهلها أكثر المسيحيين عُرضة للتشتيت بسبب الاضطهاد، فإنهم قد صاروا إلى فنيقية وقبرص، مع بقاء باقية بأنطاكيا. كما أنه في أنطاكيا، قد دُعوا لأول مرة بالمسيحيّين. ويرجع تأسيس كنيسة أنطاكيا إلى بطرس (الرسول) نفسه، وهو ما جعلها مدعوة في نظرها، إلى الإجابة عن سؤال حقيقة المسيح؛ ظنا منها، أن ذلك في متناول كل أحد؛ فأدلت بدلوها مع أخواتها: في قيصرية، وقرطاجنة، وروما. ومع أن الأساقفة والمعلمين والقادة، لم يهملوا الناحية التعليمية والعقَدية في كنائسهم، فإن مدرسة أنطاكيا اللاهوتية، لم تتأسس إلا في الجزء الثالث من القرن الثالث. والذي أسس هذه المدرسة، وقام بالتعليم فيها، هو "لوقيانوس". ويعتقد البعض بأن لوقيانوس من بلاد سميساط، بلاد بولس الساموساطي؛ الذي عندما أصبح أسقفا، استدعى لوقيانوس العالم المثقف، ورسمه كاهنا، وعهد إليه بالتعليم في مدينة أنطاكيا.

ومما وصل الناسَ عن لوقيانوس، أنه بسبب إتقانه للعبرية، فقد صحح ترجمة العهد القديم. واتبع لوقيانوس نظاما يخالف نظام مدرسة الإسكندرية في تعليمها؛ فهذه كانت أمينة لأوريجانوس في تفاسيره، وأما مدرسة أنطاكيا فقد اتجهت نحو تحليل فصول الكتاب، على ضوء اللغة والتاريخ. فمدرسة أنطاكيا يُمكن أن نقول عنها: إنها انتهجت نهجا علميا في مقابل أخواتها. ولعل هذا هو السبب الذي جعل التفاسير التي أنتجتها، تُعمر أكثر من تفاسير أوريجانوس الروحية. لكن هذا كله، لا ينبغي أن يُنسينا أن وقت بدء ظهور كنيسة أنطاكيا، كان مزامنا لبلوغ كنيسة الإسكندرية أوج إشعاعها. ولم تكتف تعاليمها بالسيطرة على الإسكندرية، بل جاوزتها إلى بلاد كثيرة، بفضل أوريجانوس والمدرسة التي أسسها في قيصرية.

وقبل الكلام عن تعاليم لوقيانوس الكريستولوجية، لا بد من أن نخبر بأنه عاش منزها تقيا، زاهدا في الدنيا ومتقشفا؛ على العكس تماما من ولي نعمته بولس الساموساطي؛ وكان أيضا غيورا لله، ومدافعا عن الإيمان. وختم حياته بالموت في سبيل الله في سنة ٣١٢م، على يد الإمبراطور "مكسيمنوس دايوس"، بعد أن قاسى صنوف العذاب. ورغم هذا الارتقاء في العلم والمعاملات، فإن لوقيانوس يُتهَم بتأثره ببولس الساموساطي. وهو في نظر مُتهِميه، لم يقبل عقائد بولس فحسب، بل علّمها ودعا إليها. وهذا قد جعل الكنيسة الرومانية تراه مُبطلا يسعى إلى هدمها في أنطاكيا أولا، ثم في كل بلاد وصلتها تعاليمه. وكما كان لوقيانوس خلفا لبولس الساموساطي، فكذلك كان أبا ومعلما لـ "أريوس"، الذي كان يفخر بهذه النسبة اللوقيانوسية. ولقد أضاف أريوس إضافات طفيفة إلى عقائد معلّمه، فكان يقول بوحدة الإله التي لا مساوي

---

[١]. متّى: ١٦: ١٣.

له فيها؛ ويقول بأن الله هو خالق كل شيء، وكل ما سواه فهو خلق له؛ ومن هنا يكون هو الخالق للوغوس. ويقول بأن اللوغوس اتخذ جسما بشريا لا روحا، وأن عيسى كان بشرا كسائر البشر (عقيدة التبني)؛ وهو الشخص الذي عرّف أتباعه بالله، ثم ارتفع بعد أن أبان عن طاعة تامة ومحبة كاملة. ومن خطاب الأسقف ألكسندر الإسكندري، نعلم أن لوقيانوس ظل محروما، طيلة المدة التي تولى فيها خلفاء الأسقف بولس الساموساطي الثلاثة الجلوس على كرسي أنطاكيا.

لقد كان لوقيانوس غيورا على الدين، مدافعا عن عقائده دفاعا لا يلين؛ رغم أن الكنيسة كانت تعُدّه "هرطوقيا". وهكذا فقد صمد لوقيانوس في وجه الاضطهاد الذي شنه "مكسيمنيوس" على المسيحيين في سوريا. فألقي القبض عليه، ووُضع في سجن "نيقوميدية"، وذاق فيه صنوف العذاب. ولقد استمر اضطهاد المسيحيين في الإمبراطورية الرومانية، حتى بعد العفو الذي أصدره الإمبراطور "بقلاريوس" في سرديكة سنة ٣١١م. واستمرت الحال على ما هي عليه، إلى أن جاء الإمبراطور "قسطنطين"، وأصدر "ليكينيوس" معاهدة "ميلان"، التي كفلت حرية الأديان. ولم تلبث الديانة المسيحية إلا يسيرا، حتى أصبحت ديانة الإمبراطورية الرسمية؛ وهكذا ستبدأ مرحلة تاريخية جديدة، ستكون أساس كل ما تعرفه الكنيسة اليوم.

٩. أريوس الليبي:

كل ما يُعرف عن أريوس، أنه ليبي، درس اللاهوت في مدرسة أنطاكيا على يد المعلم لوقيانوس؛ ثم عاد إلى الإسكندرية حيث رُسم كاهنا في كنيسة "بنكاليس". وأجمع الدارسون على أن أريوس كان عالما مثقفا وزاهدا متقشفا، وهو ما جعل جماعة من أهل الإسكندرية يلتفون حوله؛ خصوصا من الرهبان والراهبات، الذين رأوا في أسلوبه نوع تجديد في أسلوب التعليم.

ولقد كان أريوس يُهاجم تعاليم "سابليوس"، كشأن كنيسة الإسكندرية في مُجملها؛ فكان ينفي أزلية الابن، وينفي انبثاقه من جوهر الآب. وذلك لأنه كان يرى أن هذه العقيدة تُفضي إلى السابلينية. فدعا أريوس في تعاليمه، إلى:

ا. القول بأن الله واحد، أزلي، غير مولود. ومع إثبات سبق الابن على الخلق أجمعين، فإنه ليس بأزلي. ونحن قد سبق لنا أن تكلمنا عن هذه المسائل، وأعدناها إلى أصولها في العلم. لكن، لا بأس هنا من التذكير بقول الله في سورة الإخلاص: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: ١ - ٤]. ولا بد من الإشارة إلى أن الأحد غير الواحد من جهة المعنى؛ ونعني من هذا، أن الأحد ذات محض؛ بينما الواحد هو مرتبة الذات (الألوهية)، مع اعتبار تكثر الأسماء في نفسها، واعتبار اختلاف آثارها (الأفعال) المعبّر عنها بالخلق. وإن إثبات المعلمين المسيحيين لوحدة الله، لا بد لهم معه، من إثبات الخلق (الابن ومن بعده)؛ وهذا التلازم الذي يستوجبه الاسم الواحد، يُفسد عليهم إدراك مرتبة الذات الصرف. لذلك فإنهم مهما اختاروا من عبارات التنزيه، فإنهم لن يبلغوا التنزيه التام. وعندما يوافق أريوس كلام الله في قوله تعالى: {وَلَمْ يُولَدْ}، فإنه لا يتمكن من إدراك قوله سبحانه: {لَمْ يَلِدْ}؛ لأنه لو أدركه لما وجد الكلام عن "الابن" ضروريا دائما. ويبقى في هذا المضمار التفريق بين القائلين بأزلية الابن (وإن صح من جهة البطون)، ومن يقولون بإتيانه في المرتبة الثانية من الأحدية، دليلا على علو شأن اللاحقين على الأوّلين. وذلك حتى يتمكن اللاهوتيون من ترتيب معلوماتهم، وبالتالي من تصنيفها، وتصنيف القائلين بها؛ لأن هذا الخلط الذي وقع فيه المتقدمون، على اختلاف مراتبهم وتباينها، لا شك سيؤسس لكل الخلط الذي سيتولد من بعدُ لدى متأخري اللاهوتيين.

ب. أن الابن غير الأزلي وغير المولود من جوهر الآب، خرج من العدم كما خرج سائر المخلوقين، بقصد الله ومشيئته. وما أروع هذا الكلام، بالمقارنة إلى كل الأقوال السابقة!... غير أنه لا بد من الإشارة إلى التباس معنى الأزلية على صاحبنا؛ لأن الأزلية هنا هي "القِدم" نفسه، من دون اعتبار للزمان؛ وإنما عند تمييز القدم من الحدوث فحسب. وأما الزمان، فإن

الحقيقة المحمدية (اللوغوس)، سابقة عليه في المرتبة. وأما المشيئة التي يذكرها أريوس هنا، ويجعلها أول التعلقات لكل المخلوقات، فينبغي أن نعلم أنها تعلقت بهم في حال عدمهم، لا عند الإخراج منه إلى الوجود؛ لأن التعلق من أجل الإخراج يكون للإرادة لا للمشيئة. وهذا الذي نقوله، لا يتمكن من إدراكه لا أريوس ولا غيره، من سابقي المسيحيين أو من لاحقيهم؛ فليُعتبر هنا!...

ج. أن المسيح الذي يعبده المسيحيون، ليس إلها؛ ولا يحوز الصفات الإلهية المطلقة: العلم المطلق، القدرة المطلقة، عدم التغيُّر، إلى غير ذلك من الصفات الإلهية. وهذا أيضا كلام مُدهش، ودليل توحيد قليل النظير؛ ينبغي أن نشهد لصاحبه به، وأن نُقرّ له بأنه كان على الحق الذي جاء به عيسى والأنبياء، على الجميع من الله السلام. لكن، لا بد في مقابل ذلك، من أن ننبه إلى قصور قول أريوس؛ وذلك لأن المسيح كان خليفة لله، حائزا لكمال الصورة الإلهية؛ المقابل للصورة السماوية (الحقيقة المحمدية). وإن التعدد في المظهريْن هنا، لا يعني تعدد الظاهر بهما؛ لأن التعدد عائد إلى المواطن (العوالم)، لا إلى الظاهر (المتجلي). وأما مسألة الإطلاق في الصفات الإلهية، فينبغي التمييز فيها بين الصفات في مرتبة الواحدية (الألوهية)، وهي في مرتبة الخلافة الأرضية. ونعني من هذا أن الخليفة على الصفات الإلهية بين ما يُعطيه الإطلاق الوجودي، وما يُعطيه التقييد الصوري، وما يدخل في الوقت عليه من عدمه الأصلي. ونعني مرة أخرى، أن المسيح مُطلق الصفات من جهة حقيقته (المرتبة)، ومقَيّد فيها من جهة صورته (الجسد)، وفاقد لها، عند ظهور أصله العدمي في وقت ما. ولنضرب أمثلة على ما نروم، فنقول: فأما ما هو مُطلق، فهو كل الصفات الإلهية، من جهة حقيقة عيسى؛ ومن هذا الوجه، يكون عيسى مُطلق العلم، مُطلق القدرة، وغير ذلك... وأما من جهة ظاهر الصورة، فإنه يكون مقيّد الصفات؛ فيظهر علمه مقدارا مِن عِلم الله، بحسب استعداده المخالف لغيره من الخلفاء الربانيين، وبحسب الوقت أيضا. وأما عدمه، فإنه يظهر في الأزمنة التي لا يُمده الله بمدده الوجودي، بخصوص صفة من الصفات. وهذا يعني أنه قد يظهر عليه الجهل (عدم العلم) بمسألة مخصوصة، في وقت ما؛ وقد يظهر عليه العجز (عدم القدرة)، أيضا في وقت ما؛ وهكذا... والمقصود من كلامنا هذا كله، هو أن العبد الرباني، تكون له مراتب ثلاث: الحق، والصورة (بالمعنى التفصيلي لأن معناها الأصلي مخصوص بالحقيقة المحمدية وحدها)، والحقيقة العدمية الثبوتية التي كان العبد فيها معدوم الذات والصفات. ولقد ظهر العدم على نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم، وهو أكمل الخلق على الإطلاق؛ في أوقات عدة، ليدل على أصله العدمي. ومن ذلك عدم إجابته بنفسه عن سؤال السائل، حتى يُمدّه الله بعلمه؛ كما وقع عند سؤال اليهود له عن ربه، فلم يُجب إلا بعد نزول سورة الإخلاص. وكما وقع في حادثة تأبير النخل، التي انكشف أن ما نصح به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لم ينفع الغارسين؛ وعندما روجع صلى الله عليه وآله وسلم بعد بُدُوّ عدم صلاح النخل ذلك العام، قال: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ!»[١]. وكذلك لما سأله جبريل عليه السلام عن الساعة، فأجاب عليه الصلاة والسلام: «مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ!»[٢]؛ وغير ذلك كثير... ولكن ظهور حكم العدم من الخليفة، لا ينزل به عن مرتبة الخلافة، كما يظن الجاهلون ممن هم على شرك مخلوط بتوحيد. وعلى هذا، فإن الخليفة عند ظهور حكم عدمه، يكون من مرتبة حقه مُطلق الصفات، عالما بما يجهل. وهذا من أعجب ما يعرض لعقول الناظرين!... ومن هذا الباب قال الصوفية: "معرفة العارف (الرباني)، أصعب من معرفة الله!"؛ وذلك لأن الله له مرتبة الإطلاق عن التقييد، بخلاف الخليفة الذي له الإطلاق والتقييد معا.

---

[١] . أخرجه مسلم، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

[٢] . متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

د. أن معرفة الابن بالآب محدودة وغير مطلقة؛ لذلك هو لا يستطيع الإعلان (التعريف) التام عنه؛ وهذا أيضا من نفيس كلام أريوس. وهو يعني منه أن العبد الخليفة، على معرفته التامة بالله، فإنه لا يكون محيطا به سبحانه؛ لأن الله هو المحيط الذي لا يُحيط به أحد. يقول تعالى: {وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ} [البروج: ٢٠]، ويقول سبحانه: {أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ} [فصلت: ٥٤]. غير أن معرفة الخليفة بربه -كما ذكرنا- تامة، وليست ناقصة كما هي معرفة غيره من العباد. والكلام يطول في هذه المسألة، فلنكفّ عنه.

هـ. أن الله خلق الكلمة (الحقيقة المحمدية) لأجلنا؛ حتى نكون على صورتها؛ ولو لم يشأ الله أن يخلقنا، لكان وجودها محالا. وعلى علو هذا المشهد، فإن أريوس لم يكن من أهل العلم به حقيقة؛ لأنه يخلط بين هذه المرتبة وحقيقة المسيح الأرضية. لذلك هو يجعل الابن على صفات مقيّدة، كما يرى ذلك فقهاء المسلمين في نبيّهم عليه الصلاة والسلام؛ ويقول إن الابن قد سلك طريق الحق (التكليف) بقدَر من الله، لا بنفسه. وكما لا يخفى، فإن هذا الكلام حق مخلوط بباطل؛ لا يسعنا هنا أن نُفصّله لضيق الوقت، وضيق الكتاب. وحتى نُجمل ما يتعلق بهذه المسألة، لنضع القارئ على طريقها، فإننا نقول: إن العباد يتوهمون أن الخليفة ينبغي أن يكون هو الله فحسب؛ ويظنون أن هذا هو كماله؛ بينما هو كمال الله لا كمال الخليفة. وكمال الخليفة لا بد أن يكون جامعا بين النقيضيْن، لا منحازا إلى طرف الوجود وحده. ومن علم ما نقول، فإنه سيتمكن من مجاوزة شَرَكِ مخلوقية المخلوق، ليعرف الحق في صورته على ما يليق به سبحانه. ثم إنّ مِن جهل أريوس بمرتبة الكلمة الجامعة، أنْ صار يتوهم أن الشيطان خارج عنها؛ بينما هو حقيقة من حقائقها، لا يمكن أن ينفصل عنها. وهذا باب من العلم الغريب، الذي يُفتح على بحر الظلمات؛ وهو علم مُهلك، إلا للراسخين في العلم من الأفراد.

ما كانت كنيسة الإسكندرية، لتقبل عقائد أريوس العليا، كعادة كل العوام مع الخواص من كل أمة؛ لذلك فإن أسقفها "ألكسندروس"، قد قام باستدعائه لإثنائه عن مقولاته؛ فلما لم يُفلح في الأمر، طلب انعقاد المجمع (السنودس) في حوالي ٣٢٠م. وقد حضر هذا المجمع حوالي مائة أسقف مصري وليبي، بغية الخروج في قضية أريوس برأي. فعرض ألكسندروس على المجمع "هرطقة" أريوس، بحسبه؛ فلم يؤيد أريوس إلا أسقفان ليبيان هما: "ثيوفاس" و"سكوندس"، وبعض القسوس والشمامسة؛ فقرر السنودس قطع أريوس عن الخدمة.

وعندما حُرم أريوس، لم يجد في الإسكندرية من جماعته إلا زمرة قليلة؛ أُضطُرّ معها إلى تحويل نظره إلى الخارج، حيث كانت له صلة ببعض زملاء دراسته في أنطاكيا، من أمثال: "أسابيوس" أسقف نيقوميدية؛ و"أسابيوس" (سَمِيّه) أسقف قيصرية من فلسطين؛ و"غريغوريوس" أسقف بيروت؛ و"ثيودوتوس" أسقف اللاذقية؛ وغيرهم... واختار أريوس القدوم إلى قيصرية، وشرح لمؤرخ الكنيسة وأسقف قيصرية (أسابيوس) عقيدته وموقفه؛ فنصحه هذا الأخير بالكتابة إلى نظيره أسقف نيقوميدية، فكتب إليه ثم ارتحل لمقابلته. ولما اطلع أسقف نيقوميدية على آراء أريوس، كتب هو أيضا إلى عدد كبير من الأساقفة، داعيا لهم إلى مؤازرة أريوس. ودعا مع ذلك إلى عقد مجمع في نيقوميدية، للنظر في القضية برمتها؛ فاجتمع المجمع، وقرر قبول أريوس وأتباعه في الشركة. ولقد راسل المجمع أسقف الإسكندرية ألكسندروس، بأن يرفع الحرمان عن أريوس، كما طلب من أريوس ذاته أن يراسل أسقفه ويشرح له عقيدته التي يبدو أنه (المجمع) قد اقتنع بها. فكان ذلك، وراسل أريوس أسقفه، يخبره أنه لم يدع إلى غير ما كان هو يدعو إليه. ويُظن أن مجمعيْن قد انعقدا في بيت عنيا وفي فلسطين لبحث قضية أريوس، وانتهيا إلى طلب رجوعه من أسقف الإسكندرية، الذي بقي على رفضه الباتّ. فما كان من أريوس إلا أن انفصل عن الكنيسة، وعاد إلى الإسكندرية مع جماعة من أتباعه، وبدأ نشاطه وخدمته. ولقد ألف أريوس، في فترة إقامته بنيقوميدية، كتابه "المثالية" (THALIA).

وكان أريوس شاعرا أيضا، فكتب بعض الترانيم المتضمنة لعقيدته، والتي انتشرت في المجتمع المصري انتشارا واسعا. وبلغ انتشار دعوة أريوس البلاد الأخرى، فقام "أستيرويوس" وأمثاله من المتحمسين، مبشرين بدعوة أريوس في بلدانهم. وكما كثر المؤيّدون، كثُر أيضا المعاندون؛ ودار الجدل بين الفريقيْن، على هيئة مراسلات، يزعم فيها كل فريق لمقابِله بأنه على الحق، مستدلا في ذلك بما يُناسب قوله من الكتاب المقدس. ولقد كان من نتائج هذا الجدل، أن انقسمت الكنائس والجماعات في كل مكان.

وقد ظهر الانقسام في الكنيسة الشرقية، في الوقت الذي بدأ قسطنطين يذوق طعم استقرار الإمبراطورية. فرأى أن الجدالات العقدية، تهدد وحدة الإمبراطورية التي طالما سعى إليها. ولهذا السبب، فقد استشار الإمبراطور صديقه الأسقف "هوسيوس"، واتفق الاثنان على مراسلة كل من ألكسندروس وأريوس، من أجل الكف عما كانا فيه من شحناء؛ وحمل هذه الرسالة "هوسيوس" نفسه، قصْد إقناع الرجليْن والعودة بهما إلى الصف الواحد. ومع أن مهمة هوسيوس لم تنجح، إلا أنه عاد بتصوّر دقيق عن الوضع في الكنيسة الشرقية، بعد أن لقي عددا من رجالها. وهنا ظهر اقتراح عقد مجمع مسكوني (مؤتمر عالمي) في نيقية للبت في هذا الأمر. وعلى اختلافٍ فيمن كان وراء هذا الاقتراح، وفيمن ترأس هذا المجمع، فإن الإمبراطور قد دعا إليه ورحّب به في النهاية. ولم يكن أثر هوسيوس خافيا فيما دار من محاورات، ولا فيما اتُّخِذ من قرارات؛ خصوصا وأن الإمبراطور قد افتتح المؤتمر بنفسه، في دعم سياسي واضح، غير خال من التوظيف المغرض، كما هو الشأن دائما في مثل هذه الأحوال.

وأول ما كان ينبغي أن يُلاحظ، هو آثار التعذيب التي كانت تحملها أجساد المؤتمِرين، والتي كانت شاهدة على حقبة التعذيب القريبة، في مفارقة صارخة مع حضور الإمبراطور هذه المرة بينهم، معتنيا بهم، وحارسا لهم بجنده؛ مما كان مؤذِنا في الظاهر بانقلاب الحال. ولقد بدأ مجمع نيقية أولى جلساته ١٩ يونيو ٣٢٥م، وكان عدد الحضور يفوق ثلاثمائة أسقف. ولقد كان أغلب من حضر منتسبين إلى الكنيسة الشرقية، في حين لم يحضر من الغرب إلا أربعة أو خمسة أشخاص؛ فلم يوجد نائب عن كنيسة بريطانيا، ولم يمثل إسبانيا إلا شخص واحد، كما لم يمثل بلاد الغال (فرنسا) إلا شخص واحد، وناب عن كنيسة روما شخصان. وهذه أول مفارقة تنبغي ملاحظتها هنا، بما أن الداعي إلى انعقاد المؤتمر هو الإمبراطور نفسه؛ وكأن الأمر في الحقيقة، كان بحثَ طريقة ضمّ الكنيسة الشرقية فحسب.

وأما تقسيم الحاضرين بحسب العقيدة، فإنه كان كما يلي:

ا. الطائفة المصرية، وعلى رأسها الأسقف ألكسندروس وأثناسيوس؛ وانضم إليهم ممثلو الغرب، وهم أقليّة.

ب. طائفة اللوقيانوسيين، وعلى رأسهم أريوس، والأسقف أسابيوس النيقوميدي. وهذه الجماعة أيضا أقلية، وإن كانوا متحمسين.

ج. وأما الأغلبية، فيُمكن أن نصفها بالحياد، أو بأتباع أوريجانوس؛ وعلى رأسهم كان أسابيوس القيصري أعلم الجماعة، بما أن مناصريه كانوا من متوسطي العلم.

ولما بدأ الخوض فيما اجتُمع له، بلغ الأمر من بعض الحاضرين أن سدّوا آذانهم استعظاما لما قُرئ على أسماعهم من كلام أريوس؛ لأن المجمع قد اكتفى من أجل عرض عقيدته، بقراءة عينات من كتاباته للحكم عليه؛ وكأنه كان يخشى من هذا العالِم الجليل أن يُفحم الخصوم. ولما يئس مؤيّدو أريوس من إعلاء عقيدته، فإن جُلّهم قد انضموا إلى الأغلبية، كعادة غير الراسخين. وفي نهاية المؤتمر، وبعد رفض قانون الإيمان الذي اقترحه الأسقف أسابيوس نصير أريوس، وبعد التحفظ على قانون الإيمان الذي اقترحه أسابيوس القيصري أيضا؛ قدّم وفد الإسكندرية قانون إيمانه الذي حظي بقبول الإمبراطور ومستشاره هوسيوس.

ولقد كان القانون المعتمد، يدعو إلى:
- اعتبار يسوع المسيح الابن الوحيد لله (تعالى الله)، المولود من الآب.
- القول بمساواة الابن للآب في الجوهر وفي الكمالات الإلهية. وعند اعتراض الأريوسيين على مصطلح "مساو للآب في الجوهر"، وذكرهم بأنه مخالف للكتاب المقدس، أُجيبوا بأن اعتراضهم صحيح بالنظر إلى حرفية الكتاب، ولكن المعنى المراد لهم، صحيح بالاستناد إلى مفهوم الكتاب. وهذا تحكُّم جلي من الأغلبية، وخروج إلى تحكيم الأهواء.
- اعتبار الابن مولودا من الآب، ومع ذلك فهو غير مخلوق.

وهذا نص قانون الإيمان الناتج عن مؤتمر نيقية:

[نؤمن بإله واحد، ضابط الكل، خالق كل الأشياء، ما يُرى وما لا يُرى؛ وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله المولود من الآب، المولود الوحيد؛ أي من جوهر الآب، إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق؛ مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر؛ الذي به كان كل شيء في السماء وعلى الأرض، الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا، نزل وتجسّد وتأنّس وتألّم، وقام أيضا في اليوم الثالث وصعد إلى السماء؛ وسيأتي من هناك ليَدينَ الأحياء والأموات؛ وبالروح القدس. وأما الذين يقولون كان زمان لم يوجد فيه، وإنه لم يكن له وجود قبل أن وُلد، وإنه خُلق من العدم، أو إنه من مادة أخرى أو جوهر آخر، أو إن ابن الله مخلوق أو إنه قابل للتغيير أو متغيّر، فهم ملعونون من الكنيسة الجامعة الرسولية.].

وإن هذا النص على ركاكة لغته، واضطراب معانيه، لا يصدق عليه إلا قول الله تعالى: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [الأنعام: ١١٦]؛ ولنُجمل ملاحظاتنا عليه في الآتي:

ا. إن مسألة العقائد، لا تكون أبدا بالإجماع البشري؛ لأنها منوطة بالصلة الفردية لكل عبد بربه، مما يجعل الناس متفاوتين فيها، بحسب درجات قربهم من ربهم. ولقد غلط في هذا الأصل كثير من المسلمين أيضا، فوقعوا في مثل ما وقع فيه المسيحيّون.

ب. إن نص القانون المذكور، نص شركِيّ، مخالف يقينا لما دل عليه عيسى من توحيد. وإننا نؤكد لكل من يشك في هذا الحكم، أن عيسى يرفض رفضا قاطعا الألفاظ التي تُثبت ألوهيته، أو تجعله مساويا لله سبحانه في شيء.

ج. إن معنى الابن كما يفهمه المؤتمرون معنى لا يصح، ولا يليق بالله. وبالتالي فإن العدول عنه، أفضل لمن كان يريد بلوغ الحق. يقول الله تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ . بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [البقرة: ١١٦، ١١٧].

د. إن القول بعدم مخلوقية المسيح، منقوض بالحس؛ لأن المسيح مجموع الروح والجسد، والجسد لا يتمكن أحد من إنكار مخلوقيته؛ إلا أن يكون أحمق فاقدا للأهلية. ونعني من هذا، أن كل عقيدة، ينقضها الحسّ من وجه تعلقه بها، فإنها تلتغي تلقائيا. وهذا، لأن عالم الحس يلتقي بعالم المعاني والأرواح، في كونهما معا يعودان إلى الحقائق ذاتها؛ التي لا تتبدل ولا تتغيّر أحكامها. والعالَمان -كما ذكرنا سابقا- يُشار إليهما في الوحي بلفظيْ السماء والأرض؛ أما الحقائق، فتُذكر في القرآن بلفظ "سنة الله".

هـ. إن عقيدة الفداء والخلاص، عقيدة وضعية، تنافي الحكمة من التكليف الشرعي. وعيسى من هذا الوجه، ليس بِدعا من الرسل، بل هو على سُننهم يسير. وهو في هذا، كما أمر الله نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠]. ومن غاب عنه أن الأنبياء سلسلة من مظاهر الحق، الداعية إلى عبادته وإفراده بالعبودية، وإن أثبت المرتبة لواحد منهم دون الآخرين، فإنه يكون منحرفا عن الصراط المستقيم، وإن بالغ في الانتصار لرسالة بعينها أو لرسول بعينه. وهذا الذي نقوله، دليل من دلائل وحدانية الألوهية البارزة؛ لأنه لو تعدد الإله،

لقيل بإمكان اختلاف المرسلين فيما بينهم. وأما والحال غير تلك، فإن التكامل بين الرسالات حاصل، والتآزر بين الرسُل واقع.

و. وأما لعن المجتمِعين لكل من يُخالف ما اتفقوا عليه هم، فهو خروج بالمسيحية عن أصلها وعن السَّعة، إلى الباطل المعاكس لها والضّيق. وإنّ كون الإمبراطور (الدولة) مع المسيحية الجديدة، لن يزيدها إلا بعدا عن الحق، ودخولا في خدمة الدنيا وأهلها، وإن زُعم العكس.

ز. إن الكنيسة ستُصبح بعد هذا القانون، سلطة دنيوية لا دينية؛ وإن تمسكت ببعض مظاهر التديُّن.

ح. إن الكنيسة الرسمية، سينقطع عنها منذ إعلان القانون، المدد العيسويّ، وستبقى في ظلمة متواصلة إلى ما شاء الله. هذا، مع بقاء بعض الأفراد على الحق فيما بينهم وبين ربهم ولا بد؛ حتى يبقى الدين قائما، في انتظار قدوم من يُعيده إلى أصله ويُكمِّله، صلى الله عليه وآله وسلم.

ط. ومن آثار هذا المؤتمر الفورية، كان أمر الإمبراطور بحرق كتب أريوس وبنفيه. وهكذا ستخذل الكنيسة أحد الرجال العظام من المسيحيّين، كما خذل بنو إسرائيل عيسى عليه السلام عينه؛ وسيتكرر المشهد ذاته، من غير أن ينتبه أساقفة اليوم، إلى أنهم على خُطى فريسيّي الأمس يسيرون.

ونحن إن ألحقنا أريوس بسابقيه من أهل الحق المسيحيين؛ خصوصا يوستينوس واكليموندوس، فإننا سنعلم أن تيّار بولس الطرسوسي الضّال، قد انتصر؛ ليعود الناس بذلك إلى سابق عهد الجاهلية (حكم الأهواء). وكما أن بني إسرائيل صاروا يهودا، منذ عودتهم من الأسر البابلي، وقبل انتهاء الزمن الموسويّ التشريعي؛ فكذلك المسيحيون سيُصبحون نصارى بعد مجمع نيقية، وقبل انتهاء الزمن التشريعي العيسوي؛ وكأن الناس بهذا الانتكاس، يستعجلون الضلال، قبل حلول وقته الحُكمي. إن في ذلك لآيات!...

وخلافا لما يعتقده النصارى، من أن مجمع نيقية قد جعل الفضل لكنيسة الشرق على كنيسة الغرب (من جهة الظاهر)، فإن الواقع هو خضوع كنيسة الشرق لهوى كنيسة الغرب. وهكذا، ستضطلع الكنيسة الغربية وتابعتها الشرقية من الآن، بالدعوة إلى دين وضعي جديد يُسمّونه زورا المسيحية الأرثوذكسية. ورغم قرار مجمع نيقية، ومع حرمان أريوس ومَن تابعه في آرائه؛ فإن كثيرا من الأساقفة والآباء الذين اشتركوا في أعمال المجمع، عادوا -عند رجوعهم إلى بلدانهم- إلى ما كانوا يعلّمونه فيما قبل. وهكذا عادت المجادلات بين الأفرقاء إلى الظهور من جديد، وعادت الاضطرابات إلى الكنيسة، تشتد حينا، وتخفت آخر؛ كما هو حال الناس في جميع الأزمان ومع جميع الملل.

١٠. أثناسيوس:

شاء الله أن يجعل أم الإمبراطور "هيلانة" وأخته "قسطنطينة"، مدافعتَيْن عن أريوس ومذهبه، في وجه مجمع نيقية وتوصياته. وقد وصل تأثير المرأتيْن إلى حد إعادة أسابيوس إلى أبرشيته في نيقوميدية، ثم بعد ذلك إلى إصدار العفو عن أريوس ذاته، وإعادته إلى منصبه، مع مراسلة أسقف الإسكندرية بذلك. ولم يكن أسقف الإسكندرية هذه المرة ألكسندروس الذي انتقل عن الدنيا، بل كان الشماس (السابق) "أثناسيوس"، الذي نُصِّب أسقفا يوم ٨ يونيو ٣٢٨م.

وقد وُلد أثناسيوس حوالي ٢٩٦م، ثُم رُسم شماسا في سنة ٣١٩م، وبلغ الأسقفية -كما ذكرنا- سنة ٣٢٨م. ولم يكن ارتقاء أثناسيوس للأسقفية محل إجماع؛ فقد كان يعارضه بعض الكهنة المصريين، بالإضافة إلى غيرهم ممن كانوا خارج مصر؛ وعلى رأسهم أسابيوس أسقف نيقوميدية، الذي كان يرى في أثناسيوس خطرا مانعا من نشر الأريوسيّة في المشرق. وقد انتهى الأمر باتهام أحد كهنة الإسكندرية (يوحنا أرتف) لأثناسيوس بمخالفات نظامية لدى قسطنطين. لكن بعد مثول أثناسيوس أمام الإمبراطور، ظهرت براءته، وعاد مكرما إلى منصبه في سنة ٣٣٢م. وأما الضربة الموجعة لأثناسيوس،

فقد كانت أمر الإمبراطور بإعادة أريوس إلى منصبه في الإسكندرية. وقد كان أعداء أثناسيوس يعلمون أنه لن يقبل بهذا القرار الإمبراطوري، فكان ما توقّعوا. فانتهزوا الفرصة، لعقد مجمع صور، من أجل النظر في أمر أريوس.

ولقد اجتمع هذا المجمع في مدينة صور سنة ٣٣٥م، تحت رئاسة الأسقف أسابيوس القيصري؛ وحضر أثناسيوس الإسكندري في خمسين أسقفا، فمُنع الوفد المصري من الدخول إلى المجمع، بحجة أنه غير مدعوّ إلى المشاركة في أعمال المجمع؛ غير أنه يُحتمل أن أثناسيوس قد وُفق لحضور بعض الجلسات. وقد كان من المُزمَع بحث قانون إيمان أريوس للتحقق من صحته وسلامته، وبدل ذلك تحوّل المجمع إلى بحث التهم الموجّهة إلى أسقف الإسكندرية، وقد كانت كثيرة. ومن ضمن هذه الاتهامات، كانت تهمة أمره بقتل أحد الأساقفة المصريين المعارضين له، وهو الأسقف "أرسينوس". ولقد أفلح أثناسيوس في دحض هذه التهمة، بشهادة أرسينوس نفسه الذي كان قد أحضره معه. وعندما أيقن أثناسيوس أن القوم يعتزمون عزله من منصبه، رحل سرا إلى الإمبراطور، من أجل رفع قضيته إليه، والتظلُّم بين يديه. ولكن المجمع أيضا انتهز غياب أثناسيوس، وحكم غيابيا عليه بالعزل، كما حكم بعودة أريوس إلى منصبه في المقابل. ورغم إصرار أثناسيوس على تبرئة نفسه، فإن الإمبراطور قد صادق في النهاية على قرار مجمع صور، فأمر بعزله ونفيه، وبإعادة أريوس إلى منصبه. وقد نُفي أثناسيوس إلى مدينة "تريفز" (ضمن ألمانيا حاليا)، سنة ٣٣٥م.

ولقد كانت عودة أريوس إلى منصبه، بعد كل الاتهامات التي طالته، نصرا عظيما له ولأتباعه ولمذهبه. ورغم كل هذا، فإن مُعظم الكنيسة المصرية، بقي على رفضه لأريوس، الذي رُسم في النهاية في كنيسة في أورشليم. وبعد تنصيبه في أورشليم، دخل أريوس في موكب من جماعته إلى القسطنطينية؛ ويُقال إنه في اليوم نفسه، وهو يسير في شوارع القسطنطينية، شعر بألم شديد في بطنه، اضطره إلى الاختلاء بنفسه، ليموت في الحال. ورغم أن البعض قد تمسك بأطروحة الموت مرضا، فإن موت أريوس متسمِّما يبقى أرجح من غيره، بالنظر إلى الصراعات التي كانت بينه وبين أعدائه.

ولقد زاد من تغيّر الوضع، موت الإمبراطور قسطنطين عينه، في ٢٢ مايو من سنة ٣٣٧م. ولم يطلب أن يُعمّد إلا في اللحظات الأخيرة من حياته، وهو من كان له الرأي النافذ في الكنيسة؛ فعمده الأسقف أسابيوس النيقوميدي. ولقد ترك الإمبراطور ثلاثة من الأبناء، حكموا مُشاركةً، وهم: "قسطنطين الثاني" و"قسطنديوس" و"قسطنطس". وقد حكموا بحسب الترتيب: الغرب، والشرق، والبرية وجزءا من أفريقيا. وكان قسطنديوس حاكم الشرق أريوسيا، بينما كان أخواه أرثوذكسييْن. وبعد تولّي الأباطرة الجدد الحكم، أمروا بإعادة الأساقفة المنفيين؛ وقد كان ذلك الاقتراح من قسطنطين الثاني، بقصد بعث الشقاق والاضطرابات في الجزء الشرقي الذي تحت حكم أخيه. ولقد كان من أثر قرارات الإمبراطوريْن السابقة، أن عاد أثناسيوس إلى وطنه في ٢٣ نوفمبر سنة ٣٣٧م؛ فاستقبله الشعب استقبالا حارا، بعد غياب دام قرابة السنتيْن. غير أن الأريوسيين الذين على رأسهم أسابيوس النيقوميدي، الذي أصبح أسقفا للقسطنطينية، لم يُعجبهم ذلك؛ وكانت النتيجة مراسلة الأباطرة ثم أسقف روما "يوليوس"، زاعمين بأن الشعب المصري لا يرغب في عودة أثناسيوس، متهمين للأسقف العائد بتهم جديدة مضافة إلى تلك القديمة. ويُحتمل أن أثناسيوس قد أوعز إلى أنصاره من أساقفة مصر بإعلان مؤازرته، فقام هؤلاء بإظهار تأييدهم له في سنة ٣٣٨م؛ وانضم إلى المؤيدين "أنطونيوس" القادم من الصحراء. وكان لانضمام أنطونيوس الوقع الكبير في نظر الشعب، لأنه كان مبجلا لديه. فما كان من أسقف روما إلا أن أعلن عن عقد مجمع مسكوني في روما، للنظر في هذه النزاعات. ولكن الأساقفة الأريوسيين رفضوا هذا المقترح، واحتجوا بشدة على عقد مجمع للنظر في قضية شرقية، سبق لمجمع شرقي أن أصدر الحكم فيها. فكان رد روما قويا، أظهر فيه أسقفها أفضلية روما على باقي الأسقفيات الأخرى؛ وأرسل خطابا شديد اللهجة إلى أسابيوس أسقف القسطنطينية. ولكن أسقف القسطنطينية لم يكن متهورا، فأراد أن يُلطِّف من الخلاف، فدعا إلى مجمع في أنطاكيا سنة ٣٤١م، وقدم فيه مع

حزبه قانون إيمان، يُعتبر وَسَطاً بين قانون الإيمان النيقويّ والعقيدة الأريوسية. وبما أن مؤلفي هذا القانون الوسط، كانوا يقصدون إلى نقض القانون النيقوي، بصفة غير مُعلنَة، وفي الوقت ذاته، إلى مد يد العون إلى الأريوسيين؛ فقد لجأوا إلى استعمال عبارات سبق لمجمع نيقية أن أقرها في تعظيم السيد المسيح، وتعمّدوا في المقابل إهمال الاصطلاحات المخترعة فيه كاصطلاح "وهو مساوٍ للآب في الجوهر". وإلى جانب التعديل في قانون الإيمان، فإن هذا المجمع قد حكم بعزل أثناسيوس، وبتعيين "غريغوريوس" محله. فلجأ أسقف الإسكندرية إلى أسقف روما، وعرض عليه قضيته، فما كان من "يوليوس" إلا أن عقد مجمعا ألغى قرارات مجمع أنطاكيا. وهنا تبدّت الكنيسة منقسمة إلى قسميْن لا تخطئهما العين، هما:

- المؤيدون لقانون إيمان نيقية، وهم الغربيون وأثناسيوس الإسكندري.
- الرافضون لقانون نيقية، وهم الشرقيون، وعلى رأسهم أسابيوس النيقوميدي (أسقف القسطنطينية).

ومما ينبغي أن يُذكر هنا، هو أن حزب أسابيوس، كان يضم المعتدلين أيضا، المقِرّين لقانون الإيمان المعدّل؛ وقد أصبحوا يُدعون فيما بعد بـ "أنصاف الأريوسيين". وكان على رأس هذا الحزب المنبثق عن الطرفيْن، أسابيوس القيصري؛ فرُفضت من قِبله عقيدة أريوس وعقيدة أثناسيوس معا. ولقد أعلن هذا الحزب عن مرتكزات عقيدته، فقال برؤية صورة الله في الابن؛ وقال بأن الابن هو الله بالطبيعة، ولكن ليس من طبيعة الله الآب؛ ورفضوا كالأريوسيين عبارة "مساو للآب في الجوهر". ونحن هنا لا بد من أن نقرّ لهذه الفرقة بإصابتها في الكلام عن الصورة، لكونها مناط الخلافة الإلهية التي لعيسى ولغيره من سائر الخلفاء. وهذا تقدم كبير في اللاهوت المسيحي، سنرى هل سيُبنى عليه، أم سيُهمل. وأما العبارة المتعلّقة بطبيعة الابن و"طبيعة" الآب، فإنها مضطربة جدا؛ لا نظن أنها قيلت إلا من أجل التوفيق بين الطرفيْن المتنازعيْن، لأنها لم تُضف من جهة العلم شيئا إلى ما سبق. وأما رفض المساواة في الجوهر بين الابن والآب، فرغم تحفظنا على إطلاق "الجوهر"، إلا أننا نعُدّ ذلك تقدما في الطريق الصحيح.

وبعد مقتل الإمبراطور قسطنطين الثاني، أصبح أخوه قسطنطس حاكم الغرب الوحيد، الذي كان قد سئم الصراعات والانشقاقات، فاتفق مع أخيه قسطنديوس في الشرق، على عقد مجمع للنظر في هذه المشاكل الكنَسيّة. وعُقد المجمع في مدينة "سرديكا"، على حدود الإمبراطوريتين سنة ٣٤٣م. وعلى غير المظنون، فقد دبّت الخلافات إلى هذا المجمع من قبل أن ينعقد. فوصل إلى المكان أولا، الأسقف أثناسيوس في معية الوفد الغربي، ومن ضمنه "هوسيوس" رئيس مجمع نيقية، الذي يبدو أنه اختير أيضا لرئاسة مجمع سرديكا؛ وبدأ المجمع أعماله قبل وصول الفريق الأسابيوسي. وعندما وصل الأسابيوسيون، عرفوا بأن أثناسيوس كان له الحق في المشاركة في أعمال المجمع، وفي التصويت؛ فاحتجوا على ذلك، وتركوا مجمع سرديكا، وتوجهوا نحو مدينة أخرى تُدعى "فليبوبوليس"، وعقدوا فيها مجمعا آخر. وهكذا انعقد مجمعان في مدينتيْن مختلفتيْن، وأصدرا قراراتهما. فأما مجمع سرديكا، فقد أكد على قانون إيمان نيقية، وأعاد أثناسيوس إلى منصبه، وعزل باسيليوس أسقف أنقرة، وغريغوريوس أسقف الإسكندرية؛ وأما مجمع فليبوبوليس فقد رفض قانون الإيمان النيقوي، وأقر ثانية قانون الإيمان الأنطاكي؛ ثم خلع "أثناسيوس" و"ماركلوس"، وقطع يوليوس أسقف روما، وهوسيوس أسقف قرطبة. ولقد حظي فريق الأسابيوسيين بدعم الإمبراطور "قسطنديوس"؛ وعلى الرغم من ذلك، ومن وفرة عدد هذا الحزب، إلا أنه كان مفككا، بسبب وجود المعتدلين ضمن صفوفه. أما الفريق النيقوي، فعلى العكس منه، كان متراص الصفوف قوي الروابط. وازدادت الأوضاع تفاقما، عندما هجم الجنود الرومان على الإمبراطور "قسطنطس"، وقتلوه سنة ٣٥٠م؛ فأصبح بذلك الإمبراطور "قسطنديوس" الحاكم الوحيد على الشرق وعلى الغرب. وعندئذ حانت الفرصة للإمبراطور من أجل إذلال الغرب والمتعاونين معه، من أمثال أثناسيوس والأساقفة الأرثوذكسيين في مصر وفي غيرها، فدعا إلى عقد مجمع في "ميلانو" سنة ٣٥٥م، وخيّر المجتمعين بين خلع أثناسيوس أو النفي؛ فوقّعت الأغلبية تحت الضغط والتهديد، على

خلع أثناسيوس، الذي أمر الإمبراطور بنفيه. فرفض أثناسيوس القرار، واحتج عليه بأنه ليس من حق الإمبراطور إبداء الرأي في الأمور الدينية، وهو يجهلها؛ فثارت ثائرة الإمبراطور لذلك، وبعث قوة عسكرية إلى الإسكندرية قوامها ٥٠٠٠ جندي، للقبض على الرجل. ولكن أثناسيوس كان يحظى بتأييد الشعب وتأييد الرهبان، فرُحّل من قِبل مؤيديه إلى الصحراء، فلم يتمكن حاكم الإسكندرية من القبض عليه. وعيّن الإمبراطور أحد موظَّفي المالية أُسقفا بدل أثناسيوس، ولكن الشعب قابل هذا التعيين باستهجان؛ وهجر الكنيسة التي كان يُصلّي فيها الأسقف الجديد "جورجيوس"؛ فاستعمل هذا الأخير الشرطة لإحضار الناس إلى الصلاة مرغمين، وألقى بالكثيرين منهم في السجن. وهنا بدأ خطر التقسيم يهدد الإمبراطورية والكنيسة معا، لأن الدين قد اختلطت به أمور السياسة –كما حدث ذلك مرارا عبر التاريخ– فأصبح الدين مهددا، وأصبح الحكم معه أيضا مهددا. ولقد رأى الإمبراطور ومن يُشير عليه، أن يُعقد مجمعان –هذه المرة– بدل الواحد؛ أحدهما في الشرق، في مدينة "سلفكية" (تركيا)، وتكون المجادلة فيه باللغة اليونانية؛ والآخر في الغرب، في مدينة "ريمينة" (إيطاليا)، ويكون التخاطب فيه باللغة اللاتينية. ولقد بدأ مجمع ريمينة أعماله في يونيو ٣٥٩م، وحضره أربعمائة أسقف، طوعا أو كرها؛ وحضر مجمع سلفكية في مقابل ذلك مائة وخمسون أسقفا من الشرق. ولقد أُشير على الإمبراطور بعرض قانون إيماني موحد على المجمعيْن لإبداء رأيهما فيه، تسهيلا لأمر التلاقي؛ وسيحمل هذا القانون فيما بعد اسم "قانون الإيمان المؤرَّخ"؛ لأن الأسقف مرقس ذكر قبل نص القانون، موافقة الإمبراطور على هذا الاجتماع، ثم ذكر التاريخ (السنة والشهر واليوم) الذي تمت فيه الموافقة. ويتفق هذا القانون الإيماني الجديد، مع توجهات الأريوسيين المعتدلين: فقد استبدل عبارة "مساوٍ للآب في الجوهر" بعبارة "مشابه للآب في الجوهر"؛ كما أنه أقر بأن الابن مولود قبل الدهور؛ لكنه ولأول مرة يذكر نزول المسيح إلى الجحيم. ولقد رفضت أغلبية مجمع ريمينة نص القانون المؤرَّخ، وطالبت بالتمسك بالقانون النيقوي؛ إلا أن الأقلية (حوالي ثمانين أسقفا) قبلت التجديد والرضوخ للأوامر الإمبراطورية. ولقد صدرت أوامر الإمبراطور إلى الأغلبية بالانضمام إلى الأقلية كرها؛ وهكذا اعتُمد قانون الإيمان من قِبل مجمع ريمية. وأما المجمع الشرقي، فإن أغلبيته ظلت رافضة للقانون، خوفا من إيال أمره إلى انقسامات جديدة زائدة على الأولى. ولقد كان أعضاء المجمع الشرقي، يتوهمون أن المجمع الغربي قد رفض هو أيضا القانون المؤرخ، ولكنهم عند بعث وفد عنهم إلى القسطنطينية لمقابلة الإمبراطور، فوجئوا بما خيّب ظنّهم. ولقد أُخذ أعضاء مجمع سلفكية بقوة الشرطة، فأذعنوا هم أيضا، بعد بضعة أسابيع، لرغبة الإمبراطور. وفي أول يناير من سنة ٣٦٠م، وقع الوفدان عن المجمعيْن في القسطنطينية، على قانون الإيمان المؤرّخ؛ وأُرسلت رسالة بذلك إلى جميع الكنائس المعروفة في العالم آنذاك، وهددت السلطات كل من يخرج عن هذا القانون؛ لكن عددا لا بأس به من رجال الكنيسة ظل ممتنعا عن التوقيع عليه، رغم كل شيء. ومع أن أثناسيوس كان في ذلك الوقت منفيا، فإنه بعث إلى الوفدين المصري والليبي، ليظلا متمسِّكيْن بقانون نيقية، وقد تحقّق له ذلك، بسبب تأثيره الذي لا يُشكك فيه أحد. لكن مع ذلك، فإن توقيع الأغلبية على القانون الجديد، قد كان يعني حتما موت القانون النيقَويّ. وبناء على ذلك فإن الكنيسة الآن، قد أصبحت منكِرة للقول بأزلية ابن "الله". ورغم أن هذا القرار، من الناحية العقَدية، كان أقرب إلى الصواب؛ فإنه من الناحية التديُّنيّة العامة، سيجعل الكنيسة تابعة للسلطة الحاكمة، وهو ما سيصيّرها مؤسسة دنيوية في الحقيقة، لا دينية.

وعندما مات الإمبراطور قسطنديوس في ديسمبر ٣٦١م، تولى بعده "يوليانوس" بن "يوليوس"، الذي وإن لم يكن مشجعا للمسيحية، فإنه كان له بعض إنصاف، سمح بإعادة الأساقفة المنفيين إلى أوطانهم. فظهر أثناسيوس من جديد، بعد غياب في الصحراء، دام ست سنوات. وانتهز الأسقف العائد مرور الأساقفة العائدين بالإسكندرية، ليعقد مجمعا يتدارس الأحوال في مدة المنفى، وينظر في أمر الأريوسيين مرة أخرى. ولكن الإمبراطور الوثنيّ، عاجل أثناسيوس بعد

شهور من عودته، بقرار نفي جديد؛ فاضطر الأسقف إلى الاختفاء في الصحراء من جديد. وبقي أثناسيوس مختفيا، إلى أن قُتل الإمبراطور "يوليانوس" في السادس والعشرين من يونيو سنة ٣٦٣م؛ فعاد مرة أخرى إلى الإسكندرية، مواصلا نشاطه من غير ملل. ولما تولى الإمبراطور "يوفيانوس" الحكم، وكان أرثوذكسيا متمسكا بقانون نيقية، فإنه بعث إلى أثناسيوس يدعوه إلى الإقامة في القصر الإمبراطوري مدة، فلبّى الأسقف الدعوة؛ ولكن الإمبراطور الجديد لم يُعمّر طويلا، ومات في سنة ٣٦٥م؛ فخلفه "فلنس"، الذي أمر بإعادة نفي كل الأساقفة الذين حكم قسطنديوس بنفيهم، والذين من بينهم أثناسيوس نفسه. فنُفي الأسقف للمرة الخامسة، ولكنه اختار هذه المرة البقاء مختبئا في ضواحي المدينة، عند أحد أصدقائه. وحدث أن الشعب ذهب إلى مقر إقامته، هاتفا بحياته سنة ٣٦٦م؛ فاضطر الإمبراطور إلى الأمر بإعادته إلى منصبه في مدينة الإسكندرية. وهكذا بلغت مدة أسقفيته خمسا وأربعين سنة، قضى منها عشرين في المنفى. ولم يتمكن أثناسيوس، من أن يرى الانتصار التاريخي لمذهبه في مجمع القسطنطينية المسكوني عام ٣٨١م، لأنه مات في ٣ مايو من سنة ٣٧٣م.

انعقد مجمع القسطنطينية للنظر في الأمور العقديّة التي بقيت تشغل الناس كل هذه المدة، ويُظن أن الإمبراطور "ثيودوسيوس" هو الذي دعا إلى انعقاده. وقد ضم المجمع حوالي مائة وخمسين أسقفا، ترأس جزءا من أعماله الأسقف "غريغوريوس" النزيانزي، أسقف القسطنطينية. ولقد قرر آباء المجمع المسكوني الثاني قبول القانون الإيماني النيقوي، مضيفين إليه بعض الفقرات والعبارات لشرحه وتفصيله؛ كقولهم: "... الروح القدس الرب المحيي، المنبثق من الآب، الذي هو مع الآب والابن مسجود له وممجد، الناطق بالأنبياء."؛ و"غفران الخطايا"، و"الكنيسة" و"القيامة" و"الحياة الأبدية"، والتي لم ينصَّ عليها قانون نيقية. كما أن القانون الجديد، لم يعرض لذكر الحرمان الذي خُتم به القانون النيقوي.

وبعد أن أنهى المجمع أعماله، بعث برسالة شكر إلى الإمبراطور، الذي اعتمد القرارات. وهكذا ستنتصر "الأرثوذكسية" من جديد. وهذا هو نص قانون الإيمان المنسوب إلى مجمع القسطنطينية:

[نؤمن بإله واحد، آب ضابط الكل، خالق السماء والأرض، كل ما يُرى وما لا يرى؛ وبرب واحد يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مُساوٍ للآب في الجوهر، الذي به كان كل شيء، الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء، وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء؛ وتأنَّس وصُلب عنا على عهد بيلاطس البنطي، وتألم وقُبر؛ وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الآب؛ وأيضا يأتي بمجد ليَدين الأحياء والأموات؛ الذي لا فناء لملكه. وبالروح القدس، الرب المحيي، المنبثق من الآب، الذي هو مع الآب والابن مسجود له وممجد، الناطق بالأنبياء، وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية. ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا، ونترجّى قيامة الموتى والحياة في الدهر العنيد. آمين.]. وإن أول ما نلاحظه على هذا النص، كونُه أكثر اضطرابا من نص نيقية، وأكثر تلفيقا، وأبعد عن المسيحية الأصلية. وهذا غير مستغرب، ما دام أهل الدين -كما سبق أن ذكرنا- شأنهم أن يستبدلوا أفكارهم بما هو رباني، بسبب البعد الزماني عن نور النبوة. وعلى علات هذا القانون، فإن مجمع "توليدو" المنعقد سنة ٥٨٩م، سيقبله، بعد تغيير العبارة الآتية: "وأؤمن بالروح القدس، الرب والمحيي، المنبثق من الآب والابن..."؛ وهذا يعني أن الروح القدس منبثق من الآب ومن الابن أيضا. وقبلت كل الكنائس الغربية والكنائس الإنجيلية فيما بعد هذا النص، ورفضته الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية. ونحن نعُد الاختلاف حول مسألة الروح القدس هنا، اختلافا صوريا؛ لأنه من جهة، هو روح الله المذكور في قوله تعالى: {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} [الحجر: ٢٩]؛ ومن جهة أخرى، هو حقيقة العبد الرباني الذي هو هنا عيسى. ومعنى قولنا هذا، هو أن الروح القدس، لا يُقال به إلا مع اعتبار العبد المخلوق؛ لأجل رفع التباس كون الله روحا (تعالى)، أو كونه سبحانه

منقسم الحقيقة بين الروحية والجسمية، كما هو المخلوق. وما مسألة القول بالجوهر والعرض هنا، إلا إعادة لعرض المسألة بصيغة أخرى فحسب. ولقد وقع في هذا الالتباس كثير من اللاهوتيين من المسيحيّين ومن غيرهم...

١١. أبوليناريوس:

وُلد أبوليناريوس حوالي ٣١٠م، في "تيكسيرونت" بحسب المظنون؛ ولقد نشأ وتربى في عائلة مثقفة جدا. وكان أبوه مصريّ الأصل، يعلّم قواعد اللغة والخطابة في بيروت؛ ومنها انتقل إلى اللاذقية حيث وُلد أبوليناريوس الابن. ولقد كان الأب كاهن اللاذقية، والابن التلميذ، يتقنان معا الخطابة والشعر والفلسفة؛ وكان من أثر ذلك، أن أصبح الابن مدرسا للخطابة فيما بعد في مدينته، على عهد الأسقف ثيودوتوس. وكان كل من الأب والابن، شغوفا بالاستماع إلى الفيلسوف الوثني "أبيفانيوس"؛ ويُظن أن هذا الأخير أصبح تلميذا لأبوليناريوس فيما بعد. ولقد أنكر الأسقف ثيودوتوس على الرجلين صلتهما بأبيفانيوس، وقطعهما من الكنيسة بسبب ذلك. وعندما تولى "جورجيوس" خلافة أسقفية اللاذقية، قُطع أبوليناريوس مُجدّدا؛ وهذه المرة لأنه استقبل أثناسيوس، عند مروره باللاذقية سنة ٣٤٦م. وقد صار الرجلان صديقين منذئذ، على اختلاف في بعض العقائد. وعلى ما يبدو، فإن جماعة الأرثوذكسيين في اللاذقية، هي التي اختارت أبوليناريوس أسقفا عليها سنة ٣٦٠م. ومع أن الأسقف كان مقيما في اللاذقية، إلا أنه كان يتردد على أنطاكيا كثيرا، وقام بتأسيس مدرسة تفسير بها. والأنطاكيون يُعدّون أول من قبل تعاليمه ودعوا إليها، بسبب شهرته بينهم بالعلم والمقدرة على التفسير. وعلى الرغم من أن أبوليناريوس كان يُخالف مذهب أنطاكيا في العقيدة، فإنه كان يتفق معها من الناحية الإجرائية، الفلسفية والتفسيرية؛ ولقد زاد من قبوله بين الأنطاكيين، اتصافه بالزهد والتقشف. ويُعتقد بأن أبوليناريوس مات في سنة ٣٩٠م، بعد أن علّم "جيروم" الذي كان شابا يومئذ.

لقد كان أبوليناريوس مطلعا على عقائد الإسكندرية وأنطاكيا معا، وكان إلى جانب ذلك من المناصرين لقانون الإيمان النيقوي. ولعل جمعه للمختلفات هذا، هو ما جعله يطلب تناول حقيقة المسيح، بما يظنه طريقا ثالثا، يُقارب مقولات "يوستينوس"، الذي كان متأثرا بالأفلاطونية القائلة بتثليث الإنسان: الجسد (SOMA)، والنفس (PSYCHE)، والروح (PNEUMA). فقال الأسقف اللاذقي بأن المسيح مثلث الحقيقة: فهو جسد ونفس ولوغوس. وكان يعني أن مُحرِّك الجسد كان روحا عاقلة فيه، واللوغوس قد حل محل الروح بعد ذلك. وقد التبس على أبوليناريوس أمر اللوغوس هنا، عند ظنّه أنه قد اتخذ لنفسه جسدا، بتأوُّله للكتاب المقدس؛ وعند توهّمه بأن اللوغوس لا بد له من إلغاء حكم الروح، ليتم له ذلك. وقد زاد من توهُّمه لهذا، علمه ببلوغ المسيح درجة القداسة الكاملة، التي لا يمكن أن تكون عن روح بشريّ عاقل، قياسا على ما يعلم من أحوال الناس. ثم زاد أبوليناريوس من إبعاده، عندما رأى أن الروح البشري، لو بقي في المسيح، لكان ينبغي أن يكون حرا ومريدا في أفعاله؛ وهذا -بحسب زعمه- ينافي ما يكون عليه اللوغوس؛ وهو ما كان سيؤدي إلى صراع في المسيح في نظره. ثم زاد الرجل في الإبعاد، عندما قال بأن اعتقاد وجود الروح في المسيح، يؤدي إلى القول بمسيحين: اللوغوس ابن الله من جهة، والإنسان المخلوق من جهة ثانية. ورغم ما يبدو في المسألة من تعقيد، إلا أنها تبقى صورية؛ لأن التثليث في المسيح، وفي كل عبد رباني، هو اعتباري منوط بالمراتب فحسب. ونعني أن المسيح كان هو اللوغوس، وكان هو الروح العيسوي المدبّر لجسده، وكان هو الجسد الطبيعي الذي رفعه الله إليه؛ من غير تعدد ولا انقسام. وهذه الوحدة غير المنقسمة إلا بالاعتبار، هي المسماة نفس عيسى، والتي يقول الله عنها حاكيا قول عيسى: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [المائدة: ١١٦]. ونزول أبوليناريوس إلى هذا المستوى من التخبط، لا يعني إلا أنه يقصر عن الكلام في اللاهوت؛ هذا مع وجوب الإشارة

إلى أنه لم يكن أول من قال بعدم وجود الروح في المسيح؛ وأنه كان مسبوقا في ذلك ببعض الجماعات التي لم يُؤبه لها في خضم الصراع الأريوسي الأرثوذكسي الحاد.

ويصف أبوليناريوس المسيح بـ "الإنسان السماوي"، والذي لم يصر كذلك، إلا بعد اتحاد الشطر الإلهي، بالإنسان البشري فيه؛ وحتى يكون هذا الاتحاد تاما، فإنه يقول بوجوب إلغاء الروح من هذا الإنسان، كما سبق أن بيّنّا. وجعل الأسقف هذا الإنسان السماوي ذا حقيقة لاهوتية علوية، وحقيقة ناسوتية سفلية، خالية من الروح. وهذا الكلام سترفضه الكنيسة، وهي محقّة في ذلك؛ لأنه بدل أن يُسهّل تعريف المسيح، شوّهه وأخرجه عن الآدمية. ولقد رُفضت عقيدة أبوليناريوس في مجمع الإسكندرية سنة ٣٦٢م، ثم في المجمع الروماني سنة ٣٧٧م، ثم في المجمع الإسكندري مرة أخرى سنة ٣٧٨م، ثم في المجمع الأنطاكي سنة ٣٧٩م، ثم في المجمع المسكوني الثاني بالقسطنطينية سنة ٣٨١م. وبالرغم من كل هذا الرفض، فقد بقيت هذه الهرطقة منتشرة إلى عام ٤٢٠م. وكالعادة، فإن لكل عقيدة مدافعين وقابلين؛ وسيظهر من رجال الكنيسة من سيحمل عقيدة أبوليناريوس ويدعو إليها، لتنضاف إلى عدد لا بأس به من العقائد التفصيلية الأخرى.

ولقد كتب أبوليناريوس عدة كتب منها:

- كتب دفاعية: اشترك في كتابتها مع والده، يشرح فيها العقيدة المسيحية، في عصر يوليانوس المرتد.
- كتب تفسيرية: وهي حوالي ثمانين نصا تفسيريا، من العهدين.
- كتب عقدية: منها كتاب "ضد ديودوريوس"، وكتاب آخر؛ وكتابان أحدهما ضد تعاليم أوريجانوس، والآخر ضد دونيسيوس. وكتاب ضد "فلافيانوس"، الذي صار فيما بعد أسقفا لأنطاكيا.
- قانون إيمان.
- خطابات.
- كتب أخرى: عن الاتحاد في المسيح، والتجسد، وظهور الله في الجسد؛ وكتاب ضد من يقولون بحلول اللوغوس في الإنسان.

ولا بد في نهاية الكلام عن أبوليناريوس، من القول بأنه لم يكن من المطورين للعقيدة المسيحية؛ بل كان من مثبطيها، والرجوع بها إلى ما قبل ذروة أريوس. ونحن نقول هذا، مع تأكيدنا بأن التنظير الأبوليناريوسي وإن بدا منطقيا في نفسه، فإنه كان مُسِفّا وسطحيا، لا يليق أن يُتوقّف عنده. ولولا أننا رأينا أنه من الأمانة الإتيان على ذكره، لفضلنا أن نتجاهله، لضعف مكانته.

ولقد مرت الكنيسة في القرون الأربعة الأولى بحقب صعبة، لكون جلّ العقائد الكريستولوجية قد ظهرت وتبلورت إبانها. وإن نحن شئنا أن نلخص النزاعات العقدية، وأن نحصرها في مسألة بعينها، فإننا سنجعلها "الربانية" (ربانية المسيح)، التي إن حصلت للعبد، فإنها تُبدّل حُكمه. وبما أن الربانية مجهولة لأغلب المسلمين، فضلا عن المسيحيين، فإننا سنؤجل الكلام عنها بالتفصيل اللائق، إلى الجزء الخاص بالإسلام من هذا الكتاب، إن شاء الله. ولنواصل مواكبتنا لتطور العقائد المسيحية فيما بعد القرن الرابع الآن...

الفصل السابع
الخلافات العقدية في القرنين الرابع والخامس

يقارن رجال الكنيسة في الهرطقة بين أريوس وأبوليناريوس، ويعدانهما شبيهيْن؛ بينما هما في الحقيقة مختلفان اختلافا جوهريا. فأحدهما ارتقى إلى ذروة المعاني، والتزم التوحيد كما هو في أصله؛ بينما الآخر نزل إلى حضيض التلفيق. وهذا يعني أن ما يُسمّى الأرثوذكسية المسيحية، التي تريد أن تجعل نفسها معيارا للحق والباطل المكونيْن لمختلف العقائد المسيحية، لا برهان لها في ذلك؛ وإنما هو ترامٍ منها على الدين واحتكار له من دون الناس، وبغير وجه حق. ونحن من كوننا لسنا معنيّين بالخلاف الداخلي المسيحي، فإننا نحكم على المختلفين بما نراه حقا؛ ونبيّن مُستندنا من علم الحقائق ومن علم الشرائع، ليتمكن الناظر من تتبّع الأحكام بنفسه، بعيدا عن العصبية وعن التوظيف المغرض.

وإن أهم محور دارت حوله العقائد بدءا من القرن الرابع الميلادي: القول بالطبيعة الواحدة، وبالطبيعتيْن؛ في شخص المسيح عليه السلام. ونحن قد كنا نبّهنا من قبل، إلى أنه لا يجوز القول بـ "الطبيعة الإلهية"، لأن المُصطلح عندنا يدخل في باب الإرداف الخُلفي (التناقض)؛ وذلك لأن الطبيعة مخلوقة لله، فلا يجوز جعلها وصفا له سبحانه، من هذا الوجه. وإن كان للمسألة في الحضرات مُستند آخر، فلا داعي لذكره الآن، ما دام المسيحيون -على كل حال- لم يبلغوا طور إدراكه. وسنُرجئ الكلام في ذلك كله، عندما نبلغ مسألة الصفات لدى المتكلمين المسلمين، في الجزء الخاص بالإسلام من هذا الكتاب، بإذن الله. ولنتناول الآن ما نراه ضروريا في نسبة الأقوال إلى قائليها، مع إبداء رأينا فيها بحسب الحاجة:

١. مدرسة الطبيعتيْن الأنطاكية:

لقد ظن الأرثوذكسيون أن أريوس كان مبتدعا، فقاموا لمحاربته؛ ولقد كان من أشد محاربيه أثناسيوس الإسكندري. ثم جاء أبوليناريوس للطعن في الأريوسية أيضا، لكنه وقع في البدعة التي لا خلاف عليها؛ فانتهى به الأمر محروما من الكنيسة مقطوعا. ولكن رغم طعن الكنيسة في عقيدة أبوليناريوس، فإن الأبوليناريوسية قد انتشرت؛ وما نظن ذلك إلا لأنها توافق السطحية التي يكون عليها العامة في الغالب. ولقد أُشير إلى الأريوسية والأبوليناريوسية اختصارا، بعقيدة "الكلمة – الجسد". وقد كان ذلك دافعا لمجموعة من الآباء للمُضيّ -في المقابل- في طريق القول بـ: "اللوغوس – الإنسان" أو "اللوغوس – الأنثروبوس".

ويبدو أن الأريوسية قد حفزت جماعة من الأنطاكيين على التفكر في مسألة طبيعة المسيح، سنة ٣٦٠م، وكان على رأسها: "ديودوريوس الطرسوسي"، و"يوحنا فم الذهب"، و"ثيودوربوس الموبسيوستي". فقام هؤلاء بمهاجمة الأريوسية والأبوليناريوسية معا، ودعوا إلى عقيدة "اللوغوس — أنثروبوس"؛ وهو التيار العقدي الذي اتبعه عدد كبير من معلّمي مدرسة أنطاكيا. ولنعرض الآن لنموذج من شخصيات هذا التيّار:

الأسقف ديودوريوس الطرسوسي:

وُلد ديودوريوس في السنوات الأولى من القرن الرابع في أنطاكيا؛ وعلى ما يبدو، فإنه كان من عائلة مثقفة وثرية؛ ولذلك فقد استطاع الذهاب إلى بلاد اليونان والدراسة في عاصمتها. وقد انخرط في الرهبنة معتزلا في دير بالقرب من أنطاكيا، حيث قضى عشر سنوات من حياته في الصلاة والدرس والتأمل. ولقد التقى في هذا الدير برجليْن، سيكون لهما

شأن في تاريخ العقائد المسيحية، هما: يوحنا فم الذهب، وثيودوريوس الموبسيوستي. وقد تتلمذا على يديه، ليصبح الأول أسقفا للقسطنطينية سنة ٣٩٨م، والثاني أسقفا على مدينته موبسيوست سنة ٣٩٢م.

لم يستطع ديودوريوس البقاء منزويا خلف جدران الدير، وهو يرى ما حل بالكنيسة من ضعف وانقسام. فهو كان يرى الأريوسية خطرا داخليا في الكنيسة، ويرى الاضطهادات التي شنّها الإمبراطور يوليانوس الجاحد، خطرا خارجيّا. ولم يكتف هذا الإمبراطور عند توليه الحكم سنة ٣٦١م، بأن يُطارد المسيحيين ويُعذبهم؛ بل هاجم معتقداتهم، وكتب كتابا نشره في حوالي سنة ٣٦٢م، هاجم فيه "الجليلي" و"الجليليين"؛ منُكِرا للاهوت المسيح ورافضا لعبادته، ومثُبتا أنه مجرد إنسان فلسطيني؛ كما رفض تلقيب مريم -عليها السلام- بـ "أم الله". وكما هو بادٍ، فإن اعتراضات الإمبراطور، لم تكن كلها افتراءات؛ لأن الله لم يأمر بعبادة المسيح، ولا أخبر بأن مريم أمّ له (سبحانه). وكيف يُنسب الله إلى أم، وهم يقولون بأزليته (قِدمه) سبحانه!... فإما أن يكون الله غير مولود كما أخبر هو عن نفسه في قوله تعالى: {وَلَمْ يُولَدْ} [الإخلاص: ٣]؛ وإما أن تكون لمريم المخلوقة مرتبة السبق عليه في الأزل، وهذا محال. وقولنا بالإحالة هنا، هو من إثبات حكم الحدوث لمريم بلا خلاف. وأما الشبهة التي أَدخلت على المسيحيين عقيدة الأمومة، فهي وصف المسيح -عليه السلام- بالألوهية. وهذا يعني أنهم لما أثبتوا ألوهية المسيح، ولم يجدوا مناصا من الإقرار لمريم بأمومته، قالوا بأمومتها لله بأثر رجعي؛ فوقعوا في تناقض صارخ، هو ما جعلهم يخرجون من الإيمان إلى الكفر. يقول الله تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [المائدة: ١٧]. وإن الله عند حكمه سبحانه بكفر النصارى، فإنه بيّن علة الحكم، وجعلها مخلوقية المسيح ومخلوقية مريم، التي هي من سنخ مخلوقية جميع الخلق. وكل من كان مخلوقا، فإنه تحت حكم الله القادر على إهلاكه (إذهاب عينه)، وفي قبضة ملكه وتحت حكم مشيئته؛ لا يُستثنى في ذلك أحد من المخلوقين. والإهلاك من الله للمخلوق يكون على مرتبتيْن: الأول منه: إفناء العين من عالم الخلق، مع بقائها في عالم الثبوت العدمي؛ والثاني، هو محوها من العلم والثبوت بحكم المشيئة، وإعادتها إلى العدم المحض. وأما من جهة الحقائق، فإن لكلام النصارى الكفري، محملا يعود به كل قول من أقوالهم إلى مرتبته من الحق؛ وهذا مستوى لا نفتح بابه لشدة خصوصيته. وتبعا لما ذكرنا، فإن دفاع النصارى عن عقيدتهم، لن يكون معتبرا في العلم، وإنما سيجعلهم يزدادون غوصا في الكفر فحسب؛ وذلك كما سنوضح في كل مرة.

ولقد سيمَ ديودوريوس كاهنا في مدينته أنطاكيا، ما بين ٣٦١ و٣٦٥م، واستمر في معارضته للإمبراطور، فنفي نتيجة لذلك، في سنة ٣٧٨م. ولقد حضر ديودوريوس فيما بعد، المجمع المسكوني بالقسطنطينية عام ٣٨١م؛ وعندما صادق الإمبراطور ثيودوسيوس على قرارات هذا المجمع، لقّب ديودوريوس بـ "بطل الإيمان"؛ فكان ذلك بمثابة إعادة الاعتبار إليه؛ ثم أدركه الموت في عام ٣٩١م.

ولقد كتب أسقف طرسوس عدة كتب، خاصة في مجاليْ التفسير والعقيدة. وبما أن هذه الكتب قد اندثرت، ولم تبق منها إلا نصوص قليلة منثورة ضمن كتب مُخالفيه؛ فإن الدارسين قد رجعوا في تعاليمه إلى مرجع أساس هو: كتاب كيرلس الإسكندري، الذي كتبه ضد ديودوريوس، والذي ضمّنه اقتباسات تُنسب إليه.

وفي سنة ١٩١٥م، قدم "فيتيسوف نيكولاس" دراسة عن ديودوريوس، تلتها في عام ١٩٤٦م ترجمة لبعض الفقرات المنسوبة إليه، من السريانية إلى الفرنسية، على يد "بريير". ومن ذلك الوقت، أصبح الدارسون يهتمون بتعاليم هذا الأسقف.

ويخلُص الدارسون إلى أن ديودوريوس، لم يتكلم عن روح المسيح؛ مع تشديده على الازدواجية فيه (القول بالطبيعتيْن). فهو يتفق مع معلّمي الإسكندرية ومع معلمي أنطاكيا جميعا؛ ويُظن أن لتلميذه "أوسابيوس الإماسي"، أثرا على عقائده، لكون هذا الأخير كان تلميذا أيضا لسميّه "أوسابيوس القيصري"، الذي يُعدّ حلقة وصل بين الأريوسيين والأرثوذكس. ولقد ظل الدارسون إلى عهد قريب، يرون ديودوريوس من أصحاب عقيدة "الكلمة – إنسان"؛ بل إن بعضهم رأى فيه مُهيِّئا لطريق "نسطوريوس". وذلك، لأنه حتى في انتقاده لأبوليناريوس، لا يجعل محور كلامه الروح البشري للمسيح. وعلى هذا، فإنه يُظن أن ديودوريوس كان جامعا بين العقيدتيْن (مذهب الانقسامية).

ويرى أهل عقيدة "الكلمة – إنسان"، طبيعتيْن كاملتيْن في المسيح: الطبيعة الإلهية، من جهة الكلمة (اللوغوس أو ابن الله)، والطبيعة البشرية، وهي ناسوت عيسى الناصري؛ وهؤلاء هم أصحاب الطريقة الانقسامية (Divisive Christology). وأما الذين يتبعون عقيدة "الكلمة – جسد"، فيرون في المسيح طبيعة إلهية كاملة؛ لأن اللوغوس قد حل عندهم في الجسد وسيطر عليه بالتمام. وهذا التمييز قد جعل ديودوريوس يفرق بين ابن الله وابن الإنسان في المسيح: فهو يُنكر أن يكون ابن داود موجودا قبل داود وخالقا له، كما يُنكر أن تكون الكلمة مولودة من مريم؛ وهنا يبدو أنه يفرّق بين بنوة الله بالطبيعة، وبنوته بالتبنّي؛ وكأنه يريد التوفيق بين جميع المقولات الكريستولوجية. ونحن لا نرى اللجوء إلى التوفيق، إلا علامة على العجز والقصور؛ بعكس ما قد يُظن.

ويتكلم ديودوريوس بعبارات سمجة، عن سكنى الله في المسيح، التي يراها مخالفة لسكناه في الأنبياء. وذلك –بحسبه– لأن الله لم يكن سكنه متواصلا في الأنبياء، بينما كان في عيسى حلولا تاما ودائما (تعالى الله). ولا بد هنا من رفع هذا التوهم الناتج عن القياس الحسّي، فنقول: إن الله يتعالى أن يسكن في شيء أو أن يحل فيه، كما يتعالى أن يحل شيء فيه؛ ببساطة لأن المسكَن يُحيط بالساكن، والمحل يحيط بالحالّ؛ ونحن نعلم أن الله هو المحيط الذي لا يُحاط به، وقد تكلمنا عن هذا في فصل سابق. هذا كله من جهة، وأما من الجهة الأخرى التي تمنع أن يحل شيء في الله، فإنه لا وجود لشيء مع الله، حتى يقال بحلوله فيه؛ وإلا كان القائل بذلك مشركا شركا جليّا؛ والشرك ظلم ناتج عن الجهل، كما لا يخفى. يقول الله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا} [الجن: ٢٠]؛ ويقول سبحانه: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [البقرة: ١٣٥]؛ وهذا يدحض كل العقائد الكتابية الشركية، بما فيها التي كنا بصددها. ونحن عندما نتكلم عن الشرك، فإننا لا نحصره في المعنى العام الذي يعلمه عوام المسلمين؛ ولكن نعني الشرك في عالم المعاني، الذي قلّما يسلم منه أحد.

وكما رفض ديودوريوس أن يخلط بين الكلمة وابن داود، فإنه رفض أن تُلقّب مريم بـ "أم الله"؛ لأنه يعتقد أن مريم ولدت ابن داود وحده (الناسوت). وهذا الكلام صحيح، يميط الخلط الذي يعترض المتكلمين في هذه المسائل، ويُسهّل ضبط بعض المعاني؛ وهو –على كل حال– دليل على رجاحة عقل ديودوريوس.

ومن الاقتباسات الموجودة في كتب مخالفيه، يُعلم أن ديودوريوس كتب عدة كتب منها:

- كتاب عن قيامة الأموات.
- كتاب عن اليهود.
- كتاب عن العناية الإلهية.
- كتاب ضد أفلاطون.
- كتاب عن التجسد.

٢. التعاليم الكريستولوجية الأنطاكية:

لقد ظن أهل أنطاكيا أنهم ملزمون بالإجابة عن سؤال المسيح: "من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان؟"؛ وفي الحقيقة هذا السؤال لم يكن على الوجه الذي فهموه؛ لأن الإجابة تعني المعرفة، والمعرفة تعني القرب أو الوصول. وبما أن المسيحيين كانوا يقصدون القرب، وبما أن القرب يتفاوت فيه الناس على قدر إيمانهم وأعمالهم، فإن من يروم إيجاد قانون إيماني مع ذلك، يكون كمن يريد أن يكون أشخاص الناس على صورة وجه واحد؛ فإن وجد الناس أن وجوههم مختلفة، عقدوا مجامع يدرسون فيها المواصفات التي يُمكن أن يقبلوا بها اختلاف وجوههم؛ حتى إذا انتهوا إلى سمات مُجمَع عليها، طلبوا طبيب تغيير السحنة (يسمونه تفاؤلا طبيب تجميل)، وطلبوا منه أن يجري لهم جميعا عمليات، تجعلهم عل صورة واحدة. فإذا أفلح الطبيب مع بعض الأشخاص، أُعتُبروا هم أصحاب العقيدة الصائبة، دون سواهم من الناس. ولو أنهم علموا أن الإيمان أمر شخصي، لا يشترك من جهة ظاهره، إلا في عموميات تكون أصلا في الدين، لاكتفوا بتلك العموميات. وأما من جهة حقيقة الإيمان وتفاصيله، فإنه يختلف من مجموعة إلى مجموعة؛ بل من شخص إلى شخص؛ وإذا صار الأمر خاصا وشخصيا، امتنع أن يصير قانونا بالمعنى الإلزامي. أما معنى القانون العلمي الحاكم على المقام أو المرتبة، فلا شك فيه؛ وإلا صار العلم الديني لا ضابط له، والقول بعدم الضبط، لا يصدر إلا عن جاهل بحقيقة الدين. وأما من ناحية الصياغة، فإن كنيسة أنطاكيا قد انتهت إلى صيغة "الكلمة – إنسان"، التي هي توفيقية. وعندما نذكر تعاليم الكريستولوجية الانقسامية، فإنه لا ينبغي لنا أن ننسى "ثيودوريوس الموبسيوستي"، الذي يُعد من أكبر رجال هذه الحركة التعليمية.

ثيودوريوس الموبسيوستي:

كان ثيودوريوس هذا عالما كبيرا من علماء الكنيسة، في القرنيْن الرابع والخامس؛ وصارت تعاليمه التفسيرية والعقدية حجة يرجع إليها المتنازعون. ولذلك فقد حظي الرجل أثناء خدمته بصفته كاهنا أو أسقفا بسلطان عظيم، وتقدير كبير، وعندما مات شُيّع بجنازة تليق به. وأما بعد موته، فقد ثارت بعض التساؤلات حول تعاليمه، بحوالي أربع سنوات. ثم ما لبثت أن تحولت التساؤلات إلى اختلاف طفيف، ثم إلى صراع عنيف، استمر إلى سنة ٥٥٣م. وفي هذه السنة انعقد مجمع مسكوني ثالث في القسطنطينية، أصدر حرمانا ضد تعاليم أسقف موبسيوست؛ أي بعد مرور ١٢٥ سنة على وفاته.

ولد ثيودوريوس سنة ٣٥٠م، ويبدو أن عائلته كانت ذات مكانة في أنطاكيا. ويُذكر أن "بوليكورنيوس"، الذي صار فيما بعد أسقفا لمدينة "أباموس"، كان أخا له؛ وأن "بائنويوس"، الذي شغل مركزا بارزا في القسطنطينية، كان ابن عمه. وقد تتلمذ ثيودوريوس على يد الفيلسوف والمتصوف الشهير "ليبانيوس"، ودرس الخطابة والأدب؛ وتعرف في هذه الفترة على أحد الطلبة الذين سيكون لهم أثر عليه، والذي ليس إلا "يوحنا" (فم الذهب) أسقف القسطنطينية فيما بعد.

ومِن تأثر ثيودوريوس بيوحنا، كان إيثاره لحياة الرهبنة والزهد، مع الصلاة والتعمق في الدرس. وبعد سنوات الدير، سيم ثيودوريوس كاهنا في سنة ٣٨٣م؛ ويُقال إن الذي أشرف على سيامته، هو الأسقف "فلافيانوس"، الذي كان على رأس الحزب الميليتي في كنيسة أنطاكيا، من دون أن يُشارك في الصراع الذي مزّق الكنيسة الكاثوليكية في أنطاكيا إلى قسميْن متنافسيْن. ولقد دعا الأسقف ديودوريوس الطرسوسي، تلميذه القديم إلى الانضمام إلى أبروشيته، فخدم فيها من سنة ٣٨٦ إلى سنة ٣٩٢م. ولقد مكّنت ملازمة ديودوريوس الكاهن الشاب مِن تشرُّب تعاليم أستاذه، التي سيعمل على تطويرها فيما بعد، كما سنرى.

ومن مدينة طرسوس انتقل ثيودوريوس إلى مدينة "مويسيوست"، ليُنصّب عليها أسقفا. وسيظل الرجل أسقفا لهذه المدينة من سنة ٣٩٢ إلى سنة ٤٢٨م. ولقد مات ثيودوريوس في مدينة مويسيوست سنة ٤٢٨م، والتي هي السنة ذاتها

التي تولى فيها "نسطوريوس" أسقفية مدينة القسطنطينية. ولقد اختلفت الأقوال في الصلة التي كانت تربط بين الرجلين: فقيل بأن نسطوريوس نزل ضيفا على ثيودوريوس، وهو في طريقه إلى القسطنطينية؛ وقيل بأنه كان تلميذا له قبل ذلك.

لقد حضر ثيودوريوس مجمع القسطنطينية المنعقد في سنة ٣٩٤م، وألقى به عظة تركت آثارا عميقة على الإمبراطور "ثيودوسيوس" نفسه. واشتهر ثيودوريوس بتفاسيره، حتى لقّب في الأوساط النسطورية الفارسية بـ "المفسر الحقيقي" أو "نور الكنيسة"؛ وأصبحت مؤلفاته منذ نهاية القرن الخامس النصوص الرسمية للمدرسة النسطورية في "نصيبي".

كانت طريقة ثيودوريوس في التفسير، تعتمد على التاريخ والفلسفة واللغة والنقد الأدبي؛ مجتنبا الطريقة المجازية التي كانت تُعرف بها مدرسة الإسكندرية. ومما ينبغي أن يُذكر هنا، هو أن الدارسين لم يتمكنوا من الحصول على نص كامل لثيودوريوس، إلا في سنة ١٩٣٢م؛ بعد أن كانت مؤلفاته قد اندثرت منذ تحريمها قبل حوالي أربعة عشر قرنا. وهو ما سيعود بثيودوريوس إلى الواجهة العلمية مرة أخرى، ويجعله محل عناية أكبر من التي نالها قبل ذلك، ما بين ١٨٨٠ و١٩٢٥م.

وإلى جانب التفسير الذي عُرف به ثيودوريوس، للعهديْن القديم والجديد، فإنه قد ذُكرت له بعض الكتب العقدية والتعليمية، والتي منها:

- كتاب التجسد.
- عظات تعليمية.
- لاهوت الروح القدس.
- كتب عن النسك والتقشف.

وأما تعاليمه الكريستولوجية، فهي التي بنى عليها رئيس أساقفة القسطنطينية نسطوريوس دعوته؛ على خلاف في بعض التفاصيل. وقبل أن نعرض لتعاليم ثيودوريوس، فلا بد من المرور على شخص يبدو أنه كان له بالغ الأثر فيه، ولو بطريقة غير مباشرة، على عكس ما كان مع أستاذه ديودوريوس؛ وهذا الشخص هو: "أُستاثيوس" الأنطاكي، الذي كان معارضا لتعاليم أريوس ومن جاء بعده، ممن قالوا بعدم وجود روح للمسيح. وهذا يعني أن أستاثيوس، كان نيقيويّا، يقول بمساواة المسيح للآب في الجوهر. ومن التعابير الخاصة بأستاثيوس في تفريقه بين لاهوت المسيح وناسوته: "الكلمة والإنسان يسوع، كالهيكل وساكنه."، و"الإنسان يسوع ثوب، والكلمة هو اللابس لهذا الثوب."، و"الكلمة هو الحامل، والإنسان هو المحمول.". ولنتوقف قليلا هنا، لنؤكّد ما سبق أن ذكرناه في مواضع مرّت من هذا الكتاب. ولنقرّ أولا، بأن هؤلاء المتناولين لحقيقة المسيح، ليسوا مؤهلين لإدراكها من حيث مرتبتهم العقلية الإيمانية؛ وهم في الغالب، لا يخرجون عن هيمنة الحس على بصائرهم. ولو لم يكونوا تحت هيمنة الحس، ما نزلوا في العبارة إلى التشبيه الحسي (الهيكل والساكن، الثوب واللابس...)؛ وذلك لأن المعاني العليا إذا نُزِّلت في قوالب حسيّة، من غير خبير؛ فإنها تفقد سموّها، وبالتالي تصير مانعة للسامع عن إدراك الحقيقة. ثم نحن لا ننسب القول بعدم وجود روح للمسيح إلى أريوس، كما فعل أستاثيوس وغيره ممن سبقه أو ممن لحق؛ لأن أريوس إذا تكلم عن عدم وجود روح بشري في المسيح، فهو كان يعني "عدم وجود النفس"، بالمعنى المقصود لدى الصوفية عندنا. ونعني من ذلك، أن المسيح عليه السلام، كان مُطهرا من النفس، التي تكون للعباد الغافلين من أهل الدين ومن غيرهم. وطهارة عيسى والأنبياء من النفس، تكون لهم من الله عناية خاصة، حتى يكونوا مؤهلين لقبول الوحي الذي يأتيهم به الملَك؛ بخلاف جُلّ الأولياء من التابعين، الذين يبلغون مرتبة فناء النفس بعد قطع مراحل السلوك (التزكية). ولو أن معلّمي المسيحيّين علموا ما نقول، لانتفى الخلاف بينهم؛ لأنهم سيعلمون حينئذ أن المسيح عليه السلام كان مشابها للبشر من جهة ظاهره فحسب؛ ولكن من جهة حقيقته فإنه كان طاهرا من النفس، التي هي

مناط كل السوء الذي يدخل على الناس ويزيد من ظلمتهم، إن لم يسلكوا سبيل التزكية الذي جعله الله طريقا لعودتهم إلى حال الطهارة الأصلية التي كانت للإنسان (الحقيقة المحمدية). وبقي لنا أن نعرف نسبة الروح العيسوي الآن إلى "الكلمة" (الحقيقة المحمدية)، حتى نخرج من إشكال المزاحمة والصراع، الذي يتصوره من لا علم له بالحقيقة، فنقول: إن الحقيقة كالشمس، وإن الأرواح المدبرة لأجساد الكمّل من الأنبياء والأولياء، هي بالنسبة إليها كالشعاع. وتارة يكون الحكم للشعاع عند بطون الشمس، وأخرى يكون لها عند ظهورها؛ ومن هنا كان يختلف ناسوت المسيح عن لاهوته. ونعني من هذا، أن المسيح عندما يظهر عليه حكم الروح، فإنه يظهر في صورة بشرية كاملة، منزهة عن النقائص البشرية؛ ولكن عندما يظهر عليه حكم الحقيقة، فإنه يظهر بصورة الحق وصفاته؛ فيتوهم الناظر إليه مباشرة (كما كان التلاميذ معه)، أو الناظر إليه بنور الإيمان (كحال كبار المعلمين من القرون التالية)، أنه مزدوج الحقيقة؛ وهو مزدوج التجلّي بحسب الظهور والبطون فحسب. ولعل القارئ سيرى أن بشرية عيسى جعلناها تجليا إلهيا، هي أيضا، وهذا كان قصدنا؛ ولقد أردنا بذلك أن يتنبه الناس إلى أن ظهور المخلوقين هو بالله، لا بأنفسهم؛ وليس لهم هم من هذا التجلّي، إلا حكم الصورة العدمية. وهو ما يجعل أحدهم، يختلف عن الآخر عند الظهور. وهذا التجلي الإلهي بصور المخلوقات، هو ما يُشير إليه قول الله تعالى: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ} [النور: ٣٥]؛ والمشكاة، هي الصورة العدمية، والمصباح المنير فيها هو الوجود الإلهي الحق. ولهذا، فإن كل كلام عن الناسوت واللاهوت، بالطريقة التي اعتمدها مخالفو أريوس، هو غلط في عرض المسألة من بدايتها؛ وكل كلام عن الطبيعتيْن وعن الجوهر، هو نزول بها عن مرتبتها. وكل انحراف في التناول، وكل نزول، هو ظلم للمسيح عند تقديمه إلى الناس بحسب ذلك. ونرجو أن يتفطن متأخرو النصارى الذين سيطّلعون على كلامنا إلى إعادة الكلام إلى نصابه، وإعادة الأحكام إلى محلّها، ليتمكنوا من مغادرة الدائرة المفرغة التي دخلوها منذ قرون طويلة.

وأما ثيودوريوس، فإنه باستعماله لعبارات أستاثيوس التي ألمحنا إليها آنفا، يدل على أنه على نهجه يسير؛ وأن أستاثيوس يكون هو واضع المعالم الأولى، لما سيُسمّى فيما بعد بـ "التعاليم الكريستولوجية الأنطاكية"، تحت ضغط من التعاليم الأريوسية الرفيعة. ولقد نظر ثيودوريوس ومن يُشاركه منطلقاته، إلى الأريوسية على أنها خطر على "لاهوت المسيح"، وإلى الأبوليناريوسية على أنها خطر على "ناسوته"؛ فكان لزاما من هنا -في نظره- محاربتهما معا. وبما أن الاختلاف بين الأريوسية والأبوليناريوسية، اختلاف صوري، لا حقيقة له؛ فإن كل رد عليهما، سيكون تلفيقيا ولا بد. ونعني من هذا، أن كل المسيحيّين كانوا ناظرين إلى المسيح نفسه، ولكن على اختلاف في النظر بينهم فحسب؛ وأنهم عندما كان كلٌّ منهم يصف "مسيحه"، ويسمع من غيره وصفا مختلفا يتوهم منه أن الواصف مخطئ في الوصف بلا شك؛ لم يكونوا يعبّرون عمليّا، إلا عن إشكال المعرفة ذاته، في جانبه العائد إلى "نظر" الناظر، الذي لا نقصد منه إلا عقله واستعداده. ولا ندري، كيف أغفل كبار الآباء والمعلّمين هذا "المتغيّر"، مع علو قدرهم من الناحية العقلية الفلسفية؛ وحكموا في ذلك كله، وكأن المعادلة أحادية العنصر، لا تتعلّق إلا بالمسيح وحده، عليه السلام. وها نحن أولاء الآن، نكشف لكل الناظرين من أهل الدين ومن عموم المفكرين، أن اعتبار العقل العاقل للصور وللحقائق، ضروري، إن لم نكن نريد أن نقع في الجهل أولا، ثم في الظلم ثانيا؛ عندما ينظر كل ناظر إلى مخالفيه، إما بنظرة التنقيص، وإما بنظرة الاتهام وسوء الظن. مع أن الأمر في الغالب، لا يعدو أن يكون إما تفاوتا في المرتبة العقلية، وإما اختلافا في التجلي كأن يكون الواحد من الناظرين تحت حكم الباطن، والآخر تحت حكم الظاهر، إن نحن افترضنا اشتراكهما في المرتبة. وإن نحن عدنا إلى شيخنا الأكبر، الذي بيّن القواعد الحاكمة على مختلف المقولات، واعتبرنا قاعدته النفيسة: "إن الله لا يتجلى بتجلّ واحد في زمنيْن، ولا بتجل واحد لشخصيْن في الزمن الواحد."، فإننا سنعلم مقدار اتساع مجال المعارف ومجال

التعبير عنها. وهنا لا بد من أن نتكلم عن معيارية الوحي، الضرورية، وإلا بطل كل قياس وكل تناول، مهما كان صاحبهما يظن لنفسه من كمال في اليقين. وإن معيارية الوحي (القرآن والسنة في زماننا)، لا يعلمها كل واحد من علماء المسلمين بله غيرهم؛ لأنها هي أيضا من العلم الخاص الذي يؤتيه الله للمصطفيْن من عباده وحدهم. وإلى هذه المعيارية، كانت إشارة الإمام الجنيد بقوله الشهير: "لا نقبل شيئا مما يرِد علينا، إلا بشاهِديْ عدل: الكتاب والسنة."؛ فجزاه الله عن تعليمه، وعن حرصه على نفع الأمة خير الجزاء. وأما إخوتنا المسيحيّون الذين سبقونا، فإنهم لم تكن لهم معيارية القرآن والسنة، التي هي كُبرى المعياريات؛ وإنما كانوا يعتمدون بعد النظر في الكتاب المقدس على تعليم الروح القدس. وتعليم الروح القدس، أيضا يكون بحسب الشخص المتعلِّم؛ وأحيانا يدخل عليه شيء من ظلمة الفكر، أو من ظلمة التقليد لأحد من أئمتهم. ونحن نقول لهم هذا، مبالغة في توضيح الأمر وما يتعلّق به، من جميع النواحي؛ لعلهم ينتفعون. ولنعد إلى ما كنا بصدده..

يُعدّ ثيودوريوس الموبسيوستي، أحد القادة الكبار، في مدرسة أنطاكيا؛ ومن معتنقي مذهب "الكلمة — إنسان". وهذا يعني لديه أن الكلمة حلت في إنسان كامل (بجميع الأبعاد)، وإن كان لا يفرق -كما فعلنا نحن- بين معنى الروح ومعنى النفس. وهذا الذي يحوم حوله المسيحيّون بهذا التعريف، هو ما يُسمونه الاتحاد عن طريق التجسّد. ونحن قد رفضنا سابقا معنى الاتحاد، كما رفضنا القول بالتجسُّد؛ وعددناهما معا من القصور العقلي، لدى القائل بهما. ولن نناقش هنا ثيودوريوس في مبادئه التي ليست إلا بناء على إنجاز من سبقوه من المعلمّين، بقدر ما سنعمل على إبراز طريقته في مهاجمة العقيدتيْن: الأريوسية والأبوليناريوسية، وعلى مدى إفلاحه في ذلك. والأمر في النهاية، هو جدلية داخلة في تجاذب التنزيه (الأبوليناريوسية) والتشبيه (الأريوسية).

ولقد اعتمد ثيودوريوس في تعليمه في الرد على الأريوسيين، أن "الكلمة الأزلي، ابن الله، المساوي للآب في الطبيعة والجوهر، والسابق في الوجود على كل الكائنات، قد ظهر في آخر الأيام في ابن داود، يسوع الناصري. فالكلمة قد حل في الإنسان، واتحد بابن الإنسان في عملية التجسّد؛ والإنسان الذي اتحد بالكلمة هو روح وجسد من طبيعتيْن، وبحيث احتفظت كل طبيعة من الطبيعتين بمميزاتها وخواصها." ويتضح من هذه العبارات، أن ثيودوريوس -كما سبق أن أخبرنا- لجأ إلى التلفيق، ليجمع بين أمريْن لا ينجمعان في محل واحد لأحد من العقلاء[1]؛ ولسنا نعني إلا التشبيه والتنزيه. ومن أدلة التلفيق لديه، استعماله لاصطلاحات: الحلول، الاتحاد، التجسّد، الطبيعتان. والحقيقة هي أن تصديق عقيدة ثيودوريوس، لا يكون إلا في الذهن؛ وهذا مما يخرج به إلى التنظير المنتج للأيديولوجيا، كما هو شأن كل أهل العقائد، حتى من المسلمين. ونعني بكلامنا هذا، أن الناظر إلى المسيح (كحال التلاميذ) بنظره الترابي وبنظر بصيرته معا، لا يحتاج إلى التفريق فيه بين ما هو إلهي وما هو بشري، وبالتالي فإنه سيكون في غنى عن استعمال المصطلحات التلفيقية التي ركبها كثير من المعلّمين. والذي نريد أن نخلُص إليه هنا، هو أن حقيقة عيسى أبسط في إدراكها، مما تدل عليه عبارات المعلمين الذين هم في الغالب من أعلى طبقة المفكرين. وبساطة الحقيقة في نفسها، هو ما يجعلها فوق إدراك العقل المفكر، على عكس المظنون. وهذا الذي نقوله هو ما علّمه عيسى عليه السلام نفسه، عندما طلب من البالغين أن يكونوا معه كالأطفال. ولقد كان يعني -عليه السلام- أن العقول مهما بلغت في سموّها، لن تبلغ مرتبة إدراك حقيقته؛ بينما الأطفال (والمؤمنون الخُلَّص)، يعرفونه معرفة يقينية، لكنها فوق مرتبة تناول عبارتهم. وهذا يعني من جهة، أن الحقيقة لا تُدرك بالعقل؛ ومن جهة ثانية أن مُدركها لا يتمكن من التعبير عنها عند إدراكها. وهذا الذي نثبته هنا، هو من أثر الاسم

---

[1] . نعني بالعقلاء هنا، أصحاب العقل المجرد عن الدين؛ لأن أهل المشاهدة من أهل الدين يجتمع لهم التنزيه مع التشبيه، وهو محل تلذذ طائفة منهم.

"العزيز"؛ لكن يبقى هنا تفصيل لا بد من العروج عليه، وهو: إن كانت الحقيقة بهذه المثابة، فكيف يلتقي عليها اثنان؛ إن نحن اعتبرنا أن الدين أمر مشترك بين أهله، وأن عيسى هادٍ لكل من آمن به؟... فنقول: إن كل ما ذكرناه سابقا، لا ينفي من كل وجه، إمكان التعبير عن الحقيقة؛ لكن يشترط إذنا خاصا من الله، للعبد المخصوص، في التعبير عنها. وهذا هو ما كان عليه عيسى (وغيره من الأنبياء والأولياء)، عندما كان يتكلم بيُسر وإعجاز في الوقت ذاته. وبخصوص هذا الأمر، أمر التعبير والإذن معا، فإنه لا بد لنا من تقرير شيئين رئيسيْن: الأول، هو أن المسيحيين، لم يبلغ منهم أحد، أن يُعبّر عن الحقيقة، بما لا يقبل الطعن من وجه من الوجوه، بالنظر إلى كل ما وصَلَنا؛ وهذا يعني أنهم كانوا قاصرين من ناحية الإدراك ومن ناحية العبارة معا. وإن أريوس، الذي شهدنا له بعلوّ المقام، نفسه، لم يبلغ ما يُمكن أن نعتبره معرفة حقا؛ إلا إن كانت الترجمة قد قصّرت في إبلاغ مراداته إلينا. والشيء الثاني، هو أنه لم يبلغ -بعدَ الأنبياء- أحد معرفة الحقيقة والتعبير عنها، ما بلغه الورثة المحمديّون، الذين هم نُظراء الأنبياء من الأمم السابقة، كما أخبرنا مرارا. ولهذا، نحن نسمح لأنفسنا، بتصويب مقولات السابقين واللاحقين، في غير ما مشقة أو إبهام.

ولقد استعمل الأنطاكيون في التعبير عن المسيح مزدوج الحقيقة، مصطلح "إقنوم" أو "شخص" (PROSOPON). ومع أن الآباء قد استعملوا المصطلحات المختلفة أحيانا بوصفها مترادفات، فإن ثيودوريوس حرص على أن يكون مصطلح "الشخص" دالا على الوحدة بين اللاهوت والناسوت خاصة؛ غير أنه مع ذلك لم يتمكن من إدراك الوحدة التامة، التي تجعله مستغنيا عن القول بالطبيعتيْن. بل نجده يُمعن في التنظير المخلّ، عند قوله بكون كل طبيعة من الطبيعتيْن ذات "بروسوبون" خاص متميّز عن البروسوبون الآخر. ونجد ثيودوريوس -بناء على تنظيره- ينهج في تفسيره لأقوال المسيح، نهج ردها إلى "الشخص" (الطبيعة) الناطق بها؛ كأن يجعل قولا ما، منسوبا إلى لاهوت المسيح؛ وقولا آخر، منسوبا إلى ناسوته. ونحن لا نخالفه في هذا التقسيم، الذي يجعل كلام المسيح -عليه السلام- أكثر وضوحا بالنظر إلى الحقائق؛ وإن كنا نخالفه في تقسيم شخص المسيح ذاته، الذي بنى عليه. وهذا يعني أن التفسير قد تقدم مع ثيودوريوس خطوة، وإن كان اللاهوت قد لبث معه في مكانه؛ إن لم نعتبر أن التنظير من حيث هو، ينزل باللاهوت عن المعارف الإيمانية التي بلغها الأئمة الأولون، كما سبق أن بيّنّا عدة مرات.

وأما فيما يتعلق بـ "الكلمة" (الله)، فإن ثيودوريوس يراه الشخص الثالث المعقول من الشخصين الأوليْن (لاهوت المسيح وناسوته). ورغم أن الدارسين، قد اختلفوا بموجب هذا القول، في تفريق ثيودوريوس بين الطبيعتيْن في المسيح، على الوجه التام؛ فإن القول بالشخص الثالث، الذي يستدل عليه بما ذكره المسيح عن "دينونته للعالم مع الآب"، لا يعدو أن يكون تصورا توحيديا من وجه، شركيا من وجه مقابل، للمسألة برمتها. وذلك لأن التوحيد -كما ننبه دائما- هو رد الكثرة إلى واحد. ولو كان كل الدارسين من أهل التوحيد -بالمعنى الشرعي- لما دخلوا في القول بالطبيعتيْن، ولا قالوا بالأقانيم المتعددة؛ ولكن عند علوقهم في ذلك، علمنا أنهم كانوا ضعفاء من جهة التوحيد؛ إلى الحد الذي لم يكونوا يتمكنون من الانفصال فيه عن معاني المصطلحات. ونعني من هذا، أن التوحيد يُفني مدلولات المصطلحات، بحيث يبقى إدراكها في المعنى الجامع اعتباريا فحسب. وهذا يقودنا إلى القول بالتراتب في قوة المعاني ذاتها: بحيث يكون معنى من المعاني المستدلّ عليها بمصطلح من المصطلحات، ثانويا في القوة بعد المعنى التوحيدي؛ تفاديا للمزاحمة وللتعارض اللذيْن يُسقط فيهما عند ظن الاستواء في القوة. وهذا الذي نقوله هنا، يُشبه ما يُعقل من مسألة الجوهر والعرض، غير أنه في المعاني وحدها؛ لا فيما هو حسّ من جهة السُّفل، أو هو وجود من جهة العُلو.

ومع كل ما سبق، فإن ثيودوريوس عندما يتكلم في الثالوث، يستعمل مصطلح "هيبوستاس" أو إقنوم أو شخص الآب، وهيبوستاس أو إقنوم أو شخص الابن، وهيبوستاس أو إقنوم أو شخص الروح القدس. وهذا يجعلنا نخلص إلى

القول بأن المعلمين المسيحيين، كانوا لا يتمكنون من إدراك المعاني مجردة عن الاصطلاحات؛ ولذلك، هم عندما يتناولون المسألة ذاتها من وجه مختلف، قد يُخبرون بما يُعارض ما أخبروا به أولا، عند تناولها من الوجه الأول. وهذا قصور عقلي، لا يُساعد على بلوغ الغايات في مجال اللاهوت (الكلام). ولقد كان ينبغي على المتكلمين –قبل تناول مختلف المسائل– أن يعلموا أن المعاني لا تثبت ثباتا كالذي يعرفونه للمحسوسات، بل هي سريعة الاستحالة (التحوّل)، وقابلة للتداخل إلى حد بعيد؛ قد يظن معه الظان بعدم جدوى الخوض فيها، أو قد يميل إلى القول بالعبث. ونحن لا نريد هذا، ولا نقاربه؛ بل ندل على تعقُّل جديد لمبادئ العقل، يختلف باختلاف المجال، الذي إما يكون حسّا، أو معانيَ منوطة بالحس (كجُل المعاني الفلسفية)، أو معاني عُلوية أو مجردة (حقائق). ونحن نذكر هنا حوارا دار بيننا وبين أحد "مثقفي" العصر، وقد كنا بمعرض الكلام عن المعاني وارتباطها بالألفاظ؛ فسألناه: بما أن لكل لفظ معنى، فهل لكل معنى لفظ؟ أم إن مِن المعاني ما لا لفظ له؟... فبُهت الرجل، وصار يتلعثم، وإن أراد أن يظهر بمظهر العالم بالمسألة؛ خصوصا، وأنه كان بمعيتنا شخص ثالث، يخشى صاحبنا من أن يظهر بالعجز أمامه. وغايتنا من إيراد هذه الحادثة، هو تنبيه مَن يطالع كلامنا، إلى إمكان مغالطته لنفسه عن طريق التسرُّع في الإجابة عن أسئلتنا؛ وهذا يحرمه من معرفة الجواب الصحيح لها، وبالتالي من تحقيق تقدّمه معرفيا.

والسبب في وقوع الآباء المعلمين في سقطات معرفية "قاتلة"، إلى جانب طلبهم الإجابة عن سؤال حقيقة المسيح، هو رؤْمهم تعريف عموم الشعب بتلك الحقيقة. وهذا غلط فادح، نتج عن عدم اعتبار الطبقيّة العقلية، التي تجعل المُدرِك لها، يمتنع عن النزول بالمعاني دون مستواها. وما دفع المعلّمين إلى هذا، هو توهمهم –كعادة رجال الدين من جميع الملل– بأن تعريف الله إلى عباده، يدخل ضمن مهامّهم ووظائفهم، قياسا على تعريفهم لأركان الدين وأحكامه. ولو أنهم علموا، أن الله هو مَن يُعرّف من يشاء بنفسه، وبالقدر الذي يشاء، لأراحوا أنفسهم وأراحوا غيرهم. وهذا، هو ما كان يجعلنا دائما نقول بعدم جواز تعليم العقائد التفصيلية (غير المشتركة والعامة) لعموم الناس؛ لأن ذلك يُدخل المعلِّم والمتعلم في دائرة الأيديولوجيا، ويخرج بهما عن طريق الدين. وهذا كله، بسبب جهل الناس بـ "طبيعة" الدين، وقياسه على العقائد الأيدولوجية، التي لم يسلم منها مجتمع من المجتمعات البشرية؛ وإن كان استفحالها لدى المتأخرين، لا يُقارن.

أما مسألة التجسّد، فيقول فيها ثيودوريوس: "إن التعاون المزدوج للإرادتيْن الإلهية والبشرية، هو النتيجة لعملية تجسُّد الكلمة، وليس الأساس.". ولا بد هنا من أن نؤكد مرة أخرى، على أن القول بالتجسّد، هو قصور عقلي، ونزول بالمعاني إلى عالم الحسّ. ونعني من هذا، أن الكثافة الطبيعية، غطت على بصائر الناظرين، فلم يعلموا أنها حكم مخصوص بعالم السُّفل، وليست معنى مستقلا بنفسه. ثم إن تثنية الصفات في النسبة، حتى يُقال بالإرادتيْن الإلهية والبشرية، هو من أثر الشرك؛ لأن التوحيد يقتضي أن الصفات كلها ذات نسبة أصلية إلهية. ولقد وقع في هذا الشرك، كثير من علماء المسلمين أيضا، وتوهموا الأمر على ما توهمه النصارى، من غير تفريق. وهم في ذلك يدلّون على أنهم دون مرتبة التوحيد الخاص، الذي يكون للعلماء بالله؛ ويحكمون بما يشهدون وبما يعقلون. ونعني من هذا، أن المشهود لهم هو النسبة الخلقية في الصفات، بينما المعقول لهم هو النسبة الإلهية. وأما العلماء بالله، فيشهدون الحق، ويعقلون الخلق، بعكسهم؛ لذلك هم ينسبون الصفات إلى الله، ثم بعد ذلك وفي المرتبة الثانية، إلى المخلوقين. وهذا يعطيهم أن لا إرادة مع إرادة الله، ولا صفة بالمجمل إلا وهي صفة لله، قبل أن تكون صفة للمخلوق. أما كيف ينسبون الصفات إلى الخلق بعد ذلك؛ فهم يجعلون الصفات البشرية تجليات للصفات الإلهية ذاتها، ومن غير تعدد، لكن بحسب استعداد الشخص وقابليته منها. وهذا يُشبه أيضا ما يكون من تعدد الصفة الواحدة في الأشخاص الكثيرين: فصفة الإرادة التي تظهر من كل عبد مريد، ليست صفات متعددة، يستقل بعضها عن بعض؛ وإنما هي صفة واحدة (كليّة)، ظهرت في الأشخاص متعددة النسبة؛

فيقال إرادة فلان أقوى من إرادة آخر، وإرادة الآخر أضعف من إرادة ثالث ورابع، وهكذا... والصفة الكلية المعقولة من الصفات المتعددة في الشهود، هي الصفة الإلهية الأصلية نفسها، والتي تكون على إطلاقها. ولا تظهر هذه الصفات الإلهية بهذا الإطلاق، إلا في مظهر الحقيقة المحمدية المسمّى ألوهية. وعلى هذا، يظهر أن كل ما يقوله المعلّمون المسيحيون في مضمار الصفات وفي مضمار التجليات الصورية، هو مخالف لما الأمر عليه؛ ولا يعكس إلا صورة عقل صاحبه الناقصة. وبالتالي، فإن كل تناول لكلامهم، أو كل رد عليه، مما هو من طبقته ومرتبته، لا يُعتد به، ولا يُعتبر إلا تفصيلا من تفاصيل تلك الأقوال المتناولة عينها. وهذا يعني، أن بلوغ العلم في مسألة ما، لا يكون متاحا لكل متكلّم فيها، وإن أحاط بجميع الأقوال؛ وإنما هو متاح لمن كان من مرتبة التوحيد العليا، التي ترجع إليها تلك الأقوال التفصيلية كلها. وهذا التفصيل في مراتب المعقولات، لا يعلمه إلا أهل الكمال، الذين يكون علمهم بالله، لا بعقولهم. وإلى الآن، لم نجد في كلام ثيودوريوس، دليلا واحدا وفي مسألة واحدة، على أن علمه بالله؛ وهيهات!... وأما توحيد الصفات الذي تكلمنا عنه، فيُشير إليه مثل قول الله تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير: ٢٩]؛ أي إن مشيئتكم هي من مشيئته سبحانه. ومِن هنا، ليست للتبعيض؛ وإنما هي للإلحاق. وبين المعنييْن فرق، لمن كان يعقل!...

وتبعا لمسألة التجسّد، تأتي مسألة القول بأمومة مريم؛ وثيودوريوس -على الأقل- يبرهن على ثبوت مستوى عقلي لديه، عندما يرفض القول بأن مريم -عليها السلام- أمّ لله؛ ويكتفي بنسبتها بالأمومة إلى المسيح الإنسان (ابن داود). وهذا جيد منه، عند قول بعض الناقصين بأمومة مريم لله (تعالى). ولقد سبق لنا الكلام عن إنكار الله تعالى على النصارى في قوله سبحانه: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} [المائدة: ١٧]، ونبّهنا إلى أن الله لم ينكر عليهم إلا نسبتهم الألوهية بالبنوة إلى مريم؛ ولم يُنكر عليهم نسبة الألوهية إلى المسيح. وذلك لأن المسيح هو آدم عصره، والألوهية (الصورة)، هي الأمانة التي يحملها من كل زمان أحد أفراد الإنسانية. وهذا يعني أن معنى "الإنسان" في قول الله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب: ٧٢]، لا ينطبق على أشخاص الإنسانية إلا بالقوة؛ وأما بالفعل، فهو من نصيب واحد في كل زمان. وذلك الواحد -الذي هو عيسى هنا- حائز للصورة الإلهية، مستحق للاتصاف بكل صفات الألوهية. والنصارى لما أخبروا عن عيسى أنه الله (في الزمان وبالحقيقة)، كانوا صادقين؛ لكنهم ناقضوا خبرهم بنسبة الألوهية إلى مريم بالبنوة، فأبانوا عن قصورهم وتناقضهم. وأما العلماء الغافلون من أهل الإسلام، فإنهم أخذوا المعنى المركب في الآية على أنه أحدي الوجه، فحكموا بكفر من ينسب الألوهية إلى عيسى، من دون اعتبار لمريم في الحكم؛ فغلطوا وضلوا عن المعنى المراد. وحتى نزيد من طمأنينة القارئ لكلامنا، فإننا نقول: إن مرتبة الخلافة التي ذكرها الله في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة: ٣٠]، كانت الغاية منها، ظهور الخليفة بحكم مستخلِفه، وليس إلا الألوهية؛ فإن لم يظهر الشخص بحكمها، فما هو خليفة، ولا مرتبته خلافة!... وهذا كله، من أصول التوحيد التي ندل عليها؛ فلا ينبغي أن تُغفل. وأما من يجد نفسه عاجزا عن إدراك ما نقول، وبالتالي عاجزا عن قبوله، فليعلم أنه ليس من أهل هذا العلم؛ ولينصرف عنه بأدب وتسليم، فإنه أنفع له. وبخلاف هذا الصنف، فإن كل من يظن أنه بمقدوره مجادلتنا اعتمادا على ما يعطيه العقل من نفسه، سواء أكان من أهل الدين أم لم يكن؛ يكون واهما غير ذي معرفة بعقله أو بسواه.

وعلى ضوء ما سبق، فإننا نعلن أن المسائل التي تناولها معلّمو المسيحية، والتي تتعلق بالتجسد وأوانه، وبالطبيعتيْن وما يجمع بينهما وما يميّز إحداهما عن الأخرى، وبالاتحاد وأوان تحققه (في بطن مريم أو عند الولادة أو عند العماد)، وبالآلام والموت، هي غير ذات حقيقة، ولا لها أثر في حقيقة المسيح، كما يتصور المتناولون لها؛ بل هي سقطات عقلية لأولئك المعلّمين، تسبب لهم فيها طغيان الحس عليهم، وقلة خبرتهم بالمعاني. وعلى هذا، فإنه ليس من الضروري للمسيحيّ

في الزمان الأول، ولا للمسلم أو الكتابي في زماننا، أن يكون لهم رأي في المسائل المذكورة؛ لأن مُطالبة الناس بإبداء آرائهم فيما لم يكلّفهم الله، هو تحميل لهم لما لا يُطيقون. وهذا -كما هو معلوم- مخالف لأصل التشريع؛ يقول الله تعالى: {وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ} [البقرة: ٢٨٦]، ويقول سبحانه: {لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة: ٢٣٣]؛ والوُسع هنا بالمعنييْن البدني والعقلي. وهكذا يظهر لنا أن "رجال الدين" هم من يُعسّر على الناس التديُّن، عندما يُدخلونهم فيما ليس من أطوارهم، وعندما يجعلون ذلك الدخول من شروط الإيمان؛ وهو ما يؤدّي إلى كثير من الفتن، التي يكون الاقتتال بين أهل الدين الواحد أحد وجوهها البارزة. ولو أن الناس نظروا إلى نتائج تديّنهم، لسهُل عليهم أن يعلموا صواب طريقهم من خطئه؛ ولكنهم يعموْن عن النتائج بالعقائد المترسخة لديهم، والتي حلّت محل الإيمان الحق. نقول هذا، لأن نتائج الدين ينبغي أن تكون بناء لا هدما، وجمعا لا تفريقا، وتوسيعا للخير لا تضييقا!...

٣. تطور الجدل حول المسيح:

بحسب ما مرّ من العقائد، فإن مدرسة الإسكندرية ومدرسة أنطاكيا، لم تكونا تختلفان على لاهوت المسيح وناسوته فحسب؛ وإنما تطور الخلاف إلى طريقة الاتحاد بين اللاهوت والناسوت. ولقد شغلت مسألة الاتحاد الآباء منذ القرن الرابع وإلى مجمع "خلقدونية"، فما بعده. ومنذ بداية القرن الخامس، لم يعد الجدل دائرا بين مذهب "اللوغوس — جسد" و"اللوغوس — إنسان"، بل تركّز حول الاتحاد، متى وكيف تم. فهل حل "الكلمة" في إنسان يُسمى يسوع؟ ورُفع هذا الإنسان في وقت ما من حياته إلى درجة اللاهوت؟ أم هل حل الكلمة في بطن العذراء مريم عند تبشير الملَك لها؟ وهل يُقال بأن الجنين الذي تكوّن في بطن مريم هو الله؟ وبالتالي، هل تُنسب مريم إلى الله بالأمومة؟

ومما لا شك فيه فإن مسألة أمومة مريم كانت دافعا لتأجيج الجدل الكنسي، ولكنها لم تكن الوحيدة سببا لقيام ثورة "كيرلس" في الإسكندرية، وانعقاد مجمع روما في أغسطس ٤٣٠م، برئاسة البابا "سيليستينوس"؛ ثم انعقاد مجمع الإسكندرية وإفسس تحت رئاسة كيرلس؛ بل كانت توجد أسباب أخرى عقدية وسياسية، عملت على توسيع الانقسام داخل الكنيسة. ومن أجل تناول تفاصيل ما حدث، فإنه لا بد من معرفة نسطوريوس المختلف عليه، والذي حكمت عليه الكنائس مجتمعة بالحرمان، في مجمع إفسس الذي ترأسه كيرلس سنة ٤٣١م، ووافقت روما عليه. كما وافق عليه يوحنا الأنطاكي، مع بعض أنصار نسطوريوس نفسه، بغية خلعه من أجل عقد معاهدة سلام مع كيرلس في سنة ٤٣٣م. ومنذ ذلك الوقت اعتُبر نسطوريوس هرطوقيا في نظر أغلب كنائس الشرق والغرب. وقد اتخذت الكنائس قرارها بناء على تعليم نسطوريوس بأن العذراء ولدت إنسانا فقط، لا إلها؛ وإن اللاهوت مُنِحَه المسيح بسبب استحقاقاته فيما بعد. ومرة أخرى نحكم على الخلاف القائم بين الطرفين المتنازعيْن، بأنه صوريّ؛ لأن مناط الحكم ليس هو زمن ظهور عيسى بالصورة الإلهية، وهو من نطق في المهد وأيّده الله منذ الولادة بالروح القدس. وبهذا، يكون مخالفا لمُعتاد الناس في أطوار نموّهم؛ ومخالفا لما كان الأنبياء في الغالب، والذين لم يكونوا يدخلون طور الخلافة الإلهية، إلا بعد مجاوزة سن الأربعين. ونعني من هذا، أن الحكم على عيسى ينبغي أن يكون استثنائيا، ولا يحتمل القياس على أحد من بني آدم؛ إلا على آدم نفسه. والله يقول في هذا: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آل عمران: ٥٩]. ولا نظن نسطوريوس قال بما قال، إلا فرارا من القول بمساواة الابن مع الآب، التي اعتمدها مجمع نيقية. وعلى الرغم من قصور نسطوريوس عن معرفة عيسى، فإنه يكون أفضل من القائلين بالمساواة الشركية من غير شك. وحتى نتبيّن الأمر بوضوح أكبر، لا بد لنا من النظر في حياة نسطوريوس وفي الظروف المحيطة به.

نسطوريوس:

لقد تضاربت الأقوال في أصل نسطوريوس وفي وقت ميلاده (حوالي ٣٨١م)، فقيل بأنه من أصل فارسي، وبأن جده كان من سكان مدينة "أتاك" ثم انتقل إلى مدينة "ساموزاط"؛ وقيل غير ذلك. وكان نسطوريوس قصير القامة أشقر، حسن المنظر وبديع الصوت؛ ويُظن أنه ابتدأ دراسته في مدينة "مرعش" التي نشأ بها، ثم انتقل إلى أنطاكيا والتحق بدير في ضواحيها يُدعى دير "أُبْرُبْيوس". وكان هذا الدير ذا مكانة علمية عظيمة، بسبب إشراف كلٍّ من "كارتربوس" و"ديودوريوس الطرسوسي" عليه. وقد قام ديودوريوس ويوحنا فم الذهب وثيودوريوس في البداية بالوقوف مع نسطوريوس، عندما عارضه أسقف الإسكندرية كيرلس. ولن ندخل في الخلاف الدائر حول تلمذة نسطوريوس لثيودوريوس، ويكفينا هنا أن نقرّ بأنه تأثر تأثرا بالغا بتعاليمه. ترك نسطوريوس الدير، عندما دُعي إلى رعاية إحدى كنائس أنطاكيا؛ ويُقال إن ثيودوريوس هو مَن سامه كاهنا، وهو من إذن له في تدريس العقائد المسيحية. وما لبث صيت نسطوريوس أن ذاع، إلى أن وصل إلى القسطنطينية مقر الإمبراطور.

وبعد وفاة الأسقف "أتيكوس"، رئيس أساقفة القسطنطينية سنة ٤٢٥م، تقدم لخلافته كل من "بروكلوس" و"فليبوس" و"سيسينيوس"، فانتُخِب هذا الأخير ونُصِّب رئيسا لأساقفة القسطنطينية في الثامن والعشرين من فبراير عام ٤٢٦م. ولم يمكث طويلا على الكرسي، إذ إنه تُوُفي عام ٤٢٧م؛ فعاد المتنافسان الأولان مع عدد آخر من المترشحين، إلى طلب المنصب. غير أن الإمبراطور "ثيودوريوس الثاني"، عزم على اختيار رجل أجنبي للجلوس على كرسي القسطنطينية، التي صارت تُلقّب بـ "روما الجديدة". ولم يكن هذا الأجنبي إلا نسطوريوس، الذي كان يروم الإمبراطور من تنصيبه، تجنب الخلافات المحلية التي كانت بين الأساقفة.

عندما نُصّب نسطوريوس رئيسا للأساقفة، بدأ بإعلان الحرب على الهراطقة، في أول خطبة له بين يدي الإمبراطور؛ وذلك في العاشر من أبريل من سنة ٤٢٨م. ولقد نفذ نسطوريوس وعيده، وبدأ في مطاردة الجماعات الدينية على تراب الإمبراطورية. ولقد كانت أُولى ضحاياه، جماعة الأريوسيين؛ ثم تلتها جماعة الأبوليناريوسيين، والنوفاتيون، والمقدونيون، والأقنوميون، والفالنتيون، والمونتانيون، والمركيونيون، والبولسيون، وغيرهم...

ولقد حارب نسطوريوس أيضا بعض العادات والتقاليد المعمول بها في المدينة، وعمل على إلغائها؛ كالرقص والغناء والمسرح؛ وهو ما جلب عليه غضب الرومان. ومما زاد من حدة الوضع، عدم قبول نسطوريوس حضور الإمبراطورة العشاء (الرباني) في مقر الأسقفية؛ فانضم هذه المرة الإكليروس إلى البلاط ضده. ولم يكتف نسطوريوس بذلك، بل أمر بمسح صورة الإمبراطورة، التي كانت قد رُسمت على المذبح. وعندما توجهت الإمبراطورة في يوم العشاء الرباني كعادتها، منعها نسطوريوس من الدخول مخبرا إياها بأن ذلك المكان مخصص للكهنة وحدهم. ويبدو أن إلحاح الإمبراطورة وإصرار نسطوريوس، قد جعلها تسأله: "ألا يحق لي أن أدخل هذا المكان، لأني لم ألد الله؟"، فما كان من نسطوريوس إلا أن أجابها: "أنت ولدت الشيطان!"، ثم طردها. ورغم عدم ثبوت صحة الرواية، إلا أن نسطوريوس قد وقف في وجه تسلّط السلطة الحاكمة على الدين ورجاله. وهذا يُحسب له على كل حال، ما دام القليلون من رجال الدين، على مر العصور، هم من يقفون للجبابرة ويمنعونهم من امتهان المقدسات. لكن هذا سيعود على صاحبنا بما يكره فيما بعد، وإن لم يُصرَّح به من جهة الظاهر.

عندما جاء نسطوريوس إلى القسطنطينية، أحضر معه شماسا من أنطاكيا، يُدعى "أناستاسيوس"؛ وجعله مقربا منه ومكّنه من الوعظ والتعليم. وقد كان أناستاسيوس على ما يبدو، من تلاميذ ثيودوريوس الموبسيوستي؛ وفي يوم من الأيام ألقى الشماس عظة عن أمومة مريم لله (تعالى)، وقال فيها: "إنه لا يجب أن ندعو مريم أما لله "ثيوتوكوس"، لأنها بشر؛ ومن المستحيل أن يولد الله من مخلوق بشري!" (وكأنه يُمكن أن يولد من غيره، سبحانه)؛ فكانت هذه الجملة بمثابة قنبلة

انفجرت في الكنيسة. وانتظر الناس من نسطوريوس الذي كان حاضرا، أن يعارض أناستاسيوس بخصوصها؛ ولكنه على العكس من ذلك، فقد أيده فيما ذهب إليه. وهنا انقسم الشعب والرهبان قسميْن: قسم تقليدي، يرفض آراء أناستاسيوس؛ وقسم ضد التقليد ويقبل تعليم أناستاسيوس. وأمام هذا الاضطراب، جاء بعض الإكليروس إلى رئيس الأساقفة في قصره، ليسمعوا منه. فأصغى نسطوريوس إلى شكوى الفريقيْن، وتفطن إلى أنهما لا يختلفان على لاهوت المسيح وناسوته، وإنما يختلفان حول مصطلحات بعينها؛ فأجابهم بإن مريم إذا دُعيت أما للمسيح، فإنها تكون من جهة أما لله، ومن جهة أما للإنسان. ولا يخفى أن معالجة نسطوريوس للوضعية، التي أحسن توصيفها، لم تكن إلا تلفيقية، كما هي العادة في مثل هذه الأحوال؛ لأن العلم بهذه المسألة، فوق طوره وطور من جاءوا يسألونه. وهكذا، فإن الانقسامات ما لبثت أن عادت تطفو على السطح؛ وكانت أغلبية الأساقفة –هذه المرة– ضد رئيسهم. ومما زاد من حدة النزاع، ظهور متطرفين على رأس كل حزب. فظهر من فريق منع القول بالأمومة "دوروثيوس"، أسقف مركيانوبوليس؛ وظهر من الجانب الآخر "أزيبيوس" المحامي، الذي سيصبح أسقف "دوريلوس" فيما بعد. ولقد ألف هذا الأخير كتيّبا صغيرا، يُقارن فيه بين عقائد نسطوريوس، وعقائد بولس الساموساطي. ولقد قام بتعليق هذه البنود على باب الكنيسة (كما فعل مارتن لوثر فيما بعد). فأدى ذلك إلى انفصال عدد كبير من الأساقفة عن نسطوريوس، واجتمعوا إلى "بروكلوس" وطلبوا منه أن يدافع عن عقيدة أمومة مريم لله، بحيث يكون المولود منها هو الله الكلمة، لا الإنسان. ولقد حاول نسطوريوس الرد على عظة لـ "بروكلوس" يُثبت فيها عقيدته، فلم يُفلح. ولجأ إلى سلطته، فخلع بعض أفراد الإكليروس، كـ "فليبس" الذي كان مرشحا لرئاسة أسقفية القسطنطينية سابقا؛ فقامت المظاهرات نتيجة لذلك. فاستعان نسطوريوس على المتظاهرين بالشرطة، في تعاون واضح بين السُّلطتيْن: الدينية والدنيوية؛ ما كان ينبغي أن يُلجأ إليه.

وأما معنى عبارة "أم الله"، عند نسطوريوس، فيبدأ لديه بسؤال: هل يجوز أن ندعو مريم أما لله (ثيوتوكوس)؟... وهل يعني إطلاق هذا اللقب على مريم، أننا نرفعها إلى درجة اللاهوت؟... وهل في رفضنا منحها هذا اللقب، سنسقط في هرطقة بولس الساموساطي؟... ومن خلال مواقف نسطوريوس نتبيّن:

– أنه خاف من خلط المفهوم المسيحي (!) بالمفهوم الوثني، للآلهة العذارى. ونحن نقول: ومع ذلك، فلم تسلم عقيدة النصارى من إسقاطات وثنية تجذرت فيها إلى الآن.

– أنه كان يعلم أن مريم قد وصلت لدى بعض المسيحيين إلى درجة الألوهية، وقد أُلِّفت لها أناشيد يُصلى لها بها؛ في خروج واضح عن أصول المسيحية. ألم يقل المسيح يوما مُنكِراً، عندما نُبِّه إلى حضور أمه وإخوته بين المتحلقين حوله: "مَنْ هِيَ أُمِّي وَمَنْ هُمْ إِخْوَتِي؟!"[1]. فمن أين جاءت هذه العقائد الفرعية، التي صار الناس يتنازعون حولها؟...

وإن نسطوريوس، كما أسلفنا، لم يكن منكرا لإطلاق لقب "أم الله" على مريم؛ ولكن كان يريد أن يكون ذلك عن علم (بحسبه)، بحيث يُذكر أن عيسى المولود منها، قد وُلد مسكونا باللوغوس. ومع هذا، فإنه كان يفضل استعمال لقب "أم المسيح" (كريستوتوكوس)، تفاديا للخلط الذي قد يُفضي إلى الأريوسية، التي يراها هو هرطقة. ولقد ظن نسطوريوس –كما ظن غيره– بأن القول بأمومة مريم، يقدح في القول بأزلية الكلمة. وحتى يكون المعنى واضحا، فإن نسطوريوس فضل استعمال مصطلح "استقبلت"، بدل "ولدت"، ليفرق بين الكلمة والإنسان؛ في أثناء كلامه عن التجسُّد الذي هو واحد. وعلى الرغم من الجدل الواسع الذي أُثير حول أمومة مريم لله، فإنه من سقطات عقول الآباء من غير شك؛ عندما جعلوا الكلام في المعاني بالأثر الرجعي، بعد متابعتها في عالم السُّفل. وهذه المسألة (تنزيل المعاني)، لا تكون بهذه الطريقة؛

[1]. متى: ١٢: ٤٨.

لأن ما يغزله المرء مرة، سينكثه مرة أخرى؛ وسيبقى هكذا في دوامة لا تخلص إلى طرف. وأما توهم نسطوريوس (وأمثاله) أنه قد ظفر بعلم معتبر في المسألة، فهو غير صحيح؛ وإنما هو كان أكثر مرونة من غيره فحسب، بحيث كان يُثبت وينفي بحسب المعنى المقصود لديه؛ بخلاف من هم دونه في العقل، والذين كانوا يبغون الظفر بقول واحد ثابت لا يتغيّر. وهذا الذي نقوله هنا، يعود بنا إلى فن معاملة المعاني، الذي كنا قد أومأنا إليه في فقرات سابقة.

وأما تعاليم نسطوريوس الكريستولوجية، فتتلخص في قوله بتمايز الطبيعتيْن في المسيح؛ وهو ما جعل كيرلس من مدرسة الإسكندرية يستعمل عبارة "الطبيعة الوحيدة للكلمة المتجسد"، خوفا من الوقوع في القول بمسيحيْن وبابنيْن. ولقد بالغ نسطوريوس في التفريق بين الطبيعتيْن، إلى حد القول بجوهريْن في المسيح. وسبب هذا التطرف، هو تصوره أن الجوهر لا يوجد من غير طبيعة، ولا الطبيعة من غير جوهر. ولكي يظهر الجوهر -بحسبه- أو تظهر الطبيعة، فلا بد لهما من أقنوم. وهذا يعني أن مصطلح "أقنوم" (بروسوبون) لدى نسطوريوس، استُعمل بمعنييْن: الأول، وهو المظهر الخارجي، أو الهيئة أو الشكل؛ والثاني، وهو الأقنوم.

وحتى لا ندخل في الإشكالات الصورية التي تكاد لا تنتهي، فإننا نقرر أن المسألة هنا تدور حول معنيَيْ "الظاهر" و"المظهر". وإن المعلمين المسيحيّين، قد اختلط عليهم الاعتبار العقلي، الذي تتجاور فيه المعاني ويساوي فيه أحدها الآخر، بالحقيقة التي هي عائدة إلى الوجود الحق الظاهر بالصور العدمية. وهذا جعلهم يسقطون في القول بالأقانيم أو الأشخاص (البروسوبونات)، في تجاهل للواقع الحسي، الذي لا يُشهد منه إلا واحد. ونعني من هذا أن المشهود من المسيح واحد غير متعدد؛ والتعدد هو في الاعتبارات العقلية فحسب. وما كان للاعتبار العقلي، أن يُغيّر من المشهود شيئا، لو كان الناظرون موافقين للحق حقيقة. ونعني من هذا، أن إدراك الأطفال والبُله من الناس، أكثر مطابقة للواقع، من إدراك المفكرين الذين يتعقلون المعاني، ثم يعودون بها على الحس، ليشهدوه بخلاف ما هو عليه. والصور العقلية المختلفة، والمخالفة للمشهود من الحس، لا يمكن الركون إليها لاختلافها فيما بينها؛ لأنها لو كانت مطابقة للواقع، ما كانت تختلف. وهذا لا يعني أن تعقل وجوه مختلفة من المشهود الواحد أمر باطل، ولكن يعني أن وحدة المشهود المستغنية عن البرهنة، لا تتأثر بمعقولاتها. ولو أن المعلمين المسيحيين (وكل متكلم في أمر العالم) كانوا على علم بأن كل ما زاد عن الحق في الشهود، هو عدم محض؛ ولو أن عقولهم استوعبت إمكان شهود المعدوم، لانحلت كل عقدهم في أمور العقيدة؛ ولكن منشأ الضلال لديهم، هو اعتقادهم الخاطئ بوجود المعدوم حال شهوده. وهذه أمور، لا يكشفها إلا النور الإلهي، بإذن من الله؛ لذلك تبقى العقول المتطلعة إلى معرفتها في دوامة لا تنتهي، وإن اختلفت التعابير بين الأشخاص الناظرين. ومن هنا وجب التنبُّه إلى أن الخوض في العقائد المختلفة، من مُنطلق تعقُّل العبارات وحدها، هو أمر غير مُجد؛ وإن توهم العقل أنه يمسك بخيوط معنوية، يظن أنه بتتبعها سيبلغ الغاية. وهذا يُشبه في الحس، ما يقع لمبصر السراب، الذي يتوهم أنه بمطاردته له، سيصل إلى الماء، ولو بعد حين... ومن لم يذق معرفة الحق بعد ذوق التيه الفكري، لا يمكن أن يعرف الفرق بين الأمريْن؛ لغلبة ظنه عليه بما ذكرنا.

ولقد اعتقد نسطوريوس فيما يتعلق بـ "الأفخارستيا" (العشاء الرباني) -الذي هو طقس من طقوس المسيحية الرمزية غير البعيدة عن الممارسات الوثنية ثقافيا- بحضور جسد المسيح حضورا حقيقيا ومزدوجا: أي هو يعني حضور الجسد من ناحية، وحضور الخمر والخبز من ناحية أخرى. والجسد المعنيّ لنسطوريوس في هذا الطقس هو الناسوت، لا اللاهوت؛ حتى يبقى منسجما مع عقائده الكريستولوجية المثيرة للجدل.

ومما ابتدعه نسطوريوس في مسألة الاتحاد، قوله بمجاوزة الرابط بين الطبيعتيْن للمحبة المتبادلة، وصولا إلى القول باختراق اللاهوت للناسوت، واختراق الناسوت للاهوت؛ لكن من دون اندماج بين الطبيعتيْن. ونحن قد أثبتنا مرارا عدم

جواز القول بالطبيعتيْن من جهة، وعدم مزاحمة المخلوق للخالق وجودا، من جهة أخرى. وهذا الذي نقوله يعزُب عن ذهن كثير من علماء الإسلام، الذين يعتقدون بالشرك وهم لا يشعرون. ولا بد من التنبيه هنا للجميع، بأن الرسل عليهم السلام -وخصوصا محمد صلى الله عليه وآله وسلم- جاءوا ليفتحوا أمام أتباعهم طريق الذوق، لا طريق النظر؛ بعكس المظنون. وحتى يعي القارئ الفرق بين الأمريْن، فلا بد من أن نجلّي له الغاية من كل طريق؛ وهكذا فإن:

- طريق النظر، ينتج تصورات مفارقة، تعتمد أسلوب التلفيق الموهم بموافقة النصوص المقدسة؛ من دون إمكان عرضها على نموذج حقيقي، يَبين معه الصواب من الخطأ. وفي النهاية تبقى المقولات النظرية كلها احتمالات تُؤخذ بالتغليب والترجيح الهوَوِيّ (نسبة إلى الهوى).

- طريق الذوق، يسير به التابع للرسول في طريق الدين، ليقطع المقامات وينال علومها. وإن غاية ما يُدركه السالك، هو أن يندرج نور إيمانه في نور متبوعه، ليذوق منه ما أخبر به عن نفسه؛ مما يظنه أهل النظر مخصوصا به وحده. ونعني من هذا، أن المسيحيين -بدل الانشغال بالكريستولوجيا- كان ينبغي عليهم أن يتبعوا المسيح اتباعا حقيقيا، يصيرون به المسيح نفسه؛ ليعلموا بالمسيح من هو المسيح. وهذا الطريق على علوّه، وعلى تأييد الشريعة له، لا نجد مؤمنا به -بله سالكا له- إلا قلة من الناس. ولو لم يكن الدين مبلّغا لهذه المراتب العليا، لم يصح أن يكون طريقا إلى الله البتة؛ بل هو لا يكون طريقا إلا بتحقق المعنى المذكور. وإن أقصى ما يعلمه جل علماء الدين من المسلمين، الذين كان ينبغي لهم أن لا يقعوا فيما وقع فيه الكتابيّون من ضلال (أصغر)، هو أن يكون الدين طريقا إلى الجنة؛ علما بأن كون الدين طريقا إلى الجنة، هو بالقصد الثاني، لا بالقصد الأول. ومعنى هذا، أن من لم يعلم أن الله ما شرع الدين لعباده، إلا ليوصلهم إليه؛ فإنه لم يرق إلى معرفة "حقيقة" الدين. ومن لم يعرف حقيقة الدين، فلا يحق له تقديمه للناس أو الدعوة إليه؛ لأنه سيدعو إلى باطل لا إلى حق. وهذا، هو ما يجعل دعوات "الدعاة" من المسلمين اليوم تؤتي أكلا مرا وشائكا، غير مستساغ لأصحاب الفِطَر السليمة.

ولقد غلط نسطوريوس، عند كلامه عن الاتحاد بين اللاهوت والناسوت، في انطلاقه من اتحاد الروح بالجسد؛ لأن اتحاد الروح بالجسد الذي لا يعلم المتكلم حقيقته، هو اتحاد مخلوق بمخلوق؛ وأما الله الحق، فيتعالى أن يتحد به شيء، أو يتحد هو بشيء. وهكذا، فإن نسطوريوس، عند توهمه الكلام عن اللاهوت، هو لا يتكلم إلا عن الناسوت. ولا بأس بذلك، لو أنه أقر بمرتبته في جهله، ولم يجعل نفسه إماما في الدين لغيره. وإننا هنا عندما نبيّن سقطات نسطوريوس، لا نؤيد ما كان يقوله خصومه، من أمثال كيرلس الإسكندري، القائل بوجود طبيعة واحدة؛ لأنهم في النهاية يتكلمون من المرتبة ذاتها، ويقعون في الآفات عينها، ولا يختلفون إلا في العبارات والاصطلاحات. على أن الخلاف القديم المتجدد بين أسقفية الإسكندرية ونظيرتها بالقسطنطينية، لم يكن يخلو من صراع سياسي؛ خصوصا عندما صار يُنظر إلى القسطنطينية على أنها روما الثانية، وصار كرسيّها يوصف بالمسكوني (العالمي).

لم تلبث المراسلات بين أسقف الإسكندرية ورئيس أساقفة القسطنطينية، أن تمخضت عن ولادة مجلد ضخم، كتبه كيرلس للرد على هرطقة نسطوريوس (بحسبه)؛ وكان عنوان الكتاب "ضد تجديف نسطوريوس". ولم يكتف كيرلس بكتابة كتابه هذا، بل بعث الرسائل يمينا وشمالا ليُحذّر الناس من تعاليم نسطوريوس؛ كانت أهمها رسالته إلى الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني، ورسالة إلى الإمبراطورة زوجته "أُدوسي"، وأخرى إلى أخت الإمبراطور "بولخاري"، ورسالتيْن إلى الأميرتيْن أختيْ بولخاري: "أركادي" و"مارين". ولقد تفادى كيرلس ذكر نسطوريوس بالاسم في رسائله، كما تفادى أن ينتصر لنفسه بطريقة مباشرة؛ وهذا كان منه حنكة سياسية، لا تخطئها العين.

٤. وصول أخبار الصراع العقدي إلى روما:

لقد كان "ماريوس مركاتوريوس" عينا لروما في القسطنطينية، وكان على علمانيته، من أعلم الناس بأمور الدين. ولقد كتب ماريوس خطابيْن سنة ٤١٨م، إلى "القديس أغسطينوس"، بخصوص قضية البلاجيين (الزنادقة)، ويُحتمل أن يكون قد أرسل الخطابيْن من روما مقر إقامته. لكن الدارسين يرون أن ماريوس لم يجرؤ على مهاجمة نسطوريوس إلا بعد عزله من منصبه، ويرون أن من أوصل خبر نسطوريوس إلى روما، هو نسطوريوس نفسه؛ الذي راسل أسقف روما "سيليسينوس"، وعرض عليه تعاليمه من شدة إعجابه بنفسه.

ومع أن أخبار نسطوريوس قد وصلت مسبقا إلى روما، فإن كيرلس لم يبق مكتوف اليديْن؛ بل أرسل شماسه "بوزيدونيوس" إليها، حاملا رسالة ضد تعاليم نسطوريوس؛ وقد يكون بابا روما، هو المستفسر لكيرلس عما علمه من مضامين رسائل نسطوريوس إليه.

ولما كانت رسائل نسطوريوس إلى البابا مكتوبة باليونانية، فإن البابا قد بعث بها إلى راهب بمرسيليا ليترجمها؛ ولكن المترجم تحامل على نسطوريوس، ووصفه بالمهرطق، وذكر عنه ما لم يقله. وبما أن روما قد وُضعت من قِبل كيرلس ونسطوريوس كليهما موضع الحكم، فإنه كان لا بد من أن تعلن عن رأيها. وهكذا دعا البابا إلى عقد مجمع محلي في روما سنة ٤٣٠م، للنظر في تعاليم نسطوريوس؛ أعقبه توجيه رسالة تهديد بالحرمان له، إن لم يعد عن عقائده. ووُجهت رسالة ثانية من المجمع إلى شعب وأساقفة القسطنطينية، تُعلن فساد تعاليم نسطوريوس. وأما الرسالة الثالثة فوُجهت إلى يوحنا الأنطاكي وسائر أساقفة الشرق، مخبرة لهم بقرار المجمع، وبالمهمة الموكلة لأسقف الإسكندرية في عمل اللازم (التنفيذ). وأما الرسالة الرابعة فقد بُعثت إلى كيرلس نفسه، مادحة له مثنية على سلامة عقيدته وعلى غيرته، ومكلفة إياه بإبلاغ نسطوريوس بقرارات المجمع، وبالسهر على تنفيذها. وحالما وصلت الرسالة إلى أسقف الإسكندرية دعا إلى مجمع محلي للنظر في الأمر، ثم اقترح على السنودس الاثني عشر حرمانا ضد نسطوريوس وتعاليمه. ثم دعا المجمع بقبول الأشخاص الذين قبلتهم روما، والذين كان قد قطعهم نسطوريوس فيما قبل. ولنذكر حرمانات كيرلس لنعلم مدى مطابقة اتهاماته للواقع:

١. "فليكن محروما من لا يعترف بأن عمانوئيل هو إله بالحقيقة، وأن القديسة مريم هي أم الله؛ لأنها ولدت في الجسد كلمة الله الذي صار جسدا.": وهذه عبارات تفيد العموم، ولا تصلح للرد على نسطوريوس بحال؛ زيادة على ضعفها في نفسها وعدم اتساقها.

٢. "فليكن محروما من لا يعترف بأن كلمة الله الآب، اتحد اتحادا طبيعيا، وأنه مسيح واحد مع جسده؛ يعني الذي هو إله وإنسان معا في الوقت نفسه.": ومسألة الاتحاد والعبارات الدائرة حولها، تبقى مبهمة ومتكلَّفة؛ ونعني من هذا، أن كل عبارة لا يستسيغها عوام المؤمنين، فإنها غير ملزمة. والتفاوت بين الخواص، يكون فيما بينهم، لا مع إخراج الكلام وإشاعته في الناس.

٣. "فليكن محروما من يفرق أو يقسم الطبيعتيْن في المسيح بعد الاتحاد، معتبرا اتحادهما مجرد شركة بسيطة في الكرامة؛ أي عن طريق السلطة أو القوة، وليس عن طريق الاتحاد الطبيعي.": وإذا كان القول بالطبيعتيْن نفسه، تلفيقا من المعلمين، فكيف يُجعل معيارا لإيمان المؤمنين؟!

٤. "فليكن محروما، كل من يفرق بين الشخصيْن أو الطبيعتيْن، في شرحه للعبارات الإنجيلية، أو عبارات الرسل، أو التي نطق بها القديسون عن المسيح؛ أو التي نطق بها المسيح نفسه عن نفسه؛ ناسبا بعضها إلى الإنسان منعزلا، أو منفردا عن الله الكلمة، وناسبا البعض الآخر، لكلمة الله الآب، باعتبار أنها لا تنطبق إلا على الله.": وهذا الكلام متناقض تناقضا تاما؛ لأنه يُثبت التفريق وينفيه في الآن ذاته ومن الوجه عينه. نقول هذا، لأن النفي والإثبات حقيقتان يقوم عليهما

الوجود؛ ولكنهما لا يكونان في المحل الواحد، ولا من وجه واحد؛ لأن ذلك ينسف البناء كله، ويُبقي العبارات جوفاء لا معنى لها. ومن أدل الأدلة على النفي والإثبات كلمة "لا إله إلا الله"، لكن لها علما خاصا يعلمه أهله، ويغيب عن إدراك العامة. ونعني أن ما يغيب، هو ما يفوق الإدراك العام، لا ما يُناسبه، مما هو غير منفك عن الشرك اللازم للمرتبة. ثم إن إلزام الناس بوجه واحد من الفهم في النصوص المختلفة لقائلين مختلفين، هو من التحكُّم المبالغ فيه، ومن تضييق أفق العقل؛ بعكس المطلوب.

٥. "فليكن محروما كل من يتجاسر قائلا بأن المسيح هو إنسان حامل لله، أو سكن فيه الله، وليس بالحري إلها حقيقيا؛ فبما أنه ابن واحد طبيعي، وبما أن الكلمة صار جسدا، فقد اشترك في اللحم وفي الدم تماما مثلنا.": ولا ندري هل يقيس كيرلس هنا المسيح على عموم الناس بمن فيهم كيرلس نفسه؟... فإن كان كذلك، فإن كل عقيدته تتهاوى؛ لأنها تلفيقات وتناقضات، لا يُمسكها إلا قصور عقل أصحابها. ثم كيف ينفي القول بحمل الإنسان لله وسكن الله في الإنسان، وهو يبني كل عقيدته على الاتحاد؟!... فهل الأمر منوط باصطلاحات بعينها؟ أم هو عائد إلى مدلولها ومعناها؟... لأنه إن كان عائدا إلى المعنى، فالتناقض جليّ؛ وإن كان منوطا بالألفاظ، فهذا لا يعدو أن يكون تلقينا أجوف، مما يعتمده الجامدون من أهل العقائد. وسنعرض لبعض ذلك عند المسلمين، عندما نصل إلى محل عقائدهم بإذن الله.

٦. "فليكن محروما من يجسر قائلا بأن كلمة الله الآب هو إله أو رب المسيح، ولا يعترف بالحري بأنه هو نفسه وفي الوقت نفسه إله وإنسان معا؛ لأن الكتاب المقدس يقول: "لأن الكلمة صار جسدا".": الاستدلال بالكتاب المقدس، لا يكون بألفاظه قبل أن تُدرك معانيها؛ ومعاني التوحيد، غائبة عند كيرلس وكثيرين غيره. ثم إن نفي ربوبية الله للمسيح، كفر جليّ؛ ينبغي لكل عاقل العودة عنه عاجلا، وقبل حلول الموت به. وأما ما كنا نتكلم عنه نحن أحيانا من نسبة الألوهية إلى المسيح، فمن وجه غير وجه عبوديته. وهذا هو ما سميناه سابقا إنزال المعاني المختلفة، لا في محل واحد، والنظر إليها، لا من وجه واحد. ومن كان فاقدا لما نذكر هنا، فلا يعتبر نفسه مؤهلا للخوض في علم اللاهوت.

٧. "فليكن محروما كل من يقول بأن يسوع كان يستمد من كلمة الله القوة والحركة، وأن مجد الابن الوحيد نُسب له، وليس من خواصه.": وأما القول بعدم استمداد عيسى من الحقيقة المحمدية (الكلمة)، فهو الكفر عينه؛ لأن عيسى من وجه عدمه فقير إلى الله كفقر الناس أجمعين. ولعل حصر المدد في القوة والحركة، كان كيرلس يقصد منه الحياة والقدرة؛ وهما صفتان لله، يمد بهما خلقه على قدر استعدادهم. وكل من يقول غير هذا، فهو جاهل جهلا عظيما. يقول الله تعالى في هذا المعنى خصّيصا: {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المائدة: ٧٥]. ومعنى قوله سبحانه: {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ}، هو أن المسيح لا ينفرد عن سائر الرسل بشيء يميّزه في حقيقته، حتى يجعله مخالفا لهم، كما يعتقد ذلك النصارى؛ بل الأمر يحتمل التفاوت والتفاضل في المشتركات فحسب. وأعم شيء يتصف به الرسل، هو فقرهم التام إلى الله، ليكون كل ما يظهر عليهم من فضل، هو من إمداد الله لهم لا من أنفسهم. ومعنى قوله تعالى، عن عيسى وأمه: {كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ}، أنهما كانا مفتقريْن إلى الله فيما يقوم به جسداهما؛ فكيف لا يكونان فقيريْن فيما عدا ذلك من صنوف النعم، كالوجود والنور والعلم، وغير ذلك من الصفات!...

٨. "فليكن محروما كل من يتجاسر قائلا بأن الإنسان (المحمول) يسوع، يجب أن يُعبد مع الكلمة، وأن يُمجّد معه، وأن يُدعى الله؛ كما يُعبد ويُمجد ويُدعى الواحد مع الآخر؛ ولا يُكرم بالحري عمانوئيل (المسيح) بعبادة واحدة، ولا يقدم له مجد واحد، كالكلمة الذي صار جسدا.": وهنا ينبغي أن نعلم أن الله لم يأمر بعبادة المسيح، حتى تُبحث مسألة عبادته مع الله أو وحده؛ وإن كان كيرلس قد انتهى إلى عكس ما دلت عليه الشرائع، بنبذ عبادة الله اكتفاء بعبادة الرسول. وهذا

توحيد معكوس، لا يدل عليه إلا إبليس وحده. وتبقى كل الألفاظ والتعابير، مجرد مساحيق تُرام بها تغطية قبح المعنى المدلول عليه.

٩. "فليكن محروما من قال بأن الروح قد مجد الرب الوحيد يسوع المسيح، وأن يسوع استخدم هذه القوة الخارجية والممنوحة له من الروح، لكي يعمل ضد الأرواح النجسة، ولكي يُجري المعجزات الإلهية للناس؛ ولا يقول بالحري بأن الروح الذي أُجريت عن طريقه هذه المعجزات الإلهية هو روحه.": وكأن كيرلس يريد إثبات روح للمسيح، بعكس ما علّم أبوليناريوس؛ ولكنه لم يُحسن العبارة. وذلك لأن روح المسيح مخلوق، وبالتالي هو ممنوح؛ وليس هو الروح الإلهي من جميع الوجوه. ونعني من هذا أن الله عندما سمى عيسى في كلامه روحا قائلا: {وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ} [النساء: ١٧١]، لم يكن يعني سبحانه أن روح عيسى هو روحه، ولا أن نسبة روح عيسى إليه، هي كنسبة روح عيسى إلى جسد عيسى؛ بل يعني أن كل ما يمنحه الرب لعبده، هو منه لا من العبد. وهذا يعني أن الأجساد نفسها، لولا اتحادها بمعنى صور العباد، كان ينبغي أن تُنسب إلى الله قبل أن تُنسب إلى العباد؛ ولكن هذا المعنى يشق على الناس، كما لا يخفى. ومن فهم ما نرمي إليه، علم نسبة روح عيسى وغيره من المخلوقين إلى الله.

١٠. "إن الكتاب الإلهي يقول بأن المسيح صار رسول اعترافنا ورئيس كهنة، قد قدم نفسه لأجلنا، قربانا وذبيحة لله رائحة طيبة؛ فإذا قال أحد بأن حبرنا ورسول اعترافنا، ليس كلمة الله نفسه، عندما صار جسدا وإنسانا مثلنا، ولكن يُعتبر رئيس الأحبار، شخصا آخر ومختلفا عنه أي إنسان مولود من امرأة؛ أو إذا قال أحد، بأنه قدم ذبيحة عن نفسه أيضا، وليس بالحريّ عنا نحن فقط؛ لأن الذي لم يعرف الخطية، ليس بحاجة إلى ذبيحة، فليكن محروما.": بدايةً، إن نظرية الفداء عند النصارى، نظرية وضعية، ليس لها أساس من الوحي الإلهي. والغاية منها، اعتقاد الخلاص -مع التساهل في ارتكاب المحرمات- بالإيمان وحده. والله في الشرائع، أمر عباده بالإيمان وبالعمل الصالح الذي يكون وفقها. ومن هنا فإن كل ما يقال عن الخلاص، ليس إلا انحرافا عن الدين. وأما العصمة من الذنب التي يحاول النصارى نسبتها إلى عيسى، فإنها عصمة عارضة لا أصلية؛ أو عصمة فضل لا عصمة استحقاق. وذلك لأن كل العباد يقترفون المعاصي من مرتبتهم، والفرق بين الأنبياء وعامة الناس، هو أن الأنبياء لهم معاصٍ تناسب مرتبتهم، لا يشعر بها العوام؛ ولو أن الله لا يغفرها لهم، لعاقبهم بها؛ ولكنه سبحانه يتفضل عليهم، فيغفرها لهم، كما يغفرها لطبقة الأولياء من الورثة. فهذا هو معنى العصمة حقيقة. وأما من يقول عكس هذا، فإنه يزعم أن الإنسان لا تقوم به المعصية، وهو أمر مخالف لحقيقة الإنسان نفسها، التي لولاها ما كان آدم وحواء ليعصيا بسببها، مع أنهما لم يُؤمرا (يُنهيا) إلا أمرا واحدا. فدلت معصية آدم وحواء، على أن المعصية من حقائق الإنسانية؛ وإذا كانت بهذه المثابة، فإنها ستظهر في كل فرد من أفراد الإنسانية؛ بمراتب مختلفة، يجل بعضها على بعض، ويدق بعضها عن بعض؛ من غير أن يؤثر ذلك في أصلها شيئا. ولو أن العبد انتفى عنه إمكان تعلق المعصية به، لاستحق الجنة استحقاقا؛ ونبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم أخبرنا أنه يدخلها بفضل الله ورحمته، فقال: «"لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ!"، قَالَ رَجُلٌ: وَلَا إِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: "وَلَا إِيَّايَ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ؛ وَلَكِنْ سَدِّدُوا!»[1]؛ وإن كان هذا المعنى يصدق على محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو سيد كل المخلوقين الذين عيسى منهم، فإنه لم يبق لأحد أن يقول بغير هذا المبدأ. وإن كل كلام النصارى في هذه المسألة، لا يعدو أن يكون أماني يتمنونها، مبنية على أراجيف وظنون. وإن الاشتراك في هذا المبدأ، هو ما جعل الله يقول عن عيسى وأمه -عليهما السلام-:{قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا

---

[1] . متفق عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [المائدة: ١٧]. فلو كانت النجاة لعيسى أصلية، لما ساغ أن يتوعده ربه بإمكان الهلاك مع أمه؛ والهلاك منه دنيوي ومنه أخروي. وعلى كل حال، فإن كل عبد، مهما علت مرتبته، لا بد أن يكون تحت رحمة ربه: إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له. هذه قاعدة عامة، لا يخالفها من حيث الاعتقاد، إلا من جهل أحكام الربوبية. وكل من يزعم أنه يُعظم الرسول وفاء له بحقه عليه، ولا يفي للربوبية بحقها، فإنه يكون عبدا منكوسا، يخلط خلطا كبيرا؛ لا ينفعه معه شيء. فليتدارك العباد أمرهم، قبل حلول الموت؛ لئلا يكونوا حطبا للنار في الآخرة.

١١. "فليكن محروما، كل من لا يعتقد بأن جسد الرب يمنح الحياة، وأنه جسد كلمة الله الآب نفسه؛ والذي يدعي بأنه جسد شخص آخر، ومتميّز عنه، واتحد به عن طريق الكرامة، لكونه السكن الإلهي فقط، ولا يقول بالحري بأنه جسد مُحيٍ لأنه أصبح جسد الابن القادر على أن يُعطي حياة للجميع.": إن كيرلس هنا، لم يعد يفرق بين مرتبة العبد ومرتبة الرب؛ لأن الله بغناه عن الجسد، يكون سبحانه مطلق الصفات؛ وأما العبد فهو دائما مقيَّد فيها، إن كانت صفات إلهية وجودية. وأما إن كانت الصفات صفات سوء، فإن أصلها يكون عدم العبد الأصلي عندئذ. والسؤال هنا هو: هل يدخل العدم على عيسى؟ فنجيب: نعم! لأن السوء هو كل أثر لحقيقة العبد العدمية؛ وهذا لا يسلم منه أحد من الناس، أنبياء فمن دونهم. يقول الله تعالى معلما لعبده: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ} [الأعراف: ١٨٨]؛ فالسوء يُصيب جميع العباد، لأنه من حقيقتهم. وأما كيرلس فيريد أن يرفع جسد عيسى إلى ما فوق مرتبته، ليجعله وجودا محضا بالأصالة؛ وهذه المرتبة لا تكون إلا للحق وحده. وكل هذا الخلط في المراتب، ناتج عن عدم العلم بالظاهر في المظهر، وبنسبة المظهر إلى الظاهر؛ لأن الاتحاد المطلق الذي يقول به المسيحيون، لا يصدق إلا وهما؛ ونعني من هذا: رغم أنهم لا يفتأون يبرهنون على أن المسيح هو الله، فإنهم لن يبلغوا أن يكون المسيح الله أبدا؛ لأن الحقائق لا تتبدل: فالعبد عبد مهما علا، والرب رب مهما دنا.

١٢. "وليكن محروما كل من يُنكر أن كلمة الله، تألم في جسده، وصُلب في جسده، وذاق الموت في جسده، وأصبح باكورة الراقدين، وكإله، فهو الحياة وهو المُحيِي": هذا الكلام، وإن كان له تخريج في الحقائق، إلا أن كيرلس بعدم بلوغه مرتبتها، سينزل به عن معانيه الصحيحة، وسيلفق وفقه تصورات تهدئ من روع العقول القاصرة، التي لا خبرة لها بالمعقولات ولا بالمنطق العقلي...

ويتضح من هذه الحرمانات التي صدرت عن كيرلس في حق نسطوريوس:

١. أن كيرلس لم يكن مطلعا على عقائد نسطوريوس كما هي في نفسها؛ وبالتالي فإن نقده لها، كان نقدا لا قيمة له.

٢. أن التجاذبات العصبية والسياسة، كان حضورها في الحرمانات، أكثر من الردود العلمية المعتبرة.

٣. إن الحرمان لا ينبغي أن يصدر من عبد لعبد؛ لأن العبد مهما كان، فهو نفسه، لا يعلم حكم الله فيه. ولعل كيرلس محروم عند الله، قبل أن يفكر في حرمان زميله.

٤. أن منطق السلطة الدينية، إن تمكن من رجال الدين، فإنه لا يُضمن أن يُسار به في الاتجاه المخالف للدين: كطلب الدنيا من الأباطرة، وكاحتقار عباد مؤمنين من الرعايا، قد يكونون أقرب إلى الله من رئيس الأساقفة.

٥. أن نسطوريوس كان أعلم من كيرلس، ولعل ذلك ما أوغر الصدور عليه.

لم يقبل نسطوريوس حرمانات كيرلس، بل رفضها؛ ورفضها معه يوحنا الأنطاكي، الذي اشتمّ فيها هرطقة أبوليناريوسية. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن بعض اصطلاحات كيرلس، سيعتمدها مجمع "خلقدونية" عام ٤٥١م.

أرسل سنودس الإسكندرية وفدا إلى القسطنطينية، من أجل إنفاذ أمر الإمبراطور. ولم يكن من نتائج محاولة إلزام نسطوريوس بعقائد كيرلس، إلا الإعلان عن انقسام الكنيسة ما بين روما والإسكندرية من جهة، وأنطاكيا والقسطنطينية

من جهة أخرى. فما كان من الإمبراطور، إلا أن وقع على قرار عقد مجمع في "إفسس"، يوم ١٩ نوفمبر من سنة ٤٣٠م؛ على أن يبدأ المجمع أعماله من يوم السابع من يونيو سنة ٤٣١م.

٥. مجمع إفسس:

مع أن من أمر بهذا المجمع، هو الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني، فإن الدعوة قد أُرسلت باسميْ الإمبراطوريْن: ثيودوسيوس الثاني، وفالانتينوس الثالث. ولقد كانت بما معناه: [إن واجب الأباطرة الذين أقامهم الله، هو اليقظة والدفاع عن الإيمان وعن سلامة الكنيسة. فمن مدة طويلة، ونحن نرى ضرورة عقد مجمع، وأن الأحداث الجارية خير شاهد على ذلك... ولقد حدد الإمبراطور تاريخ انعقاد هذا المجمع في سابع يونيو من سنة ٤٣١م، في مدينة إفسس؛ وأرسلت هذه الدعوة، إلى الأساقفة، وطلب منهم أن يكون العدد قليلا.] ولقد أرسلت هذه الدعوة إلى البابا سيليسينيوس، فقبلها، وعين ثلاثةً من الكنيسة الرومانية، حتى يمثلوها في هذا المجمع المسكوني؛ فكان اثنان منهم، من ضواحي روما، هما: "أركاديوس" و"بروجكتوس"؛ وأما الثالث، فكان الكاهن "فيلبس".

ولقد اختيرت إفسس مكانا لهذا الاجتماع، بسبب موقعها الجغرافي، وسهولة الوصول إليها برا وبحرا. غير أن الإمبراطور، عند نظره إلى الموقع الجغرافي، لم يكن يعي أنها ستؤيد كيرلس وتقف معه؛ لأن هذه المدينة كانت تشتهر بأمر آخر، وهو تعظيمها للسيدة مريم عليها السلام، تعظيما بلغ درجة العبادة، وجعل منها شفيعة لها.

وفي يوم الاجتماع، كان كأول الواصلين، وفد نسطوريوس الذي بلغ ستة عشر أسقفا. ولقد كان استقبال أسقف أفسس "ممنون"، له ولوفده سيئا؛ لأنه أمر بغلق أبواب الكنائس وغلق مقبرة يوحنا في وجوههم، وبمنعهم من الوعظ في المدينة؛ بل قد قدمهم إلى الشعب بصفتهم أعداء لأم الله. وبعد ذلك وصل كيرلس، مع وفد من حوالي خمسين أسقفا، وعدد كبير جدا من الرهبان والكهنة. أما وفد أورشليم، فقد وصل يوم الثاني عشر من يونيو برئاسة الأسقف "جيوفنال"؛ وكان ضمن الوفد حوالي خمسة عشر أسقفا فلسطينيا. وأما وفد أنطاكيا، والذي كان يرأسه يوحنا فقد وصل متأخرا، حوالي السادس والعشرين من يونيو، وكان يتكون من أربعة وثلاثين أسقفا. كما جاء إلى المجمع ثلاثة أساقفة من مقدونيا، وشماس من أفريقيا. ووصل وفد روما، في الأيام العشرة الأولى، من شهر يوليو. ولن ننسى وفد إفسس المحلي، والذي يتكون من حوالي أربعين مندوبا. وأما الإمبراطور، فقد أناب عنه الكونت "كونديديانوس"، الذي حمّله مكتوبا رسميا يقرأه عند افتتاح المجمع.

وقد بدأ المجمع أعماله، بدعوة من كيرلس، في الثاني والعشرين من يونيو؛ قبل أن يصل وفد أنطاكيا، ووفد روما. كما أن كيرلس ترأس المجمع، من دون تكليف من أحد، ورغم احتجاج بعض الحاضرين المشفوع باحتجاج الكونت نائب الإمبراطور. ولا يخفى إغراض كيرلس في افتتاح المجمع قبل حضور وفد أنطاكيا، ليضمن أغلبية الحاضرين إلى جانبه في غيابه؛ خصوصا وأن الشعب كان قد هُيِّئ لمعاداة نسطوريوس، إلى الحد الذي خرج إلى الشارع يهتف ضده. وبدل أن يكون هذا المجمع فرصة للنظر في الخلافات التي بين نسطوريوس وكيرلس، فإنه أصبح محكمة لنسطوريوس يترأسها كيرلس؛ في مخالفة جليّة لأدنى شروط الاجتماع. وقد زاد من حدة الوضع، رفض نسطوريوس الحضور؛ مما جعل المجتمعين يقررون محاكمته غيابيا. وإذا زدنا على هذا، أن مرجع المجمع، كان قانون إيمان نيقية، فإننا سنعلم النتيجة التي سيتوصل إليها بعد ذلك. وفي صباح الثالث والعشرين من يونيو، أرسل المجمع الرسالة الآتية إلى نسطوريوس: [إلى نسطوريوس يهوذا الجديد، فليكن معلوما لك بأنه، بسبب عظاتك التجديفية، وبسبب عدم طاعتك للقوانين الكنسية، قرر المجمع المقدس الذي اجتمع في يوم ٢٢ يونيو شلحك... وليس لك أي نصيب في الكنيسة، ولقد كتب المجمع خطابا بهذا المعنى إلى كل من كنيسة القسطنطينية والإسكندرية والإمبراطور.]. أما نسطوريوس، فقد احتج على هذا الحكم، لأنه لا يتفق والقانون.

لقد وصلت أخبار قرارات المجمع، إلى وفد أنطاكيا وهو بعد في الطريق؛ كما عمل الكونت كانديديانوس على عدم إتاحة اللقاء سريعا بين وفد أنطاكيا ووفد الإسكندرية، واستعمل في ذلك الجنود. زاد على ذلك إساءة إفسس لاستقبال الأنطاكيين، كما فعلت مع وفد القسطنطينية من قبل. وعندما علم يوحنا بتفاصيل ما جرى، مما يُنبئ عن تحامل ضد نسطوريوس، فإنه غضب، وطلب اجتماعا بين الأنطاكيين في المنزل الذي كانوا فيه؛ وبعد جلسة قصيرة قرر المجمع الأنطاكي:

- خلع كيرلس رئيس أساقفة الإسكندرية، وخلع ممنون أسقف إفسس، ومنعهما عن الخدمة الكهنوتية.
- قطع المشاركين المؤيدين لقرار كيرلس، إلى أن يقروا بغلطهم، ويعودوا إلى قبول قانون الإيمان النيقوي.

ولقد وقّع على هذا القرار ثلاثة وخمسون أسقفا، وبُعث بمكتوب في شأنه إلى الإمبراطور والإمبراطورة، وإلى المجلس الأعلى ثم لإكليروس وشعب القسطنطينية. وهكذا انقسم الأساقفة المجتمعون في إفسس فريقيْن: واحد مع كيرلس وممنون وجيوفنال، والآخر مع نسطوريوس ويوحنا. ولما وصلت المراسلات والأخبار إلى الإمبراطور، ألغى جميع قرارات المجمع الذي ترأسه كيرلس، حيث لم تكن أخبار مجمع الأنطاكيين قد وصلت إليه بعد؛ وأمر جميع الأساقفة بلزوم إفسس، إلى حين وصول نائب جديد عنه، هو: الكونت "يوحنا كومس"، رئيس الخزانة. وأما الوفد الروماني الأول، بسبب انحيازه المسبق إلى كيرلس، ورغبة في إبقاء أمر الكنيسة تابعا لروما وللإمبراطور شخصيا، فإنه لم يكتف بحرمان نسطوريوس هذه المرة، بل أدخل في الحرمان يوحنا الأنطاكي ووفده. ولما وصل الوفد الروماني الثاني، كانت نتيجة تدخله:

- تعديل أمر القطع أو الخلع من المجمعيْن.
- رجوع الأساقفة إلى أوطانهم بسلام.
- رفض القرارات التي لا تتفق مع مجمع نيقية. ولم يستطع مندوب الإمبراطور قراءة القرارات، إلا بعد الأمر بإخراج كيرلس ونسطوريوس من الجلسة، بسبب الفوضى التي طغت على المجتمعين، وبسبب تبادل الشتائم المقذعة فيما بينهم. وكانت النتيجة هذه المرة أن نسطوريوس رضي بعض الرضى، لأنه رأى في ذكر مرجعية نيقية، فرصة للتخلص من حرمان كيرلس؛ وأما كيرلس فقد خاب ظنه، ورأى في هذا القرار طعنا فيه وفي ممنون، بل وفي جميع مسيحيي الغرب (روما وأفريقيا). وهكذا لم يستطع مندوب الإمبراطور الفوز بموافقة الحزبيْن على القرار؛ فاضطر إلى الأمر بالقبض على نسطوريوس وكيرلس وممنون، ووضعهم في حجز تحت المراقبة.

ولم يكن كيرلس محدود الدهاء، فبعث إلى أنصاره من جميع الأصقاع، يدعوهم إلى التدخل؛ بل لقد لجأ أيضا إلى الرهبان، وخصوصا "دالماتوس"، الذي أمضى في الرهبنة ثمانيا وأربعين سنة، والذي كان الناس يتبركون به، بمن فيهم الإمبراطور ذاته. وكان هذا الراهب، لا يتفق على شيء مع نسطوريوس؛ وعندما وصلت رسالة كيرلس إليه، فإن الرهبان جميعا خرجوا قاصدين القصر الإمبراطوري، مما اضطُر الإمبراطور إلى الميل إلى كيرلس قليلا. ويُقال إن كيرلس استعمل الرشاوى أيضا، مع كل من يعلم له تأثيرا على الإمبراطور. فكان قرار الإمبراطور هو استدعاء ثمانية أشخاص من الفريقيْن المتنازعين، إلى خلقدونية، ليُناقش معهم شخصيا مواطن خلافهم. فكان الاجتماع يوم الحادي عشر من سبتمبر، وكانت المناقشات طويلة، تُعوزها الدقة والوضوح. ومع عدم الوصول إلى نتيجة مُرضية للجميع، انفض الاجتماع وسُمح للأساقفة بالعودة إلى بلدانهم. فأمر الإمبراطور في رسائل بعث بها إلى المعنيّين، بتأجيل القرار في المسائل التي دار حولها الحوار، وبأن يعود كل الأساقفة إلى أبروشياتهم، وأن يواصلوا خدمتهم، باستثناء كيرلس وممنون إلى أن ينظر في أمرهما. وكان كيرلس قد غادر قبل وصول الرسالة الإمبراطورية، فرجع إلى الإسكندرية حيث استُقبل من قِبل الشعب استقبال المنتصرين. وأمام

الأمر الواقع، استسلم الإمبراطور، وكتب أمرا ببقاء كيرلس في الإسكندرية وببقاء ممنون في إفسس، من دون أن يُبين عن حكمه فيهما؛ وأبان في المقابل عن ميل إلى جانب الأنطاكيين بعدم الحكم عليهم.

وفي يوم الخامس والعشرين من أكتوبر، دعا الإمبراطور ممثلي البابا وممثلي كيرلس لكي يُعيّنوا "ماكسيميانوس" رئيسا جديدا لأساقفة القسطنطينية. وأما نسطوريوس فقد رجع إلى الدير في أنطاكيا، وعلى ما يبدو فقد أثار بعض الاضطرابات هناك، فنُفي إلى "بترا"، ومنها إلى الواحات الكبرى في مصر؛ إلى أن مات في أخميم سنة ٤٥٠م.

ولا بأس في ختام هذا الفصل، من أن نعرض رأي نسطوريوس في أريوس، والذي جاء فيه: [أريوس كان مفعماً بالمحبة، وهو حاول تخليص المسيحية من اعتقادات المصريين القدماء الذين كانوا يعتقدون أن الخالق ثالوث إلهي هو إيزيس وابنها حورس وزوجها أوزيريس (...) فهل يصح أن نبعث ديانة قديمة؟!... لا، لا يصح أن نقول عن الخالق إنه ثالث ثلاثة؛ بل هو رب واحد لا شريك له في ألوهيته. وهذا بالضبط ما أراده أريوس، أن تكون المسيحية للرب وحده.]. وإن صحت نسبة هذا القول إلى نسطوريوس، فإنه لا بد من إلحاقه بأريوس في العقيدة التوحيدية، ولو جزئيا؛ ما دام لا يرقى إلى عبارات أريوس الحاسمة. كما لا بد من تفهّم ما لحقه من إقصاء، مِن قِبل من اختاروا الطريق الشركي المقابل؛ لأن المُعتاد هو أن يزداد الناس شركا -لا توحيدا- مع الزمان. وإن كل صراع داخل الكنيسة، مهما بدا تفصيليا مع تعاقب الأجيال، فما هو في الحقيقة إلا مظهر من مظاهر التنافر بين التوحيد والشرك؛ رغم أن الشرك في أحيان كثيرة، سيكون مدعوما من طرف السلطة السياسية: إما بسبب اعتناق أحد القائمين عليها له، وإما بسبب التوظيف السياسي الذي يعتبر المتغيّرات المحلية والإقليمية الخاصة في ذلك الوقت.

وهكذا يظهر أن المجامع الكنسية صارت تنتصر للأقل علما من بين أساقفتها، المرة بعد الأخرى؛ وهو ما سيزيد في انقسام الكنيسة على نفسها في كل مرة. هذا، مع التأكيد على أن معلمي المسيحية قد صاروا -مع المدة- أبعد عن تعاليم المسيح عليه السلام، عندما صارت مرجعيتهم قرارات المجامع الكنسيّة السابقة وحدها، وكأنها قد حلّت محل الشريعة في الدين، عن غير إذن إلهي؛ وهو ما يُعاكس المبادئ الدينية الأولى، التي جاء بها الوحي الإلهي نصا، وتعلّمها الصدّيقون كشفا إلهيا، بواسطة الروح القدس. وهذا سيجعل النصرانية تطغى على المسيحية بالتدريج، لتحل محلها على التمام، كما سنرى فيما بعد إن شاء الله...

الفصل الثامن
تطور العقائد الكريستولوجية من مجمع إفسس الأول إلى مجمع خلقدونية

إن العقائد الكريستولوجية في الفترة القصيرة التي تفصل ما بين مجمع أفسس الأول ومجمع خلقدونية (٤٣١-٤٥١م)، قد تطورت تطورات كبيرة، وأفضت إلى مناقشات مستفيضة، وتسببت في انعقاد مجامع مختلفة؛ خصوصا مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م، والذي كان من نتائجه الانقسام بين بعض الكنائس الشرقية وكنيسة روما.

إن هذه الفترة القصيرة، التي لا تتجاوز العشرين سنة، تعتبر من أخطر الفترات التي عرفها الفكر المسيحي (النصراني). وحتى نتناول ما يتعلق بذلك من تفاصيل، فلا بد من تناول الشخصيات والعواصم الدينية، التي كانت محورا للأحداث:

١. روما: ليون الكبير:

يُحتمل أن ليون الكبير وُلد بين عاميْ ٣٩٠ و٤٠٠م، في توسكان بشمال إيطاليا. وقد كان ذا مكانة مرموقة بوصفه شماسا في الكنيسة الكاثوليكية. وقد نُصّب بابا لروما، خليفة لـ "سِكستوس"، سنة ٤٤٠م؛ فكان البابا السابع والأربعين.

كان ليون قوي الشخصية، ومتعصبا لكرسي روما، ويرى له الأسبقية على غيره. وقد ظهر هذا الأمر منه جليا، في خطابه لرئيس أساقفة الإسكندرية "ديوسقوروس"، بمناسبة تنصيبه؛ وعندما طالبه بالخضوع. ولقد حارب ليون هذا، كثيرا من الهرطقات (بحسبه)؛ غير أن النصيب الأكبر من حربه قد انصبّ على "أوطيخا" وحركته. ولقد كتب رسالته الشهيرة المعروفة بـ "التوم" (Tome)، أو الرسالة العقدية إلى فلافيلانوس، يشرح فيها تعاليمه عن شخص المسيح.

قام البابا ليون بمفاوضة الملك "أتيلا"، عندما غزا البرابرة البلاد سنة ٤٥٢م؛ ونجح في مسعاه، بحيث ترك أتيلا روما. كما فاوض أيضا ملك الفاندال سنة ٤٥٥م، وأفلح في تقليل الخسائر البشرية، وإن لم يُوفَّق توفيقا تاما في كل مساعيه. ومات البابا ليون الكبير في سنة ٤٦١م.

٢. أنطاكيا: يوحنا الأنطاكي:

بعد تصدي يوحنا الأنطاكي لتجاوزات كيرلس في مجمع إفسس، فإنه وقع معاهدة صلح معه ومع الشرقيين في سنة ٤٣٣م. ثم ما لبث أن توفي يوحنا حوالي سنة ٤٤١م، وخلفه من بعده على كرسي أنطاكيا ابن أخته "دومنس" الثاني، الذي كان بعكس خاله، على صلة جيدة بكيرلس.

٣. القسطنطينية: فلافيانوس:

بعد نفي نسطوريوس، تولى رئاسة الأساقفة في القسطنطينية "مكسيمانوس"؛ ولكنه لم يُعمر طويلا، وتوفي سنة ٤٣٤م. فخلفه "بروكلوس"، الذي كان من معارضي نسطوريوس؛ والذي كتب رسالة إلى الأرمينيّين يكلمهم فيها عن المسيح، وعن اتحاد الطبيعتيْن فيه. ولقد حظيت هذه الرسالة بمكانة في تاريخ العقائد الكريستولوجية بسبب اعتدالها، وسلوكها سبيلا وسطا في مسألة الطبيعتيْن. وخلف بروكلوس "فلافيانوس"، الذي حكم على "أوطيخا" في مجمعه، سنة ٤٤٨م.

٤. الإسكندرية: ديوسقوروس:

بعد موت كيرلس سنة ٤٤٤م، خلفه على كرسي الإسكندرية "ديوسقوروس"، الذي راسله البابا ليون بوجوب الخضوع له، كما أخبرنا آنفا. ولقد كانت المنافسة بين روما والإسكندرية، تتعدى المجال الديني إلى السياسيّ؛ لأن نفوذ صاحب الإسكندرية لم يكن مقصورا على مصر وحدها، بل كان يبلغ إلى البلاط الإمبراطوري ومعظم بلاد الشرق.

٥: القسطنطينية (أوطيخا):

يُظن أن أوطيخا قد وُلد في القسطنطينية سنة ٣٧٨م، وانخرط في سلك الرهبنة مبكرا، في دير قريب من المدينة؛ وكأنه كان منذورا للخدمة. ولقد تأثر بالراهب دالماتيوس، ونوى أن لا يغادر الدير طول حياته؛ كما يُحتمل أنه تتلمذ للراهب ماكسيموس الذي اشتهر بتعصبه الديني، وبشدة معاداته لنسطوريوس.

وفي الثلاثين من عمره، نصب أوطيخا رئيسا للدير، على ثلاثمائة راهب. وبدأ صيته يذيع، وهو المعروف بالزهد والتقوى؛ خصوصا بعد موت دالماتيوس. وقد كان الإمبراطور يجله، ويستشيره في أمور كثيرة دينية وسياسية. وقد زادت من سلطة أوطيخا السياسية بعد الدينية، صلته الوثيقة بـ "كريسافيوس" وزير الإمبراطور؛ لأنه كان أشبينا له (أبا عن طريق العماد). وقد قال عنه نسطوريوس بهذا الخصوص: "وبما أنه لم يكن أسقفا، فبفضل السلطان والتأثير اللذيْن منحهما له الإمبراطور، اعتبر نفسه أسقف الأساقفة." ولقد استعمل أوطيخا سلطته ضد من يعارضونه، وكان صديقا شخصيا لكيرلس؛ وهو ما سيجعله من أشد محاربي النسطورية. أما أغلبية الذين كتبوا عن هذا الراهب، فإنهم وصفوه بأنه غير مثقف، ضحل المعلومات ومحدود المعارف؛ بسيط التفكير، متناقض في أقواله؛ كما وصفه البابا ليون بالجهل واللامبالاة.

التطورات الكريستولوجية في هذه الفترة:

بعد انفضاض مجمع إفسس سنة ٤٣١م، عاد المندوبون إلى بلدانهم، يُنادون بالتعاليم التي كانوا يؤمنون بها. فنادى النسطوريون على اختلاف مذاهبهم بتعاليمهم، وكذلك فعل كيرلس وأتباعه. فالأولون يُعلمون بتمايز الطبيعتيْن، والآخرون بالطبيعة الواحدة. وهنا خيف على الكنيسة من الانقسام مرة أخرى، فتطلع الجميع إلى حل يُجنب الكنيسة والإمبراطورية معا، الانقسام.

أدرك كيرلس بحنكته ونظره الثاقب هذا الخطر، فسعى بكل جهده إلى الحيلولة دون الانقسام؛ وانضم إليه في ذلك بعض القادة الشرقيين من أمثال: يوحنا الأنطاكي، وبولس الحمصي؛ وأبرموا ما يُسمّى "معاهدة السلام"، في سنة ٤٣٣م. ولقد سرى مفعول هذه المعاهدة من سنة ٤٣٣م إلى سنة ٤٤٨م؛ لكن هذا السلام الظاهري، لم يكن إلا جزئيا. فقد استمرت جميع الأحزاب (المذاهب) في العمل بما تراه مناسبا، تارة في السر وتارة في العلن.

ولقد أكدت معاهدة السلام، على أساسيْن:

- رفض التعاليم النسطورية، والتشديد في المقابل على وحدة المسيح.
- رفض التعاليم الأبوليناريوسية، والتشديد في المقابل على وحدة الطبيعتيْن في المسيح.

وبما أن كل طرف قد تمسك بتعاليمه، رغم المعاهدة، فإنهم قد عملوا على نشر ما هم عليه بنشاط أكبر من السابق، وبكل الوسائل. فالذين كانوا يُنادون بالطبيعة الواحدة، رأوا في المعاهدة خيانة لما نذروا أنفسهم له؛ فكان "أكاكيوس" الميليني، وهو صديق لكيرلس، غير راض عن المعاهدة؛ لأنه كان من المدافعين عن القول بالطبيعة الواحدة في مجمع إفسس. فصار يرى الآن كيرلس، يوقع على قانون إيمان الوحدة، ويقبل عقيدة الطبيعتين، التي تقسم في نظره المسيح إلى مسيحيْن والابن إلى ابنيْن؛ فكانت هذه المعاهدة خيبة أمل فيما يتعلق بالحزب المتطرف. وقد عمل كيرلس على شرح مراده، بما لا يخالف ما دافعوا عنه جميعا في مجمع إفسس، ليحد من تداعيات المعاهدة على صفه. ورغم الرسائل والكتب التي ألفها من أجل بلوغ غايته، فإنه لم يتمكن من زحزحة المعارضين عن رأيهم؛ بل إن الكتابات قد زادت بعض المتعصبين تمسكا

بعقيدة الطبيعة الواحدة. ولقد حاولت هذه الجماعة المتطرفة جمع شتاتها تحت قيادة: "أسيدورس"، و"أكاكيوس"الميليني، والكاهن "ألوجيوس"، و"فيليريانوس". وانتهى الأمر بهؤلاء، إلى اتهام كيرلس بخيانة مجمع إفسس، والتعليم بالطبيعة الواحدة، وقبول قانون إيمان يعترف بالازدواجية في المسيح.

قامت هذه الجماعة بتكوين جبهة ضد التعاليم النسطورية، وضد الذين وقّعوا على قانون إيمان الوحدة. ويبدو أن هذا الحزب قد انكب على دراسة بعض الكتابات الأبوليناريوسية، فوجدوا فيها تأييدا واضحا وقويا للطبيعة الواضحة؛ فاعتقدوا مخطئين، أن أثناسيوس وغرغوريوس العجائبي وآخرين، قد قالوا بعقيدة الطبيعة الواحدة؛ ولذلك تمسكوا بها، واتهموا كل من يخالفها بالهرطقة. وفي البداية نادوا باللاهوت والناسوت في المسيح، على أن اللاهوت هو المهيمن على الناسوت؛ لكن متطرفيهم، لم يلبثوا أن قالوا بأن ناسوت المسيح مخالف لبشرية الناس من غيره؛ لأن جوهر المسيح مخالف لجوهر غيره من الناس. وهنا ستظهر الأوطيخية، التي وجدت رواجا كبيرا في الأوساط الرهبانية وفي غيرها؛ في مصر والقسطنطينية، وفي غيرهما...

ظن أصحاب هذه الحركة أن مجمع نيقية ومجمع إفسس الأول، قد علّما بعقيدة الطبيعة الواحدة؛ وظنوا أن كيرلس قد قبل هذا التعليم وعلّم به؛ وتبعا لذلك فلقد رأوا أن كل من يخالف هذا القول، ينبغي اعتباره مهرطقا، وتنبغي محاكمته والحد من أثره. وهكذا فعندما قام "إيباس" بترجمة أعمال ديودوريوس الطرسوسي، وثيودوريوس المبوسبوستي، المعروفيْن بمذهب القول بالطبيعتيْن، ثار عليه أكاكيوس الميليني، ورابوله الرهاوي، وكتبا إلى الكنائس الأرمينية من أجل تحذيرها من الخطر العقدي الداهم، واعتبرا المعلِّميْن المترجمة كتبهما سلفيْن لنسطوريوس. وهذا يعني أن عقائدهما غير أرثوذكسية، وأنها لا يليق بها إلا الحرم والمحاصرة.

ورغم أن القول بالطبيعة والقول بالطبيعتيْن، قد وُجدا قبل الآن، وكان كل منهما يجد له أنصارا في البلدان؛ فإن هذه المرة تختلف عن سابقاتها مع هذا التيار الجديد، الذي أصبح يبالغ في تفسير عملية الاتحاد التي حدثت في المسيح. ونعني بالمبالغة هنا، الذهاب في تغييب الناسوت إلى الغاية، وإن لم يُصرَّح بنفيه تماما؛ في تقهقر جليّ للفكر المسيحي، ونزول أسفل كل ما سبق في الزمان. واستطاع هذا الحزب أن ينشر تعاليمه في القسطنطينية وأنطاكيا ومصر، خصوصا في الأديرة. وفي هذا الوقت ظهر معلم جديد، لمواجهة هذا التيار، يُدعى "ثيودوريطس الكورشي"، الذي كان من أبرز قادة الكنيسة الشرقية في عصره. فهو من وقف كثيرا إلى جانب نسطوريوس وحزب الشرقيين المعتدل، وهو أيضا من كلفه يوحنا الأنطاكي بتحليل حرمانات كيرلس من الناحية العقدية. لكن مع ذلك، فقد وافق أسقفَ الإسكندرية في عدة أمور؛ خصوصا بعد معاهدة السلام المبرمة سنة ٤٣٣م.

لم يستطع ثيودوريطس أن يبقى صامتا أمام التعاليم الخلطية (خلط الطبيعتين) التي انتشرت في عصره، فقام في سنة ٤٤٧م، بنشر مجلد من ثلاثة أجزاء بعنوان "الشحاذ"، والذي نهج فيه أسلوب الحوار: حوار دار بين الأرثوذكس والشحاذ. والشحاذ في هذا الحوار يشرح القول بالطبيعة الواحدة في المسيح، خصوصا بعد "التجسّد". ويشرح ثيودوريطس في المقابل العقيدة الأرثوذكسية المميّزة بين الطبيعتيْن. ومع أن ثيودوريطس لم يذكر الاسم صراحة، إلا أنه من الواضح أنه كان يعني بالشحاذ أوطيخا. فكان هذا الكتاب السبب المباشر، الذي فجر الصراع الأوطيخي، والذي شجع المعارضين من أمثال "دومنوس" الأنطاكي، و"أسابيوس" أسقف دورلة، على رفع أصواتهم في وجه السلطة وفي وجه أوطيخا معا.

قضية أوطيخا:

تتلمذ أوطيخا على يد الراهب ماكسيموس، الذي كان معاديا لنسطوريوس؛ وهو ما جعله مواجها للنسطورية، مواصلا بذلك عمل أستاذه. فالتف حوله جلّ الرافضين لمعاهدة السلام والصلح الخاص بعقيدة الطبيعتيْن في المسيح.

ومنذ أن وصل ابنه بالمعمودية "خريسافيوس" إلى السلطة في بلاط الإمبراطور "ثيودوسيوس" سنة ٤٤١م، لم يكف الراهب أوطيخا عن استغلال هذا النفوذ ضد النسطوريين. ولقد أصدر البلاط الإمبراطوري -نتيجة لذلك- عدة قوانين موافقة لرغبته. ففي اليوم السادس عشر من فبراير سنة ٤٤٨م، أصدر قرارا أعاد به قرارا سابقا، كان قد أصدره عام ٤٣٥م، أمر بموجبه بحرق الكتب النسطورية، والكتب المخالفة لمجمع إفسس. فكان هذا القرار موجها في المرتبة الأولى، إلى كتاب "الشحاذ" لثيودوريطس. ولم يكتف أوطيخا بهذا، بل طلب من الإمبراطور أن يمنع ثيودوريطس من الخروج عن دائرة أبروشيته (تحديد إقامة).

ولقد كان أوطيخا عونا لـ "ديوسقوريوس"، الذي طلب من الإمبراطور "ثيودوسيوس" الثاني، أن يخلع "أبرناوس" أسقف صور؛ لأنه كان من الذين قاوموا كيرلس في مجمع إفسس الأول. ولقد احتل أوطيخا مكانة أستاذه في البلاط بعد موته، فأصبح هو المستشار السياسي والديني للإمبراطور، ولوزيره خريسافيوس. ولقد انضم إلى أوطيخا -عند اتساع نفوذه- الراهب الشرس "برسوم"، الذي جاء بجماعة من رهبانه، إلى مجمع إفسس الثاني، بقصد الدفاع عن أوطيخا وعقيدته.

ولم تقتصر حرب أوطيخا على النساطرة وحدهم، بل تعدتهم إلى كل من لا يقول بالطبيعة الواحدة في المسيح؛ وهذا هو التطرف بعينه. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشرقيين كانوا في عمومهم منقسمين إلى ثلاث فرق:

- فرقة ترغب في تدعيم معاهدة السلام التي أرساها كيرلس.
- فرقة متعصبة لنسطوريوس، ترى في كيرلس عدوا تنبغي محاربته.
- فرقة بين بين، تقبل مناقشة حرمانات كيرلس ضد نسطوريوس، لكنها ترفض خلعه.

وأما أتباع كيرلس فقد انقسموا إلى شطر معتدل قَبِل معاهدة السلام، وشطر آخر يرفضها. وهذا الأخير هو الذي سيكون أوطيخا امتدادا له، خصوصا بعد موت كيرلس. هذا، مع التأكيد على أن أوطيخا، لم يكن يفهم عقيدة كيرلس نفسه؛ بل اكتفى ببعض العبارات المنقولة عنه والمنحولة لأثناسيوس.

لم يكن أوطيخا بالمعلّم الجدير بتناول أقواله، ولكنه لأثره على الناس، وجب النظر فيها. فهو عندما يقول بالطبيعتيْن قبل التجسد، وبالطبيعة الواحدة بعده، لا يعلم ما يقول؛ وإنما يلفق تلفيقا ليخرج برأي يتوهّمه وسطا في المسألة. وهذا حال كل متعالم يجد نفسه في موضع الإمامة، وهو ليس أهلا لها. وأوطيخا ومن بعده ديوسقوريوس رئيس أساقفة الإسكندرية، عندما كانا يظنان أنهما موافقان لكتابات كيرلس، لم يكونا يقصدان إلا كتابات أبوليناريوس. وهكذا فإنهما وقعا في التباس كبير، نتجت عنه آفات كثيرة. والسبب المباشر في مثل هذه الآفات، هو الالتزام بأقوال السابقين؛ واعتمادها كأنها مصدر من مصادر الدين؛ بينما الدين في حقيقته دائما، هو العودة في استمداد العلم، إلى الله وحده، بسلوك الطريق المرسومة من قبل رسول الزمان. ولا ندري لمَ يصير الناس بعد مدة يسيرة إلى تقليد بعضهم لبعض، في انقطاع تام أو شبه تام عن الله وعن الوحي.

وبدل القول بالطبيعة الواحدة، فقد انجر أوطيخا إلى القول باختلاط الطبيعتيْن؛ وهو أمر جديد في الفكر المسيحي. وهذا جرّه مرة أخرى إلى القول بمخالفة جسد المسيح للأجساد البشرية، بحيث إن الألم لا يعرف طريقه إليه. وهذا -كما سبق أن بيّنّا في فصل سابق- هو من التنزيه المناسب للعقول الضعيفة. ومما زاد الطين بلة لدى أوطيخا -كما يحدث في الغالب مع أمثاله- هو أنه كان يعتقد بأن الله بعثه لإعادة الأرثوذكسية إلى الكنائس جمعاء. ولقد استطاع بالفعل، بسبب نفوذه في البلاط الإمبراطوري، أن ينشر عقائده في معظم البلاد من حوله. كما تمكن من إنشاء جماعات توافقه المعتقد، صارت أحزابا دينية وسياسية، لا بد لأصحاب النفوذ من اعتبارها، رغبة في توظيفها. لكن عقيدة أوطيخا سرعان ما

ستحوم حولها الشبهة بعد كتاب "الشحاذ" الذي ذكرناه آنفا، وبعد مراسلة دومنوس أسقف أنطاكيا للإمبراطور في شأنها؛ ثم بعد تقدُّم أسابيوس أسقف دورلة بشكواه إلى مجمع القسطنطينية.

في اليوم الثامن من شهر نوفمبر سنة ٤٤٨م، عقد فلافيانوس رئيس أساقفة القسطنطينية مجمعا محليا، للنظر في قضية فلورندس (متروبوليت ساردس) والأسقفيْن الخاضعيْن له: يوحنا، وكاسيانوس. وفي أثناء هذا المجمع، وقف أسابيوس وقدم شكوى مكتوبة بخط يده ضد أوطيخا وتعاليمه. فلم يقبل فلافيانوس في البداية الشكوى، إما خوفا على نفسه من نفوذ أوطيخا أو خوفا على الكنيسة من الانقسام؛ ووجّه أسابيوس إلى مخاطبة أوطيخا مباشرة، فأخبره الرجل بأنه قد فعل ذلك مرارا. وأمام إصرار أسابيوس، وبعد انضمام بعض الأساقفة إليه في طلبه؛ قبل المجمع الشكوى. وبعد أربعة أيام من الجلسة الأولى، اجتمع المجمع للنظر في قضية أوطيخا؛ وبعد المناقشة قرر المجمع بعث مندوبيْن إلى أوطيخا، من أجل الحضور والدفاع عن مذهبه. وبعد إعادة الكرة ثلاثا، استجاب أوطيخا، بعد التنسيق مع البلاط. وقد أرسل إليه خريسافيوس بجيش لحراسته، وبعدد كبير من الرهبان لمناصرته. ووصل هذا الجمهور من الجنود والرهبان إلى مكان الاجتماع في اليوم الثاني والعشرين من الشهر ذاته، وأعلنوا أن أوطيخا لن يدخل مكان الاجتماع إن لم يُعط وعدا بإطلاق سراحه في النهاية. وعندما دخل الراهب أوطيخا، واجه أسابيوس أمام السنودس، وبعد قراءة محاضر الجلسات السابقة وقراءة رسالتيْن لكيرلس استند إليهما الاتهام، وبعد سؤال أوطيخا عن قوله في التجسد، قال: "لم أسمح لنفسي أن أتساءل عن طبيعة إلهي، ولم أقل أبدا كيف فهمت بأنه كان من طبيعتنا نفسها، ولم أعلم حتى هذا اليوم بأن جسد سيدنا يسوع المسيح وربي كان على مثل طبيعتنا؛ على أنني أعترف بأن العذراء هي من طبيعتنا، وأن إلهنا ولد من جسدها...". وهذا القول من أوطيخا، فيه شيء من الأدب مع الله، لو لم يعُد معه إلى تأليه عيسى، الذي التبس عليه معه كل شيء. وأزمة أوطيخا الإيمانية والعقلية، هي ذاتها أزمة كل النصارى، لو أنهم كانوا يُقرّون لأنفسهم بالحق في الشك فيما بلغهم عن أئمتهم السابقين، وبالحق في مخالفة تعاليم الكنيسة (القانون). ثم سئل أوطيخا عن قوله في جوهر الآب والابن، فأجاب: "يجب أن تفهموا جيدا، أني لا أعلم أن جسد الإنسان صار جسد الله، ولكني أتكلم عن جسد الله البشري؛ وأنني أعترف بأن الرب عمل لنفسه جسدا من العذراء. فهل ترغبون أن أضيف إلى هذا أيضا أن جسده من طبيعتنا نفسها؟... إني على تمام الاستعداد، أن أفعل ما تأمر به قداستكم!..." فقال له رئيس الأساقفة: "فأنت لا تقبل هذا التعليم عن اقتناع، بل مرغما؟"، فأجابه أوطيخا بأنه يفعل ذلك طاعة لأمر المجمع. وهنا سأله ممثل الإمبراطور سؤالا واضحا قائلا: "هل تؤمن بأن سيدنا يسوع المسيح، الذي ولد من العذراء، هو من طبيعتنا نفسها؟ وأنه مكون من طبيعتيْن بعد التجسّد؟... فأجابه أوطيخا: "إنني أعترف بوجود طبيعتيْن في المسيح؛ ولكن بعد الاتحاد، لا أعترف إلا بطبيعة واحدة.". وأضاف أوطيخا بأنه لا يجد في كتب الآباء ما يؤيد القول بالطبيعتيْن بعد التجسد؛ وحتى لو وجده، فإنه لن يعترف به، لأن الكتب المقدسة أقوى في الاعتبار من أقوال الآباء. فصرخ الحاضرون: "ليكن محروما!". وأضاف ممثل الإمبراطور: "إن كل من لا يعترف بوجود طبيعتيْن في المسيح، لا يملك الإيمان الحقيقي."، فرد عليه أوطيخا: "إن كل من يقبل عقيدة عن طريق الضغط، لا يقبل الإيمان الحقيقي.". وهنا وقف رئيس الأساقفة وقال: "إن أوطيخا الذي كان سابقا كاهنا وأرشمندريتا قد جدد تجديفات فالنتينوس وأبوليناريوس، ورفض الرجوع إلى التعليم الصحيح بالرغم من نصائحنا؛ ولهذا السبب، نعلن والحزن يعصر قلوبنا، والدموع تملأ عيوننا، فقدانه وضلاله؛ إنه مخلوع من إدارة الدير الذي كان يقوم بالإشراف عليه، ومجردٌ من درجة الكهنوت، فباسم المسيح الذي جدف عليه، نعلن حرمه.".

وهنا تنبغي ملاحظة ما يلي:

ا. أن أوطيخا كان من طبقة العُبّاد، ولم يكن من طبقة المتكلمين في اللاهوت العلماء؛ وهذا يعني أنه لم تكن تنبغي محاكمته.

ب. أنه كان صادقا فيما يخصّه، وكان ينبغي عدم إرغامه على اعتقاد ما لا يرى صحته. وهذا المبدأ، هو ما أكد عليه الله تعالى في قوله: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة: ٢٥٦]. وإن قياس أمور العقيدة على أمور الشريعة، كما يتوهم البعض، لا يصح؛ لأن الناس يتفاوتون في معرفتهم بربهم تفاوتا كبيرا، وتوحيدُهم من جهة العقائد يكاد يكون محالا.

ج. إن قول أوطيخا بالطبيعة الواحدة في المسيح، يساوي قول الآخرين بالطبيعتيْن؛ لأن القوليْن معا ينبنيان على الجهل، لا على العلم.

د. إن الحكم على الناس بالحرمان، لا يصح لأحد من رجال الدين؛ وهو من الإرهاب الذي تمارسه السلطة الدينية أو السلطة الدنيوية على مر الزمان، بقصد إخضاع الشعوب لها، لا لله.

وأما أوطيخا، فإنه رفض قرار المجمع، وأرسل رسائل يتظلّم فيها إلى بابا روما، وإلى جميع الكنائس؛ وكان ممن تعجّلوا في الدفاع عنه ديوسقوروس، الذي كان على الطرف الآخر في الصراع من القسطنطينية. وبعد لجوء أوطيخا إلى الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني، أمر هذا الأخير بلجنتيْ تحقيق، تنظران في طريقة سير المجمع الذي أعلن الحرم. وقبل انتهاء عمل اللجنة الثانية، أعلن الإمبراطور عن مجمع مسكوني في إفسس للنظر في القضية. وأما فلافيانوس (القسطنطينية) وليون (روما)، فلم يكونا متحمسيْن لذلك.

مجمع إفسس الثاني (٤٤٩م):

لقد أمر الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني بعقد مجمع إفسس الثاني في سنة ٤٤٩م، وهو نفسه من أمر بعقد مجمع إفسس الأول سنة ٤٣١م. ويُقال إن أوطيخا، كان أول الواصلين إلى مكان الاجتماع، وتبعه الراهب برسوم السوري، ثم رئيس أساقفة الإسكندرية مع حوالي عشرين أسقفا من بلده؛ ثم وصل الوفد الروماني المكون من الأسقف "يوليانوس"، والكاهن "ريناتوس" الذي مات في الطريق، والشماس "هيلريوس" الذي أصبح بابا روما فيما بعد، والكاتب "دولسيتيوس". ثم جاء أيضا وفد أورشليم وعلى رأسه رئيس الأساقفة "جيوفنال"، ووفد القسطنطينية برئاسة "فلافيانوس" رئيس أساقفتها، و"دومنوس" رئيس أساقفة أنطاكيا مع وفده؛ من دون إغفال وفد إفسس المحلي. وأرسل الإمبراطور اثنين من البلاط، للإشراف على المجمع هما: "إلبيديوس" و"أُلوجيوس". وعُيِّن لرئاسة المجمع، رئيس أساقفة الإسكندرية، بمساعدة "جيوفنال" الأورشليمي، و"ثلاسيوس" القيصري. ومن خلال علمنا بميول طقم الرئاسة الكيرلسية، تتضح نية الإمبراطور في إعادة انتصار العقيدة الإسكندرية مرة أخرى، على غرار ما وقع في مجمع إفسس الأول. ولقد تراوح عدد الأساقفة الحاضرين في مجموعهم، ما بين ثلاثين ومائة، وأربعين ومائة. غير أن القائلين بالطبيعة الواحدة من بين كل هؤلاء، كان لا يقل عن المائة؛ مع التنبيه إلى عدم السماح لمُحاكمي أوطيخا في القسطنطينية بالتصويت، وبعدم السماح لثيودوريطس المنتقد لأوطيخا في كتاب الشحاذ بحضور المجمع. ولم يتمكن المجمع من الانعقاد، إلا في اليوم الثامن من أغسطس سنة ٤٤٩م.

وعندما تقدم أوطيخا لإعلان إيمانه أمام المجمع، أقر بأنه موافق لمجمع نيقية ولمجمع إفسس الأول ولعقائد كيرلس؛ كما أعلن أنه يحرم هرطقة "مانس" و"فلانتينوس" و"أريوس" و"أبوليناريوس" و"نسطوريوس"؛ وطالب بإنصافه من مجمع القسطنطينية الذي حرمه. ولم يسمح المجمع لفلافيانوس رئيس أساقفة القسطنطينية، بأن يقدم شهادته؛ وهو المعنيّ الأول بعد أوطيخا، كما هو جليّ. ومما زاد من سوء إدارة المجمع، أن رسالة البابا ليون لم تُقرأ رغم تكرار الطلب بقراءتها المرة بعد الأخرى. وهنا علم الوفد الروماني ووفد القسطنطينية بالتبييت الذي بيّته الإمبراطور، وبالغاية المراد بلوغها في النهاية، والتي

هي إعادة أوطيخا إلى منصبه فحسب؛ وهو ما كان. وأُعلنت عقيدة الطبيعة الواحدة بالصراخ ووسط الفوضى، ونودي بحرق أسابيوس حيا، وهو من استفسر أوطيخا فيما قبل عن عقيدته في مجمع القسطنطينية.

ورغم أن إعادة أوطيخا وأتباعه إلى ما كانوا عليه، كانت كافية لتحقيق الغرض من المجمع، فإن ديوسقوروس لم يرض إلا بالحكم على أعداء أوطيخا بالهرطقة، عن طريق الاحتيال بالانتصار لمجمع نيقية وإفسس؛ وطالب تبعا لذلك بخلع فلافيانوس وأسابيوس. وقد استعان ديوسقوروس بالجنود الذين دعاهم للدخول إلى الكنيسة (مكان الاجتماع)، وعمل على إرغام الأساقفة على التوقيع تحت التهديد. وهذا، كان السبب -عندما بلغت الأخبار إلى روما- في تسمية البابا ليون مجمع إفسس بـ "مجمع اللصوص والقراصنة".

ثم اجتمع المجمع في اليوم الثاني والعشرون من أغسطس، ليقرر خلع آخرين؛ وكان من بين المخلوعين: إيريناوس أسقف صور، ودومنوس أسقف أنطاكيا، اللذان اتهما بالنسطورية؛ وأيباس أسقف الرها الذي كان متبعا لديودوريوس وثيودوريوس؛ وثيودوريطس الكورشي، الذي لم يُكتفَ بخلعه، وأُمر بإحراق كتبه. وهكذا يَبين للناظر أن مجمع إفسس الثاني، لم يعمل على الحد من الخلافات داخل الكنيسة؛ بل زاد من تعاظم الهوة بين المنقسمين. ولهذا، كان لا بد من مجمع يتوخّى الحد من نتائجه؛ وليس إلا مجمع خلقدونية.

مجمع خلقدونية (٤٥١م):

لم يكن الأسقف المخلوع فلافيانوس المشتكي الوحيد إلى بابا روما، ولكن انضم إليه ثيودوريطس وأسابوس؛ وطالبوا جميعا بعقد مجمع آخر يصحح قرارات مجمع إفسس الثاني (مجمع اللصوص). فانتهز البابا ليون الاحتفال السنوي بعيد تنصيبه، فعقد مجمعا محليا في اليوم التاسع والعشرين من سبتمبر من السنة نفسها، للنظر في قضية مجمع إفسس. فكانت النتيجة إلغاء جميع قرارات مجمع إفسس، والدعوة إلى انعقاد مجمع مسكوني في إيطاليا، لتصحيح الأخطاء السابقة. غير أن دعوة البابا هذه، لم تحظ بعناية الإمبراطور ثيودوسيوس؛ وهو ما حدا بالبابا إلى إعادة مراسلة الإمبراطور في اليوم الرابع والعشرين من شهر ديسمبر من العام نفسه، دون تغيير يُذكر. ولما زار إمبراطور الغرب فلانتينوس الثالث روما يوم الثاني والعشرين من فبراير من عام ٤٥٠م، تقدم البابا إليه برجاء مراسلة إمبراطور الشرق في أمر المجمع المسكوني المراد عقده؛ وهو ما وقع بالفعل. ولكن رد إمبراطور الشرق كان بالرفض، شارحا في رسالته الجوابية بأن مجمع إفسس كان قانونيا وأن نتائجه كانت سليمة؛ وبالتالي فلا حق لبابا روما بالتدخل فيما يتعلق به.

ولكن الأمر سيتغير بموت ثيودوسيوس الثاني يوم الثامن والعشرين من يوليو سنة ٤٥٠م، وبعد خلافة أخته "بولخاريا" له، والتي تم تتويجها عام ٤٥١م. ولقد كان القبض على خريسافيوس، الذي كان خلف سياسات الإمبراطور الراحل، من أول أعمال الإمبراطورة الجديدة. وبعد مقتل الوزير السابق، الذي كان نذير شؤم على أوطيخا وحزبه؛ ومن دون إبطاء تم الحكم على أوطيخا بالطرد من الدير، وبتحديد إقامته في مكان آخر قرب القسطنطينية. وهذه المرة كانت الإمبراطورة وزوجها، هما من راسلا بابا روما بغية التكرم بقبوله لعقد مجمع مسكوني ينظر في نتائج مجمع إفسس الثاني. وبعد تغير اتجاه الرياح العقدية، بتغير السياسات الإمبراطورية، انعقد مجمع محلي في القسطنطينية برئاسة "أناطوليوس"، لقبول رسالة ليون الذي لم يكن قد وافق على تنصيب رئيس أساقفة القسطنطينية الجديد بعد. وعاد الأساقفة المنفيون إلى مناصبهم، ومن بينهم ثيودوريطس وأسابيوس. وعندما رأى بابا روما هذا التغير الشامل في المواقف، وأيقن بأن جلّ مطالبه قد استُجيب لها من دون مجمع، فضّل أن يراسل الإمبراطور (زوج الإمبراطورة) بانتفاء ضرورة عقد مجمع جديد. ولكن الإمبراطور الذي كان يقصد إلى الحد من نفوذ ديوسقوروس، أصر على عقد مجمع مسكوني رابع يحسم في النزاعات العقدية، وكاتب جميع الأساقفة بذلك؛ على أن يكون مكان الاجتماع نيقية. وقبل بابا روما الدعوة، بشرط أن تكون

رئاسة المجمع لأحد أفراد وفد روما. وبعد تعذر انعقاد مجمع نيقية، بسبب حروب الإمبراطور ضد البرابرة، ومع إصرار وفد روما على عدم عقد المجمع في غياب الإمبراطور، فإنه وقع نقل المجمع إلى خلقدونية، التي تقع على الجانب الآخر من مدينة القسطنطينية، ليتمكن الإمبراطور من الحضور -ولو جزئيا- للجلسات. ومع ذلك، فلم يتمكن الإمبراطور إلا من حضور جلسة واحدة أو جلستين.

بدأ المجمع أعماله في اليوم الثامن من شهر أكتوبر من عام ٤٥١م، وحضره عدد من الأساقفة يفوق عدد من حضر كل المجامع السابقة؛ ويُعتقد أنهم كانوا بين الخمسين والخمسمائة، والثلاثين والستمائة. ولقد حضر إلى جانب الوفد الإمبراطوري وفد روما؛ وحضر أناتوليوس رئيس أساقفة القسطنطينية ومكسيموس أسقف أنطاكيا، مع بقية أساقفة الشرق. وحضر ديوسقوروس رئيس أساقفة الإسكندرية، وجيوفينال أسقف أروشليم، مع أساقفة مصر وفلسطين. وتجدر الإشارة إلى أن أغلب من حضر كانوا من الكنائس الشرقية، فيما لم يحضر من الغرب إلا وفد روما، وهم أربعة أشخاص؛ مع اثنين من كنائس أفريقيا. وكان أول قرار للمجمع، قبل بدء الأعمال، هو المطالبة بجلوس ديوسقوروس في موضع الاتهام. فقام أسابيوس أسقف دورلة واتهم ديوسقوروس بإساءة إدارة مجمع إفسس الثاني، وبالهرطقة أيضا. وأما القرار الثاني، فكان هو الترحيب بثيودوريطس في المجمع بعد المنع الذي لحقه في مجمع إفسس الثاني من قبل ثيودوسيوس الثاني. وما كان حضور ثيودوريطس ليمر من غير معارضة من طرف ديوسقوريوس وأساقفة الإسكندرية، الذين يرون فيه مَن حرم معلمهم كيرلس. ثم أقر المجمع بأن تعاليم فلافيانوس أرثوذكسية، وموافقة لتعاليم بابا روما؛ فما كان من أنصار ديوسقوروس إلا أن غيروا مواقفهم وأماكن جلوسهم. وانتهى الأمر بعد الجلسة الأولى بقرار خلع كل من: ديوسقوروس الإسكندري، وجيوفينال الأورشليمي، وثالاسيوس القيصري، وأسابيوس الذي من أنقرة، وأفستاثيوس البيروتي، وباسيليوس.

واجتمع مجمع خلقدونية في الجلسة الثانية يوم العاشر من أكتوبر، في غياب الأساقفة المخلوعين، ومع امتناع الأساقفة المصريين؛ وهنا قام أحد القضاة المكلفين بإدارة المجمع، لإعلان الغاية الحقيقية من ورائه وهي: تحديد الإيمان الحقيقي والتعليم الصحيح، الذي ينبغي أن تقبله الكنيسة وتعلّم به. ولا يخفى هنا أن الأمر كان صادرا من الإمبراطور، بغرض سياسي أول الأمر؛ للحيلولة دون انقسام الإمبراطورية وصراع الشعوب. ولقد رفض الأساقفة في البداية، إعادة صياغة قانون الإيمان، مكتفين بما تركه الآباء الأولون. فوقف "سيكروبيوس" أسقف سيباستوبولس وشرح أن هرطقة أوطيخا قد قُضي عليها، وأن البابا قد أرسل رسالته العقدية التي تقدم نموذجا صحيحا للإيمان، ووقع عليها أساقفة القسطنطينية؛ وهو يعني أن لا ضرورة لصياغة قانون إيمان جديد، فوافق الجميع. غير أن القضاة عادوا يطلبون صيغة جديدة يوافق عليها أعضاء المجمع جميعا. وقرئت من أجل ذلك قرارات المجامع السابقة، بداية من مجمع نيقية، وانتهاء بمجمع إفسس؛ كما قرئت رسالة البابا ليون.

وأما الجلسة الثالثة، فكانت مقدمة عن موعدها، وانعقدت في اليوم الثالث عشر من أكتوبر؛ وكانت أهم قراراتها التأكيد على خلع دوسقوريوس، والحكم بعودة الأساقفة المخلوعين الذين قدموا اعتذارهم. فنفي تبعا لذلك رئيس أساقفة الإسكندرية إلى "كنفريس أفلاعونية"، حيث مات في الرابع من سبتمبر لعام ٤٥٤م؛ أي بعد ثلاث سنوات من نفيه.

وأما الجلسة الرابعة لمجمع خلقدونية، فكانت في اليوم السابع عشر من أكتوبر ٤٥١م؛ ولم تتناول إلا تفاصيل ما مر في سابق الجلسات، من دون أن يتولد عنها قرار واضح. فأتت بعدها الجلسة الخامسة في اليوم الثاني والعشرين من أكتوبر، وخُصّصت لصياغة نص إيماني بحسب رغبة الإمبراطور. ويُظن أن أناطوليوس رئيس أساقفة القسطنطينية، هو من كان وراء صياغة النص، الذي لم يُسجَّل ضمن أعمال مجمع خلقدونية؛ لذلك فإنه بقي مجهولا، وإن غلب الظن بأرثوذكسيته. لكن لا بد من الإقرار بأن النص قد رفض من بعض الأساقفة، ولم يحظ بالإجماع. ومن بين المحتجّين، كان

بعض الأساقفة الشرقيين، ونواب روما؛ لأن النص استعمل عبارة "كان المسيح مكونا من طبيعتين."، وهي العبارة التي استعملها فيما قبل ديوسقوروس؛ ولم يستعمل عبارة ليون في رسالته العقدية، والتي هي: "توجد طبيعتان في المسيح.". وأمام انقسام المجمع، رفع الأمر للإمبراطور، فحكم بإيكال أمر النظر في الصياغة إلى لجنة تحسم فيها، أو أن يكون الأمر -كما هدد وفد روما- عائدا إلى عقد مجمع في إيطاليا؛ فأُوكِل الأمر إلى لجنة.

وعادت اللجنة في اليوم ذاته إلى المجمع، بنص قانون الإيمان التالي، والذي سنذكر بعض أجزائه فحسب، نظرا لطوله:

[إن ربنا ومخلصنا يسوع المسيح، إذ كان يوطد معرفة الإيمان في تلاميذه، حتى لا يختلف أحد مع قريبه فيما يخص عقائد الدين (...)، ولكن بما أن البعض أخذوا على عاتقهم أن يعطلوا البشارة بالحق، وشرعوا بواسطة بدعهم الشخصية يتلفظون بالأقوال الفارغة، حتى تجاسر بعضهم على إفساد سر تجسد الرب (...) وهي تقاوم كل من يسعى لتمزيق سر التدبير بقوله بوجود ابنيْن، وتنبذ من المجمع المقدس المتجاسرين على القول بأن لاهوت الابن الوحيد قابل للآلام، وتعارض كل من يتصور حدوث اختلاط أو تشويش في طبيعتيْ المسيح؛ وتنبذ الذين يُخيّل إليهم أن صورة عبوديته، هي من جوهر سماوي، لا من طبيعة غير الطبيعة المأخوذة منا؛ وتحرم الذين يتحدثون بحماقة عن طبيعتين لربنا قبل الاتحاد، متوهمين أنه بعد الاتحاد لم تكن هناك إلا طبيعة واحدة. فلهذا، ونحن تابعون للآباء القديسين، كلنا بصوت واحد نعلم البشر أن يقروا: بأن الابن الوحيد، ربنا يسوع المسيح، الكامل في اللاهوت والكامل في الناسوت، إله حق وإنسان حق، ذو نفس ناطقة وجسد وجوهر واحد من الآب بحسب لاهوته، وجوهر واحد معنا بحسب ناسوته، في كل شيء مثلنا ما عدا الخطية؛ مولود من الآب قبل الدهور، بحسب لاهوته. وفي هذه الأيام الأخيرة، من أجلنا ومن أجل خلاصنا، ولد من مريم العذراء، والدة الإله بحسب ناسوته. هو مسيح واحد، وابن واحد، ورب واحد؛ المولود الوحيد، كائن بطبيعتيْن غير ممتزجتيْن ولا متغيرتين ولا منقسمتين ولا منفصلتين. والفرق بين الطبيعتين لم يتلاش باتحادهما. وخواص كل منها باقية ومجتمعة في شخص واحد، غير منفصل ولا منقسم إلى شخصين؛ بل الابن الوحيد والمولود الوحيد، الله، الكلمة، الرب يسوع المسيح، كما تنبأ عنه الأنبياء منذ البدء، وكما علمنا الرب يسوع نفسه، وكما سلمنا قانون إيمان الآباء القديسين (...) فالمجمع المسكوني المقدس، يرسم بألا يسمح لأحد بأن يقدم إيمانا مخالفا لهذا أو مختلفا عنه؛ ولا أن يكتب ولا أن يجمع ولا أن يضع ولا أن يعلم ذلك لآخرين. وكل من تجاسر على أن يجمع معا، صورة أخرى للإيمان أو أن يقدم أو أن يعلم دستور إيمان آخر (...) فإن كان أسقفا جُرد من أسقفيته، أو إكليريكيا يُسقط من درجته، وإن كان راهبا أو عاميا فيُبْسَلُ (يحرم).]. ويُعتقد أن الموقعين على هذا الإقرار، كانوا أكثر من ستمائة نائب من بين الحضور.

وأما الجلسة السادسة من المجمع، فقد عقدت في اليوم الخامس والعشرين من أكتوبر، وحضرها الإمبراطور والإمبراطورة. وبعد قراءة قرار المجمع وقانون الإيمان، أكد الإمبراطور على موافقة الجميع عليه، ثم توعد كل من يخالفه بالعقاب؛ كما رفع القسطنطينية إلى "ميتروبوليس" إكراما لكنيستها، التي اجتمع فيها المجمع المسكوني الرابع، وإكراما أيضا للشهيدة "أوفيميا". وبعد إعلان نهاية المجمع، دُعي المشاركون إلى البقاء، من أجل تصفية بعض الأمور الإدارية العالقة، ومنها:

- قضية ثيودوريطس الكورشي.
- قضية أيباس.
- قضية مركز القسطنطينية في ترتيب الكراسي الرسولية.

أما مجمع خلقدونية، فإنه لم يُقدّم جديدا في علم اللاهوت بالمعنى الصحيح؛ وإن كان القساوسة المجتمعون، قد عدوه إنجازا تاريخيا، يعود -بحسبهم- إلى أصول المسيحية التي دلت عليها الكتب المقدسة، ودلت عليها تعاليم الآباء. وبما أننا قد نبهنا فيما قبل، إلى أن النصرانية ستطغى على المسيحية شيئا فشيئا، لتحل محلها؛ فإننا نؤكد على أن مجمع خلقدونية، هو من أهم المحطات النصرانية في التاريخ. ولا أدل على ذلك من كون الدين قد أصبح مجالا سياسيا صرفا، لا يختلف في ذلك عن المجالات الأخرى. وبما أن الإمبراطور، قد أصبحت له الكلمة الأولى والأخيرة في المجامع، بإرادة تامة من رجال الدين؛ الذين قد وجدوا في السلطة الحاكمة المخلص من استبداد الخصوم الدينيين، إن دعت الضرورة؛ فإن الدين بهذه الصورة لن يبقى على أصله الرباني، ولو بالمعنى الجزئي؛ وسينقلب دينا وضعيا، من غير شك؛ وإن زُعم غير ذلك. وسنعرف -إن شاء الله- في الفصول المقبلة، مظاهر انحراف التديّن أكثر فأكثر؛ وسنبيّن مظاهر انقلاب الدين، الذي صار عبئا على الناس، بعد أن كان رحمة وهداية...

الفصل التاسع
الكر والفر بين الخلقدونيين والمونوفيزيين

مات الإمبراطور "مارسيانوس" سنة ٤٥٧م، في السادس والعشرين من يناير؛ وكان خلقدونيا. وعندما وصل خبر موته في فبراير إلى اللاخلقدونيين (الذين يقولون بطبيعة واحدة للمسيح)، انتهزوا هذه الفرصة، وخصوصا منهم "ديونيسيوس" قائد الجيش الذي كان حينها في صعيد مصر. فخرج معظم اللاخلقدونيين وعدد كبير من الرهبان، وتوجهوا إلى كنيسة "كاساريم" في مدينة الإسكندرية، وطردوا منها كهنة "بروتوريوس"، رئيس الأساقفة الخلقدوني، الذي فرضته عليهم السلطات الحاكمة؛ وأقاموا رئيس أساقفة جديد يسمى "تيموثاوس القط"، في السادس عشر من مارس ٤٥٧م.

وفي الشهر نفسه، وبينما كانت المدينة والرهبان في حالة قلق واضطراب، عاد ديونيسيوس من الصعيد؛ فأراد استعمال القوة لإخماد الثورة وإعادة الهدوء، فأمر بالقبض على رئيس الأساقفة الجديد. ولكن القبض على رئيس الأساقفة اللاخلقدوني، أجج غضب الشعب والرهبان. وفي اليوم الثامن والعشرين من مارس ٣٥٧م، اندفعت الجماهير إلى الكنيسة التي كان يقيم بها رئيس الأساقفة الخلقدوني وذبحوه. ولم يكتفوا بذلك، بل علقوا جسده في وسط مدينة الإسكندرية؛ ثم جرّوه في الشوارع وأحرقوه وذروا رماده في الهواء. ويُعتقد أن الأسقف الجديد اللاخلقدوني "تيموثاوس"، هو من كان وراء ذلك كله. وأمام هذه الثورة، اضطر الحاكم إلى استدعاء تيموثاوس ليمارس عمله كرئيس أساقفة لحزب اللاخلقدونيين.

ومع أن رئيس أساقفة الإسكندرية كان على مذهب كيرلس، ومع رفضه مذهب أوطيخا رفضا تاما؛ فإنه كان هو أيضا، يقول بالطبيعة الواحدة في الكلمة المتجسد، مع محاولته التمييز بين عنصريْ اللاهوت والناسوت. ويعتقد تيموثاوس بأن مصطلحات: جوهر، طبيعة، بروسوبون، إقنوم؛ كلها كانت تعني حقيقة واحدة ملموسة، هي شخص المسيح. ولقد كان تيموثاوس القط (اللور) يرأس حزب المونوفيزيّين، الذين ثاروا ضد بروتوريوس، بعد عودته من المنفى؛ لأنه كان مشاركا في الحكم بالمنفى على ديوسقوروس. ولقد قاد تلك الثورة العنيفة، لأنه كان يرى أن قرارات مجمع خلقدونية ورسالة البابا ليون، هرطقة شنيعة؛ لمناداتها بطبيعتين متمايزتين، فيما كان هو يقول باللاهوت والناسوت في المسيح الواحد؛ أي كان يقول بإقنوم واحد لكلمة الله المتجسد.

كان تيموثاوس اللور، متعصبا لحزبه، عاملا على نشر تعاليمه، التي تقوم على القول بطبيعة واحدة في المسيح. ولذلك، فعندما جلس على كرسي مرقس (أسقفية الإسكندرية)، فإنه دعا إلى عقد مجمع، تقرر فيه ما يأتي:

١. طرد الأساقفة الخلقدونيين من الكنائس المصرية، وتعيين أساقفة مونوفيزيين بدلا منهم.

٢. حرم مجمع خلقدونية وقراراته، وحرم رسالة البابا ليون إلى فلافيانوس.

ولما تولى الإمبراطور ليون الحكم في الشرق في السابع من فبراير سنة ٤٥٧م، وقد كان خلقدونيا؛ بعث إليه حزبا المصريين من الخلقدونيين ومن معارضيهم، كلٌّ يريد الاستعانة به على الخصوم. ولما لم يُفلح الإمبراطور في إقناع رئيس أساقفة القسطنطينية بعقد مجمع ينظر في مقررات مجمع خلقدونية، بعث إلى مختلف الكنائس يستفسرها عن أمرين: رأيها في مجمع خلقدونية، ورأيها في قانونية تنصيب تيموثاوس. فجاءت الأجوبة بإقرار مجمع خلقدونية وإعلان قانونيته، وبعدم قانونية رئاسة تيموثاوس القط لأسقفية الإسكندرية. ورغم أن الإمبراطور كان يميل إلى المصالحة، فإن تيموثاوس بإصراره على مواقفه، لم يترك له خيارا. فنُفي رئيس أساقفة الإسكندرية بعد القبض عليه، وبقي منفيا قُرابة خمس عشرة سنة؛ ثم

خُلع سرا، في نهاية عام ٤٥٩م، أو في بداية عام ٤٦٠م. وبعد خلع تيموثاوس نُصّب سالوفاكيولوس، وقد كان خلقدونيا؛ لذلك لم يقبله اللاخلقدونيون، وإن حالت أخلاقه الرفيعة، دون القيام عليه.

أما في فلسطين، فإن الأمر لم يكن يختلف كثيرا عن مصر؛ فقد كان ثيودوسيوس الراهب الفلسطيني، ممن ذهبوا إلى حضور مجمع خلقدونية في رفقة من الرهبان. وبعد منع الإمبراطور مارسيانوس لهم من البقاء في المدينة خوفا من الفوضى، يُذكر أنهم بقوا فيها متنكرين. وبعد علم ثيودوسيوس بقرارات المجمع، طفق عائدا إلى فلسطين؛ فوصل إليها قبل الوفود المشاركة في المجمع. وقد جال الراهب في ربوع البلاد مناديا ضد مجمع خلقدونية وتعاليمه؛ فوصفه بأنه مجمع الهراطقة، واتهم جيوفينال رئيس أساقفة أورشليم المشارك فيه، بالخيانة العظمى. فحدثت نتيجة لتحريضات ثيودوسيوس فتنة ومقتلة.

عندما وصل رئيس الأساقفة، وجد في انتظاره عددا من الرهبان والإكليروس والعلمانيين، يلومونه على تغيير وعده لهم بالدفاع عن القول بالطبيعة الواحدة؛ وخيروه إما بالعودة عما وافق عليه ضمن مجمع خلقدونية، وإما بالانسحاب من منصبه؛ فلم يقبل بشيء من ذلك. وهنا رام البعض قتله، ففر بحياته إلى القسطنطينية. وفي هذا الوقت اندلعت ثورة، وهاجم الرهبان والإكليروس الخلقدونيين؛ وانضم إلى المعارك رهبان الأديرة المجاورة، فحاصروا المدينة، وأحرقوا بيوتا كثيرة، وقتلوا عددا من أفراد الشعب. وفي هذه الأثناء، نصّبت جماعة الطبيعة الواحدة الراهب الثائر ثيودوسيوس رئيس أساقفة عليهم، وطردوا كل الأساقفة الذين وقعوا على قرارات مجمع خلقدونية. واستمر ثيودوسيوس في عمله سنتيْن من ٤٥١م إلى ٤٥٣م، عمت فيهما الفوضى، رغم محاولات الإصلاح.

١. الإمبراطورة إدوسيا:

كانت الإمبراطورة إدوسيا زوجة الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني، قد اعتنقت مذهب الطبيعة الواحدة؛ وبما أن عددا كبيرا من رهبان فلسطين كانوا عليه، فإنها قد خصصت كثيرا من مالها ومن جهودها لمساندتهم ضد الخلقدونيين الذين كان على رأسهم الإمبراطور الجديد مارسيانوس وزوجته بولخريا، التي هي أخت الإمبراطور ثيودوسيوس. وهكذا دب الخلاف بين إدوسيا وزوجها الإمبراطور نفسه؛ خصوصا وأن بولخريا ستصبح شريكة لها مع مارسيانوس في الحكم، بعد موت ثيودوسيوس الثاني. ونجم عن هذا الخلاف العائلي، ترك إدوسيا للقسطنطينية، وإقامتها بفلسطين؛ فكانت عونا للراهب ثيودوسيوس وحزبه.

٢. عودة جيوفينال إلى أورشليم:

عندما علم الإمبراطور مارسيانوس بالهزيمة الكبرى للخلقدونيين، من جيوفينال الذي كان قد فر إلى القسطنطينية، لم يقبل بالوضع؛ وأرسل القائد "دوروثيوس"، من أجل القضاء على الثورة، وإعادة رئيس الأساقفة إلى منصبه. وبعد معركة حامية بين الجيش الإمبراطوري والرهبان في مدينة نابلس، تمكن دوروثيوس من إنفاذ أمر الإمبراطور بإعادة جيوفينال إلى كرسيه. وقُبض على ثيودوسيوس، وأرسل إلى القسطنطينية، التي سيُسجن بها ويُعذّب. وأُطلق سراحه سنة ٤٥٧م، وما لبث أن مات بعد عدة أيام، ونقل جثمانه إلى قبرص. ومع سعي الإمبراطور مارسيانوس والإمبراطورة بولخريا والبابا ليون، إلى التقريب بين الخلقدونيين وخصومهم، بتذكير الجميع بأن مجمع خلقدونية لم يكن مخالفا لتعاليم نيقية، فإن الهدوء بدأ يعود إلى المنطقة، رغم عدم فلاح جيوفينال في جمع المختلفين حول شخصه المكروه، ورغم مواصلة إدوسيا تأجيج الصراع.

٣. ثورة أنطاكيا والقسطنطينية ضد مجمع خلقدونية:

لم تلبث أنطاكيا والقسطنطينية أن عرفتا ما عرفته من قبل مصر وفلسطين، من صراع بين القائلين بالطبيعة الواحدة ومخالفيهم. ويُلاحظ أن حزب المونوفيزيين، كان الأميل إلى العنف وسفك الدماء؛ وكأن العقائد قد تمثلت أفعالا في الواقع. ونعني من هذا أن القائلين بالطبيعة الواحدة، ضاقوا بالمخالفين لأن قولهم أضيق من قولهم.

ولقد انبرى لنشر المونوفيزية في وادي الفرات راهب من القسطنطينية اسمه "بطرس الدباغ"، لأنه كان يمارس الدباغة وهو راهب. كان بطرس هذا ينتمي إلى جماعة من الرهبان تدعى "الرهبان الذين لا ينامون"، ولم يكن بطرس على وفاق مع إخوة الدير على ما يبدو. فجاء إلى أنطاكيا مع "زينون" قائد الجيش، وقام بنشر المونوفيزية؛ بين من يقبلونها، وبين الخلقدونيين أنفسهم. فأثار نشاطه مشكلات عديدة لمارتيريوس أسقف أنطاكيا (٤٥٨-٤٧١م)، الذي اضطر إلى مغادرة المدينة وترك المنصب له. ولقد تصرف بطرس في العبادة ليُميّز بين الحزبين المتنازعين، فأضاف إلى التقديسات الثلاث (قدوس الله، قدوس القوي، قدوس الذي لا يموت) قوله: "الذي صُلب عنا.". وهذه العبارة، يراها المونوفيزيون والأبوليناريوسيون أرثوذكسية؛ بينما يراها الخلقدونيون هرطقة خلطية. وذلك لأن الخلقدونيين، يعتبرون أن الذي صلب ومات (وحاشاه)، ليس هو الآب؛ بل هو الإنسان يسوع المسيح؛ لأن الله لا يموت، وليس للموت سلطان عليه. وهذا يجعلنا نقف على ضعف الإدراك الذي يغلب على هؤلاء القائلين، الذين يعلمون ما يليق بالله وما لا يليق؛ ومع ذلك لا تتخلص لهم العقائد، وتعود في كل مرة إلى الالتباس. وبسبب كثرة مشاغبته، فقد طرد بطرس من كرسي أنطاكيا عدة مرات، إلى أن استقر له الأمر في النهاية بأمر من الملك "زينون" سنة ٤٨٢م.

لا شك أن العقيدتين: المونوفيزية والقول بالطبيعتين، كانتا موجودتيْن قبل مجمع خلقدونية ومجمع إفسس؛ لكن الصراع بينهما لم يحتدم، إلا بعد مجمع خلقدونية. ولقد كانت الإسكندرية مركزا للمونوفيزية، بينما اختصت انطاكيا بالقول بالطبيعتين. وإن الصراع بين المدرستين، لم يكن دائما بالكتابة أو عن طريق الوعظ؛ بل تعدى ذلك إلى صور أخرى من العنف، كما رأينا.

ولقد عرفنا سابقا أن الإمبراطورة بولخريا وزوجها الإمبراطور مارسيانوس، كانا خلقدونيين؛ ومارسيانوس هو من سبق وبعث إلى الكنائس بقبول قرارات مجمع خلقدونية. ولكن الإمبراطورة ماتت في سنة ٤٥٣م، وأعقبها الإمبراطور سنة ٤٥٧م؛ وبموتهما فقدت الخلقدونية نصيريْن نافذيْن. ولما تولى الإمبراطور "ليون" الحكم من سنة ٤٥٧ إلى سنة ٤٧٤م، وعلى الرغم من كونه خلقدونيا، فإنه لم يكن على دراية بالتفاصيل العقدية؛ ليُعوّض الخلقدونيين فقدهم للإمبراطورين السابقيْن. ولما مات ليون بدوره، سنة ٤٧٤م، وخلفه على الإمبراطورية الشرقية سِبطه "ليون الثاني"، ولم يبلغ بعدُ السادسة من عمره؛ فقد أشرك أباه "زينون" في الحكم. ولما مات الطفل في السنة ذاتها، وبعد أشهر، استلم الحكم زينون، الذي قام عليه البلاط في يناير من سنة ٤٧٥م؛ فخلفه على العرش "باسيليكوس"، الذي كان مونوفيزيا لا خلقدونيّا. وعمل باسيليكوس -في فترة حكمه التي لا تتجاوز العشرين شهرا- على نشر التعاليم الوحدوية، فأمر برجوع الأساقفة المونوفيزيين الذين طردهم الإمبراطور ليون الأول؛ خصوصا تيموثاوس القط، رئيس أساقفة الإسكندرية المنفي؛ والواعظ المتعصب بطرس الدباغ. ولم يتوان تيموثاوس القط عن العمل ضد الخلقدونيين، فحرض باسيليكوس على نشر الإعلان المشهور ضد الخلقدونيين؛ وعرج في طريق عودته إلى الإسكندرية على إفسس، التي عقد بها مجمعا ترأسه، من أجل النظر في الأمور الإدارية والعقدية للكنيسة. ولما وصل تيموثاوس إلى الإسكندرية، استُقبل بحفاوة، بعد غياب طويل. فانسحب سالوفاكيولوس الذي كان يشغل منصب رئيس الأساقفة هناك، وانزوى في دير، لئلا يتسبب في معركة جديدة بين الخلقدونيين واللاخلقدونيين.

٤. منشور باسيليكوس ضد مجمع خلقدونية:

عندما اغتصب باسيليكوس عرش الإمبراطورية سنة ٤٧٥م، وفي السنة ذاتها، نشر قرارا إمبراطوريا هاما؛ يشرح فيه الإيمان الصحيح بحسبه. وكان من بين ما تضمنه المنشور:

- الدعوة إلى وحدة الشعوب في المسيح، وهي مسألة سياسية كما لا يخفى.

- إقرار مجامع نيقية وإفسس الأول والثاني، مع التحذير من بعض قرارات مجمع خلقدونية.
- رفض رسالة البابا ليون "التوم"، وتحريمها في كل مكان.
- رفض تعاليم نسطوريوس.
- رفض تعاليم أوطيخا الخلطية.

ولقد حاول باسيليكوس من وراء نشر توجيهاته، الانتصار لكيرلس وديوسقوروس؛ لذلك لاقى منشوره تأييدا واسعا من قِبل المونوفيزيين في بلاد الشرق، التي كان اسم كيرلس فيها ما زال دليلا على الأرثوذكسية.

بعث باسيليكوس برسالته إلى جميع الأساقفة وطالبهم بالتوقيع عليها، كما هدد الرافضين بنفيهم وبمصادرة أموالهم. ولقد وقع على هذا المنشور ما يزيد على الخمسمائة أسقف، وعلى رأسهم -كما هو جلي- تيموثاوس القط، وبطرس الدباغ، وكذلك أناستاسيوس رئيس أساقفة أورشليم، وبولس الإفسسي؛ وامتنع أكاسيوس رئيس أساقفة القسطنطينية عن التوقيع، وزاد بمكاتبة فيليكس الثالث بابا روما في هذا الأمر، في خريف سنة ٤٧٥م، طالبا منه المساعدة على وقف الزحف المونوفيزي. وفي يناير من سنة ٤٧٦م، رد البابا فيليكس على رسالة أكاسيوس، ممتدحا لثباته على التعليم الصحيح، وعلى تمسكه برسالة ليون. وبعث البابا تبعا لذلك برسالة إلى الإمبراطور باسيليكوس طالبا منه الرجوع إلى الإيمان الصحيح، وخلع تيموثاوس القط.

ومن منطلق الواقعية، لم يلبث باسيليكوس أن أدرك أنه يصعب عليه الاستمرار في الحكم، ورئيس أساقفة القسطنطينية يعمل ضده؛ كما أدرك من جهة ثانية، أنه يصعب عليه حكم الإمبراطورية الشرقية من دون إعانة إمبراطورية الغرب وبابويتها. وهنا قام بكتابة رسالة ثانية، يُلغي فيها كل قرارات الرسالة الأولى، وأمر هذه المرة صراحة، بقبول مجمع خلقدونية. وكما هو متوقع في مثل هذه الأحوال، فإن التراجع يُفاقم الوضع، ولا يُصلحه؛ لذلك قام رئيس أساقفة القسطنطينية بإعانة الملك زينون على الاستيلاء على المدينة في أغسطس من سنة ٤٧٦م، وأُبعد باسيليكوس مع عائلته إلى المنفى، حيث مات هناك جوعا. وفي السابع عشر من ديسمبر من السنة ذاتها، أصدر زينون منشورا يُلغي كل قرارات باسيليكوس السابقة.

٥. موقف زينون العقدي:

كان من قرارات زينون الأولى، طرد الأساقفة المونوفيزيين من مناصبهم، وأمره بحلول أساقفة خلقدونيين مكانهم. فكان ممن خُلع: بطرس الدباغ وبولس الإفسسي؛ وأما تيموثاوس القط، فقد كان من نصيبه النفي؛ ولكن اعتبارا لشيخوخته ومرضه، فقد سُمح له بالبقاء في الإسكندرية، إلى أن مات في نهاية يوليو من عام ٤٧٧م. وبعد موت تيموثاوس، نُصّب "بطرس مونج" الذي انسحب أمام الأسقف المعتدل "تيموثاوس سالوفاكيولوس"، تجنبا للصراع؛ وبقي سالوفاكيولوس في منصبه إلى أن مات عام ٤٨٢م.

وعملا بنصيحة أكاسيوس رئيس أساقفة القسطنطينية، فقد بعث زينون برسالة إلى جميع الكنائس، يدعو فيها إلى الوحدة ونبذ الصراعات. وطلب الإمبراطور من الأساقفة التوقيع على رسالة الاتحاد، حتى يكون الأمر واقعيا وقابلا للتنفيذ. ومن أهم ما تضمنته رسالة الاتحاد:

- الالتزام بمجمع نيقية ومجمع إفسس الأول وحدهما، في إعادة واضحة للمسألة الكريستولوجية إلى وضع أسبق.
- الاعتراف بالابن الوحيد من جهة جمعه بين اللاهوت والناسوت. وهذا لا يعني أن هذه المسألة الجدلية، قد حُسمت؛ ولكن يُعمل فيها كل مرة بالتزام عبارة ما، من دون سواها، بحسب فهم الداعين إليها، وفهم القابلين لها فحسب.
- الإقرار بأن ابن الله، قد حُبل به من قِبل الروح القُدس ومريم العذراء "والدة الإله"؛ والإقرار بأن الابن واحد وليس اثنين.

- بقاء الثالوث ثالوثا، حتى بعد التجسد وصيرورة المتجسد واحدا من الثالوث. وهذه عبارة -كما لا يخفى- متناقضة، يراد منها التلفيق فحسب.

- وجوب اتحاد الكنائس والإمبراطورية جمعاء (الشعوب)، حول هذا المنشور؛ وترك كل ما سواه، مما سبق أن كان سببا في الانقسام والصراع. وهذه أمنية كان يُرجى من ورائها تحقيق وحدة غائبة، أدت بعكس المرجوّ إلى انقسام جديد؛ لأن فريق الرافضين للمنشور الجديد، لم يقبل عدم ذكر مجمع خلقدونية، وعدم ذكر رسالة البابا ليون؛ كما أنه (المنشور) لم يُثر مسألة القول بالطبيعة الواحدة والقول بالطبيعتيْن، صراحة؛ حتى يُحسم فيها معرفيا. وهكذا، فقد رأى كثير من الخلقدونيين، بأن المنشور مونوفيزي ينبغي رفضه. والمونوفيزيون رفضوا أيضا المنشور، لأنهم لم يروه يتبرأ من مجمع خلقدونية، أو يذكر الطبيعة الواحدة للمسيح. وهكذا يظهر أن الفريقيْن معا، لم يعد لديهما فسحة لقبول الاقتراب فيما بينهما؛ وبلغ منهما التطرف مبلغا لم يعد الواحد منهما يقبل غير نفسه. ولنلاحظ هنا أن الفريقيْن معا أيضا، لم يعودا يتحريان ما كان عليه المسيح والتلاميذ، وبقيا بدل ذلك محصوريْن زمنا ما بين مجمع نيقية ومجمع خلقدونية؛ وهو ما نسميه نحن في اصطلاحاتنا: "تاريخية الدين" المنافية لربانيته. ونعني من هذا، أن المسلمين أيضا، سيقعون في هذه التاريخية؛ وستصير لديهم دينا موازيا، من دون أن يشعروا بالانحراف. وسنعود إلى هذا الموضوع في إبانه -كما نُخبر دائما- عندما نصل إلى الزمن التشريعي المحمدي الخاص، إن شاء الله.

ولقد بلغ الأمر في الانقسام، إلى أن انقسمت جماعة المونوفيزيين على نفسها؛ ومع وجود أسقفين في الإسكندرية، بلغ سوء الحال مبلغه. وذلك لأنه بعد موت تيموثاوس سالوفاكيولوس، انتخب الخلقدونيون "يوحنا تالاي" خلفا له؛ في الوقت الذي قام فيه الأسقف الشرقي "أوثيودورس"، بتنصيب بطرس مونج، أثناء تواجده في الإسكندرية. وعندما تولى يوحنا تالاي، سارع بالتوجه إلى القسطنطينية، من أجل تثبيت نفسه لدى الإمبراطور، ولدى أكاسيوس رئيس أساقفة القسطنطينية. فلما لم يُفلح في ذلك، توجه إلى روما، مشتكيا أكاسيوس إلى بابا روما، متهما له بالمونوفيزية. أما بطرس مونج، فقد قبل رسالة الاتحاد، فثبته الإمبراطور في منصبه. وبهذا الموقف من مونج، زال الخلاف الذي كان قائما بين الإسكندرية والقسطنطينية. لكن مونج بتوقيعه مع رئيس أساقفة القسطنطينية على رسالة الوحدة (الهينوتيكون)، قد استحدث خلافا داخل كنيسة الإسكندرية ذاتها. فانفصلت عنه جماعة من المونوفيزيين، وأنشأوا حزبا جديدا يسمى حزب "الأسيفاليين"، ومعناه الحزب الذي بدون قائد. أما الرهبان فقد ثاروا ثورة عارمة، عند سماعهم بتوقيع مونج على الرسالة؛ واعتبروا ذلك خيانة لكيرلس. وهو ما دعا الإمبراطور إلى إرسال مبعوثه "كوزماس" لينظر في الأمر، فجاءه من الصحراء ثلاثون ألف راهب يظهرون رفضهم لرسالة الوحدة. فاستقبل مائتيْن منهم، شرح لهم بحضوره بطرس مونج عقيدته في المسيح، فوجدوها أرثوذكسية.

ولقد وقع رسالة الوحدة، بطرس الدباغ أيضا؛ فأعاده الإمبراطور إلى منصبه في أنطاكيا، والذي خلع منه للمرة الرابعة. ثم انضاف إلى الموقعين "أناستاس" رئيس أساقفة فلسطين، فأصبح بهذا كل أساقفة الكنائس الشرقية مع رسالة الوحدة.

أما روما، فقد رفضت رسالة الوحدة رفضا باتا؛ وبعث البابا "فيلبس" الثالث، رسائل إلى الإمبراطور زينون، وإلى رئيس أساقفة القسطنطينية، وقادة آخرين. وطلب منهم جميعا التمسك بمجمع خلقدونية، وبرسالة البابا ليون؛ بل طالب بمحكمة من أجل النظر في شأن أكاسيوس. ولكن الإمبراطور استمال شطرا من الوفد الروماني، بالهدايا أو بالتهديد. وعندما عاد الوفد إلى روما، عقد البابا مجمعا محليا في الثامن والعشرين من يوليو عام ٤٨٤م، حضره سبعة وسبعون أسقفا. وحرم أعضاء الوفد الذين وافقوا الإمبراطور، كما حرم أكاسيوس رئيس أساقفة القسطنطينية؛ فلم يقبل أكاسيوس

بهذا الحرمان، وانفصلت كنيسة القسطنطينية تبعا لذلك، عن كنيسة روما؛ انفصالا دام حوالي أربعين سنة: من ٤٨٤ إلى ٥١٩م.

وعندما مات الإمبراطور زينون سنة ٤٩١م، ترك خلفه حزبا مونوفيزيا قويا، وكنيسة شرقية تكاد تكون متحدة. ولكن كما رأينا آنفا، فإن سبب توحيد الكنائس الشرقية فيما بينها، كان هو سبب انفصال الكنائس الشرقية عن الكنائس الغربية نفسه. وعرفت الحركة المونوفيزية فترات صعبة، عند موت بعض قادتها؛ فلقد مات بطرس الدباغ رئيس أساقفة أنطاكيا سنة ٤٨٨م، ومات أكاسيوس رئيس أساقفة القسطنطينية سنة ٤٨٩م، وجاء دور بطرس مونج رئيس أساقفة الإسكندرية في سنة ٤٩١م. وعلى الرغم من هذه الخسارات، فإن الحزب المونوفيزي ظل منيعا، وفي تقدم وانتشار.

٦. الإمبراطور أناستاسيوس:

عندما مات الإمبراطور زينون، اقترحت الإمبراطورة "أريادنة" ابنة الإمبراطور ليون، "أناستاسيوس"، الموظف بالبلاط الإمبراطوري، لتولي المنصب؛ وكان قد تجاوز الستين. كان الرجل زاهدا تقيا، معينا على الخير، ونشيطا في كنيسته؛ إلى الحد الذي كان يفكر فيه بعضهم من أجل خلافة بطرس الدباغ في منصبه. وعندما تولى أناستاسيوس الحكم، ومع أنه قد استجاب لرئيس أساقفة القسطنطينية "أوفيجيبوس"، عندما دعاه إلى التمسك بمجمع خلقدونية؛ فإنه قبل القول بالطبيعة الواحدة وأصبح عاملا على نشره.

ومع انشغال الإمبراطور الجديد بالحرب مع الفرس التي لم تنته إلا في سنة ٥٠٥م، وبالإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فإنه لم يراقب عن كثب أحوال الأحزاب الدينية، فترك لها حرية في العمل. وهذا جعله يصطدم بالحزب الخلقدوني، خصوصا وأن القسطنطينية كانت تعتبر مركزا له. ولقد بدأ الخلاف بين رئيس الأساقفة "أوفيميوس"، والإمبراطور، من أول يوم لتوليه الحكم، وفور إعلانه قبول الطبيعة الواحدة. وطالب رئيس الأساقفة الإمبراطور بعقد مجمع، فاجتمع المجمع بالفعل، وأصدر الأساقفة المجتمعون قرارا بتأييد مجمع خلقدونية ورسالة ليون؛ وراسل أوفيميوس بذلك بابا روما، فاعتبر الإمبراطور ذلك إهانة له. وتحيّن الفرصة لرئيس الأساقفة، وعندما أظهر هذا الأخير رفضه للسياسة الإمبراطورية تجاه الأشوريين في الحرب، اتهمه الإمبراطور بالخيانة، وعقد مجمعا سنة ٤٩٦م، وحكم بخلعه ونفيه.

وتنقسم فترة حكم أناستاسيوس إلى مرحلتيْن متمايزتين: الأولى من ٤٩١ إلى ٥٠٥م، والثانية من ٥٠٥، إلى ٥١٨م. ولقد كانت حال مصر في المرحلة الأولى من حكم أناستاسيوس، على ما ذكرناه من تغلب حزب المونوفيزيين. أما في أنطاكيا، فكان العكس؛ إلى أن جاء بطرس الدباغ، ومن بعده خليفته "بلاديوس". وأما أورشليم، فكان رئيس أساقفتها "سالوستيوس" مونوفيزيا، وكان المونوفيزيون كثيرين هناك؛ خصوصا في دير "بطرس الإيبيري". وخلف سالوستيوس "إلياس" في سنة ٤٩٤م، وقد كان خلقدونيا معتدلا، عمل على نشر السلام بين الكنائس. وأما في القسطنطينية، فإنه لما تم خلع أوفيميوس، خلفه على كرسي المدينة "مقدونيوس"، من سنة ٤٩٦، إلى ٥١١م. ومع أن مقدونيوس وقع على رسالة الوحدة، فإنه كان خلقدونيا، وثبت ذلك بعد تنصيبه رئيس أساقفة. وبالرغم من أن القسطنطينية كانت –كما عرفنا– مركزا خلقدونيا، فإنه كان يتواجد بها حزب مونوفيزي معتبر. ويكفي أن أوطيخا، الذي علّم بطبيعة واحدة، كان رئيس دير بها. ولقد انتشرت تعاليمه من هناك إلى البلاد الأخرى. أما روما فموقفها من مجمع خلقدونية معلوم، وهي التي نصبت نفسها حارسة لقراراته ومدافعة عنه. وبعد الانفصال الذي ذكرنا أنه حدث بين روما والكنائس الشرقية بعد رسالة الوحدة، حاول أساقفة القسطنطينية إعادة العلاقات عدة مرات، ومنهم أوفيميوس ومقدونيوس، على اعتبارهما خلقدونييْن؛ لكن البابا "جِلاس" لم يوافق، واشترط على أهل القسطنطينية حذف اسم أكاسيوس من الصلوات؛ فلم يطيقوا ذلك. ومات جلاس في الحادي والعشرين من نوفمبر ٤٩٦م، وخلفه على كرسي روما "أناستاسيوس" الثاني، وقد

كان متسامحا ومتساهلا؛ ولكنه مات في التاسع عشر من نوفمبر سنة ٤٩٨م، وقبل أن يُحقق الوحدة بين الكنيستين (روما والقسطنطينية). وخلفه "سيماك"، فزادت في عهده الخلافات بين الشرق والغرب.

أما المرحلة الثانية من حكم أناستاسيوس، والتي أتت بعد فراغه من الحرب، فقد توجه فيها إلى مشاكل الكنيسة، واستدعى بعض كبار المونوفيزيين، من أجل بحث خطة نشر المذهب. فوقع اختياره على "فيلوكسينوس" و"سِفير" (ساويرس). ولا بأس من معرفتهما بقليل من التفصيل:

فيلوكسينوس:

يُظن أنه كان عبدا فارسيا يُدعى "أكسينائياس"، وقد ولد بين ٤٤٠م و٤٥٥م، في برسيا. وبدأ دراساته في مدرسة الرها، التي كان بها تياران في ذلك الوقت: أحدهما، يتبع تعاليم ثيودوريوس الموبسيوستي وديودوريوس الطرسوسي ونسطوريوس؛ والثاني، تعاليم كيرلس الإسكندري. ولقد كان فيلوكسينوس من أتباع كيرلس من جهة العقيدة، ولكنه لم يمنع نفسه من دراسة تعاليم التيار المقابل. وعندما أنهى دراسته في الرها، توجه إلى أنطاكيا، وبدأ يعلم مؤيدا العقيدة المونوفيزية ورسالة زينون للوحدة؛ فطرده من المدينة البطريرك "كالانديون". ولكن عندما رجع بطرس الدباغ في المرة الرابعة والأخيرة، وصار رئيسا لأساقفة أنطاكيا، دعا فيلوكسينوس، وأقامه أسقفا على "مابوغ"؛ وكانت هذه المدينة مركزا معتبرا في ذلك الوقت. ولم يلبث بطرس الدباغ، عندما وجد في الرجل خير معين على نشر المونوفيزية، أن دعاه إلى أبروشيته، وولاه أسقفا على أهم مدنها. فقام فيلوكسينوس بمحاربة الخلقدونية أينما وجدت، وجال في الشرق كله، يعظ ويعلم. ثم أضاف إلى رصيده بعد ذلك عدة كتب كتبها، كان أشهرها كتابه عن التجسد، وكتابه عن الثالوث. ونجح بعد كل هذا المجهود، في كسب ثقة الإمبراطور أنستاسيوس، الذي صار صديقا له. وبدعم من الإمبراطور، هاجم فيلوكسينوس فلافيانوس رئيس أساقفة أنطاكيا، ثم كتب رسالة يشرح فيها عقيدة المونوفيزية، التي اقتنع بها الإمبراطور، واستدعاه على عقبها إلى القسطنطينية؛ لكن رئيس الأساقفة مقدونيوس رفض استقباله، وثار شعب القسطنطينية عليه، ففر من المدينة هاربا ليلا. ولما عاد إلى سوريا، واصل هجومه على فلافيانوس، وطالبه هذه المرة بالتنكر لكل القائلين بالطبيعتين، ولمجمع خلقدونية؛ فوقع أسقف أنطاكيا على وثيقة بذلك. ولكنه عندما ضاق ذرعا بمضايقات فيلوكسينوس، دعا إلى عقد مجمع بصيدا، في أكتوبر من سنة ٥١٢م، للنظر في كل تلك الأمور؛ ولقد حضر هذا المجمعَ ثمانون أسقفا، مع ممثل عن الإمبراطور. وحضر أيضا إلى هذا المجمع ساويرس مع رهبانه؛ أما فيلوكسينوس، فإنه لم يحضر معه إلا عدد قليل من اللاخلقدونيين (حوالي العشرة)، فيما حضر عدد كبير من الرهبان المونوفيزيين لتأييده. فقدموا إلى المجمع رسالة من سبعة وسبعين بندا، لتفنيد مجمع خلقدونية مع رسالة ليون. ورد على هذه الاعتراضات الأساقفة الخلقدونيون مستشهدين ببعض المونوفيزيين أنفسهم، من أمثال: بطرس الدباغ، وأثناسيوس الثاني، ويوحنا الثاني؛ ممن كانوا قد وقعوا على رسالة الوحدة. فأُسقط في أيدي الرهبان المونوفيزيين، واستولت عليهم الحيرة. وغضب فيلوكسينوس من هذا الإخفاق، وطفق راجعا إلى مدينته؛ ولم يجعله إخفاقه هذا يكف عن مهاجمة فلافيانوس. فعمد إلى تأليب بعض الأساقفة عليه، وجمع حوله جماعة من متطرفي المونوفيزيين، بعثوا إلى الإمبراطور يطالبونه بخلع فلافيانوس؛ فاستجاب لهم الإمبراطور الذي لم يكن إلا صديق فيلوكسينوس. ولكن بعد موت الإمبراطور أناستاسيوس في سنة ٥١٨م، قُبض على فيلوكسينوس ونُفي؛ ثم سجن في بيت أشعلت فيه النيران وأغلقت منافذه، فمات مختنقا فيه.

ولقد كان فيلوكسينوس يقول، بأن واحدا من الثالوث هو من تألم؛ وهو الأقنوم الثاني (الرب المسيح). كما كان يرفض رفضا باتا القول بتغير إحدى الطبيعتين، بعد الاتحاد. ولقد فرق فيلوكسينوس بين اتحاد الكلمة بالأنبياء واتحادها

بجسد عيسى؛ فجعل الاتحاد الأول أدبيا خارجيا، وجعل الثاني اتحادا عضويا وعميقا. ولنلاحظ هنا كلمة "عضوي"، لنعلم أن هذا المتكلم لم يكن يعلم المعاني إلا من الحس؛ وعلى هذا فلا عبرة بكل ما نطق به.

ساويرس:

ولد ساويرس في سوزبوليس بسيديا، حوالي سنة ٣٦٥م، ونشأ وتربى في عائلة مسيحية؛ فقد كان جده أسقفا لأنطاكيا في وقت انعقاد مجمع إفسس الأول؛ وكان ممن حرموا نسطوريوس. فنشأ محبا للقراءة والدرس، وأعانه على البحث الثقافة المسيحية من حوله. ولقد توجه إلى الإسكندرية مع أخيه الأكبر، طلبا للعلم؛ فدرس هناك اللسان اليوناني واللاتيني، وتعلم علم الخطابة. ثم ذهب بعد ذلك إلى بيروت، لتعلُّم القانون.

وعندما أنهى دراسته للقانون، شعر بالرغبة في الرهبنة، فقصد دير "مايوم"، وانزوى فيه. وكان هذا الدير في ذلك الزمان، حصنا من حصون المونوفيزية المعتبرة؛ ثم أسس ساويرس ديرا من ماله الخاص بعد ذلك، لجأ إليه عدد كبير من المونوفيزيين. ومنذ سنة ٥٠٠م، بدأ في تعليم ونشر عقيدته المونوفيزية، وفي مقاومة الخلقدونية. ولقد قام ساويرس بعدة رحلات لنشر دعوته، ولذلك فقد اصطحب جماعة من رهبانه (حوالي المائتين)، إلى القسطنطينية مركز الخلقدونية ومقر الإمبراطور. ولقد حارب ساويرس الراهب "نيفاليوس"، الذي كان خلقدونيا، ثم تحول إلى المونوفيزية. وبما أن الإمبراطور أنستاسيوس كان مونوفيزيا، فقد استبقى ساويرس وجماعته ثلاث سنوات في العاصمة الخلقدونية. ولقد ألهبت العظات الحماسية لساويرس مشاعر عدد من أفراد الشعب، فانضموا إليه؛ وخصوصا منهم أعداء مقدونيوس رئيس الأساقفة. ولكن عموم الشعب ظل خلقدونيا متمسكا بمقدونيوس، وهو ما تسبب في نشوب صراعات زعزعت استقرار المدينة، ودفعت الإمبراطور نفسه إلى اتخاذ إجراءات حاسمة، كان على رأسها: إغلاق المدينة في وجه مناصري مقدونيوس، والاستعانة بالجيش من أجل خلعه. فانعقد مجمع في اليوم السادس من أغسطس سنة ٥١١م، حكم بخلع رئيس الأساقفة ونفيه، بناء على اتهامات ملفقة.

ولما كان فيلوكسينوس أسقف مابوغ مونوفيزيا متعصبا، وكان صديقا للإمبراطور، فإنه اقترح أن يتولى ساويرس رئاسة أسقفية أنطاكيا، بدلا من فلافيانوس الذي خلع ونفي إلى بترا. فكان الأمر كما رغب فيلوكسينوس، ونُصب ساويرس رئيسا لأساقفة أنطاكيا في السادس من نوفمبر ٥١٢م. ولقد كانت أنطاكيا تضم حزبين قويين أحدهما مونوفيزي والآخر خلقدوني، وكان على ساويرس كسب ثقة الجميع، من أجل تثبيت نفسه في المنصب؛ فلم يكن أمامه إلا عقد مجمع محلي في بداية سنة ٥١٣م. كان النجاح حليفه فيه، لأن المجمع أقر اقتراحاته، ورفض رسالة ليون ومجمع خلقدونية. لكن حزب الخلقدونيين بقي قويا مع ذلك، ولم يقر لساويرس بإعلان أنطاكيا مدينة مونوفيزية؛ فعُقد مجمع آخر في مدينة صور، سنة ٥١٤م، للنظر في الأمر. وكانت نتيجة المجمع هذه المرة الانقسام؛ ورفض كثير من أساقفة أشور وصور وبصرة ودمشق مقولات ساويرس، الذي لجأ إلى القوة وحرم كل معارضيه. فحدثت مذبحة عظيمة، ذهب ضحيتها عدد كبير من الرهبان؛ فزادت الهوة بين المونوفيزيين والخلقدونيين اتساعا. وكان من نتائج هذه الفتنة أن أعلن إلياس أسقف أورشليم رفضه لأسقفية ساويرس رفضا باتا، فبادله رئيس أساقفة أنطاكيا خلعا بخلع؛ فتم خلعه بالفعل في سنة ٥١٦م، واختير محله يوحنا الذي فاجأ مبعوث الإمبراطور يوم التنصيب بإعلان عقيدة القول بالطبيعة الواحدة، وبحرم ساويرس أيضا.

وعندما مات الإمبراطور أناستاسيوس في التاسع من يوليو سنة ٥١٨م، وخلفه "جوستين" (٥١٨-٥٢٧م)، بدأ هذا الأخير اضطهاداته العنيفة ضد المونوفيزيين؛ فاضطر ساويرس وفيلوكسينوس، لأن يفرا إلى الإسكندرية. وبقي ساويرس في الإسكندرية عشر سنوات، كان يمارس نشاطه فيها محليا، ويبعث برسائله التوجيهية من هناك إلى أنطاكيا.

ثم ظهر ساويرس في مدينة القسطنطينية بعد ذلك، ما بين عاميْ ٥٣١ و٥٣٦م؛ وذلك بفضل الإمبراطورة "ثيودورا" الموافقة له في العقيدة، والتي دعته إلى الإقامة في القسطنطينية، وتكفلت بحمايته ورعايته. وفي هذه الفترة، بدأ جوستين يعمل من أجل المصالحة بين الحزبين المتعارضين؛ وقام بعقد حوار بينهما، لم يُفض إلى نتيجة تُذكر.

رجع ساويرس من القسطنطينية إلى مصر سنة ٥٣٦م، وبقي فيها حتى مات بعد سنتيْن أو أكثر قليلا. ومما ينبغي أن نتناوله هنا للتمييز بين الخلقدونيين والمونوفيزيين من جهة، وللتمييز بين المونوفيزية المتطرفة والمعتدلة، مسألة "آلام المسيح" الملتبسة:

٧. مسألة آلام المسيح:

إن مسألة آلام المسيح، قد شغلت المسيحيين جميعا؛ ولكنها بالنظر إلى القائلين بالطبيعة الواحدة تعد معضلة من المعضلات. ولقد حاول ساويرس بعلمه، أن يجد مخرجا مما وقع فيه أوطيخا بتطرفه، الذي لم يفطن إلى أن عقيدته تقتضي أن يحكم بموت الله (تعالى الله). ولو أن المسيحيين عادوا إلى الأصل الذي أثبته القرآن، عندما نفى صلب المسيح وموته؛ لكانوا في غنى عن كل تلفيقاتهم. فعندما يقرر القرآن: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ} [النساء: ١٥٧]، فإنه ينزه روح الله (عيسى) عن تصرف العباد فيه؛ وهذا تنبيه إلى مرتبته (الخلافة عن الله)، التي لها التصرف في العباد (العالم). وهذا يُشبه ما قاله الله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، في قوله تعالى: {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [المائدة: ٦٧]؛ والمعنى هو أن الله الذي أنت مظهره، يعصمك من أن يصيبك ممن هم تحت حكمك (هـ) ما يكون فيه هلاكك. ولقد روى جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما)، فقال: «غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَزْوَةَ نَجْدٍ، فَلَمَّا أَدْرَكَتْهُ الْقَائِلَةُ وَهُوَ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاةِ، فَنَزَلَ تَحْتَ شَجَرَةٍ وَاسْتَظَلَّ بِهَا؛ وَعَلَّقَ سَيْفَهُ فَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الشَّجَرِ يَسْتَظِلُّونَ. وَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَعَانَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجِئْنَا، فَإِذَا أَعْرَابِيٌّ قَاعِدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ فَقَالَ: "إِنَّ هَذَا أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ فَاخْتَرَطَ سَيْفِي، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي مُخْتَرِطٌ صَلْتًا، قَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللَّهُ! فَشَامَهُ، ثُمَّ قَعَدَ؛ فَهُوَ هَذَا!"، قَالَ (الراوي): وَلَمْ يُعَاقِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ.»[١]. وقيل إن هذه الحادثة، كانت سبب نزول آية العصمة آنفة الذكر. فلو عرف الناس مرتبة الخلافة عن الله، وعرفوا أحكامها، لنزهوا أهلها عن النقائص التي تعتريهم هم وأمثالهم. وإن عدنا إلى المسيحيين، فإننا سنجد أمر صلب المسيح وقتله، قد اختلط عليهم؛ وعندما سلموا به، اضطُروا إلى أن يجدوا له مخرجا، يحفظ عليهم لاهوت المسيح وناسوته؛ غير أوطيخا وأتباعه، فإنا ذكرنا أنهم وقعوا في معضلة. وهذا بعينه هو ما سيدعو ساويرس إلى الاجتهاد في المسألة. والأسئلة التي كان على المسيحيين الإجابة عنها هي: هل تألم المسيح فعلا؟ ومن الذي تألم فيه: اللاهوت، أم الناسوت، أم هما معا؟ فإن كان الناسوت وحده هو من تألم، فهل يوجد انفصال بينه وبين اللاهوت؟ وفي هذه الحال، ما المقصود بعملية الاتحاد إذن؟ وإذا كان اللاهوت قد اشترك مع الناسوت في الآلام، فهل يمكن القول بأن اللاهوت يتألم؟ هل يمكن لله أن يشعر بالألم ويموت؟

وقبل أن نستمر في تحليل المسألة التي كنا بصددها، لا بد من مواكبة السرد التاريخي؛ حتى نبقى ضمن الزمان المناسب. وبعد أن مات الإمبراطور المونوفيزي أنستاسيوس في التاسع من يوليو ٥١٨م، خلفه في اليوم نفسه "يوسيتيوس"، الذي كان فلاحا أميا، سبق له أن انضم إلى الحرس الإمبراطوري، وصار واحدا من أمهر القادة؛ وكان قد تجاوز السبعين. ولهذا فقد اعتنى عناية خاصة بتربية ابنيْ أخته، وتعليمهما. واختار أحدهما ليكون شريكه في الحكم، وهو "سوسينيانوس". وكما عرفنا، فإن الإمبراطور أناستاسيوس قد كان مونوفيزيا، وكان يتكلم باليونانية؛ أما يوسيتيوس، فقد كان خلقدونيا،

---

[١] . متفق عليه.

ويتكلم اللاتينية. ولذلك فقد جاء الشعب أفواجا، إلى كنيسة الحكمة الإلهية، يوم ١٥ يوليو ٥١٨م، وأرغم البطريرك يوحنا، أن يعلن في الكنيسة أثناء الخدمة، بصحة المجمع المسكوني الرابع؛ كما أُرغم على أن يذكر أوفيميوس، ومقدونيوس، وليون، في قائمة الأساقفة؛ كما طُلب منه أن يحرم ساويرس، ففعل كل ذلك. وفي العشرين من يونيو، اجتمع مجمع في القسطنطينية، اشترك في أعماله أربعون أسقفا، وفحصوا طلبا قدمه رهبان المدينة، يلتمسون فيه إعادة الإكليركيين الخلقدونيين الذين خلعوا من مناصبهم. ولقد أصدر الإمبراطور قرارا، يُلزم كل الأساقفة الاعتراف بمجمع خلقدونية، وإعداد نص جديد يحل محل "الهينوتيكون" (رسالة زينون). كما أصدر الإمبراطور رسالة أخرى يُعلن فيها إقصاء الهراطقة عن وظائف الدولة والجيش.

وفي أول أغسطس من سنة ٥١٨م، كتب الإمبراطور يوسيتيوس إلى البابا "هورميسداس"، يُخبره بانتخابه إمبراطورا؛ ثم أوفد نفرا بعد شهر إلى روما، يحمّلهم رسائل منه، يطالب فيها بعودة العلاقة بين كنيستيْ روما والقسطنطينية؛ ووصل وفد الإمبراطور إلى روما في الخامس والعشرين من مارس ٥١٩م. وفي الثامن والعشرين من الشهر نفسه، وقع يوحنا رئيس أساقفة القسطنطينية، ومعه الأساقفة ورؤساء الأديرة والمبعوثون من روما، على معاهدة عودة السلام بين الكنيستين. وفي "يوم القيامة"، اشتركوا جميعا في الليترجية (طقوس العبادة)، وفي العشاء الفِصحي. ولقد بقي وفد روما في القسطنطينية إلى غاية العاشر من يونيو ٥٢٠م، من أجل مراقبة العمل بمعاهدة السلام في الأبروشيات الأخرى في الشرق.

وفي الفترة التي كان الكلام يدور بين أهل الشرق وأهل الغرب عن السلام وعودة العلاقات، وصل إلى القسطنطينية جماعة من الرهبان "السكيثيين" من رومانيا، وعلى رأسهم الراهب "يوحنا ماكسانس". وعلى ما يبدو، فإنهم كانوا يرومون إيجاد حلول عقدية، للخلافات التي كانت بين الكنيستين، وبين الحزبين: الخلقدوني والمونوفيزي. ولقد كانت المدة ما بين ٥١٩، و٥٥٣م، تشهد جهودا من مختلف التيارات، تهدف إلى الغاية ذاتها.

درس السكيثيون عقائد كيرلس وليون ومقررات مجمع خلقدونية، وعثروا على عبارة، ظنوا أنها يمكن أن تكون جسرا بين الجميع؛ وهذه العبارة هي: "واحد من الثالوث، قد تألم في الجسد."؛ وهي محيلة إلى عقيدة "تألم الإله" (Theopaschites)، في علم اللاهوت. ولقد كان السكيثيون، يعتقدون بأن الذي عاش على الأرض وأكل وشرب، ثم صلب ومات، وقام في اليوم الثالث، ليس الناسوت وحده (يسوع الناصري)؛ ولكنه واحد من الثالوث: "الله الكلمة" الذي ليس للموت سلطان عليه، والذي أصبح بسبب اتحاده بجسد بشري، خاضعا للآلام وللموت. ونحن نلاحظ هنا، أن السكيثيين، لم يكونوا استثناء من بين جل آباء الكنيسة والمعلمين؛ لأنهم حبيسو تصوراتهم "الفرقية"[١]، والتي يدورون معها في دائرة لا نهائية. وحتى نقرب المعنى، فإننا نعود إلى ما أخبر الله فيه عن نفسه سبحانه في الحديث القدسي، حيث يقول: «يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي! قَالَ يَا رَبِّ: كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي! قَالَ يَا رَبِّ: وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي! قَالَ يَا رَبِّ: كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ؛ أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي.»[٢]. وما يدل عليه الحديث القدسي، هو ذاته ما يسميه المسيحيون "تألم الإله"؛ لأن المرض والجوع والعطش، آلام، لا يخالف فيها أحد. ومع أن اللفظ واضح، في نسبة هذه

---

[١] . الفرق: مصطلح صوفي، يقابل الجمع؛ والتمييز بين المعنيين ضروري من أجل إدراك معاني الوحي، وعدم الوقوع في التناقض.

[٢] . أخرجه مسلم عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

الآلام إلى الله سبحانه؛ فإن جل المسلمين يكذّبون المعنى ويتأولون اللفظ. ونحن سنبين بإذن الله هنا، الالتباس الذي وقع فيه المسيحيون والمسلمون جميعا، وإن اختلفت النتائج عندهم. فالمسيحيّون صدّقوا جزئيا، ولكنهم أخطأوا في نسبة الموت والصلب إلى المسيح؛ والمسلمون كذّبوا وفروا إلى التنزيه المجرد؛ مع أن الحق هو غير ما يعقل الفريقان. وحتى يستبين الأمر، فلا بد أولا من التفريق بين الوجود المطلق (أحدية الحق)، الذي يسميه المسيحيون جهلا "الآب"؛ ومرتبة الحقيقة المحمدية (الكلمة). وذلك لأن الحق من المرتبة الأولى، ليست له نسبة إلى الخلق ولا للخلق نسبة إليه. وهذه المرتبة لا يُعلم منها إلا معنى إطلاقها، وتبقى هي خارج تعلّق العلم. والمرتبة الثانية، هي مرتبة الإمكان لا الوجود. ومعنى الإمكان، هو تجلي الوجود في صور مقيّدة عدمية، من جهة التعيُّنيْن العلمي والعيني معا. وعلى هذا، فإن الكلمة (الحقيقة المحمدية)، هي أول ظهور للحق، في صورة عدمية كلية. وعن هذا الظهور الأول، الذي هو فوق عالم الروح، ظهر عالم الروح، ومن بعده عالم الأجسام؛ الذي يكون عالم الطبيعة منتهى تنزله. ولكن الربانيين وعلى رأسهم محمد (الشخص) صلى الله عليه وآله وسلم، وعيسى عليه السلام، يأخذون حكم الحقيقة الأولى، بسبب مطابقتهم لها (على تفاوت) في زمن حياتهم الأرضية. ومن هذا الوجه، كان الحكم بالألوهية، من جهة الباطن، لمحمد ولعيسى ولكل خليفة من بعدهما؛ والحكم بالألوهية هنا، يعني ظهور الله بصورهم. وإذا تجلى الله في العالم السفلي، وقبله في عالم الإمكان الأصلي، فهذا يعني أنه يجري عليه حكم الصورة التي تجلى بها. ولولا هذا، ما قال سبحانه عن نفسه: مرضت، واستطعمت (جعت) واستسقيت (عطشت). وبما أن الإمكان عالم وسط بين الأعيان الثبوتية (المعلومة في العدم)، والوجود الحق، فإنه صار قابلا لظهور الخلق بصورة الحق، ولظهور الحق بصورة الخلق. وهذا هو الذي تاه فيه علماء اللاهوت المسيحي، ولم يخرج منهم واحد منه بعد. ونعني من هذا، أن من قالوا بالطبيعتيْن، فهم أرادوا التفريق بين الوجود والإمكان؛ من دون أن يعلموا. ومن قالوا بتداخل اللاهوت والناسوت أو باختلاطهما، فإنهم لم يكونوا يقصدون إلا حضرة الإمكان وحدها، عند اعتدالها بين الوجود والعدم؛ أيضا، من دون أن يعلموا. وهذا أقصى ما يمكن قوله عند القول بالطبيعة الواحدة، لأن القول بالعدم وحده، مجردا عن إمكانه، لا يستقيم، ولا يُعقل. ومن هنا نرى أن قول السكيثيين التلفيقي، لم يضف شيئا إلى الأقوال السابقة، إلا ما توهمه أصحابه من جهة الظاهر.

ورغم إصرار السكيثيين، على العبارة المذكورة آنفا، ومع موافقة الأسقف الأفريقي "فولجنس"، الذي كان منفيا في سيسيليا، لهم؛ فإن البابا هورميسداس قد أمر بطردهم من روما، وكتب إلى الكنائس، يبيّن عدم جدوى عبارتهم، وينصح بالتمسك برسالة ليون.

ولقد وجدت معاهدة الصلح بين روما والقسطنطينية مقاومة في الشرق، بسبب إفضائها إلى تنكر الكنائس إلى كل الأساقفة من سنة ٤٨٤م، والذين قد وقعوا على الهينوتيكون؛ فكادت أن تقوم ثورة في كل من أنطاكيا وأورشليم ومصر. ولكن لا الإمبراطور "يوستنيانوس"، الذي تولى الحكم في ربيع سنة ٥٢٧م، ولا جماعة السكيثيين؛ تراجعوا عن تصميمهم على إيجاد "حل عقدي" لما تعيشه الإمبراطورية من انقسام. وهكذا فقد أمر الإمبراطور بعقد مجمع للحوار بين المونوفيزيين والخلقدونيين، وذلك في سنة ٥٣٣م. وقد اتخذ الإمبراطور عبارة "واحد من الثالوث تألم في الجسد" منطلقا يعود إليه الفريقان. ومع أن المجمع لم يحسم في المسألة، إلا أن البابا يوحنا الثاني، والمجمع الخامس العام في القسطنطينية، سنة ٥٥٣م، قد قبل كلاهما العبارة المذكورة، وعدّاها عبارة أرثوذكسية. وقد أصدر البابا منشورا تبعا لذلك، جاء فيه: [فليحرم كل من ينكر بأن يسوع المسيح ابن الله، إلهنا المتجسد الذي صار إنسانا، وصُلب وهو "واحد من الثالوث المقدس في جوهره".]. ولم تكن مسألة "آلام المسيح" إلا واحدة من بين مسائل كثيرة تُفرق بين المونوفيزيين والخلقدونيين؛

بل هي واحدة من بين مسائل أخرى، ستقسم كل حزب إلى فرق متناحرة؛ كما حدث للحزب المونوفيزي في مصر، والذي اختلق مسألة جديدة انقسم مِن حولها أفراده؛ وهي: "هل كان جسد المسيح قابلا للفساد والانحلال الطبيعي"؟

٨. مسألة قبول جسد المسيح للانحلال الطبيعي:

ورغم أن هذه المسألة بدعة، وتفصيل من تفاصيل العقيدة، فقد توقف عندها المسيحيون؛ وما كان ينبغي لهم ذلك؛ إلا أنها في المعارف ذات قيمة سنتعرف عليها بالتدريج إن شاء الله. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن ساويرس الذي كان مونوفيزيا معتدلا، قد سبق إلى الإجابة عن هذا السؤال؛ ولكنه تناوله بحسب مبدأ الإلحاق العقلي. ونعني أنه عندما حكم بأن جسد المسيح المولود من العذراء (عليهما السلام)، كان جسدا طبيعيا، لا يختلف عن بقية الأجساد البشرية؛ فإنه حكم تبعا لذلك بقابليته للانحلال بعد الموت، كما تنحل كل الأجساد. ولم يقبل يوليانوس وأتباعه في الإسكندرية أن يُحكم على المسيح كما يُحكم على غيره، وتمادى إلى أن وصل المشاعر البشرية من فرح وحزن وألم... ولذلك فقد ألصق المصريون بساويرس وأتباعه صفة "فتارتولاتري"؛ أي العابدون لمن يقبل الفساد. وفي المقابل، فقد لُقِّب يوليانوس وأتباعه "أفتارتودوسيتس"؛ أي العابدون لمن لا يقبل الفساد. ولنعد إلى تفاصيل إجابة يوليانوس عن المسألة، لنجده يحكم بارتفاع ناسوت المسيح، عن مستوى الناسوت العام، بسبب اتحاده باللاهوت بعد التجسد. وهذا يجعل طبيعته -عليه السلام- غير قابلة للفساد والتحلل. ولقد نقل المعلم "ليونس البيزنطي" مقولة عن يوليانوس مفادها: "أن المسيح عندما تألم، فإنه اختار أن يتألم مع المتألمين، ولم يكن ملزما من جهة طبيعته بذلك.". ولقد قبل الإمبراطور يوستينيانوس هذا الرأي وشجعه؛ بل وأصدر قانونا رسميا إمبراطوريا إلى كل الكنائس بنشره والعمل به، ولكن لم يُنفذ هذا الأمر بسبب معاجلة الموت للإمبراطور بعد ذلك مباشرة، في سنة ٥٦٥م. ولقد رغب ساويرس في أثناء تواجده بمصر، في أن يعيد يوليانوس عن عقيدته، ولكنه لم يُفلح. وانتهى الأمر بطلب أتباع ساويرس لاستقلالهم عن كنائس أتباع يوليانوس. ولقد بلغ من انتشار اليوليانوسية في مصر السفلى، أن وصل عدد فرقهم التفصيلية، من متطرفي المونوفيزيين، عشرين فرقة؛ لكل منها عقيدتها الخاصة. وقبل أن نذكر بعض نماذج هؤلاء، لا بد من أن نذكر بوضوح أن مقولة يوليانوس التي بهر بها الناس، هي مقولة تلفيقية؛ لا تستند على أساس متين، وإن كنا -نحن- سنبيّن مستندها غير المعلوم له ولأتباعه، بفضل الله.

ولقد كان من الفرق اليوليانوسية:

- أتباع قيانوس: الذي كان رئيس أساقفة لليوليانوسيين في مصر، في مقابل ثيودوسيوس الذي كان رئيس أساقفة الساويرسيين؛ لأن مصر كانت مزدوجة القيادة آنذاك. وهذه الجماعة قالت بعدم مخلوقية جسد المسيح.
- جماعة التغيّر الكلي: وهي تعلّم بأن الجسد الذي صار مسكنا للوغوس، هو من اللوغوس نفسه؛ وليس جسدا كسائر الأجساد.
- جماعة السمائيين: وهؤلاء جعلوا جسد المسيح من جهة مخالفا للجوهر الإلهي، ومن جهة أخرى مخالفا للجوهر البشري.

وأما كلامنا نحن في المسألة، فهو أن عيسى عليه السلام كان ذا جسد متروحن؛ أي كان ذا جسد له صفة الروحانية. وغلبة الروحانية عليه، هي ما منع أن ينفعل للصلب أو للقتل؛ فأخبر الله عنه بقوله تعالى: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ} [النساء: ١٥٧]. ومعنى التشبيه هنا، هو طغيان الروح العيسوي في الحكم على الجسد، وإن بقيت الصورة. ومن كان على هذه الحقيقة، لا يُقتل عن طريق تصرف العباد المعهود باستعمال السيف أو الرصاص؛ ولكن يموت بإماتة الله له، عندما يشاء سبحانه ذلك. وهذا التروحن، كما له آثار أثناء حياة الجسد، بحيث يمشي صاحبه على الماء ويطير في الهواء، ويخترق الجدران؛ فكذلك له آثار بعد الموت، فلا يتحلل جسد صاحبه، وإن بقي في التراب دهرا. وهذا هو السبب الذي جعل أجساد الأنبياء والأولياء تبقى على حالها في قبورها؛ إلى أن تقوم يوم البعث ملبية

لدعاء ربها. وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، عن هذه الحقيقة في قوله: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ.»[1]. وهذا يعني أن الجسد المتروحن، قد انتقل إلى طبيعته الأخروية، وهو بعدُ في الدنيا؛ على اختلاف بسيط بين هذا الجسد والنشأة الثانية، من جهة الصورة. وذلك لأن الجسد المتروحن يبقى على صورته التي قُبض عليها؛ فيختلف الأمر فيها بين الشاب والشيخ؛ وأما النشأة الأخروية فتكون في الجنة على هيئة الاعتدال الذي بين الشباب والكهولة، وتكون عامة.

٩. مسألة علم وجهل المسيح:

لم تكن هذه المسألة جديدة، وإنما أعيدت إثارتها في زمان الانقسام، على يدي ساويرس ويوليانوس. ولقد ذكر أحد أتباع ساويرس –وهو الشماس ثيميستيوس– أن مسألة تألُّم المسيح وجوعه وعطشه، تفضي إلى جهله لبعض الأمور أيضا. ولقد رفض هذا التعليم تيموثاوس رئيس أساقفة الإسكندرية، وغيره من المونوفيزيين ومن الخلقدونيين أيضا. وهذا جعل ثيميستيوس يُنشئ جماعة خاصة به، هي جماعة "الأغنيتيين". ومسألة الجهل هي كغيرها من السوء الذي يلحق العباد، بسبب أصلهم العدمي. وقد دل على هذا الأصل القرآن الكريم، في قوله تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ} [الأعراف: ١٨٨]. وهذا يعني أن العبد (محمد أو عيسى أو غيرهما) في أصله فاقد لجميع الصفات الوجودية التي لله؛ والتي منها الحياة والعلم والقدرة والإرادة وغيرها... وما يظهر عليه منها، فإنما هو من فضل الله وجوده، على قدر استعداده. وإن من يُعظم عبدا من العباد، رسولا وغيره، ويأخذه تعظيمه له، إلى تنزيهه عن صفاته العدمية الأصلية؛ فإنما يُنبئ عن جهله، وحاجته لتلقي العلم على يد من آتاه الله العلم. ولو كان المسيحيون على علم صحيح، لميّزوا بين صفات المسيح العدمية، وصفات الله الوجودية. ولكن مع هذا، فإن هذه المسألة تحتاج إلى تفصيل أكثر، لا نرى داعيا له هنا؛ ومن دونه تبقى ملتبسة، وقد تؤدي إلى سوء الأدب مع العباد الربانيين؛ وهذا أمر وخامة ضرره عظيمة.

---

[1] . أخرجه أبو داود عن أوس بن أوس رضي الله عنه.

الفصل العاشر

الكنيسة الفارسية ومسيحيّو العرب

١. الكنيسة الفارسية:

لقد عرفنا كنائس مصر وأنطاكيا والقسطنطينية وروما، ولنتعرف الآن بقليل من التفاصيل على الكنيسة الفارسية؛ حتى تكتمل لدينا الصورة. فلقد كانت الرها مركزا مسيحيا، منذ بداية القرن الثالث؛ وعرفت نشاطا معتبرا مع رجل مثقف اسمه "برديصان" (توفي عام ٢٢٢م)؛ لكن هذا النشاط لم يبرز إلا في القرن الرابع. وإلى أواسط هذا القرن، ينتمي عالم من علماء الكتاب المقدس، هو "أرساليوس" الحمصي، الذي درس أول الأمر في الرها. وعلى غرار برديصان، فقد كان ثنائي الثقافة، وكان يتقن اليونانية والسريانية؛ ولكنه بخلاف برديصان، كان يكتب باليونانية وحدها. وأما الأشهر (وقد كان معاصرا لأرساليوس)، فهو "أفرام"، الذي وفد إلى الرها في سنة ٣٦٣م، لاجئا؛ حيث أمضى العقد الأخير من عمره.

والأرجح أن أفرام علّم في مدرسة دينية في بلده الأصلي نصيبين، ثم واصل نشاطه التعليمي بعد ذلك في الرها. ولقد جمع أفرام حوله تلاميذ، على غرار ما كان يحدث في أنطاكيا. ولقد كانت الرها تحوي عدة مدارس إلى جانب المدرسة الفارسية، في بداية القرن الخامس، منها مدرسة الأرمن ومدرسة السريان. ولقد نسبت المدرسة إلى الفرس، اعتبارا للتلاميذ الذين كانوا يأتون من وراء الحدود، من الإمبراطورية الساسانية؛ ومنهم بالأخص: "فيلوكسينوس" (مطران منبج لاحقا للسريان الأرثوذكس).

وفي أواخر العقد الثالث من القرن الخامس، ذاع صيت المدرسة الفارسية بنشرها أعمال ثيودوريوس الموبسيوستي، التي كان شطر منها قد تُرجم إلى السريانية في المدرسة ذاتها. وهكذا ارتبطت المدرسة الفارسية بالمدرسة الأنطاكية في الكريستولوجيا والتفسير. وكان يحدث هذا تحديدا، في الوقت الذي كان الاستقطاب في المواقف يشتد بين مدرستيْ الإسكندرية وأنطاكيا. وبالنتيجة، فإن المدرسة الفارسية صار يُنظر إليها من قِبل أتباع كيرلس (الذين كان منهم ربولا مطران الرها من ٤١١ إلى ٤٣٥م)، على أنها مرتع للنسطورية. وقد استمر هذا الصيت، عقب مجمع خلقدونية؛ ثم كان أن تلقى "قرة" مطران الرها، أمرا من الإمبراطور زينون بإغلاق مدرسة الرها سنة ٤٨٩م. ولقد كان مدير المدرسة قبل غلقها لمدة، الشاعر السرياني "نرساي"؛ الذي بقيت مدائحه ماثلة إلى الآن. ولما وجد نرساي أن العداء أصبح معلَنا للكريستولوجيا الأنطاكية، قرر أن يغادر الرها نهائيا، حوالي سنة ٤٧١م؛ وأن يجتاز الحدود إلى نصيبين، التي كانت بيئتها اللاهوتية أكثر انفتاحا على مذهبه. وهكذا، سيصبح نرساي، بعد أن تم له الاستقرار في نصيبين، مديرا لمدرستها سنة ٤٩٦م.

ولم يكن جميع تلاميذ مدرسة الرها ملتزمين بالكريستولوجيا الأنطاكية (القول بالطبيعتين)، فلقد أصبح منهم متحمسون للمونوفيزية المناوئة؛ وكان من أبرز هؤلاء المؤلف السرياني المشهور "فيلوكسينوس" المنبجي، الذي كان إلى جانب ساويرس الأنطاكي (الذي كتب باليونانية)، أهم لاهوتي في الكنيسة السريانية الأرثوذكسية، في أواخر العصر القديم. وكان أيضا ممن تمردوا على تعاليم المدرسة، الشاعر السرياني الأرثوذكسي "يعقوب السروجي"؛ الذي نظم العديد من المدائح الشعرية المجازية، المتناولة لمواضيع الكتاب المقدس. وبما أن يعقوب السروجي كان متسامحا، ولم يستعمل العبارات السريانية التقليدية في التعبير عن إيمانه؛ فإنه استطاع بذلك أن يوصل تأثير التفسير الثيودوروسي إلى المعلِّقين السريان الأرثوذكس، فيما بعد.

وبما أن الاهتمام انصب من مدرسة الرها، على التراث الكريستولوجي، فقد أُهمل في مصادرها الأصل السرياني؛ الذي من أبرز سماته استعمال الشعر، بصفته وسيلة لنقل علم اللاهوت والتعليم الديني. ويُعتبر أفرام النموذج الرئيس لذلك، وهو من قارب الخطاب اللاهوتي عن طريق المفارقة والمجاز والرمز (لفظ رازا في السريانية يعني أيضا السر). وقد كان أفرام يركز كثيرا على العقيدة السليمة، من دون أن يحدد تعريفات للإيمان، وهذا أمر يُحسب له؛ ويجعل الناظر يميّز سعة أفقه بالمقارنة إلى غيره. ولقد كان أفرام يرى أن التعريفات تقيّد شيئا، هو غير قابل للتحديد في أصله؛ ونحن معه في هذا مبدئيا فحسب. وذلك، لأن الإيمان لا بد له من إطار عام يحده، ويكون مشتركا بين من هم أعلى في سلّمه، ومن هم أدنى. ولو أن المسيحيين في الكنائس الأخرى قللوا من عملية تقنين الإيمان، لكانوا على حال أفضل من غير شك...

وإن أهم ما يُمكن قوله عن مدرسة الرها، هو دمجها بين العلم اللاهوتي اليوناني، والتراث السرياني المحلي؛ مؤسِّسة بذلك لكثير مما سيلحق من التراث السرياني، داخل الإمبراطورية الرومانية (من خلال بديلتها نصيبين)، وداخل الإمبراطورية الساسانية أيضا.

صارت الرها تغيب في النسيان، في الوقت الذي صارت نصيبين تصعد وتتألق. ويُحتمل أن موظفي مدرسة الرها الباقين، قد التحقوا بنرساي في مدرسة نصيبين، التي كانت تقع على الحدود تماما في الإمبراطورية الساسانية. لاقى نرساي ترحيبا من طرف برصوما ميتروبوليت نصيبين، الذي كان من قدماء المدرسة الفارسية في الرها. وبعد وصوله بفترة، عمل نرساي على إحياء مدرسة كانت قائمة؛ وهي التي صارت فيما بعد تخلف المدرسة الفارسية في الرها.

كان نرساي "رَبَّان" (معناه بالسرياني سيدنا أو معلمنا)، متقدما في العمر، عندما أُقرت قوانين المدرسة في سنة ٤٩٦م. وقد اعتنت القوانين (الجديدة) بمنصب "الرّابَيْتا"، وهو المشرف؛ والذي كانت له صلاحيات واسعة، وكان يُنتخب كل سنة. لم يوصف نرساي في الفقرات الافتتاحية بكونه ربانا (مديرا)، ولكن وُصف أحيانا بال "مفشقنا" (المفسر)، إشارة إلى مهمته التعليمية. وفي ترتيب أدنى من الناحية التعليمية، يأتي "المقريانا" والمهجيانا"؛ اللذان كانا يعلمان القراءة والنطق الصحيح للنصوص. ولعل بدايات التقاليد النحوية السريانية اللاحقة، قد بدأت في المدارس اللاهوتية، كمدرسة نصيبين. وأما مقدمة القوانين، التي أضيفت في سنة ٦٠٢م؛ فقد أتت على ذكر "بادوقا" ضمن الهيئة التعليمية، من دون ضبط للمعنى اللغوي للكلمة أو للوظيفة المشار إليها بها. وتؤكد القوانين على انضباط التلاميذ في المدرسة، إلى الحد الذي كان عليهم معه، أن يُبادروا فور وصولهم، إلى ملاقاة الرابيتا؛ مع عدم السماح لهم بالتغيب عن الدروس، إلا في حالات استثنائية. ولقد كان عليهم أن يخضعوا لنظام داخلي للمدرسة، وأن يكون نومهم واستيقاظهم بحسب مواعيد مضبوطة. كما كان يُشترط على التلميذ عدم الزواج، وإذا مرض أحدهم، فإن زملاءه كان عليهم تمريضه. ولقد كان هذا في ذلك الزمن، نظاما داخليا متقدما؛ ما نراه في زماننا، هو صورة متطورة منه فحسب.

أما المقررات التعليمية، فيبدو أنها كانت متعلقة بالتحليل النحوي، وبالقراءة الليترجية، بالإضافة إلى التفسير الذي كان يحظى بعناية خاصة؛ خصوصا بعد تبسيط أعمال ثيودوريوس على يد إبراهيم الربان. وبحسب كتابات عدد من خريجي المدرسة، في القرن السادس، فإنها (المقررات) قد طورت نوعا جديدا من أدب التفسير، سُمي "علاتا" (العلل)؛ كان الغرض منه تقديم تعليلات للمسألة المتناولة. ومن أول المؤلفات في هذا الصنف، كتاب "قورش" الرهوي، وعنوانه: "علل الأعياد الربيّة". ومن الجائز أيضا أن منهجية جديدة في النقد الأدبي، قد صارت تُستعمل في دوائر العلماء السريان، من خلال المدرسة. ففي العالم اليوناني، إبان القرنيْن الخامس والسادس، كان العلماء قد طوروا مجموعة من الأسئلة النقدية، التي كان ينبغي لأي نص مرجعيّ أن يستجيب لها؛ وتوجد هذه الأسئلة في عدد من كتب المؤلفين السريان الذين درسوا في المدرسة.

كان تأثير مدرسة نصيبين -لا سيما في القرن السادس- كبيرا، داخل كنيسة المشرق قبل غيرها. فقد أصبح كثير من تلاميذها أساقفة، وكان بعض أهم كُتّاب العصر؛ ينتسبون إليها إما بالتلمذة وإما بالأستاذية. وكان من أشهر أساتذتها الجاثليق "آبا"، الذي توفي سنة ٥٥٢م؛ والذي كان قد اعتنق المسيحية شابا، بعد تركه للزردشتية. ثم جال بعد ذلك في الإمبراطورية الرومانية، وتعلم اليونانية في الرها؛ وزار فلسطين ومصر والقسطنطينية. ولما عاد إلى الإمبراطورية الفارسية، علّم مدة في مدرسة نصيبين، ثم انتُخب جاثليقا سنة ٥٤١م. ولقد ذاعت شهرة آبا، سيما معرفته بالكتاب المقدس، في الإمبراطورية الرومانية؛ حتى لقد أتى على ذكره بالاسم، المؤلف اليوناني "كوزماس إنديكوبليستس"، الذي كان قد التقاه في الإسكندرية؛ ووصفه بأنه الرجل الأكثر علما وتقى: "باتريكيوس" (وهي الترجمة اليونانية للاسم آبا).

ولقد حصل لقاء تاريخي آخر في القسطنطينية حوالي منتصف القرن السادس- بين "بولس" الفارسي، وهو من تلاميذ المدرسة السابقين، و"يونيليوس" الأفريقي. ولقد كتب بولس مقدمة للدراسات الكتابية، كان من تأثيرها على يونيليوس، أنه استعملها منطلقا لمقدمته الخاصة (باليونانية)، والتي عنوانها "في أقسام القانون الإلهي". وهكذا قُدّر لكتاب بولس، أن يؤثر تأثيرا بالغا وغير مباشر، في الطريقة التي بات يُدرّس بها الكتاب المقدس، في أوروبا الغربية خلال العصر الوسيط.

ولقد وصلت الشهرة الأكاديمية العالية لمدرسة نصيبين، إلى كاتب لاتيني آخر من كُتّاب القرن السادس أيضا، هو "كاسيودوروس"؛ وألهمته أن يضع خططا لإنشاء مدرسة على غرارها، في جنوبيّ إيطاليا. ففي "الفيفاريوم" -كما كانت تسمى- أنتج كاسيودوروس وآخرون، عددا من الأعمال التي اعتُبرت كتبا دراسية أساسية على مدى قرون.

ولقد تلقى كثير من المؤلفين السريان الكبار، تعليمهم في القرنيْن السادس والسابع، في مدرسة نصيبين. وكان من هؤلاء المؤلفين: "إبراهيم الكشكري" (مؤسس دير عظيم في جبل إزلا)، و"باباي الكبير" (توفي سنة ٦٢٨م)، والذي هو واضع "كتاب الوحدة"، المعدود من أهم الأعمال الكريستولوجية في كنيسة المشرق. وبقيت إلى الآن صلة واحدة كبيرة تربط المتأخرين بمدرسة نصيبين، هي مخطوط من الأناجيل، كتب في المدرسة سنة ٦١٥م (موجود في المكتبة البريطانية).

ومما تنبغي الإشارة إليه هنا، هو أن مدرسة نصيبين لم تكن المدرسة اللاهوتية الوحيدة في الإمبراطورية الفارسية؛ فمن المعروف أنه كانت هناك مدارس أخرى غيرها، لم تصل عنها معلومات كافية. من تلك المدارس: مدرسة قطيسفون، عاصمة الشاهات الساسانيين الشتوية، ومقر جاثليق كنيسة المشرق في ذلك الوقت؛ ومدرسة بيت قطراية (الجانب الغربي من الخليج)، وقد خرّجت عددا من كبار الكتاب السريان في آخر القرن السابع. ومن هؤلاء المتصوف الكبير "إسحاق النينوي" (إسحاق السرياني)، الذي تُرجمت كتاباته إلى لغات عديدة؛ والذي ما يزال تأثيره ملموسا إلى اليوم.

كانت هذه المدارس اللاهوتية، سمة مميزة للكنيسة الشرقية، في العصر القديم المتأخر؛ وكان الأثر الثقافي لها على هذه الكنيسة مهم جدا. وأما في الكنيسة السريانية الأرثوذكسية، فيظهر أن هذا الأثر قد تركز بالدرجة الأولى على الأديرة، لا على مدارس الكنائس.

وأما حركة الترجمة في الرها ونصيبين، من القرن الخامس إلى السابع، فقد شملت عددا من الأعمال الدينية والدنيوية. ومع أنه من غير الثابت، أن الطب والفلسفة كانا مما يُدرَّس في المدرستين، فإن الأمر قد بدأ بالتأكيد بالسريانية، مع القرن السادس. والدليل على ذلك، هو وجود أول الشروح والترجمات السريانية في هذين المجالين، وعلى الرأس منهما ما يتعلق بالخصوص بـ "أرسطو" و"جالينوس". وذلك لأن أعمال أرسطو في المنطق، المعروفة بـ "الأورغنون"، مع مقدمة "بورفوريوس لها، والمعروفة بـ "الإيساغوجي"، كانت جزءا رئيسا من التعليم العالي في كل مكان من الإمبراطورية الرومانية وأوائل الإمبراطورية البيزنطية. وبفضل هذا المنهاج التعليمي المشترك، تمكّن الغرب اللاتيني الوسيط، والشرق اليوناني، والمشرق

السرياني والعربي، من الانطلاق من أرضية فلسفية مشتركة، ومن ممارسة فكرية بطريقة شبه موحدة. وهذا يعني أن رجلا مثل "بيدي" (٧٣٥م) في إنكلترا الشمالية –وإن كان لاتينيّ اللسان– كان على علم بالنصوص اليونانية، التي كان يطلع عليها في بلاد ما بين النهرين بالسريانية، رجل اسمه جرجس (٧٢٤م)، أسقف القبائل العربية وتلميذ يعقوب الرهاوي. وهذا أمر، لو نُظر إليه بعين عصرنا، لاعتُبر إنجازا ضخما لا يُطال...

٢. المسيحيون العرب:

لقد ساهم المسيحيون العرب، على مدى القرون الثلاثة السابقة على الإسلام، في تطوير المسيحية؛ في بلاد ما بين النهرين وفي بلاد الشام وفي شبه الجزيرة العربية. ولم تتوقف مساهماتهم مع الإسلام، بل استمرت إلى ما بعده، وبموازاته؛ كما سنرى في حينه.

وقد شارك في الجدل المسيحي المعروف في وقته، بعض الأساقفة العرب، الذين كان أكثرهم من بلاد الشام؛ وحضروا المجامع المسكونية في نيقية وإفسس وخلقدونية. ولكنّ كونهم إما مواطنين رومانيين، وإما أحلافا للرومان، قد غلب على نسبتهم العربية وغطى عليها؛ خصوصا وأنهم كانوا يتسمَّوْن بأسماء يونانية أو أسماء رومانية، ذات أصل في الكتاب المقدس. وقد برزت من بين العرب، بعض الوجوه التي حاربت من أجل الأرثوذكسية، كموسى أسقف الملكة ماوية الخلقدونية، من القرن الرابع، والذي وقف في وجه الإمبراطور الأريوسي "فالنس"؛ وكـ "بطرس"، أسقف العرب الأحلاف في وادي الأردن، من القرن الخامس، والذي كان له أثر في المفاوضات مع نسطوريوس في مجمع إفسس؛ كما حضر أساقفة عرب آخرون مجمعيْ إفسس وخلقدونية. وظهر في أوائل القرن السادس، إلياس بطريرك القدس، الذي عارض الإمبراطور المونوفيزي أناستاسيوس، ونُفي من أجل ذلك إلى أيلة (جنوب الأردن).

ولقد كان للعرب أيضا قديسون في تلك الفترة، تحتفل الكنيسة الجامعة العالمية (الكاثوليكية) بأعيادهم؛ وأشهرهم "كوسماس" و"دميانوس"، اللذان استُشهدا. ولم يكن استشهاد هذين الرجليْن السبب المباشر في اقتران الاستشهاد بالعرب؛ بل كان السبب الأول استشهاد عرب مدينة نجران، الذي وقع في سنة ٥٢٠م. فلقد جعل استشهادهم العرب حاضرين في الخريطة الكنسية المسيحية، خصوصا وأنه حدث في فترة ما بعد سلام الكنيسة عام ٣١١م؛ أي بعد فترة الاضطهادات المعروفة. وزاد من قيمة استشهاد أهل نجران، أنه كان جماعيا، يبلغ عدد الضحايا فيه الثلاثمائة؛ منهم مائة امرأة. ولقد حفظت الوثائق السريانية إلى جانب عددهم أسماءهم أيضا؛ وقد اعترفت بقداستهم الكنيسة الجامعة العالمية. وقد اختُصّ من بينهم بالوجاهة اثنان، هما: "الحارث" سيد المدينة، و"رهم"؛ وهي امرأة من أبرز نساء نجران.

وعلى إثر الاستشهاد الجماعي، صارت نجران مدينة عربية مقدسة؛ وصارت شريكة للمدن المقدسة الأخرى في المشرق كأكسوم، وأبو مينا، والرها، وإيتشمايزين؛ في الحبشة، وبلاد الأقباط، وبلاد السريان في الشرق الأدنى، وبلاد الأرمن. وقد أصبحت مدينة نجران محجا، في شبه الجزيرة العربية؛ كما عُدّت من مآثر العرب العمرانية.

وقد ساهم المسيحيون العرب في بلورة الثقافة العربية في فترة ما قبل الإسلام عموما، وفيما يتعلق بأحوال المسيحية المباشرة بصفة خاصة. ولقد كانت القبائل العربية التي طورت الشعر العربي، في نجد وشماليّ شرق شبه الجزيرة العربية، كربيعة وبكر وتغلب وعبد قيس وتميم، هي ذاتها التي انتشرت فيها المسيحية (قبل الإسلام). ولقد كان شعر الشعراء في ذلك الوقت، يرشح بمفاهيم ومعان كتابية؛ وإن عسُر القطع بمسيحية بعض الشعراء في أنفسهم. ولقد كان السبب في ذلك كما نعلم جميعا، تحرر العرب، وعدم خضوعهم لنمط مخصوص في العقيدة والعيش. وذلك لأن بيئة الشرك العامة، وبيئة الصحراء، تعطيان وجود خليط غير متجانس، يختلف عن المجتمعات الكنسيَّة التي نشأت في العواصم الإقليمية في الإمبراطورية الرومانية.

ويُذكر هنا أن أول ترجمة للإنجيل إلى العربية الفصحى، كانت في سنة ٦٤٣م؛ بمساعي البطريك يوحنا الثاني الأنطاكي. ويُقال إنها كانت استجابة لرغبة عمير بن سعد بن أبي وقاص الأنصاري، أمير الجزيرة؛ ولكن هذه الترجمة الأولى مفقودة.

لقد مررنا في هذا الجزء الثاني من الكتاب بمرحلتيْن أولييْن في الدين، وهما المرحلة الموسوية والمرحلة العيسوية، بحسب زمنهما التشريعي؛ كما بيّنّا في هذا الجزء. وتناولنا العقائد بشيء من التفصيل، لدى الموسويين ولدى المسيحيين، بحسب المُستطاع. وتركنا العالم بعد الاختلاف العقدي الكريستولوجي، أحوج ما يكون إلى إعادة أمور الدين إلى نصابها؛ وإلى تكميلها، كما سنرى.

وفي الجزء الثالث -بإذن الله- ومن غير تماطل، سنعرف المرحلة الخاتمة للدين، والتي هي الإسلام المحمدي. هذه المرحلة هي الغاية، وهي التي ينبغي أن تجيب عن تساؤلات الكتابيّين السابقين، يهودا ونصارى؛ بأوضح ما يكون الجواب، وبنور ساطع ماحق لكل الظلمات. ونعني من هذا، أن يستغني أهل الدين به عن الفلسفة، التي يمم شطرها القاصرون عن استمداد النور، ظنا منهم أنها تروي غُلّتهم، وتشفي علّتهم...

﴿ ويليه الجزء الثالث بإذن الله ﴾